الإنسان روح لا جسد

بحث في العلم الروحي الحديث

تأليف

الدكتور رءوف عبيد

أستاذ بكلية الحقوق

جامعة عين شمس

طبعة ثانية

مزيدة زيادات كبرى

تقديم روح أمير الشعراء أحمد شوقي

الجزء الثاني

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربي

اهداءات ٢٠٠١
ا.د. محمد دياب
جراح بالمستشفى الملكي المصري

صورة الغلاف

جنة عدن من خيال رسام

— فهل هى حقيقة أم خيال ؟
— وهل هى فى الأرض أم فى الأثير ؟
— وهل يعود إليها أحفاد آدم أم لا يعودون ؟
— وإلى أين الركب يسير ؟

مطبعة نهضة مصر بالفجالة

الإنسان روح لا جسد

بحث في العلم الروحي الحديث

تأليف

الدكتور رءوف عبيد

أستاذ بكلية الحقوق

جامعة عين شمس

طبعة ثانية

مزيدة زيادات كبرى

تقديم روح أمير الشعراء أحمد شوقي

الجزء الثاني

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربي

القـــاهرة

١٩٦٦

مطبعة نهضة مصر بالفجالة



أحمد شوقى

(١٨٧٠ — ١٩٣٢)

من روح أمير الشعراء : درة جديدة

« تحية وتأييد لكتاب الإنسان روح لا جسد »[١]

الدنيا الخؤون

قل للألى يتربّحـــون[٢] لينعموا ويقوّمون[٣] رياشهم[٤] ليكرّموا

مهلاً فمـــا المتعُ الجموحُ[٥] بمقتنىً إن أفلتت فزمامها لا يُحكَمُ

ودُنَا الرغيبة قلبٌ تعصى الهوى وبطبعها الإعراضُ حين تُقيَّمُ

فعلامَ وُسعَةُ[٦] ما يُرام بحيِّها[٧] وهى الخؤون وبالتنكر تُوسَمُ[٨]

---

(١) العنوان والشروح كلها من عند الروح فيما خلا شروح قليلة جداً أضيفت من القاموس .
(٢) يطلبون الأرباح . (٣ ، ٤) يجعلون لثيابهم الفاخرة قيمة . (٥) المستعصية .
(٦) اتساع . (٧) بأرضها . (٨) تميز .

والسامُ[١] المنساقُ فى أذيالهـــا ... يمشى كما يمشى العَيِىّ[٢] المرغَمُ

يا بئسَ ما يُربِى على أطيافهـــا ... من شاهقات الأمنيات ويرسمُ

فالرغدُ ظِلٌّ فى تواجُدِ من سَعَى ... وغَدَاةَ رَحْلٍ[٣] يستحيل[٤] ويُحسَمُ[٥]

وذُرَى المطَامِعِ والثَرَاء فَضَالةٌ[٦] ... مهما ترنّم بالمـــديح متيمُ

مَنْ يستهيم بغضِّها[٧] متدلِّهـاً ... ببريقها ويظنُّهُ لا يُحجَـــمُ[٨]

فَعلى المَشُوق[٩] تدور دائرةُ النوى[١٠] ... ليرى الروائع بائداً يتهـــدّمُ

ومَنْ ارتضى حَرَماً[١١] يُشاد بأرضهِ ... فغداً يشطُّ[١٢] به المزار ويَنْـدم[١٣]

فاسمع ووازن فى هوادة[١٤] من وَعَى ... نُصحَ الأمين وما عساه يقـــدّمُ

«المرء روح وجسد» ***

واقـــرأ كتاباً نضَّدته[١٥] مكانة[١٦] ... ليفُضَّ[١٧] مُلغز[١٨] خافياتٍ تعظم[١٩]

صَرحٌ ترصع بالبيان وما حَوَى ... إلا الحقيقةَ من رصينٍ[٢٠] يُفحِمُ[٢١]

وهو انتفاضـــة باحث متضلع ... تخـــذ الوثائق للمجلد تَرْقُمُ[٢٢]

---

(١) تغير لونه من الهزال . (٢) المتعب . (٣) الرحيل . (٤) يصير محالا .

(٥) ينقطع : معنى البيت أن الرغد وهم فى حياة من سعى إليه وغداة الرحيل يصير الوهم محالا وينقطع أمره .

(٦) نفاية . (٧) بناضرها . (٨) يكف . (٩) العاشق .

(١٠) التباعد بالرحيل . (١١) شيئاً يحميه ويدافع عنه . (١٢) يبعد .

(١٣) معنى البيت : من يقتنى شيئا فى العالم فغداً يبعد عن الدنيا الزائلة ويندم .

(١٤) رفق ولين . (١٥) جمعته . (١٦) منزلة سامية .

(١٧) لينهى . (١٨) الملتبس من الكلام .

(١٩) أى عالم الروح بأسراره الخافية العظيمة . (٢٠) متزن .

(٢١) يسكت بالحجة وبالبرهان . (٢٢) تضع النقط والحروف على الكلمات .

رَصَدَ اليقين عن الحياةَ وكُنْهِها[١] وَلْنِعْمَ مِن أسمى الوجود مقدَّمُ

تبيانه فى الروح عِلْمٌ مُصْدَقٌ مما أحق[٢] الخالدون وأعلموا

بحث اتصال الخلد وهو مغلَّفٌ[٣] بابن الدنا[٤] يحدوه عهدٌ مُبرَمُ

أهْدى العلوم نفيس ما يسمو بها من رَوع مانشر البيان المفعَم[٥]

هى شعلةٌ من تضحيات مجاهد نَذَرَ العزيمة للحقيقة تَنْظِمُ

نمّى[٦] الرقيم[٧] لتستنير بصائرٌ وتزول غاشيةٌ تُضيرُ وتَسقِمُ

* * *

« فالمرء روحٌ شفَّ لاجسدٌ » يُرى منذ استقر ببطن أم يُدعَمُ[٨]

والروح يأتى فى الجنين مشيئةً من خالق الأكوان وهو ينظِّمُ

والروح أصلٌ للتواجد خالدٌ مَسْراه[٩] عِلْمٌ شاملٌ . لاطلسم[١٠]

مِن ناجزٍ[١١] أو مقبلٍ فى عمقه علمُ العلوم بجِدّةٍ لا تهرَمُ[١٢]

والمستنير بحكمةٍ وثقافةٍ يَرْضَى التعارف بالخلود ويُكرِمُ

ويرى السعادة أن يزوَّدَ من عَمل فهم الحقائق . والسماء تَعَلَّمُ

وإلى الرغائب يستجيب ذوو النهى فالعِلمُ فى دنيا الخلود مُتَمِّمُ

---

(١) جوهرها . (٢) قال الحق . (٣) مستور عن الأعين . (٤) الإنسان فى العالم .

(٥) الذى يطيب الجو بالمسك . (٦) لأنه جعل مؤلفه من جزئين بعد جزء واحد .

(٧) الكتاب . (٨) يسند لئلا يميل .

(٩) سروره المستتر . (١٠) الطلسم : السحر . (١١) حاضر .

(١٢) أى أن علم الروح هو علم العلوم وهو متجدد لايهرم بحثه .

ولذاك قامت في الخلود منابرٌ | تدلى بأقـــدس ماينير ويُفهِمُ
وغدت دوافع الاتصال[١] تآلفًا | جذب المشاعر والصحاب ليُقدِمُوا
من شاء يلجأ للخلود مسامرًا | أو مستزيدًا فهـــم مالا يَفهَمُ
وتنادت الأجيال بالعــلم الذى | من « عالم الروح » استقام يكرّم
وتخاطب الرواد من أقصى الدنَا | مَعْ روح مَنْ فى الخالِدِين وسلمّوا
وغداء« التجسد[٢] » و« الظواهر[٣] »غاية | يصبو إليها الباحثون ليحكموا
وأقيمت « الجلسات[٤] » تحت رقابةٍ | حتى ثِقاةُ الراسخين تـكلّموا
إذ أجمع النقاد ألا خــدعة | بين الظواهر . والمؤيد مُحكَمُ

* * *

رسالتى

ورسالتى ديباجــــةٌ حمّلتها | « شوقًا » أطوف به الحِمى وأسلّمُ
سجلتها متطـــوعًا ومهيمنًا | بالروح أملى ، والوسيطة تُلهَمُ
ضمنتها[٥] بين الأحبّـــةِ منطقًا | بالوحى والإلهـــام لا تتلعثمُ
وأرى سوانح[٦] ذكرياتٍ قد مضت | آبت لأسعَدَ بالفتوح[٧] وأنظِمُ
أحيا بها بين السُراةِ[٨] منادمًا | من يحتفى بالروح أو يترحّمُ[٩]

---

(١) الاتصال الروحى .
(٢،٣) تجسد الأرواح والظواهر الوساطية .
(٤) الجلسات الروحية . (٥) أى رسالتى . (٦) الفرص المؤاتية .
(٧) جمع فتح وهو النصر (٨) علية القوم . (٩) يترحم على روحى .

فأنا المتيَّم بالنظيم مُنمقّـــاً والله‌فةُ اشتعلت سعيرًا يُضرِمُ[1]

فهو العزاء إلى الحزين إذا نأى عنـــه التأسى . حين لا يتبسّمُ

وهو الحنان إذا الشجون تكاثفت وهو الصَدُوق إذا الأمور تُؤزم

يا صحبُ إنا فى الخـــلود منائرٌ تجلو الطريق بصدق ما نتكلم

نحيا بمملكة التسامح ديننـــا حبٌّ طليقٌ للعبـــاد يُقسّمُ

أهواؤنا طيب السلام . أريجها من عبقها أرواحنـــا تتشمم

نلنا الوداعةَ والسماحةَ مِنّـــةً ما عاد فينـــا للطغاة مُخَيّمُ[2]

فينا الكرامة جوهرٌ متلألىءٌ ومُكمّل الأخلاق فينـــا يَنْعَمُ

ويحوطنا إشـــعاعُ كلّ فضيلةٍ ترضى العُـلى . حيث الوجوه تكرّم

* * *

وهنا نعيش بلا خريفٍ مُنفِـــرٍ بل فى ربيـــعٍ يانعٍ نتنعّمُ

والكل فى أوْجِ الصبا متألقٌ حرٌّ . مع الإنصاف لا نتظلّمُ

حُزْنا التضامن والوفاق سجيّةً هيهات يُخشى من شِقاقٍ يَفْقُمُ[3]

وتآلف الأرواح نعمة من هَدَى ما دام إلفُ الروح لا يتبرّمُ

إنا تخطينـــا المشارف[4] للعـــلا حيث المداركُ وعيُها لا يُفطمُ

---

(١) أى قد هاجنى حب ا نظام الشعر المنمق .

(٢) مكان إقامة . (٣) يشتد . (٤) أعاليها .

لنعبّ[1] من نبع المعارف حكمة فهى المنـــال لعالِمٍ يَستكرِمُ[2]
فالخلد أرطابٌ[3] بساحة مؤمن ماعاش فيها سُغَّبٌ أو صوَّمُ
كل الرغائب تستجاب لنورها ! فالروح فى العَـلياء شىءٌ قيمُ

* * *

من شاء حباً كالملائك طاهـــراً يرتاد وِدّاً دون باغٍ ينقِمُ[4]
وبفيض حبى قد بعثت خواطرى تُرضى الأريب[5] ومن يتوقَ ويَعلَمُ
فالحبّ بين الخــالدين رسالةٌ تَهدِى الرفاق لـكى يفيقَ النُوَّمُ
وأنا أحذّر من عنيدٍ مدّعٍ يبدى الظنون إزاء ما أتـكلم !
وأقول بالإشفاق لست مواربًا[6] عبْر الأثير لمن عسى يتفهم
إن الخلود تـكشفت أســـراره تهب الشفاء أو العزاء لمن رُمُوا[7]
وتَناشد الأحياء أن يتبصروا فى يقظة الأفهام كى لايندموا
يرضون بالإعـــلام ممن أيقنوا أن الرجاء يغيب عمّن يحلَمُ
فإلامَ يختالُ المـكابرُ لاهفـــاً ليردّ مَن يهوى الخلودَ ويصدِمُ ؟

أراجيف الغباء

* * *

يا لوعةَ الأحياء ممن أرجفوا[8] بجهالةٍ ضـــد الخلود وأقسموا !

---

(١) للشرب . (٢) يختار الـكرائم . (٣) تمر ناضج . (٤) يحقد .
(٥) الماهر . (٦) مخادعا . (٧) لمن رماهم الدهر بالحزن والمرض . (٨) كذبوا .

فاحذر مثار العِيّ[1] فيمن نددوا بالخالدين وبالشكوك ترعموا[2]

وارهب مآل[3] المارقين إذا افتروا واسترخصوا الروح الكريم وحطموا

هيهات فيهم مَنْ يفيقُ ومن يَعِي ما السِدَّة العَلياء[4]. أو ما تُنعم

فإذا رأيت الصابئين[5] بضلّةٍ[6] وعداءهم للخلد. أو من أسهموا[7]

قل أزْمَنَ[8] الجهل المسيطر فى النُهى[9] ليطيلَ رَقْدَةَ شاردٍ لا يَفْهَمُ

وانساب فى الأقوام ينفث فريةً إن الحياة هى الأواخر فانعموا[10]!

فتناثر الرواد فى غَسَم[11] الهوى واستسلم المنساق وهو يغمغم[12]

***

ظنوا الحياة بجَرفها[13] ومتاعها حد التواجد والغَيَابُ[14] يُعَقّمُ[15]

فتناجزوا[16] كلٌّ يراود غيّه[17] ويَفُضُّ[18] غالى العمر فيه ويظلِمُ

وانساق كلٌّ كالسليب[19] مهاتراً[20] فبدت أراجيف الغباء تُتَرجَمُ

وأغار داعيه[21] الشكوك بحسرةٍ يَنْعِي الرغائب، فاستشاط المفحَمُ[22]

وبفرية الأفّاك[23] قامت غُصّةٌ[24] تذرى بحبّات القلوب وتَرْجُمُ

---

(١) منبع الضلال. (٢) شهروا بالشيء وأذاعوه بين الناس كذباً. (٣) مصير.
(٤) باب السماء. (٥) أى الخارجين عن الدين. (٦) مرة من ضل.
(٧) جعلوا لهم أسهما فيه. (٨) طال عليه الزمن. (٩) العقول.
(١٠) معنى البيت أن الجهل انساب فى الناس يقول إن الدنيا هى آخر الحياة ولا شيء بعدها.
(١١) ظلمة. (١٢) يتمتم بقول مبهم. (١٣) المال من فضة وورق وغيرهما.
(١٤) القبر. (١٥) يسكت. (١٦) تقاتلوا. (١٧) ضلاله. (١٨) يهدم.
(١٩) المستلب العقل. (٢٠) يسب بالقول الباطل. (٢١) سبب.
(٢٢) الذى أسكت بالحجة فى خصومة. (٢٣) الكذوب. (٢٤) هم وحزن.

والجهل يعطبُ مَن يصيبُ بلغوه[١] ... من مُخزِيَاتٍ قد تعوق وتُحطِم

ويُهيجُ من نَزَق[٢] الملوّع فى الدُنا[٣] ... يَرمى المحبَّبَ للهَبَاء[٤] يُهشّمُ

آهٍ من الشظف[٥] الملاحقِ للوَرَى ... مِمن لَغَا[٦] : ألا خلوداً يُدْعَمُ[٧]

رَجْمٌ بما لايعلمون . وما وَعَوْا ... ما يستبين إذا الوجـوه تُلَثّمُ[٨]

الروح أسٌ للتواجد ***

يا صابرين على الشكوك وضيْرِها[٩] ... خُسْرٌ[١٠] لَعَمْرِى ما يُضيرُ ويَهدِمُ

خلوا الدعاة الراسمين على سُدى[١١] ... واصغُوا لدعوة راسخٍ يتكلم

المرء يقتحم الحيـاة بروحه ... ولها امتدادٌ فى الخلود منظّمٌ

والخـلد إرثٌ للضنين بِنَصِّها[١٢] ... وهى التى يَشقى بهـا أو يُرحَمُ

« والمرء روح » لامناص لجحدها[١٣] ... فخذوا الحقيقة منهجاً يتقوّم[١٤]

والروح أسٌّ للتواجد أصلها ... من عُمْقِ ما قال الإله تنسموا[١٥]

هيهات تفنى . . بل تهيم لآبدٍ ... فإلى جحيم أو نعيم يُقْسَمُ

والمرء لايلقى ازدهاراً دونها ... فهى الصبا تُحيي الرميم[١٦] فيعظُمُ

وهى التى يرجو النعيم لسعدها ... فإذا المنالُ لها تأتّى تَسلمُ

---

(١) الكلام بدون تفكير . (٢) طيش .
(٣) الذى أعياه حب الدنيا . (٤) العدم (٥) الضيق والشدة .
(٦) قال لغواً . (٧) يسند بالتجربة وبالبرهان . (٨) ساعة الموت تلثم الوجوه .
(٩) ما يضير منها . (١٠) خسارة . (١١) على هباء .
(١٢) برفعتها . (١٣) لنكرانها . (١٤) يعتدل .
(١٥) أى أن الروح هى أصل الوجود ، وهى نسمة من الإله تعالى . (١٦) البالى .

وتجوبُ في الآفاق إذ يصفو لها ... ما أحرزت من سَلسَلٍ[1] لا يُفصَمُ

فإذا نأى عنها النعيم تدهورت ... وعلى مسالكها الذميمةِ تنقمُ

* * *

يا غافلين عن الخلود ومُلكِهِ ... ما العيش في الدنيا مآلٌ يَختِمُ

فابغُوا الرجاء على امتدادِ نوالكم ... في الخلد إذ يبقى الفِعالُ القيِّمُ[2]

فهناك في أوج العلاء رغيبةٌ ... هي كلُّ ما وهب الإله الأكرم

ونوالها وقفٌ على من أيقنوا ... كُنْهَ الخلود فأيَّدوا واسترحموا

وتعلقوا في حكمةٍ برقيِّهم ... إن هم سعَوْا لرحابها وتقدموا

هي روضة الأنوار في أبهائها ... يرتادها من للرضَى[3] يتدوَّمُ[4]

فمن استقام على الرشاد مقدِّرًا ... للجوهر الخلَّاب فهو الضيغَمُ[5]

* * *

إلى مساجلة

يا قائمين على المدارك والحجى ... من يستبين الحقَّ لا يتبرَّمُ

فإلى مساجلةٍ لتقنعَ باحثاً ... عن مهربٍ مما يثير ويُتشِمُ[6]

هذا الذي يهوى الحياة . يحبها ! ... فيمَ التواجد ؟ ثم فيمَ نُسَدَّمُ[7]

---

(١) الماء العذب . (٢) معنى البيت : ابغوا أن تنالوا الرجاء في الخلد حيث تبقى الأفعال الطيبة .
(٣) رضاء الإله . (٤) ينتظر . (٥) الشجاع ، القوى .
(٦) وهو الاعتقاد بأن الموت فناء . (٧) تصبح رائحتنا كريهة بالموت .

فيمَ الحياة بروضها وورودها ؟ والحب يحلو للعباد فينعَموا

ثم التناثرُ فى الحفائر والثرى ليحدَّ من أصل الحياة ويَقْضِمُ[١] ؟

أهدى الجمال إلى الخليقةِ ناشراً حُلل السنا اللألاء . ثم يحرّم ؟

* * *

فيمَ سعى المعتد[٢] فى خُيلاَئه[٣] وجلاَلُهُ بعد الرُواء يُحَطّمُ ؟

فيمَ التنافس فى الحياة برونقٍ وكأنما رَقَش[٤] الجلال معَلّمُ ؟

وروائعُ المشوق من أقدادنا تمشى الهوينا . للفناء تُلقّم[٥] ؟

هذا ربيع العمر يمثل فَيْنَـةً[٦] يحدو شباب الناس بعدُ ليهرموا !

ويعود طبع الموت وهو مجازفٌ يلقى بقارعةٍ[٧] تُضيمُ[٨] وتهدِمُ ؟

فيمَ انتشار النور للعين التى بعد اجتلاءٍ فى الغياهب[٩] تُظلِمَ ؟

* * *

فيمَ المعارف تستقيم لذى هُدًى والعقل يأتى المعجزات ويَنظِمُ ؟

ويناطح العَلياء يكشف غُمضها[١٠] بالعلم والتمحيص وهو ييمّمُ

ويلاحق الجوزاء فى أطوارها فى لهفة السبّاق لايتجهّمُ

فكأنما ملَكَ الزمام إذا اعتلى مَتْنَ الفضاء يجول فيه ويزعُمُ[١١]

---

(١) يقصف العمر . (٢) المتأنق . (٣) عجبه وتكبره .

(٤) زين . (٥) تدفع إلى فم الفناء . (٦) حيناً وساعة .

(٧) داهية . (٨) تظلم . (٩) ظلمات القبر .

(١٠) خافيها . (١١) يسود .

ويَخالُ أطياف السماء كواعباً[١] ينسقن للأحضان وهو يحوّم[٢]

فيغافل الرُّقباء فى أهوائه يُبدِى الغرام لتستجيبَ الأنجم

ويود لو يُلقِى الرحالَ بقربها فى مرتع الأقمار وهى تسلِّمُ !

حلمٌ يشاء لو استحال[٣] حقيقةً فهو المتيَّمُ بالفضاء المغرَمُ

ويفيق من أحلامه مترنحاً ويغيبُ مالاقاه وهو يهوّم[٤]

ليعودَ بالنصر المحقق شافيًا بالرى غُلّة[٥] سائلٍ يستعلمُ

* * *

هذا الذى جاء الخوارق[٦] عِلمهُ ليزوّدَ الأجيال منه ويُطعِمُ

قَدَرٌ توافيه المنون[٧] بمنجلٍ يأتى على فوى الوجود ويكلم[٨]

ويغوص ضوء العلمِ فى عُمْق الدجى بعد استفاضة نيّراتٍ تُنْظَمُ ؟

يا قاتلَ اللهُ الشكوك ووهمها فالتيه فى رِيَبٍ[٩] مرارٌ علقمُ !

يُبدى هواجسَ بائسٍ وَطِىء الثرى وهو الحقود الخاسرُ المستشئِمُ

يَنعِي الوجود بما حوى من زائفٍ يُذرِى الخلائق للحفير ويردمُ

---

(١) حساناً . (٢) يطوف حولها .
(٣) تبدل . (٤) يميل رأسه من النوم .
(٥) شدة العطش . (٦) ما فوق العادى .
(٧) المنية . (٨) يجرح . (٩) ظنون .

فتراهُ يرتقب المجير يُعيذُهُ من حَيْرة المتاع وهو مُسَهَّمُ
لينيرَ بالإعلام كل بصيرةٍ ويُهدِّىء الروع المُشَارَ ويُفهِمِ
ويقدّم البرهان أنْ بعد النوى[١] عيشٌ يطمئن نازحاً يتألّم
عيشٌ عجابٌ فى الخلود كأنه أسطورةٌ تجتاح[٢] مايتوسّمُ

* * *

يا نادب الدنيا

يا نادب الدنيا وسَمْحَ بهائها لستَ الملومَ بما عسى تتبرّمُ
فإذا عددتَ جمالها مُستَحْسِنًا طول الإقامة . دون فضٍ[٣] يُعْدِمُ
وإذا شجاك الحسن فى أوصافها ولناظريك ربيعها يترسّمُ
ورأيتَ نهجك[٤] يستظل بدوحها تجنى الورود وتستهيمُ وتَنْعَمُ
وإذا رأيتَ الشمس فى إشراقةٍ تهديك دفئًا للحياة يقوِّمُ[٥]
وعشقتَ طِيبَ الأُمسيات بروعها إن أقمر الليلُ البهيم المقتمُ[٦]
ولو انّ موفورَ الجمال بسحره هزّ لمشاعر ثم راح يُنَغِّمُ
والروضُ أزهر والطيورُ تراقصت والصفو أغدق ما يُرامُ ويُغْنَمُ
ورأيتَ سيال المباهج دافقًا والبال بالعيش المحبب ينعَمُ
ومنابعَ الإسعاد باتت مرتعاً تغرى المدلّهَ والمشوقَ وتُنعِمُ

---

(١) التباعد . (٢) تمحو . (٣) موت .
(٤) مسلك . (٥) يجعل الحياة قيمة . (٦) الشديد السواد .

وودتَ عيشاً سرمداً برحابهــا يرسى الأمان بما يحق وينقسمُ

هــذى لعمرى متعةٌ وقادةٌ لمن اتقى ومن المآثم يُعْصَمُ[١]

وهى المنال إذا البصائر نُوِّرَتْ فى روضة الأبرار يوم تُقَدَّمُ[٢]

* * *

فالله إذ خلق الجمــال لِعــالمٍ يَبْقى لِحَدٍّ حيث طاب المغنمُ

مترفقاً يُبقِى نصيباً فائقــا فى العالم الأسمى لروحٍ ترْحَمُ

فتراه مــدّاً للصميم المرتجى وهو النعيم لخالدٍ . والبَلسمُ

ليرى الجمال وقد تسرّدَ دُرُّه[٣] فوق المدارك حيث قام المَعْلَمُ[٤]

حقا لمن يرقى الخلود إذا سمت كل الميول وقد شجاه الأقوم[٥]

فإذا توصل واستراح لما ارتأى وجد الجمال حقيقةً لا تُفصَمُ[٦]

فوحق من نشر الخــلود لآبدٍ سيفيق فى مَسْرَاه لايتــوهم

ويلوذ بالفضفاض[٧] من أزيانه[٨] حيث الرغيد من الهناء مُعَمَّمُ[٩]

* * *

أما إذا استخزى[١٠] الزنيم[١١] بفعله وانحــط للرتب الدنيئة يلطُمُ

(١) أى أن طلب المتعة المضيئة حق لمن عصم نفسه من المآثم .

(٢) وهى العطية التى تمنح له فى عالم الروح .

(٣) تتابع لؤلؤه بانتظام .

(٤) ما يستدل به على الطريق .

(٥) الأفضل من الامور .

(٦) لا تنكسر ولا تصدع .

(٧) الواسع من العيش .

(٨) محاسنه .

(٩) عام ومنتشر .

(١٠) صار عنده خزى .

(١١) الذميم .

هيهات يلمح فى الخلود ملاحة فمصيره حيث الظـــلام المعتم
فى غبشة[1] الليل البهيم سينطوى حيث السعير بلاذعاتٍ يُدهِم[2]
وإذا استغاث فلا مراحم ترتجى بل رادعات تستفز وتُلجِم[3]
ويحوطه الإعيـــاء وهو مقلبٌ فى لجة[4] الدخّان[5] حيث جهنم ..

أحمد شوقى

راجع فى الجزء الأول عدداً وفيراً من أشعار روح أمير الشعراء مع رأى العلم والأدب فيها (ص ٥٢٥ إلى ٦٠٢) .

(١) ظلمة .
(٢) يسود .
(٣) تصده وتمنعه من الاستغاثة .
(٤) عظيم الماء .
(٥) فى جلسة روحية بالقاهرة بتاريخ ١٢ أغسطس سنة ١٩٦٥ سألنا أمير الشعراء فى شأن معنى هذا البيت عما إذا كان يوجد سعير ودخان حقيقيان فى بعض المناطق الغير السعيدة من عوالم ما وراء المادة فأجاب قائلا إن الأرواح لا تعرف بعد كل شىء وأنها لم تبعد عن مستوى معلوماتنا كثيراً ، وأنه استعمل لفظى السعير والدخان بنفس دلالتهما فى الكتب السماوية لا أكثر ولا أقل . كما أشار بإضافة هذا الشرح دفعاً لأى لبس .

الإنسان روح لا جسد

بحث في العلم الروحي الحديث

مقدمة الجزء الثانى

تضمن الجزء الأول من المؤلف الحالى عدة موضوعات منوعة وردت موزعة على خمسة أبواب منه على الوجه الآتى : —

باب تمهيدى : فى علم الروح بين أنصاره ومناوئيه .

الباب الأول : عجالة عن الروح عند الأقدمين .

الباب الثانى : فى نشأة العلم الروحى الحديث .

الباب الثالث : فى بعض الأسماء والمراجع فيه .

الباب الرابع : فى بعض البينات والوقائع .

أما هذا الجزء الثانى فيتضمن معالجة موضوعات أخرى يغلب عليها الجانبان النظرى والفلسفى فى البحث ، لأنها موضوعات تروغ فى جوهرها من الحس المادى، فلا تخضع له إلا من زاوية ثبوت أجزاء كثيرة منها عن طريق تحقيق الظواهر الوساطية التى عرضنا لها فى الجزء الأول ،كما عرضنا لعدد وافر من أفضل « الأسماء والمراجع » الخاصة بالعلماء وبالهيئات التى قامت بتحقيقها ، وبالاقتناع بدلالتها فى الإنباء عن دوام حياة الإنسان بعد موت جسده المادى .

ولا يمكن بداهة الفصل التام بين النواحى الفلسفية والنظرية لعلم الروح الحديث من جانب ونواحيه العملية من جانب آخر ، لأن طبيعة هذا النوع من البحث أنه عبارة عن مزيج من تجارب معملية ومن نظريات رياضية

وفلسفية متماسكة معاً ، بحيث يتعذر فصل كل ناحية منها عن الأخرى ، كما يتعذر فصل زوايا المبنى الواحد بعضها عن البعض الآخر وإلا انهار البناء ، أو بالأقل ظهر ناقصاً مبتوراً .

ومن ثم كان هذا الجزء الثانى مكملا للجزء الأول ومتضامناً معه تضامناً وثيقاً ، لأن هذا الأخير هو بمثابة المقدمة العلمية والعملية التى تقود إلى نتائج فلسفية معينة تكفل بعرضها وبشرحها هـذا الجزء الثانى . وارتباط المقدمات بنتائجها المحتومة ارتباطاً منطقياً ليس فحسب قانوناً من القوانين العامة للطبيعة ، بل إنه أيضاً أمر لازم للحكم على مدى صحة أية نظرية علمية أو أية حقيقة فلسفية ، مهما كان مداها فى وضوح مقدماتها ونتائجها .

* * *

— وفى هذا الجزء الثانى نجد لزاماً علينا أن نعالج ابتداء موضوع «موقع» عالم الروح ، فهذا «الموقع» هو السند العلمى لعلم الروح كله ، وخلاصة ما أسفرت عنه بحوثه عندما أريد الربط بينها وبين حقائق الفيزياء الحديثة .

— كما ينبغى أن نعرض لموضوع أسلوب الحياة فى عالم ما بعد المادة ، وسنعطى عناية خاصة لعالم «المستوى الثالث» الذى اصطلح الباحثون على أنه مقر الأرواح الطيبة من سكان المستوى الأرضى ، وذلك لأن أسلوب الحياة هناك يهم إلى أقصى مدى كل إنسان يبحث من الآن عن معرفة شىء عن وطنه المستقبل ، أو أرض المهجر المحتوم لمن يعد نفسه لها منذ الآن .

— وهذا الموضوع الأخير يتطرق بنا حتماً إلى الكلام فى مشكلة الثواب والعقاب فى ضوء النظرية الوضعية التى أسفرت عنها البحوث العملية فى الروح ، وستكون محور هـذا البحث تجارب الفيلسوف الفرنسى آلان كاردك ، إذ هو فى تقديرنا أفضل من عالج هذا الموضوع بطريقة موضوعية منظمة وواضحة بين كل بحاثه فى البلاد ذات الثقافة اللاتينية .

— ثم نجد أنفسنا مدفوعين بعد ذلك بالضرورة إلى الكلام فى بعض

المشكلات الفلسفية الوثيقة الصلة بالتكوين النفسى والروحى للإنسان . ومنها بوجه خاص مشكلات « الإيمان بالله وبالخلود » و « الخلق والضمير » و « الموت والألم » . ولن يكون الكلام فيها من زاوية علم الروح وحده ، بل من بعض زواياها الفلسفية العامة ، بقدر اتصالها بالفلسفة الروحية وبآراء بعض الباحثين الروحيين الذين قد تعنيهم بوجه خاص هذه الزوايا الفلسفية — وما أكثرها — وما أكثر تشعب أرجائها ... وما أوثقها صلة بالإنسان فى عوامل سعادته وشقائه فى الدارين معاً .

— ومن الموضوعات الفلسفية التى يثيرها البحث الحديث فى الروح موضوع هام من حقه أن يشغل بال الكثيرين ، وهو مدى صلة هذا البحث بالاعتقاد الدينى بوجه عام ، ومدى إمكان التوفيق بينه وبين الأديان المختلفة من ناحية التعاليم الخلقية السامية التى تنادى بها والنتائج التى وصل هذا البحث إليها . فهذا جانب نظرى ينبغى أن ينال أيضاً نصيبه من العناية كيما يلمس القارىء بنفسه كيف نجح هذا البحث فى التوفيق بين العلم والدين ، إلى المدى الذى عجزت عنه معارف الإنسان عندما كانت فى مهدها ، وقبل أن تعرف طريقها إلى هذا النوع الحديث من البحث بأساليب علمية مستنيرة .

— كما نرى أن نخصص باباً ختامياً للكلام فى علم الروح بين حاضره ومستقبله ، نبين فيه بوجه عام أهم ماقد يكتنف طريقه من عقبات ، ومن عوامل الأمل والرجاء فى مستقبل أكثر ازدهاراً سواء فى بلادنا أم فى الخارج .

وعلى ذلك نرى أن نعالج فى هذا الجزء الثانى ستة موضوعات أساسية موزعة على ستة أبواب على النحو الآتى :—

الباب الأول : فى موقع عالم الروح .

الباب الثانى : فى أسلوب الحياة فيه .

الباب الثالث : فى الثواب والعقاب .

الباب الرابع : فى بعض المشكلات الفلسفية الأخرى التى يعالجها هذا العلم .

الباب الخامس : فى الروح بين العلم والاعتقاد .

باب ختامى : فى علم الروح بين حاضره ومستقبله .

وبذلك نرجو بعد الفراغ من قراءة الجزئين معاً أن يكون القارىء العزيز قد كون اقتناعاً مترابطاً لصالح هذا البحث فى مقدماته ونتائجه معاً ، اقتناعاً كفيلا بأن يبعث فى نفسه الكثير من الطمأنينة والعزاء ، وكفيلا بأن يدفعه إلى مواصلة الاطلاع فيه إذا أنس فى نفسه الرغبة فى المزيد من الاطلاع ، واثقاً أنه إنما يطلع فى أخطر موضوع يشغل بال أفضل الفلاسفة والعلماء فى العالم أجمع منذ قرن وربع لأنه أوثق الموضوعات صلة بمشكلة الإنسان وبمشكلاته ، وبصحيح رسالته فى الحياة ، وبموضعه منها من جانب ، ولأنه من جانب آخر أصبح أوثق العلوم صلة بعدد كبير من العلوم الأخرى كالفلك والفيزياء والرياضة والنفس والأخلاق والفسيولوجيا والبيولوجيا وغيرها .

* * *

ولا يسعنى إلا أن أكرر شكرى لروح أحمد شوقى شاعر العروبة الخالد — ذكرىً وشعراً — والذى تفضل فبعث إلى جهدى المتواضع عدة رسائل شعرية غنية بأسباب المؤازرة والتشجيع .

— وقد نشرت الأولى فى تصدير الجزء الأول من هذا المؤلف .

— ونُشرت الثانية والثالثة فى الفصل الخاص بعرض البينة المستمدة من قصائده العديدة التى بعث بها من هناك (الفصل الحادى عشر من الباب الرابع منه) .

— ونشرت الرابعة فى تصدير هذا الجزء الثانى .

كأنى بشوقى العظيم « شاعر » تماماً بما فى قصائده العصماء — التى تعصى على أية مجاراة أو محاولة تقليد — من قيمة إقناعية لمن يريد أن يقتنع بطريقة موضوعية محايدة ، خصوصاً متى جاءت عن طريق وسيطة كريمة هى عقيلة طبيب فاضل لا صلة لها بالعروض والقوافى ، ولا بمجاهل اللغة الفصحى وأسرارها . وذلك بجانب قيمتها الأدبية فى تأييد الحركة الروحية وإعلاء شأنها ، إلى جانب إبداء شوقى مشاعره النبيلة التى كان يجيش بها قلبه الكبير عندما كان يعيش بين ظهرانينا ، علماً فى البلاغة لا يبارى . وهيهات لصاحب هذا الينبوع الطاهر ، المتدفق شعراً عذباً وشعوراً نبيلا ، أن يتوقف أو أن ينضب معينه بعد إذ انتقل إلى عالم هو فى حقيقته عالم للشعر الراقى وللشعور الكريم ...

كما أكرر شكرى إلى الدكتور الفاضل سلامة سعد ، الذى وهب حياته لخدمة الحركة الروحية فى هدوء تام وإنكار الذات ، وللوسيطة المحترمة السيدة قرينته التى أدت — مضحية متطوعة — أجل خدمة للبحث الروحى . وهما يجاهدان غير مبتغيين من أحد جزاء ولا شكوراً عما يتحملانه معاً من مشقة ومن عناء بالغين فى سبيل القيام برسالتهما النبيلة فى الحياة ، والتى لا يقدر قيمتها الحقيقية سوى الراسخين فى المعرفة ، والباحثين الجادين عن الحقائق العلمية .

والآن فلننتقل إلى معالجة موضوعات هذا الجزء الثانى مستلهمين الله تعالى العون والتوفيق .

رؤوف عبيد

الباب الأول

فى موقع عالم الروح

تمهيد

إذا كان الإيمان بالروح — وبإمكان الاتصال بها — قديماً قدم الحياة الإنسانية — فإن العلم الروحى الحديث هو الذى تكفل وحده بتحديد موقع عالم الروح ، هذا العالم الذى كان يجهل الإنسان موضعه وكان البعض يظن أنه فوق بعض الكواكب ، فبين العلم الحديث أنه يقع فى الفضاء الكونى غير المحدود الذى يشغل نفس الحيز الذى تشغله جميع الكواكب والنجوم ، بما فى ذلك هذا الكوكب التافه الذى نعيش فوقه . فاكتسب عالم الروح اتساعاً رهيباً ، وأصبح من المسلم به أن رتب الوجود المختلفة قد تتداخل فيما بينها فتشغل نفس الحيز من الفراغ ، بعد إذ فقد الفراغ معناه القديم وأصبح يشير إلى مجرد عجز منا عن الإحساس بجانب ضخم من مظاهر الوجود الكونى ، حين أصبح عالم المادة يشير إلى القدرة على الإحساس بجانب ضئيل منها فحسب .

وفيما يلى سنعرض للكلام فى موقع عالم الروح مبينين كيف نجح العلم الروحى الحديث فى تحديد هذا الموقع ، وبالتالى فى إثبات دوام الحياة بعد التخلى عن الأجساد الترابية ، مما أزال إلى حد كبير رهبة الموت عند الباحثين فى الروح ، إذ أعطاه معنى من الانتقال إلى عالم أفضل بدلا من معنى الرقاد فى القبر أو التلاشى هباء منثوراً .

ولا ريب أن أول سؤال يخطر على بال الباحث فى الروح هو أين يقع عالم الروح، هذا ؟... وعندما كانت معارف الإنسان محدودة لا تعرف كيف تجيب على هذا السؤال كان من حق الإنسان الذى يريد إيماناً مؤسساً على

اليقين العلمى أن يتشكك فى وجود عالم للروح ، وأن ينكر بالتالى الخلود ويتصور أن الموت — بمعنى التلاشى — هو النهاية المحتومة لكل كائن حى . وما تمكنت المدارس المادية من أفئدة الناس إلا عندما كانت عقولهم لا تعرف لعالم الروح هذا مكاناً . إذ كان من المفهوم عندهم أن هذا المكان ينبغى أن يكون عبارة عن موقع جغرافى بحت أشبه ما يكون بموقع أية قارة من القارات بالنسبة لزميلاتها .

والسبب فى ذلك هو أن فهم فكرة المكان — ومثلها الزمان — ظل محدوداً جداً — أو بالأدق معدوماً — قبل أن تظهر المادة الصلبة على حقيقتها فى كشوف الفيزياء الحديثة بوصفها تمثل مجرد رتبة معينة فى اهتزاز الأثير لا أكثر ولا أقل . وقبل أن تظهر معادلات علماء الرياضة الكبار — وبخاصة أينشتين — كيما تضىء السبيل أمام فهم أصح لفكرتى المكان والزمان معاً .

وقد كان هذا الفهم الجديد المؤسس على حقائق رياضية صرف هو الأمر الذى يسر — علمياً — اكتشاف عالم الروح من ناحية موقعه بوصفه هو الآخر رتبة معينة من رتب اهتزاز الأثير ، تتجاوز فى ارتفاعها رتبة اهتزاز الكون المادى . ومع مراعاة أن اقوى صور الاقتناع هو الاقتناع الرياضى ، أى المؤسس على حقائق رياضية غير حسية لأن الحواس البشرية كما سبق أن قلنا مراراً قاصرة قصوراً رهيباً ، ولا تكاد تدرك شيئاً يذكر من حقائق الكون ، فهى تخون الإنسان وتخدعه خداعاً مروعاً فى كل كبيرة وصغيرة من هذه الحقائق .

وهكذا كان الفهم الخاطىء لحقيقة المادة الصلبة فى الماضى عقبة كؤوداً تقف فى طريق التسليم بوجود عالم للروح ، لأن المادة كانت هى البداءة وهى النهاية فى نظر علوم المادة . أما عندما فهمت حقيقة المادة الصلبة فهماً صحيحاً بوصفها مجرد كهارب فى رتبة اهتزاز معينة ، فقد أصبح هذا

الفهم الصحيح هو بذاته مصدراً للاقتناع بوجود عالم للروح يتولى تنظيم عملية اهتزاز المادة هذه، كما يتولى الربط بين كهاربها التى لا تربطها أية قوة من عالم المادة. وبالتالى لم تعد المادة الصلبة تصلح بداءة ولا نهاية، بل أصبحت فحسب مظهراً خارجياً لعالم آخر هو أصل هذه المادة ومبدعها . وأصبح معروفاً أن لكل جسم صلب جسم آخر أثيرى يربط بين كهاربه ويحافظ على تماسكها على ما سيلى . وفى الجملة أصبح فهم المادة الصلبة على حقيقتها هو السبيل لاكتشاف موقع عالم الروح على حقيقته .

ولنستعمل فى التعبير عن بعض هذه المعانى عبارات وليام ديورانت Will. Durant المفكر المعاصر (ولد فى سنة ١٨٨٥) وهو يقول فى الجزء الأول من « مباهج الفلسفة »[1] إن « عناصر الذرات التى تنحل تفنى تماماً وتفقد كل صفة للمادة، بما فى ذلك الثقل وهو أكثر صفاتها الرئيسية . ذلك أن الميزان يعجز عن وزنها ، ولا يستطيع شىء أن يعيدها إلى حالة المادة فقد اختفت فى عظمة الأثير ... والحرارة والكهرباء والضوء إلى غير ذلك تمثل آخر مراحل المادة قبل اختفائها فى الأثير . والمادة التى تنحل تخرج عن ماديتها بمرورها فى حالات متتابعة تنتزع منها تدريجيا صفاتها المادية حتى تعود فى النهاية إلى الأثير الذى لا يمكن وزنه ، ذلك الأثير الذى يبدو أنها نشأت عنه ... » .

أو فلنستعمل فى التعبير عن بعض هذه المعانى عبارات الأستاذ عباس العقاد وهو يقول « إن المادة اليوم لا تصد المفكرين عن عالم الحقائق المجردة ولا هم يتخذون من صلابتها وجسامتها شرطاً للحقيقة الثابتة ، فإن الحقيقة المادية نفسها لا تثبت اليوم بمجرد الصلابة والجسامة ، ولا تزال ترتد إلى أصولها حتى تؤول إلى عدد من الهزات فى ميدان مجهول هو ميدان الأثير وميدان الفضاء . فالمادة فى القرن العشرين قد اقتربت من عالم الفكر المجرد

---

(١) Pleasures Of Philosophy.

بل دخلته واصبحت في تقدير الثقات عملية رياضية أو نسبة من النسب التي تقاس بمعادلات الحساب»(١) .

* * *

وكان هذا الفهم الرياضي الحديث — وهو الآن بديهية علمية — هو الذي يسر لعلماء كبار في الفيزياء والرياضة أن يصبحوا روحيين مطمئنين تماماً إلى أن عالم الروح حقيقة رياضية قبل أن يكون كشفاً وساطياً ، وإلى المدى الذي حول بعضهم من ماديين إلى روحيين دون ما حاجة لإجراء بحوث خاصة في تحقيق الظواهر الوساطية . ومنهم بوجه خاص أينشتين ورسل وكومبتون وإدنجتون وغيرهم على ما سنوضحه فيما بعد .

ثم جاء دور علماء الروح وقد أمكنهم أن يربطوا ربطاً تاماً بين نتائج اتصالاتهم بالأرواح ونتائج بحوث الفيزياء والرياضة الحديثتين هذه، بما تنتفي معه كل شبهة في أنهم يجرون وراء سراب ، أو يتعلقون بأوهام . ومن ورائهم مجموعة من أرواح راقية — لأشخاص كانوا من علماء المادة الأرضيين — فأخذوا يقيمون دعائم هذا الارتباط الوثيق بين الفيزياء والرياضة الحديثين من جانب، وبين ما يعلمونه هم من جانب آخر عن عالم الروح من ناحية موقعه، وما يلمسونه بأنفسهم من ناحية أسلوب الحياة فيه .

وعن طريق هذه الجهود المشتركة من الجانبين معاً أمكن للعلم المادي أن يستسلم ويسلم بعد لأي وطول عناء بوجود عالم للروح ، وأن يثبت أنه هو العالم الحقيقي الوحيد ، وأن ما عداه عبارة عن عالم خارجي مظهري Phenomenal لأنه من صنع حواس مادية هي التي تشعر به وتسجل وجوده وتنقل هذا التسجيل إلى عقولنا، أو بالأدق إلى أرواحنا عن طريق أجسادنا المادية الموقوتة بطبيعتها ، وبحكم نواميس حيوانية تحكمها كما تحكم أجساد الحيوان الأعجم من

---

(١) « عقائد المفكرين في القرن العشرين » ص ٥٢ .

بيولوجية وفسيولوجية ، بما فيها من قوانين للوراثة وللانتخاب الطبيعي وبالتالي للتطور .

فلا عجب والأمر كذلك أن نجد أن أفضل علماء الفيزياء والمادة بوجه عام يتحولون الواحد بعد الآخر إلى روحيين . ولم تكن البينات الوساطية رغم تدفقها الشديد لتنجح وحدها في ذلك إذا كانت مشكله موقع عالم الروح قد ظلت قائمة بغير حل حتى الآن .

كما أمكن للعلم المادي أن يسلم بجواز تداخل المستويين المادي والروحي للوجود فيما يبدو حالياً موقعاً مشتركاً بينهما بالنظر إلى تفاوت رتبتي اهتزازها ، لا في طبيعتهما ، إذ أن كليهما يمثلان — في نهاية المطاف — أثيراً يتذبذب في رتبته المرسومة التي أرادتها له إرادة سامية من عند عزيز مقتدر . فأصبح بذلك تداخل المستويين المادي والروحي للوجود في موقع واحد مشترك هو أشبه ما يكون بتداخل الجسدين المادي والروحي للإنسان بعد أن تبين أنهما يشغلان نفس الحيز من الفراغ ، ولكن تفاوت رتبتي اهتزازهما تفاوتاً شاسعاً جعل من أحدهما كائناً محسوساً منظوراً ، ومن ثانيهما كائناً غير محسوس ولا منظور ، وإن كان هو بذاته مصدر الحس والنظر على ما بيناه في الجزء الأول[1] .

وإذا كان التخلي عن الجسد المادي بالوفاة يكشف للحياة الجديدة عن وجود الجسد الروحي ويعطيه مظهره المادي فإنه يكشف في نفس اللحظة عن المستوى الروحي للحياة الطبيعية ، ويعطيها نفس هذا المظهر الخاضع للنظر وللإحساس .

وسنعالج ذلك فيما يلي — بإيجاز شديد — في فصلين : نخصص أولهما لبيان كيف أن أوليات الفيزياء الحديثة حلت مشكلة «موقع عالم الروح» ، ونخصص ثانيهما لبيان كيف أن عالم الروح هذا متداخل مع عالم المادة ، وكيف أن هذا التداخل جائز بحسب هذه الأوليات نفسها .

---

(١) ص ٤٢٧ — ٤٦٣ .

الفصل الأول

أوليات الفيزياء الحديثة
تحل مشكلة موقع عالم الروح

مما هو جدير بالذكر ابتداء أنه على تعدد المؤلفات الروحية وتشعب نواحى البحث فيها — وظهور مدارس فلسفية واتجاهات نظرية متنوعة — شأن الروحية فى ذلك شأن أى علم أو فن آخر — إلا أنها كلها ، وبغير استثناء أية واحدة منها ، قد التقت عند تحديد موقع عالم الروح بأنه مجرد رتبة من رتب الاهتزاز الكونى ، تحيط بنا من كل جانب دون أن نشعر بها لأن للمدركات الحسية رتبة معينة فى المستوى الأرضى لا تتعداها ، وللمدركات الروحية رتبة أخرى لا تتعداها ، فليس إذاً لعالم الروح من موقع جغرافى معين بل إن موقعه « اهتزازى » فحسب .

وفى هذا المعنى المؤلفات كثيرة والتفاصيل لا يتسع لعرضها باب من مؤلف خصصناه بحسب الأصل للاطلاع العام فى الموضوع برمته أكثر مما هو للإحاطة التفصيلية بأى جانب من جوانبه المتشعبة . لذا سنكتفى بالقدر الذى يمكن القارىء أن يعرف إجمالا الإجابة على هذا التساؤل الهام وهو أين عالم الروح ؟ ، وذلك حتى يكمل بهذه الإجابة اقتناعه الذى نرجو أن تكون قد بدت بوادره بعد قراءة أبواب الجزء الأول التى لا نظن أنها شحيحة بالبينات .

فى طبيعة المادة الصلبة

من أوليات الفيزياء الحديثة أن جميع المواد الصلبة — أو بالأدق تلك التى تبدو لحواسنا صلبة — فى هذا الكون تتكون من مجموعة عناصر elements

يبلغ عددها تقريباً مائة عنصر وواحد[1] . وتشكيل المواد يتوقف على عدد العناصر الداخلة فى تركيبها ، فهناك مواد مكونة من عنصر واحد وهناك مواد مكونة من عدة عناصر . والجزىء هو وحدة المادة ، وهو ينقسم ويتفتت إلى ذرات متناهية فى صغرها إلى أقصى مدى . والمادة التى تتكون من ذرة واحدة تسمى عنصراً ، أما تلك التى تتكون من أكثر من ذرة فتسمى مركباً . فمثلا الأكسجين عنصر والهيدروجين عنصر آخر ، حين أن الماء يتكون من اتحاد هذين العنصرين ، فهو مركب . وعدد وأنواع الذرات بسيط جداً لكنها تتكرر أوضاع مختلفة .

فالمادة مهما اتخذت من أشكال خارجية هى فى حقيقتها عبارة عن أحجار متماثلة . والأرض، بأكملها وبموادها التى لا تحصى، تبدو لعلماء الطبيعة الحديثة عبارة عن بناء مقام بواسطة أحجار متشابهة. وبين العناصر المختلفة يوجد ١٤ عنصراً فقط تتكرر بكثرة فى هذا البناء ، أما ماعداها فلا يظهر إلا نادراً . لذا يقول سير جينز إن اتحاد العناصر فى الطبيعة أشبه ما يكون باتحاد ثلاثة ألوان فى الطباعة لإنتاج جميع الألوان الموجودة فى الطبيعة تقريباً ، علاوة على درجات متفاوتة غريبة لتلك الألوان لا توجد فى الأرض ولا فى السماء[2].

وجميع المواد الصلبة مكونة فى نهاية المطاف من ذرات ، والذرات مكونة من الكترونات وبروتونات . وللذرة محيط وفى قلبها نواة nucleus ويسبح فى محيطها فى مدارات محددة أجسام خفيفة جداً ذات شحنة كهربية سالبة تسمى بالالكترونات أما نواتها فتتكون من بروتونات وهى أجسام

---

(١) كانت العناصر فيما مضى ٩٢ عنصراً ، ولكن تمكن العلماء فى العشرين السنة الماضية من اكتشاف عناصر أخرى جديدة مثل النبتونيوم والبلوتونيوم والأمريسيوم وغيرها . والعناصر الشائعة لا تتجاوز ١٤ عنصراً ، أما ما عداها فهى عناصر نادرة جداً ولا تحتاج إليها الحياة على مايقرره سير جيمس جينز James Jeans فى مؤلفه « الكون من حولنا » The Universe Around Us . (طبعة ٤ سنة ١٩٤٤ ص ١١٠). وهذه العناصر المألوفة هى الهيدروجين والكربون والنيتروجين والأوكسجين والصوديوم والمغنزيوم والسليكون والفوسفور والكبريت والكلورين والبوتاسيوم والكلسيوم والحديد .

(٢) المرجع السابق ص ١١٠ .

ثقيله نسبياً ذات شحنة كهربية موجبة ، كما تتكون من نيوترونات neutrons وهى متعادلة من الوجهة الكهربية .

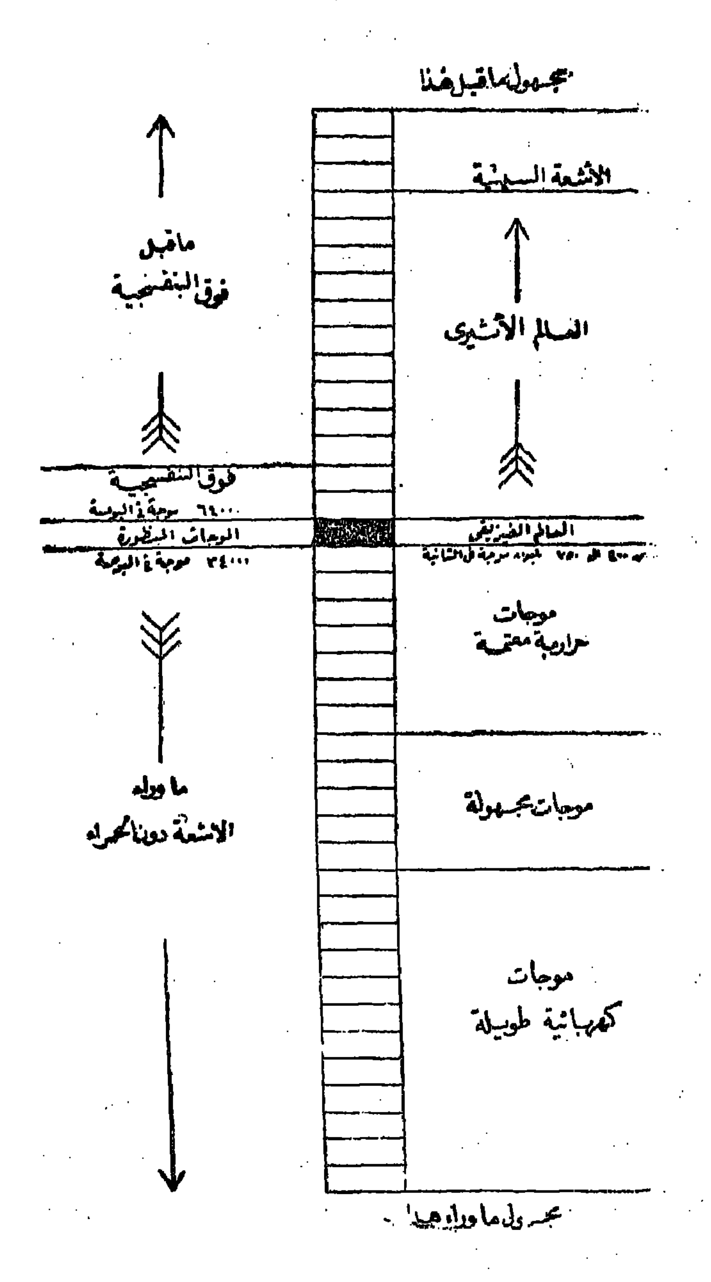
والبروتون يعادل وزن الالكترون ١٨٤٠ مرة ، ووزن الذرة يتوقف على وزن البروتونات التى تكونها . وقد عرف أن ذرة غاز الأيدروجين مثلا تحتوى على الكترون واحد ، حين تحتوى ذرة غاز الهليوم على اثنين ، والأوكسيجين على ثمانية ، واليورانيوم على ٩٢ الكتروناً وهى أثقل ذرة موجـــودة فى الطبيعة . وخصائص الذرة تتوقف على الالكترونات . ويتساوى عددالالكترونات التى تدور فى محيط كل ذرة مع عددالبروتونات الكامنة فى نواتها .

ويكون إحساسنا بالمادة عن طريق تأثير الالكترونات والبروتونات فى حواسنا . فالإحساس بالمادة وصف للتعبير عن هذا التأثير فيها ، لأن البروتون والالكترون فى النهايه جسيمان كهربائيان متضادان فى الشحنة ، فالبروتون موجب الشحنة حين أن الالكترون سالب الشحنة كما قلنا ، وهذا التأثير يحدث عن طريق الاهتزازات التى تثيرها فى الأثير الكترونات الأجسام الصلبة وبروتوناتها ، فتحدث بدورها تأثيرها فى الكترونات جسومنا وبروتوناتها .

فى الاهتزاز أو التردد

والمادة الفيزيقية عبارة عن اهتزازات بين حدين ثابتين أمكن للعلم المادى تعيينهما . وهذه الاهتزازات التى تؤلف العالم الفيزيقى كله يتراوح مداها بين ٣٤٠٠٠ إلى ٦٤٠٠٠ موجة فى البوصة الواحدة تمثل اهتزازات الطيف المنظور الذى يقع ما بين اهتزازات الأشعة دون الحمراء انخفاضاً والأشعة فوق البنفسجية ارتفاعاً . أما إذا أردنا القياس بسرعة الاهتزاز فى الثانية — لابطول الموجة فى البوصة — فإن العالم الفيزيقى يتراوح بين ٧٥٠ بليون ذبذبة فى الثانية و ٤٠٠ بليون ذبذبة فيها .

والاهتزاز خاصية عامة لكل درجة من درجات الوجود فى الكون ، والفارق الوحيد بينها هو فى رتبة الاهتزاز التى يهتزها اى شىء فى هذا الكون .



سلم الاهتزازات الكونية عن كتاب « على حافة العالم الأثيرى »
للأستاذ جيمس آرثر فندلاى
مدير « المعهد الدولى للبحث الروحى » بلندن

لذا يقول سير أوليفر لودج « إننى سأحدد المادة بأنها هذا الشيء الذى يستطيع التحرك . إن فكرة السكون هى فكرة خيالية إذ لا توجد قطعة من المادة فى حالة سكون . كل المادة متحركة ، والأثير هو صلة الوصل بين العقل والمادة . يوجد جسم مادى وآخر أثيرى ، والاثنان غير منفصلين . وعندما استعمل كلمة « أثير » فإنما أعنى هذا الشيء الذى كان موضوع بحثى طيلة حياتى العلمية . وكل صفات الأثير التى وصلنا إليها تدل على أنه مادة كاملة ، وهذا هو السبب الذى يمنع من القيام بتجارب عليه ...

إلى أن يقول « والأثير مادة رواغة لا يستطاع الوصول إليها ، ولذلك فإن البعض ينكر وجودها . إنما الصحيح هو أن هذه المادة تروغ من الحس المادى ... أما نحن فنقر وجود هذه المادة ، بل إننا نعلم أيضاً أنه يرجع إليها أمر الكهرباء والمغناطيسية والضوء والجاذبية . وقد علمنا هذا من بحوث أينشتين . وإلى هذا الأثير أيضاً يعود الفضل فى تماسك المادة ... ثم يقول إن هذا الأثير يقوم بعمل أجل شأناً مما يعلمه الناس من أمره وينبغى علينا أن نفكر فيه إذا أردنا أن نحصل على علم كامل ... » .

فإذا تركنا علماء الأرض إلى علماء الأثير وجدنا روح جاليليو تقول ، فى جمعية باريس الروحية منذ سنة ١٨٦٢ ، نفس هذا القول ضمن رسالة مطولة نقتطف منها هنا السطور الآتية : « من المسائل ما نعجز نحن الأرواح المغرمة بالعلوم عن التعمق فيها فلا نأتى لحلها إلا بآراء شخصية مبنى أكثرها على أقيسة افتراضية ، أما مسألة وحدة المادة فلا شبهة فيها ولا تخمين ... » ثم تقول الروح « إن سيالا عاماً يملأ الفضاء الذى ليس بمحدود ينفذ فى الأجرام بأسرها يدعى الأثير أو المادة الأصلية ، وفيه تتولد كافة العوالم والكائنات . فهذا السيال تلازمه أبداً القوى أو النواميس الطبيعية المتولية تقلبات المادة ومسرى العوالم . وهذه النواميس المختلفة على اختلاف تركيبات المادة والمتفننة فى أنواع فعلها على مقتضى الظروف

والمراكز تعرف فى أرضكم بالثقل والتلاصق والمناسبة والتجاذب والمغناطيسية والكهربائية . ثم حركات هذا العامل الاهتزازية التى تدعى عندكم صوتاً وحرارة وضوءاً ... الخ

وكما أنه لا وجود فى الأصل إلا لمادة واحدة بسيطة تتولد منها كافة الأجرام والتركيبات الهيولية هكذا كل القوى الطبيعية صادرة عن ناموس أصلى واحد متفنن فى مفاعيله،بما لا انتهاء له فرضه الخالق منذ الأزل ليقوم به نظام الخليقة وبهاء الكائنات . إن الطبيعة لا تضاد ذاتها وشعار الكون هو ذو الوحدة فى التفنن . فإن صعدت فى سلم العوالم وجدت وحدة النظام والخليقة مع تفنن لا يعرف حده فى تلك الأجرام الفلكية ، وإن أجلت نظرك فى مراتب الحياة من أحقر الكائنات إلى أعلاها وجدت وحدة التناسب والتسلسل . كذلك القوى الطبيعية كلها صادرة بالتسلسل عن قوة أصلية واحدة تدعى الناموس العام .

ويتعذر عليكم فى الحاضر استيعاب هذا الناموس فى شمول اتساعه لأن القوى الصادرة عنه والداخلة فى دائرة أبحاثكم محدودة مقيدة . إنما قوتا التجاذب والكهربائية تفصحان لكم نوعاً عن الناموس العام الأصلى الشامل للسموات والكائنات ... فكل هذه القوى الثانوية أزلية كالخليقة ، وبملازمتها للسيال العام تعمل بالضرورة فى كل شىء وفى كل مكان . ويتنوع عملها بالمقارنة والتعاقب وتتغلب فى مكان وتمحى من آخر فيظهر فعلها . فهى عاملة أبداً فى تجهيز العوالم وإدارتها وحفظها وملاشاتها متولية أعمال الطبيعة ومعجزاتها حيثما قامت ضامنة على هذه الصورة بهاء الخليقة الأزلية ونظامها الأبدى. »[١]

* * *

---

(١) راجع ترجمة هذه الرسالة برمتها فى « كتاب الأرواح » للمرحوم الشيخ طنطاوى جوهرى ص ١٥٩ — ١٧٩ .

وعالم الروح لا يرى ولا يسمع ولا يلمس — مع وجوده الحقيقى — لأنه أثير يهتز أى يتردد — بسرعة تتجاوز سرعة الضوء . فالأثير وسط غير مادى يتغلغل فى كل شىء . وهو صلب جداً ومرن جداً فى نفس الوقت. وتسبح جميع الأجرام المكونة للكون فى بحر من الأثير . وعلى ذلك فدراسة الظواهر الضوئية والكهرومغناطيسية بصفة عامة تتضمن حتماً دراسة للحركة بالنسبة للأثير[1] .. وهو يقع فى منطقة اهتزاز تتجاوز حتماً منطقة اهتزاز الأشعة السينية . لذا فهو يتخلل عالمنا ويحيط به من جميع الجهات ، ولا نشعر به لوقوعه فى هذه المنطقة العالية من الاهتزاز .

وهناك إشعاعات كثيرة مجهولة من حواسنا بسبب ارتفاع اهتزازها لكنها موجودة ، مثل الأشعة الكونية ، والأشعة الطويلة والسينية والحرارية ، إلى الحد الذى دفع كلارك مكسويل عالم الفيزياء (١٨٣١ — ١٨٧٩) — الذى ابتكر نظرية أوضحت المفهوم العلمى للكهربية والمغناطيسية وربطت بينهما وبين الضوء — أن يقرر أننا «لن نعتبر الآن تلك المناطق الواسعة الكائنة بين الكواكب وبين النجوم أماكن خاوية فى الكون . . . إنها فعلا مليئة بهذا الوسط العجيب ، وهى من الامتلاء به بحيث لا تستطيع قوة بشرية أن تقصيه عن أصغر جزء فى الفضاء أو أن تحدث أدنى نقص فى اتصاله غير المتناهى».

فى الأمواج

ولأن كل شىء فى الكون المنظور وغير المنظور يهتز أى يتردد فإن له طول موجة . ويتوقف خضوعه لحواسنا على درجة اهتزازه ، وبالتالى على طول موجته كما سبق أن بينا، وتستوى فى ذلك الأجسام الصلبة مع السائلة مع الغازية . وقد استقرت الفيزياء الآن على أن للجسم الصلب رتبة اهتزاز وبالتالى طول موجة ، ومثله اللون والرائحة والكهرباء والموسيقى . وكلما ازداد اهتزاز الشىء كلما اكتسب رقة وشفافية . فاهتزاز الغازات أسرع

(١) راجع كتاب « الكون ذرة وحركة » للدكتور سيد رمضان هدارة ١٩٦٤ . ص ١٣٨ وما بعدها.

من اهتزاز السوائل ، واهتزاز السوائل أسرع من اهتزاز المواد الصلبة ، واهتزاز المادة الرخوة أسرع من اهتزاز المادة غير الرخوة وهكذا .

وبالتالى فإن المادة الصلبة فى النهاية حركة والضوء حركة ، ويتكون أى منهما من أثير مهتز . وقد يظهر الضوء فى بعض الظواهر على هيئة موجات وفى أخرى على هيئة جسيمات تسمى « فوتونات » مما دفع سير أرثرستانلى إدنجتون Eddington إلى أن يقرر أن الحقيقة الفيزيقية التى تفسر الضوء لا بد وأن تكون تركيباً يجمع ما بين المظهرين . وأن الأثير ليس نوعاً من المادة فهو لا مادى ، ومعنى ذلك أن هذا الشيء غير المادى يحيل نفسه إلى مادة بواسطة بعض الالتواءات الغامضة ، ويصبح ذلك الذى لم يكن له بعد أو ثقل ، بإضافة أجزاء منه بعضها إلى بعض مادة متميزة يمكن أن توزن(١).

كما يذهب إدنجتون فى كتابه عن «طبيعة العالم المادى» إلى أن الذرة ليست نشاطاً غير مادى فحسب ، بل إنها مادة عقلية ... « وإجمالا فإن مادة العالم هى مادة عقلية ... والمادة الواقعية ومجالات القوة للنظرية السابقة لا تلتئم إطلاقاً إلا فى الحالة التى تنسج فيها المادة الفكرية ذاتها تلك التصورات . فالعالم الخارجى قد أصبح الآن عالماً من الظلال . وفى إزالة الخداع فإننا نزيل المادة ، إذ رأينا حقاً أن المادة من أخطر ضروب الخداع ... »

ويذهب أيضاً إلى أن أية منضدة نشاهدها هى منضدتان ، إحداهما تلك القطع الخشبية بما عليها من طلاء وبما لها من شكل وضعها فيه الفن وتعارف عليه الناس منذ القدم ، أما الأخرى فليست هذه القطع الخشبية ولا ما اتخذ لها من رسم أو من اسم ، وإنما هى هذا الفضاء أو الأثير ، أو بعبارة أخرى هذه الذرات الهائلة العدد التى تشغل نفس حيز المنضدة التى نعرفها ، وقد أنكرنا

---

(١) معنى هذا القول هو التسليم الصريح بالقوة الخالقة وراء الأثير التى تجعله يتخذ مظهر جميع الأشياء التى تقع تحت حواسنا ، بل جميع الطاقات بما فيها الكهرباء والمغناطيسية . ولذا يتساءل المفكر العميق ول دورانت فى مؤلفه «مباهج الفلسفة» (الجزء الأول) معقباً على هذا الكشف العلمى الخطير ... أهو اللاهوت قد أعيد ؟ ...

المنضدة الثانية لأن تفكيرنا لم يتجه إليها من قبل ، هذا مع أن هذه المنضدة المجهولة منا هى فى الواقع المنضدة الحقيقية ..

فللمنضدة المادية التى نعرفها سرعة اهتزاز معروفة ، هى التى تجعلها خاضعة لحواسنا بما فى ذلك حاسة اللمس ، أما إذا ارتفع اهتزازها — بطريقة ما — فتجاوز ما تقدر حواسنا على التقاطه منها اختفت من نطاق هذه الحواس دون أن تختفى من الطبيعة . ويكون ذلك إذا ارتفع اهتزاز المنضدة التى نعرفها فتجاوز سرعة الضوء وهى ١٨٦,٠٠٠ ميل تقريباً فى الثانية وهو ما يعادل ٣٠٠,٠٠٠ كيلومتراً فى الثانية ، أو حوالى ٣٨٨ ياردة فى كل مليون جزء من الثانية . وإذ أردنا القياس بالبوصة لا بالسرعة لقلنا إن المنضدة ينبغى أن يرتفع اهتزازها إلى ما يتجاوز ٦٤٠٠٠ موجة فى البوصة أو أن ينخفض اهتزازها إلى ما يقل عن ٣٤٠٠٠ موجة فى البوصة — وهى المنطقة الخاضعة لحواسنا المادية — حتى تختفى عنها فلا نعود نشعر بوجودها ، مع أن هذا الوجود يظل حتماً حقيقة واقعة فى سلم الاهتزازات الكونية الذى لا يعرف العلم حدوده .

وهذا الذى قرره إدنجتون فى شأن « طبيعة العالم المادى » يؤيد ما قرره أيضاً جيفونس Jevons فى مؤلفه عن «مبادىء العلم» من أنه قد يوجد هنا الآن كوكب غير منظور منا يخترق بمحيطاته وبحاره وأنهاره وجباله ومدنه وسكانه عالمنا هذا ، بما فيه من أجسام وكائنات تتجاوز فى اهتزازها اهتزاز ما تقدر حواسنا على إدراكه . وما قرره كذلك توماس يونج Thomas Young من أن العلم لا ينفى احتمال وجود عوالم شتى يخترق بعضها البعض الآخر دون أن يشعر أيها بوجود الآخر .

ومن رحمة الله تعالى بالإنسان أنه جعل حواسه المادية محدودة القدرة، إذ أنه لو لم تكن الحال كذلك لأمكنه أن يرى جميع الإشعاعات من السينية إلى الأشعة الكونية ، ويشم جميع الروائح المنبعثة فيه، ولاستمع إلى أمواج اللاسلكى المنبعثة من جميع محطات الإرسال . ولا يمكن للإنسان أن يتحمل

هذه القوى العنيفة القاتلة ، إذ أن من إشعاعات الكون ما يقتل الكائنات الحية ، ومنها ما يخترق الأجسام الصلبة .

واهتزاز الكون كله أو تذبذبه على هـــذا النحو حقيقة وصل إليها عقل الإنسان من قديم ، وقد اكتشفها فيثاغورس منذ ألفى سنة عند ما قال إن كل ما فى هذا الكون يتذبذب سواء أكان منظوراً أم غير منظور . ومدارس الفيزياء الحديثة تميل إلى القول إن الذرة والخلية والنبات كله يتأثر بالذبذبات المختلفة .. وإن للحيوان الأعجم أجهزة تستقبل هذه الذبذبات .. ولا غرابة فى ذلك إذا لاحظنا كيف يوجه الإلهام بذبذباته الحياة فى كل مستوياتها . هذا الإلهام الذى يعبر عنه عالم الطبيعة أو الرياضة بأنه الإشعاع الطبيعى ، أو الإذاعة الكونية الدائمة ذات الذبذبة الخاصة التى يلتقط منها كل كائن ما يلزمه ، وما يناسب جهاز الاستقبال فيه ، على ما أشرنا إليه فى الجزء السابق[١] .

بين العقل والمادة

لما كانت المادة عبارة عن ذرات ، والذرة عبارة عن كهارب دقيقة أبسطها البروتون وهو موجب التكهرب والالكترون وهو سالب التكهرب ، فهى عبارة عن شحنة كهربية أى طاقة محبوسة لا عن كتلة صلبة . فالكتلة الصلبة لا يعرفها العلم الحديث ولا يعترف بإمكان وجودها كما قلنا . ومعنى ذلك أن كل هذا الكون الذى تعودنا أن نصفه بأنه « مادى » عبارة فى النهاية عن قوة أو طاقة كهربية إيجابية — سلبية فى وقت واحد ، لكنه يبدو لحواسنا صلباً من باب خداع الحواس التى تضللنا فى كل جزئية صغيرة من جزئيات هذه الحياة المادية ، ولذا لا تصلح الحواس أساساً سليماً لأية حقيقة علمية . ولولا الظواهر الوساطية لظلت حواسنا تنكر تماماً عالم الروح لأنها تجهل وجوده فحسب لا لأنه غير موجود .

---

(١) راجع ص ٥٠٦ — ٥٢٠ منه .

والذرة ليست سـوى « هالة تحيط بفجوة » بحسب تعريف إروين شرودنجر E.Sshrödinger[1]. وهذا العالم المادى كما يقول إدنجتون Eddington ليس أكثر من «شىء شخصى لا يوجد إلا فى الحواس». أى أن معالمه تتوقف على نشاط العقل الذى يكتشفها « فالظاهرة المادية إن هى سوى نتيجة اختبار عقولنا وتركيبها لبعض الأشياء من الوحدة الروحية التى تختفى وراءها » .

كما يقول سير جيمس جينز James Jeans فى كتابه عن «الكون الخفى[2]» « لم يعد العقل بعد دخيلا لجائياً فى دولة المادة ، ولقد بدأنا نتردد فى الظن بأن علينا من باب أولى أن ننادى به خالقاً لدولة المادة وبارئاً لها فى كل مكان وزمان » .

فالعقل أصبح فى الفيزياء الحديثة هو القوة والحركة التى تؤثر فى المادة ، فهما وحدتان متلازمتان فى كل شىء . والمادة تدل دائماً على عقل وتتبادل التأثير معه لأن المادة تؤثر فى العقل كما أن العقل يؤثر فى المادة[3] . وكل شىء نلمسه أو نسمعه أو نراه أو نشمه أو نتذوقه عبارة عن أثير فى درجة معينة من الاهتزاز . وكل اهتزاز يولد موجة ذات طول معين يتوقف على سرعة الاهتزاز كما قلنا . وحواسنا تدرك — عن طريق العقل — قدراً ضئيلا جداً من تموجات الكون ويفلت منها ما عداها ، بما فى ذلك حاسة اللمس التى قد نتصور أحياناً أنها لا تخدعنا فى اكتشاف « الماديات الصلبة » مع أن من الماديات ما قد يتجاوز فى اهتزازه مستوى معين هو مستوى ٦٤٠٠٠ موجة فى البوصة فلا نعود نشعر به، بل ننكر وجوده إنكاراً تاماً مع أن وجوده الآن حقيقة علمية كوجود المادة الصلبة التى لا يتجاوز اهتزازها مدى ماقد

---

(١) فى مؤلفه دن ميكانيكا الأمواج Wave Mechanics.
وفى مؤلفه ما هى الحياة What is life الذى صدر فى سنة ١٩٤٤ .

(٢) The Mysterious Universe.

(٣) للمزيد راجع ما كتبناه فى شأن « تأثير العقل المباشر فى المادة » فى الجزء الأول (الفصل التاسع من الباب الرابع وبوجه خاص ص ٤٦٤ — ٤٦٦) .

تدركه حاسة اللمس عندنا ، والتى نسميها صلبة استناداً إلى حكم حواسنا وبالتالى إلى حكم عقولنا فحسب ، أما العلم الحديث فلا يعترف بصلابة المادة ولا ينفى إمكان وجود مادة صلبة خارج نطاق حاسة اللمس أو النظر .

وبالتالى يمكن تلخيص الفهم الحديث للكون المادى بأن « العالم يموج بأنواع عديدة من الذبذبات من ضوء إلى مغناطيسية إلى حرارة إلى كهرباء إلى ألفا إلى بيتا ... تصدر من الأجرام السماوية تنعكس وتنكسر وتتقاطع وتتقابل بانتظام أو بغير انتظام . ولو تجمع بعض من هذه لحدثت منها نقطة مادية صغيرة أو نواة لعالم جديد . . . وعلى هذا يمكننا أن نقول إن جميع الأجسام التى نراها من أرض وكائنات كلها صور متجسدة أو متبلورة على مرآة الحياة لأشياء غير محسوسة أو لأمواج أثيرية عابرة تملأ فضاء الكون ولا يمكننا الشعور بها ، كما لا يمكننا الشعور ببخار الماء فى الجو قبل تكثيفه على لوح الزجاج »[1]

ولنضرب مثلا لذلك بالعين التى هى مرآة عقولنا وأداة أهم حواسنا وهو البصر . فالعين تتأثر ببعض الإشعاعات دون غيرها . فما تأثرت به اعتبرته عقولنا ضوءاً وما لم يخضع لتأثيرها اعتبرناه ظلاماً ، وهى لا تتأثر من أشعة الطيف الشمسى إلا بما يقع بين اللونين الأحمر والبنفسجى . فما نقص عن الأول فى طول موجته وما زاد عن الثانى فى هذا الطول لا تتأثر به ، فنتصوره ظلاماً مع أنه من عناصر الضوء ولا يختلف عن المرئيات التى نراها إلا من ناحية طول الموجة فحسب . ولما كانت أمواج الكون غير محدودة وتتفاوت تفاوتاً شاسعاً بين أمواج متناهية فى القصر وأخرى متناهية فى الطول فإن ما تدركه أبصارنا — وبالتالى عقولنا — من موجات لا يعد شيئاً فى هذا المجال الشاسع[2] .

وهذا الذى يعد الآن حقيقة علمية مقررة بالنسبة للبصر مثله يعد حقيقة

(١) من الدكتور على عبد الجليل راضى الأستاذ بكلية العلوم فى مؤلفه « العالم غير المنظور ص ٣٥ » .
(٢) عن « العين والشمس » تأليف س . فافيلوف ترجمة الدكتور عطية عبد السلام عاشور .

علمية مقررة بالنسبة للسمع والشم واللمس والذوق . فلكل شيء في الكون طول موجة ، ولكن حواسنا لها قدرة محدودة جداً على التقاط الأمواج التي تمر بها ، أما ما عداها فيفلت منها إفلاتاً كلياً مع أن وجوده حقيقة واقعة لا ينازع فيها الآن .

ولنتكلم في السمع أيضاً فنجد أن آذاننا لا يمكن أن تلتقط أي صوت — ولو كان يخترقها — إلا إذا كانت ذبذبته تتراوح بين ٢٠ و ٢٠,٠٠٠ ذبذبة في الثانية . أما ما نقص عن ذلك فلا نسمعه ، ومثله ما زاد عن هذه السرعة في التذبذب .

* * *

والذبذبات المعروفة في الطبيعة أصبحت تقدر مبدئياً بحوالي ٣٠٠ بليون سلم تحيط بنا من كل جانب . فكأننا — منذ الآن — نحيا وسط محيط عرم لا يعرف العلم له حدوداً من سلالم الذبذبات التي تتدافع من حولنا دون أن نشعر إلا بقدر منها لا يكاد يذكر . فكل واحد منا معتقل بالتالي في كهف مظلم به خمس ثقوب دقيقة لا يبلغ أيها في اتساعه ثقب الدبوس تمثل حواسنا الخمس ، وهي كل المنافذ التي تصلنا بعالم الظلام الدامس الذي يحتوينا من كل جانب ، وكأننا في كهف يتمثل في جسدنا المادي المنخفض الذبذبة والذي يحجبنا عن إدراك حقيقة العالم الخارجي الذي يحيط بنا دون أن ندرك منه شيئاً يذكر .

فمثلا تدرك آذاننا أحد عشر سلماً ونصف فحسب من السلالم الصوتية ، أما بلايين السلالم الأخرى فلا تدرك منها شيئاً(١) ، وتدرك أعيننا سلماً واحداً من الموجات الضوئية التي تمر بها ، أما بلايين السلالم الضوئية الأخرى فهي لا تراها .

وقد أمكن تقدير سرعة اهتزاز الالوان المختلفة على النحو الآتي :

اللون البنفسجي (وهو أكثرها ارتفاعاً) سرعته ٧٥٠ بليون في الثانية .

---

(١) للمزيد في هذا الموضوع راجع كتاب « أصوات لا نسمع » تأليف قدريافستف وترجمة الدكتور سيد رمضان هدارة وهو دراسة علمية في موضوع « فوق السمعيات » .

اللون الأزرق سرعته	٦٣٤ بليون فى الثانية
« الأخضر «	٥٧٠ « « «
« الأصفر «	٥٢٠ « « «
« البرتقالى «	٥٠٠ « « «
« الأحمر (وهو أقلها اهتزازاً) سرعته	٤٣٤ « « «

وثمت منطقة تلى اللون الأحمر فى «بطء» اهتزازها وتصل إلى ٣٠٠ بليون ذبذبة فى الثانية يصفها العلم المادى بأنها منطقة «ضوئية مظلمة» ، وأمكن عن طريق جهاز البولومتر اكتشاف ١٣ سلماً فقط من سلالمها .

كما أن ثمت منطقة أخرى مجهولة من العلم المادى ، لكنه مع جهله طبيعتها يسلم بوجودها ، ويرتفع اهتزازها من ٧٥٠ إلى ١٥٠٠ بليون ذبذبة فى الثانية . وتليها ارتفاعاً منطقة اهتزاز أشعة اكس التى تتراوح بين حوالى ٣٠٠٠ بليون و ٣٠٠٠٠ بليون ذبذبة فى الثانية .

وتحتوى الاهتزازات من أدناها فى الصوت إلى أعلاها فى أشعة اكس على ٥٧ سلماً ، لا تستطيع حواسنا أن تدرك منها سوى ١٣ سلماً أو أقل من ذلك عن طريق جهازنا العصبى المادى .

وتبعث الشمس ضوءها فى شكل ذبذبات أثيرية يبلغ معدل سرعتها أربعمائة بليون فى الثانية ، وهذا الضوء نستقبله بحواسنا بحسب الظاهر لكن نستقبله بحسب الواقع بعقولنا ، لأن السمع والنظر والشم والذوق واللمس عمليات عقلية قبل كل شىء ، وهذه الآن حقيقة يسلم بها تماماً العلم المادى . وذلك لأن الذبذبات المختلفة تمر بحواسنا — كلها وبغير استثناء أية ذبذبة منها ، فلا نشعر منها إلا بما تستطيع عقولنا أن تتحمل تسجيله ، أما ما عداه فتمتنع هذه الحواس أو بالأدق تعجز عن تسجيله ، بقدر عجز العقل الذى يحكمها عن هذا التسجيل .

« وعندما يزيد عدد الذبذبات يتغير الضوء إلى لون ، وكل تغيير تنشأ عنه

ذبذبات أقل من سابقتها فى سرعتها أو أكثر. فإذا تكلمنا عن العشب باعتباره أخضر وعن السماء باعتبارها زرقاء وعن الورد باعتباره أحمر فإننا نعلم أن هذا لا يصدق إلا فى عقولنا فقط ، لأن الإحساسات التى نحس بها نتيجة ذبذبات الأمواج الضوئية إنما تحدث الآثار اللونية ، وعندما تنخفض هذه الذبذبات إلى ما دون الأربعمائة بليون فى الثانية فإننا نحس بها كحرارة ومن هنا نرى أيضاً أن الحرارة إنما هى فى عقولنا »[1] .

وكما أن رسالة العقل هى أن يستقبل قدراً ضئيلا من تموجات الطبيعة عن طريق المخ (طالما كان مرتبطاً به بسبب الحياة التى نحياها الآن) فإن كل فكرة يفكر فيها العقل ، إنما هى بدورها عبارة عن تذبذب وتموج مشحون بطاقة كهربية مغناطيسية تنبعث منها، ولا سبيل إلى رفع معدل ذبذباتنا العقلية إلا إذا كان مدار تفكيرنا أفكاراً نقية راقية ، حتى تكون عقولنا محطات إرسال واستقبال فى نفس الوقت للأفكار النقية التى تحدث الصحة والمرح والسعادة والسلام لصاحبها، ولمن تربطه به صلة من هذه الصلات العقلية التى بدأت بحوث الباراسيكولوجى تسلم بها وتتجه إليها اتجاهاً صريحاً فى القرن الحالى .

ومما تنبغى الإشارة إليه أيضاً أن من المسلم به أن خلايا المخ تعمل كمولد كهربى يبعث الكهرباء إلى الأعصاب التى تبعث بها إلى الخارج فى صورة أمواج أثيرية تشبه تلك التى تبعث بها محطات الإرسال المختلفة ، وهذه الكهرباء النسبية ذات نشاط فعال لأنها من النوع الديناميكى ، وتتفاوت درجات اهتزازها تفاوتاً ضخماً ، وتثبت صحة ما كانت تقرره

---

(١) عن كتاب « الموجات العقلية » للأستاذ وليم سرجيوس الحامى ص ١٦ ، وراجع أيضاً ومؤلفات الباحثة فيرا ستانلى آلدر Vera Stanley Alder وهى: —

The Initiation Of The World.	استهلال العالم
The Finding Of The Third Eye.	العثور على العين الثالثة
The Fifth Dimension.	البعد الخامس

الأرواح منذ القرن الماضى من أنها تستفيد من هذه الطاقة التى تنبعث من جسوم الوسطاء ، وأحياناً من جسوم بعض الجلساء فى إحداث الظواهر التى تقدر على إحداثها ، وأنها أحياناً تجد فى الغرفة بطارية آدمية صالحة لإحداث هذه الظواهر وأحياناً أخرى لا تجدها فتفشل الجلسة ، فيذهب المعارضون فى تأويل هذا الفشل مذاهب شتى ليست فى صالح صحة هذه الظواهر .

الضوء هو الحقيقة الثابتة الوحيدة

وإذا كانت المادة الصلبة تمثل واحدة فحسب من ملايين الأسرار الكونية ، فإن الضوء هو أغرب هذه الأسرار ، لأن أمواج الضوء تنفذ فى الفراغ الذى يملأ الفضاء ويتخلل كل شىء حتى المادة الصلبة . وحتى الأثير ، الذى يعتبر بمثابة ناقل للضوء فى نظرية الاهتزاز ، يرى أينشتين أنه غير لازم وأنه يمكن طرحه جانباً ومع ذلك يظل فهم الفيزياء الحديثة لطبيعة الكون على حاله دون تغيير ، من ناحية لزوم وجود مستوى للوجود يلى فى سرعة اهتزازه عالم المادة ، ومن ناحية التداخل المحتمل بين العالمين ، ومن ناحية كافة ما تؤدى إليه نظرية النسبية من نتائج تسبب الذهول والحيرة .

وقد بين أينشتين بمعادلاته الرياضية كيف أن سرعة الضوء هى الأمر الثابت الوحيد فى الكون ، وكيف أن الزمن والفضاء عاملان نسبيان يستمدان قياسهما من علاقتهما بسرعة الضوء . وهكذا أبعد أينشتين بمعادلاته من الكون كل حقيقة ثابتة فيما خلا الضوء . . . أليس الله نور السموات والأرض؟ . . . فهو الحقيقة الثابتة الأزلية الوحيدة وما عداه إلى زوال . . . كما ورد فى سفر التكوين (١ : ٣١) « وقال الله ليكن نور » فالأمر الإلهى الأول جاء إلى حيز الوجود بالحقيقة الذرية الوحيدة وهى النور .

وفى معادلته المشهورة التى تبسط التساوى بين المادة والنشاط أثبت أينشتين أن النشاط فى أية ذرة من ذرات المادة معادل لكتلتها أو وزنها مضروبا فى مربع سرعة الضوء . ويتم إطلاق القوى الذرية عن طريق إفناء الذرات المادية ، وبهذا كان موت المادة يمثل ولادة العصر الذرى .

إن سرعة الضوء قانون حسابى أو مقدار ثابت ، لا لأن هناك حقيقة مطلقة فى ال ١٨٦٫٣٠٠ ميل فى الثانية (وهو سرعة الضوء) بل لأنه لا يوجد جسم مادى تزيد كتلته تبعاً لسرعته يمكن أن يبلغ أبداً سرعة الضوء . وبتعبير آخر فإن الجسم المادى المتناهى الكتلة هو الذى يمكن أن يعادل سرعة الضوء .

وتأسيساً على هذه الحقائق العلميـــة يقول الحكيم برمهنسا يوجانندا : فالمعلمون الذين يستطيعون أن يتجسدوا وأن ينفضوا عنهم أجسادهم أو أية مادة أخرى ، وأن ينطلقوا بسرعة الضوء ويستخدموا أشعة النور الخالقة فى إحداث أى مظهر مادى قد وفوا بالشرط الضرورى الذى قال به أينشتين بأن كانت كتلتهم غير متناهية . . والجاذبية سواء كانت القوة التى قال بها نيوتن أو القصور الذاتى الذى قال به أينشتين عديمة الحول فى إرغام الروح المتجسدة لإظهار خاصية الثقل الذى هو الشرط المميز للجذب فى الأشياء المادية . فالشخص الذى يعرف أنه الروح الموجودة فى كل مكان لا يعود يخضع لتأثر الجسم بمقاييس الزمن والفضاء . . .

والإنسان الذى يمزج وعيه بالخالق يحس بالجوهر الكونى كنور . ولا فرق لديه بين الأشعة الضوئية المكونة للماء والأشعة الضوئية المكونة لليابس . فإذا تحرر من الإحساس بالمادة ومن أبعاد الفضاء الثلاثة (الطول والعرض والارتفاع) ومن البعد الرابع وهو الزمن نقل جسمه النورانى بسهولة فوق الأشعة الضوئية للتراب والماء والنور والهواء . . . ومن ذلك الحين ينظر إلى المادة ككتلة غير متميزة عن الضوء »[1].

فى تبادل التحول بين المادة والطاقة

وإذا كان من المسلم به فى الفيزياء العصرية أن كل ما فى الكون عبارة عن مادة (بحسب حواسنا) وطاقة فإن من المسلم به كذلك أن كلا منهما يقبل

---

(١) عن كتاب « فلسفة الهند فى سيرة يوجى » للحكيم برمهنسا يوجانندا ترجمة الأستاذ زكى عوض المحامى ١٩٥٥ ص ٣٠٢ — ٣٠٤ .

التحول إلى الآخر ، بل إنه يتحول إليه بشكل لايتوقف وإن كان يتفاوت في سرعته وفي أسلوبه ولذا كان قانون الكتلة والطاقة في نظرية النسبية لأنيشتين قانون واحد ، فالمادة والطاقة تتحولان إحداهما إلى الأخرى تحت الظروف الملائمة .

والمجموع الكلي للمادة والطاقة في الكون ثابت لايتغير يحكمه قانون واحد مشترك ، وهو أن الكمية الكلية للطاقة في الكون ثابتة ولو أن نسبة كبيرة منها تظهر على شكل مادة . فالمادة أو الطاقة يمكن أن تتخذ صورة أخرى جديدة عند توافر ظروف معينة قد تختلف بحسب طبيعة كل منهما ، ولكن في ظل قانون عام ينظم هذا التحول ويسيطر عليه وهو أن الطاقة والمادة معاً لاتقبلان الفناء ، أي لا تضيعان هباء مهما حدث من تحول في صورتهما بسبب أي تغير في ذبذبتهما ارتفاعا أو انخفاضاً . وهذا التغير هو الذي يخضع أيهما لحكم حواسنا ، أو يخرجه من نطاق هذه الحواس[١] .

وفي هذا الشأن يقول سير جيمس جينز James Jeans العالم الرياضي والطبيعي في مؤلفه عن « الكون من حولنا »[٢] . « من الأعمال العظيمة التي حققها علم الطبيعة في القرن التاسع عشر تقريره المبدأ العام المعروف بمبدأ « حفظ الطاقة » فالطاقة يمكن أن توجد في أشكال متنوعة كثيرة ، ويمكن أن تتغير من شكل إلى شكل إلى مالا نهاية ، ولكن يستحيل أن تفنى تماماً . فطاقة الجسم المتحرك لاتفقد حينما يتوقف هذا الجسم عن الحركة ، بل تتغير فقط إلى شكل آخر . فمثلا عندما تتوقف رصاصة عن الحركة لإصابتها الهدف ، يتحول بعض طاقتها إلى حرارة تسخن الهدف ، وبعض طاقتها

---

(١) بل أن الحركة والصوت أيضاً لايقبلان الفناء في الفيزياء الحديثة . ولذا ذهب بعض العلماء إلى القول بأننا في كل مرة نحرك فيها يدنا نحدث أمواجا في الأثير الكوني تنطلق إلى ماشاء الله . كما ذهب بعضهم إلى أنه يمكن نظرياً التقاط أصوات الناس في مختلف العصور لو وفقنا إلى اختراع جهاز مناسب ، لأن أصواتهم لا زالت تجوب الأثير في رحلات لا تنقطع .

(٢) The Universe Around Us طبعة ٤ ص ١٠٣ .

إلى حرارة تسخن الرصاصة نفسها ، أو ربما تذيبها . وفى هذا الشكل الجديد — شكل الحرارة — توجد طاقة مساوية للطاقة الأصلية للرصاصة .

وتبعاً لهذه النظرية ، يقرر المؤلف أن الطاقة لا يمكن خلقها وكل طاقة حالية لابد وأن تكون قد وجدت منذ وقت ما ، وإن كان من الجائز أن وجودها فيما سبق كان فى شكل مختلف عن وجودها حالياً . فالطاقة فى النهاية لا يمكن خلقها من العدم ، وهذا قانون طبيعى من أهم القوانين التى تتحكم فى سير حركة الحياة فى الكون[1].

دلالة النسبية

كشفت نظرية النسبية عن حقائق كثيرة مذهلة أهمها أنها انكرت تماما وجود المكان المطلق والزمان المطلق ، وبينت أن أيهما يختلف باختلاف الظروف . بل حتى الأطوال والكتل فقدت معناها القديم فأصبح من المسلم به أن كل مافى الكون نسبى ، بمعنى أن حكم حواسنا يتفاوت أحياناً من النقيض إلى النقيض فى شأنه تبعاً لتفاوت ظروفنا ، فالأرض التى نسكنها ونظن أنها ثابتة لا تتحرك تدور حول نفسها بسرعه ١٨ ميلا فى الدقيقة ولا نشعر بذلك إلا إذا وقفنا بعيداً عنها على سطح نجم مثلا وأخذنا فى مراقبتها . لو قلنا إن الأرض تدور حول الشمس فالشمس كذلك ليست ثابتة ويمكننا أن نقول إنها تدور حول مركز آخر مافى الكون . بل إن الفكر يتجه الآن لاعتبار كل نجم وكل كوكب متحركاً فى الفضاء لا فى فلك دائرى بالضبط كما نظن ، بل فى فلك حلزونى بدأ من نقطة ما وسينتهى فى نقطة أخرى لا يعلمها إلا الله ...

وليست النسبية قاصرة على السكون والحركة ، بل على مقدار السرعة والعجلة والكتلة والحجم إلى غير ذلك من الصفات الطبيعية . فمن مبادىء

---

(١) راجع أيضاً فى هذا الشأن كتاب « الكون ذرة وحركة » تأليف الدكتور سيد رمضان هدارة الأستاذ بكلية العلوم . القاهرة ١٩٦٤ ص ٢١ ، ١٤٢ — ١٥٨ .

نظرية النسبية أن كتلة الجسم تزداد فى حين أن حجمه ينكمش إذا ازدادت سرعته . وعلى هذا لو تغيرت سرعة الجسم وأصبحت هائلة كسرعة الضوء التى تبلغ ٣٠٠,٠٠٠ كيلو متراً فى الثانية مثلا فإن التغيير فى كل صفاته الطبيعية يكون محسوساً جداً ، بل إن الجسم بمعنى آخر يصبح جسماً جديداً ...

والزمن نفسه يتغير لو تغيرت ظروفنا . إننا إذا تخلصنا من هذه الأرض المادية واحتللنا مكاناً مستقلا لا يربطنا بجاذبيتها ولا بقوانينها سوف لا نشعر بالزمن الذى تعودنا عليه ولا يصبح للعمر أو للفناء لدينا أى معنى . إننا عندئذ لا نعرف سوى اللازمن — أى الخلود — لا ماضى ولا مستقبل ولكن الحاضر وحده هو الذى نعيش فيه »[1].

معنى الزمن فى الفيزيا والرياضة الحديثين

لذا يقول أينشتين ، وهو واضع نظرية النسبية ، إنه ليس للزمن من حقيقة قائمة بذاتها ، وأنه من خواص المادة وإن المستقبل قد يتصل بالحاضر وقد يلحق بالماضى ، ففى كل لحظة نحن نقتطع من المستقبل جزءاً نضمه إلى الماضى فلا ينقص هذا ولا يزيد ذاك لأن كلا منهما لا نهائى . وإن المستقبل يلتف على شكل دائرة وبذا يدخل فى المـــاضى إذ الدائرة علامة الأبدية .

وبحسب نظرية النسبية تكون الظواهر التى تمر بنا بسرعة الضوء هى تلك التى اعتدنا أن نسميها إشعاعاً ، أما الأحداث المجسمة التى تسير ببطء شديد فقد اعتدنا أن نسميها مادة . أو بحسب تعبير أينشتاين أن المادة هى عقل أو فراغ أو فضاء نقصت سرعته عن السرعة الطبيعية للضوء وهى ١٨٦ ألف

---

(١) عن الدكتور على عبد الجليل راضى فى المرجع السابق ص ٢٨ . وراجع أيضاً كتاب Challenge Of The Universe الذى ظهر فى سنة ١٩٦٢ للعالمين ألن هاينك Allen Hynek ونورمان د . أندرسون Norman D. Anderson والذى نقله إلى العربية الدكتور سيد رمضان هدارة باسم «أسرار الكون» ص ١٦٢ — ١٦٥ .

ميل فى الثانية . ولو أن هذه المادة عادت تتذبذب بسرعة الضوء لاختفت ولم تعد تدركها حواسنا .

فنحن إذا ما أمسكنا فى يدنا بقطعة من الحديد شعرنا بصلابتها ولكنها فى الواقع ليست صلبة ، وكل ما حدث هو أن حاسة اللمس قد تأثرت باهتزاز الالكترونات فشعرنا بصلابتها كما نشعر بنفس الكيفية بحرارتها أو ببرودتها، فتنقل حواسنا أو عقولنا صورة الحديد وحرارته أو برودته. ونفس القول يصدق على جميع عناصر العالم الذى نعيش فيه والذى يبدو لنا صلباً وما هو بصلب ولا بمادى .

ولذا يتساءل المرحوم الدكتور مصطفى مشرفة — وهو بصدد شرح نظرية النسبية — كيف تبدو الأشياء لراصد يسير بسرعة الضوء؟ .. . ويجيب بأن الأشعاع الذى يصاحب هذا الراصد جنباً إلى جنب يبدو له مادة صلبة ، أما الأشياء المادية التى تمر به بسرعة الضوء فتكون إشعاعاً .

وفى ضوء هذه المعلومات الأولية فى الفيزياء الحديثة ، بشأن طبيعة المادة الصلبة والطاقة والضوء وبشأن نظرية النسبية ، أمكن لعلماء المادة قبل غيرهم أن يفهموا البيانات الروحية ويهضموها —عن موقع عالم الروح، وعن حقيقة الخلود — بوصفها حقائق كونية عامة قبل أن يكون هذا الفهم فى ضوء الكشوف الوساطية . وفى ضوئها أيضاً أمكن لعلماء الروح أن يوضحوا المعلومات التى تلقوها من عالم الروح عن موقعه وعن أسلوب الحياة فيه على أسس واضحة تقبلتها بسهولة أفهام العلماء ، وكانت بمثابة الإطار الخارجى الذى جعل الكشوف الروحية جزءاً لا يتجزأ من الكشوف العلمية هذه ، من ناحية أنها أضحت تكملها وتتكامل بها فى نفس الوقت .

اتساع الفضاء الكونى

صور أغلب الباحثين الفضاء الكونى على أنه غير محدود ، أى لانهائى يسبح فيه فى حركات منتظمة لا تتوقف عدد غير محدود من المجرات التى

تحتوى على ألوف الملايين من النجوم . ومن المتفق عليه الآن أن الأرض ليست سوى فرد من افراد المجموعة الشمسية ، وأن هذه الأخيرة ليست سوى فرد من أفراد المجموعة المجرية ، وأن هذه الأخيره ليست سوى فرد من أفراد مجموعة المدن النجومية التى فى الفضاء . . .»[١]

ويمكن وصف المجرة بأنها عجلة مرصعة بالنجوم تدور فى الفضاء وتستغرق مجموعتنا الشمسية التى لاتعدو أن تكون شمسنا إحدى نجومها مليونين من القرون كيما تتم دورة كاملة واحدة وهى منطلقة بسرعة مائتى ميل فى الثانية فما أطولها من رحلة ؟ . . .

كما تبين أن سديماً واحداً هو سديم الحلقة الذى يعرف باسم الكعكة السماوية يتسع وحده لحوالى ثلاثين الفا من أمثال مجموعتنا الشمسية بكواكبها ، وبأبعاد هذه الكواكب عن الشمس ! . فتأمل فى عظمة الكون وقدرة الخالق تعالى فى جانب ضئيل منها . . .

ويقول الأستاذان ألن هاينك Allen Hynek ونورمان د . أندرسون Norman D. Anderson إنه « من المستحيل افتراضياً طبقاً للأسس الإحصائية أن يكون نجمنا بالذات هو الوحيد الذى له كواكب تتوافر فيها الظروف الكيميائية والطبيعية لاستمرار الحياة . إن هذا القول شبيه بقولك إن قطتك هى الوحيدة التى أنجبت قطيطات من بين بلايين البلايين من القطط . ثم إن المجموعة المجريه بأكلها تضم البلايين الفائقة العدد من النجوم . ولو أن نجما واحداً فى كل ثلاثة بلايين نجم كانت له مجموعة كوكبية لكان عدد المجموعات الشمسية يقدر بالملايين . وحيث أن كيمياء النجوم متشابهة ، فالنتيجة إذن أنه من المحتمل أن الحياة (من النوع الأرضى) ظاهرة واسعة الانتشار »[٢].

---

(١) عن كتاب «النجوم فى مسالكها» من تأليف سير جيمس جينز James Jeans ترجمة الدكتور أحمد عبد السلام الكردانى . طبعة ٣ ص ١٤٤ ، ١٤٥ .

(٢) عن مؤلفهما Challenge of the Universe . الترجمة العربية بعنوان «أسرار الكون» للدكتور سيد رمضان هدارة ص ٨٨ .

هذا وقدصور أينشتين الفضاء كرويا محدوداً لا يمكن التحقق منه بالمشاهدة، لأنه ينثنى على نفسه وفى النهاية ينقفل كما هو الشأن فى سطح الأرض . وبحسب معادلته فى المجال أمكن لعالم الفلك أدوين هابل Edwin Hubble فى مرصد ويلسون أن يقدر نصف قطر الكون بأنه يساوى ٣٥ بليون سنة ضوئية ، وذلك بعد أن قدر هندسة الكون أو انحناءه لتقدير قطره بالأجرام المادية الموجودة فيه ، وبعد الحصول على متوسط كثافة المادة فى الكون ودراسة عينات من مساحات السماء لمدة عدة سنوات .

فإذا انطلق شعاع ضوئى فى الفضاء بسرعته العادية وهى ١٨٦٫٠٠٠ ميل فى الثانية تقريباً فإنه يسير فى دائرة كونية ويعود إلى مكانه الأصلى بعد زمن يزيد قليلا عن مائتى بليون سنة ضوئية [١] .

والسنة الضوئية هى إحدى الوحدات التى يستعملها علماء الفلك فى قياس المسافات الكوكبية وهى تمثل المسافة التى يقطعها الضوء فى سنة كاملة وهى تساوى ٥٫٧٧ × ١٢١٠ ميلا أو ٩٫٤٦ × ١٢١٠ كيلو متراً تقريباً . فهى تعادل ٥٫٨٦٩٫٧١٣٫٦٠٠٫٠٠٠ ميل .

ويقول الدكتور بوين لقد كان إدوين هابل أول من طبق الطرق الفلكية لقياس أبعاد السدم التى تبعد كثيراً عن تجربتنا وتحقق من أن سديم «المرأة المسلسلة» وغيره من السدم الحلزونية عبارة عن مجموعات تبعد ملايين السنين الضوئية . وفى عام ١٩٥٣ مات هابل فى الوقت الذى كان يحلق فيه بأفكاره فوق حدود الكون. كما يقول عنه أيضاً إنه أول من حدد بعد سديم «المرأة المسلسلة» ، وقد نجح فى هـــذا العمل بعد أن فشل فيه الكثيرون ، كما اكتشف فى سنة ١٨٩٥ فى هذا السديم أول مجموعة

(١) راجع كتاب « العالم وأينشتين » تأليف لنكولن بارنت ترجمة الأستاذ محمد عاطف البرقوقى ص ١٠٢ ، ١٠٣ .

خارجية من النجوم الجديدة(١) .

كما يرى سير جيمس جينز أن الراجح هو أن محيط الكون يقع بين ٨٠٠٠ مليون و ٥٠٠,٠٠٠ مليون سنة ضوئية ، ثم يضيف قائلا ، ومع كل فإن الرقم الحقيقي لا يهمنا من وجه إلا قليلا إذ أن أصغر الأرقام المحتملة واقع وراء أقصى حدود تصورنا ، فإن أبعد مسافة في الفضاء أمكن لمراصدنا أن تنفذ إليها حتى الآن هي ١٤٠ مليون سنة ضوئية ، وهي ليست سوى كسر صغير جداً من الطريق حول الكون كله(٢) .

فإذا كان الضوء يقطع في الثانية الواحدة ١٨٦,٠٠٠ ميل تقريباً أو ٣٠٠,٠٠٠ كيلو متر فكم يقطع في الدقيقة ، ثم في الساعة ثم في اليوم ثم في الأسبوع ثم في الشهر ثم في السنة ، ثم في بلايين هذه السنين الضوئية التي يتحدث عنها علماء الرياضة والفلك ؟ ! .. هذا هو اتساع الكون كما تكشفت عنه العلوم الحديثة .

* * *

وهكذا يظهر الكون أعظم وأعقد بكثير مما ظنه أي إنسان حتى وقت ليس ببعيد ، على ما يعبر عنه العالمان أللن هاينك ونورمان د . أندرسون « وأحياناً يؤدي هذا العظم المفزع بالناس إلى الشعور بأنه يحط من قدر الإنسان والأرض إلى حد التفاهة . على أننا يجب أن نتذكر أنه بقلب التلسكوب رأساً على عقب وفحص العالم الميكروسكوبي المحيط بنا نستطيع أن نصل بأبصارنا في عالم الأشياء الأصغر من الأرض إلى مدى مساوٍ تقريباً للمدى الذي يمكن أن تصل إليه أبصارنا في عالم الأشياء الأكبر منها .

ويجب أن نتذكر أيضاً أن الحجم في حياتنا شيء نسبي كالكثير من

---

(١) راجع كتاب « إلى عوالم أخرى » To Other Worlds تأليف فرنز بودلر ترجمة الدكتور عبد الحميد أمين القاهرة ١٩٥٦ ص ٩٠ — ٩٢ .

(٢) « النجوم في مسالكها » المرجع السابق ص ١٥٩ — ١٦١ .

الأشياء الأخرى . وحقا إن الحجم فى ذاته لا يعنى كثيراً ، وأن العقل البشرى الذى تفتح إلى الحد الذى أمكنه عنده التساؤل عن الكون ليتسامى على حدود الحجم . وفى التحليل الأخير نجد أن العقل الذى يحيط بالكون لأعجب من الكون الذى يحيط بالعقل ، وخاصة عندما يستخدم كأداة دقيقة لدراسة الكون والتصدى لتحديه »[1] .

بل إن عظمة الكون لا تقف عند حد اتساعه الهائل الذى يتجاوز بمراحل كثيرة ما تقدر عقولنا على إدراكه أو تصوره . فإن هناك خاصية أخرى للكون أظهرتها معادلات أينشتين وهى أن الكون له خواص كخواص فقاعة الصابون لأنه غير ثابت فى الاتزان ، وغير قابل لأن يقف ساكناً ، إذ أن الكون كما يقول سير جيمس جينز « بمجرد خروجه إلى حيز الوجود يأخذ حجمه فى الازدياد ولامناص له من أن يستمر فى التمدد إلى غير حد ، فهو لايشبه فقاعة الصابون التى نفخناها وفصلناها عن الغليون بقدر ما يشبه الفقاعة التى لا نزال ننفخ فيها ولما تفارق بعد الغليون . فحجمه يزداد على الدوام ولا مناص من أن يظل يزداد حتى آخر الزمن .

وكما أن فقاعة الصابون كلما ازدادت حجماً رقت شيئاً فشيئاً باستمرار وظلت أجزاؤها المختلفة تتباعد بعضها عن بعض ، فكذلك كلما ازداد حجم الكون ازداد بعد ما بين الأجرام المختلفة فى الفضاء وتحركت السدائم ، تلك المدن النجومية العظيمة الواقعة فى الغشاء الصابونى ، وظل تباعد بعضها عن بعض فى ازدياد . إن أغلبها حتى فى الوقت الحاضر هو من البعد عنا بحيث نحتاج فى رؤيته إلى مرقب قوى حقاً ، وعلى مر الزمن سيأتى وقت يكون بعدها عنا أكبر من بعدها الآن ... »

وفى الحق إن علينا أن نقدر حالة أسوأ حتى من هذه ، فإن العالم الذى

---

(١) Challenge Of The Universe 1962 المرجع السابق ص ١٧١ .

يتمدد لايزداد حجمه باستمرار فحسب ، بل تزداد سرعة تمدده على الدوام. وإذن فلابد أن يأتى عليه وقت يتمدد فيه بسرعة هى من العظم بحيث لا يمكن شعاعاً من الضوء قط أن يتم الدورة حول العالم أبداً ، فإن الضوء حين يكون قد قطع مليون ميل يكون محيط الكون قد تمدد مليونى ميل ... وينبغى أن أضيف أنه إذا كان لنا أن نثق بحسابات الرياضيين فهذا الوقت قد حل بالفعل ، أى أننا قد ولجنا الكون بعد أن ولى زمن اكتنافه بالإبصار . . »[1] .

بين اتساع الفضاء الكونى وعجز العقل

وفى هذا الشأن — شأن عجز العقل عن إدراك حقائق الكون غير المحدودة — يتساءل الأديب الكبير موريس مترلنك (جائزة نوبل فى الأدب فى سنة ١٩١١) « كيف يتأتى لأفكارنا ولنظراتنا أن تخترق غير المحدود وغير المنظور ؟ نحن الذين لانعى ولانرى حتى الشىء الذى نرى عن طريقه والذى هو مصدر لكل أفكارنا ؟ فى الواقع أن الإنسان لا يرى الضوء نفسه على ما لوحظ بحق ، فهو لا يرى إلا المادة ، أو بالأدق الجزء الأصغر من العوالم الكبرى التى يعرفها تحت وصف المادة ، عندما يلمسها الضوء . لكنه لا يدرك الإشعاعات الهائلة التى تخترق السماوات ، إلى اللحظة التى يعترضها شىء مطابق للاشياء التى ألفت عينه أن تراها على هذه الأرض ، فما بالك بالفضاء العامر بشموس لاعدادلها وبطاقات لاحدود لها ؟! .

وحتى إذا كنا لانرى الضوء فمن حقنا بالأقل أن نعتقد أننا نعرف بعض خصائصه أو بعض انعكاساته ، ولكننا نجهل كلية كل ما يتعلق بالقانون الوحيد الهام للكون بلا ريب ، وهو قانون الجاذبية . فما هى هذه القوة التى هى أكثر القوى قدرة وأقلها خضوعاً للحواس ؟ فهى لا تدرك

---

(١) « النجوم فى مسالكها » المرجع السابق ص ١٥٥ — ١٥٦ .
وراجع للمزيد مؤلفاً لسير ادنجتون Eddington عنـــوانه « الكون المتمدد » The Expanding Universe .

ولا شكل لها ولا لون ، ولادرجة حرارة ، ولا قوام ولا طعم ولاصوت، ولكنها عظيمة إلى حد أنها تعلق وتحرك فى الفضاء جميع العوالم التى نراها وتلك التى لن نراها أبداً ...وهى أسرع من الفكر وأكثر رقة منه وأكثر روحانية ، وتسود على كل مايوجد من أشياء بين عظيمها إلى حد غير محدود وضئيلها إلى حد غير محدود . فلا توجد حبة رمال على أرضنا ، ولا نقطة دم فى عروقنا إلا وتتخللها وتعمل فيها هذه القوة ، وتبعث فيها الحياة . وكذلك الشأن أيضاً فى كل لحظة وبالنسبة لأكثر الكواكب بعداً عن آخر مجموعة شمسية نحاول أن نتخيلها خارج حدود تصوراتنا ، حتى لتبدو قاصرة تماماً جملة شكسبير المشهورة : « توجد أشياء فى الأرض وفى السموات لا يمكن أن تحلم بها فلسفتنا ! » .

فلا يوجد أكثر من الأشياء التى تعجز فلسفتنا عن أن تحلم بها أو تتخيلها، ولاتوجد سوى أشياء تعجز الفلسفة عن أن تحلم بها أو لا يمكن أن تتصورها، وإذا كنا لا نشاهد حتى الضوء ، وهو الشيء الوحيد الذى نعتقد أننا نراه ، فيمكن القول بأنه لا يوجد من حولنا سوى غير المنظور .

وإننا نتحرك مخدوعين بأننا نرى ونعى كل ما لا يمكن الاستغناء عنه فى حياتنا الصغيرة ، وكل ما عدا ذلك ، وهو تقريباً كل شيء ، فإن حواسنا لا تحول فحسب بيننا وبين الوصول إليه ، أو رؤيته أو إدراكه ، بل تنفى عنا أيضاً قدرة افتراض ماهيته ، وتمنعنا من أن نفهم منه شيئاً ، حتى لو حاول أى ذكاء من مستوى آخر أن يكشف لنا عنه أو يفسره لنا ، فعدد الألغاز وحجمها غير محدود بقدر اتساع الكون نفسه . فلو اقتربت الإنسانية يوماً من حلول الألغاز التى تبدو لها أعظمها وأعصاها على الحل ، مثل مصدر الحياة وهدفها التى تقف اليوم كجبال أزلية ، فإن الإنسانية سترى من وراء هذه الجبال قد برزت جبال أخرى ستكون مثلها فى ضخامتها وتعذر ارتقائها ، وهكذا الحال إلى ما لا نهاية له .

وبالنسبة لما ينبغي معرفته للإمساك بمفتاح لهذا العالم ، سيوجد دائماً فى نفس المكان جهل مركزى وستكون الحال على نفس المنوال ،حتى لو كان هناك ذكاء أكثر اتساعاً ونفاذاً بملايين المرات من ذكائنا . فكل ماسيكشفه هذا الذكاء المتزايد فى قدرته بشكل عجيب سيتعثر بحدود ليس اجتيازها أيسر من اجتياز الحدود الحاضرة. فكل شىء لاحدود له فى كل مالا حدود له ، وهكذا سنظل السجناء الخالدين لما لانهاية له .

وبالتالى فإنه من المحال علينا أن نقدر بأية درجه كانت — ولو كانت أصغر الدرجات المتصورة — الحالة الحاضرة للكون ، وأن نقرر طالما كنا آدميين — ما إذا كان الكون يتبع فى مساره خطاً مستقيماً أو يرسم دائرة لا قياس لها ، وما إذا كان يسير نحو حكمة متزايدة أو نحو اضطراب متزايد ، وما إذا كان يزحف نحو الأبدية التى لا نهاية لها ، أو يعود قافلا نحو ماضيه الذى لم تكن له بداءة . فكل ماسمح لنا بمعرفته فى مقرنا الضئيل هذا هو أن نبذل قصارى وسعنا نحو ما يبدو لنا أفضل من غيره ، وأن نقيم فى هذا المقر كأبطال مقتنعين أنه لا يمكن أن يضيع هدراً شىء مما نعمله فيه »(١) .

ثم يستطرد ما ترلنك قائلا عن رأيه فى علاقة ذلك كله بالموت « إن هذا هو تقريباً ما يجوز تأكيده الآن للروح القلقة إزاء الفضاء الذى لا يمكن سبر غوره ، والذى سيلقيها الموت فيه قريباً . فإنها يمكنها أن تؤمل أن تجد فيه كل ما كانت تحلم به ، ولعلها ستخاف منه بقدر أقل مما كان يرهبها فيه . وإذا كانت تفضل أن تبقى فى الانتظار رافضة جميع الافتراضات التى بذلت وسعى فى عرضها بغير تحيز لواحدة منها ، فإنه مع ذلك يبدو عسيراً للروح أن ترفض بالأقل قبول هذا التأكيد العظيم الذى يعثر عليه القارىء فى صميم أى من هذه الافتراضات وهو أن الفضاء اللانهائى لا يمكن أن يريد بنا شراً ،

---

(١) عن مؤلفه فى « الموت » La Mort طبعة ١٩١٣ ص ٢٣٩ — ٢٤٤ .
وراجع ما سبق عن المؤلف فى الجزء الأول ص ٢٩٢ .

بالنظر إلى أنه إذا ما عمد إلى تعذيب أقلنا شأناً تعذيباً أزلياً ، فإنه سيعذب «شيئاً» لن يمكنه أن ينتزعه من نفسه ، وبالتالى سيعذب نفسه بنفسه .

ولم أضف شيئاً إلى ما كان المرء يعرفه من قبل ، ولكنى حاولت بكل بساطة أن أفصل ما يمكن أن يكون صحيحاً عما لا يمكن بالتأكيد أن يكون كذلك ، لأنه إذا ما جهل المرء أين توجد الحقيقة فإنه مع ذلك يتعلم أن يعرف أين لا توجد هذه الحقيقة . ولعلنا بالبحث عن هذه الحقيقة التى تأبى أن نعثر عليها نكون قد عودنا أعيننا أن تخترق محنة الساعة الأخيرة بالتطلع إليها فى ثبات . وبغير أدنى ريب توجد أشياء كثيرة يمكن قولها وسيقولها آخرون بطريقة أكثر قوة وبريقاً .

ولا تدعونا نؤمل أن أى إنسان على هذه الأرض يقول الكلمة التى تحسم شكوكنا ، فإنه من الراجح جداً أن أى إنسان فى هذا العالم ، وربما فى العالم الآخر ، لن يكتشف لغز الكون الأعظم . وإذا ما فكرنا ملياً فى ذلك وجدنا أن السعادة المفرطة هى فى أن يكون الأمر كذلك . فإنه علينا ليس فحسب أن نتنازل عن الحياة فيما لا يمكن إدراكه من أمور ، بل علينا أيضاً أن ننعم بالعجز عن الخروج من هذه الأمور .

وإذا لم تعد بعد أية أسئلة لا تلقى جواباً وأية ألغاز لا يمكن كشفها ، فاللانهائى لن يصبح بعد لا نهائياً ، وعندئذ يكون علينا أن نلعن — وللأبد — المصير الذى ألقى بنا فى عالم محدود بحدود ذكائنا . وسيصبح كل شىء بعدئذ عبارة عن سجن بغير منافذ ، وشر وخطأ لا يمكن إصلاحه . فما لا نفهمه ، وما يعصى على فهمنا لازم لسعادتنا ، وربما سيبقى الأمر كذلك دائماً . وعلى كل حال فإننى لا أتمنى لأسوأ أعدائى — حتى ولو كان تفكيره أسمى مائة مرة من تفكيرى وأقوى — أن يقضى عليه بأن يحيا للأزل فى عالم يكون قد بلغت فيه سراً رئيسياً ، وبوصفه إنساناً يكون قد بدأ أن يفهم فيه شيئاً[1] » . . .

(١) المرجع السابق ص ٢٦٩ — ٢٧٢ .

الفصل الثانى

عالم الروح متداخل فى عالم المادة

بحسب المعلومات الأولية — التى أسلفناها — فى الفيزياء قد يمكننا أن نقدر كيف أن المواد الصلبة إن هى سوى شبكة مفتوحة من الالكترونات والبروتونات ، وأن المسافة بين الالكترونات والبروتونات فى داخل الذرة الواحدة شاسعة جداً بالنسبة لحجمها ، إلى حد أن المسافات بين بعض الالكترونات وبعضها الآخر وبينها وبين البروتونات تعادل المسافات بين بعض الكواكب أو بينها وبين الشمس من الناحية النسبية . وحتى هذه الشبكة المفتوحة من الطاقة الكهربية المحبوسة ليس لها من وجود حقيقى إلا فى نطاق ماتقدر حواسنا على تسجيله منها على مابيناه آنفاً .

وذلك كله يوضح لأفهامنا بطريقة محدودة جداً كيف أن عالم الروح جزء من هذا العالم وأنه مادى وإن تكن مادته من الرقة واللطف بحيث لاتستطيع حواسنا إدراكها ، و «أننا نحن فى هذه الدنيا الآن أرواح تغلفنا أجسام فيزيقية ، وأن الموت ماهو إلا انفصال الجسم الأثيرى أو الروحى عن الغطاء الفيزيقى . والجسم الأثيرى هو الجسم الحقيقى الباقى ، وهو فى شكله نسخة طبق الأصل من مقابله الفيزيقى ، وعلى هذا الاعتبار يسهل علينا أن نفهم كيف أنه بتوافر شروط خاصة لا نعرفها يستطيع هذا الجسم أن يغلف نفسه بمادة فيزيقية ثم يعمل تحت رقابة العقل كما نعمل نحن أنفسنا ..» على مايذكره الأستاذ جيمس آرثر فندلاى[1] مدير «المعهد الدولى للبحث الروحى» بلندن[2] .

وهو يضيف أيضاً أن « تغيير الموضع أو الإقامة بالمعنى الذى نفهمه فى هذا العالم لايعنى شيئاً بالنسبة للعقل فى مقره الجديد ، وإنما يتغير وضع العقل بالاهتزازات التى يستجيب لها ، فإذا لم يكن العقل على الأرض قد ارتقى

(١) «على حافة العالم الأثيرى طبعة» ثالثة سنة ١٩٥٤ ص ٢٢ .

(٢) The International Institute For Psychical Research.

فإنه يستجيب هناك لاهتزازات من رتبة أدنى . أما إذا كان العقل أكثر ارتقاء فإنه يستجيب لرتبة أرقى . وهكذا يستطيع العقل أن يتابع تكشفه وارتقاءه مستجيباً دائماً إلى اهتزازات أعلى درجة دون تغير فى الوضع أو الإقامة ، ولكنه لايحس بالاهتزازات الدنيا أو العليا التى لا يكون مترنماً معها . أنا لا أقصد أن العقل حين يتحرر من الجسم الفيزيقى لايغير مقامه بتاتاً ، وأنه يدرك وسطاً جديداً بالاستجابة فقط لاهتزازات أرقى أو أدنى ، كلا ما أردت هذا .

فالحركة فى كل مستوى يصعد إليه العقل بعد الموت ممكنة كما هى ممكنة هنا فوق الأرض، بل إنها فى الواقع تكون أسرع . أما مالا يستطيعه العقل فهو الصعود إلى مستوى أعلى درجة اهتزاز من المستوى الذى يلائمه من حيث الاستجابة ، ولكنه يستطيع بالفكر أن يستجيب إلى اهتزازات أدنى متدرجاً فى الانخفاض إلى اهتزازات العالم الفيزيقى »[1].

وهذا يفسر لنا ماتقوله الأرواح كافة من أن الأرواح الراقية يمكنها أن تنزل إلى المستويات غير الراقية إذاما أرادت ذلك بدافع الخدمة أو المساعدة ، أما الأرواح غير الراقية فلا يمكنها أن ترتفع إلى المستويات الراقية . إن أحداً لا يمنعها ، لكن يمنعها قانون طبيعى للتوافق الروحى ، لا يملك أحد منه فكاكاً ، وعلى ذلك أجمعت الكتب الروحية .

كما يضيف فندلاى قائلا : «ولقد حصلت على معلومات أخرى تدل على أن العالم الحقيقى يشتمل على سبع كرات عدا الأرض متداخلة بعضها فى بعض، ولكل منها مستوى أو سطح ، ولكل منها جو يبدو كأنه سماء لساكنيها . وإذا نحن صوبنا النظر إلى أعلى ونحن فوق الأرض فإننا إنما نطلق أنظارنا خلالها، وعلى هذا النمط يطلق القاطنون فى أى مستوى أبصارهم إلى مافوقهم. وسطح كل كرة صلب بالنسبة لسكانه ، ولكنهم بالفكر يصلون إلى خفض

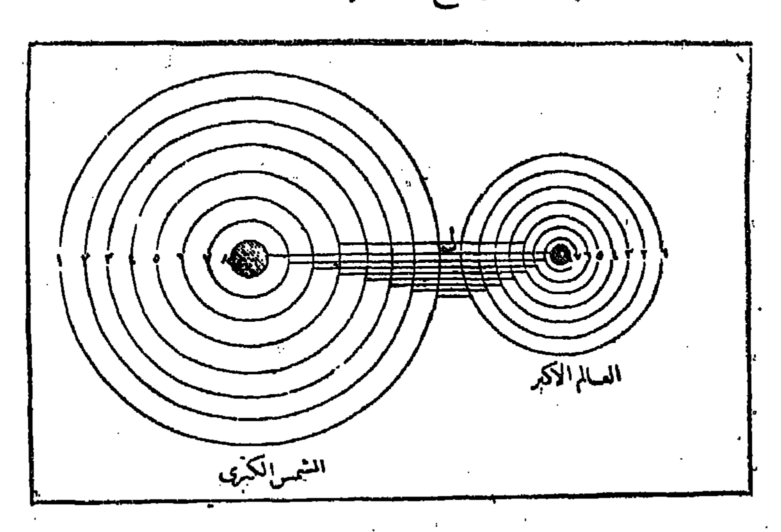
---

(١) المرجع السابق ص ٧١ .

درجة اهتزازاتهم فيهبطون من مستوى إلى آخر حتى يصلوا إلى الأرض . وقليلون منا يدركون أننا ونحن ننظر إلى السماء إنما نطلق النظر خلال مستويات مختلفة الكثافة ستكون يوماً ما مأوى لنا. وفيها يقيم الآن أولئك الذين كانوا يوماً ما يعيشون فوق هذه الأرض . وهم هناك يمارسون نوعاً من الوجود أنشط وأنفع[1] » .

وفندلاى هنا يشير إلى حقيقة أخرى أجمعت عليها كتب البحث الروحي وهو أن جميع الأكوان الروحية متداخلة تشغل نفس الحيز من الفراغ ، وهذا متصور علمياً الآن ما دام أن لكل كون منها رتبة اهتزاز تخالف رتبة اهتزاز الكون الآخر .

وبين كل كون منها وآخر يوجد فاصل من الاهتزازات يعد بمثابة حاجز يفصل بينهما . ولتفاوت رتب الاهتزاز تفاوتاً ضخماً بين الأكوان لا يشعر كل كون منها بالآخر مع تداخلها معاً .



[نقلا عن كتاب « الكون المنشور »]

تداخل العوالم والشموس بعضها فى البعض الآخر فى صورة سبع كرات غير الأرض

(١) المرجع السابق ص ١٠٥ .

ونفس هذا الكون المادى الذى نعيش فيه ، يعد بالنسبة للأرواح كوناً روحياً ، بدلالة أنها تخترقه دون أن تشعر بحواجزه المادية من منازل وجبال ، فهو لا وجود مادى بالنسبة لها ، كما أنه ليس للأكوان الروحية السبعة من وجود مادى بالنسبة لنا مع أنها كلها تشغل نفس الحيز من الفراغ كما قلنا .

اتساع عالم الروح

إذا كان اتساع الكون المادى هائلا إلى المدى الذى بيناه إجمالا فى الفصل السابق استناداً إلى أحدث الكشوف الرياضية والفلكية بما يحويه من شموس وكواكب ونجوم ، فما بالك بالكون الروحى الذى يقع وراء اهتزاز المادة الصلبة فلا تتعثر مجالاته بأية عقبات تعوق الحياة ، أو بأية مناطق يصح أن يقال عنها إنها غير صالحة للحياة ؟ لعل هذا البيان السريع يرد على أولئك الماديين الذين يقولون ، وهل فى الكون متسع لخلود هذه المواكب التى لاتنقطع من بنى الإنسان منذ بدء الخليقة حتى نهاية الحياة المادية ؟ ولعل فيه مايحمل العقل الواهن على أن يتأمل جانباً واحداً من عظمة الله وقدرته غير المحدودة .

والكون الروحى الذى يقع وراء الكون المادى غير محدود ولا توجد حواجز مادية تفصل بين مستوياته . فهذه المستويات فيه عبارة عن مجرد حالات تصل الروح إلى الحالة التى تتفق مع مدى نضجها وتطورها . وهذه المستويات أو المراحل التى تتطور إليها النفس ، وهى فى طريقها إلى الأبدية ، متعددة اختلف الباحثون فى كيفية تقسيمها والتعبير عنها بعبارات لغتنا الأرضية المحدودة المعانى والألفاظ ، والتى لا يمكن أن تحيط بها عقولنا الأرضية المحكومة بجهازها الأرضى الضعيف وهو المخ .

ويقول الأستاذ هيوات ماكنزى Hewat Mckenzie مدير « الكلية البريطانية

للعلم الروحى ، فى مؤلف له عنوانه « الاتصال بالروح : النظر والعمل »[١] (١٩١٦) إنه تلقى من روح الفيلسوف وليام جيمس الذى كان قد انتقل إلى عالم الروح منذ سنة ١٩١٠ بعض بيانات هامة عن أوصاف عالم الروح وأبعاده بالنسبة لعالم المادة .

ومن ضمن هذه البيانات أن المستوى الثالث (أو السمرلاند) يبعد بما يوازى ١٣٥٠ ميلا من الأرض ، وأن المستوى الرابع يصل إلى ٢٨٥٠ ميلا والخامس إلى ٥٠٥٠ ميلا والسادس إلى ٩٤٥٠ ميلا والسابع إلى ١٨٢٥٠ ميلا .

كما تقول روح وليام جيمس إن ما يحفظ للجسم الحياة هناك فى المستويات الفوق الفيزيقية تمتصه الروح من الجو عن طريق التنفس العادى ، وأنه توجد مشاركة للجنسين فى رباط وثيق من العاطفة . وأن الحيوانات التى تحيا هناك سبق أن عاشت على الأرض ، وأن العوالم الروحية للكواكب المختلفة تتلاقى فى المستوى السابع ، وأن بناء الأكوان يحدث من انبعاثات تنبعث من المواد الصلبة ، ثم تتكثف إلى مادة تبدو لهم صلبة فى صورة قارات فضائية شاسعة بسبب تجاذب هذه الانبعاثات بعضها إلى بعض . وأن الانتقال من مستوى إلى آخر أرقى منه يحدث بسبب الترقى التدريجى للجسد الروحى تحت تأثير الروح .

وبحسب بعض رسائل الأرواح الراقية التى لا يوجد سبيل مادى للتحقق من صحتها يتكون عالم الروح من سبع كرات متحدة المركز مع الأرض كما أسلفنا ، وتبدأ الكرة الأولى من بعد حوالى ثلاثة أثمان قطر الأرض عن المركز وتنتهى إلى حوالى ١٤ ضعفاً ، والثانية تصل إلى ثلاثين ضعفاً والثالثة إلى ٤٥ ضعفاً والرابعة إلى ٨٠ ضعفاً وهكذا . . . .

* * *

ومن بين ما أملته الأرواح عن حالات الإنسان ، وتطوره بعد الموت من

---

(١) Spirit Intercourse : Its Theory And Practice.

مستوى إلى آخر من مستويات الوجود فى هذا الكون الهائل ، ما أملته روح عالم النفس المعروف فردريك و . ه . مايرز[١] على الوسيطة المعروفة جيرالدين كامينز[٢] فى مؤلفها « الطريق إلى الخلود »[٣] وفيه يقول مايرز فى فصل عنوانه « وثيقة الوجود »[٤] إن رحلة النفس تتطور خلال سبعة مراحل ، أطلق على كل مرحلة منها اسماً اصطلاحياً كالآتى : —

فالمرحلة الأولى يصفها بأنها « مستوى المادة » Plane of Matter

والمرحلة الثانية يسميها حالة انتقالية Hades or Intermediate State

والمرحلة الثالثة يسميها « مستوى الخداع » The Plane of Illusion

والرابعة يسميها « مستوى اللون » The Plane of Colour

والخامسة يسميها « مستوى الشعلة » The Plane of Flame

والسادسة يسميها « مستوى الضوء » The Plane of Light

والسابعة يسميها « حالة انعدام الوقت » Out Yonder, Timelessness

ويقول إن بين كل مستوى وآخر ، أو بين كل فصل وآخر من فصول التجربة التى تحياها النفس ، توجد حالة انتقالية فيها تستعيد الروح تجاربها الماضية وتعين اختيارها مقررة المسير إلى أعلى أو إلى أسفل سلم الوعى .

١ — « فمستوى المادة » يتكون من مجموع التجارب التى تمت للنفس فى شكل فيزيقى ، أى فى الشكل المادى الذى يعرفه الإنسان . وهذه التجارب الفيزيقية ليست محصورة فى الحياة على الأرض ، لأن هناك تجاريب من هذا النوع تتم فى مناطق كوكبية متعددة . فأحياناً يهتز الجسد فيها أسرع أو أبطأ

---

(١) راجع ما سبق عنه فى الجزء الأول ص ٢٢١ ، ٢٢٢ .

(٢) راجع ما سبق عنها فى الجزء الأول ص ٢٥٢ — ٢٥٤ .

(٣) The Road To Immortality.

(٤) The Chart Of Existence.

من جسد الإنسان فى أى مكان كوكبي آخر ، ولكن تعبير فيزيقى يعبر عن خصائص هذا المستوى وطبيعته .

٢ — أما «مستوى الحالة الانتقالية» ، فهو عبارة عن حياة برزخية تفصل بين كل مستوى وآخر من مستويات الوجود السبعة .

٣ — أما «مستوى الخداع أو الوهم» ، فتشير إليه فترة الأحلام المرتبطة بالحياة على مستوى المادة .

٤ — أما «مستوى اللون» ، فهو المستوى الذى لا يكون الوجود فيه محكوماً بالحواس ، بل بالعقل رأساً ، ومع ذلك يظل الوجود محتفظاً بشكله وبمادته بعد إذ تصبح المادة أرق كثيراً من ذى قبل ، حتى ليصح وصفها بأنها عبارة عن « هواء أو بخار المادة » . و«مستوى اللون» ، هذا يقع ضمن نطاق الإقليم الأرضى ، أو الأقاليم التى تقابله على الكواكب الأخرى حيث قد تكون الروح قد أمضت تجارب سابقة لها من الوجود الفيزيقى .

٥ — أما مستوى « الشعلة الخالصة » ، ففيه تصبح الروح متنبهة إلى حقيقة الدور المشرق الذى تقوم به فى تناسق الأبدية ، وشاعرة بكل الحياة الشعورية التى تحياها الأرواح التى تغذيها نفس المشاعر .

٦ — أما مستوى « الضوء الخالص » فهو المستوى الذى فيه تحصل الروح على الإدراك الواعى لكل وجود سابق لها بين مجموعتها الروحية الخاصة ، إلى أن تحصل فيما بعد على الإحساس بكل مشاعر الحياة داخل « كيان العالم الأرضى أو روحه » .

٧ — وأخيراً فى المستوى السابع تندمج الروح بكل عناصرها المتعددة وتمتزج بالعقل الأعظم ، أو « بالتخيل الإلهى » ، حيث الإدراك العام الذى يطوى الأكوان المتعددة الواحد بعد الآخر ، ومراتب الوجود المختلفة والماضى والحاضر والمستقبل ، وكل ما كان وما سيكون ، هناك كل شىء خالد ، وكل وعى كامل ، هناك الحقيقة الكاملة .

هذا تلخيص سريع لتقسيم مستويات الوجود من ناحية تطور الحياة الداخلية للروح ، بصرف النظر عن اتصالها بالجسد المادى أو انفصالها عنه، كما بعث به من هناك عالم النفس فردريك مايرز . وهو لا يمثل التمييز بين « أمكنة معينة » بل يحاول التمييز بين مراحل معينة للروح ، وهى فى طريقها إلى الأبدية متنقلة من مستوى إلى مستوى آخر من مستويات الوجود .

* * *

وهناك تقسيم آخر لمستويات الوجود السبعة بالمعنى المكانى وفى نفس الوقت بالمعنى الخلقى — الروحى قالت به أيضاً طائفة من الأرواح . وهى تميل إلى القول بأن هذه المستويات كالآتى: ١ — « مستوى الجحيم أو الحياة البائسة» ٢ — «مستوى الرغبات» ٣ — «السمرلاند »(أو الأرض السعيدة) وهو المستوى الثالث الذى يتحدث عنه كثيراً الروحيون والذى تذهب إليه الأرواح الراقية من سكان الكوكب الأرضى ، ويتكون من اجتماع حالة معينة للروح بمكان معين تشعر بوجودها فيه ٤ — « مستوى العقل » ٥ — « مستوى التجريد » Abstract ٦ — « مستوى تقابل الجنسين» Meeting of the Sexes ٧ — « مستوى الاتحاد فيما بينهما » Union of the Sexes وفيه تختفى الخصائص المميزة لكل من الجنسين .

ويقول بعض الأرواح أيضاً إنه بعد هذه المستويات توجد السماوات العليا غير المحدودة التى تمثل ذروة المجد والنعيم [1].

* * *

والآن لنبين جانباً من أسلوب الحياة وظروفها فى المستوى الروحى، خصوصاً منه ذلك الذى يهم الأرضيين، من مستويات عالم الروح وهو المستوى الثالث أو السمرلاند الذى تذهب إليه عادة الأرواح الراقية منهم، كما يرويها سكان هذا المستوى أنفسهم ، وكما اقتنع بها فريق من أحسن العلماء والباحثين .

---

(١) راجع فى ذلك « موسوعة العلم الروحى » Encyclopedia of Psychic Saience تحت كلمة Spheres أى أجواء .

ولاريب أن محاولة تفهم أسلوب الحياة فى أى عالم من عوالم «ما وراء المادة» تثير فى النفس عدداً لا نهاية له من الأسئلة الهامة ، وقد تكفلت بحوث علم الروح والكتب والرسائل الواردة من هناك ، بالإجابة على عدد وفير منها ، وبمحاولة توضيحها على قدر الإمكان ، وتقريب بعضها إلى أذهاننا بالعبارات التى نفهمها ، حين تعذر ذلك بالنسبة للبعض الآخر لأسباب متعددة :

— منها أن الأرواح لا تعرف بعد كل شىء ، وأنها مهما بلغت من الرقى والنضج فلم تطلع على شىء يذكر بعد من خفايا الكون وأسراره وما أكثرها ، خصوصاً وأنه كلما ازداد رقى الروح كلما ارتفع « مكانها » فى مستويات الوجود ، وصار الاتصال بها أصعب منالا ، فضلا عن أن بعضها يفضل ألا يفصح عن كل ما يعرفه من بيانات .

— ومنها أن أسلوب الحياة فى عوالم ما بعد المادة يختلف فى كلياته اختلافاً بيناً عن أسلوب الحياة فى عوالم المادة . وذلك ما يجعل مهمة الأرواح عسيرة وهى تحاول أن تعطينا صورة واضحة ولو نوعاً عن أسلوب حياتهم بألفاظنا المحدودة المستعارة من أسلوب حياتنا المادية وهى تجد فى ذلك عناء ضخماً كما تقول .

— ومنها أن أساليب الحياة هناك متنوعة تنوعاً كبيراً بالنظر إلى تعدد مستويات الوجود تعدداً لا نظير له فى المستويات المادية ولا مقابل له فيها ، فالعوالم المادية محدودة فى اتساعها وفى طبيعتها حين أن عوالمهم غير محدودة فى إتساعها ولا فى طبيعتها .

وعلى أية حال فإن المعلومات التى يملكها حتى الآن علم الروح الحديث عن أسلوب الحياة هناك تكفى — حتى فى حالتها الراهنة — كيما تعطينا فكرة تقريبية قد تتراوح فى مدى وضوحها وغموضها بحسب المصادر الآتية منها . ويهمنا منها بوجه خاص ما يتعلق بعالم المستوى الثالث Third Plane الذى اصطلح الباحثون — كما قلنا — على أنه يمثل أرض المهجر المحتوم للأرواح الطيبة من سكان الكرة الأرضية .

الباب الثاني

فى أسلوب الحياة

فى بعض مناطق عالم الروح

تناولت وصف أساليب الحياة فى بعض مناطق من عوالم الروح مراجع تعد الآن بالمئات إن لم يكن أكثر، كتب أغلبها وسطاء مختلفون للإلهام أو للكتابة التلقائية أو المباشرة أو للجلاء السمعى، كما جاء بعضها عن طريق مناقشات مستفيضة فى صيغة أسئلة والرد عليها تبادلها بعض الباحثين مع بعض الأرواح الراقية عن طريق وسطاء للغيبوبة أو للصوت المباشر، أو غير ذلك من طرق الاتصال بعالم الروح .

وأول ما يلفت النظر فى الأوصاف التى قيلت عن أسلوب الحياة هناك هو هذا التماثل الواضح بين أهم أجزائها رغم تعدد مصادرها، وتعدد البيئات التى تولت بحث هذا الجانب الوصفى بالعناية التى يستحقها . وهو تماثل ملموس إلى مدى كان من المتعذر تماماً أن يتحقق — ولو جزئياً — لو أن الموضوع كان كله محض وهم أو خيال كما قد يذهب المعارض المتسرع .

ومما ينفى الادعاء بالوهم أو بالخيال فى هذا الشأن أن تجىء هذه الأوصاف — بالاضافة إلى تماثلها فيما بينها — متطابقة مع حقائق العلوم الأخرى، ليس فى شأن طبيعة المادة الصلبة فحسب ، بل أيضاً فى شأن فكرة الزمان والمكان ودور الحواس فى الإحساس بشتى مظاهر الوجود ، ودور النفس المتطورة، ودور شتى عواطفها وانفعالاتها فى دفعها إلى التطور، على النحو الذى سوف يبين للقارىء بعد الفراغ من قراءة هذا الباب . وفيما يلى نعالج هذه الناحية الوصفية فى فصول ثلاثة : نخصص أولها لبيان بعض المراجع الرئيسية فى هذا الجانب والتى تستحق أن تكون محلا لثقة خاصة فيها ، وثانيها لبيان طائفة من الأوصاف العامة لعالم الروح، ثم نخصص ثالثها لبيان أهم الأمور المجمع عليها فى كافة المراجع التى سمحت لنا ظروفنا بالاطلاع فيها .

الفصل الأول

بعض المراجع الهامة
فى وصف عالم الروح

هناك مؤلفات لبعض أعلام الحركة الروحية تناولت وصف عالم الروح فى باب أو أكثر من أبوابها ، كما أن هناك مؤلفات خصصها أصحابها برمتها لهذا الجانب الوصفى . وبعض المؤلفين من العلماء ، وبعضهم الآخر من الوسطاء ، وبعضهم الثالث جمع إلى تضلعه فى العلم أو الأدب موهبة الوساطة الروحية . والمراجع فى هذا الجانب الوصفى تعد الآن بالمئات ، لذا يلزم هنا ابتداء الإشارة إلى جانب من الهام منها حتى يرجع إليه من يشاء المزيد من الاطلاع فى هذا الجانب من جوانب البحث .

ومن أقدم الوسطاء الباحثين فى هذا الجانب الوصفى الفيلسوف السويدى عمانوئيل سويدنبرج [١] ، وله فى هذا الشأن كتاب « الجنة والنار » [٢] الذى يرجع إلى منتصف القرن الثامن عشر . وقد ظل سويدنبرج على صلة وثيقة بعالم الروح لمدة سبعة وعشرين عاماً بدأت فى سنة ١٧٤٤ . كما عالج هذا الجانب الوصفى أيضاً فى مؤلف آخر معروف له وهو « الأسرار » [٣] .

ومنهم الوسيط الأمريكى أندرو جاكسون دافيز [٤] الذى تعرض بدوره لوصف عالم الروح فى بعض أبواب من مؤلفه « مبادىء الطبيعة : وحيها

---

(١) راجع ما سبق عنه فى الجزء الأول ص ٩٩ — ١٠٢ .

(٢) وقد كتبه باللاتينية وله ترجمة فرنسية عنوانها Le Ciel Et L'Enfer بمعرفة Le Boys De Guays أعيدت طباعتها حديثاً مع الشرح والتعليق بمعرفة L. Jean Francais.

(٣) The Arcana.

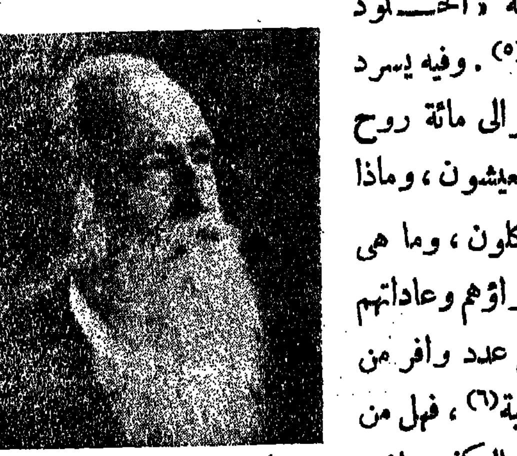
(٤) راجع ما سبق عنه فى الجزء الأول ص ١٠٢ — ١٠٤ .

المقدس »[1] ويقع فى ثمانية أجزاء .

ومثله الوسيط هدسون تاتل الذى وضح موقع عالم الروح وأبعاده بالنسبة للأرض وأوصافه العامة ، وكيفية نشوئه من انبعاثات ذرية من عوالم المادة فى مؤلفه المعروف « أسرار الروحية »[2] . وله أيضاً فى هذا الجانب الوصفى مؤلف آخر عنوانه « الحياة فى أجواء كرتين أو مشاهد فى السمرلاند[3] » .

وفى كتاب القاضى إدموندز — الذى كان رئيساً للسناتو الأمريكى للمحكمة العليا بنيويورك ويعد من رواد العلم الروحى هناك — عن « الروحية »[4] يجد القارىء أيضاً بابا فى هذا الموضوع .

ومن أقدم المؤلفات مؤلف للبحاثة الأمريكى الدكتور ج . م . بيبلز J. M. Peebles وهو طبيب ودكتور فى الفلسفة ومن رواد العلم الروحى أيضاً وعنوانه « الخلود وأوطاننا المستقبلة »[5] . وفيه يسرد اتصالاته الخاصة بحوالى مائة روح مختلفة مبيناً كيف يعيشون ، وماذا يعملون ، وماذا يأكلون ، وما هى مشكلاتهم وميولهم وآراؤهم وعاداتهم والمؤلف حاصل على عدد وافر من المؤهلات العلمية العالية[6] ، فهل من مبرر لاتهامه بالغش والكذب لغير أية مصلحة يرجو تحقيقها ؟



الدكتور بيبلز

(١) The Principles Of Nature.

(٢) Arcana of Spiritualism وراجع ماسبق عنه فى الجزء الأول ص ١٠٤ — ١٠٦

(٣) Life In Two Spheres or Scenes in the Summerland

(٤) بالاشتراك مع جورج دكستر Spiritualism , With George T. Dexter

(٥) Immortality And Our Future Homes.

(٦) فمن مؤهلاته : M. D., M. A., F. A. S., Ph. D.

ومن المراجع التقليدية الهامة « خطابات من جوليا » الذى تلقاه ونشره المرحوم سير و . ت . ستيد نقيب الصحافيين البريطانيين فى سنة ١٩٠٨ وأعيد نشره فى سنة ١٩٥٢ تحت عنوان « بعد الموت »[١] وفيه يقول ستيد إنه ظل يستجوب روحه المرشدة جوليا طيلة سنتين عن ظروف حياتها هناك . وإنه ظل على صلة وثيقة بها لمدة حوالى خمس عشرة سنة .

ومن المراجع الهامة أيضاً مؤلف « الحياة وراء الحجاب »[٢] . فى خمسة أجزاء للأسقف البريطانى جورج فيل أوين Rev. George Vale Owen (١٨٦٩ — ١٩٣١) الذى كتبه بإشراف بعض الأرواح، لأنه كان وسيطاً للكتابة التلقائية Automatic or spirit-controlled writing . وله أيضا كتاب « الحقائق وحياة المستقبل »[٣] .

وفى كتاب سير آرثر كونان دويل عن « تاريخ الروحية »[٤] يجد القارىء فصلا ممتعاً فى الجزء الثانى منه عنوانه « الحياة الأخرى كما يراها الروحيون » .

كما يجد القارىء فصولا مماثلة فى كتاب للسيدة ليليان والبروك Lilian Walbrook عنوانه «حالة ليستر كولتمان»[٥] وأخرى فى كتاب للسيدة بلاتس Platts عنوانه « الشهادة »[٦] .

وفى كتاب عنوانه «صافحت شبحاً»[٧] للأستاذ جون سكوت John Scott يجد القارىء أيضاً بعض أوصاف للعالم الآخر ، وكذلك فى كتاب « توسيع

---

(١) After Death. A personal Narrative .

(٢) Life Beyond The Veil.

(٣) The Facts And The Future Life. وراجع ما سبق فى الجزء الأول ص ٢٦٦

(٤) The History Of Spiritualism.

(٥) The Case Of Lester Coltman.

(٦) The Witness.

(٧) I Lent A Hand To A Ghost.

وله مؤلف آخر عنوانه As One Ghost To Another.

الطرق »(١) للباحثة ليندا ميتكالف Linda L. Metcalf الذى ظهر فى سنة ١٩٥٣ وأعيدت طباعته فى سنة ١٩٥٤ بمعرفة « نادى الكتاب الروحى »(٢) بلندن .

والفصل الأخير (الرابع عشر) من كتاب « أنباء من العالم الآخر »(٣) للبحاثة شارل تويديل رئيس أساقفة يوركشير مخصص لوصف « حياة ما بعد الموت والأجواء » بطريقة عالم محايد متحفظ ينقل إلى القارىء محض رسائل من الأرواح ومناقشات له معها ، وبخاصة مع أرواح سير آرثر كونان دويل والموسيقى الشهير شوبان وستراديوريوس Straduarius (راهب وصانع كمان معروف) ومستر بروك وسير روبرت بول R. Ball وبعض أقارب له ممن سبقوه إلى عالم الروح ، وكل ذلك مع صور روحية واضحة وخطوط وتوقيعات لعدد منهم(٤) .

ومن المؤلفات أيضاً واحد معروف للأسقف ليدبيتر C. W. Leadbeater وهو من اتباع المدرسة الثيوصوفية عنوانه « المستوى الكوكبي »(٥) ، وآخر لزميلة له فى نفس المدرسة وفى التأليف وهى السيدة أنى بيزانت Annie Besant وعنوانه « الموت وما بعده » (٦) . ومنها كتاب للأستاذ ا . ب . سينيت A. P. Sinnett وهو من أتباع نفس المدرسة عنوانه « فى العالم التالى »(٧) (١٩١٤) يتضمن أوصافاً عديدة عن الحياة فى عالم الروح تلقاها المؤلف من عدد من أصدقائه ومعارفه الذين انتقلوا إلى هناك .

---

(١) Widening Trails.

(٢) Psychic Book Club.

(٣) News From The Next World.

(٤) راجع نماذج من هذه الصور والتوقيعات فى الجزء الأول ص ٤٨٧ ، ٤٨٨ ، ٤٩٨ .

(٥) The Astral Plane.

(٦) Death And After.

(٧) In The Next World.

ومن المؤلفات القيمة فى وصف حياة ما بعد الموت اثنان للأسقف داريتون توماس Drayton Thomas وهما « فى الفجر بعد الموت »(١) و « بعد أفول شمس الحياة »(٢) . ومؤلفان للأديب الإرلندى الذائع الصيت شو دزموند Shaw Desmond وهما « كيف تحيا عندما تموت، أو الدليل للعالم الآخر »(٣) و «الحب بعد الموت»(٤) والأخير منهما يعنى بوجه خاص بالجانب العاطفى والعائلى للحياة هناك وسنعرض بعض صفحاته — على نطاق واسع فيما بعد ، لأنه ثمرة بحوث شاقة ومشوقة وأيضا لفرط فائدته لكل إنسان

ومنها كتاب «سماء جديدة: دراسة للحياة الأخرى»(٥) للكاتب والوسيط الروحى القدير و . ه. إيفانز W. H. Evans رئيس تحرير جريدة «العالم التالى» Beyond ، وكتاب «الحياة فى العالم غير المنظور »(٦) للباحث المعروف أنتونى بورجيا Anthony Borgia الذى ظهر فى سنة ١٩٥٤ وقدمه للقراء العلامة سير جون أندرسون Sir John Anderson . ثم أعقبه بمؤلف آخر عنوانه « المزيد عن الحياة فى العالم غير المنظور »(٧) ظهر فى سنة ١٩٥٦ .

كما ينبغى أن نشير أيضاً إلى كتاب « منازل كثيرة »(٨) لمارشال الطيران لورد دودنج Dowding ، وكتاب « الإقليم التالى»(٩) لوسيطة الإلهام المعروفة جين شيروود Jane Sherwood ، وكتاب «فيليب فى الأجواء»(١٠) لوسيطة

---

(١) In The Dawn Beyond Death.

(٢) Beyond Life's Sunset.

(٣) How You Live Wheu You Die (A guide to the Next World).

(٤) Love After Death.

(٥) A New Heaven, A Study Of The Life Beyond.

(٦) Life In The World Unseen.

(٧) More About Life In The World Unseen.

(٨) Many Mansions. وراجع ما سبق عن المؤلف فى الجزء الأول ص ٣٨٨ — ٣٩٤

(٩) The Country Beyond.

Philip In The Spheres.

أخرى وهى أليس جيلبرت Alice Gilbert الذى تلقته من روح شقيقها المتوفى فيليب . ولا يقل عنه شأناً مؤلف آخر عنوانه «الحياة فى الفردوس»(١) (١٩٠٥) (أو فى الاليزيه وهى كناية عن الجنة مأخوذة من أشعار هوميروس) وهو يحوى بيانات تلقاها الوسيط الروحى روبرت جيمس ليز Robert James Lees والذى له أيضاً فى وصف عالم الروح كتاب «بوابة الجنة»(٢) .

ومن أهم المؤلفات الحديثة التى تعالج وصف الحياة فى عالم الروح بطريقة علمية منظمة ، مؤلفات الأستاذ جيمس آرثر فندلاى J. A. Findlay الذى كان مديراً «للمعهد الدولى للبحث الروحى» بلندن إلى حين انتقاله إلى عالم الروح فى سنة ١٩٦٤ . وقد تعرض لبعض أوصاف الحياة هناك فى مؤلفه «على حافة العالم الأثيرى »(٣) فى الفصل الرابع عشر منه ، ثم عالجها علاجاً تفصيلياً فى مؤلفه «الكون المنشور»(٤) . والمؤلف يمتاز عمن سبقوه بتعليل ما تلقاه من أوصاف تعليلا علمياً فى ضوء مبادىء الفيزياء الحديثة على ما سيلى فيما بعد .

* * *

وباللغة الفرنسية يمكن للقارىء أن يرجع إلى بضعة كتب تقليدية هامة منها « الجنة والنار » (٥) لفيلسوف الحركة الروحية الفرنسية ورائدها آلان كاردك Allan Kardec . ومنها كتاب « بعد الموت »(٦) للفيلسوف والبحاثة الكبير ليون دينيز Leon Denis ، و« الحياة بعد الموت » للبحاثة شارل لانسلان Charles Lancelin (٧) . ومنها كتاب « مشكلة الموت ، حلولها الخيالية والعلم التطبيقى » للمؤلف لوى بوردو Louis Bourdeau(٨)

---

(١) The Life Elysian.

(٢) The Gate Of Heaven.

(٣) On The Edge Of The Etheric.

وله ترجمة عربية بقلم المرحوم الأستاذ أحمد فهمى أبو الخير .

(٤) The Unfolding Universe.

(٥) Le Giēl Et L'nfer.

(٦) Après La Mort.

(٧) La Vie Posthume.

(٨) Le Problème De La Mort. Ses Solutions Imaginaires Et La Science Positive.

ومن المراجع الفرنسية أيضاً كتاب « العالم الآخر وإمكانياته غير المحدودة »(١) وقد بعث به من هناك الأستاذ ألبير بوشار Albert Pauchard الذى كان فى حياته الأرضية رئيساً لجمعية الدراسات الروحية فى جنيف ، وبعد انتقاله أملى هذا الكتاب على السيدة أنتوانيت بوشار Antoinette Pauchard خلال أعوام ١٩٣٥ إلى ١٩٣٧ بالفرنسية ثم ترجم إلى الإنجليزية (٢).

ومنها كتابان لوسيط يدعى برنتيس توكر Prentis Tucker عنوان أولهما « الحياة مستمرة بعد الموت »(٣) وعنوان ثانيهما « كيف تستمر الحياة بعد الموت »(٤) .

وباللغة العربية يمكن للقارىء أن يرجع إلى كتاب « ميت يتكلم » الذى هو عبارة عن ترجمة عربية كاملة بقلم الأستاذ عبد الحميد فهمى مطر لمؤلف أملته روح المرحوم سير و . ت . ستيد W. T. Stead تحت عنوان « الجزيرة الزرقاء »(٥) وأغلبه يدور حول وصف الحياة فى بعض المناطق هناك ، وسنحتاج إلى الرجوع إليه فيما بعد فى عدة مواضع .

كما يمكنه أن يرجع إلى كتيب عنوانه « رسائل الجندى دودنج »(٦) التى تلقاها من العالم الآخر الميجور و . تيودور بول W. T. Paul وترجمها إلى العربية الأستاذ مصطفى العلوى فى سنة ١٩٣٥ .

---

(١) L'autre Monde Et Ses Possibilités Infinies, Gèenve Jeheber, editeur.

(٢) وذلك تحت عنوان
The Other World, Its Infinite Possibilities, Its Spheres of Beauty and Joy. Rider, London.

(٣) La Vie Continue Après La Mort.

(٤) Comment La Vie Continue Après La Mort?

(٥) The Blue Island.

(٦) Letters of Private Dowding.

الفصل الثانى

طائفة من الأوصاف العامة

عالج علم الروح الحديث الأوصاف العامة لحياة ما وراء المادة بصورة تفصيلية . فلم يترك سؤالا رئيسياً يمكن أن يخطر على بال إنسان بغير جواب شاف له . وهذا جانب من أقوى جوانبه : أنه عرف كيف يسد ثغرات كثيرة كانت موجودة من قبل ويجيب على أسئلة لا تحصى ما كان يمكن الإجابة عنها — ولا عن بعضها — إلا عن طريق دراسة الظواهر الوساطية بطريقة معملية صرف، وعلى أيدى علماء تعودوا التساؤل المستمر عن أدق المعلومات بطريقة علمية منظمة ، وتعودوا قبل كل شىء آخر أن يبحثوا عن العلة فيما قد يلقى إليهم من معلومات . ومما يلفت النظر إلى حد مثير أن الإجابات كانت — فى جملتها — متوافقة من نواحيها العامة ، وفى كلياتها بغير تطابق تام فى كل الجزئيات .

ولذا يقول الأديب الإرلندى شو دزموند Shaw Desmond — وهو أحد مؤسسى «المعهد الدولى للبحث الروحى» بلندن وصاحب خبرة عشرات من السنين فى هذا الموضوع — «لكننا فى الواقع نعرف الكثير عن هذه الأشياء إذ لدينا تفصيلات دقيقة نتلقاها عن العادات والسجايا فى العالم الثانى ، وعما يأكلون ويشربون ، وعما إذا كانوا يعشقون وعن مائة من الأمور الأخرى .

ولو كانت الأنباء التى نتلقاها يومياً من العالم الثانى تختلف اختلافاً جوهرياً بعضها عن بعض لكان يصح لنا أن نشك فى صحتها . ولكن التفصيلات التى تلقيناها خلال حقبة طويلة من السنين متطابقة ما دامت ترد إلينا من ذلك العالم نفسه . ولذا فنحن — فيما أرى — مضطرون كقوم منصفين معقولين إلى الاعتقاد بأنه لا بد وأن يكون فى الأمر شىء ، وبخاصة حينما يكون ذلك متعلقاً بتفصيلات بعيدة عن مخيلتنا كمسألة البناء والتكوين بالفكر .

والعالم الذى نتلق عنه من الجانب الآخر تسعة أعشار ما نتلق هو ذلك العالم الذى يسميه بعض الباحثين فى العلوم الغامضة عالم المستوى الثالث Third Plane . والسر فى تلقينا تفصيلات عن هـذا العالم دون غيره من العوالم هو أنه العالم الذى يذهب إليه الناس عادة بعد الموت . ومن ثم يتحتم علينا أن نعرف شيئاً عن بلدنا المقبل كما يتحتم على أى مهاجر إلى كندا أو أمريكا أن يعرف شيئاً عن البلد الذى سينزح إليه ، أليس ذلك معقولا ؟[1] ،

* * *

كما يقول سير آرثر كونان دويل[2] Arthur Conan Doyle — وقد كان مديراً للـكلية البريطانية للعلم الروحى فى وقت ما — « إذا كان علينا أن نواجه الصعوبة الناشئة من التفاوت فى التفاصيل المتعلقة بمختلف الأوصاف عن العالم الآخر ، والتى وصلتنا فى رسائل متعددة ، فإنه يجب ألا يغرب عن البال أن التشابه فيما بينها يفوق التفاوت بكثير . وينبغى علينا أن نتذكر أن الحياة الأخرى متعددة النواحى ومتشعبة تشعباً لا نهاية له ، ولو قال قائل فى هذه الدنيا الصغيرة إن منزل أبيه يحتوى على عدة مساكن « أو حجرات » لقلنا له إن التفاصيل التى يذكرها شاهدا عيان لا يمكن أن تكون واحدة . ولو أن أحد علماء أكسفورد وأحد فلاحى الهند طلب من كل منهما وصف لهذه الحياة لـكان التفاوت بينهما أعظم بكثير من التفاوت فيما قرأناه عن أوصاف الحياة الأخرى .

« ولقد تخصصت فى دراسة هذه الناحية (أى الناحية الوصفية) دون أن أهتم كثيراً بالظواهر الطبيعية . ولا أظن أن أحداً قرأ أكثر مما قرأت من التفاصيل المطبوعة أو المكتوبة فى هـذا الموضوع من وسطاء لا علم لهم بشىء عن الخطط الروحية . وفى بعض الأحيان كان الوسيط طفلا ، ولـكن كانت دائماً تبرز الفـكرة نفسها عن حياة كحياتنا هذه . حياة تطلق

(١) أحاديث فى الروحية « مجلة عالم الروح » سنة ٩ عدد نوفمبر ١٩٥٥ ص ٣ .
(٢) فى تقديمه الـكتاب « الجزيرة الزرقاء » .

فيها الحرية بدون عقبات لقوانا الكامنة وآمالنا . وفوق ذلك فإننا نرى فى الأوصاف جميعها حديثاً متشابهاً عن أرض صلبة ذات أزهار وحيوان، وعن مساكن مريحة ، وعن متع إنسانية . وعن مهن محبوبة ...

إلى أن يقول « وإنى أعتقد أن التفاصيل المادية كالنوم والغذاء ... الخ تتوقف على مكانة الروح فى تطورها ، فكلما انحطت الروح كانت شئونها مادية . ومن المهم جداً أن يعلم البشر ذلك ، لأن هذا العلم لا يقضى فقط على المخاوف من الموت ، ولكنه فوق ذلك يكون أكبر عون للإنسان إذا ما دعى فجأة للحياة الأخرى لأنه يجد نفسه فى محيط مألوف ، كما يجد نفسه مملوءاً ثقة بمستقبله ، عوضاً عن أن تنتاب الروح فترة جديدة من الحيرة والتردد تحتاج فى أثنائها إلى أن تتخلص من الأفكار التى أخذتها عن معلميها لتعود فتتشكل بما يناسب الحقائق التى كانت تجهلها » .

ثم يقول دويل عن كتاب « الجزيرة الزرقاء » موجهاً الحديث إلى كريمة ستيد وتسمى استيل Estelle « إنى كناقد من رجال القلم أستطيع أن أقرر أن التعبيرات الواضحة والتشبيهات البهيجة التى وردت فى هذه الرسائل هى حقاً من مميزات والدك » . وقد أملت روح ستيد هذا الكتاب على الوسيط بارودى ودمان ونشرت استيل الكتاب مصدراً بصورة لوالدها تلقتها عن طريق وساطة كرو Crewe الروحية فى سنة ١٩١٥

صورة روحية لسير وليام ت . ستيد وبجواره كريمته استيل التقطت له فى دائرة كرو Crewe فى سنة ١٩١٥ بعد ثلاث سنوات من انتقاله

* * *

وفى وصف عالم الروح تقول روح ستيد « لقد وجدت نفسى فى صحبة اثنين من أصدقائى القدامى أحدهما والدى الذى جاء إلى ليصحبنى وليطوف بى . وكنت أشعر أننى فى حالة شبيهة بحالة شخص غريب هبط إلى مملكة أجنبية ، ومعه صديق عزيز يطوف به أنحاءها . كان هذا شعورى العام بالحالة بعد أن نسيت كل ما وقع ، إذ بعد أن رضينا بحالة الانتقال إلى الموت ذهب عنا كل الروع الذى كنا نخشاه ، وكان هذا الشعور يبدو أحياناً بعيداً كأنه وقع منذ خمسين سنة ، وأحياناً قريباً كأنه بالأمس فقط .

أما لذتنا بالحياة الجديدة فلم يشوهها أى أسف لفراقنا لأحبابنا الدنيويين. ولست أقصد بذلك أنه لم يكن بيننا بائسون ، فبالعكس كان عدد البائسين كبيراً ، وما ذلك إلا لأنهم لم يفهموا التقارب بين الحياتين الأولى والآخرة ، ولم تكن لديهم فكرة واضحة عن العالم الآخر ، أما الذين عرفوا شيئاً عن ذلك فقد حصروا شعورهم فى الفكرة الآتية « فلننعم بهذه الحياة الجديدة ، قبل أن يصل خبرنا إلى أهلنا (إذ انتقلوا كلهم فى حادثة غرق الباخرة تيتانيك اكبر بواخر العالم فى ذاك الوقت) فكنا بذلك قليلى الأسف عند وصولنا . . . »



صورة أخرى التاطت لمس استيل ستيد فى دائرة كرو الروحية فى أكتوبر سنة ١٩١٥ وقد ظهرت بها صورة روح وليام ستيد فى الوسط (عن تصوير غير المنظور للأستاذ جيمس كوتس ص ٢١٤)

ثم يقول بعدئذ : سرنا على الفور أنا ووالدى وصديقى ولكن شيئاً غريباً وقع لفت نظرى ، ذلك أنى شعرت بأنى أرتدى ملابس كتلك التى كنت أرتديها فى الدنيا ، فكان غريباً أن أفكر

أنى ابتعت تلك الملابس وأحضرتها معى ، وهـذه أول نقطة يتسلى بهـا المرتابون، كذلك وجدت والدى مرتدياً ملابسه كما كنت أراه فى الدنيا[١]. وقد ظهر كل شىء أمامى عاديا كما كنا فوق سطح الأرض . ثم أننا سرنا (هو ووالده) فأخذنا شيئاً من المنعشات ، وتلا ذلك حديث وبحث طويل عن أصدقائنا فى كلا الناحيتين فأخبرتهم بكثير من الأخبار كما أخبرونى هم كذلك عن الأصدقاء وعن القوانين التى تسير بمقتضاها الحياة الأخرى .

« ومما لفت نظرى كذلك اللون المنتشر فى تلك الأرجاء فإذا كان من الصعب أن يصف الإنسان شعوره بحالة اللون العامة فى بلاد مثل انجلترا فيقول على وجه العموم بأنها حالة بين اللون الرمادى والأخضر « الرمادى الضارب إلى الخضرة » فمن المؤكد هنا أن الشعور باللون العام تغلب عليه الزرقة الخفيفة (ولذا أطلق على المكان الذى كان فيه عقب انتقاله مباشرة وصف الجزيرة الزرقاء) .

« ولست أقصد بذلك أن الناس والأشجار والبيوت ... الخ كانت كلها زرقاء ، ولـكن الشعور يوحى إلى الإنسان أنه يعيش فى أرض زرقاء . وقد تـكلمت فى ذلك مع والدى الذى كان على العموم أنشط بكثير ، بل أعظم فتوة منه فى أيام وفاته حتى كنا كأننا أخوان ..

ثم تقول الروح : « ووجدنا خليطاً غريباً فى هذه الديار ، فقد وجدنا أشخاصاً مختلفى الأحـوال والألوان والأجناس والأحجام ، وجميعهم يروحون ويغدون أحراراً بعضهم ، مع بعض غير أن كل إنسان كان معنياً بنفسه لا يفـكر إلا فى نفسه[٢] . وهذا الأمر وإن كان لا يستحسنه أهل الدنيا إلا أنه أمر ضرورى هنا فى سبيل الخير العام والخير الفردى ، إذ لولاه

---

(١) لنا عودة إلى موضوع الملابس ومن أين تجىء هناك ولماذا تشابه الملابس الأرضية .

(٢) يشير المترجم إلى الآية الـكريمة « لـكل امرىء يومئذ شأن يغنيه » .

لما وجد فى هذه الحياة تقدم وانتعاش ، والنتيجة المباشرة لهذا الانغماس فى النفس هى انتشار السلام فى هذه الربوع بين جميع الناس المختلفى المشارب...

« وقد رأيت البحر كما كنت آراه فسرت مع صاحبى على شاطئه لمسافة طويلة . ولكنه كان مخالفاً لما ترونه على شواطئكم وما فيها من متنزهات وموسيقى إلا أنه كان مملوءاً بالهدوء والجمال . وكان البحر عن شمالنا والمبانى الضخمة عن يميننا ، وكان الضوء براقاً ...

« ولو أمكن أن تتخيلوا كيف يكون الحال فى عالمكم لو أنه ضغط جميعه فى بقعة واحدة فصار بها أجناس مختلفة من الناس وأنواع مختلفة من المناخات والمناظر ، ومن المبانى والحيوان ، فربما تستطيعون عندئذ أن تكونوا فكرة عن هذه الدار التى كنت فيها (بمجرد وصولى) وسيظن البعض عدم صحة ذلك ، وربما يظنه نوعاً من الأحلام ولكن صدقونى أن الأمر لم يتعد شيئاً واحداً هو كأنى انتقلت فى الدنيا إلى مملكة أجنبية ولا أكثر من ذلك اللهم إلا ما وجدت من تشويق ولذة ومتعة .

وإنى أرغب الآن أن أصور لكم فكرة عن هذا العالم الجديد دون أن أتعمق فى التفاصيل الدقيقة . فقد وصلنا أخيراً إلى بناء ضخم مستدير له قبة عظيمة فكان مظهره العام كأنه قبة لا غير تقف على أرجل ، أو بقول آخر قبة عظيمة ترتفع فوق عدة عمد ضخمة مستديرة . . . ولم يكن البناء مزوقاً ، بل كان فقط بناء جميلا كالمبانى التى على الأرض فلا تظنوا به الظنون ولا تذهبوا به فى الخيال كل مذهب .

ومن عجب أن الغذاء لم يكن ضرورياً ، ولكنه كان موجوداً ، فأخذنا جميعنا شيئاً منه حسب العادة لا لأننا فى حاجة إليه إذ كنت اكتسب معظم نشاطى من الجو نفسه ... »(١) .

---

(١) المرجع السابق ، الفصل الثانى ص ٥ — ٥٧ .

وهكذا يسترسل فى وصف حياته هناك بطريقة مشوقة هى نفس طريقته عندما كان فى حياته الأرضية صحفياً قديراً ، إلى أن يقول فى مكان آخر :

« أما حياة الفرد اليومية فتشبه حياته اليومية التى اعتادها فى الدنيا ، ولكنه فى بادىء الأمر ينال قسطاً وافراً من الراحة متمشياً مع عادة النوم الدنيوية ، إذ أنه هنا أيضا محتاج كعادته إلى النوم فى أول الأمر بصفة خاصة . فنحن وإن كان لا ليل عندنا كما عندكم ، إلا أنه لا بد لنا من الراحة . ثم إن الشخص منا يشغف فوق ذلك بزيارة بعض الأرجاء ، كما أنه يهتم باكتشاف جهات ومبان أخرى ، وبدراسة الحياة الحيوانية والنباتية . كذلك يكون له أصدقاء عليه أن يبحث عنهم ويزورهم . وعليه فوق ذلك إشباع ميوله الخاصة بانغماسه فيها ، وعليه كذلك أن يغذى الرغبة التى ولدت فيه حديثاً وهى رغبة العلم والمعرفة .

أما نظام العمل اليومى هنا فيشبه كثيراً النظام الدنيوى والفرق الوحيد بينهما هو أن النظام الدنيوى يقوم عادة على الظروف المحيطة بالإنسان ، حين يقوم هنا على الرغبة فى العلم والمعرفة بهذا الموضوع أو ذاك .

أما عن الملابس فتجدنا نلبس هنا كما كنا تقريبا فى الدنيا ، ونظراً لوجود خليط من أجناس البشر المختلفة نجد المنظر العام غير مألوف ، فهو علاوة على كونه غريباً ومشوقاً ومسلياً تجده أيضاً مثيراً للتفكير . وأظن أننى سبق أن ذكرت أننا فى مظهرنا العام نجد حالتنا هنا كما كانت من قبل . فلسنا نبعد عن الأرض إلا قليلا ، ونتيجة ذلك أننا إلى الآن لم نتخلص من الأفكار الدنيوية . ورغم أننا اكتسبنا بعض أفكار جديدة إلا أن ما طرد من الأفكار الدنيوية ليس سوى شىء قليل جـــداً يكاد يكون معدوماً . أما حركة التخلص من تلك الأفكار فهى تدريجية . فكلما تقدمت بنا الحياة هنا ازدادت معرفتنا بكثير من الأمور واكتشفنا أيضا أن كثيراً من الأشياء

التي كنا نظنها ضرورة صارت علاوة على عدم أهميتها عبئا ثقيلا ، وبذلك نميل إلى التخلص من عادات الدنيا ومتعلقاتها ...

« ونحن في بادىء الأمر نشعر بالحرية في الفكر والعمل ولا نكون مقيدين إلا ببعض القيود المفروضة لا عن طريق القانون بل عن طريق الظروف ، أما فيما عدا ذلك فلنا الحرية المطلقة(١) ... إلى أن يقول :

« وإني أميل إلى التفكير في أني عشت أبداً في هذه الديار ، فإذا قيل لي إنه مضى على هنا أيام قلائل فإني أكون أميل إلى عدم التصديق . على أني لم أنس أسرتي ولا أصدقائي ، ولكني أشعر بسعادة عجيبة إذا ذكرتهم دون أن أعرف السبب . ثم أني لما وجدت أن معلوماتي الدنيوية كانت صحيحة جمعت كل قوتي للاتصال بهم موقناً أنهم كذلك يعتقدون أنني في حالة طيبة رضية ، وأن تأخري عنهم في الكتابة كان طبيعياً لظروف انتقالي إلى حياة جديدة ...

« وقد أصبح المنزل الذي خصص لهذا العمل في الجزيرة الزرقاء (وهو عمل الاتصال بالأرضيين) مأوى لي أتردد عليه بانتظام منذ أخطرني به والدي ، كما أتردد على غيره من الأبنية الأخرى . فقد ذهبت إليه كثيراً جداً وحصلت من مختلف المهيمنين عليه على مساعدات كثيرة ، وكانوا جميعاً يحسنون إلي ويعطفون علي ولكن بصفة جدية ، فلم يكن ذلك البنيان بنيان دموع وأحزان . وهو منظم تنظيماً مدهشاً ومملوء بالنشاط والحركة . . . وكنت أنتظر أن أجد فيه كثيراً من الأجهزة والآلات والعدد والقوى الكهربائية ولكني لم أجد به شيئاً من هذا ، ولم يكن به مطلقاً غير العنصر الإنساني » .

« وقد تحدثت طويلا مع رجل هنالك من ذوي التفرد والكلمة . . .

(١) المرجع السابق ، الفصل الرابع ص ٧١ — ٧٣ .

فسرت معه طويلا وسمعت منه أن مجهوداً كبيراً قد بذل فى هذا الصدد هنا، كما ذكر لى أن لديهم عدداً وافراً من الرواد الذين يتصل عملهم بالحياة الدنيا، ويمكنهم أن يتعرفوا على أولئك الأحياء من أهل الدنيا الذين يمكن استخدامهم فى هذا السبيل فيرتبون أسماءهم وينظمونها فى قوائم تبين فيها مقدرة كل منهم، وعندما تأتى الروح التى وصلت حديثاً طالبة المعونة يستخدم أولئك الوسطاء من أهل الدنيا كل حسب قدرته . وهذه خلاصة بسيطة عن العمل الذى يجرى فى هذا البناء .

ثم إنى حضرت مراراً إلى هنا وحاولت أن أرسل رسائلى إليكم بوسائل شتى فنجحت فى بعضها وأخفقت فى البعض الآخر ، ويرجع النجاح والإخفاق فى كثير إلى الروح نفسها ، إذ يتوقف عليها الشىء الكثير . وكل مرة نجحت فيها ساعدت غيرى على ذلك، وكل مرة أخفقت فيها استنجدت بغيرى فأنجدنى ، ونظراً لأنى صرفت وقتاً طويلا فى دراسة الروحانيات فى حياتى الدنيا فإنى قد أمددت فى هذا الموضوع بمعونة كبرى هنا بالقدر الذى احتجت إليه وفى الاتجاه الذى رغبته(١)

إلى أن يقول «... تجد جميع أجناس البشر أحراراً هنا فى رسم الخطط لحياتهم حسب ميولهم الفردية فى حدود بعض القواعد التى لا يصح الخروج عنها . فالحياة كلها بطبيعتها حرة ولكن بعض أهل الدنيا يظنون أنهم مجبورون غير أحرار فى تصرفاتهم نتيجة لسوء فهمهم . والحقيقة أن الجميع أحرار غير مقيدين . . ولكن عندما نجد أنفسنا قادرين على المعونة فإننا نعمل جهدنا فى مساعدة أحبائنا من أهل الدنيا بالتأثير فى إرادتهم ما استطعنا إلى ذلك سبيلا . وقوة الحب الدافعة هى التى تحملنا على ذلك . . . »(٢).

ثم تقول روح ستيد « فإذا مانظرت إلى الوراء منذ حللت بالجزيرة

---

(١) المرجع السابق ، الفصل السابع ص ٩٣ — ٩٥ .

(٢) المرجع السابق ، الفصل العاشر ص ١٢٥ .

الارتقاء ارتحت إلى التقدم الذى أحرزته ، فقد كان انتقالى إلى الحياة الأخرى مفاجأة لى ، لأنى لم أكن أفكر مطلقاً فى أن انتقالى قريب وحادث فى بدء تلك السنة التى وقع فيها . ولا شك أنه لم تكن لى أية رغبة فى استعجاله نظراً لما كان عندى من المشاغل الهامة ، ولكنى استطعت أن أنهى بعضها منذ ذلك الحين . كما تتبعت تقدم الكثير منها ، وسرعان ما تأقلمت بمجرد وصولى إلى هنا بحسب الأحوال والمظاهر الجديدة ، وبحسب حركة الاتصال وطرق الانتقال الجديدة . . . .

ولا ريب أنه يوجد كثير من الفروق العظيمة بين عالمى وعالمكم . وعندى أن أعظم تلك الفروق وأكثرها بركة ورحمة هى الحالة التى تجعل الأمور المعنوية غير متأثرة بالأمور المادية . فأنتم فى الحياة الدنيا ذوو آمال وأطماع مختلفة الأنواع بخصوص المال والنجاح فى الأعمال والسرور والصحة والعلم . . . الخ ولكن تلك الأمانى مقيدة ودونها عوائق كثيراً ما تجعل تحقيقها مستحيلا بالنظر إلى ظروفكم المادية .

أما هنا فما دامت الروح المعنوية حسنة فالمجال واسع لا حد له ، وكل أمنية معنوية تتعلق بالحقيقة أو بالمعرفة مهما عظمت تتحقق فى هذا العالم بطريقة مدهشة . ومهما كانت الرغبة خيرة أو شريرة فلا بد أن تأتى بنتائجها ، فإن كانت شريرة فإنها تقوى ولا بد أن نجازى عليها . وكذلك تقوى أيضاً إذا كانت خيرة وتحل بسببها القوة والسعادة .

ولا أستطيع أن أؤكد لكم أكثر مما قلت بأن الواحد منكم حسبما يكون فى الدنيا سيكون فى الحياة الأخرى ، وأنكم تعدون أنفسكم فى حياتكم الدنيا لحياتكم الأخرى ، فلا ريب فى أنها ستكون بحسب حياتكم الحالية وطريقة تفكيركم . . .

وإنى إذا أرجعت البصر كرة إلى حياتى هنا فإنى كما ذكرت لكم سابقاً مقتنع وراض بكل ما وقع من الناحية الشخصية والفردية بل والعامة أيضاً ،

فلقد تقدم بنا الحال كثيراً فى عالم الأرواح فى سبيل اتصالنا بالأرض ، ولقد ساعدتنا فى ذلك مساعدة كبيرة قوة أرواح الشباب من النساء والرجال الذين جاءوا إلينا أثناء الحرب الماضية من كل جهة من جهات الدنيا . . . فقد جاءوا إلينا بقوة طبيعية عظيمة وتصميم عظيم فاستطعنا بتأثير تلك القوة أن نتغلب على كثير من الموانع والحوائل التى قد تقف حجر عثرة فى سبيل اتصال العالمين . . . .

ثم يقول « هكذا نحن فى عالم الأرواح . نحس بكل من تركناهم من ورائنا . بعضهم راغب فى البقاء والبعض الآخر يقاتل ويجاهد ليسمع صوته ، والبعد بيننا وبين الأرض قليل ، أما البعد بيننا وبين روح الله العظمى فهو كالبعد بينك واقفاً على قمة الجبل وبين أبعد نجوم السماء ، فنحن إزاء ذلك لم نقطع من سياحتنا إلا القليل ، كما أننا لم ننس شيئاً من ماضينا ، إلا أن الحب لا يزال رائدنا »(١)

* * *

هذا وقد وضح الأستاذ جيمس آرثر فندلاى James Arthur Findlay بعض ظروف الحياة فى عالم الروح استناداً إلى ما تلقاه من الارواح خلال خبرة عشرات من سنى البحث المستنير فى مؤلف له عنوانه « الكون المنشور »(٢) قال فيه : « إن لكل من هذه العوالم سطحاً وجواً وضوءاً ، فما يذكر عن أحدها ينطبق على الجميع . ولا داعى للقول بأن الأماكن التى توجد بها جبال وبحور على الأرض يوجد فى مقابلها هناك جبال وبحور ، فالقوى التى أوجدت الجبل والبر والبحر على الأرض هى التى أوجدتها فى أثيريا (أى عالم الأثير) ولكن ليس من الضرورى أن تكون فى نفس الجهات التى على الأرض .

« وفى هذه المستويات أرض وماء وشجر ودور وحقول وطرق

---

(١) المرجع السابق ، الفصل الثالث عشر ص ١٤٥ وما بعدها .

(٢) The Unfolding Universe

وراجع ما ورد عن المؤلف فى الجزء الأول ص ٢٤٧ ، ٢٤٨ .

ومزروعات من جميع الأنواع وأنهار وجبال ووديان. ولكل ما نشاهده على سطحنا يوجد مثيل على المستويات الأخرى . وإنما كلما ارتفعنا أو بعدنا عن سطح الأرض زاد الجمال وبهاء المنظر . . .

« وعلى هذه المستويات يوجد رجال ونساء وحيوانات تعيش كما نعيش نحن على الأرض . ولما كان الطعام اللازم للتغذية أيسر منالا ، وكان الجوهر هو الذى يستهلك بدل اللحم والخضر اللذين نستهلكهما نحن ، فإن الحياة تكون ميسرة هناك بل إنها تكون أيسر منها على الأرض . أما العواطف التى تجيش بها الصدور فوق الأرض والتى يثيرها فى الصدور الكفاح فى سبيل الوجود ، والخوف من الخطر فمعدومة فى اثيريا . ولا يلحق الجسم ضرر أو إيذاء ، والموت المفاجىء الشديد غير معروف » . . .

ذلك لأن المعروف هناك هو الانتقال من مستوى منخفض إلى مستوى مرتفع عن طريق فقد التجسد لافقد الجسد . وفقد التجسد هذا يجىء عن طريق ارتفاع تدريجى فى درجة اهتزاز الجسد الأثيرى الخاضع لتأثير العقل بسبب نموه فى المعرفة والخلق . فلا يترك الإنسان وراءه جسداً ترابياً مثل ذلك الذى يتركه هنا ، لأن التراب هناك لاوجود له فى أية صورة كانت على ما أجمعت عليه كتب البحث الروحى .

ثم يضيف فندلاى « ويوجد فى « أثيريا » جو يحيط بكل مستوى ، كما يوجد بها سحب وسماء ، وتصعد الرطوبة وتهبط هناك كما تصعد وتهبط هنا ، وأحوال المناخ هناك تنتشر كما تنتشر هنا ، ولكنها أكثر اعتدالا . وهناك تتغير الفصول أيضا . وينطبق هذا كما أنبئت على المستويات الثلاثة الأولى التى تعلو الأرض ، وابتداء من المستوى الرابع فما فوق تختفى التغيرات المناخية تماماً .

« ولا يوجد ليل فوق أى مستوى من مستويات أثيريا كالليل الذى نعرفه هنا . وبدلا من الليل فوق المستويات الثلاثة الأولى يوجد شفق ، وذلك

بسبب استضاءة جوهم . وتوجد سماء فى أثيريا كما هى الحال فى الأرض...
والألوان فى أثيريا أجمل كثيراً منها فى عالمنا ، وأكثر تنوعاً وتلألؤاً ،
ولذا فالمناظر أجمل منها لدينا ، وذلك لأن جوهم المضىء يكسب كل شىء
مظهراً قزحياً » .

وكل هذه معلومات أجمعت عليها الكتب الروحية ، فلم أقابل فى أى
منها ما يناقضها فى قليل أو فى كثير . وإنما اخترت آراء فندلاى بالذات ،
لأنها تلخص فى عبارات سريعة ما أجمعت عليه بحوث الروحيين فى
مراجع طويلة . فهو قد أغنانا بهذا التلخيص عن تكرار نفس المجهود . ثم
إنه صاحب خبرة عشرات السنين فى هذا الموضوع ومدير معهد روحى دولى
له مكانته ، بما يسمح له أن يتحدث فيه حديث الخبرة الشخصية والاتصال
المتواصل بعالم الروح عن طريق وسطاء من الطراز الأول مثل سلون
وسيط الصوت المباشر وغيره .

ثم إن لفندلاى مزية واضحة فى كتاباته وهى أنه يربط عادة بين حقائق
الفيزياء وبين ما تعطيه الأرواح الراقية من أوصاف لعالم الروح ، فما لم
يحصل على التعليل العلمى شافياً ، فلا يعتبر الوصف حقيقة يمكن الاقتناع بها .
والأمثلة على ذلك كثيرة نقتطف منها هنا المثال الآتى : —

فالأرواح قالت له إنه لا يوجد فى أثيريا ليل كليلنا وإنما يوجد — فحسب —
شفق ، أو بعبارة أخرى أن الحياة هناك نهار واحد طويل تقل استضاءته
فى فترات منتظمة عندما يخفت الضوء . وهذا الشفق هو الذى يقابل الليل
عندنا . وكما أن سماءنا المضيئة تحجب عنا النجوم نهاراً ولا ترينا إلا قبواً
مضيئاً كذلك تعمل سماؤهم فتبدو لهم قبواً مضيئاً أيضاً ، ولكن فى تلألؤ يجعل
الشمس الأثيرية نفسها غير منظورة بسبب الاستضاءة التى تحدثها .

وهو يعلل ذلك قائلا فى كتابه « الكون المنشور » : « إن جونا يعمل
كالمرآة إزاء أشعة الشمس الشارقة والغاربة ، وهذا يطيل يومنا ، وإلا فإن

يومنا يكون أقصر إذا اعتمدنا فقط على الأشعة المباشرة للشمس . فالمسألة كلها مسألة مدى ارتفاع هذه المرآة الجوية فوق سطحنا . وإذا امتد جونا إلى ارتفاع أعلى مما يمتد إليه فإن المرآة تعكس أشعة الضوء زمناً أطول ، ويطول نهارنا ويقصر ليلنا . أما في أثيريا فقد أثبتت أن مرآتهم الجوية أعلى كثيراً فوق سطحهم من علو مرآتنا فوق سطحنا ، وعلى ذلك تنعكس أشعة الشمس الأثيرية زمناً أطول فيمكن السطح الذى استدار بعيداً عن الشمس الأثيرية أن يحصل على الضوء ويظل كذلك حتى يحصل ثانية على أشعة الشمس المباشرة .

ولدينا على الأرض مثل لذلك فى موجاتنا اللاسلكية . فهذه الموجات فى طبيعتها من الوجهة العامة تشبه موجات الضوء ، إلا أنها أطول منها ملايين المرات . وما دامت تشبه الموجات الضوئية فى طبيعتها فهى تشترك معها فى كثير من الخواص . ولقد حار المجربون الأوائل المبكرون حيرة عظمى حينما وجدوا أنهم يلتقطون الرسائل من محطات لاسلكية فى الجزء المقابل من الأرض دون صعوبة . وسبب هذا أنه بمجرد أن تبلغ موجات الراديو ارتفاعاً خاصاً ترتد ثانية عائدة إلى الأرض . فما يعمله الجو لنا على الأرض بعكسه أشعة الشمس وإحداث الفجر والشفق تعمله لموجات الراديو هذه الطبقة من الغاز المتأين .

وتعرف إحدى هذه الطبقات بطبقة كنلى ـ هيفيسيد Kennelly-Heaviside وتوجد عادة على بعد من ٦٥ إلى ٧٠ ميلا فوق سطح الأرض . وتوجد طبقة أخرى تعرف باسم طبقة أبلتون Appleton على بعد من ٥٠ إلى ٢٥٠ ميلا فوق سطح الأرض ... كما توجد طبقات عاكسة على أبعاد من الأرض تصل إلى نحو ثلاثة ملايين من الأميال . وعلى ذلك لا تخترق الأرض موجات الراديو المرسلة من لندن ولكنها ترتفع إلى أعلى ، فإذا اصطدمت بإحدى هذه الطبقات عادت إلى الأرض ، وبذلك تلتقطها الموصلات الهوائية إلى استراليا .

وحينما يكون الوقت فى لندن نهارا يكون فى استراليا ليلا ، ولكن إذا كانت أشعة الضوء تنعكس مثل أشعة الراديو بالجو عند ارتفاع أكبر بكثير من الارتفاع الذى تنعكس عنده من سطح الأرض ، فإنه عندما يوجد ضوء هنا يوجد ضوء فى استراليا لأن بعضاً من أشعة الشمس يقع علينامباشرة ، حين أن البعض الآخر من تلك التى تمر بالأرض يمكن أن تصطادها المرآة المحيطة بالأرض وتعكسها إلى استراليا . وعلى الرغم من أن أشعة الشمس المباشرة لا تكون قد سقطت على استراليا ، أى على الرغم من أنه لا يكون إذ ذاك نهار هناك ، فإنها تكون فى ضوء منعكس يصح أن نسميه شفقاً . . .

ويؤكد هؤلاء الأثيريون دائماً أن جوهم أكثر ضياء من جونا ، وأنه يمتد فى الفضاء إلى ارتفاع أكبر . ولهذا لم يتعذر علينا أن نتصور أثيريا وفيها ضوء وشفق بدلا من ضوء وظلام كما هى الحال على الأرض . وتشبه أثيريا هذه الأرض كل الشبه إلا فى أنها أكثر منها زهاء ، ولطالما جهد الأثيريون فى توكيد ذلك ، وأخال أن على الأشياء هناك ضوءاً قزحياً لا يوجد عندنا ، وهذا الضوء ينشأ بسبب استضاءة جوهم . . . »

وهكذا يسترسل فندلاى فى تعليل ما أجمعت عليه الأرواح من أنه لا يوجد هناك ظلام ، بل مجرد شفق ، بما يضيق المقام عن إيراده بالكامل هنا ، كما يسترسل على نفس النمط فى تعليل ما تقوله الأرواح من ناحية موقع عالمهم وطبيعته وأوصافه بأسانيد مستمدة من مبادىء الفيزياء الحديثة ، لا يخرج عنها . وقد ساعده على ذلك اطلاع واسع فيها مما مكنه أن يصبح رائداً حقيقياً فى هذا الجانب من البحث الروحى ، وهو جانب التعليل العلمى للأوصاف التى يتلقاها بأسانيد ثبتت صحتها . حتى أن من يقرأ كتابه هذا وهو « الكون المنشور » برمته يخرج باقتناع على مسبب بصحة ما تقوله الأرواح ، وما أجمع عليه البحاث الروحيون من أوصاف متماثلة فى كلياتها

لعالم الروح من ناحية ظروف الحياة فيه من مناظر طبيعية وضوء وطقس وغيرها .

* * *

وها هى بيانات أخرى عن وصف الحياة هناك ننقلها عن مؤلف للأستاذ شارل بينزيك Charles Bénézech المستشار الفخرى بمحاكم الاستئناف الفرنسية تلقاها بطريق الوساطة من أرواح أشخاص سبقوه إلى هناك . وبوجه خاص من روح والده الفريد بينزيك Alfred Benezech الذى كان قبل انتقاله مؤلفاً وباحثاً معروفاً فى الأمور الروحية ، وقد أشرنا إلى أهم مؤلفاته فى الفصل الخاص عن « بعض الأسماء والمراجع فى فرنسا »[1] .

وقد نشر المستشار بينزيك هذه البيانات فى مؤلف له عنوانه « الحياة الأرضية وحياة ما بعد القبر »[2] ، وفيه يتساءل ماذا يمكن أن تؤول إليه الإحساسات الأولى للروح بعد أن تتحرر من ردائها الجسدى البالى ؟ ثم يجيب قائلا « تتوقف تلك الإحساسات على ما تكون الروح قد بذلته من جهد خلال وجودها الأرضى . على أنه يمكن القول بوجه عام بأنها إن لم تكن فى غشاوة من أمرها بسبب حياتها الرديئة ، وكذلك إن لم تكن قد وهبت نفسها للموت طواعية واختياراً فإنها ترى — وقد تحررت من جسدها — شريط حياتها الأرضية ماثلا أمام عينيها . وتحضر إلى لقياها الكائنات العزيزة عليها التى سبقتها إلى موت الجسد كيما تساعدها على أن تدرك حالتها الجديدة ، وعلى أن تتحرز من الخوف من المجهول الذى ربما يكون قد بدأ لديها أحياناً وهى فى دور الاحتضار .

إنه ميلاد ثان للإنسان . ولعله مما يدهشه أن يرى أن البشر يعيشون هناك

---

(١) راجع ما سبق فى الجزء الأول ص ٢٨٧ .

(٢) La Vie Terrienne Et La Vie D'outre Tombe.

فى جماعات معينة وأن لهم مشاغلهم الخاصة التى تحددها لهم ملكاتهم . وأنهم يقيمون فى مساكن مشيدة من مواد تبدو لهم صلبة ، وأنهم يرتدون ملابسهم ولهم أجسام أثيرية جلية واضحة . إن حالتى الحقيقية تجعلنى أشعر أنى حقيق فى هذه الحياة بقدر ما كنته على الأرض بالنسبة لكم ، على حد قول الكابتن هنيشليف Hainchleff .

وتبين الروح أنه قد صارت لها القدرة بعد تحررها من الجسد على أن تنتقل من مكان الى آخر فى الفضاء بسرعة الفكر . وقد تشعر الأرواح بالتعب وبالحاجة إلى الراحة فتستعيد قواها فى أسباب لهو تتفاوت فى أنواعها بحسب ميولها . وتتفاوت سعادتها طبقاً لما تستحقه من جزاء عما قدم أصحابها من خير على الأرض ، أو عما ينبغى عليها من إصلاح لأنانيتها وعيوبها الشخصية .

كما تبين الروح أن الجسد الأثيرى يتطور هناك فينمو الطفل ويتعلم ويصير بالغاً . ولذلك فإن الضيف الجديد قد يجد فى ذلك العالم بعض صعوبة فى التعرف على الأشخاص الذين عرفهم أثناء حياته الأرضية .

وتظهر فى الأرواح مقدرة جديدة على الاتصال مع الآخرين بطريق الفكر و « تصوير المعانى » بغير الاستعانة بمترجم عند اختلاف اللغة ، وما هذه الملكة فى النهاية سوى نفس الملكة التى يحوزها بعض الأشخاص وهم فى الجسد (ملكة التلباثى) ولكنها تصبح عامة شائعة هناك[١] .

ويصبح التفكير مبدعاً خالقاً ، وقد أجمعت على ذلك كل الرسائل . . .

ثم يقول عن الانتقال : « ولا يدرك المنتقل حالته الجديدة على الفور ، بل إنه ليظل فى حيرة من أمره ويحتاج إلى وقت يتفاوت طولا وقصراً

---

(١) يشير المؤلف إلى كتاب « الحالات العميقة للتنويم المغناطيسى » للكولونيل دى روشا
De Rochas : Les Etats Profonds de L'hypnose.

ليتعرف فيه على نفسه ، وهو أمر يتوقف على درجة إعداده الذهنى . وقد يذهله أن يرى نفسه واقفاً بالقرب من جسده يتأمله خامداً لا حراك فيه . كما أنه لا يعى شيئاً عن علة آلام ذويه ، بل قد يميل إلى الضحك منها ، فما أعظم المفارقة بين ما يشعر به من سعادة وما يثيره من فجيعة ، فيرغب فى الكلام إليهم ... ولكن هيهات .

وبمجرد مايسترد الإحساس بذاته يرى أن واحداً من سكان العالم غير المنظور قد حضر لاستقباله وإرشاده يرافقه أعزاؤه الذين سبقوه إلى ذلك العالم الآخر . إنهم يفيضون هناك شباباً وجمالا ولكن يسهل التعرف عليهم رغم ما انتابهم من تغيير ، إذ أن لهم المقدرة بحكم تفكيرهم المبدع على أن يتخذوا الشكل الذى كانوا يعرفون به على الأرض وذلك إثباتاً لشخصيتهم[1] .

ويحتفظ المرء بعقليته وبإرادته بوجه الاستمرار ، ولكم يتغير حكمه على الأشياء بعد تحرره من الجسد . فإن الروح أصبحت تبدو فى الجماعة التى صارت عضواً فيها على ما هى عليه من حال مجردة من كل قناع يغطيها . ويصبح الحكم على قيمة الأشخاص طبقاً لنواياهم . وقد يكون المتهم الذى تدينه محاكمنا بعقوبات ماسة بالاعتبار فى وضع أحسن حالا — بالنظر إلى فضائله — من المنافقين الذين لم تكن فضائلهم إلا مظهراً خداعاً ... فيتحقق قول المسيح « ولكن كثيرون أولون يكونون آخرين والآخرون أولين » (مر ١٠ : ٣١) .

« ومن هذه الوجهة تبدو أمجاد الأرض إذلالا قد يجعل أسمى ما فينا مبعث سخرية ، ويصبح ما نفخر به من مزايا المال والرتب الاجتماعية والألقاب غير ذى معنى ، فإن أفضل ما لدينا على الأرض لا يصل إلى أقل الأشياء قيمة هناك ، بحيث أن من الأثرياء المرموقين من عباد المال ، ومن

---

(١) راجع ما سبق فى الجزء الاول ص ٣٩٩ ، ٤٧٢ — ٤٩٧ .

أحالهم حب السادة إلى أرقاء مستضعفين ، من سيصبحون هناك بؤساء مجردين من المال والاعتبار .

هناك تصبح السيادة لفضيلة المحبة التى تتطلب منا أن ننسى ذواتنا وأن نحب للآخرين ما نحب لأنفسنا من عوامل السعادة فالمحبة تقربنا من الإله تعالى حين تبعدنا عنه الأحقاد التى تفسد حياتنا وتصنع منها سعيراً حقيقياً . ولا يستشعر المرء فى الجملة أية رغبة فى العودة إلى عالمنا هذا ، إذ أن معنى ذلك هو التنازل عن متع جمة ، إنما قد يرغب فى الذهاب بالقرب من الأشخاص الأعزاء لديه .

هناك تظهر جلية الصفة العابرة للأمور الأرضية ، فتستبين الروح أن للفقر وللألم فائدة معنوية تجعل منهما نعمة ورحمة من الرحمن . وهناك تكون الرغبة فى التعلم قوية .

هناك لا يكون للزمان والمكان نفس المعنى فنتحرك بسرعة كبيرة ، إلى حد أننا نصير فى أى مكان بمجرد تفكيرنا فيه. كما يصبح لدينا إحساس محير بالمقدرة وبالحرية فى جو عذب مشبع بالسلام وبالمحبة وبالنعيم وبنسيان آلام الحياة الماضية فى كنف ذلك الكون غير المحدود الاتساع ، والذى يبقى مع ذلك لغزاً لا يحل . إنها لآفاق تتراجع كاشفة عن روائع متجددة على الدوام .

ولن يصبح الإنسان ملاكاً أو قديساً ، بل سيدرك كل واحد مدى نقائصه ، كما سيبدو له لماماً ما عليه أن يدركه من ارتفاع فى أعماق المحبة الغير المحدودة ، ويبدو كما لو كان مريضاً فى مصح يعالج فيه من رذائله الشخصية وتتحدد قيمة الشخص بنوع ما قد يغذيه من المشاعر ، ولا تكون للمشكلات اللاهوتية أى اعتبار ، بل يكون الخلاص عن طريق الإيمان الذى تسيطر عليه الأخوة بين البشر أجمعين ، والرغبة فى التعاون مع جميع المخلصين من بنى الإنسان ، أيا كان جنسهم أو جنسيتهم أو أديانهم .

« وليس للأرواح أن تجيب على جميع الأسئلة التى قد توجه إليها فى الجلسات ، على أن معلوماتها محدودة جداً فى الواقع ، ولو أنها أكثر من معلوماتنا ويوجد بينها كما يوجد بيننا خليط متباين فى المدارك الأمر الذى ينجم عنه تباين آرائها . وهى تنظر إلى المادة كما لوكانت وهماً من صنع العقل يخبو مع الموت ، إذ أن الروح هى التى لها وحدها وجود حقيقى .

ولا يحيون فى ذلك العالم الآخر حياة تأمل فحسب ، بل إن لكل إنسان منهم مشاغله الخاصة ، ولذا فإنه كثيراً ما يحدث أثناء الجلسات أن تغادرنا الأرواح فجأة قائلة إنها مطلوبة فى مكان آخر ... (١) »

وهكذا لخص هذا المستشار فى عبارات سريعة بعض البيانات العامة عن وصف الحياة هناك كما خلص إليها بعد سنين كثيرة من التجريب فى منزله ، فهل له مصلحة فى الكذب — وهو قبل كل اعتبار قاض — وهل نسى لغير حكمة مفهومة ما ينبغى أن تتسم به أقوال القاضى من دقة ومن صدق ؟... ثم هل نهدر البينة المستمدة من التماثل الواضح بين النتائج التى وصل إليها هو وتلك التى وصل إليها الباحثون الآخرون فى شتى أمصار الأرض ؟ وهل نكون عندئذ رجالا علميين منطقيين ؟

وهذا التماثل الواضح لا يظهر تماماً إلا بعد اطلاع القارىء على الفصل المقبل الذى خصصناه للكلام فى « أسلوب الحياة فى عالم المستوى الثالث » — الذى يمثل مستوى واحد من مستويات عوالم ما بعد المادة — بشىء من التفصيل والعناية، لأنه مستوى وثيق الصلة بمستوى الحياة المادية على الكوكب الأرضى ، فهى بمثابة الإعداد له والتمهيد، كطفولة الطفل عندما تعده لمستقبله وتمهد له سبل السعادة فيه أو الشقاء .

---

(١) المرجع السابق طبعة ١٩٤٧ ص ١٥٣ — ١٥٩ .

الفصل الثالث

أمور مجمع عليها عن أسلوب الحياة في عالم «المستوى الثالث»

هكذا تلاقت المعلومات الواردة من مصادر متعددة من عالم الروح عند إعطاء صورة تقريبية للحياة هناك لم يعرفها الإنسان من قبـــل ، ولم تختلف هذه المصادر فى تحديد خطوطها الرئيسية ، وإن اختلفت فى بعض التفصيلات اختلافاً طبيعياً بحسب المناطق والبيئات التى تقطها هذه الأرواح — وهى متعددة تعدداً لا آخر له — وبحسب التباين المتوقع من أوصاف صادرة من أشخاص عديدين حتى إذا ما وجدوا فى نفس البيئة بحسب اختلاف طرائق تفـكيرهم ، وتفاوت نظراتهم إلى شتى الأمور ، والزوايا التى قد تعنيهم منها ، خصوصاً فى عالم تلعب قدرة العقل على الخلق والتنقل الدور الأول فى توجيه أسلوب الحياة فيه .

ويحسن كيما نأخذ فكرة أكثر وضوحاً مما تقدم عن طبيعة الحياة فى المستوى العادى الذى يذهب إليه البشر — الذين وصلوا إلى مستوى معين من الثقافة والنضج — وهو «المستوى الثالث» (أو مستوى السمرلاند Summerland بحسب الوصف الاصطلاحى[١]) أن نعرض بطريقة أكثر تفصيلا مما تقدم لأسلوب الحياة فى هذا المستوى ، كما سجلتها البحوث الموثوق فى قيمة أصحابها ، وفى دقتهم فى النقل والرواية ، وفى نفس الوقت فى قيمة أرواحهم المرشدة من ناحية مدى نضجها وثقافتها واطلاعها على قدر كاف من حقائق الحياة هناك .

ولا ريب أنه من الأهمية بمكان ان يعرف كل إنسان هـذه الأوصاف العامة للحياة المستقبلة ، فإن هذه المعرفة تشبع فى نفسه حاجة طبيعية مشروعة

---

(١) هى «سمرلاند» أرض الصيف وهى كناية عن بيئة المرح والجو الجميل

إلى تعرف طبيعة حياته المستقبلة التى ينبغى على كل عاقل أن يعد نفسه لها منذ الآن إذا شاء لنفسه حسن المصير ، وهو الهدف السامى لكل تعليم خلق وصل إليه بنو البشر سواء تحت راية الاعتقاد الدينى أم خارجها .

وفيما يلى سنعرض لبيان أهم الأمور المجمع عليها فى كافة المراجع الروحية فى شأن أوصاف العيش فى هذا المستوى الثالث Third Plane مستقاة من عدد من المراجع الموثوق فيها ، والتى تلاقت كلها عند التسليم بصحة هذه الأوصاف ، وذلك فى ستة مباحث متتابعة على النحو الآتى :—

المبحث الأول : فى شخصية الإنسان هناك .

المبحث الثانى : فى الصورة العامة للطبيعة هناك .

المبحث الثالث : فى بعض المميزات العامة للحياة هناك .

المبحث الرابع : فى معنى الزمان والمكان هناك .

المبحث الخامس : فى الحياة الاجتماعية هناك .

المبحث السادس : فى الحياة العاطفية هناك .

المبحث الأول

فى شخصية الإنسان هناك

أول ما قد يلفت نظر الإنسان القادم حديثاً إلى عالم الروح أن يرى أن للأجسام البشرية نفس أشكالها وملامحها المعروفة هنا تماماً . فنحن كما يقول جيمس آرثر فندلاى — مدير المعهد الدولى للبحث الروحى بلندن حتى وفاته فى سنة ١٩٦٤ — نعيش هناك رجالا ونساء كما نعيش هنا . وما كلمة « روح » إلا تسمية أرضية ، وليست جسومنا الأثيرية[1] مشابهة فحسب لجسومنا

---

(١) راجع ما سبق عنها فى الجزء الأول ص ٤٢٧ — ٤٦٣ .

الأرضية فى تفصيلاتها كلها ، بل هى أيضاً حقيقية محسوسة لأصحابها كجسومنا بالنسبة لنا . . . . لنذكر أننا حين نخلع عنا جسمنا الفيزيقى فإن كل فيزيقى يصبح غير حقيقى ويصبح كل أثيرى حقيقياً إزاء وعينا .

ولقد عرفنا الكثير بخصوص المادة فهى لا تنعدم حين لا تراها عيوننا الفيزيقية . وقد يتضح هذا على أتمه لو أننا أخذنا قليلا من الماء وسخناه ثم لاحظنا تأثير ذلك . فأولا نجد بخاراً منظوراً بعضه ، ثم فوقه بخار غير منظور ، وإذا عكسنا العملية (بالتبريد) استطعنا أن نستعيد هذا البخار غير المنظور إلى ماء كما كان . «فوق البخار» هذا لا يزال مادة على الرغم من اختفائه عن الأنظار ، وكل ما حدث هو أننا زدنا اهتزازاته ثم خفضناها حتى صار ماءً مرة أخرى ، فجسومنا الأثيرية تهتز بسرعة تقصر عن إدراكها عيوننا الفيزيقية[1] .

ولا يبدو على الوجه — هناك — تأثير العمر جلياً ، فليس للروح أو بالأدق للجسد الأثيرى من عمر يهد من قواه ، أو من تأثير سىء فى جمال الوجه أو البشرة ، وذلك فى الوضع العادى للإنسان ، وما لم يقصد هو إظهار شخصيته السابقة قبل انتقاله إلى هناك لمجرد إمكان التعرف عليه .

ومن ينتقل فى شبابه الأرضى يظل على هذا الشباب ، ومن ينتقل فى سن الطفولة ينمو كما لو كان قد ظل على الأرض ويجد هناك عناية كافية وقلوباً رحيمة كثيرة من أقاربه الذين سبقوه إلى عالم الروح وغيرهم[2] أما من ينتقل فى شيخوخته فإنه يرجع إلى شبابه تدريجياً بحكم وجوده فى أجواء الأثير التى لا تعرف الشيخوخة ولا تعترف بها ، إذ أن الشيخوخة صفة تلازم الجسد المادى ولا تلازم الروح ، أو بالأدق لا تلازم العقل

(١) « على حافة العالم الأثيرى » ترجمة المرحوم الأستاذ أحمد فهمى أبو الخير طبعة ثالثة ص ١٣٣ و ١٣٤ .

(٢) للمزيد فى هذا الموضوع راجع كتاب سيلفيا باربانيل Sylvia Barbanell « عندما يموت طفل » When A Child Dies .

الذى ينمو على مر السنين ولا يضعف بها ، حتى أن « الشيخوخة » هناك هى فى حقيقتها مزيد من الشباب .

وهذا هو الفهم الذى فهمه للروح كل من كتب فيها منذ عهد الإغريق حتى الآن ، وهو أنها تقوى بمرور الزمن ولا تضعف به ، لأن معنى الزمن للروح غير معناه للجسد المادى ، وهو نفس الفهم المستفاد من كتابات الفلاسفة المحدثين . وكل ما فعله علم الروح الحديث هو أنه أقام عليه الأدلة من واقع كلام الأرواح الراقية نفسها فى أية رقعة فى الأرض سئلت فيها عن هذه النقطة .

وعلى هذا المعنى أجمعت رسائل الأرواح . وفيه يتحدث أمير الشعراء شوقى فى رسالة التصدير قائلا من هناك : —

وهنا نعيش بلا خريف منفر بل فى ربيع يانع نتنعم
والكل فى أوج الصبا متألق حر . مع الإنصاف لا نتظلم

إلى أن يقول :

إنا تخطينا المشارف للعلا حيث المدارك وعيها لا يفطم
لنعب من نبع المعارف حكمة فهى المنال لعالم يستكرم

وعندما نتحدث فى المبحث الرابع من الفصل الحالى عن « الزمان والمكان هناك » نبين كيف أن الشباب الدائم ينبغى أن يعتبر « حقيقة علمية » لعالم الروح فى ظل أحدث حقائق الرياضة الزمنية والمكانية .

فى الوعى

وإذ كان العقل يبقى ملازماً للجسد الأثيرى فإن مقتضى ذلك بالضرورة بقاء الذاكرة أيضاً وتطورها مع تطور العقل ونموه بغير توقف . وقد علل سويدنبرج الفيلسوف الوسيط منذ منتصف القرن الثامن عشر حدوث هذا التطور بأن للإنسان ذاكرتين لا ذاكرة واحدة : ذاكرة خارجية تنتمى إلى الإنسان الطبيعى ، وذاكرة داخلية تنتمى إلى الإنسان الروحى (أى الجسد الأثيرى) .

فكل ما فكر فيه الإنسان وأراده ونطق به وعمله ، وما سمعه ونظره ، قد تم تسجيله فى ذاكرته الداخلية أو الروحية (التى يعرفها علم النفس الحديث تحت وصف العقل الباطن) .

ومع ذلك ينبغى أن نعرف — على حد قول سويدنبرج — أن الإنسان لا يحصل على أية معرفة ومعها الذكاء إلا إلى مدى تعلقه بالخير ، وبالحقيقة التى عاش فيها عندما كان فى العالم المادى بدون أن يقدر على تجاوز هذا المدى.

وفى الحقيقة إن كل إنسان يحتفظ هناك بالعاطفة التى كانت لديه عندما كان فى هذا العالم بنفس المقدار والنوع . ثم تتقدم هذه العاطفة تدريجياً وهو ما يحدث فى الأبدية، لأنه لا يوجد شىء يعجز عن أن يتكامل إلى ما لا نهاية. فكل شىء يمكن أن يتشكل إلى ما لا نهاية وينمو بالتالى عن طريق معرفة أمور مختلفة، بل يتضاعف ويثمر، فلا توجد نهاية لأى شىء طيب لأن الطيب يستمد وجوده من اللانهاية . ولذا تتقدم الأرواح والملائكة باضطراد فى الذكاء والحكمة عن طريق معرفة الحق والخير[1] » .

لكن هذا التطور فى شكل الإنسان وثقافته وأخلاقه تدريجى محكوم بميول العقل واتجاهاته ، ويتفاوت فى سرعته من إنسان إلى آخر. فالإنسان الذكى الطموح يمكن أن يتطور أسرع من البليد القانع بحالته . وذلك هو ما يحدث أيضا على المستوى الأرضى لأن قوانين الحياة التى تسيطر على طبائع البشر لا تختلف كثيراً هنا عنها هناك ، مهما اختلفت مظاهر الطبيعة وإمكانيات البيئة الجديدة للعقل .

وفى هذا الصدد تتحدث روح سير آرثر كونان دويل إلى الأسقف شارل تويديل قائلة — بعد إعطاء صورته وتوقيعه[2] — « إن هدفى فى هذه

(١) عن « الجنة والنار » Le Ciel Et L'Enfer ترجمة فرنسية بمعرفة جان ل. فرانسيه Jean L. Francais فقرة ٤٦٣ ص ٣٣٦ ، ٤٦٩ ص ٣٤٣ .

ويقول بعض علماء الروح إن ما ينزلق إلى العقل الباطن قد يبقى فترة طويلة بعد موت الجسد، أما ما يبقى فى حدود العقل الواعى وحده فهو عرضة للنسيان السريع بعد الانتقال .

(٢) راجع ما سبق فى الجزء الأول ص ٢٦٥ ، ٤٨٨ ، ٤٩٨ .

الحياة هو أن أحب كل إنسان ، وأن أفعل كما كنت أفعل عندما كنت فى الجسد الفانى . إنك تعلم يا تويديل أنه بدون طموح لا يمكن أن توجد سعادة حقيقية ، ولذا فنحن نظل طموحين فى اتجاه أو فى آخر . ولكن بما أنه لا يوجد هنا طموح من طبيعة طموح الأرضيين،مثل طموحهم إلى المال، فلا حاجة بنا إلى أن نخرق القوانين ،والأمر الهام هو تقدمنا الروحى .

وإذا كانت ذاكرتنا تحيا بعد الموت ، وإذا كنا نتطلع خلفنا إلى حياتنا الأرضية متأملين فيما أخطأنا فيه ، وإذا كنا مستعدين وقابلين إصلاحها ، فإننا نشرع على الفور فى بذل أقصى جهدنا فى هذا السبيل، ولكن العقل ينبغى ابتداء أن يكون مستعداً ، غير عنيد كما يفعل الكثيرون عندمرورهم إلى هنا، ويمكننى أن أحرر لك صفحات كاملة عن هذا الموضوع . . . » .

وقد روى مثل ذلك روح شوبان Chopin الموسيقار العظيم ، الذى كان يحضر جلسات أسقف يوركشير مدفوعاً برغبة الهيمنة على الوسيطة ، وهى كريمة الأسقف وتدعى دوروثى Dorothy ، وكانت لاعبة بيان ماهرة ومغرمة بوجه خاص بموسيقى شوبان .

ويعلق الأسقف تويديل على عبارة روح دويل ، « بأنه «ما لم يكن هناك طموح للإنسان فلا توجد سعادة حقيقية » ، قائلا مامعناه إننا نجدأن أولئك الذين يعيشون بعد موت الجسد الفانى يظلون آدميين على حالهم ، وهذا هو ما ينبغى توقعه من طبائع الأمور مع الاغتباط له . فإن أصحاب الشخصيات « العالية » التى تحتقر الأرض — هذا العالم المملوء بالخطيئة كما يقولون — ينسون أن هذا العالم أيضاً من صنع الله الذى أعده مقاماً لخليقته .

ويبدو عليهم أنهم يظنون أن الإنسان يحصل فجأة بعد الموت على الحكمة وعلى طبيعة «رئيس الملائكة» فما أشد دهشتهم عندما يحل دورهم فى الانتقال، لأن جميع المعلومات التى ترد من هناك تفيد أن مثل هذه الأفكار خاطئة تماماً وغير متفقة مع المنطق ولا مع الذوق السليم، بالإضافة لى أقوال المنتقلين أنفسهم.

فالإنسان عندما يستيقظ من رقدة «الموت» هو نفس الإنسان بعواطفه وآماله ومعرفته وميوله التي كانت عنده قبل الموت مباشرة، وإنما يستوعب ببطء معرفته الجديدة وتجربته بعد تغير حالته ومكانه. وحتى بعد مرور مدة طويلة وحصوله على تقدم وافر فهو يظل كائناً آدمياً مهما أصبح له من شمائل الإنسان المتكامل بعد التقدم الكثير الذي أحرزه.

فلنشكر الله على ذلك، ولننعم بأن من نحبهم من أصدقاء وأقارب يستمرون بشراً ومحلا لحبنا، ولم يتحولوا إلى مخلوقات لا يمكن التعرف عليها مجردة من صفات الإنسانية ومشاعرها، فكيف كان يمكننا التعرف عليهم لو حدث مثل هذا التحول[1]؟.

في تطور الوعي

وعن تطور وعي الإنسان بعد «الموت» يقول الدكتور جوستاف جيلي G.Geley مدير «المعهد الدولي لما وراء الروح» بباريس إن الموت للإنسان المتطور تطوراً كافياً يؤدي إلى انفجار الدائرة المحدودة التي كانت الحياة المادية تعتقل فيها الوعي الذي يتجاوزها، وهي دائرة المهنة والأسرة والوطن فيجد الكائن نفسه محولا خارج الأفكار والذكريات المألوفة، وخارج حبه وأحقاده وعواطفه وعاداته.

وبالقدر الذي يسمح له به تطوره الحالي يتذكر ماضيه كما يصبح لديه نوع من الإحساس السابق بالمستقبل، فيمكنه أن يحكم على الطريق الذي سلكه ويقدر نتائج سلوكه وجهوده وهناك أشياء كثيرة كانت تبدو لها أهمية قصوى في مجرى حياته تظهر له عندئذ تافهة وضئيلة القيمة عند النظر إليها من عل.

كما أن فرحاته الكبرى وآلامه وانفعالاته التي لا تتناسب مع النتائج، ومشاعره التي اجتاحت حياته، ومطامحه التي افترستها، كل ذلك يتضاءل

---

(١) عن «أنباء من العالم الآخر» News From The Next World طبعة ثالثة ص ٣٢٢ — ٣٢٤.

عندئذ إلى مقداره الحقيق ، فلا يشغل بعد إلا مكاناً ضئيلا فى تسلسل ذكرياته الواعية .

وبين روابطه القديمة ، يتلاشى الواهى منها كما يتلاشى الضباب الخفيف مع طلوع الفجر ، أما الروابط القوية فهى تكون جزءاً لا يتجزأ من سلسلة مصيره ، ولا يمكنه التخلص من حلقاتها إلا تدريجياً .

فهذه الفترة التى يقضيها الإنسان خارج الأعضاء extra-organique ليست فحسب مرحلة استجمام وتركيب عام وحكم تلقائى على النفس، بل إنها بوجه خاص مرحلة نشيطة جداً للاندماج النفسى ، إذ فيها يتم فى هدوء اندماج التجارب الجديدة فى التجارب القديمة ، كما تتميز فى الكائن حالات الوعى التى تم تسجيلها خلال الحياة .

وهذا الاندماج لا غنى عنه لتوحيد الشخصية وللتناسق الروحى . فيبدو أن اضطرابات الشخصية — كما سبق أن بينا — لا ترجع مهما كانت غريبة غامضة — إلا إلى عدم الاندماج النفسى بمعرفة الكائن قبل حياته الحاضرة، وإلى ميل العناصر العقلية التى لم تمثلها الذات نحو المروق عن سلطة العقل ومناهضتها .

وفى الجملة يبدو أن المراحل المتتابعة للحياة العضوية وخارج الأعضاء لها دور فى التطور متميز هنا عنه هناك ، ولكن مكمل له . وفى سلسلة الحيوات المتعاقبة لا يبدو للحياة الأرضية من قيمة تذكر إلا كقيمة يوم واحد فى مجرى هذه الحياة . فللحياة الأرضية برمتها ولليوم الواحد نفس القيمة ، وبينهما تماثل حقيقى . فهناك أيام سعيدة وأخرى سيئة ، كما توجد حيوات سعيدة وأخرى سيئة ، كما توجد أيام وحيوات مفيدة وأخرى ضائعة .

وفى الفترة بين وجودين أرضيين (إذ المؤلف من أنصار تعدد الحيوات الأرضية والأثيرية) يعد الكائن المتطور تطوراً كافياً برنامجه للمستقبل

وتفصل بين الحيوات، كما تفصل بين الأيام، فترات للراحة الظاهرة، ولكنها في نفس الوقت لحظات للجهد المثمر، ولهضم ما مضى وللاستعداد لما هو آت. وكما تبدو مشكلات كثيرة وقد حلها التوفيق عند اليقظة من النوم فكذلك يبدو الكائن في مستهل حياته الأرضية مقوداً في خطواته الأولى فيسير في اطمئنان كما لو كانت تمسك بزمامه يد ما في الطريق الذي رسمه لنفسه، والذي يجهله بمجرد ولادته ومع ذلك يسير فيه مغمض العينين.

هكذا الحال من وجود إلى وجود. وعن طريق فيض التجارب الكثيرة المسجلة المهضومة يصل الكائن شيئاً فشيئاً إلى الأوجه السامية من الحياة التي لا يكفلها إلا التطور الكامل للوعي، أي عند تحقق السيطرة عليه.

والسيطرة على الوعي ينبغي أن تمتد — كغاية مثلى — على الحاضر والماضي والمستقبل، بمعنى أن تحقق نوعاً من الإحساس الغامض بالمستقبل الذي لا يبدو مفهوما الآن. ولكن ما يمكننا بالأقل أن نصل إليه عن طريق المنطق هو حالة من معرفة الذات والكون متسقة بالقدر الذي يمكنها من إلغاء نسيان الماضي، ومن السماح بالاستخدام المنظم والطبيعي للملكات السماوية، وما وراء الروحية، وبالتالي من رؤية معجزات التطور المتحرر السعيد، المنبثق في النهاية من ظلمات الجهل، ومن قيـــود الحاجة ومن الآلام الرهيبة[1].

* * *

وعن تطور الوعي هناك يقول أيضاً أديب بلجيكا الكبير موريس ماترلنك Maurice Maeterlinck (جائزة نوبل في الأدب ١٩١١) إنه إذا كان الوسط الجديد الذي ندخل إليه عند الخروج من بطون أمهاتنا يحولنا إلى مدى يجعل كل صلة مقطوعة بين الجنين الذي كناه، وبين الإنسان الذي

---

(١) من مؤلفه « من العقل غير الواعي إلى العقل الواعي » De L'inconscient Au Conscient. طبعة ١٩١٩ ص ٣٢١ — ٣٢٣.

أصبحناه ، إذاً ألا يدعونا ذلك للاعتقاد بأن الوسط الذى نذهب إليه عند خروجنا من الحياة الأرضية ، وهو أكثر جدة ، ومجهولية ورحابة وخصوبة، يطورنا أكثر فأكثر؟. إنه يمكن للإنسان أن يرى فيما يحدث لنا هنا صورة مما ينتظرنا هناك ، ويتقبل تماماً أن كائننا الروحى ، بعد التخلص من جسده إذا كان لا يختلط باللانهاية ، فهو ينمو شيئاً فشيئاً ، ويتخير جوهره ، ولا يتوقف عن النمو ما دام لا يعوقه عائق من مكان ولا من زمان[1] . ومن الجائز جداً أن أكثر رغباتنا سمواً الآن تصبح قانون نمونا المستقبل ، وأن أرقى أفكارنا تستقبلنا على الشاطىء الآخر للحياة ، وأن نوع ذكائنا يحدد نوع الذكاء غير المحدود الذى يتبلور من حوله .

إن جميع الافتراضات جائزة ، وكذلك أيضاً جميع الأسئلة ، بشرط أن تتصل بالسعادة . لأن التعاسة لا يمكنها أن تجيبنا عن شىء ، ولا محل لها فى التصور الإنسانى عندما يستكشف المستقبل بطريقة منظمة . وأية كانت القوة التى نحيا بها بعد الموت ، والتى تهيمن على وجودنا فى العالم الآخر ، فإن هذا الوجود ، مهما افترضنا فيه السوء لا يمكن أن يكون أقل عظمة ولا سعادة من وجودنا الحالى . فهو لا يقود إلا إلى اللانهاية ، وليست اللانهاية شيئاً إن لم تكن هى السعادة . وعلى أية حال يبدو مؤكداً أننا نقضى هنا اللحظة الوحيدة فى أقدارنا التى تتصف بالضيق وبالشح وبالظلام وبالألم .

ولقد قلنا إن الألم الخاص بالروح هو ذلك الناجم عن عدم المعرفة أو عن عدم الفهم ، والذى يتضمن ألم العجز ، لأن من يعرف الأسباب العليا لا تعوقه المادة بعد، بل يتصل بهذه الأسباب ويتصرف طبقاً لها . ومن يفهم ينتهى بالموافقة ، وإلا يصبح الكون كله عبارة عن خطأ ، وهو أمر ليس ممكناً لأنه من غير المتصور وجود خطأ لا نهائى . ولذا لا أعتقد أنه

---

(١) سنعالج معنى المكان والزمان هناك فى المبحث الرابع .

يمكن لإنسان ما أن يتصور وجود ألم آخر يصيب الفكر الخالص . إن الألم الوحيد الذى يظهر مقبولا — بدون تفكير فيه — وهو مع ذلك ألم زائل — إنما يتولد عن مشاهدة صور الألم والتعاسة فى الأرض بعد مغادرتها . ومع ذلك فهذا الألم لن يكون فى واقعه سوى مجرد مظهر ولحظة لا تذكر بجانب الألم الذى يجىء بسبب عدم القدرة أو العجز عن الفهم [١]...

فى تفاعل الشكل مع الوعى

وقد أقام علم الروح الحديث الأدلة موفورة على تأثير العقل المباشر فى المادة[٢]. وما دام هذا التأثير أصبح حقيقة مقررة فإنه يبلغ مداه فى عالم الروح فيؤثر العقل تأثيراً مباشراً فى مادة الجسد الأثيرى — وهى بالغة الرقة بالقياس إلى مادة أجسادنا الترابية — فيعطيها العقل مظهرها الخارجى الذى به يتعارفون هناك كما نتعارف بالجسد الأرضى على المستوى الأرضى . وبالتالى فإن شباب العقل يضفى على الجسد الأثيرى شبابه الذى يلازمه فى رحلة الأبدية فى الفضاء .

ولأن شكل الإنسان الخارجى هناك يمكن أن يتشكل بحسب الذاكرة — التى تعمل عن طريق العقل كما يعمل العقل عن طريق الذاكرة — فإن أغلب الأرواح عندما « تنزل » إلى المستوى الأرضى تفضل — بتأثير الذاكرة فى الجسد الأثيرى — أن تتخذ نفس مظهرها القديم فى أخريات أيامها الأرضية حتى يمكن أن يتعرف عليها الحاضرون . أما عندما تعود إلى هناك فإنها تترك نفسها على سجيتها ، لأن ذلك لا يكبدها أى مجهود ذهنى كذلك الذى تبذله عندما تريد أن تظهر نفسها هنا على اللوح الحساس ، أو عندما تريد أن تتجسد للحاضرين ، وهذه أمور من البديهيات الآن فى

---

(١) من مؤلفه عن « الموت » La Mort طبعة ١٩١٣ ص ١٩٧ — ٢٠٠ . وراجع ما سبق عن المؤلف فى الجزء الأول ص ٢٩٢ .

(٢) راجع ما سبق عن بحوث جامعة ديوك التى دامت لعشرات من السنين قبل التسليم بذلك فى الجزء الأول ص ٤٦٧ وما بعدها ، ومثلها بحوث عدة هيئات علمية .

علم الروح ، فلم يختلف فيها باحثان أو مؤلفان ، فهل كان ذلك أمراً ممكناً لو أن الموضوع كله كان محض خيال ؟[١] ..

ولذلك أيضاً فإن جمال الأخلاق — وموطنها الحقيق العقل — يضفى على صاحبه هناك جمال الجسد الأثيرى فيتفاعل العقل معه بصفة مستمرة فى حياة الأثير، لا يعوقه عائق إلا قوة الذاكرة وحدها. وبالتالى فإن ملامح الإنسان هناك تعبر تماماً عن حقيقة عواطفه ومشاعره ، فإذا حدث فيها تطور مع الوقت فإن ذلك يجىء — فحسب — عن طريق تطور هذه الأخيرة . فلا يمكن لإنسان هناك أن يتصنع مشاعر لا يملكها أو عواطف لا تنتمى إليه .

ولذا يقول سويدنبرج إن الشكل يبدو جميلا بقدر ما يكون صاحبه قد أحب داخلياً الحقائق المقدسة وعاش فيها، لأن داخليات الإنسان تصبح هناك مكشوفة وتتشكل بحسب المحبة والحياة . وبقدر ما يكون الحب داخلياً بقدر مايكون مطابقاً للسماء وبقدر ما يكون الوجه أكثر جمالا بالتالى ...

كما يقول ، لقد رأيت وجوهاً ملائكية من السماء الثالثة لا يمكن لأى رسام مهما أوتى أن يعطى لألوانه بريقاً من الضوء يعادل جزءاً من ألف من البريق والحيوية اللذين يلمعان على وجوه هذه الملائكة . أما وجوه ملائكة السماء القريبة فيمكن للرسامين أن يقلدوها إلى حدما »[٢] .

أما على المستوى الأرضى فإن قوانين الوراثة البيولوجية تلعب الدور الأول فى تشكيل الجسد الذى يتجاوز كثيراً دور الروح أياً كان مستواها فى نضج الخلق والعقل ، بدون إنكار لتأثير الذاكرة فى الشكل ،فإن شكل الإنسان هو فى النهاية نتاج ذاكرته أى نتاج عقله فى حدود قوانين الوراثة هذه ، أما هناك فشكل الإنسان خاضع خضوعاً مباشراً لذاكرته .

---

(١) أنظر صور الأرواح المتجسدة فى الجزء الأول ص ٣٣١ — ٣٣٩ ، ٣٤٧ . وغير المتجسدة فى ص ٤٨٣ — ٤٩٧ .

(٢) عن المرجع السابق فقرة ٤٥٩ ص ٣٣٠ .

الحواس

والجسد الأثيرى هو الذى يحمل حواس الإنسان الحقيقية حتى على المستوى الأرضى على ما بيناه فى مناسبة سابقة[١] . وهو يستخدمها هناك استخداماً مباشراً حتى مع وجود المظهر الخارجى لما يقابل الأعضاء الأرضية . وهذا الاستخدام المباشر يظهر هناك تدريجياً وبعد الانتقال بوقت كاف . ومن مظاهر هذا الاستخدام المباشر لحواس الجسد الأثيرى أن التخاطب وإن كان يبدأ بالفم بحكم العادة ، والسمع بالأذن ، إلا أنه مع الوقت يصبح التخاطب بالتلباثى — أى الاتصال بالفكر — هو الطريقة الطبيعية للتفاهم[٢] . وبذا تزول أكبر عقبة تحول على الأرض دون تفاهم البشر على نطاق واسع ، وهى اختلاف اللغات واللهجات . ولكن هناك رغم ذلك أرواح كثيرة تتعلم اللغات الأجنبية التى تروقها لأغراض مختلفة مثل الاتصال بالأرضيين من أصحاب هذه اللغات ، ومثل الاطلاع الكافى فى آداب هذه اللغات وحقائق شعوبها .

المبحث الثانى

فى الصورة العامة للطبيعة هناك

إجماع الرأى على أن لعالم الروح وجوداً حقيقياً وصلباً بالنسبة للأرواح يماثل وجود العالم المادى بالنسبة للماديين ، فهو ليس عالم للرؤى وللأحلام كما كان بعض الناس يتصوره فيما مضى . إن الأرواح لا تحلم بل تحيا حياة حقيقية أكثر نشاطاً من حياتنا الأرضية . فإذا ما تواجدت بضعة أرواح فى فى مكان واحد فهى ترى نفس المناظر الطبيعية المشتركة التى تميز ذلك المكان .

وتوجد هناك نفس المناظر الطبيعية التى نشاهدها هنا من سهول

---

(١) راجع ما سبق فى الجزء الأول ص ٤٢٧ — ٤٥٥ عن الجسد الأثيري للإنسان .

(٢) وملكة التلباثى الآن مسلم بها فى علم النفس ، كما أنه مسلم باستقلالها عن السمع بالأذن والنطق بالفم .

ووديان وجبال وهضاب وصحارى وأنهار وشلالات وبحيرات ومحيطات وحياة طبيعية فى أوج ازدهارها .

فلا يوجد أى مظهر من مظاهر جمال الطبيعة على المستوى الأرضى إلا ويوجد له مقابل هناك أكثر جمالا . كما توجد هناك مناظر طبيعية لا مقابل لها هنا بالنظر إلى تنوع الألوان وتدرجها على نطاق غير معروف على المستوى المادى ، إذ ليس لدينا هنا إلا ظلال باهتة لبعض الأشياء الموجودة هناك . أما الأشياء ذاتها فهى تستريح آمنة هناك حيث ولدت فى الأصل ، كما أنه ليس لدينا إلا ظلال باهتة من أنفسنا بالمقارنة مع ذواتنا الحقيقية المختفية وراء أجسادنا الترابية .

والمروج والأزهار متوافرة هناك بكثرة غير معروفة هنا ، ومنتشرة فى كل مكان . وزهورهم تنبض بالحياة حتى تبدو لهم — كما قال بعضهم — كما لو كانت كائنات حية أكثر منها جمادات صلبة . وتنبعث منها روائح ذكية تعبق الجو إلى حد غير معروف هنا ، بل ينبعث من بعضها رنين جميل عند ما يداعبها نسيم الصباح .

فالأرواح الراقية التى تجىء إلى المستوى الأرضى لا تجىء مطلقا للتمتع بمظاهر الطبيعة الأرضية مهما كانت مفرطة فى جمالها أحياناً ، لأن ما عندهم من روائع الطبيعة يتجاوز كثيراً ما عندنا . وفى هذا الشأن تتحدث روح شوبان Chopin الموسيقار الشهير إلى شارل تويديل أسقف يوركشير قائلة (بتاريخ ٣ سبتمبر سنة ١٩٣٦) « إن الروح حرة تذهب كيفما شاءت ، ولكنى من جانبى أفضل الآن مناظر عالم الروح ، كما أن لدى هنا عملى المناسب ، فعند ما أزور الآن الأرض فإن مناظرها لا تعود تخلبنى كما كانت تفعل من قبل » فسأله تويديل « وهل كان الأمر كذلك من قبل ؟ » فرد شوبان قائلا « ليس بعد أن حضر أصدقائى إلى هنا ، فأنا أحضر إلى الأرض الآن كيما أساعد الآخرين ، ويختار بعض الأرواح أعمالا أخرى لتقدمه »[1] .

---

(١) « أنباء من العالم الآخر » طبعة ٣ ص ٣٢٩ .

هذا وقد وردت عشرات من الصور لمناظر طبيعية من عالم الروح تلقتها على الألواح الحساسة بدون كاميرا الوسيطة السيدة دونوهو Mrs. Donohoe تحت الرقابة العلمية الدقيقة ، وقد أشرف على إرسالها من هناك روح سير آرثر كونان دويل ومارتن دونوهو زوج الوسيطة الراحل تحت إشراف الروح المرشدة ردكلاود Red Cloud .

وفى مؤلف الأستاذ . ف . و . واريك F . W . Warrick وعنوانه « تجارب فى الروحيات » Experiments In Psychics نجد عشرات من الصور الأخرى واردة بنفس الطريقة(١)،فضلا عن مئات من الصور لإثبات شتى الظواهر الوساطية التى التقطت تحت رقابة علمية . وقدم هذا المؤلف الثمين للقراء سير أوليفر لودج عالم الفيزياء الراحل ومدير جامعة برمنجهام شاهداً بعوامل الثقة فى المؤلف — عن صلة شخصية به — وفى تجاربه الشاقة(٢).

ولا توجد هناك زلازل ولا براكين ولا أعاصير ، وإن كانت توجد رياح خفيفة هادئة أحياناً . ولا توجد أمطار وإن كانت توجد أحياناً غيوم أثيرية والمياه كثيرة عذبة ، ولكنها لا تحدث البلل بملامستها ولا تحتاج إلى وقت للجفاف ، وعلى ذلك أجمعت البحوث الروحية على تعدد مصادرها وبيئاتها مع أن الأمر لو كان محض خيال — كما يعترض الماديون — لكان من المحتوم أن يختلف العلماء الروحيون فى هذه النقطة الصغيرة . فيقول بعضهم مثلا إنه توجد مياه كمياهنا الأرضية تماماً ، مادامت توجد هناك كل مظاهر الحياة الأرضية ، ويتخيل البعض الآخر أوصافاً أخرى لهذه المياه . وهذه المياه الأثيرية ينزلون أحياناً فيها لمجرد اللهو أو الرياضة لا للاغتسال ، لأن طبيعة الحياة نفسها ضوئية — أثيرية لا تعرف القذارة إليها سبيلا .

(١) راجع موجه خاص ص ٣٣٩ — ٣٤٥ ، ٣٩١ .
(٢) راجع أيضا ما سبق عن الوسيطة والمؤلف فى الجزء الأول ص ٤٧٥ — ٤٧٧ .

نماذج من صور وساطية
لبعض مناظر طبيعية آتية من عالم الروح

(١)

(٢)

(٣)

(٤)

(٥)

(٦)

عن كتاب « تجارب فى الروحيات »
للأستاذ ف . و . واريك طبعة ١٩٣٨ ص ٣٤٤ ، ٣٩١ .

(٧)

(٨)

(٩)

(١٠)

(١١)

(١٢)

ولا يوجد هناك ليل ، ولذا فإن مشكلات الإضاءة لا وجود لها ، وقد بينا كيف علل جيمس آرثر فندلاى مدير «المعهد الدولى للبحث الروحى» بلندن هذه الظاهرة تعليلا علمياً . فكل ما يعرفونه هناك هو حالة من الشفق أى النور المادى[1]. ومدة الشفق هذه قصيرة تهجع أغلب الأرواح فيها للراحة فى منازلها ، فهى تغفو لفترات قصيرة لكنها لا تنام على طريقتنا لساعات طوال كيما تسترد قواها الضائعة فى كفاح النهار .

فى الحياة الحيوانية والنباتية

من المتفق عليه أن للحيوانات أجساداً أثيرية تبقى بعد موت أجسادها المادية وتواصل حياتها فى مناطق مختلفة من العوالم الكوكبية والأثيرية . وإن كان من الراجح أنها لا تصل إلى المستويات الروحية والعقلية التى تعلو هذه وتلك ، إذ يعتقد بعض الباحثين أنه إذا كان للإنسان جسد مادى وآخر كوكبى قابل للتطور للوصول إلى المستويات الروحية والعقلية ، فإن للكائنات الحية الأخرى أجساداً مادية وأخرى كوكبية ولكن غير قابلة للوصول إلى المستوى الروحى أو العقلى للحياة . ولا نريد أن ندخل فى تفاصيل هذا البحث ، لأننا قد راعينا أن نتحاشى على قدر الإمكان المسائل الخلافية مكتفين بعرض المبادىء العامة للعلم الروحى التى لم تعد بعد محل خلاف .

ومن هذه المبادىء أن لجميع الكائنات — على أية حال — حياة أخرى بعد موت أجسادها المادية ، بصورة ما وفى مكان ما من مستويات الوجود كيما تؤدى وظيفة ما من وظائف الحياة . ويصدق ذلك على الحيوانات الأليفة وغير الأليفة كما يصدق أيضاً على الأسماك والحشرات والفراشات .

والحيوانات المفترسة تحتفظ بمظهرها الخارجى ، لكنها تفقد رغبتها فى الافتراس بفقدانها حاجتها إلى الطعام . والحيوانات الأليفة لها وظائف هناك تختلف عن وظائفها على الأرض إذ لا يأكلون لحمها ، ولا يحتاجون

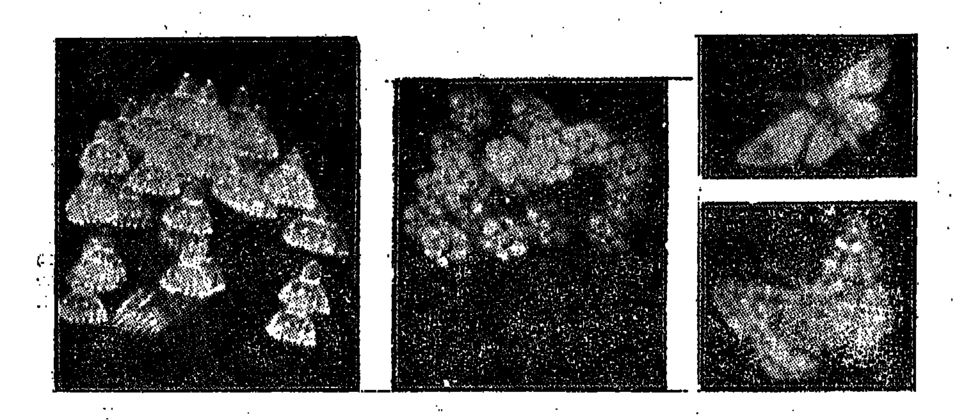
---

(١) راجع ما سبق ص ٨٤ — ٨٧ .

إلى امتطاء ظهورها للانتقال ، ولها دورها فى بعض المناطق فى الزينة وفى التعليم وفى إشباع نزعة بعض الأشخاص لاقتناء الحيوانات الأليفة فى المنزل إذا كان يرغب فى ذلك .

والطيور والفراشات الزاهية توجد بوفرة فى المنازل والحدائق والطرق العامة، وهى لا تخاف الإنسان ولا تهرب منه على عكس الحال هنا .

وفى هذا الشأن يقول الروح سيلفر بيرش عن طريق وساطة الكاتب المعروف موريس باربانيل فى دائرة هانن سوافر نقيب الصحافة البريطانية الراحل «لدينا مملكة حيوانية كبيرة يسكنها الجميع سوياً فى سلام . فيها كل الحيوانات وكل الطيور وقد انعدمت بينها البغضاء . هنا يرقد الأسد مع الحمل فلا يتنازعان أو يفترس أحدهما الآخر . لدينا حدائق جميلة كثيرة فيها أزهار من كل لون ومن كل صنف متسقة فى شكل جمالها الذاتى . لدينا ألوان لم تروها قط ، لدينا بحيرات جميلة وجبال وترع وأنهار ، وطيور عجيبة لها ريش فاخر وألوان جذابة. لدينا أنواع كثيرة جميلة من الحشرات ليست كتلك التى عندكم، وإنما هى قد تطورت لأنها انتقلت من طور الشرانق وبرزت فى كل بريقها . . . » .



صور أزهار غريبة وفراشتين تلقتها الوسيطة السيدة دونوهو Mrs. Donohoe من عالم الأثير تحت الرقابة العلمية الدقيقة بدون استخدام كاميرا (تجارب فى الروحيات للأستاذ واريك ص ٣٣٧) .

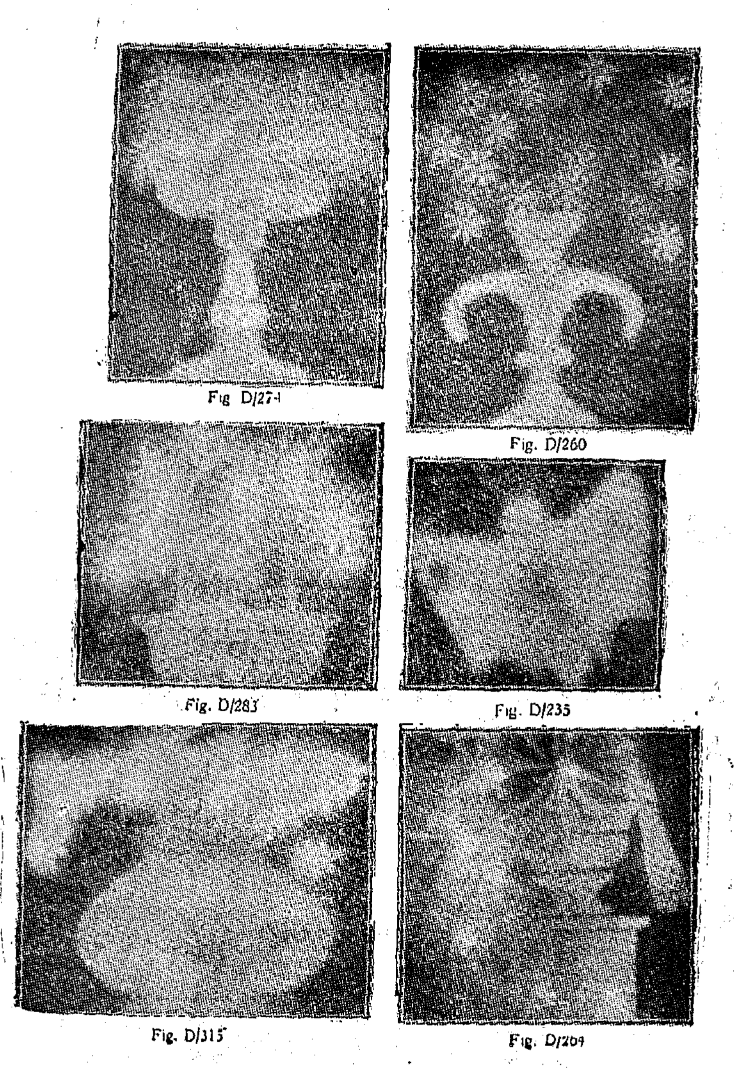


Fig. D/274 Fig. D/260 Fig. D/283 Fig. D/235 Fig. D/315 Fig. D/264

D/274, 260, 283, 315, 264 are skotographs of vases with flowers which M.D. sends.
D/235 was one of three plates held the same evening. On the first was given by 19 flowers and one single one the date of my husband's passing, viz., 19th January. On the second plate was a chrysalis cocoon. The third plate showed the escaped butterfly in full flight.

صور أزهار أخرى موضوعة فى أوان شتى وفراشة طائرة وردت بنفس الطريقة (عن المرجع السابق ص ٣٤٢) وبعضها يشير إلى ذكريات أو أحداث معينة فى حياة الوسيطة الروحية وزوجها الراحل مارتن دونوهو (M. D.) .

والبيانات الواردة عن النباتات وعن دور مملكة الحيوان فى عالم ما بعد المادة يجمع عليها فى كافة الكتب الواردة من هذا العالم، أو تلك التى كتبت عنه بمعرفة بحاث لهم مكانتهم، فهل كان ذلك ممكناً لو كان الأمر كله محض خرافة كما قد يذهب المعترض الذى تعود أن يلقى الاعتراض جزافاً ؟ . . .

هذا وقد حدث فى جلسات غير قليلة ـ وفى داخل هيئات علمية صرف ـ أن تجسدت فى معامل البحث الروحى حيوانات وطيور. وأمكن تصوير أرواح بعض الحيوانات متجسدة وغير متجسدة كما هى الحال بالنسبة للآدميين[1] .

المبحث الثالث

فى بعض المميزات العامة للحياة هناك

تحدثنا فى مناسبة سابقة عن ثبوت تأثير العقل المباشر فى المادة كما انتهت إليه بحوث عدد وفير من العلماء على رأسهم الأستاذ ج. ب راين رئيس قسم الباراسيكولوجى فى جامعة ديوك بالولايات المتحدة ومدير معاملها، وذلك كبينة على تفوق العقل على المادة وإمكان سيطرته عليها بصورة ما، وعلى إمكان استقلاله عنها بالتالى واحتمال خلوده رغم تحلل المادة وانفصالها عنه.

والآن بقى أن نتحدث عن تأثير العقل المباشر فى المادة بوصفه من أهم مميزات الحياة ـــ ووسائلها ـــ فى عالم ما بعد المادة، حتى نعطى القارىء النظرية العامة عن مميزات الحياة هناك فى أهم جوانبها، لأن هذا التأثير يتحكم فى الواقع فى كل مظاهر الحياة هناك بغير استثناء، إذ الحياة هناك عقلية بكل معنى الكلمة، بالأقل ابتداء من المستوى الثالث حيث أن طريقة «الخلق بالفكر» هى الأسلوب اليومى المألوف لهذه الحياة.

وفى هذا الشأن يتحدث شو دزموند Shaw Desmond أحد مؤسسى

---

(١) راجع ما سبق فى الجزء الأول فى ص ٤٥٥ — ٤٦٣ .

« المعهد الدولى للبحث الروحى » قائلا « إننى متحفظ كثيراً فى آرائى التى أبديها هنا . فأما أن الفكر حقيقة فيعتبر ذلك الآن أمراً محتملا نادت به بعض مدارس السيكولوجيا . وكبرهان مادى على صحة ذلك استطاع العلامة فيوكوراى Fukurai منذ بضع سنين أن يصور الفكر بكاميرا شديدة الحساسية . وليس هذا مكان شرح البصريات الروحية والفيزيقا الروحية ، وإنما أحيل محبى الاطلاع إلى بعض كتب العلماء الحديثين فى السيكولوجيا والفيزياء والفيزياء الفلكية .

« . . وليس للناس أن يقولوا إن ذلك مستحيل الوقوع لأنهم قالوا ذلك نفسه عن الكلام والرؤية عن بعد عبر الأرض عن طريق التليفون والراديو والتليفزيون وسيتقبلون يوماً ما مسألة « الخلق بالفكر » ، وقد يستكشفون طريقة استخدام ذلك وهم فى أجسامهم الأرضية »[1] .

والعلامة فيوكوراى الذى يتحدث عنه شو دزموند أستاذ فى جامعة كوهياسان Kohyassan باليابان ورئيس «المعهد الروحى اليابانى» ومعروف بتجاربه الفذة فى تصوير الأفكار على اللوح الحساس وهو الآن علم قائم بذاته يطلق عليه Idéographie . وقد تمت تجارب ناجحة فيه أيضاً فى داخل «المعهد الدولى لما وراء الروح » فى بروكسل فى عامى ١٩٢٠ و ١٩٢١ تحت إشراف مديره الأستاذ داردن Dardenne .

وهذا التأثير المباشر للعقل فى المادة هو هناك كل شىء . فمثلا بالموت الفيزيقى يولد الجسد الأثيرى للإنسان فى عالم ما بعد المادة عارياً ، وعندما يدرك المولود الجديد ذلك ينتابه الخجل الغريزى ويستشعر الحاجة إلى رداء يستر به بدنه ، وعندما يبحث العقل عن هذا الرداء إذا به يصنع من الأثير بطريقة لا شعورية الرداء الذى يرضيه ، أو بالأدق ذلك الذى ألفه وتعود

---

(١) أحاديث فى الروحية بمجلة « عالم الروح » سنة ٩ عدد نوفمبر ١٩٥٥ ص ٨ .

عليه خلال حياته الأرضية . وهذا هو أول درس تتلقنه الروح من الطبيعة عن أسلوب حياتها الجديدة[١] .

ولا توجد هناك بالتالى مناجم ولا محاجر لأن كل ما يحتاجون إليه من مادة صلبة أو رخوة يصنعونه بتأثير مباشر من العقل فى الأثير أو بالأدق فى « ضوء » الأثير . وقد يبدو ذلك فوق تصور عقولنا فى حالتها الراهنة ، ولكن علينا أن نقدر أن المواد الأرضية كلها تقع بين اهتزاز لونين من الضوء هما اللون البنفسجي ارتفاعاً والأحمر انخفاضاً يطويان بينهما اهتزازات المواد الصلبة والسائلة والغازية . والضوء الأبيض يمكن تحليله إلى سبعة ألوان هى ألوان الطيف الشمسى التى تبدأ بالبنفسجى وتنتهى بالأحمر ، ويقع بينهما باقى الاهتزازت الأرضية الأخرى التى تمثل جميع المواد الصلبة والسائلة . فلم يكون الوضع غير ذلك فى عالم الأثير ؟

وإنما الفارق الحقيقى ليس من هذه الناحية ، بل من ناحية أن المادة الصلبة هناك — أى تلك التى تبدو لحواسهم صلبة — محكومة بالعقل مباشرة ، أما هنا فهى غير محكومة به بطريقة مباشرة . ولذا كان عالمهم عقلياً بمعنى الكلمة وكان عالمنا مادياً . فنواميس الحياة هناك أرقى منها بكثير على المستوى الأرضى ، وهى حقيقية سواء أقدرنا على فهمها وتصورها ، أم عجزت عقولنا الواهنة عن ذلك فى وضعها الراهن .

فلا غرابة إذا وجدنا الأرواح الراقية تجمع على القول بأنها تصنع كافة حاجياتها باستخدام عقولها ، لا باستخدام أيديها كما نفعل نحن على المستوى المادى ، فمثلا هم يقولون إنهم يصنعون بعقولهم أزهارهم ونباتاتهم وأشجارهم فلا يحتاجون إلى الأساليب الأرضية فى الزراعة وما تتطلبه من حرث وبذر ورى وغيره وأن الغابات التى تنمو هنا بفعل الطبيعة لها أصلها هناك ومقابلها الأثيرى الذى يبدو لحواسهم صلباً محسوساً كما تبدو لحواسنا

---

(١) راجع رسائل الروح جوليا لوسيطها سير وليام ت . ستيد نقيب الصحفيين البريطانيين .

كل الأجسام صلبة وما هى فى حقيقتها بصلبة ، لأن لكل جسم صلب جسمين أحدهما مادى محسوس والآخر أثيرى غير محسوس على المستوى الأرضى ، وزوال المادى لا يمحو الأثيرى بالتالى لأنه غير قابل للزوال(١) .

وعن طريق هذا التأثير المباشر للعقل فى المادة يشيدون مبانيهم ويزيلونها ويوسعونها ، وتبدو لهم صلبة بقدر ما تبدو مبانينا صلبة لحواسنا ، فكل شىء فى الوجود نسبى فما يبدو لنا هنا صلباً لا يبدو لهم كذلك هناك والعكس بالعكس .

وهذا التأثير المباشر للعقل فى المادة ينمو مع الوقت ويعلو كلما علا مستوى الحياة وينخفض كلما انخفض هذا المستوى . وكلما كان الشىء المراد خلقه بالفكر هاماً ودقيقاً كلما احتاج الأمر إلى ذوق فنى وخبرة خاصة ومران من خبير متخصص يقوم فى شأن المبانى بدور المهندس على المستوى المادى . فلا يحدث بناء المسكن المطلوب بمجرد التخيل من أى إنسان . ويتم البناء تدريجياً وببطء ويحتاج إلى مشقة . وفى هذه النقطة وهى « كيف يبنون مبانيهم » وكيف « يوفرون احتياجاتهم » ؟ توجد تفاصيل كثيرة فى المراجع الروحية يضيق عنها هذا المقام .

وعن طريق هذا التأثير المباشر للعقل فى الأثير يصنعون طعامهم الذى يأكله أغلبهم بحكم التعود فقط لا بحكم الحاجة الحقيقية إليه ، وذلك إلى أن يزول تدريجياً هذا التعود . أما الوضع الطبيعى للروح فهو أنها تستمد غذاءها من الأثير رأساً بقدر حاجتها إليه ، وبدون مجهود خاص . أما عندما تريد الروح أن تتذوق طعاماً مادياً فهو يذوب فى فمها وتشعر بطعمه كما نشعر نحن ، ولا ينزل فى أحشائها لأنه ليس للروح من دورة دموية ولا من جهاز هضمى .

(١) راجع ما سبق فى الجزء الاول فى ص ٤٢٧ وما بعدها عن الجسد الأثيرى ، وفى هذا الجزء ص ٢٤ — ٣٨ عن رأى بعض علماء الفيزياء والرياضة المعاصرين فى حقيقة المادة الصلبة ووجود مقابل أثيرى لكل جسم يبدو لنا صلباً .

والأرواح تتنفس كما نتنفس نحن . وقد حدث فى هذا الشأن أن سأل الأسقف تويديل روح شوبان Chopin الموسيقار المعروف قائلا «هل أنتم مضطرون للأكل أو للشرب ؟» فأجاب شوبان قائلا «لا بالمرة لأن التنفس الذى نتنفسه كاف لأن يحفظ لنا أجسادنا الأثيرية التى لا يلزمها أى شيء آخر» فرد عليه إذاً فأنتم تتنفسون ؟ فأجاب بالإيجاب .

وقد رد بما يماثل ذلك أيضاً روح سير آرثر كونان دويل عندما قال له «لا حاجة بنا للطعام أو للشراب ، ولكن الذين يشعرون بحاجتهم إليهما يجدونهما . وبقدر ما يتقدمون هنا بقدر ما يكفون عن الاحتياجات الأرضية ويبحثون عما هو أسمى منها »[1] . وعلى ذلك أجمعت البحوث الروحية فى كل مكان ..

فى المبانى

وتوجد مبان لشتى أغرض الحياة التى يحيونها ، منها ما هو عام كالمعاهد والمتاحف والمعارض والمعامل والمكتبات ، ومنها ما هو مخصص لسكناهم . وفى صدد المنازل يقول سيلفر بيرش Silver Birch الروح المرشدة لدائرة هانن سوافر نقيب الصحفيين — «إن منزلى جميل جداً لدرجة أن الخيال يعجز عن وصفه . لا يمكن للنقاشين إيجاد ألوان تصور كل ظلاله ، ولا يستطيع الموسيقيون العثور فى مجال آلاتهم على نغمات تعبر عن كل فنه وبهائه .. وهو أجمل من أجمل أى حلم شاهدتموه . اسألوا عمكم مارسيل (يقصد مارسيل بونسكين وهو فنان روحى كان حاضراً) إنه فنان ، وسوف يخبركم أنه ليس عنده صبغات يلون بها روائع العالم الروحى التى تتكشف له فى لحظات الإلهام الخاطفة[2] ... » .

---

(١) عن « أنباء من العالم الآخر » طبعة ٣ ص ٣٢١ وما بعدها .

(٢) الوسيط هو الكاتب المعاصر موريس باربانل Maurice Barbanell رئيس تحرير جريدة الأنباء الروحية Psychic News .

(راجع ما سبق فى الجزء الأول ص ٢٤٦ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠) .

وهذه المنازل صغيرة ، غير مرتفعة ، مقسمة إلى غرف وليس بها دورات مياه ، إذ لا حاجة بها لأن طبيعة الحياة هناك متحررة من المادة الأرضية ، وبالتالى نقية ليست بحاجة إلى ما يقابل دورات المياه فى منازل الأرضيين . وليس بها أيضاً ما يقابل المطابخ أو غرف الطعام ، إذ صلة الأرواح بالطعام تختلف تماماً عن طبيعة صلتنا به ، فهو — كما قلنا آنفاً — لا يمثل عندها ضرورة أولية للحياة بقدر ما يمثل مجرد رغبة قد تكون قوية فى تذوق ما تحبه من طعام ، وهى رغبة تزول تدريجياً مع الوقت ، عندما تنمو الروح فى الوعى والإدراك ، وتتحرر من حاجيات قديمة كثيرة تكون مازالت متعلقة بها بحكم سلطان الذاكرة والتعود القديم ، أكثر مما هو بحكم نظام الحياة وأسلوبها المرسوم .

إنما الأمر الشائع فى منازل المستويات الراقية من عالم الروح وجود غرف لاستقبال الضيوف ، وأخرى كيما تهجع فيها الأرواح أو تغفو للحظات قصيرة ، وهى تفضل استخدام هذا التعبير — تعبير الغفوة أو الهجوع — على استخدام تعبير النوم ، لأن النوم العميق لمدى ساعات طويلة غير معروف هناك إلا بالنسبة للأرواح الوافدة حديثاً وذلك بحكم التعود القديم أيضاً ، والذى ينبغى التحرر منه مع الوقت ، خصوصاً لأن التحرر من الجسد الترابى الشديد الوطأة على النفس يحرر الروح من أثقل أحمالها التى كانت تربطها بمستوى منخفض من مستويات الوجود ، وتدعوها إلى النوم العميق لمدى ساعات طويلة لما كان يكبدها حمل هذا الجسد الثقيل من نصب طيلة ساعات اليقظة ، وهذه الغرف فى مساكن عالم الروح تقابل غرف النوم فى مساكننا .

وقد توجد أيضاً فى بعض هذه المنازل غرف مخصصة للعبادة إذ تلعب العبادة هناك دوراً يتجاوز بكثير دورها على المستوى الأرضى ، لأن الإحساس بالقدرة الخالقة هناك أقوى بكثير مما نعرفه هنا ، بعد إذ تصبح العقول أكثر استجابة للاهتزازات الكونية العالية ، وترنماً معها بعد تحررها من ربقة

الغلاف الكثيف الذى كان يغلفها وهو المخ ، والذى كان يقيد أجزاء كثيرة من الوعى أصبحت بعد الانتقال حرة طليقة ، مندمج بعضها فى البعض الآخر اندماجاً كافياً .

والمساكن مفروشة بما يقابل بعض أصناف الرياش التى نعرفها ، ولكن بالقدر الذى تحتاج إليه الأرواح الراقية فى مستواها الجديد ، وكل بحسب ذوقه وميوله وبيئته . وهذه الرياش فى جملتها أرقى بكثير فى ذوقها من جميع مانعرف من رياش أو سجاد أو لوحات أو تحف ، بالنظر إلى العقول الراقية التى قامت بصنعها ، وإلى وسائل العمل العقلية التى عندهم ، والتى تتجاوز بكثير وسائلنا اليدوية المقيدة .

ولا تتلاصق المنازل هناك ، بل لكل منزل حديقته المزهرة التى تحيط به من كل جانب، وعلى ذلك أجمعت رسائل أرواح هذا المستوى الثالث .

وتوجد بالمنازل نوافذ وأبواب قابلة للغلق وللفتح ، كما قد يوجد درج (سلم) لإضفاء شكل معين على المكان قد يريده له صاحبه ، لا للوصول إلى الطابق العلوى مثلا لأن الانتقال فى عالم الروح ، بما فى ذلك الصعود والنزول فى المبانى ، يكون بقدرة الفكر وحدها .

ووجود الجدران والأبواب المغلقة لا يمنع الأرواح الزائرة من ولوج المكان إذا شاءت ، ولكن تقاليدهم وآدابهم — وهى كثيرة وتأثيرها شديد فى تنظيم حياتهم — تدعوهم لأن يدخلوا البيوت من أبوابها المفتوحة، وبعد إشعار صاحب المنزل برغبة الدخول واستئذانه أولا فيه .

ولا توجد أية إضاءة صناعية فى عالم الروح ، لا فى داخل المبانى ولا فى خارجها ، لأنهم يعيشون هناك فى بيئة الضوء الكونى ، الذى يقوى نهاراً ويضعف ليلا[1] . ، فلا يحل الظلام التام ، إلا فى بيئات « الظلمة الخارجية »

(١) راجع ما سبق فى ص ٨٥ — ٨٧ .

التى لا تمت بصلة إلى بيئة « السمرلاند » ، أو أرض المصيف الجميلة .

أما عن طراز المبانى ، فالإجماع على وجود أصناف كثيرة من كل طراز ونسق عرفها البشر ، بحسب اتجاهات قاطنيها وأذواقهم ورغباتهم، لا يقيدهم فى ذلك إلا قيد رغبة التنسيق العام والمحافظة على وحدة الطراز فى «المكان» الواحد ، على النحو الذى قد نشاهده ـ حتى على المستوى الأرضى ـ فى المدن الجميلة الحديثة . فالمدن مرآة لعقول أصحابها وقاطنيها تبدو منسقة مرتبة ، بقدر ما يكون فى عقولهم من تنسيق وترتيب ، والعكس بالعكس فى كل زمان ومكان ، خصوصاً عندما يكون المستوى عقلياً أكثر مما هو مادى .

فى المدن

وتوجد هناك بالتالى مدن تتراوح فى مدى جمالها لكنها على أية حال أجمل بكثير من المدن الأرضية ، إلى حد أن سكان المستوى الثالث يتحدثون عن المدن الكبرى مثل لندن وباريس ونيويورك كما لو كانت مدناً خانقة قذرة . وتتميز مدن عالم الروح بحدائقها وبحيراتها المترامية الأطراف ، وبأن مساكنها كلها عبارة عن فيلات لا يتجاوز ارتفاعها طابقاً واحداً أو طابقين فلا توجد عمارات ضخمة للسكنى المشتركة ، لأن مشكلة ضيق المكان لا وجود لها هناك ، وكذلك مشكلة وسائل الانتقال . وليس جمال المساكن فى رونقها أو ألوانها أو أضوائها فحسب ، بل إن جمالها يكمن أولا فى مشاعر الخير التى تغذى أصحابها ونوع المبادىء السامية التى توجه أفكارهم .

ولا توجد فى هذه المدن حركة مواصلات ذات صخب وضجيج لأن الانتقال فيها وفى غيرها يكون عن طريق الفكر . وهذه الآن حقيقة روحية أجمعت عليها الآراء .

وقد يصنعون بعض وسائل الانتقال بغرض المتعة وبحكم التعود ، مثل باخرة أو عوامة لمن ألفوا حياة البحار وأصبحوا لايطيقون البعد عنها . وقد يستعملونها فى الإقامة الدائمة فيها بدلا من المنازل ويمكن أن تنتقل بهم للنزهة أو لأى غرض آخر مثل تغيير الموقع الطبيعى . وتسير فى اليم بوسائل عقلية لا يفهمها إلا الإنسان الذى يفهم كيف يكون التأثير المباشر للعقل فى المادة الصلبة .

وتوجد فى مدن المستوى الثالث هذا كل مظاهر الحضارة التى نعرفها على أرقى مستوى ، بما فى ذلك المعاهد العلمية وقاعات الاطلاع والبحث والموسيقى والمتاحف والمعارض والفنون الجميلة ودور اللهو الراقى ... ومع مراعاة أن الفنون الجميلة هناك فى مستوى عالٍ وتتجاوز كثيراً أحسن ما وصل إليه البشر حتى الآن . وعلى ذلك أجمعت الرسائل الواردة إلى بيئات مختلفة .

فللموسيقى هناك مستوى يجعل أرقى موسيقانا الكلاسيكية ظلا باهتاً له . وهى مصحوبة عادة بمناظر وأشكال تحدثها الأصوات فى الأثير . وتقام حفلات عامة رائعة وصفها الأستاذ شو دزموند فى كتابه « كيف تحيا عندما تموت ؟ » حتى أن من الوصف الشائع لهذه المناطق أن الموسيقى فيها هى الحياة . ولا غرابة فى ذلك إذا روعى أن روائع الموسيقى التى نعرفها ذات مصدر روحي — فى جملتها — فهى إلهام راق من عالم الروح إلى عالم المادة عن طريق عباقرة الموسيقى شأنهم فى ذلك شأن عباقرة الشعر والأدب والكشوف العلمية[1] .

وللنحت وللرسم هناك مستوى رفيع لا يقل عن مستوى الموسيقى . وقد التقطت داخل « الكلية البريطانية للعلم الروحى » صور وساطية بالأشعة

---

(١) راجع ماسبق فى الجزء الأول ص ٥٠٦ — ٥١٦ .

فوق البنفسجية ultra-violet للوحات والرسوم آتية من عالم الروح عن طريق وسطاء متعددين ، مثلما يجده القارىء أيضاً فى كتاب الأستاذ واريك Warric عن تجارب وردت عن طريق وساطة السيدة دونوهو بدون استعمال كاميرا[١] بل بمجرد وضع الألواح الحساسة على جبينها .





صور آلات موسيقية مرسلة من عالم الروح بدون كاميرا (مؤلف واريك س ٣٤٣)
لاحظ أن الآلة اليمنى ليس ما يقابلها على المستوى الأرضى

في العمل

ويخطىء من يظن أن الحياة فى عالم ما بعد المادة حياة خمول وكسل أو أنها — فحسب — حياة تأمل وتنعم . إن الحياة فى المستويات الراقيةمن عوالم ما بعد المادة على العكس من ذلك حافلة بكل صور النشاط الإنسانى الرفيع والخدمات الراقية وتقدم المعرفة والأخلاق . ولكل روح هناك عملها فى المناطق الراقية ، فلا توجد بطالة ولا كسل . والدافع للعمل هناك ليس هو البحث عن لقمة العيش المتوافرة للجميع ، بل هوحب العمل وحده . وكل إنسان يختار العمل الذى يحبه ، أو بالأدق العمل الذى يناسب ملكاته الفنية والعقلية ، ويتفق مع مداركه وميوله . وقد ورد فى الحديث الشريف « الأرواح بعد الموت تلج مكاناً ألفته وتلزم عملا عرفته » .

---

(١) راجع مجلة « العلم الروحى » التى تصدرها السكاكية عدد يولية سنة ١٩٢٧ وما سبق س ١٠٧ — ١١٢ ، نقلا عن مؤلف الأستاذ واريك .

والأعمال كثيرة ، فجميع الأعمال الذهنية والفنية هنا لها ما يقابلها هناك من فلسفة وأدب ولغات وعلوم طبيعية إلى علوم ما وراء الطبيعة ، إلى علم نفس وما وراء النفس ، ومن علوم اجتماعية وهندسية إلى كيمياء إلى طب إلى فلك . . .

وهناك بالإضافة إلى ذلك أعمال كثيرة ليس لها ما يقابلها على المستوى الأرضى . مثل الحراسة والإرشاد والإلهام لسكان المستويات المادية للوجود من أرضيين وغيرهم ، ومثل محاولة الاتصال بهم وتنظيم الجلسات الروحية لإقناع المنكرين من الماديين والمكابرين .

وهناك أيضاً صور عديدة من النشاط التى لها ما يقابلها هنا ، ولكن تزاولها الأرواح بطرائق مختلفة تماماً عن طرائقنا . ومن ذلك نشاطها فى الزراعة والعمارة والصناعة بسبل عقلية لا يدوية على ما ذكرناه آنفاً .

وهناك صور من الكفاح الذى لا يتوقف لنصرة المبادىء السامية وتحقيق الأهداف النبيلة التى تتطلع إليها النفوس المجاهدة لأجل تحقيق العدالة والمساواة والوصول بالتطور نحو أجمل أهدافه وأروعها ، وفى حدود ما تملكه الأرواح من وسائل فى ضمائر البشر وأذهانهم ، متخطية ما قد يصادفها من عقبات ، متغلبة على ما قد يوضع فى طريقها من عراقيل الجهالة أو الغباء أو الأنانية وما أكثرها .

والأرواح فى جهادها هذا مقيدة بنواميس طبيعية تحد من إمكانياتها الفطرية تماثل إلى حد كبير تلك النواميس الطبيعية التى تحد من إمكانيات البشر وتقيد من حدود نشاطهم ، والتى وضعت لتحقيق غاية سامية هى تحقيق التضامن فى التطور بين أبناء المجتمع الواحد ، بل البيئة الواحدة ، بل المستوى الواحد من مستويات الوجود . فالرابطة بين الجميع — على اختلاف ألوانهم وأديانهم وأجناسهم — أقوى مما يمكن أن نقدر أو نتصور سواء أكنا هنا أم هناك .

وهناك أعمال للمساعدة وللإنقاذ ولتخفيف الآلام وللعلاج ، ولتفقد الأرامل والأيتام ، ولمواساة المحزونين والمضطهدين فى كل مستوى من مستويات الحياة .

وتوجد دراسة للقانون وللشرائع لمجرد المعرفة وللمقارنة وللإلهام ، لكن لا توجد هناك محاكم بالمعنى الأرضى ، لأن التشريع السماوى يعرف كيف يطبق نفسه بنفسه ، وكيف يعاقب بذاته ويثيب بغير ماحاجة إلى قاض من البشر . وتبدو للقوانين الطبيعية هناك كل صرامتها وقوتها على ما سنبينه فى الباب المقبل الذى خصصناه للثواب والعقاب .

وفى الجملة إن أنواعاً عديدة من المهن الأرضية لها ما يقابلها هناك كما قلنا وإن اختلفت الوسائل فى كثير من الأحيان . والمهن الذهنية لا تختلف فيها الوسائل اختلافاً كثيراً عن ذى قبل ، أما المهن اليدوية فتختلف تماماً ، فمثلا يباشرون الطب بدون جراحة . ويكاد طب الجسم الأثيرى يختلط هناك بعلم النفس . والتحليل النفسى يلعب مع العلاج بالإشعاع دوراً كبيراً فى الشفاء لأن أمراض الجسد الأثيرى غير معروفة هناك إلا عن طريق أمراض النفس ، وهى تكثر عادة عند المنتقلين حديثاً بحكم ذكرياتهم الأليمة الباقية من السياط التى تكون قد ألهبت ظهورهم أثناء الكفاح فى خضم الحياة الأرضية من المهد إلى اللحد .

والإنسان هو الذى ينظم أوقات عمله وراحته هناك ، فلا إرغام عليه أية كانت صورته . وتجرى مزاولة الأعمال على نمط يختلف فى الجملة عن أنماطها على المستوى الأرضى ، لأن الفكر متحرر من قيود كثيرة تحد من قدرته على المستوى الأرضى . فضلا عن أن مطالب الحياة الأرضية — وهى بطبيعتها تمثل أغلالا حقيقية — تعوق نشاط العقل هنا ولا تعوقه هناك .

فالحياة هناك متحررة وعقلية بكل معنى الكلمة ، وبقـــدر ما ينمو الإدراك بقدر مايتيح لصاحبه فرصاً متزايدة للسعادة النفسية .. أليس هذا هو ما نلاحظه حتى على المستوى الأرضى ؟ . . . وهو نفس ما لاحظه كبار الفلاسفة على مر العصور من سقراط إلى أرسطو إلى أفلاطون إلى الفارابى إلى ابن رشد إلى ابن سيناء إلى غيرهم .

فى التعليم والتربية

وفى شأن التعليم فى العالم الآخر يتحدث الأديب الإرلندى المعروف شودزموند قائلا إنه فى العالم الكوكبى تندمج السياسة مع التعليم مع الجنس مع العقيدة فيصبح كل واحد منها جزءاً من الآخر ، وهذا هو ما ينبغى أن يكون فى تقديرى ، فالتعليم على أرضنا سواء أكان فى المدارس الخاصة أم العامة أم فى الجامعة يبدو فقيراً جداً فى نظر المربين الموجودين فى العالم الكوكبى ، فهو يبدو لهم خاطئاً من أساسه فى محوره وفى آفاقه .

ورأى الكوكبيين يمكن تلخيصه فى أنهم يقولون إنهم عندما يدخلون إلى محافلنا العلمية بما قد يلقى فيها من فروض مرتجلة ، ومن أسماء على غير مسمى، ومن مناقشات فارغة لا تنتهى عن الاختفاء المتوقع للإنسان من على الأرض تحت ضغط الحياة العصرية والآلات، وكل ما يصوره كما لو كان جسداً فحسب ، يتصورون أنفسهم كما لو كانوا قد دخلوا إلى مصحة للأمراض العقلية، بل مصحة خاضعة لتنظيم دقيق لا يجعل قاطنيها يشعرون أنهم مرضى بعقولهم كما هى الحال عند كل مريض بعقله ! . .

فهم يقولون إن جزءاً كبيراً من علومكم علوم حقيقية ، ولكن جزءاً كبيراً آخر مما تتصورونه علماً ليس إلا — بكل بساطة — عبارة عن معان جوفاء اصطنعتها عبقريه عالية . وإلى أن يسلم علماؤكم بأن الإنسان محض روح ، وأن الجسد ليس إلا رداء مؤقت لهذه الروح ، فإن علومكم ستظل حبيسة قفصها الحديدى تدور حول نفسها بغير نهاية كحلقة مفرغة .

ثم يقول دزموند : وعند ما كنت أحاضر منذ وقت قريب فى « جمعية العلاقات الخارجية » بجامعة كمبريدج بدالى قدر كبير من الحقيقة فى هذا القول ،فقد وجدت هناك شباباً متشوقاً للمعرفة،ومع ذلك جعل منهم التعليم الأكاديمى الخاضعين له مجرد آلات أو نماذج صماء . وكانت تبدو عليهم اللهفة إلى أن يصبحوا أشياء أخرى ، كما لاحظت ذلك من إقبالهم الشديد على الحضور ، ومن الأسئلة التى أغرقونى بها ، ومن خطاباتهم التى كانت تصل إلى حتى بعد أن عدت إلى موطنى فى «ليسترهاوس» .

فهم يشعرون بأن تعليمهم خال من الحياة أى من الاعتقاد ، وأنه حتى من الزاوية المادية الصرف فإن صلة هذا التعليم ضعيفة بالعالم الذى يحيا فيه الرجال والنساء . والطفل فى العالم الكوكبى لن يكون عليه أن يصارع ضد هذا التعليم الأكاديمى ، ولن يطلب منه أن يجتاز امتحانات ينظرون إليها هناك — كما بدأنا ننظر إليها هنا — بوصفها ليست اختبارات للمعرفة ، ولا لشىء آخر أهم من المعرفة وهو الحكمة .

فإن الحقائق نفسها لا قيمة لها ما لم ترتبط بالحياة وتتلاءم مع « عالم كل يوم » ، وهذه هى القاعدة فى العالم الكوكبى . وجامعاتنا تعلم « الوقائع » أما الحكمة فكلا ، لأن الحكمة ربما لا يمكن تعليمها ، أما موضوع التعليم الكوكبى برمته فهو تنمية الابتكار والحكمة معاً .

وإذا كانت الحكمة لا نكتسبها بالتعليم فلا أقل من أن نحياها ، وعندئذ فيمكن تنميتها واستثارتها ، لأنه لا يمكنك أن تعلم رجلا أو امرأة شيئاً إلا إذا وصل أيهما إلى نقطة فى التطور تجعله مستعداً إما لتذكر القديم (فالمؤلف من القائلين بتعدد حيوات الإنسان وعودته إلى التجسد)(١) ،وإما الخطو نحو معرفة أخرى جديدة ، وكل تعليم حقيقى عبارة عن فن استثارة حب المعرفة.

---

(١) لنا إليها عودة فى الباب المقبل .

وعند ما يجىء اليوم — لكم أو لى — الذى فيه ندخل مدرسة كوكبية أو إلى قاعة من قاعات الحكمة فسيفاجئنا بعض مفاجآت . أولها أننا سنجد أمامنا مبانى صخمة تعادل أبعادها المبانى الضخمة أو المعابد الفرعونية التى كانت فى أيامها الخالية عبارة عن « مدارس للحكمة » .

وسنجد أمامنا طلبة من جميع الأعمار كأولئك الذين « كنت » أشاهدهم عند ما كنت أحاضر فى مدرج جامعة واشنطون بأمريكا وكانت بينهم سيدة تبلغ من العمر السبعين ربيعاً بغير أن تثير استغراب أحد . وخارج القاعة الرئيسية فى مدارس العالم الكوكبى توجد قاعات للمطالعة وتذوق الثقافة الخاصة ، فيها يعلم الإنسان نفسه أكثر مما يعلمه إياه الآخرون ، ولا يتعلمون فيها ما تعلمناه فى مدارسنا فى حياتنا الأرضية الخاصة ، بل ما تعلمناه فيما بعد عند ما اتصلنا بالحياة ، فمن الخرافة الاعتقاد بأن الطفل — أو حتى الإنسان البالغ — يمكن أن يتعلم شيئاً ذا قيمة من الطريقة الأكاديمية .

وسنجد أمامنا لوحات كبيرة (أو شاشات فضية) ، يتجسد عليها الناس والأحداث كما تتجسد فى دور السينما فى مستوانا الأرضى . إلا أن الصور هناك حية والأحداث تبدو كما لو كانت تجرى حقيقة فى هذه اللحظة (يتحدث عن شريط الكون الأثيرى الذى يعرفه الروحيون) .

وبمجرد النظر إلى الشاشة الأثيرية يشاهدون شروق الحياة فى أرضنا بما فيها من كائنات عصور ما قبل التاريخ ، ويشاهدون فيها الإنسان البدائى فى عمله ولهوه وحربه وعشقه ، كما يسمعون كلامه ، وصراخ الدينا صور وغيره من حيوانات العصور السحيقة . . .

فهم يتعلمون من « شاشة الزمن » هذه أصولهم الخاصة . وتبدو لهم — كما لو كانت من خلال زجاج يطل على الأرض — قصة الحياة على الأرض التى تحتهم فيفهمون ما نعجز عن فهمه ، وهو كيف أن الرجال والنساء على الأرض التى ينظرون إليها ويستمعون يمكن أن يصبحوا وحوشاً فى حروبهم الأرضية ،

وفى علاقاتهم الإنسانية ، ولكن «أن نعرف كل شىء معناه أن نغفر كل شىء» كما يقول المثل الفرنسى، ولذا فهم يتعلمون التسامح والاعتدال مع الآخرين .

ويشاهد المتفرجون أمامهم مواطنى قارة الأتلنتس Atlantis (١) يمشون ويتحادثون ، وإذا كان هذا الأمر الأخير عبارة عن مجرد انعكاس للفكر فإن على أن أذكر القارىء أن السينما المجسمة فى أيامنا الحالية قد تتضمن نفس الفكرة . وهكذا فإن النظارة بهذه الطريقة لا يشاهدون فحسب أسلافهم فى الزمان بل معاصريهم ويستمعون إلى محاضراتهم ورسائلهم .

وكل ذلك يشبه إلى حد ما لوحة التلفزيون بالنسبة لأحداث الأرض الجارية ، ولكن الطفل هناك يمكنه أن يشاهد كل ما يجرى فى أية لحظة سواء فى عالمه الكوكبى الخاص أم على أرضنا ، بل إنى أعتقد أنه فى المستويات العليا يمكنهم أن يراقبوا أحداث كوكب الزهرة أو المريخ كما سيمكننا يوما أن نراقبها على شاشة التلفزيون الأرضى الذى لا يزال آلة بدائية .

وفى نفس الوقت يقرر دزموند أن الأرواح يمكنها أن تقرأ الكتب الأرضية، لأن لكل كتاب اهتزازاً معيناً وبالتالى طول موجة ، ولأن الفكر هو الذى يعطى لكل كتاب سرعته الخاصة فى الاهتزاز أو طول موجته ، بل لكل عبارة ولكل كلمة اهتزازها الخاص ، وعن هذا الطريق قد تصل الأرواح إلى قراءة مؤلفاتنا الأرضية إذا شاءت ، أو بالأدق إلى قراءة الأفكار التى وراء العبارات والألفاظ (٢) .

وقد بحث موضوع هذه الظاهرة الغريبة عدد من البحاث الآخرين منهم الأسقف ستانتون موزس الأستاذ بجامعة لندن ونشر عنها مقالا فى جريدة الإنسان الروحى Spiritualist (عدد ١٥ ديسمبر سنة ١٨٧٣) وفيه يقول

---

(١) اسم قارة روى بعض فلاسفة الإغريق نقلا عن الفراعنة أن المحيط الأطلسى قد ابتلعها فى العصور الماضية ، وكانت قد بلغت من الحضارة أزهى درجاتها .

(٢) How You Live When You Die.
طبعة خامسة الفصل الرابع والعشرين وهو عن التعليم فى العالم الآخر .

عن قراءة الكتب بواسطة الأرواح إنه سأل روحاً معينة هل تستطيعين القراءة ؟ فأجابت قائلة . أنا لا يمكنني ذلك ، ولكن روح زكريا جراى Zachary Gray وركتور Retor يمكنهما القراءة .

وبعد ذلك حضر ركتور وقرر أنه يمكنه قراءة الكتب الأرضية ولكن بصعوبة فطلب منه موزس أن يكتب له السطر الأخير من الجزء الأول من كتاب AEneid فكتبه له كتابة صحيحة ، ثم طلب منه أن يكتب له الفقرة الأخيرة من ص٤٩ من الكتاب الذى قبل الأخير من « الرف » الثانى من دولاب كتبه . (وكان نفس موزس لا يعرف هذا الكتاب) فاتضح فيما بعد أنه كتاب عنوانه « Roger's Antipopopriestian » فنجحت الروح فى إملاء الفقرة التى لم يكن أحد من الحاضرين يعرفها ولا يعرف عنها شيئاً (وأخطأت فى كلمة واحدة حيث وضعت بدلها لفظاً آخر يؤدى نفس المعنى) .

وأعيدت نفس التجربة عندما قرأت الروح ص ١٤٥ من كتاب ثالث عينه لها موزس ولا يعلم محتوياته . . . وهكذا . وقررت الروح أنه يمكنها القراءة بمجهود خاص تبذله عندما تكون الظروف مواتية جداً . ويقول موزس إن هذه الطريقة من أحسن الطرق لتحقيق شخصية الروح ، لأن الفقرات التى قرأتها كانت غريبة تماما عن اذهان الحاضرين ولا يعلمون عنها شيئاً . . .(١)

فى التسلية والرياضة واللهو

بالإضافة إلى الفنون الجميلة التى تمثل مزيجاً من العمل ومن اللهو ، فإن الأرواح تعرف جميع وسائل اللهو والتسلية الأخرى التى نعرفها هنا ، والتى تتفق مع ميولها وملكاتها . فلا توجد وسيلة لهو أو تسلية أو رياضة بريئة على المستوى الأرضى إلا ولها ما يقابلها على المستوى الأثيرى .

(١) عن مؤلفه فى « شخصية الروح » Spirit Identity طبعة ١٩٠٤ ص ٧٩ — ٨١

وغالبية الأرواح تظل محافظة على هواياتها القديمة لفترة من الوقت قد تطول أو تقصر إلى أن تتخلى عنها تدريجياً إذا شاءت التخلي أو تستبدلها بغيرها إذا شاءت التغيير ، وبغير أن يصرفها حب التسلية أو الرياضة عن واجباتها العائلية والاجتماعية ، فإن حب الخدمة النبيلة هو طابع الأرواح الراقية ولكنه لا يطغى عند عدد كبير منها على حب اللهو أو الرياضة سواء على المستوى المادى أم الأثيرى .

ولتوضيح ذلك بالصور وردت عدة لوحات عن طريق وساطة السيدة دونوهو على الأرواح الحساسة بدون الاستعانة بكاميرا ، وكانت الوسيطة تحت هيمنة روحها المرشد رد كلاود Red Cloud ، وهى تمثل مناظر لما يقابل ألعابنا المألوفة من تنس وكركيت وبلياردو وجولف وشطرنج ... كما يتضح من اللوحات الست الآتية مأخوذة عن مؤلف « تجارب فى الروحيات » للأستاذ واريك (ص ٣٤٣) .

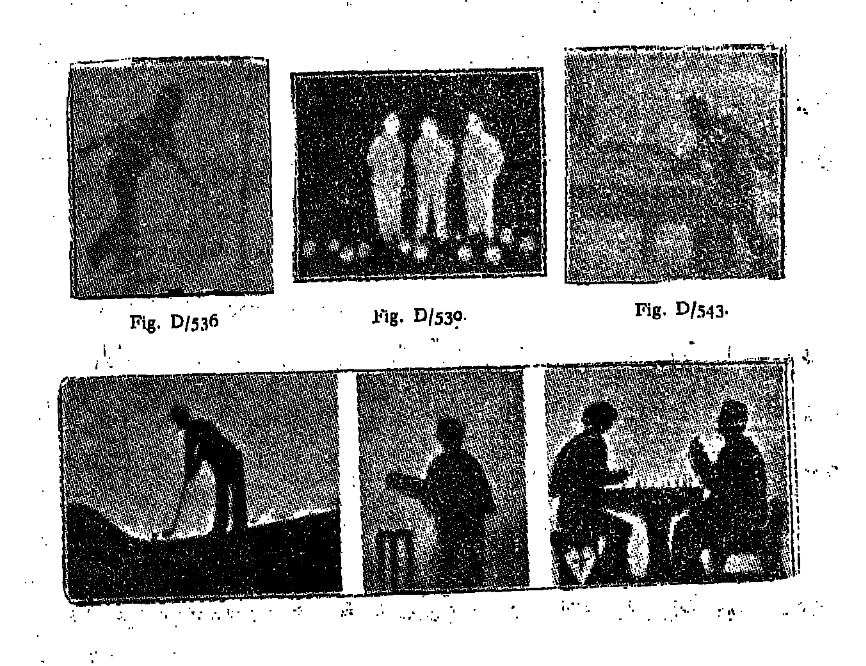


Fig. D/536 Fig. D/539. Fig. D/543.

وبالإضافة إلى هذه الصور وردت كتابات بدون كاميرا على ألواح حساسة متعلقة بهذه الصور بيانها كالآتى : —

— فعن لوحة لاعب الجولف وردت العبارة الآتية : « لقد طلب منى أن أظهر بعض ألعابنا (والكلام على لسان الروح المرشد ردكلاود) :إن آرثر كونان دويل ومارتن دونو هويتفاخران كلاهما مازحين ببطولتهما».

— وعن لوحة لاعبي الشطرنج وردت العبارة الآتية : «أنا يمكننى أن أغلب مارتن دونوهو ودكتور ج فى الشطرنج . كونان دويل » .

— وعن لوحة لاعبي الكريكيت وردت العبارة الآتية : «كونان دويل بارع فى الكريكيت . مارتن دونوهو » .

— وعن لوحة لاعبي لعبة ال Bowls (وهى لعبة قديمة) وردت العبارة الآتية : « بعد الموسيقى إننا نلعبها جميعنا » .

— وعن لوحة لاعب التنس وردت العبارة الآتية : «إن صديقنا القديم سميث يلعب التنس (وسميث كما يلاحظ واريك رمز للبحرية البريطانية كمايدل على ذلك ساقا البنطلون الواسعان من أسفل) .

— وعن لوحة لاعبي البلياردو وردت العبارة الآتية : « مارتن دونوهو يمكنه أن يغلبنى فى البلياردو لسوء حظى . آرثر كونان دويل » .

وقد روت روح سير و . ت . ستيد أيضاً ما يطابق ذلك قائلة « فهنا منازل خصصت للمطالعة فى الكتب وأخرى للموسيقى ، وغيرها لأنواع الألعاب الرياضية المختلفة ، فيمكن التمرين على كل أنواع الألعاب الرياضية كركوب الخيـــل والسباحة ،كما يمكن لكل شخص أن يلعب كل أنواع الألعاب . . . » . غير أنه بعد حين يجد أن رغبته فى ذلك تناقصت وأن ميله اتجه اتجاهاً طبيعياً إلى وجهات أخرى ولو تدريجياً ، وهو ربما لا يهجر ألعابه كلية ، ولكن رغبته فيها تقل ، ويصير أقل انغماساً فيها .

وعلى العكس من ذلك الرجل الذى صرف حياته مثلا فى الموسيقى فإنه يجد ميله ولذته وقدرته جميعها تتزايد، لأن الموسيقى منسوبة إلى هذه الديار،

وهو كلما صرف وقتاً أكثر فى أحد بيوت الموسيقى هنا ، وهو الأمر الذى لابد فاعله مادام قد عاش معيشة موسيقية ، وجد أن معرفته وقدرته تنموان نمواً مدهشاً . كذلك الحال مع المولع بالمطالعة فإنه يشبع هنا كل رغباته فيما يجده من التسهيلات ، إذ العلم هنا غير محدود وجميع الأعمال القيمة التى لم تنتج أثراً فى الحياة الدنيا موجودة بسهولة . . »

إلى أن تقول نفس الروح : « وهكذا نرى فى نظام الخليقة أن الخالق الأعظم قد دبر هذه الخطط العجيبة التى تدعو كل إنسان أن يستأنف فى حياته الأخرى ما شغف به فى الحياة الدنيا ، وأن يتصل اتصالا فعلياً بعمله الدنيوى المحبب إليه ، وأن تتاح له الفرصة للانغماس فيه حتى يضمن النجاح والتقدم . أما جميع الأشياء المتعلقة بالدنيا فقط فإن الاهتمام بها يتضاءل فى قليل من الوقت ، وكل شىء يجرى تدريجياً ، فيتحول ميل الشخص من حالته المادية إلى ما يوصف فى الحياة الدنيا بأنه أمور معنوية ، والأشخاص الذين كان عملهم فى الحياة الأولى محصوراً فى المعنويات تجدهم يستأنفونه فى الحياة الثانية ، ويتسع لهم مجال العمل فيه فيضطرد تقدمهم ، أما الآخرون فيتحولون إليه . . .

خذ مثلا لذلك الرجل الرياضى فإنه يحب ألعابه . من جرى إلى ألعاب قوى إلى تمرينات عضلية ويستمر محباً لها هنا ، بل يزيد حبه لها لأنه يجد لذة مضاعفة وسروراً عظيماً فى عدم إحساسه بالتعب ، ولكنه يجد بعد مدة أن استحسانه لها يتغير وأن ميله إليها يضعف ، ولسنا نقول إنه ينتهى ببغضه لهذا النوع من الرياضة ، ولكنا نقول إنه يتطور وينتقل إلى نوع جديد مملوء بالحركة والغبطة ، وهذا النوع غير مادى بالمرة ، ولذا يتنبه عقله كثيراً ويجد ارتياحاً معنوياً عظيماً فى المباحث التى تعرض عليه كتلك المتعلقة بوسائل السياحة وطرقها هنا ، إذ طرق الحركة جميعها هنا تختلف اختلافاً كبيراً عنها فوق سطح الارض .

ثم إن هذا الرياضى الدنيوى الذى تحدثنا عنه سيندمج فيما يلائم البيئة الجديدة المحيطة به وسيتحقق له سريعاً أن الحياة هنا تختلف عنها هنالك ،

لأنها بالرغم من سيرها على نفس الوتيرة ، فإنها تحوى شيئاً كثيراً من الغبطة المعنوية ، فهل هذا واضح ؟ إذا وضح هذا فطبقوه بنفس الطريقة على كل شخص آخر من بنى الإنسان »[١] .

وعن فن التمثيل يتحدث من هناك الممثل المعروف ليونيل باريمور عن طريق وسيط الصوت المباشر لزلى فلنت Leslie Flint [٢] قائلا : «مازلت ميالا للتمثيل . لدينا «لهو» على حد تعبيركم وكل شيء نعمله هنا له دافع وهدف . كل تمثيلياتنا هادفة ولها مغزى .. فمثلا لدينا تمثيليات قد تسمونها خلقية ، ولا أقصد بذلك أنها ثقيلة أو مملة ، بل إنها لذيذة ومسلية ... كل شيء نفعله هنا ينبغى أن يصدر عن القلب وأن يتم بإخلاص ، فالتمثيلية التى نؤديها نحاول أن نساعد بها شخصاً على أن ينهض . وأن نفسر له لمَ قد وضع فى ذلك الموقف . . .

وقد تخلصنا تماماً من جميع الأشياء القديمة التى كانت تقيد أفكارنا أو تحد من أفقنا . وكل الناس يجدون هنا عملاً مسلياً . فبعضهم يصنع الملابس الجميلة وبعضهم يصمم المناظر لتمثيلياتنا . . ومنهم من يلحن الموسيقى الرائعة . لقد سمعت موسيقى هنا لم تسمعوها على الأرض . فريق الأوركسترا مكون من عدة مئات من الناس كل منهم فنان بمعنى الكلمة . وهنا ألحان جديدة رائعة جداً يتعذر على وصف روعتها لكم ... وعند ما تعزف الموسيقى هنا يصبح الجو مملوءاً بالأنوار الملونة . . ما أبدعه من منظر . .

ولو أن مسرحنا يشبه مسرحكم من ناحية السقف والأرضية والستائر المزينة إلا أن لدينا أيضاً مسارح فى الهواء الطلق تمثل فيها الروايات الضخمة ، وأيضاً تلك المسرحيات القديمة ، ويساهم فيها الفنانون من الرجال والنساء فى الكتابة والإخراج والتمثيل . . »

(١) «ميت يتكلم» المرجع السابق ص٦٢ — ٦٦ .

(٢) لزلى فلنت وسيط معروف للصوت المباشر كان يعقد جلساته علناً فى كنجزواى هول منذ سنة ١٩٤٦ أمام عدة آلاف مستمع تحت إشراف مارشال الطيران لورد دودنج (راجع ما سبق عنه فى الجزء الاول ص ٣٨٩) .

المبحث الرابع

فى الزمان والمكان هناك

لا تختلف نظرية الزمان والمكان هناك شيئاً عنها هنا ، لأن الكون كله رغم فرط اتساعه وحدة لا تتجزأ ، لكن الإحساس بهما هناك يختلف تماما عن الإحساس بهما هنا .

صلة هذا البحث بنظرية النسبية

وينبغى أن نعلم — ابتداء — أن الرياضيات الحديثة توصلت إلى معرفة أن الزمان والمكان لا يعتبران شيئين منفصلين . إذ تتوقف قيم الطول والزمن والكتلة على السرعة النسبية للأشياء طبقاً لنظرية النسبية كما وصل إليها أينشتين Einstein أبو الرياضة الحديثة ، وفيها تختلف بديهيات هندسة الزمان والمكان فى الطبيعة اختلافاً بيناً عن البديهيات العتيقة كما افترضها إقليدس وغيره من الرياضيين القدامى .

ونحن فى المستوى المادى نشعر بالزمان منفصلا عن المكان لمجرد أن المستوى المادى مكون من ثلاثة أبعاد فحسب وهى الطول والعرض والارتفاع ، ولمجرد ارتباط حدود هذه الأبعاد الثلاثة بقدرة الحواس المادية ذات الأبعاد الثلاثة بدورها ، أو بالأدق بقدرتها المقيدة بالاحساس بهذه الأبعاد الثلاثة منفصل كل منها عن الآخر من جانب ، وعن فكرة الزمن من جانب آخر .

أما العالم وراء المادى فهو مكون من أبعاد أربعة وهى الطول والعرض والارتفاع والزمن مجتمعة معاً ومتداخلة بحيث يتلاشى الإحساس بالزمان فى الإحساس بالمكان ، ويتلاشى المكان فى الزمان كما يتلاشى اللون الأسود فى اللون الأبيض فينشأ عن امتزاجهما معاً ظهور لون آخر جديد هو اللون الرمادى . وكذلك ينشأ عن امتزاج الزمان والمكان معاً ظهور لون آخر جديد من الإحساس بالحياة يمكن أن نسميه لون « الحالة » .

والنفس توجد هناك فى حالة معينة من الإحساس بالسعادة أو بالشقاء ،

أو بالأدق فى حالة مركبة من الإحساس بالسعادة وبالشقاء معاً ، كما توجد فى حالة مركبة من الاحساس بالزمان والمكان مندمجين معاً ، ناجمة من تحول حواس الإنسان بعد تحررها من اعتقال الجسد المادى من القدرة على الإحساس بالأبعاد الثلاثة إلى القدرة على الإحساس بالأبعاد الأربعة الآنفة الذكر مندمجة معاً ، وهى الطول والعرض والارتفاع والزمن .

وبالتالى يظهر لهم عالمهم « زمكانيا » بحسب تعبير نظرية النسبية أى مكوناً من زمان ومكان مجتمعين معــاً ، فيبدو لحواسهم عالماً غير زمانى Timeless وفى نفس الوقت غير مكانى Spaceless . وكلما ارتقت الروح كلما نما فيها هذا الإحساس بالحالة الزمكانية ، وكلما اقتربت من المستويات المادية للوجود كلما ضعف فيها هذا الإحساس حتى ليبدو لها إحساسها بالزمان والمكان غير مختلف كثيراً عن إحساس الأرضيين بهما . بل إن بعض فروض علم الروح الحديث قد يميل إلى افتراض عوالم أخرى مرتفعة قد تكون خماسية أو سداسية الأبعاد لا يندمج فيها فحسب المكان مع الزمان، بل قد يندمج فيها أيضاً الماضى مع الحاضر مع المستقبل .

ونظرية النسبية هى التى قربت إلى الأفهام المعاصرة حتى عند أعلام الرياضيين ذوى السمعة العالمية من أمثال ج . و . ديون Dunne حقائق عالم الروح وربطتها بما نعلمه عن حقائق عالم المادة[1] ، وهى تلاقى الآن قبولا ضخماً فى الرياضة المعاصرة . وقد قال فى وصفها الرياضى المعروف سير جيمس جينز James Jeans إنه « ما من تجربة أجريت حتى الآن بقصد اختبار نظرية النسبية إلا وكانت النتيجة فى صالحها ، لهذا لا يتردد العلماء اليوم فى قبول كل من النظرية ونتائجها . . . »[2]

كما قال فيها أيضاً الأستاذان ألن هاينك Allen Hynek ونورمان أندرسون Norman D. Anderson « كيما تكون النظرية العملية ذات

(١) وبخاصة فى مؤلفه An Experience With Time.

(٢) فى مؤلفه عن « النجوم فى مسالكها » ترجمة الدكتور أحمد عبد السلام الكرداني . القاهرة ١٩٦٢ ص ١٥٢ .

قيمة ، ينبغى أولا أن نأخذ فى الاعتبار الحقائق المشاهدة . ثم تتنبأ النظرية بشيء ما كنتيجة مترتبة عليها ، ويجب أن يتحقق هذا التنبؤ . ولقد أثبتت نظرية النسبية وجودها بالتنبؤ بأشياء أثبتت التجارب فيما بعد صحتها . وعلى الرغم من أن بعض الأمور التى نقرأ عنها فى نظرية النسبية قد يكون له وقع الرأى غير المألوف للغاية إلا أنه يجب أن نتذكر أننا بصدد شيء أعمق .

« إن ذلك كله يبدو غريباً ولكن لقد تحققت جميع تنبؤات نظرية النسبية فى العمل ، وتقع أهمية تلك التنبؤات بالنسبة لعلم الفلك فى أنها أعطت كلاماً محدداً عن كيفية سلوك الزمان والمسافة فى رحبات الكون العظيمة . . . » (١) .

وعن طريق الحقائق الرياضية الضخمة التى تكشفت عنها نظرية النسبية أمكن فهم الكثير من بيانات الأرواح عن وصف عالمهم غير المادى والتى أخذت تتدفق فى غزارة منذ منتصف القرن الماضى ، كما أمكن الربط العلمى بين هذه البيانات وبين حقائق النسبية هذه . بل عن طريق نظرية النسبية أمكن اكتشاف عالم الروح رياضياً بعد إذ تم اكتشافه معملياً عن طريق بحوث الظواهر الوساطية .

بعض الأقوال فى الزمن والروح

وفى هذا الشأن نجد الدكتور الكسيس كاريل العالم الفسيولوجى الحاصل على جائزة نوبل فى سنة ١٩١٢ يقول « لقد وجد الزمن متحداً مع الفراغ فى الطبيعة . . إنه جانب ضرورى للكائنات المادية ، إذ ليس هناك شيء صلب له ثلاثة أبعاد اتساعية فقط . . ومع أننا قادرون على أن ننشيء فى عقولنا كائنات تامة الوصف بداخل الأبعاد الثلاثة (الطول والعرض والارتفاع) إلا أن لجميع الأشياء الصلبة أربعة أبعاد . . والإنسان يمتد فى الزمن والفراغ معاً . أما التفكير فلا يدخل فى الزمن والفراغ . ولا يأوى النشاط الأدبى والشعور بالجمال فى الدوام المادى بنوع خاص .

---

(١) فى مؤلفهما Challenge Of The Universe الذى ظهر فى سنة ١٩٦٢ . ترجمة الدكتور سيد رمضان هدارة تحت عنوان « أسرار الكون » .

وعلاوة على ذلك ، فإننا نعلم أن البصر المغناطيسي قد يكتشف أشياء مخبأة على مسافات بعيدة ، فبعض الأشخاص يرون حوادث وقعت فعلا فى الماضى ، أو ستقع فى المستقبل . ويجب أن نلاحظ أنهم يدركون المستقبل بالطريقة التى يدركون بها الماضى ، ولكنهم يعجزون أحياناً عن تمييز المستقبل من الماضى ، مثال ذلك أنهم قد يتحدثون فى حقيقتين مختلفتين عن حقيقة واحدة من غير أن يرتابوا فى أن الرؤية الأولى تتعلق بالمستقبل والأخرى بالماضى ، إذ يبدو أن وجوهاً معينة من نشاط الشعور تسافر فوق الفراغ والزمن .

وتختلف طبيعة الزمن تبعاً للأشياء التى يفكر فيها عقلنا . فالوقت الذى نلاحظه فى الطبيعة ليس له كيان منفصل ، إنه فقط طريقة إيجاد الأشياء الصلبة . فنحن أنفسنا نبتدع الزمن الحسابى ، إنه تكوين عقلى . . خلاصة لازمة لإنشاء العلم . ونحن نقارنه بسهولة بخط مستقيم تمثل كل لحظة متعاقبة فيه بنقطة . ولقد استبدلت بهذا المستخلص منذ أيام جاليليو معلومات قاطعة جاءت نتيجة للملاحظة الأشياء ملاحظة مباشرة .

لقد كان فلاسفة القرون الوسطى يعتبرون الزمن عاملا يكسب الجوهر صلابة ، وهذا الرأى يماثل إلى حد بعيد رأى منكوفسكى أكثر مما يماثل رأى جاليليو ، إذ كانوا مثل منكوفسكى وأينشتين وعلماء الطبيعة العصريين يعتبرون أن الزمن غير قابل للفصل عن الفراغ . . »[1]

ثم يقول كاريل « يوجد فى أفراد معينين عنصر روحى قادر على السفر فى الزمن ، فقد ذكرنا فيما قبل أن البصر المغناطيسى يرى ليس فى الحوادث السحيقة الاتساع فقط ، ولكن أيضاً أحداث الماضى والمستقبل فيبدو كأنهم يجولون بسهولة فى الزمن والاتساع ، أو يهربون من العالم المادى ليتأملوا الماضى والمستقبل كما تستطيع ذبابة أن تتأمل صورة إذا لم تسر على سطحها ، وانما عند ما تطير على بعد قليل فوقها .

ويقودنا الحديث عن حقائق التكهن إلى عتبة عالم مجهول . . ويبدو انها تشير إلى وجود مبدأ روحى قادر على الانتشار خارج حدود أجسامنا .

(١) « الإنسان ذلك المجهول » الترجمة العربية للأستاذ عادل شفيق ص ١٢٨ — ١٣٢ .

ويترجم اخصائيو علم الأرواح ظواهر معينة بأنها دليل على حياة الشعور بعد الموت . . فالوسيط يعتقد أنه مسكون بروح الميت ، وقد يكشف للقائمين بالتجارب عن بعض تفصيلات لا يعرفها إلا الميت فقط ولا تلبث دقتها أن تثبت فيما بعد . ويقول بروض (فيلسوف معاصر وأستاذ بجامعة كمبريدج) إن في الامكان ترجمة هذه الحقائق على أنها دليل على بقاء عامل روحي لا العقل ، قادر على تزريع نفسه مؤقتاً في جسم الوسيط . ثم يقول كاريل إن النتائج التي حصلنا عليها من تجارب علم « تحضير الأرواح » على جانب عظيم من الأهمية ، ولكن معناها ليس دقيقاً (كتب هذا الكلام حوالى سنة ١٩٣٥) . »[1]

كما يلاحظ برجسون الفيلسوف أن الحياة أقرب إلى عنصر الزمان منها إلى عنصر المكان لأنها عبارة عن حركة دائبة لا تعرف الاستقرار ، ولأن أقوى ملكات الحياة وهي ذاكرة الإنسان عبارة عن زمن مخزون ، وكذلك الغرائز الحيوانية في بعض صورها وأحوالها ، كما لاحظ أيضاً أن عقل الإنسان أدرى بحقائق المكان لكنه لا ينفذ إلى صميم الحركة الزمانية إنما يصل إليها بالحدس intiuton أو بالبداهة وحدها لأنها أرقى صور الوعي والإدراك عنده .

الزمن حالة ذهنية

فليس للزمان إذاً من كيان خاص به بعد أن أصبح من خصائص المادة لأنه البعد الرابع فيها ، فهو حالة ذهنية قبل أن يكون حقيقة قائمة بذاتها . والمستقبل قد يتصل بالحاضر وقد يلحق بالماضي ، ولذا فإننا في كل لحظة نقتطع جزءاً من المستقبل ونضمه إلى الماضي فلا ينقص هذا ولا يزيد ذاك لأن كلا منهما لانهائي . ولكن الحقيقة الكونية — في النهاية — هي أن الزمان عبارة عن حالات متنوعة في المكان ، وخيوط داخلة في تكوين المادة الصلبة كما هي داخلة في تكوين مشاعرنا التي تشعر بها أرواحنا . فهو من داخلنا ، أو هو بالأدق هو حالتنا النفسية وحدها . . . ولذا كانت الأبدية في كل مكان ، فهي من حولنا ،

---

(١) المرجع السابق ص ٢٠٤ .

بل هى فينا هنا ومنذ الآن ، تنبع من نفوسنا وتنبع منها نفوسنا نبعاً صحيحاً حياً قوياً ، وليست مجرد سراب يظهر من وراء الفضاء …

ولذا تقوى الروح وتنمو مع مرور الزمن ، أما الجسد — وهو ذو أبعاد ثلاثة فحسب — فهو يضعف ويضمحل بعد بلوغ النضج الكامل بتأثير الزمن وحده . وبالتالى فإن الدوام صفة تمثل للجسد المادى معنى مغايراً تماماً لمعناها بالنسبة الروح . فدوام الجسد ضعف واضمحلال ، أما دوام الروح فنضج فى العقل وفى الفضيلة ، ونمو فى الوعى وفى الملكات . ومصدر هذا كله أن طبيعة الزمن بالنسبة للجسد المادى المتحلل غير طبيعة الزمن بالنسبة للجسد الأثيرى الذى يحمل الروح ويستمد منها الشعور بهذا الزمن ، وبالتالى الشعور بالحياة أزلية متجددة غير قابلة للضعف ولا للفناء ، بل حرة صاعدة على نقيض المادة الهابطة المقيدة كما لاحظ برجسون فى « التطور الخالق » .

ومن عجب أن هذا الذى وصل إليه أينشتين عن طريق الرياضة ووصل إليه برجسون عن طريق الفلسفة فى القرن العشرين وصل إليه سويدنبرج عن طريق الإلهام منذ منتصف القرن الثامن عشر وكتب فيه فى مؤلفه « الجنة والنار» (١٧٥٨) . وفيه يقرر ما ملخصه أنه « فى السماء لا توجد سنون ولا أيام بل تغيرات فى الحالة ، وحيث توجد سنون وأيام يوجد زمن ، وحيث توجد تغيرات فى الحالة توجد حالات » . كما يقول فى مكان آخر « رغم أنه توجد فى السماء مسافات كما توجد على الأرض ، لكنهم لا يقدرونها بوسائل القياس التى نعرفها ، بل كل شىء يقدرونه بحسب الحالات الداخلية لأصحابها[1] » .

فلا غرابة إذا وجدنا الأرواح الراقية تعلن أنها تحيا فى عالم زمكانى ، أى ذى أبعاد أربعة وهى الطول والعرض والارتفاع والزمن ، وأنها لذلك تشعر بالأكثر أنها فى الحاضر ، دون أن ينفى ذلك تماماً إحساسها بمرور الزمن ، فهى فى حالات معينة بحسب تعبير بعضها أكثر منها فى مكان معين أو فى

(١) « الفردوس والجحيم » ترجمة فرنسية بمعرفة L. J. Français فقرة ١٦٣ ص ١٢١ وفقرة ١٩٨ ص ١٣٨ . وراجع ما سبق عن هذا الوسيط الفيلسوف فى الجزء الأول ص ٩٩ — ١٠٢ .

وقت معين، لأنها — كما قلنا — فى عالم غير زمانى Timeless وفى نفس الوقت غير مكانى Spaceless بحسب تعبيرها .

ومن ثم كان الفارق بين عالم المادة وعالم الروح — فى طبيعتهما — فارقاً فى « الحالة » أكثر منه فارقاً فى المكان أو الزمان . أو بالأدق هو فارق فى قدرة الحواس على الإحساس أكثر منه فارق فى مكان الطبيعة غير المحدود أو فى زمانها اللانهائى . وفى هذا الصدد يتحدث إمبراتور Imperator وهو من الأرواح المرشدة للأسقف ستانتون موزس الأستاذ بجامعة لندن قائلا « إن التغير من عالمكم إلى عالمنا تغير فى الحالة Condition . إذا ولد إنسان أعمى فلا يمكنه أن يفهم ما هو الضوء ، ولكنه إذا حصل على قدرة الإبصار فتكون قد تغيرت حالته State لا مكانه ، وكذلك عندما تنقون عنكم جسدكم المادى ، فلن تكونوا قد غيرتم مكانكم بل حالتكم »[1] .

هل الأرواح تعرف المستقبل ؟

ففهم معنى المكان والزمان هناك — وهما مرتبطان معاً ارتباطاً لا يقبل انفصاماً كما قلنا — يحتاج إلى قدرة خاصة على تصور الأمور التى تغاير تماماً أمور حياتنا الراهنة ، وتغاير تماماً ما ألفته حواسنا فى حالتها الحاضرة . وإذا كان قياس الزمان أو المكان هنا لا يثير صعوبة تذكر خصوصاً بعد استخدام وسائل القياس المادية للوقت وللمسافة ، فإن الأمر هناك جد مختلف لانعدام الإحساس بالزمان والمكان منفصلين، وظهور الإحساس بالحالة بدلا منهما . فإذا طلبت من أى روح أن تحدد لك مثلا موقع مدينة أو منزل هناك فقد طلبت منها أمراً محالا(٢) ، وكذلك إذا طلبت منها أن تحدد لك زمن واقعة معينة من وقائع عالم الروح أو المادة مالم ترتبط هـــذه الواقعة « المادية » بأقيسة المكان أو الزمان المعروفة عندنا .

فهى تجد فى قياس الزمان والمكان معاً صعوبة كبرى لأنه ليست لديها مثل

---

(١) عن مؤلفه « تعاليم أخرى للروح » وراجع ما سبق عن موزس فى الجزء الأول ص ٢٦٣ و ٢٦٤ .

(٢) راجع ما سبق فى الباب الأول من هذا الجزء عن « موقع عالم الروح » من الناحية الاهتزازية وهو يصدق على موقع أى مكان فيه ، فهو موقع اهتزازى .

وسائل القياس المادية التي لدينا . وهي في غير حاجة إلى قياسهما باستمرار كما نفعل نحن في عالمنا المادي ذي الأبعاد الثلاثة . وقد تلجأ إلى محاولة قياس الزمن في الماضي أو المستقبل بحسب أقيستنا إذا طلب منها ذلك أحد من سكان الأرض لتحقيق موضوع معين ، أو لتعرف تاريخ واقعة معينة بحسب تقاويمنا الأرضية وهي قد تصيب في ذلك وغالباً تخطيء ، وقد يكون خطؤها جسيماً أو يسيراً .

وهذه الحقيقة تعلل الكثير من أخطاء الأرواح وتنفي عنها قدرة معرفة المستقبل على وجه مطلق ودقيق ، كما قد يتصور البعض خطأ . فالمستقبل بالنسبة لها مجهول تماماً والتنبؤ بأحداثه ليس أكثر من توقع أمر له مقدماته التي تؤدي إلى نتائجه المحتملة والتي قد تتحقق أولا تتحقق بحسب الأحوال ، كما نفعل نحن بالضبط . غاية ما هنالك إن بعضها قد يملك من عناصر التوقع الصحيح أكثر مما نملك منها في المألوف من الأمور ، ولاطلاعه أحياناً على حقائق عن الحاضر قد نجهلها ، ولانتفاء قيود كثير تعوق صحة تقديراتنا خصوصاً عندما تكون الروح على درجة كافية من نضج العقل وكثيراً ما تفضل الروح الناضجة العقل عدم القيام بأية محاولة للتنبؤ أو لتوقع أحداث معينة مستقبلة رعاية لاعتبارات معينة تفهمها هي تماماً حتى وإن عجزنا عن فهمها ، وترى أن في ذلك مصلحتنا الحقيقية .

وذلك لا ينفي في نفس الوقت قدرة بعض الأرواح الراقية على التنبؤ أحياناً بنبوءات صحيحة عن المستقبل ، قد تبدو لها أحياناً كما لو كانت أحداثاً ماضية أو حاضرة ، لأن الزمن كما قلنا غير موجود هناك بحسب المعنى الأرضي . كما لا ينفي ذلك أن هناك أرواحاً قد تعمد أحياناً إلى إخبارنا عن هذه الأحداث قبل وقوعها — بغير استبعاد احتمال الخطأ . وقد عرف التاريخ نبوءات معينة عن أحداث مستقبلة سجلها ثقاة ، صدق بعضها ولم يصدق البعض الآخر(١) ، ولذا كان من ضمن موضوعات البحث الهامة في نطاق علمي

---

(١) راجع في هذا الموضوع مؤلفاً للأستاذ أحمد الشنتناوي عن « التنبؤ بالغيب قديماً وحديثاً في مجموعة « اقرأ » عدد سبتمبر ١٩٥٩ . و « علم الغيب في العالم القديم » من وضع شيهرون . ترجمة وتعليق الدكتور توفيق الطويل الأستاذ بجامعة القاهرة .

الروح وما وراء الروح موضوع مدى إمكان التنبؤ بأحداث المستقبل .

وفى هذا الصدد يذكر الأديب البلجيكى موريس ماترلنك Maurice Maeterlinck فى مؤلفه عن «الموت»[1] أنه فى جلسة روحية تلق سير وليام ستيد W. T. Stead نقيب الصحفيين البريطانيين (١٨٤٩ — ١٩١٢) نبوءة محددة عن مصرع الملك اسكندر ملك الصرب وزوجته الملكة دراجا بكل تفاصيلها ، وقد ثبت ذلك فى محضر هذه الجلسة وعليه توقيع حوالى ثلاثين شخصاً من الحاضرين . وفى اليوم التالى مباشرة توجه سير ستيد لمقابلة سفير الصرب بلندن راجياً منه أن ينبه الملك إلى الخطر الذى كان يتهدده ، فلم يأبه السفير للتحذير ولم يعره اهتماما ، وبعد بضعة شهور تحققت النبوءة بحذافيرها .

وهذه واحدة من نبوءات عديدة أمكن إثبات تحققها فى نطاق علم الروح الحديث ، بغير أن تنفى أن احتمال الخطأ هنا أكثر من احتمال الصواب وأن الأرواح غير الراقية قد تعمد فى أحوال كثيرة إلى إلقاء نبوءات مكذوبة من باب التخمين أو السخرية من بعض الحاضرين ، بعد أن تقرأ ما قد يجول بأفكارهم إمعاناً منها فى السخرية وفى التضليل .

وكل هذا الموضوع — موضوع مدى إمكان التنبؤ بالمستقبل ، أو بالأحداث البعيدة — جزء لا يتجزأ من موضوع فهم معنى الزمان والمكان بالنسبة لحقيقتهما فى الطبيعة ، وبالنسبة لهما فى عقل الإنسان وحواسه .

روح جاليليو تتحدث عن الزمان والمكان

هذا وقد حاولت روح جاليليو العالم الفلكى المعروف (١٥٦٤—١٦٤٢) أن تشرح معنى الزمان والمكان لأعضاء « الجمعية الروحية بباريس » فى سنتى ١٨٦٢ — ١٨٦٣ فأملت محاضرة عميقة تقع فى حوالى عشرين صفحة قام بترجمتها بالكامل المرحوم الشيخ طنطاوى جوهرى فى مؤلفه « كتاب الأرواح » . وفيها تقول الروح :

« الفضاء لا حد له . . وإن شئنا أن نمثل فى ذهننا المحدود عدم تناهى الفضاء فلنتصور انفسنا طائرين من الأرض نحو إحدى جهات الكون

---

(١) La Mort طبعة ١٩١٣ ص ١٣٦ .

بسرعة الشرارة الكهربائية . . فبعد طيراننا بثوان قليلة لا تعود الأرض تتراءى لنا إلا ككوكب حقير ضعيف النور جداً ، وبعد قليل تتوارى عن نظرنا بالكلية . على أنه لا يمضى على سفرنا إلا دقائق قليلة إلا ونكون قد نأينا عن الأرض ملايين فى ملايين من الفراسخ ورأينا ألوفاً فى ألوف من العوالم ، ولكن لدى التحقيق نكون لم نخطُ بعد ولا خطوة واحدة فى الكون . وإذا استقام سفرنا أجيالا وألوفاً وملايين فى ملايين من العصور والدهور فإنا لا نكون مع ذلك قد خطونا خطوة فى طريقنا . وذلك إلى أى صوب اتجهنا وإلى أية نقطة انتحينا من تلك الذرة الحقيرة التى بارحناها وأنتم تدعونها أرضاً ، هذا ما عندى من تعريف للفضاء .

وأما الزمان فهو كالفضاء لفظة معبرة بنفسها غنية عن التحديد . وقد يسوغ أن ندعوه تعاقب الأشياء باللانهاية . فلنتصورن أنفسنا فى بدء عالمنا أى فى عصر بدأت فيه الأرض تتبختر تحت النفحة الإلهية وبرز الزمان من مهد الطبيعة السرى . فقبلها كانت الأبدية سائدة ساكنة والزمان يجرى بمجراه فى عوالم أخرى . ولما برزت الأرض إلى حيز الوجود استبدلت فيها الأبدية وأخذت السنون والقرون تتعاقب على سطحها حتى اليوم الأخير . أى ساعة أن تبلى الأرض وتمحى من سفر الحياة . ففى ذلك اليوم تتعاقب الأشياء وتزول الحركات الأرضية التى كانت مقياساً للزمان أيضاً .

فينتج من هذا أن الزمان يتولد من تولد الأشياء وينقضى بانقضائها ، وهو بقياس الأبدية كنقطة سقطت من عباب الجو فى البحر . فتختلف الأزمنة على اختلاف العوالم . وخارج هذه التعاقبات الفانية تسود الأبدية وحدها وتملأ بضيائها فلوات الفضاء التى هى غير محدودة . ففضاء لا حد له وأبدية لاقرار لها هما الخاصيتان العظيمتان للطبيعة العامة وإذا كان الزمان يمثل تعاقب الأشياء الزائلة ومقياسها فإننا إذا جمعنا ألوفاً فى ألوف من القرون والأحقاب لا يكون هذا العدد إلا نقطة زهيدة فى الأبدية ، كما أن الألوف فى الألوف من الفراسخ تعد نقطة حقيرة فى الفضاء .

وإذا مضى على حياتنا الروحية عدد من القرون يوازى قدر ما يكتب على طول خط الاستواء فإنه ينقضى هذا العدد الجسيم والنفس كأنها ولدت اليوم . وإذا أضفنا إلى العدد المذكور سلسلة أخرى للأعداد . ممتدة من الأرض إلى الشمس وأكثر ، فإنه ينقضى هذا العدد الذى لا يدرك قياسه من القرون والنفس لا تتقدم (فى الزمن) يوماً واحداً إلى الأبدية ، ذلك لأن الأبدية لا حد لها ولا قياس ، ولا يعرف لها بداءة ولا نهاية ، فإذا كانت القرون كلها لا تعد ثانية بقياس الأبدية فما أهمية عمـــر الإنسان على الأرض ؟ . . . »[1]

المبحث الخامس

فى الحياة الاجتماعية هناك

يعيش الناس فى عوالم ما وراء المادة فى شكل أمم متشابهة إلى حد ما فى ميولها واتجاهاتها وأخلاق بنيها على نفس النحو المعروف على المستوى الأرضى ، وإن كان التشابه هناك أكثر منه هنا ، وفى هذا الشأن يقول سويدنبرج «إن كل أمة تحمل فى وجوه أبنائها وفى أعينهم نوعاً من الشبه المشترك به تتميز كل أمة عن الأخرى وكل أسرة عن الأخرى . وذلك ما يتوافر بالأكثر فى السماوات حيث تظهر على الوجه وتلمع جميع العواطف الداخلية ، إذ الوجه هو الشكل الخارجى المعبر عن العواطف ، وليس من الممكن فى السماء أن يحمل الإنسان وجهاً يغاير عواطفه . . . . ومن ثم فالوجوه تختلف هناك بحسب نوع مشاعر الخير والجمال التى قد تغذى أصحابها[2] » .

وما يصدق فى ذلك على البشر يصدق على الملائكة أيضاً ، إذ يقول نفس الوسيط الفيلسوف فى مكان آخر « بحسب التجربة التى أعطيتها منذ سنين

---

(١) راجع الرسالة برمتها فى « كتاب الأرواح » ص ١٥٩ — ١٧٩ .

(٢) المرجع السابق فقرة ٤٧ ص ٥٢ .

عديدة يمكنني أن أقول وأن أؤكد أن الملائكة من ناحية شكلهم كالآدميين تماماً من حيث الوجه والعينين والأذنين والصدر والذراعين واليدين والقدمين، وأن بعضهم يشاهد البعض الآخر كما أنهم يتبادلون الاستماع والحديث، وبالتالي لا ينقصهم شيء على الإطلاق مما يشكل بني البشر إلا أن أجسادهم ليست مادية . . . »[1] .

والإجماع في العلم الروحي هو على أن الأمر الذي يجمع بين الأمم والشعوب في منطقة مشتركة أو في « قارة روحية » واحدة هو قانون التوافق أو التشابه في الأخلاق والميول والاتجاهات وبالتالي في الأشكال ، دون أن يكون لوحدة العقيدة أو المذهب من تأثير في هذا الشأن ، إلا بقدر ما قد يؤدي أو لا يؤدي إلى تشابه في العواطف والمشاعر بين أبناء البيئة الواحدة ، أو تفاوت فيما بينهم على نحو قريب مما نشاهده على المستوى الأرضي .

وفي هذا الشأن سأل الأسقف تويديل (بجلسة ١٢ نوفمبر سنة ١٩٣٧) روح الموسيقار شوبان قائلا : « هل يمكن للأجناس الملونة أن تختلط بالجنس الأبيض في عالم الروح ؟ » فأجاب شوبان « نعم يمكنهم أن يندمج بعضهم في البعض الآخر بحسب أذواقهم كما اندمج الشرق مع الغرب في عالمكم » ، فأردف تويديل متسائلا « لكن مع جواز اختلاط بعض الشعوب ببعضها الآخر هل يحتفظ كل شعب بكيانه في إقليم خاص به ؟ » فرد شوبان « نعم لكل جنس إقليمه الخاص » ، ثم أضاف متهكماً « فهنا ليست انجلترا الصغيرة » ويعلق تويديل على هذه العبارة الساخرة قائلا إن شوبان يشير إلى الفكرة السائدة عند بعض الانجليز المتزمتين من ذوي العقول الضيقة من أن السماء عبارة عن امتياز خاص للأنجلوسكسونيين ! »[2] .

ولكن مع وجود أمم وشعوب متعددة تعدداً لا نهاية له هناك فإن

---

(١) المرجع السابق فقرة ٧٥ ص ٦٩ .

(٢) « أنباء من العالم الآخر » المرجع السابق ص ٣٣٩ .

الصلات على ما يرام بين شعوب المستوى الواحد أو المستويات الراقية المتقاربة ، كما أن السياحة فيما بينها طليقة من كل قيد عند اتحاد المستوى «الاهتزازى» أو تقاربه. والأرواح التى فى مناطق عالية يمكنها أن تنزل إلى مناطق أدنى للدراسة وللخدمة وللزيارة ، حين أن الأرواح التى فى مناطق دنيا لا يمكنها الارتفاع إلى المناطق العليا ، إذ تمنعها قوانين طبيعية للاهتزاز أو للترنم مع البيئة التى تناسبها لا تشبه فى شىء الحواجز التى اصطنعتها السياسة وتاريخ الدول على المستوى الأرضى .

والحروب الدموية غير معروفة هناك إلا أن الصراع بين الشر والخير، وبين التخلف والتقدم ، وبين الجمود والتطور، له مكانه هناك متخذاً أساليب عقلية وروحية تنتهى أبداً بانتصار الخير على الشر مهما طال أمد الصراع[1].

عن أنظمة الحكم

أما عن أنظمة الحكم فإن مشكلات السياسة المعروفة على المستوى الأرضى لا وجود لها هناك على نفس الصورة التى نعرفها ، لأن أنظمة الحكم محكومة فى المناطق الراقية بقوانين طبيعية نفاذة تعطى لكل إنسان مكانه الجدير به بحسب مدى نضجه الخلقى والعقلى . فلا دخل فى ذلك لما قد يبدو لنا أنه حكم المصادفة[2] ، ولا لانفعالات الجماهير .

لذا تقول روح ج . د . توماس J . D Thomas فى مؤلف للبحاثة ميشيل ساج M. Sage عن «الصعود الكونى» L'Ascension Cosmique «يحتل سلطان الغوغاء لديكم مكاناً كبيراً بكل ما قد يتصل به من أسباب القوة كالسياسة والحرب. فعالمكم عالم مضطرب تتلاطم فيه أمواج الشر والخير معاً . ولكن الشر ينفصل عن الخير منذ صبيحة اليوم التالى للموت وتتجه

---

(١) وردت فى الكتاب المقدس هذه الآية : « لأن محاربتنا ليست مع لحم ودم بل مع جنود الشر الروحية التى فى السماوات » .

(٢) إذ لا يعترف علم الروح بأن فى الوجود شيئاً اسمه « المصادفة » ، بل إن كل حادثة عبارة عن نتيجة مبنية على مقدمات معينة انتهت إليها بحكم الارتباط المحتوم بين المقدمات والنتائج.

كل روح إلى المكان الذى تحدده لها قيمتها الأدبية ، ثم ترتقى كل منها تدريجياً بعدئذ ويختفى الإكراه شيئاً فشيئا ، ويدرك كل إنســـان الناموس بغريزته ويخضع له » .

وفى وصف ساسة بعض المناطق الراقية من ذلك العالم الآخر وحكامه يقول سويدنبرج « إن الحاكمين هناك هم أكثر الناس اتصافاً بالمحبة وبالحكمة ، فهم يريدون الخير للناس بحسب محبتهم ، ويعرفون كيف يؤدونه بحسب حكمتهم . فهم لا يسودون ولا يأمرون ، ولكنهم يديرون ويخدمون ، لأن أداء الخير للآخرين بحسب المحبة هذه هى الخدمة ، وأما اتخاذ اللازم نحو أداء الخير فهذه هى الإدارة .

وهم بذلك لا يصطنعون العظمة لأنفسهم بل التواضع ، ويضعون نصب أعينهم خير المجتمع وخير القريب ، أما خيرهم ففى المرتبة الأخيرة . . . ومع ذلك فهم يستحقون أبداً المجد والكرامة . . . ولا يتقبلون هذا وذاك لأنفسهم بل للطاعة . . . »[1]

ثم يقارن سويدنبرج بين حكومات الفردوس وحكومات الجحيم ، قائلا إنه « فى الجحيم توجد حكومات على عكس حكومات النعيم ، فكل شىء فيها ينتمى إلى حب الذات . وكل هناك يريد أن يفرض إرادته على الآخرين ويسودهم ، وتمتلىء نفسه حقداً على من لا يجاريه ، فينتقم منه ويعامله بوحشية ، لأن هذا هو قانون حب الذات . ومن ثم يختارون تابعيهم من الرؤساء من أكثر الناس شراً حتى يكفل الخوف منهم الطاعة لهم[2] » .

العلانية أساس الحياة الاجتماعية

وأساس الحياة الاجتماعية فى المناطق الراقية من عالم الروح هو العلانية التامة ، فهى الأسلوب العادى للحياة اليومية ودستورها ، إذ لا يمكن لأى

---

(١) المرجع السابق فقرة ٢١٨ ص ١٥٠ .

(٢) المرجع السابق فقرة ٢٢٠ ص ١٥١ .

إنسان أن يخفى تصرفاته أو يسترها بستار من الخديعة أو الرياء ، لأن ملكة قراءة الفكر أو التلباثى — وهى الوسيلة الطبيعية للتخاطب بعد فترة معينة — تكشف لكل إنسان عن نوايا أخيه وعن أفكاره الخاصة . وهى تمثل عقاب المنافقين وهى فى نفس الوقت ثواب المخلصين ، وهى قانون طبيعى ليس للإنسان منه فكاك لأنها تشمل علانية التصرفات كما تشمل علانية الشعور والضمير ، بل علانية الحاضر والماضى أيضاً .

وهذه العلانية قانون من قوانين الحياة هناك ، وهنا أيضاً ، فإن إخفاء الأحاسيس والمشاعر الحقيقية حتى هنا يكاد يكون ضرباً من المحال . وإن نجح فى أمر فلفترة قصيرة ، فهو ليس أسلوباً ناجحاً من أساليب الحياة الراقية. وقد تبين أن أنجح السياسيين ورجال الأعمال هم أكثرهم صدقاً فى إبداء مشاعرهم وإخلاصاً لها ، لأنها مشاعر إنسانية مشروعة لا ضغينة فيها ولا عدوان على حقوق الآخرين ... فلا يحتاج إلى تكبد عناء الإخفاء إلا من قد يضمر العداء للآخرين . وهو فى النهاية يحجب نفسه عن الحقائق، كما يحجب الحقائق عن بصيرته ، بينما تظهر نفسه عارية مكشوفة للآخرين ومشاعره ملموسة منهم . وفى هذا المعنى قال الشاعر بحق :

ثوب الرياء يشف عما تحتــــه فإذا اكتسيت به فإنك عارِ

وفيه أيضاً قال زهير بن أبى سلمى :

ومهما تكن عند امرىء من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

وهذه العلانية ليست مقصورة هناك على الآخرين ، بل تشمل الذات الداخلية أيضاً . فلا يعود الإنسان يرى عيوب الآخرين معلنة واضحة ويرى عيوبه الخاصة كما لو كانت فضائل واضحة مهما كانت جسامتها بسبب غشاوة الكبرياء . وهذه العلانية من مزاياها أنها تعاقب وتثيب ، كما أنها تعلم الناس قدراً من التسامح مع الآخرين ، لأن من يكشف عيوبه الخاصة يتعذر عليه أن يكون قاسياً فى حكمه على غيره ، ومن يعرف الناس على حقيقتهم قد يتلمس لهم الأعذار ويتقبلهم على علاتهم .

وفى وصف علانية الحياة هناك تقول الروح جوليا Julia فى إحدى رسائلها إلى وسيطها سير وليام ت. ستيد « إننا لا يمكننا أن نلبس أقنعة هنا كما نخفى بها أفكارنا ونوايانا التى فى الصدور. فهذه كلها مكشوفة لكل من كانوا فى نفس المستوى من المحبة ، وهذا أمر مقرر للتقدم. فابتداء يوجد إحساس بالعرى بسبب فقد كل الماديات. وثانياً يوجد إحساس بالعرى بسبب فقد كل قناع وكل رداء يخفى الأخلاق الحقيقية .

نعم إن هذا الجانب من الحياة يشبه جنة عدن قبل السقوط فى الخطيئة حتى بالنسبة لأولئك الموجودين فى الظلمة الخارجية ، ولكنهم لأنهم ليسوا فى النور فإنهم لا يشاهدون عريهم واضحاً تماماً. فنحن بالعرى نشبه آدم وحواء عندما أصابهما الخجل لما أدركا الحالة التى كانا عليها .

وإذا كانت محبة الله لا تسترنا برداء — يبدو كرداء العروس فى يوم زفافها — لكان علينا أن نتمنى أن نطير بعيداً متوسلين إلى الصخور أن تسقط علينا كيما تحجبنا عن عين الله وأعين رفقائنا ، لأننا كلنا — كما تعلم — لنا مثلنا العليا التى كان ينبغى أن نصل إليها. وعندما نستبين مدى المفارقة بين الحقيقة وبين الرؤيه التى أعطاها الله لنا كيما نرى ذواتنا الحقيقية فإننا نقف مدانين أذلاء إزاءها ، ولكن المذلة هى بوابة المحبة »[1] .

وفى شأن علانية الحياة هناك يتحدث أيضاً سيلفر بيرش Silver Birch الروح المرشد لدائرة هانن سوافر (نقيب الصحافة البريطانية) قائلا : « لا يوجد كذب فى عالمى لأنه لا يمكنك أن تخدع القانون ، فالقانون كالمرآة يعكس الواقع. إنه يهتك كل حجة وخديعة ويتركك عارياً ممزقاً لكل واحد كيما يراك . الأنانيون فقط هم الذين يخشونه ... »[2] .

---

(١) « بعد الموت » أو خطابات جوليا التى نشرها « نادى الكتاب الروحى » ص ١٤٧، ١٤٨ . وراجع ما سبق عن هذه الروح ووسيطها فى الجزء الأول ص ٢٣٢ — ٢٣٦ .

(٢) راجع ما سبق عن هذه الروح ووسيطها فى الجزء الأول ص ٢٤٦ .

لذلك كله كان التوافق أو الانسجام الروحى هو — كما قلنا — الرابطة الحقيقة التى تجمع بين الناس هناك ، وكان انتفاؤه هو الأمر الذى يباعد بينهم . فهناك كما يقول سويدنبرج لا توجد صلة قرابة ولا مودة ولا صداقة إلا أن تكون صلة روحية تنبع من الحب ومن الضمير[1] .

وفى هذا الصدد يتحدث الروح أفرار Aphraar المرشد للباحث المعروف الوسيط روبرت جيمس ليز Robert James Lees قائلا « هناك مرحلة أسمى من غيرها وجديرة بالاعتبار ، تلك هى العلاقة الروحية بين روح وأخرى فإنها أسمى بكثير من أية علاقة يمكن أن يصل إليها اللحم والدم . فنحن لا نظل بعد فى منطقة القيود متى وصلنا إلى الأبدية ، ففيها يكون الله هو الأب للجميع ، وكل الأمم البشرية أبناء وبنات متساوين أمام الواحد ، وهكذا تكون كل الأرض والسماء أسرة واحدة . وليست هناك أبوة على الأرض تدانى هـــذه الأبوة السماوية ، إذ ليس للأبوة الزائلة أن تضاهى القوانين الأزلية ، ولا للسلطة المتنازع عليها أن تقارن بولاء الروح للروح الإلهية والتفانى فى خدمتها .

فهنا كما قلت أسرة واحدة فى السماء تجمع بين البشر من جميع الأجواء والألوان واللغات والشعوب فى مرتبة واحدة هى مرتبة الأخوة تحت لواء أب واحد هو الله . أما روابط الدم ، مع كل ما يتعلق بها من فواصل وفروق فتترك عند منطقة الحدود ، أى عند القبر ، بينما تبقى كل علاقة روحية ، بل كل ذكرى عن علاقة روحية ارتبطنا بها فى الأرض . وهى ليست علاقة من نوع علاقة الأم بوليدها ، بل قائمة على اتحاد بين روحين ، اتحاد يباركه الله الذى يبارك كل حب حقيقى ولا يسمح له بالانفصام .

---

(١) المرجع السابق فقرة ٤٦ ص ٥١ .

وإذا ما حاولنا بالمقاييس الأرضية أن نعى معنى هذه الرابطة الروحية التى تربط بيننا كأسرة واحدة نجد أن ذلك غير ممكن ولا مفهوم ...

فللحب الأبوى وظيفة رئيسية يؤديها على الأرض ، وهى وظيفة حيوية جداً فى مبدئها ، ثم تضعف شيئاً فشيئاً بقدر نمو الطفل وتعلمه الاعتماد على نفسه ، بل تضيع عندما يثور الشباب على الأبوة الأرضية ويتحداها ، ويتحمل بدوره دور الأبوة لطفل جديد . أما عندما يولد طفل جديد فى الملكوت الروحى[1] فهو يكون ابناً لله ، وتظل الأبوة أزلية وتتجمع فى نطاقها الأسرة الإنسانية برمتها التى تزداد تجمعاً . وتقوى أواصرها حتى تشمل البشرية جمعاء فتصبح واحداً فيه .

ونحن لانفقد شيئاً فى عملية الانتقال سوى قيد صناعى كثيراً ما كان مزعجاً مثيراً لنا ، حين أننا نكسب الكثير . فمثلا إن الرباط الذى يربط حالياً بينى وبين فاوون Vaone أوثق بكثير من رابطة الأم بولدها ، ولن ننسى مطلقاً ما كان بيننا من روابط متبادلة، كل ما هناك أن الحاجز المادى قد تلاشى . وبما أن الحب الذى نعرفه أعظم وأجمل وأقوى من كل حب تخيلته حتى الآن ، فإن نصيبى الآن من الحب أكثر اتساعاً وإشباعاً من كل ما تخيلت أن حب الأمومة يمكن أن يؤول إليه . وإذا كان الفردوس قد أخذ منا شيئاً ، فهو قد أزال غشاوة كانت على عيوننا ، وقد عوضت باكتشاف أن أقصى ما كنت أتصوره لم يكن شيئا بالنسبة لما أعده الله للذين يحبونه . ولقد تعلمت هذين الدرسين وفهمتهما فى نعيم القرب منها من جديد ، هذه التى طالما شقيت بسببها وكابدت[2] » .

* * *

فليس من إلزام هناك على أى إنسان أن يعامل من يكره أو يعاشر من

(١) تقصد الروح ولادة الناس هناك بالوفاة هنا ، أى الميلاد الثانى للإنسان فى عالم الروح .

(٢) عن كتاب « الحياة الفردوسية » The Life Elysian ص ٢٤ ، ٢٥ .

لا يحب أو من لا يقدر . ولأن كل إنسان يدرك هناك قيمته الخاصة على حقيقتها فإنه لا يظل يخدع نفسه كما كان يفعل على المستوى الأرضى ويضفى عليها فضائل زائفة من الخلق والذكاء قد يكون على النقيض منها ، ولا يظل يحاول أن يفرض على الغير الإيمان بتوافر هذه الفضائل الموهومة فيه .

أما الروح المكابرة العنيدة التى تظل على نفس حالها من الغرور ومن الخديعة فليس لها مكان فى تلك المناطق العالية من عالم الروح . فالإنسان المتواضع القلب أقرب إلى الفضيلة وأسرع إلى الارتقاء من الغر العنيد ، حين يظل الأخير حتماً مصدر تعاسة لنفسه لسنين كثيرة ربما تطول إلى قرون ، فلا يبدأ فى الشعور بأية سعادة حقيقية إلا إذا بدأ يشعر أولا بعيوبه الخاصة ، وعندئذ يبدأ فى الارتقاء التدريجى ، ومن هنا كان نداء سقراط الخالد للإنسان أن يعرف نفسه حتى يكون سعيداً .

ولذلك يصف علماء الروح الجنة والنار بأنهما بمثابة حالتين يعدهما الإنسان لنفسه فى عالم الروح بسبب سلوكه فى العالم الأرضى ، فإما ارتقاء إلى الطبقات العليا ، وإما انحطاط إلى الطبقات السفلى حيث يلتقى بمن هم على شاكلته فيغمرهم الجهل والظلمة ، وهناك يقاسون من عيوبهم الخلقية كالحسد والغضب والأنانية والكبرياء وحب إيذاء الغير — وذلك طبقاً لقانون التوافق هذا الذى نعبر عنه بأن « الطيور على أشكالها تقع » ، حتى تتطهر الروح تدريجياً من هذه العلل الخلقية والنفسية .

فى المحبة

وإذا كانت العلانية تمثل قانوناً أساسياً فى الحياة الاجتماعية هناك ، والتوافق الروحى يمثل قانوناً ثانياً ، فإن المحبة تمثل قانوناً ثالثاً ، بل هى أعظم القوانين كلها وأسماها . والمحبة التى تتحدث عنها الأرواح الراقية هى المحبة النامية الإيجابية ، التى تنبعث من القلب لا من اللسان ، والتى يشعر بها الوجدان متدفقة تشع أضواءها كالشمس المشرقة إلى كل إنسان وفى كل مكان ، نابضة بالبر والعطف والحنان .

هذه هى المحبة التى تصنع الإنسان ، وتجعل للحياة مغزى وهدف وتمنح للوجود قيمة وكرامة . لأن المحبة الإيجابية النامية أصل لكل سعادة واطمئنان ، ولكل تواضع ووداعة، ولكل حكمة وعدالة، ولكل تهذيب وإيثار، بل لكل اجتهاد وابتكار . . . . فهى أصل بالتالى لكل حضارة وتقدم... وبغيرها يحل القلق محل السعادة،والأثرة محل الإيثار، والحماقة محل الحكمة،والنزوة محل العدالة،والشهوة محل العاطفة والوسواس محل الإلهام...

والمحبة لا تجىء من الأرض بل هى هبة السماء التى لا تنبعث من جمود العقل بل من تحرر العاطفة ، ولا تنبع من ظلام الجسد بل من إشراق الروح ؛ إذ إشراق الروح هو مصدر كل تضحية نبيلة .. ولذا كان الحب أقرب إلى قلب الناسك منه إلى عقل الفيلسوف ، وأقرب إلى قلب الأم منهما معاً ... وكانت « الجنة تحت أقدام الأمهات » لا تحت أقدام الفلاسفة ولا النساك ! ! .

ولا تقف فى طريق نمو المحبة عقبة كعقبة الأحقاد والضغائن، ومن ثم كانت أعلى مراتب القدرة فى الإنسان هى القدرة على الغفران ، وكان سحق الكراهية أفضل من سحق الأعداء ، وكان نسيان العدوان أقصر طريق إلى السماء . . . على أن يكون النسيان حقيقياً صادراً من القلب لا محض تصنع وادعاء .

فمن يلقن ابنه أى مبدأ من مبادىء الكراهية إنما يدمر فيه المصباح الوحيد الذى يضىء له طريق الحياة ، وكم فى الطريق من ظلام ومن مخاوف ، وكم فيه من وحوش ضارية يروضها الحب والحنان ، حين تغريها بالعدوان نظرات الخوف والكراهية . ولذا نجد الأرواح الراقية تدعو لغرس المحبة فى قلوب الناس فى حرارة وفى إلحاح لا يتوقف بوصفها حزام النجاة ووسيلة الخلاص فى كل مكان وزمان . وهى فى هذا الشأن لا تعرف أية تفرقة بين شتى الشعوب والأديان والألوان .

كما نجد أن فلسفة الروح تدعو بكل حرارة إلى الحب الإيجابى الطاهر الذى ينبغى أن يشعر به الإنسان نحو أخيه الإنسان ، ونحو الكون بأسره ونحو المهيمن على الكون قبل كل شىء آخر .

ولأن الحب الطاهر هناك هو كل شيء فلا تعرف هـذه المناطق العليا شيئاً اسمه التجارة أو النقود أو المصارف ، إذ أن الوسيلة الوحيدة للتعامل هى المحبة، وبوجه عام هى العاطفة الكريمة.فهى التى تنظم وحدها علاقات الناس ومعاملاتهم فى الأخذ والعطاء ولا يعرفون عملة صالحة غيرها ، وعلى ذلك أجمعت الرسائل ، فلو كان الأمر كله محض خيال أما كان من الجائز أن يتخيل أحدهم وجود نقود وتجارة فى هذه المناطق ؟...

إن «الصناعة العقلية» موجودة، ولكن قانون الاستحقاق عن طريق محبة الأقربين هو القانون العادل الذى ينظم وصول كل من يستحق عطية ما إلى مبتغاه . وليس هناك أعدل من قانون الاستحقاق الطبيعى الذى لا يعرف تحيزاً ولا محاباة . وهو يلعب دوره هنا ولكن على صورة قد تعوقها كثيراً إرادة الأرضيين عندما يسيئون استعمالها . وأيضاً عوامل الشر التى تلعب هنا دوراً مختلفا عن دورها هناك .

جوليا تتحدث فى المحبة

وللأهمية القصوى لدور المحبة الإيجابية فى تنظيم أسلوب الحياة الاجتماعية واستقرار أوضاعها ينبغى أن نفسح مجالا كافياً لرسائل بعض الأرواح الراقية فى شأنها . فنجد مثلا الروح جوليا Julia المرشدة لسير وليام . ت . ستيد تقول : « هنا يوجد السلام والحياة والجمال ، وفوق كل شيء توجد المحبة . الجمال فى كل مكان والمرح والمحبة . المحبة !... المحبة هى السماء ، فالله محبة، وعند ما تفقد نفسك فى المحبة تجد نفسك فى الله ... إننا نرى الإثم والألم فى عالمكم ونحاول أن نزيحهما جانباً ، ولكنهما لا يضايقاننا كما كانا يفعلان من قبل لأننا نرى الجانب الآخر . فلا يمكننا أن نشك فى محبة الله لأننا نحيا فيها ، فهى أعظم شيء ، بل الشيء الحقيقى الوحيد فى الوجود .

وما الآثام والآلام فى الحياة الأرضية سوى ظلال زائلة حتماً ، لكنها ليست خاصة بعالمكم ، فى هذا الجانب أيضاً توجد آثام وتوجد آلام ،

والجحيم يوجد على هذا الجانب كما يوجد النعيم ، ولكن سعادة أهل النعيم هى فى إخلاء الجحيم من سكانه ، فنحن نتعلم دائماً كيف تنقذ الآخرين بالمحبة ونخلصهم بالتضحية ، فبغير التضحية لا يوجد خلاص ...

كما تقول أيضاً : « لو أمكننى العودة إليكم ثانية كيما أتحدث فى آذان بنى البشر فلا أتمنى إلا أن أقول لهم أحبوا . المحبة هى اكتمال الناموس . المحبة هى رؤية وجه الله . المحبة هى الله والله محبة . إذا كنتم تريدون أن تكونوا مع الله أحبوا . إذا كنتم تريدون أن تكونوا فى السماء أحبوا ، لأن السماء تختلف عن الأرض وعن الجحيم اختلافاً بيناً فى أن الجميع فى السماء يحبون بعضهم بعضاً إلى آخر حدود كيانهم ، وكل نمو فى النعمة نمو فى المحبة .

أحبوا ... أحبوا ... أحبوا ... هذه هى الكلمة الأولى والأخيرة ولا يوجد شىء بجانبها لأن الله الذى هو محبة هو الكل فى الكل ، الألف والياء ، البداءة والنهاية ، الكون غير المحدود ... هـــذه هى كلمة الحق ، الكلمة التى يحتاج إليها العالم ... كلمة الله التى تجسدت وأقامت بين البشر : ... أحبوا . أحبوا . أحبوا .... »[1].

وفى مكان آخر تقول نفس الروح : « توجد الآن ملايين من الأرواح الطيبة هنا تحتفظ بحب غامر وعميق لمن خلفوهم على الأرض . فهنا أمهات انتزعن من أطفالهن ، وزوجات من أزواجهن ، ورجال لا حصر لهم صنع الموت برزخاً بينهم وبين أحبائهم ... ومع ذلك فما فائدة القول بأن عليهم أن يجدوا العزاء فى محبة الله ؟ فكيف ظهر الله لهم ؟ لقد ظهر لهم فحسب عندما أحبوا ، فلا يوجد الله حيث لا توجد محبة .

هل تظنون أننا على هذا الجانب ـ لأننا نحيا أقرب إلى محبة الله منكم ، ولأننا أكثر إحساساً بأنوار هذه المحبة ـ فإننا نحب من تركناهم على الأرض أقل مما كنا نفعل ؟ كلا إن العكس تماماً هو الصحيح . فإننا نحبهم أكثر

---

(١) عن كتاب « بعد الموت » After Death لسـير وليام ستيد . طبعة ١٩٥٢ ص ٦ ، ١٤ ، ١٥ .

فأكثر ، وبصفة أكثر دواماً عندما ننمو فى نعمة الله ومحبته . فكيف نجد أنفسنا إذاً معزولين بحجاب عمن نحبهم ؟!.. إن ذلك كان بخطأ منا ، ولكن أيضاً بخطئكم أنتم .

« إن لديكم معلوماتكم عن شركة القديسين ، وتقولون وترددون بكل الطرق اعتقادكم بأن القديسين من فوق ومن تحت هم عسكر الرحمن ، فإذا حاول أحد منا من هذا الجانب الآخر أن يبذل جهده حتى تشعروا به ، وبأنكم محوطون بعدد ضخم من الشهود فهنا الصراخ والعويل بأن ذلك ضد إرادة الله وأن هــــذه هى الشياطين ، وأن هذا هو الاتصال بالأرواح الشريرة ... فهل أنا شيطانة ، ألست روحاً عادية ؟ هل أفعل الآن أمراً مخالفاً لإرادة الله عندما أوحى إليكم على الدوام بإيمان متزايد فيه ، وبمحبة متزايدة له ولجميع خليقته ، وبالتالى أحاول أن أدنو بكم من الله أكثر فأكثر . إنكم تعلمون أنى أفعل ذلك ، وأن فى ذلك متعتى ودستور حياتى ... »[١]

كما تقول جوليا فى مكان آخر : « إن « أوزون » حياتنا هنا هو المحبة . وإذا كان لديك قدر كاف من المحبة فإن السماء معك حيثما تكون . فصدّقنى عندما أقول لك إنه لا توجد حقيقة أعظم من هذه وهى أن « الله محبة » .. وأكثر ما تختلف السماء عن الأرض تختلف فى ذلك إذ يوجد بها محبة أكثر منها ، وكل حب ينبض به قلب إنسان يجعل الأرض أقرب إلى السماء ...

إن الحب الذى ينتزعك من نفسك ويجعل سعادة الآخرين تهمك إلى المدى الذى يصبح معه الألم والاضطراب مصدراً لسعادة تبحث عنها أكثر مما تبحث عن أعظم المتع — مادامًا لازمين لسعادة المحبوب — هو الحب الذى ينبغى أن يسود فى العالم ...

إن الخطيئة هى — فحسب — انتفاء المحبة . ويمكن للأسى أن ينقلب

---

(١) المرجع السابق ص ٢٠ ، ٢١ .

إلى متعة بمجرد أن تحب ... ولكن الأسى الذى يجىء من حب إنسان أكثر مما ينبغى سببه أنك لا تستطيع أبداً أن تحب إنساناً أكثر مما ينبغى. إنك عادة تحب الآخرين أقل مما ينبغى، والبؤس الذى تشعر به - كما تقول - لأنك تحب إنساناً معيناً أكثر مما ينبغى سببه الحقيق أنك تحب إنساناً آخر اقل مما ينبغى ...

إن الحياة لا يمكن أبداً أن تصبح عقيمة، ولا الوجود عبئاً ثقيلا، كلا يا أعز أصدقائى صدقنى عندما أقول لك إنى مهما علمتك من أشياء، فلاشىء يصح أن يقارن فى أهميته بأن تعلم أن المنفذ السرى إلى السماء هو المحبة. فمن يحيا فى محبة كاملة يحيا فى السماء، والكراهية هى الجحيم، والله مع كل من يحب بقدر ما يحب، لأن الله محبة أما من لا يحبون فلا إله لهم ....».

ثم تقول فى مكان آخر: «إن الله هو الكل فى الكل، وكل ما فيه من كل هو المحبة، ولا يمكن أن تخدم أغراضه بالكراهية والجفاء. آه لو أمكننى أن أجعلك ترى كما نرى نحن هنا كيف لا يحيا حياة حقيقية إلا من يحبون، وكل ماليس من الحب هو بمثابة الموت، وأن الروح التى لا تحب تحيا فى الظلمة الخارجية بغير إله لها، وأن السبيل الوحيد لإنقاذ العالم هو إغراقه فى المحبة ... إذ ليس بكراهية الناس — حتى لخطاياهم — تنقذهم من خطاياهم ...»[1]

ثم تقول أيضاً: «نور الحياة هو الحب... وأولئك الذين لا يحبون إنما يعيشون فى الظلمة الخارجية وفى وادى ظل الموت. الخطيئة تتركز فى الحياة بغير إله أى بغير محبة. وبقدر ما تفكر بقدر ما ترى أن الحب الأنانى ليس هو بالحب، وأن الحب الذى يؤذى المحبوب ليس حباً بل وحشية. والحب الذى يضحى السعادة الدائمة للمحبوب على مذبح إشباع شهوة الساعة ليس حباً حقيقياً، فكل حب يتطلب درجة من ضبط النفس، وهذا يصدق

---

(١) المرجع السابق ص ٤٢ — ٤٩.

على الحب الأسمى كما يصدق على حب الرجال والنساء . فضبط النفس ينبع من الوعى الذى يستبق الحوادث ، والحب الصحيح هو البصيرة النفاذة لكل الأمور»[1] .

أبيات فى المحبة لروح شوقي

ثم استمع إلى روح شوقى وهو يبعث من الخلد ببعض هذه المعانى ببلاغته المأثورة فى قصيدة التصدير قائلا :

نحيا بمملكة التسامح ديننا ... حب طليق للعباد يقسّم
أهواؤنا طيب السلام أريجها ... من عبقها أرواحنا تتنسم
نلنا الوداعة والسماحة منّةً ... ما عاد فينا للطغاة مخيّم

ثم قائلا :

من شاء حبا كالملائك طاهراً ... يرتاد ورداً دون باغ ينقم
وبفيض حبى قد بعثت خواطرى ... ترضى الأريب ومن يتوق ويعلم
فالحب بين الخالدين رسالة ... تهدى الرفاق لكى يفيق النوّم

ومراجع الفلسفة الروحية تفيض بهذه المعانى التى أجمع عليها البحاث الجادون ، كما أجمعت عليها الأرواح الراقية فى كل مقام منذ بدء الخليقة وإلى الأزل .

فى العبادة

وإذا كانت المحبة الإيجابية النامية هى كل شيء هناك، وكانت تلعب الدور الأول فى تنظيم الحياة الاجتماعية فى المستويات الراقية ، فإن التسامح الدينى يبلغ ذروته فى هذه المناطق فتجرى عبادة الله على كل أسلوب ونمط ، وكلما ازدادت الأرواح نضجاً ورقياً كلما خفت حدة الفروق بينها إلى أن تزول تماماً فى المناطق العليا ، فلا تجد إلا النفوس الطيبة من جميع الأجناس والأديان

---

(١) المرجع السابق ص ٥٣ .

وقد جمع الحب والفهم المتبادل شملها وربط بين أفئدتها بأوثق رابطة من عبادة الله فى تقوى وورع حقيقيين بعيدين عن ادعاء تملك الحقيقة المطلقة والفهم الوحيد لناموسه، كما يفعل بعض السطحيين من المتعبدين على هذا المستوى من الحياة الدنيا.

وذلك إلى المدى الذى وصفه سويدنبرج قائلا «إن العقيدة المقدسة حتى فى السماوات ليست فى ارتياد دور العبادة وسماع المواعظ، ولكنها فى العيش فى محبة وفى بر وفى إيمان، ولذا فإن المبانى الدينية لا تسمى فى مملكة السماء معابد بل بيوت الله»[1].

كما أجمعت الأرواح الراقية على تأكيد هذه البديهية الواضحة — حتى على المستوى الأرضى — عند أصحاب العقول النيرة، وهى أن الآراء والأفكار الموروثة — مهما كانت نابعة من الاعتقاد، أو مهما وصلت إلينا تحت راية الاعتقاد — قيمتها الحقيقية هى فى أن تعبر عنها فضائل حقيقية تغذيها العاطفة النبيلة والعقل الحكيم . . . وخارج هذا النطاق يكون «التدين» تغريراً والصلاح غشاً وتضليلا . . . أليس «عدل ساعة فى حكومة خير من عبادة ألف سنة ؟» ولما كان هذا الموضوع برمته وثيق صلة بالمشكلات الفلسفية التى يعالجها علم الروح الحديث ويتصدى لها بحلول واضحة صريحة فلنا لنا عودة تفصيلية إليه فى الباب الخامس.

المبحث السادس

فى الحياة العائلية هناك

لا ريب أن من الأسئلة الهامة التى يثيرها الذهن التساؤل عن نوع الحياة العائلية هناك. وقد تناول عدد من بحاث علم الروح الحديث هــذا الجانب بالعناية التى يستحقها، وتصدى لمعالجته عدد منهم بقدر كاف من الصراحة والوضوح، لاعتقادهم أن فى الصراحة علاجاً للمشكلات وفى الغموض هروباً منها. ومنهم من خصص لهذا الجانب مؤلفات كاملة، ومنهم من خصص له باباً أو أكثر فى مؤلفاته.

(١) المرجع السابق فقرة ٢٢٢، ٢٢٣ ص ١٥١، ١٥٢.

ومن الأمور المتفق عليها أنه كلما كان التآلف موجوداً ومرغوباً فيه كلما أمكن أن يلتئم هناك شمل الأسرة من جديد . وكلما رغب اثنان من الجنسين فى العيش تحت سقف واحد فى عروة وثقى من المحبة والولاء ، وعلى أساس من انسجام وتقدير متبادلين بينهما ، كلما كان لهما ذلك .

وهذه الصلة الراقية يمكن أن نسميها « شركة روحية » أو « معيشة مشتركة » أو « صلة عائلية » أو ما شئنا من الأسماء ، ولكن مقابلها الأرضى الذى نعرفه هو « رابطة الزوجية » ، وإن كانت تجرى هناك على صورة أرق منها وأرقى ، لأن مستوى الوجود وكل مظاهره هناك أرق من مستوانا وأرقى ، برقى المشاعر والانفعالات ، بل برقى العقول والملكات ، فضلا عن رقى الملامح والأشكال .

وسنعالج فى هذا المبحث السادس هذا الموضوع الهام وهو موضوع « الحياة العائلية » فى عالم ما وراء المادة ، وبخاصة المستوى الثالث أو « السمرلاند » معتمدين على عدة مصادر من بلاد شتى ومستمدين كتابتنا من بحوث علمية لا خيال فيها جرت — ولا تزال تجرى — فى نطاق هذا العلم الروحى الناشىء الذى جاوز دور المهد ، وأخذ الآن يقفز قفزات سريعة للأمام تثير الاستغراب وتحير الألباب . . . من ناحية مكانة الهيئات العلمية القائمة عليه وانتشارها فى كل مكان والأسماء الضخمة التى تساهم فيه ، والنتائج البعيدة المدى التى وصل إليها ، والتى جاوزت فى تقدير الثقاة كل ما كان يمكن توقعه منذ عهد ليس ببعيد .

وسنخصص لهذه « الحياة العائلية » أربعة مطالب على النحو الآتى :

المطلب الأول : من أقوال سويدنبرج (فيلسوف السويد والوسيط الشهير) فى شأن هذه الحياة هناك .

المطلب الثانى : من أقوال بعض الأرواح فى هذا الشأن .

المطلب الثالث : من تجارب الباحثة مارجرى لورنس فى هذا الشأن .

المطلب الرابع : تلخيص لنتائج البحاثة الأيرلندى الكبير شو دزموند .

المطلب الأول

من أقوال سويدنبرج
فى شأنه الحياة العائلية هناك

فى شأن الصلات العائلية يتحدث الفليسوف الوسيط سويدنبرج قائلا « لأن سكان السماء من النوع الإنسانى ، وهم من الجنسين معاً ، ولأن المرأة للرجل منذ بدء الخليقة كما أن الرجل للمرأة ، ولأن هذا الحب فطرى فيهما ، من هذا يتضح أن الزواج موجود هناك كما هو موجود على الأرض ، لكنه يختلف كثيراً هناك عنه هنا . فإن الزواج فى السماء عبارة عن اتحاد جزئين فى عقل واحد يسمى أحدهما الذكاء والآخر الإرادة ، فالزوج يقوم بوظيفة العقل حين تقوم الزوجة بوظيفة الإرادة .

فإذا ما حدث هذا الاتحاد بين العقل والإرادة شعر به كل منهما حباً هو الحب الزوجى ، والذى يسمونه هناك المعيشة المشتركة ، والتى يقال فى وصفها إنهما لا يعتبران هناك اثنين ، بل شخصاً واحداً .

وهذا الاتحاد أمر لازم بحسب الطبع والميل الفطرى فى كل منهما ، بل أيضاً بحسب الشكل الخارجى . فبحسب الطبع نجد أن الرجل يتصرف بوحى من العقل ، أما المرأة فبوحى من العاطفة . وبحسب الشكل نجد وجه الرجل أكثر خشونة وأقل جمالا وعنده القول أكثر خطورة والجسد أقوى بنياناً ، حين أن المرأة تملك وجهاً أكثر رقة وجمالا ، وعندها اللفظ أكثر نعومة والجسد أكثر مرونة . ويوجد فارق مماثل بين الذكاء من جانب والإرادة من جانب آخر وبين الفكرة والعاطفة . كما يوجد فارق مماثل بين الحق والخير وبين الإيمان والمحبة ، لأن الحق والإيمان ينتميان إلى الذكاء حين ينتمى الخير والحب إلى الإرادة .

وإذا كان الذكاء والإرادة متوافرين عند الرجل والمرأة معاً ، إلا أنه

عند الرجل يسود الذكاء وعند المرأة تسود الإرادة . فالكائن الإنسانى ينتمى إلى أحد النوعين بحسب ما يسود لديه من أحدهما .

أما فى السماوات فلا توجد سيادة لأحد الطرفين على الآخر ، لأن إرادة الزوجة من إرادة زوجها ، كما أن عقل الزوج من عقل زوجته لأن أحدهما يحب أن يريد وأن يفكر كالآخر ، ومن هنا جاء اتحادهما فى واحد ... فإذا كان بينهما اتحاد فى العقول ، وهو الذى يصنع الزواج ويولد الحب الزوجى فى السموات ، فإن كلا من الزوجين يرغب فى أن يعطى زوجه ما يملكه من عقل أو من إرادة ...

وبقدر ما يوجد اتحاد فى العقل وفى الإرادة فإنه يوجد أيضاً اتحاد فى الحق وفى الخير ، لأن العقل يتلقى من الخالق الحق المقدس كما تتلقى الإرادة الخير المقدس . . . فإذا أراد الإنسان أمراً كانت الإرادة له خيراً ، وإذا تعقل أمراً كان التعقل له حقاً . ومن هنا ينتج القول بأن اتحاد العقل مع الإرادة هو فى نفس الوقت اتحادللحق مع الخير . وهذا الاتحاد هو الذى يصنع من الإنسان ملاكاً ، كما يصنع الذكاء والحكمة ونعيم الملاك . لأن الملاك ملاك بقدر ما يغذيه من خير متحد مع الحق ومن حق متحد مع الخير . أو هو ملاك بقدر ما يغذيه من حب متحد بالإيمان ومن إيمان متحد بالحب .

وعند مايريد الإنسان ما يريده الآخر ويحبه كان كل منهما حراً ، لأن الحرية تنتمى إلى الحب . فلا توجد حرية لأى منهما عند ما توجد سيادة ، فالمسود يصبح عبداً لسيده كما أن السيد يصبح أيضاً عبداً لشهوة السيادة . ولكن ذلك لن يفهمه أبدا من لا يفهم كيف تكون حرية الحب السماوى . فإذا ما تدخلت السيادة حدث الانقسام . لأن السيادة تنفى الإرادة وتتعارض معها ، ومن لا يملك الإرادة لا يملك الحب ، وإذا ما تعارضت السيادة مع الإرادة حلت الكراهية محل المحبة .

فأولئك الذين يعيشون فى زواج كهذا هم فى تصادم وصراع متبادل، كصراع النقيضين، حتى ولو حافظا على المظهر الخارجى هادئين فى خدمة السلام، ولكن صراعهما الداخلى يظهر بعد الموت، فإذا اجتمعا معاً فبحكم الاعتياد فقط ولكنهما يتصارعان كعدوين، ويتصرف كل منهما بحسب شعوره الحقيقى . . . أما فى الحياة الأخرى فتترك لكل إنسان حريته الداخلية، أما المظاهر الخارجية التى كان يحافظ عليها الزوجان على الأرض لأسباب شتى، فلا يعود أحد منهما يتمسك بها. وقد يوجد عند البعض نوع من التظاهر بالحب الزوجى، ولكنهما ما لم يتحدا فى حب الخير والحق فلن يكون ذلك أبداً حباً زوجياً .

كما يقول سويدنبرج أيضاً إن الزواج فى السماء يختلف عن الزواج على الأرض فى أن وظيفة هذا الأخير هى بالأكثر إنجاب الأولاد، أما وظيفة الزواج فى السماوات فهى إنجاب الخير والحق، لأن الزواج هناك اتحاد للخير وللحق كما بينا، إذ فيه يحب كل إنسان فوق كل شىء آخر الخير والحق واتحاد الخير مع الحق . .

ومن ذلك يبين واضحاً أن الزواج فى السماء لا يماثل الزواج على الأرض، ففى السماء توجد أفراح روحية لا ينبغى أن نسميها أفراحاً بقدر ما نسميها اتحاداً للعقول بزفاف الخير للحق، أما هنا فنسميها أفراحاً لأنها متعلقة بالأجساد لا بالأرواح فحسب . والروحان المتحـــدان هناك لا يطلق عليهما وصف زوج وزوجته بل كل منهما يسمى شريكاً، أى المقابل للطرف الآخر . وعلى هذا النحو ينبغى أن نفسر أقوال السيد المسيح عن الزواج . . .

والأرواح عندما تسمع كلمة « زنا » تفر هاربة . فالإنسان عندما يرتكب الزنا للمتعة يغلق فى وجهه أبواب السماء، وإذا أغلقت أبواب السماء أغلق فى وجهه الاتصال بالله والإيمان به . . .

ومن ثم كان الميل للزنا ميلا لتحطيم اتحاد الخير بالحق الذى تصنعه السماء ، وكان هذا الميل هو الميل الجهنمى الذى يقع على النقيض من نعيم الزواج الذى هو نعيم السماء .

ومن ثم يقرر أن انتهاك حرمة رابطة الزوجية يغضب القوانين الالهية ، كما يعد انتهاكاً للقوانين المدنية فى جميع الممالك ، فهو مضاد للضوء الحقيقى المنبعث من العقل لأنه ليس فقط ضد النظام الذى وضعه الله بل هو أيضاً ضد النظام الذى وضعه الإنسان ، كما يقرر بأنه لما كانت كل حرية إنما تجىء من ناحية الحب فإن أعظم الحريات قاطبة تجىء من ناحية الحب الزوجى الذى هو الحب السماوى نفسه[١] . . .

* * *

وفى هذا الشأن يتحدث أيضاً الأستاذ موريس ماجر Maurice Magre قائلا ما مقتضاه إن العفة لاغنى عنها لمن يريد أن يرى أبعد مما يسمح به النظر العادى للعينين الفيزيقيتين ، ولمن يريد أن يحوز ظواهر آتية من ناحية قدرة مرتفعة نوعاً . فإن الشهوانية تخلق عوامل اضطراب الحياة التى تصيب من أوجدها ، وتصنع جواً كثيفاً يملأ حياته ويعزله عن الأرواح الراقية .

وضبط النفس عبارة عن عملية مبادلة مع الطبيعة لا خسارة فيها على صاحبها ، إذ ينبغى التنازل بمقتضاها عن بعض المتع حتى يمكن الحصول على متع أخرى أسمى وأغزر . والتجربة تثبت أنه لا يمكن لأى إنسان أن يتذوق جميع المتع فى وقت واحد ، بل تنبغى المبادرة بتضحية المتع السفلى للحصول على المتع العليا .

وهذه التضحية سهلة من ناحية المبدأ . ولكن تحقيقها من الصعوبة بمكان . وإذا ما وضعنا ذكاءنا فى مواجهة هذا الصراع فإنه بمقدورنا أن

(١) عن « الفردوس والجحيم » : المرجع السابق فقرة ٣٦٦ ص ٢٦١ إلى فقرة ٣٨٦ ص ٢٧٥ .

فسيطر على أفكارنا ، حتى وإن تعذر تغيير جسد الشهوة الكامن فينا والذى تفلت منا طبيعته .

إلى أن يقول أيضاً إن أكبر خطر يتهدد الإنسان هو الاندماج التام بين الروح وبين جسد الشهوة . لأن هؤلاء « المندمجين » سيعانون من عملية انتزاعهم من شهواتهم آلاماً لا يمكننا أن نقدر مداها . ومن يدرى فقد تكون العاطفة أو الحب الرقيق مجرد فخ يدفع إلى هذا الاندماج الخطر بين الشهوة وبين الروح ، وما أسعد الإنسان الذى — بدلا من تقديس الجسد — لا ينظر إليه إلا باعتباره مصدراً لمتعة عابرة تعرف الروح كيف تظل بمنأى عنها ، فلا تسمح لنفسها بأن تصبح أسيرة هذا الجسد[١] .

المطلب الثانى

من أقوال بعض الأرواح
فى شأن الحياة العائلية هناك

تقول فى شأن الحب والزواج السماوى جوليا Julia الروح المرشدة لسير وليام ستيد « إنهم هنا لا يزوجون ولا يتزوجون ولكننا كملائكة فى السماء فى مقدورنا أن نختلط وأن نتحد بأى كائن تتوافق اهتزازتنا مع اهتزازاته بقدر ما يطول هذا التوافق . إن نشوة هذا الاتحاد تتجاوز نشوة الحب الجسدى على الأرض لأن نطاق الجسد الإنسانى يتجاوز ذلك الجزء منه المعد للإنجاب .

فلا توجد قيود هنا على حرية الحب ، وإذا كان أى شخص يصل إلى هنا يجد أنه غير قادر على الترنم فى انسجام إلا مع من كان زوجاً له على الأرض فيمكنهما أن يكرس كل واحد منهما نفسه للآخر كما كان يفعل كلاهما على الأرض ، ولكننا لا ننظر إلى هذه الأنانية من الاثنين بوصفها تمثل أعلى مراحل التطور . نعم إن الجنس يستمر هنا . ولكن الجنس شىء أعمق

(١) عن مؤلفه Les Interventions Surnaturelles (1939) ص ١٠٧ـ١٠٩

من الأعضاء التي يعبر بها عن نفسه مؤقتاً على الأرض»(١) .

* * *

وفي نفس هذا الموضوع تتحدث الروح نعومى المرشدة للوسيطة راتيجان قائلة : « إن الزواج اتحاد يقوم على الحب . . . وهناك قوة علوية تبارك حقاً اتحاد المحبة ، ولا يمكن أن ينكر هذا إنسان ذاق حياة من هذا النوع . أما إذا كان الاتحاد خالياً من الحب فإنه يكون مسألة قد تساعد أو لا تساعد كلا من الاثنين .

إلى أن تقول : إن الرجال والنساء معاً توأمان من خالق الله جل وعلا، جاءا إلى الأرض وسوف يذهبان إلى عالم الروح ليتحدا في هيئة فرد واحد لا اثنين . إنها حالة جديدة للخالق وسوف تكون هامة بالنسبة لكم عند ما تأتون إلى هنا .

قد يظن بعض الناس أننا الناس القدماء قد نسينا الأرض (إذ ولدت هذه الروح في الكرة الأرضية سنة ١٠٠٩ قبل الميلاد كما قالت) . آه لا . لقد كانت الأرض مهدنا ولن ننسى أبداً من حياتنا الأرضية تلك الحوادث التافهة التي كانت في الواقع علامات ساطعة في طرق تقديرنا للحياة .

« إن الطهارة لازمة لكل امرأة تريد خدمة إلهها ، وأود أن أقول : ـ

١ — إنكن تردن أن تحببن والله يقول «يخلص الرجل في دنياكم بواسطة حب إمرأة تكون شريكة للرجل أو توأماً له ، بالنفس والروح .

٢ — لا يمكن لإمرأة استمعت للصوت الداخلي الخافت أن تخطىء لأن الله يمنحها الكمال .

إلى أن تقول « الحب بركة إلهية والنساء اللائي كن طاهرات محفوظات في الأرض سوف يكافئهن العلي على بقائهن وحيدات محرومات من العلاقة

---

(١) وهذه آخر رسالة بعثت بها جوليا وهي مؤرخة يوم الأحد ١١ أكتوبر سنة ١٩٠٨ الساعة ١٠ و ٢٥ دقيقة ليلا ، فقد كان ستيد دقيقاً في تحديد تواريخ الرسائل وساعات وصولها .

الجنسية وسوف يصبحن فى مكان على فى مملكة الله . . وقد يدهش بعض المتزوجات إذا قلت لهن إن النساء اللاتى عرفن الحب والصدق ليس لهن من حاجة إلى العودة إلى الأرض كيما يبحثن عنه ثانية ، وسوف يستمررن فى التقدم فى عالم الروح ، أما اللاتى لم يجدن الحب فى الأرض فسوف يسألن عنه كيما يمنحنه فى عالم الروح .

وعلى هذا بمعرفتكن لقوانين الله والإنسان حاولن أيتها النساء أن تساهمن مع أنفسكن الحقيقية ومع الخالق ، فإن الأرض هى بداءة الرحلة الأزلية للبحث عن الله .

ولينزل السلام على قلوبكن ، فالنظرة العقلية والروحية الجديدة سوف تحميكن من شرور الإنسان فى الأرض . الحب سماوى وقد أعطيته المرأة التى ترجمته للرجل كيما تنقذه من الهاوية . . . »(١) .

المطلب الثالث

من تجارب مارجرى لورنس
فى شأن الحياة العائلية هناك

تتحدث الباحثة الروحية السيدة مارجرى لورنس Margery Laurence عن نتائج بعض تجاربها الخاصة فى شأن الحياة العائلية هناك(٢) قائلة إن زيجات كثيرة تتم على المستوى الأرضى بدافع غير دافع الحب الصحيح لكنها مع ذلك لا تخلو من فائدة لكل من الزوجين وهى الدراسة المتبادلة لدروس الحياة وللتعاون، ولتبادل مجرد الصداقة بينهما ولإنجاب أولاد ، قد يفيدهم هذا النوع من الصلة بين الوالدين . ولكن عند الانتقال إلى الجانب

---

(١) ترجمة الدكتور على عبد الجليل راضى فى كتاب « أرواح مرسلة » ص ١٠٠–١٠٣ .
(٢) فى كتابها عنوانه « ماهى هذه الروحية ؟ » What Is This Spiritualism? ص ٤٤ وما بعدها .

الآخر من الحياة يتقابل هذان الزوجان لا كزوج وزوجة ولكن كصديقين وفيين فحسب تقاسما معا تجربة مفيدة لهما ، كما يتقاسم مثلهما أى صديقين على الأرض .

ولكن هذان الصديقان سيدركان على الجانب الآخر أن رابطة الزوجية التى جمعتهما فى وقت ما على الأرض — رغم أنها كانت جميلة ومرضية إلى حين — لكنها ليست من النوع الخالد ، وكل واحد منهما عليه أن يجد إن عاجلا أو آجلا توأم الروح على ذلك الجانب الآخر من الحياة . ولأن المزيد من النضج يعطى الإنسان مزيداً من الفهم فإنه لا يمكن لشخصين على الجانب الآخر أن يحبا نفس الشخص بنفس الكيفية . أما على هذا الجانب المادى من الحياة فقد تعودنا أن نخطئ الآخرين ونخلط فى نفس الوقت بين الحب الصحيح وبين سائر الانفعالات الأخرى .

كما تتحدث المؤلفة عن تجربة واقعية لها تبين كيف أن فهم الحب يصبح أوسع أفقاً وأكثر تسامحاً عند بعض الأرواح عندما يصل إلى الجانب الآخر ، وكيف أن الإنسان أنه قد يتخلى عن غيرته الأرضية وشهواته كيما يهمه فحسب أن يرى أن محبوبه القديم يعيش فى أمن وفى رعاية ، فتقول إن ضابطاً بحرياً (ولنسمه لايتون Layton رغم أن هذا ليس اسمه الحقيقى) تزوج منذ عام أو عامين سابقين على انتقاله إلى عالم الروح ، ثم غرق أثناء الحرب العالمية الثانية . وبعد وفاته بعام واحد تزوجت أرملته من رجل كان منافساً من قبل لزوجها السابق فى طلب الزواج منها ، وكان زوجها السابق بالتالى شديد الغيرة منه . فأغضب هذا الزواج بطبيعة الحال حماتها السابقة (أم لايتون) واعتبرته إساءة كبرى لذكرى نجلها العزيز الراحل .

وهنا تقول المؤلفة إنها أثناء جلسة مع وسيطة معينة لأمور بعيدة عن هذا الموضوع الذى لم يكن أحد من الحاضرين يعلم عنه شيئاً ، قالت المرشدة للوسيطة إن ضابطاً بحرياً غريباً عن الموجودين يدعى الكولونيل لايتون شديد الرغبة فى الاتصال بوالدته كيما يبلغها رسالة معينة بخصوص هذا الزواج

الذى سبب لها غضباً وألماً شديدين ، وطلب منها أن تبلغ والدته أنه موافق على هذا الزواج ، رغم أنه لا يزال مغرماً بزوجته التى تركها على الأرض ، ولكنه تحقق الآن بأنها كان ينبغى أن تتزوج من منافسه السابق لأنه كان مناسباً لها أكثر منه ، وأنه عندما تغلب عليه فى الزواج منها قد أساء إليهما ، وأنه الآن يريد أن يرى الأمور توضع فى نصابها الصحيح ، وأنه يرى أن زوجته الآن تجد السعادة والرعاية فى ظل هذا الحب الجديد .

ثم أضاف لايتون فى رسالته « وبالطبع لم يحدث هذا التحول عندى بغتة فقد تعودت أن أكره بيل Bill (اسم منافسه) كالسم ، ولعلنى كنت أقتله لو حاول الاقتراب من زوجتى ، ولكنى عندما فهمت الأمور أكثر مما كنت أفعل أدركت أنه فتى طيب القلب ، ولم تعد بى غيرة نحوه ، بل أريد فحسب أن أراها سعيدة » . كما أضاف لايتون أنه عندما تحول هذا التحول أخذ يرجو الأرواح المرشدة التى قابلها هناك كيما تحاول أن تؤثر فى منافسه هذا ليكتب إلى أرملته خطاباً مقترحاً أن تقابله ، وبذلك استيقظت العاطفة القديمة فى قلبيهما ، وتم الزواج برغبته .

وتقول لورنس إن عدة حوادث من هذا القبيل قد مرت بها أثناء بحوثها الروحية ، وأنها صادفت أزواجاً كثيرين منتقلين كانوا يرجون من أراملهم على الأرض أن يتزوجن ثانية ، ومن عشاق كانوا يحاولون التأثير فى عشاقهم بأن يشغلوا الفراغ الشاغر فى قلوبهم ، أو يحاولون إقناعهم بألا يتعلقوا بإحساس خاطىء باحترام ذكراهم ، أو بألا يتصوروا خطأ بأنهم سيعتبرون ذلك من صور عدم الوفاء لهم .

وليس معنى ذلك مطلقاً أن كل الأرواح عندما تنتقل إلى هناك تتخلى عن أنانيتها أو غيرتها فوراً ، بل قد يظل عدد منها متمسكاً بنفس مشاعره القديمة فيتألم منها آلام الإنسان المريض العقل والنفس إلى أن يصل إلى مرحلة من التطور تسمح له بأن يفهم الآخرين ويحسن معاملتهم ، وقد يحتاج ذلك

إلى عدة سنين ولا يوجد له إلا الصبر فى الصبر ، وتفهم قانون المحبة ، الحل الشاق لكثير من المشكلات ...[١] .

المطلب الرابع

شو دزموند العالم الأديب

يعالج موضوع الحياة العائلية هناك

تحدثنا فى الجزء الأول عن الأديب الإرلندى الكبير شو دزموند Shaw Desmond ، وعن بحوثه الروحية ، بما يغنى عن التكرار هنا[٢] ، ويكفى هنا أن نقرر أنه من كبار مؤسسى « المعهد الدولى للبحث الروحى » بلندن ، وأنه طالما حاضر فى هذه الموضوعات فى جامعتى كامبريدج واكسفورد وفى عدة جامعات خارج بريطانيا فى أمريكا واسكندناوة وغيرهما . وقد انتقل إلى عالم الروح منذ سنوات قلائل بعد أن بلغ من العمر عتياً ، وله فى معالجة موضوع الحياة العائلية هناك عدة جولات . ورد بعضها فى مؤلفه « كيف تحيا عندما تموت » وورد أغلبها فى مؤلفه عن « الحب بعد الموت » .

وبالنظر إلى قيمة الكاتب وقيمة كتبه من الناحيتين العلمية والأدبية ، وصدق تحليله للحياة العاطفية بين الرجل والمرأة هنا وهناك ، إلى المدى الذى لا يضارعه — فى نطاق البحث الروحى — أى باحث آخر ، لذلك نسمح لأنفسنا أن نمر فى كثير من الأناة على نتائج بحوثه التى دامت لعشرات من السنين — كما يقول — فى « معمله الروحى » وخارجه فى شأن هذا الموضوع الهام ، وهو محاولة رسم صورة تقريبية لأسلوب العلاقة بين الجنسين وطبيعتها فى عالم ما بعد المادة .

وفى عرضنا لآرائه سنتوخى الدقة فى المحافظة على المعانى قبل التقيد

---

(١) المرجع السابق ص ٤٨ .

(٢) فى ص ٢٤٨ ، ٢٤٩ .

بحرفية الألفاظ ، فستكون طريقتنا فى هذا الشأن أقرب — احياناً — إلى طريقة العرض والتلخيص منها إلى طريقة الترجمة الحرفية ، وذلك حتى نصل إلى اعطاء القارىء صورة واضحة وشاملة عن اتصالاته بالأرواح مضافة إلى آرائه الخاصة فى الحياة العاطفية وفى الزواج ، غير مرتبطين من جانبنا بشىء منها ، ولكن بغير أن نغفل الإشارة إلى أن فى آرائه كثيراً من النظرة الفاحصة لحقائق النوازع الإنسانية .

وفيها أيضاً كثير من الفهم الصحيح لطبيعة العلاقات بين الجنسين ولخطورة أثرها فى إسعاد أيهما أو فى اشقائه . ولذلك وحده فهو يضع العاطفة العميقة النقية فى المقام الأول ، ويصل بذلك إلى نتائج هامة كثيرة لا يسع المنصف إلا تقديرها . والقارىء سواء اقتنع بها أم لم يقتنع سيجد أنه قد خرج بحصيلة وافرة من المعرفة المعروضة بطريقة مفرطة فى تشويقها وفى اجتذاب انتباهه كما سيلحظ بنفسه .

وسنعرض ابتداء بعض بيانات محدودة عن مؤلفه « كيف تحيا عندما تموت ؟ »(١) ، ثم نعرض بياناً لعدد كاف من صفحات مؤلفه عن « الحب بعد الموت »(٢) .

عن مؤلفه « كيف تحيا عندما تموت » ؟

يقول الأستاذ دزموند فى بعض صفحات مؤلفه هذا — وهو بحث عام يتناول عدة جوانب من حياة ما بعد المادة يصلح بحسب رأيه ليكون مرشداً يتزود به الإنسان قبل الانتقال ، كالمسافر إلى مدينة كبرى عندما يخشى أن يتوه فى شوارعها وفى غمرة حياتها الزاخرة بأسباب الحياة —

---

(١) How You Live When You Die.

(٢) Love After Death.

إن كل روح مرشدة عظيمة «تحادثت» إليها — وبغير استثناء — على اتفاق فى شأن الحياة الجنسية على النقاط الآتية : —

أولا : أن الحب باق حتى فى معناه الإنسانى إلى ذلك المستوى الثالث من مستوانا الأرضى .

ثانياً : أن العاشقين على مستوانا الأرضى قد يكونون أحياناً — ولكن ليس دائماً — هم نفس العاشقين هناك ، وأن العشاق الحقيقيين عندما يغادرون الأرض يرتبطون معاً فى المستوى الثالث فيحلقون بطريقة غريزية — إذا صح هذا التعبير — على نفس «المستوى الاهتزازى» المتبادل بينهما .

ثالثاً : أنهم هناك «لا يزوجون ولا يتزوجون» كما قال السيد المسيح لأنه لا توجد طقوس للزواج بالمعنى الأرضى الذى يقتضى أنه «حيث لا طقوس فلا زواج» . ولأن العشق الجنسى بين الرجال والنساء لا ينبغى أن ينظر إليه كشىء حميد وجميل إلا إذا باركه الحب المتبادل بينهما . فالحياة المشتركة على أسلوب جنسى منفصل عن صلة العلاقة العذرية بين المتزوجين بعد ذهاب الحب ينبغى أن تعتبر بمثابة «دعارة زوجية» كما « ذكرت » مرة فى محاضرة لى فى كوين هول (قاعة الملكة) . وفى كلمة إن الزواج الحقيقى الوحيد كما تقول الأرواح هو توافق الاهتزاز الزوجى الذى هو عبارة عن تفاهم وتعاطف اهتزازى متبادل ، ليس فحسب على مستوى الأجساد بل على المستويين العقلى والروحى أيضاً .

رابعاً — أن هناك اختلاطاً معيناً لاهتزازات العشاق على المستوى الكوكبى تقابل الاختلاط الجنسى هنا ، لكنه اختلاط أسمى وأرفع بكثير من كل اختلاط نعرفه على الأرض . . . .

خامساً — أن اختلاط الرجل والمرأة على المستوى الأرضى أو

الأثيرى الذى هو اتصال غامض بينهما a mystical communion يستهدف ابتداءً أهدافاً روحية وأثيرية ، أما مجىء الأولاد فهو أمر عارض .

سادساً : وأخيراً — أن الأولاد ينمون على المستوى الكوكبى كما ينمون هنا ، وأن لكل واحد وواحدة منا أحباءه الذين سيجدهم بعد العبور إلى هناك ، وأن القول بأن « زيجات الأرض من صنع السماء » يمثل حقيقة حرفية . بمعنى أنها ليست الطقوس هى التى تصنع الزيجات الحقيقية ، بل هى العاطفة الروحية ، إذ أن الحب والحب وحده هو الذى يصنع الزواج على ما قال لى مراراً سكان العالم الكوكبى .

ففى ١٠ نوفمبر سنة ١٩٣٣ وفى حضور الدكتور طمسون Thompson وطبيب له خبرة روحية خاصة ووسيط روحى وأحد الاقتصاديين ورئيس هيئة دينية وجهت عدة أسئلة عن الجنس إلى شخص منتقل كان صديقاً لجميعنا وأظهر نفسه فى هذا اليوم فقال : « كل شبيه منجذب إلى شبيهه فى العالم الكوكبى كما فى كل عالم آخر . . . وأن هذا هو كل ما عناه السيد المسيح عندما تحدث قائلا إنهم « لا يزوجون ولا يتزوجون فى السماء » لأنه الحب والحب وحـــده بين الرجل والمرأة هو الذى يمكنه أن يصنع الزواج الصحيح . . . .

ثم قالت الروح « إن شجار الزوجين على الأرض لا يعنى بالضرورة أن أحدهما لا يصلح للآخر ، فقد يعزى الشجار إلى تصادم شخصيتين قويتين . ومثل هذه المشاحنات ليست شراً بذاتها وإن كانت تحول دون إحساس الطرفين بهذه السعادة الغامرة التى قد تمنع بدورها كل تقدم مستقبل فى العقل والروح . إن السعادة إذا كانت من النوع الخاطىء قد تكون أشد خطراً على الروح من التعاسة التى كثيراً ما تكون عبارة عن الإنقاذ الدنيوى لها ...

ثم أضافت الروح قائلة « إن الخلافات الزوجية عندما تكون جدية حقيقة تعزى غالباً إلى اختلاف فى مدى التطور عند الطرفين . . . إن الرجال

والنساء يتزوجون عادة على الأرض بسبب إحساسهم بتجاذب الأجساد ، فبعد إشباع الجسد لا يتبقى تجاذب عقلى ولا روحى للإبقاء على رابطة الزوجية . ومع ذلك فلا ينبغى إضعاف قيمة تجاذب الأجساد (أو التوافق الجنسى) فإن له أهمية قصوى ، ولكن فحسب عندما يقترن بتعاطف العقل والروح ... »

ثم يقول دزموند ما معناه إنهم هناك يتعانقون ويقبل بعضهم البعض ، وأن الاتصال الجنسى الأثيرى ليس خيالا بل حقيقة واقعة ، غاية ما هناك أنه يصبح اتصال أرواح بعد أن كان اتصال أجساد ، وأن الأرواح تعرف طريقها أفضل من الأجساد ، واختلاط الأرواح هو مقدمة السمو القدسى للحب على الأرض ، وأن هذا الاتصال إن هو سوى اندماج كلى فى مجرى كونى للحياة يبدو أنه موجود خارج الأرض .

كما يقول إنه يدعو كل رجل أو امرأة فشل فى حبه على الأرض ألا ييأس فقد يقابل فى العالم الآخر من أحبه ويتصل به ، لكن بشرط ألا يكون هذا الحب عبارة عن نزوة طارئة للجسد ، بل ينبغى أن يكون حباً روحياً من هذا النوع الذى يعنى أن صاحبه إنما يبحث عن توأم النفس ، فمثل هـــذا العاشق ليتأكدن تمـاماً أنه سيقابل يوماً من أحب كيما يرتبطا معاً برباط وثيق ...

ويقول أيضاً إن الاقتران فى العالم الكوكبى يقوم على أسس مختلفة تماماً عن أسس الزواج على الأرض . فهناك اقتران يحدث على أساس من تقارب المستوى الاهتزازى ، أى مستوى الذوق والحياة والفكر ، ولكن ماذا نعنى بالزواج الاهتزازى Vibrational marriage ؟ . إننا نعنى أن الإنسان يعرف من اهتزازات هالته التى تبين مستوى صاحبها على سلم الحياة فهم يعلمون أن لكل إنسان « طول موجة » أى سرعة اهتزاز توضحها الهالة والتشابه فى طول الموجـــة هو الذى يجعل — حتى هنا على المستوى الأرضى — شخصاً من جنس معين يبدو فى نظر شخص من الجنس الآخر

جميلا وجذاباً . وذلك سواء فيما يتعلق بالمستوى الجسدى أم العقلى أم الروحى[1].

« ولست أعنى مطلقاً أن الزواج الناضج يجىء من التطابق التام والرضى المستمر أو الخضوع ، بل إنه فى الزواج كما فى كل رابطة ناجحة أخرى لا بد من وجود فروق . فإن الرجال والنساء مخلوقات مختلفة تماماً ، ولكل من الفريقين اتجاهات مختلفة فى التفكير وفى التصرف . ومن احتكاك هذه الاتجاهات على مستوى عال وبين أنداد يتمتعون بشخصيات متحررة يولد التطور كما يولد الأطفال من فراش الزوجية . وإذا سلم الرجال والنساء بهذه الفروق الجوهرية بينهم قلت أخطاؤهم وقلت فرص الزواج غير السعيد بينهم . . . »[2].

عن « الحب بعد الموت »

وفى مؤلفه عن « الحب بعد الموت » يطالب شو دزموند قارئه أن يقرأه قراءة نقد لا قراءة تصديق، لأنه يعترف بضآلة ما نعرفه عن العوالم الرباعية الأبعاد التى تلى الموت ، وإنما تكون المعرفة عن طريق الإقرار المتواضع بالجهل ، كما يكون عن نفس الطريق الارتفاع عن هذا الكوكب الأرضى الضئيل الضائع هو نفسه وسط الأبدية . ومع ذلك يقرر أنه مقتنع بأن الصورة التى رسمها فى مؤلفه عن الحب والزواج فى العالم الكوكبى صحيحة فى أساسها ، ولكن للحق أوجه متعددة ، وبقدر ما يواصل علماء الروح دراساتهم فى الجامعات فإن الحقائق الباهرة — بقدر نموها — ستلقى أضواءها مبددة جوانب البهتان .

كما يقول إنه لا يعنيه إثبات وجود حياة كوكبية ولا حياة تلى موت الجسد ، لأنه يعتبر أن ذلك قد ثبت نهائياً وإلى الأبد ، ولكن تعنيه وجهة

---

(١) راجع ما سبق عن الجسد الأثيرى والهالة فى الجزء الأول ص ٤٢٧ — ٤٥٥ .

(٢) طبعة خامسة ص ١١٨ — ١٤٢ .

النظر الكوكبية عن الحب فى كل صـــوره ونشاطه ، سواء أكان جنسياً أم عبارة عن مجرد هذه « الرفقة العظمى » التى يعبر عنها قولنا إن « الله محبة » والتى سيعرض خلالها للصلة الإنسانية بين العشاق، وبين الأب وولده والفرد والأسرة .

ويقول إن هذه المعلومات ثمرة عدة مراحل من الدراسة والتأمل فى « المعمل الروحى » وفى غيره . وبعضها خلاصة مجهودات شاقة قام بها بعض رجال العلم من ذوى الخبرة والمعرفة . وعندما يكتب من محض الخيال أو من محض الرغبة فى الربط بين المعلومات فإنه يقرر ذلك صراحة. أما عندما يكتب عن اتصالاته المباشرة وغير المباشرة بذلك العالم الذى ستذهب إليه الأغلبية من بيننا فإنه يقرر ذلك أيضاً . ومع ذلك فقد لاحظ مراراً أن ما اعتقده مجرد خيال لازم للربط بين بعض المعلومات كان تأثيراً يجىء أحيانا عن طريق مرشديه وأصدقائه فى العالم الكوكبى، إلى حد أنه وصل إلى الاعتقاد بأن حتى الرجال والنساء العلميين قد يجدون أن ثمة سبيلا للوصول إلى الحقيقة غير العقل والمنطق ، فقد يأخذ الإلهام بيدنا أحياناً إلى الحقائق المقدسة .

وإنه لا يعنيه كثيراً الوقوف عند انتقادات الماديين غير المطلعين على الموضوع سواء أكانوا من رجال العلم أم من غيرهم ، فقد وصل بعد سنين طويلة إلى الاقتناع بأنها ليست الكلمات وحدها ، بل الوقائع أيضا قد تعنى أشياء مختلفة عند أناس مختلفين ، وأنه ما لم يصل الكائن الإنسانى إلى مستوى معين من سلم التطور الروحى فإن نظرته إلى هذه الأمور التى يعالجها فى صفحات مؤلفه هذا لا ينبغى أن يحسب لها كبير حساب . لأنه إن كان من أمر قد برز خلال قرن كامل من البحث الروحى فهو أنه ما لم تصل نفس الإنسان إلى مرحلة معينة من التطور يصح وصفها بأنها «مرحلة الاشتعال» ignition فإن البينات — مهما كانت قوية — لن تكون فى متناول العقل ولن تعنى

شيئاً بالنسبة له ، بل سيكون عرضها عليه كعرض مشكلة رياضية عويصة على طالب فى المرحلة الابتدائية لأخذ رأيه فيها .

وفى فصول الكتاب الأولى يعالج المؤلف مشكلات الحب والزواج قبل الموت كيما يجعل منها تمهيداً ملائماً لتناول نفس المشكلات من زاوية عالم ما بعد الموت ، أو بالأدق هـــذا الوصف الخاطىء « للموت » لأن الحب لا يموت بالموت بل يحصل على حياة جديدة ، فهو يحيا بالموت ، لأنه لا يقبل الموت .

وسيبين بصدد ذلك البينات الحاسمة لدوام الحياة بعد الموت والتى لا تقل فى حسمها عن حقائق العلوم الأخرى . فلم تؤسس فحسب كراسى للأستاذية فى البحث الروحى فى عدة جامعات فى العالم ، بل إن عدداً متزايداً من الرجال والسيدات العلميين آخذ أيضاً فى تحويل أنظاره نحو هذا التساؤل الذى ينبغى أن يشغل بالفعل بال كل كائن إنسانى عاقل ، وهو التساؤل عما إذا كان الحب يحيا بدوره أم لا بعد الموت ، لأنه ما لم يوجد حب على الجانب الآخر من القبر فلا يمكن أن توجد حياة ، لأن الحب هو الحياة .

الحب والزواج عندنا

ففى الفصل الثالث يعالج دزموند موضوع «الحب والزواج عندنا» قائلا إن الحب هو القنطرة بين العالمين ، هذين العالمين الذين لا يفصلهما الموت بل يصل بينهما ، لأن الموت جزء من الحب . فالحب بصوره العديدة كائن وراء كل حياة أرضية ، كما هو كائن وراء حياة السماء ، حين فصلنا نحن — فى تدهورنا الغير الواعى — الحب المقدس وخلطنا بينه وبين أحط العواطف الجسدية ، فعزلناه بالتالى عن أهدافه السماوية ، ومع ذلك فهذا لا ينال من تلك الحقيقة الغريبة وهى أن وراء كل حياة توجد أخيلة للحب Romance .

وهذه الكلمة المحبوبة التى جعلتها الشاشة والمسرح والقصة ، شائعة غير مخجلة توقع فى شباكها من الأفراد أكثر مما تفعل عاطفة الجسد التى ليست

بدورها سوى ظل للحب الخيالى الذى أبعدناه عن حياتنا . وأخيلة الحياة بدأنا نشك فى أنها الباعث الأصلى لكل وجود ، حتى أن الحياة وهى ذاتها مغامرة مجيدة تجد نفسها داخل الزمان والفضاء أحياناً ، وأحياناً أخرى بدونهما . وهى مغامرة تكمن فى نهايتها السلامة ، ولا تكمن فى مبدئها ، هذه السلامة الجبانة التى تكره كل قلب يكرهها ، فى بحثها العسير عن سعادة موهومة لا وجود لها اتخذها الجبن شعاراً له ...

لقد كنا «نتصور» أن الزواج ليس من صنع السماء بل من صنع الأرض عن طريق الموثق أو الكاهن ، مع أنه من غير الجائز أن يكون هناك زواج أو ارتباط بدون الحب ... وربما كان الشىء المحير فى كل ذلك هو ندرة الرجل أو المرأة الذى كان يبحث عن الزيجة غير المقدسة (وهى زيجة الحب) وبعبارة أخرى هذه الزيجة التى تباركها الملائكة من على الجانب الآخر من الحجاب ... وكان رعاتنا وأساتذتنا يقولون لنا إن أى ارتباط بين الرجل والمرأة ما دام يتم بمعرفة الكاهن أو الموثق يكون سعيداً عندما يحب الزوجان السعيدان أحدهما الآخر ، كما لو كان الحب أمراً مفروضاً عليهما . فإذا كان هذا الارتباط غير سعيد فهذه تكون غلطة «الطرفين المتعاقدين» .

ولكن أرقام الطلاق أصبحت فى صعود مستمر . . . ولم تصمد على الاختبار لمدة خمس سنوات أو أكثر سوى نسبة قليلة . . وكم رأينا من حولنا رجالا ونساء قد جمعهم وثاق هذه «الزيجة المقدسة» يتبادلون الكراهية والظنون وعدم الاكتراث من الجانبين . وكل ذلك لم يكن ليعنى شيئاً بالنسبة لنا . ويبدو أن السماء قد ألقت جانباً قانون الزواج بوصفه قانوناً للحياة ، من شأنه إنجاب الأطفال الذين عليهم استمرار الجنس الإنسانى على طريقة «كن فيكون» .

ولكن لحسن الحظ أو لسوئه لم يستمر ذلك ، ولأول مرة بدأ الشباب

رجالا ونساء يتحدون — ليس الأصول فحسب — بل أيضاً أهداف هذه الأنظمة ونتائجها القائمة على الزواج بغير حب، لأنها لم تعد تبدو لهم سماوية بل من مصدر آخر .

مراحل الزواج الثلاث

وفى الفصل الخامس يتعرض المؤلف لمراحل الزواج قائلا إنها فى المعتاد قد تتبع التسلسل الآتى :—

فالمرحلة الأولى هى مرحلة « الوقوع فى الحب» وفيها يجد الفتى والفتاة ، أو الرجل والمرأة نفسيهما فى « سماء زرقاء » أو فى جنة يحاول كل طرف أن يصبح فيها جزءاً من الطرف المحبوب ولا يتصور أن أى خطأ ممكن الوقوع . وهذه المرحلة تمتد عادة حتى تبلغ الرابطة غايتها فى حفلة الخطوبة وفى هذه المرحلة « الجنس » يعمى البصائر .

وبعد ذلك تجىء مرحلة العيش المشترك أوالزوجية ، وكثيراً ماتكون لأحد الزوجين أو لكليهما عبارة عن خيبة أمل مرة ، حتى أن شهر العسل بالنسبة للملايين يمثل بداءة لنهاية السعادة . ومن المؤكد تقريباً أن الشهر التالى ، أو الثلاثة أو الستة الأشهر التالية تمثل فترة اختبار لغالبية الزيجات، يتقرر فيها ما إذا كان مصير الزواج هو السعادة أو عدم الاكتراث ، أو التعاسة . وكم من زيجات تحطمت فى الأسبوع الأول وربما فى الليلة الأولى .

أما المرحلة الثالثة فهى مرحلة « التأقلم المتبادل » mutual adjustment بافتراض أن الارتباط بين الزوجين قد قاوم المرحلة الثانية . وهذه المرحلة الثالثة هى مرحلة تعود كل من الزوجين على الآخر ، وفيها تستبعد عادة أحلام الحب romance . وهنا يأخذ الزواج مجرى من ثلاثة ، وهى مجرى الكراهية ، أو عدم الاكتراث ، أو فى حالات نادرة جداً مجرى الحب الزوجى .

وبرغم أنه من الصحيح أن الكراهية والحب ليسا سوى وجهين لشىء

واحد كما يبدو ذلك من تأمل الحب المشبوب عندما ينقلب إلى كراهية مشبوبة في الصلات الزوجية، وهي ظاهرة قد لاحظها الكثيرون، وإن كان عدد قليل فحسب حاول تفسيرها. وهذه هي الظاهرة الزوجية التي سنفحصها هنا بوجه خاص، لأن فحصها، وتفسيرها إن أمكن، قد يلقي ضوءاً على مشكلة الزواج برمتها، لأن الزواج مشكلة بقدر ما هو حالة.

وبالنسبة للمرحلة الأولى في الكراهية فإن المرأة والرجل بحكم حبهما للحياة وللأوهام يفضلان أن يفعلا أي شيء إلا التسليم بأن كلا منهما يكره الآخر ... وكبت الكراهية هذا قد يقود أحياناً إلى الأمراض النفسية الشائعة المتصلة بعصاب الحب، وربما إلى الاضطراب العقلي.

وبعد أن حمل المؤلف حملة عنيفة على فرويد قال إنه اعتبر نبياً لعلم النفس في بعض البيئات والجامعات، ليس فحسب لأنه حمل دعوة الإباحية والمتع المحرمة، بل لأنه أيضاً بسّط الأمور أكثر مما ينبغي، ثم أضاف أن تلميذه العظيم يونج Jung وغيره قد تخلوا الآن لحسن الحظ عن أستاذهم فرويد الذي تجاهل دور أخيلة الحب التي تمثل قلب الزواج، والذي لم يكبد نفسه حتى أن يعرف ما تعرفه اليوجا الهندية عن العقل[1]، وإن كان رغم ذلك قد وصل إلى كشوف سيكولوجية لها أهميتها، وبخاصة العقد النفسية أو المركبات Complexes التي أصبحت حقائق.

ثم يستطرد دزموند قائلا إن كبت الكراهية بمعرفة الأزواج يؤدي إن عاجلا أو آجلا إما إلى استخدام العنف وإما إلى «الحب الحرام»

(١) يقصد دزموند بهذه الإشارة التنويه بما تعرفه فلسفة المذهب اليوجي من أسرار العقل المذهلة مثل أثره المباشر في المادة وفي الصحة والمرض وقدرته في السيطرة على الجسد، وفي الإدراك عن بعد، ودوره في الإلهام وعدم ارتباطه المحتوم بالمخ ... وهو ما عرضنا له في عدة مناسبات في الجزئين الأول والثاني، وهو ما أعطى للفلسفة اليوجية قيمة خاصة في المدارس القائمة على البحوث الروحية.

كما يطلق عليه عادة . وما يجعل هذا الحب حراماً بالمقابلة « للحب الحلال » أصبح أمراً تحديده من الصعوبة بمكان . إذ بالنسبة لأحلام الحب التى نكتب هذا لأجلها ، أصبح هذا التحديد للأسف العظيم لا معنى له لملايين من الأشخاص الذين يتصورون أنفسهم عشاقاً .

أما المجرى الذى تجرى فيه الكثرة العظمى من الروابط الزوجية فهو مجرى عدم الاكتراث ، الذى هو فى ذاته أسوأ من الكراهية ، لأنه مع الإنسان غير المكترث حتى الآلهة نفسها تجاهد عبثاً . فعدم الاكتراث هو الخطيئة الوحيدة ، وإذا كنا على قدر من الأمانة مع أنفسنا فسيكون علينا أن نقر أن عدداً من الزيجات — وربما غالبيتها — تنتهى إلى فصيلة عدم الاكتراث ، عـــدم الاكتراث المجرد من أحلام الحب ، المثقل « بالتعود » . فللرجل ناديه أو مقاهيه ، وللزوجة صديقاتها .

وعدم الاكتراث يولد الملل ، والملل يولد عدم الارتياح ، ثم هذه البلبلة فى العقول التى كثيراً ما تقود الزوج إلى ذراعى امرأة أخرى ، والزوجة — وهى فى المعتاد آخر من يغادر منزل الزوجية — إلى ذراعى رجل آخر ، وإذا لم تعد بها جاذبية ما فإلى مائدة البريدج أو الشاى أو السينما . إن عالمنا عالم مجهد : مجهـد من العمل ومن اللعب معاً ، مجهد من محاولة تفادى الإجهاد .

وعندما نعالج موضوع الحياة العظمى للروح فى العالم الذى ستذهب إليه الغالبية من بيننا فى نهاية مرحلتنا الأرضية ، التى ليست سوى نسمة منها ، سنتبين أنه لا مكان هناك لزواج الكراهية ولا لزواج عدم الاكتراث . وماذا عن الحالات النادرة جداً التى يدوم فيها الحب بين الأزواج والتى سبق أن « أشرت » إليها ؟

فقد يحدث فى فترات متباعدة أن نواجه بدهشة كبرى حالة زوجين يعيشان فى أحلام الحب ، لا فى مجرد هذا الشيء الكريه وهو تعود كل من الزوجين على الآخر ، بل أقصد الارتباط الذى لم تزل لديه ذخيرة لا تنفذ من أحلام الحب، التى بدونها ينبغى أن يجاهد الإنسان حتى لا يقوم زواج ولا حب .

والزيجات التى يقابلها الإنسان فى تجربته الأرضية والتى لا تزال بعد سنوات قليلة تستمد إلهامها من المصدر المخبوء لأحلام الحب ، يمكن أن تعد على أصابع اليدين . وبالنسبة « لتجربتى الخاصة » وبعد إحصاء حذر لقد عرفت لحسب أربع أو خمس حالات من هذا النوع ، « أنا » الذى عشت فى بلاد متعددة ، وبين أجناس متعددة ، وكانت لى فرص متعددة للملاحظة فوق مساحات متعددة من أرضنا . . . ومن هنا يجيء هذا التساؤل وهو هل من مخرج من هذا المأزق ، وهل من أى سبيل يمكن عن طريقه أن يجد النساء والرجال السعادة معاً . . . ولو فى ظل رابطة الزوجية ؟

إنى أومن بكل إخلاص أن هذا السبيل موجود ، وأن « الخالدين » قد اكتشفوا هذا السبيل ، هؤلاء الخالدون الذين لا يختلفون عن « الفانين » شيئاً إلا فى أنهم قد نفضوا عنهم هذه الكومة من اللحم . وينبغى أن نعلم أن المشكلة ليست فى اكتشاف هذا السبيل أو الوصول إليه ، بل هى فيما إذا كان من الممكن أن تكون لدينا الشجاعة — والإلهام — لاتباع هذا السبيل ونحن بعد ما زلنا فى ردائنا الجسدى ؟

ومع ذلك فإن « علىّ » أن أوجه كلمة تحذير إلى الأشخاص المتزوجين وهى : أن احذروا الطلاق إذا كنتم تجدون بينكم أى تعاطف عقلى أو روحى مهما بدا ضئيلا ، واذكروا أنه فى تسع حالات من عشر تطليق الزوجة أو الزوج يكون إما للحصول على الحرية وإما للزواج من آخر ؛ ومعناه فى أحسن الفروض الإساءة إلى الشخص الآخر ، وفى أسوأها معناه اكتشاف

أن الشريك الجديد لم يخلق لك، وأن الشريك القديم الذى تخليت عنه لا يزال محتفظاً لك بذكريات طيبة .

واذكروا أيضاً أن فى الزواج لغزاً لم يفهمه كائن إنسانى بعد ، وهو لغز روحين آدميين قد تبادلا الوجود فيما بينهما ، فأصبح كل منهما جزءاً من الآخر ، حتى ولو لم تجمعهما سوى الكراهية . فاحذروا من أن تحطموا هذه المشاركة إلا إذا وثقتم تماماً أنكم قد وجدتم خارجها « توأمكم فى الروح » وحتى فى هذه الحالة لا تنسوا أن الشريك الذى تتركونه سيصبح جزءاً منكم فنحن الآدميون لا نتزوج للاشىء ، بل هناك سبب .

أحلام الحب والخدمة

وفى الفصل التاسع يتحدث عن « أحلام الحب» Romance والخدمة ، قائلا إن التعرف إلى أوليات الحياة الكوكبية ووجهة نظرهم عن الحب والجنس يتضمن التعرف على أوليات الفلسفة المتعلقة « بأحلام الحب » . فلعل من أهم ما يسترعى أنظارنا أن نكتشف أن كثيراً من إلهاماتنا ، خصوصا ما يتعلق منها بأخيلة الحب وبأحلامه كما وصلت إلينا أثناء حياتنا الأرضية كان مؤسساً على حقائق .

فليست الأحلام الجميلة محصورة هناك فى أفق الجنس الضيق الذى نعرفه على الأرض بل تمتد إلى كل مجال آخر . ولكن هذه الأحلام الكوكبية عبارة عن إبراز لهذه الحقيقة وهى أن الحياة فى كل مكان عبارة عن مغامرة رائعة ، وأنها تستحق أن نحياها لذاتها ، وأن الحب فى هذه المغامرة هو القلب النابض ، وخصوصاً الحب بين المرأة والرجل الذى هو انعكاس مادي للحب المقدس الذى تحمله روح الله للإنسان . فهو الجذب والدفع للحياة ، والمد والجزر فيها ، وبدونه ربما ما كانت توجد حياة ، فهو الانتصار على الموت .

ولا تدع أى إنسان يجرؤ على التهوين من شأن حب الرجل للمرأة

والمرأة للرجل ، حتى فى صورته الأرضية الدنيا . فهو الذى يبرز الشخصية وهو الذى يعلم الحياة فى الجسد ، وهو بسبب ما قد يحدثه من غصة أحياناً — لا رغماً عن هذه الغصة — قد يكون المعلم الأعظم لما فى ولادة الحب من جديد من معنى ميلاد الروح المتجدد على الدوام .

وقد ذكر « لى » مراسل من عالم الروح ما معناه « نحن ما نحن عليه بسبب ما كنا عليه من قبل ، فأفكارنا لا تتوقف فهى تجذب على الدوام قوى الحياة التى تحيط بنا وتدفعها وهى تملؤنا بحماسة المغامرة وبقوة السيطرة على ما يحيط بنا ، وهو ما يقود إلى دوام الغبطة بالانتصار على الموت » . وبقدر ما خبرت بنفسى — وأنا لا زلت بعد مقيد الوثاق فى الجسد — هذه الغبطة لمدى أسابيع بل لمدى شهور فى وقت ما،ومعها التحرر الكامل من المشاغل ومن الخوف ، فإن بمقدورى أن أقرر أن ذلك صحيح .

فلا يوجد أى خوف على المرأة أو الرجل الذى وصل إلى تحقيق سيطرة عقله على المادة ، سواء فى العالم الأرضى بسيطرته على جسده اللحمى أم فى العالم الكوكبى بسيطرته أيضاً على مادة الجسد الأثيرى ذى الذبذبة المرتفعة ، فلسنا بحاجة لأن نؤكد كثيراً أن الجسد الأثيرى سيظل عبارة عن جسد مادى . . . . فهناك فى « مملكة الحب » الكامل ليس من مكان للموت ولا للخوف ، والخوف والموت صنوان .

ونشوة الحب بين اثنين هناك تختلط بنشوة الخدمة ، لأنهما صنوان أيضاً . فلا يوجد حب حقيقى بدون خدمة حقيقية كما يعلم كل طفل كوكبى . والحب بدون خدمة حب أنانى بل كراهية مقنّعة . وهذه الكلمات الأخيرة تفسر للآلاف علة تحول حبهم الخاص إلى كراهية — لا نحو الشخص الذى كانوا يعتبرونه حبيباً فحسب — بل نحو كل العالم المحيط بهم . ومع الكراهية فقدانهم لثقتهم بقدرتهم الخاصة على الحب .

وجهة النظر الكوكبية عن الزواج

وفى الفصل الرابع عشر ينتقل المؤلف إلى بيان « وجهة النظر الكوكبية عن الزواج » قائلا إن ثمة مكيدة أنجلوسكسونية على أرضنا تميل إلى الهروب من مواجهة كل مشكلة « غير لائقة » عن الجنس ، إما عن طريق الزعم بأنها غير موجودة وإما عن طريق تفادى الإشارة إليها . أما الكوكبيون على الجانب الآخر فيواجهون بصراحة مشكلات العشق وبالتالى يحاولون حلها.

فنحن نرسم لأنفسنا أن كل إنسان محترم ينبغى أن يقتصر على زوج واحد ، وأنه ينبغى احترام رابطة الزوجية عند الخيانة والوفاء معاً ، وأنه لا ينبغى حدوث صلات جنسية بين الفتيان والفتيات قبل حفلة الزواج ما لم يكونوا على درجة كبيرة من الخبث والشناعة ، وأن الرجل أو المرأة يحب مرة واحدة فى حياته حباً حقيقياً .

والكوكبيون يقرون من جانبهم ، كما أخبرونى بأنفسهم ، جميع هذه المبادىء هنا وهناك . وفى حل هذه المشكلات العاجلة والقديمة لا يستشيرون فقط الشيوخ بل أيضاً الشباب فى مملكة هى « مملكة الشباب » ، لأنه لا أحد يعلم أفضل من الكوكبيين أن هناك شيئاً اسمه «الشباب الكهل» و«عمر الشباب».

فالعمر ليس خاضعاً لعدد السنين بل لنوع المشاعر كما يقولون . فثمة شابة فى الخمسين وثمة كهل فى التاسعة عشرة . والرجال والنساء « يقعون فى الحب » لمائة سبب وسبب ، ومن ثم كان نادراً « الحب الواحد الأبدى الذى لا يموت » الذى يعرفه الشعراء إلى حد يمكن معه القول بأنه غير موجود .

وفى الحب الروحى ليس للعمر أى دور ، فأنا أعرف سيدة فى الثانية والستين تتبادل الحب مع رجل دون الأربعين . وكاتب هذه السطور (دزموند) « غرق لشوشته » فى حب روحى لسيدة فى الخامسة والستين عندما جاوز السبعين « بالكاد » ، وظل هذا الحب موجوداً حتى بعد انتقالها ، فلا توجد قاعدة للحب .

وسواء أكانوا على صواب أم على خطأ ، فإن الكوكبيين لا يعتقدون أن من الإثم أو من الأمر غير الطبيعي أن يقع الرجل أو المرأة فى الحب أكثر من مرة فى الحياة الواحدة هنا أو هناك، بل على العكس من ذلك يرون أن مثل هذا « الوقوع المتكرر فى الحب » حق وطبيعى . وخصوصاً كإعداد وتمرين على الحب الأعمق « لتوأم الروح » . فإذا تحداهم إنسان فى هذه النقطة، أو لو صدمته كل هذه الصراحة فى التفكير، فإن ردهم سيكون كما أتوقع كالآتى : « إن تسع زيجات من عشر على أرضكم سبقتها تجارب حب منفرد أو متبادل إما من نوع « الوقوع المؤقت فى الحب » بغير عمق فى الشعور وإما — كما يحدث كثيراً — لمجرد الزواج والارتباط الجنسى .

فبالنسبة للكوكبيين كل حياة كوكبية أو غيرها نوع من اختبار للزواج « فما لم تكن الحياة إعداداً لهذا الجانب الحيوى من الحياة الذى تسمونه الزواج والعشق فلمَ إذاً هذا الإعداد ؟ » إن رجلا وامرأة قد يتقابلان — يقول الكوكبيون — فيجد كل منهما فى الآخر نعيم العقل والجسد ، وعندئذ يتوافقان على تبادل العاطفة تاركين لنتيجة التجربة أن تقرر ما إذا كانا يظلان شريكين مدى الحياة أم لا . وبعد فترة طويلة أو قصيرة يقرران فيما إذا كانا قد استنفدا ما يصح وصفه بأنه تجربة روحية شائقة كما تستنفد جميع الأشياء الأخرى أغراضها فى كل مستوى .

إن من الأفضل لهذين الروحيين الشابين اللذين ارتبطا تحت إحساس خاطىء بالولاء أن يقررا فصم هذه الرابطة الوثيقه كشخصين روحيين ليقين كيما تحل محلها صلة من الصداقة العذرية . أليس هذا بالضبط ما تفعلونه أنتم يا سكان الأرض فى زواجكم العصرى الذى يعطيكم الحق فى الطلاق متى ظهر لكم أنكم أخطأتم ؟ ولا أعتقد أن اى رجل أو امرأة أمين مع نفسه أو مع نفسها سيجد صعوبة كبيرة فى الإجابة على هذا السؤال . . .

ثم يقول دزموند إنه فى المستويات العليا من العالم الكوكبى عندما يجد العشاق أنهم لم تعد لهم مزايا روحية من العروة الوثقى التى تجمعهم فإنهم يتفقون على إنهاء هذه الصلة ، وإن كانوا يظلون مع ذلك كرفقاء وكأصدقاء بغير تبادل لوم ولا تقريع ، بل بالأكثر مع تبادل عرفان الجميل للنعيم ولفهم الحياة ، وللحب ، الذى كان لكل منهم فضل منحه للآخر . وأنه شخصياً عرف هنا عشاقاً كثيرين سابقين أصبحوا الآن أصدقاء وأنهم يشعرون بالتالى أنهم أكثر سعادة بكثير عن ذى قبل ، بل وأنهم أصبحوا إناساً أفضل بفضل التجربة التى قدمها كل منهم للآخر فى الأيام الخالية ، فلا تصدقوا أبداً أن أية تجربة ضائعة ، لأن الاعتقاد بذلك مهانة نحو الله ونحو الحياة .

ومراسيم الزواج ، وحفلة القران لها نفس الأهمية عندهم ، وإن كانوا يجتمعون فيها تمجيداً للعاطفة لا للصخب وحب الظهور ، أو لإرغام من يتبادلون الكراهية على العيش معاً . إن ذوى الآراء الحرفية سيشعرون بصدمة من هول هذا القول الذى سيعتبرونه دعاية للتحرر ، ولانتفاء الأخلاق . ولكن إلى هؤلاء وجه هذا السؤال : ما هى الآن الحقائق الحالية للروابط الأرضية ؟ ألا تنهار منها عشرات الآلاف بعد فترة قد تطول وقد تقصر سواء أكانت هذه الروابط باسم الزواج أم الحب . . . إن الزواج فى عصرنا الحاضر أصبح فى كثير من الأحيان مرادفاً للملل وللتعاسة ، أما الحب بكل نشوته وحريته فما أندر ما يوجد ! . فلم لا نواجه الحقائق ؟ !.. إن الكوكبيين يواجهونها .

والكوكبيون و «أنا» لا نشجع مع ذلك ، على الانفصال بين الأزواج ولكن نؤمن بكل جوارحنا أن الروابط الزوجيـــة لا ينبغى أن تقام إلا بحذر وتدقيق ، وينبغى على الرجل والمرأة أن يختبر كل واحد منهما الآخر نفسياً وعقلياً قبل المغامرة بإنشاء رابطة ينبغى أن تنطوى

أيضا على صلة روحية . حتى المباشرة الجنسية ينبغى أن تكون متكافئة جسدياً وروحياً ، بل لعلها أكثر الأفعال إشباعا للروح فى الأرض ، ذلك الإشباع الروحى الذى ما أندر تحققه مع ذلك ...

أما الكوكبيون فإنهم — بقدر ما « تمكنت » من الحصول عليه من معلومات عن طريق اتصالاتى بهم — يواجهون بصراحة الحقيقة القائلة بأنه عندما يجد الرجل والمرأة أنه أصبح لديهما الانسجام العقلى والروحى بجانب الانسجام الجسدى ، فإنه ينبغى أن تجمعهما رابطة على مستوى النفس والجسد ، وأيضاً على مستوى العقل والروح وإلا كانا غير روحيين . .

ثم يقول إن عدداً من الأمور التى تبدو لنا خلقية تبدو لهم غير خلقية على الإطلاق . وإن كل حياة جنسية ، سواء أسبقها زواج أم لم يسبقها ، غير خلقية ما دامت بغير حب ولا تختلف فى نظرهم عن الشهوة وما هو أسوأ من الشهوة من أمور . فالزواج ينبغى أن يكون « ارتباط الحب » ولا شىء يصنع هذا الارتباط سوى الحب .

هذه هى فى سطور وجهة النظر الكوكبية عن الحب والزواج . فقارن ذلك بآرائنا الفجة المفتونة عن الزواج والمباشرة الجنسية وسائل بعدئذ نفسك : أى وجهتى النظر هاتين الأرضية أم الكوكبية أصح وأجمل ؟ فإن هذا التساؤل سيمنح آلافاً ممن يقرأون هذه الكلمات فرصة البحث لا فى موقفهم من الحب والزواج فحسب بل فى موقف ضمائرهم منهما أيضاً . وإنى أعتقد أنه من الملائم لنا أن نتزود من آن لآخر لا بالحياة بل بالحب أيضاً .

العاطفة

وفى الفصل السابع عشر يتحدث المؤلف عن العاطفة قائلا إنها هى

القوة المحركة للحب ، وذلك لا يتضمن فحسب التفاصيل الفسيولوجية لأدوات التعبير عن العاطفة وهى « أجسادنا » بل أيضاً التفاصيل النفسية ، ولن ننظر فحسب إلى عملية الحب بل إلى العقل الكامن وراء هذه العملية عند الاتصالات المختلفة بين العقل والجسد ، ومعها مشكلة « الضبط المتبادل» وسنؤمل أيضاً أن نجد جواباً لهذا السؤال وهو « لماذا تفشل الزيجات الأرضية ؟ » . . . .

ويمكننا أن نجد الجواب فحسب عندما نتبين الفارق العجيب بين الأسلوب الأرضى فى النظر إلى الحب والعاطفة ، والأسلوب السماوى ، إذا كنا مصرين على تسمية العالم التالى بأنه « عالم السماء » برغم أنها ليست تسمية صحيحة من أى وجه ، لأنه حتى فى الجانب الآخر من«الموت» لاتزال للحب مشكلاته ، ولم يتقدم الخالدون أنفسهم سوى خطوة واحدة أكثر منا فى حل مشكلاتهم ، حتى وإن كانت هذه الخطوة حاسمة .

فعلينا أن نفهم معنى العاطفة قبل أن نبدأ فى العثور على أجوبة لأسئلتنا، هذه الكلمة التى هى وراء الكثير من أمور حياتنا حتى فى عالمنا ، وسواء أكانت عاطفة للحب أم للكراهية . . . إننا نتحدث دواماً فى عالمنا الأرضى عن « عاطفة الساعات » و « عاطفة العمر » و « عاطفة الموت » محتفظين للتعبير الأخير بنوع من الجوانب الأكثر من غيرها عمقاً وغموضاً فى معتقداتنا الدينية ، ومقرين بالتالى أنه يكمن وراء كل حياة وكل موت هذا الشىء ذو القوة المراوغة الذى نسميه العاطفة .

وبعد مضى سنوات كثيرة من الاتصال بالعالم الذى يلى الموت «وصلت» إلى نتيجة ، وهى أن الكوكبيين أو « الخالدين » يؤمنون بما ذكرته آنفاً . ولا يمكن أن يجرؤ إنسان على القول بأنه يعرف أو أن بمقدوره أن يعرف كل وجه من وجوه أفكارهم أو عواطفهم ، لأن المحدود لا يمكنه أن

يسبرغور غير المحدود ، حتى ولو كان هذا الغير المحدود مسوراً بدوره بأسوار منيعة بحسب معادلة أينشتين عن الفضاء ، لأن العالم الغير المحدود الذى يعرفه الكوكبيون ما هو سوى امتداد ضئيل لفكرة المكان والزمان التى تسود أرضنا ذات الأبعاد الثلاثية .

والعالم الكوكبى يقسم العاطفة تقسيماً أساسياً إلى ثلاثة أقسام : عاطفة الجسد ، وعاطفة العقل ، وعاطفة الروح ، أو بعبارة أخرى يعرف العاطفة الجسدية ، والعقلية والروحية . وهم إذ يفعلون ذلك — يرفض قادة الرأى فيهم أن يضعوا أى حد فاصل بين الممالك الثلاثة وهى مملكة الجسد والعقل والروح ، لأنهم يعلمون أن كل واحدة منها تشكل جزءاً من الاثنتين الأخريين .

ونحن سكان الأرض ما زلنا نتعثر فى آراء خاطئة وأساطير عن الكبت تجعلنا نخجل من الجانب الجسدى فى العاطفة . ومنذ جيلين كنا نخفى رؤوسنا عندما نتحدث عن العاطفة الجنسية ، وكنا نأبى أن نعرّف أولادنا شيئاً عن « حقائق الحيـــاة » ، كما كنا نسلك سلوكاً غبياً فى شأن أمور الحياة والموت هذه . . .

أما الكوكبيون ، الذين يعالجون الأمور على أساس روحى يجهله الإنسان فى ردائه اللحمى ، فهم ينظرون دواماً إلى الجانب الجسدى فى الجنس والعاطفة بهدوء مقترن بهذا الإحساس العقلى الذى بدونه لا يوجد شىء ذو قيمة . ودعونا نلقى نظرة إلى رأى العالم الآخر فى العاطفة ، وهو نفس الرأى الذى سيكون يوماً ما رأينا عندما نصل إلى ذلك العالم ، والذى بدأنا نعرفه لأول مرة فى التطور ، حتى فى هذا العالم الأرضى الذى عرفنا أخيراً أنه ليس أكثر من مدرسة تعدنا لعالم الروح .

دعونا ابتداء ننظر إلى الحقائق الفسيولوجية عن الجسد الإنسانى ، ونفس الحقائق عن العقل الإنسانى كما يراها الكوكبيون ، هؤلاء الكوكبيون

الذى يطاق عالمنا عليهم بجهالة وصف أشباح . وكيما أفعل ذلك ساقدم مقتطفات من محاضرة شفوية عامة ألقاها مفكر من العالم الكوكبي من على منصة قاعة كاكستون Caxton Hall ضمن سلسلة من محاضرات عن « الحياة بعد الموت » عالجت فكرة الحب بعد الموت بطريقة ضمنية .

فأنا أذكر أنه بدأ محاضرته بأن قال لمستمعيه المذهولين هذه العبارة التى سمعتها يوماً من أحد اليوجيين وهى « لماذا لا تعلمون أنكم تحيون ؟ إنكم لا تعرفون حتى كيف تصلون إلى اهتزازات العوالم الثلاثة التى تحيون فيها فى وقت واحد». ثم استطرد إلى شرح كيف أن كل واحد منا يحوز بداخله ابتداء اهتزاز المادة منبعثاً من الجسد اللحمى الذى يغلف الروح ، وثانياً اهتزاز العالم الكوكبي منبعثاً من الجسد الأثيرى ، أو إذا شئت من الشبح الذى يغادر الجسد اللحمى عند الوفاة كيما يحصل على مقره فى المستوى الكوكبي ، وأخير نحن نحوز الاهتزاز الروحى الذى هو أعلاها كلها والذى نحوزه لأننا خالدون ، أو بعبارة أخرى لأننا فانون ذوو أرواح Souls .

« إنكم تعلمون إمكانيات الأمواج الضوئية واللاسلكية ولكن ماذا تعرفون عن الأمواج الأثيرية ذات التردد العالى ؟ إنكم تعرفون الأشعة دون الحمراء وفوق البنفسجية، ولكن ماذا تعرفون عن إشعاعات الاهتزاز المتداخل بعضها فى البعض الآخر » ؟

وكان العالم الشبح يعنى بهذه العبارات التساؤل عما نعرفه عن إمكانيات أجسادنا الخاصة التى هى عبارة عن بطاريات كهربية ، أو إذا شئت محطات لاسلكية تنبعث منها على الدوام إشعاعات غير منظورة متعددة الصيغ والأشكال؟أو هى عبارة عن هالات قطبية تتقاطع فيما بينها وتتمدد،هالات يمكن أن يشاهدها ذوو الجلاء البصرى وتسجلها جزئياً أجهزتنا الكهربية المادية[١].

---

(١) راجع ما سبق فى الجزء الأول ص ٤٤٠ — ٤٤٧ عن المسألة وتصويرها بأجهزة مادية .

ولا تبدى هذه الحالة أبداً مثل هذا التقاطع والتمدد ولا مثل هـــذا لإشراق الذى ينبعث منها عندما يقع صاحبها فى الحب . و « عملية الحب » تستثير أكثر ما فيها من إشراق ، وذلك يبين بوضوح تام أهمية هذه العملية فى كل صورها ... والمقابل لذلك هو ما يشاهد من إشراق ذكور الطيور فى موسم التزاوج .

وفى لحظات الحب العميق عندما يرتفع الرجل أو المرأة فوق نفسه أو فوق نفسها خارج هذا العالم الأرضى ويلمس العوالم السماوية ، وهى كثيرة ، فإن الصلة أو القنطرة تنشأ عن طريق الإشعاعات أو الأمواج الاهتزازية ذات التردد العالى ، وليس فى ذلك أى تخمين ، بل هذه هى المعلومات العامة فى العلوم ، كما وضحها « المرشد الشبح » فى محاضرته عندما قال : « إنه من الممكن لمحطة الجسد اللاسلكية أن تضبط نفسها مع أطوال الموجات ذات التردد العالى المنبعثة من اهتزازات العالم الكوكبى ، والتى تتخلل هذا العالم كيما يرتفع بنفسه فى العالم الروحى الأسمى ، وبالتالى يلمس الاهتزازات الكاملة المنبعثة من مركز النواة الموجودة داخل الثمرة ، والتى لا تجىء من الخارج » ...

وبعد أن استعرض دزموند فقرات أخرى من محاضرة هذا « المحاضر الكوكبى » فى الاهتزازات المنبعثة منا ، وأثرها فى تكييف الصلات بين الناس، يقول إن هذا المحاضر استطرد قائلا: عندما تقترب من إنسان تقول أحياناً «إنى لا أحب هذا الشخص، ولا أعلم لماذا برغم أنه يبدو على مايرام ، ولكنى شعرت بعدم الميل إليه » ، فبحسب الظاهر لا يوجد أى سبب منطقى لعدم الميل هذا ، ولكن يوجد سبب مخبوء .

كذلك الشأن عندما يكون الاهتزاز المنبعث من رجل ما أو من إمرأة أعلى فى طول موجته أو أدنى من الاهتزاز الصادر من الشخص الآخر ، فيحصل تصادم بين طول الموجتين المنبعثتين عن الهالتين ، وبالتالى عدم انسجام بين اهتزازاتهما . . . ونفس القانون يحكم الميل المباغت للآخرين ،

عندما تكون الاهتزازات على نفس طول الموجة ، أى على نفس مستوى السرعة ، وعندما يجد الشبيه شبيهه يشعر بالتعاطف نحوه سواء أكان رجلا أم إمرأة ، وفى الحالات المتطرفة يحدث « الوقوع فى الحب » . فالعاطفة ليست سوى ضبط للاهتزازات ، وعندما تكون الاهتزازات ذات تردد عال تصبح العاطفة أشد اشتعالا .

وبالتالى فإن قانون الحب يمكن أن يعرّف بوصفه قانون التجاذب بين جسمين لها نفس مستوى التردد أو سرعة الاهتزاز ، التى تنصهر أو تتلاشى خلال حرارة طول الموجة الأخرى وسرعتها، وخصوصاً تماثلهما . فيجد كل منهما فى الآخر متعته الوحيدة ورضاءه . وهو ما يمكن للحب المشتعل وحده أن يعطيه للآدميين طالما كانوا لايزالون مقيدين بوثاق الجسد .

وإذا كان هذا هو الأساس الفيزيقى ، والفيزيقى — الروحى للعاطفة ، فماذا نحن قائلون عن الأساسين الآخرين للعاطفة وهما العقل والروح ، لأن الكوكبيين يقولون لنا إن كل عاطفة سعيدة تقوم على أسس مثلثة من الجسد والعقل والروح ، وهذه هى العاطفة المجدية التى تقع على النقيض من العاطفة غير السعيدة وغير المجدية التى غالباً ما تمثل على الأرض تجربتنا الوحيدة فى الحياة .

العقل والروح في العاطفة

وفى الفصل التالى يعالج المؤلف موضوع « العقل والروح فى العاطفة » قائلا إن العاطفة فى جملتها عبارة عن «بطارية كهربية» مركبة من ثلاثة أشياء: وهى الجسد والعقل والروح . فالجسد من السهل أن نراه وأن نعرفه ، فلدينا كلنا أجساد مادية ، وعلة إجداب الحب وخداعه واختفائه فى الأرض هى أننا غالباً ما ننظر إلى الجسد الفيزيقى بوصفه أداة الحب الوحيدة مع أن هذه النظرة تمثل مصرع الحب .

فبعض الأحيان يبدو لنا أن الجسد يمثل للحب مطيته ، ولكن ينبغى

أن تكون هناك قوة محركة وراء الجسد تدفعه للعمل المثمر بدونها يصبح لا جدوى منه، شأنه شأن السيارة عندما تصبح عديمة الجدوى مالم يكن فيها الوقود الذى يمكنها من أن تؤدى وظيفتها . فالآلة لا يمكنها وحدها أن تحرك العربة ما لم يغذيها الوقود .

وهذا الوقود تقابله هنا قوة العقل ، فبدون العقل لا يوجد شيء ... فما هو العقل؟ هو فى عبارة مبسطة التخيل الذى يمكن الرجل وشريكته المرأة من أن يتوسلا أو ينضرعا خارجاً إلى العالم اللانهائى ، ولا ينبغى أن يختلط العقل بالمخ الذى هو جزء من الجسد ، والذى ليس أكثر من آلة[1] .

فالتخيل أو العقل هو الذى يعطى لفن الحب قوته المحركة ، وكل رجل وامرأة منا جميعنا قد ألف الحقيقة التى لا تقبل التحدى، وهى أنه ما لم تكن عقولنا قادرة على أن تناشد صورة المحبوب وتتوسل إليها أن تمنحها المباهج التى تخفيها عنها فإن عملية الحب تصبح عبارة عن تراب ورماد فى فم الشهوة . وكم من الرجال والنساء المتزوجين غير السعداء لم يغب عنهم ذلك الإحساس، فراحوا يحاولون عبثاً أن يتخيلوا فى عملية الحب أن بين ذراعيهم شخصاً آخر يحبونه جيداً غير الشخص الموجود فعلا !

والحب هو الذى يحقق مناهج كهذه روحية وعقلية وجسدية بقدر ما يمكنه من أن يتوسل خلال التخيل الخالق ، فالأفكار أشياء ...

إن الرجل والمرأة عندما يندفعان نحو « انتقال الحب » الذى نصفه بالعاطفة ، ويبحثان غير واعيين عن الاندماج الأكمل للروح قد ينجحان معاً فى اندماج الجسد والعقل عن طريق قوة المتعة الخالقة التى قد يحققها هذا الاندماج ، ومع ذلك يظلان باحثين غير واعيين عن اندماج للروح أتم

---

(١) راجع فى هذا الشأن الجزء الأول ص ١٧٧ — ١٧٩ ، ١٨٣ و ٣٥١ — ٣٥٥ ، ٤٣٥ — ٤٣٧ .

وأعمق فلا يعثران عليه ، ولسنا نتذرع فى ذلك بنظرية ما ، بل نستند إلى حقيقة لمستها فى عملية الحب الكائنات الإنسانية المتطورة الراقية ، فلسنا نتحدث هنا عن أولئك الذين تجمعهم رفقة الحيوانات ، فما الذى يعوزهما ؟

يعوزهما تاج الحب والعاطفة ، وهو ذلك الشيء الذى لا يلمس والذى نسميه الروح . فبدون العنصر الروحى ، تصبح عملية الحب فى أية صورة لها طبلا أجوف وصنجاً يرن ، أو أوركسترا قبيحة للعواطف لا قائد لها ؛ فما هى هـــذه الروح ؟ إنها لا تقبل التعريف كالريح التى تهب حيثما تشاء ، ولا يمكن العثور عليها عن طريق الإرادة ولا عن طريق البحث ، بل يمكنها فحسب أن تجيء إلينا رجالا ونساء عندما لا نفكر فيها ولا نتوقعها ، حتى وإن كنا نريدها ... فهى تهب حيثما تشاء ، وتلفح العادل وغير العادل ، والفقير ، بل ربما الغنى أيضاً ، ويصح أن يعد الإنسان نفسه لها ، ولكن لا يمكن أن يخطط لها مقدماً .

وكل ما نعرفه عن روح الحب هذه هو أننا عندما نحوزها نشعر بها . وإذا كان الرجل والمرأة الراقيان يشتركان فى عملية الحب بدون ذلك الشيء الذى يسرى خلالها، والذى لا يمكن تعريفه، فإنما هما يفعلان ما يستحق الخجل والأسى ... فالروح هى الشعلة التى يمكنها أن تؤدى وحدها إلى اندماج العقل والجسد بين المحبين .

بل إن الصلاة نفسها يتوقف نجاحها على الطريقة التى بها نحسن استخدام قوس الصلاة بالروح ، وبشقيق الروح الوفى وهو الإيمان ، هـذا الإيمـان الذى هو جوهر كل عاطفة سعيدة ، لأنى لست أتحدث عن العاطفة غير السعيدة ، فلا الصلاة ولا العاطفة يمكن أو ينبغى تخطيطهما مقدماً . بل يمكن فحسب أن يتمناهما الإنسان ، وفى الأمنية تكون الصلاة ! .

وفى الواقع سواء فى الحياة العادية غير العاطفية ، أم فى حياة الحب العاطفية ، فإن الإنسان الحكيم لا يخطط مقدماً . لأن التخطيط من عمل

الأطفال ، وبدلا من التخطيط يحتفظ الرجل الحكيم والمرأة الحكيمة بالتخيل حراً ومبتدعاً ، فيحقق أيهما فى لحظة أكثر مما تقدر على تحقيقه سنوات من التخطيط الحذر غير المتحرر ...

وهكذا نجد أنه مالم يحمل الحب إلى فراش الزوجية وإلى الحياة الزوجية سعادة الجسد والعقل والروح فلا يمكن أن يحقق ثماره ، وتصبح ثمار الحب مرة فى الفم دائماً . ودائماً بحث ارتباط الجسد والعقل — بلا جدوى — عن الارتباط المثلث ، وهو ارتباط الجسد والعقل والروح ، وعندما يتحقق ذلك تفتح البهجة أبوابها ..

وإنى أعتقد أن كل ذلك يعرفه الكوكبيون ، أولئك الفانون الذين لامسوا الخلود . كما قد يشعر الطفل الراقد فى غرفته المظلمة بملامسة جناح ملاك يطوف به . وهكذا نحن الفانون نرقد فى غرفتنا الأرضية المظلمة ، ولكن هالاتنا ترتفع إلى الكواكب،وقد نسمع من آن لآخر صدى أصوات الملائكة وهى ترفرف بأجنحتها ، ونعرف فى هذه اللحظة السعيدة أن حبنا يصنع منا نسيج الخلود ، وأننا فى تلك الحياة الأخرى سنفهم الآخرين بقدر ما يفهموننا ، كيفما كانت هذه الحياة وأينما كانت .

الفكر والجمال والموت

وفى الفصل العشرين يعالج المؤلف موضوع « الفكر والجمال والموت » قائلا إن الموت نفسه سواء بالنسبة للأجساد المادية أو الأثيرية مجرد تغير فى الاهتزاز . فعندما يتحرر الجسد الأثيرى من محارته الفيزيقية فذلك سببه أن اهتزازاته — بسبب اقترابها مما اعتدنا أن نصفه خطأ بالموت — وصلت إلى سرعة عالية إلى حد أن المحارة الفيزيقية للجسد لم تعد قادرة على احتوائه ، ويتعين عليها أن تطلق سراحه .

وهذا الانطلاق لايحدث عند توقف نبضات القلب ، بل بعد بضعة أيام لاحقة يسافر بعدها الجسد الأثيرى بسرعة الضوء إلى مسكنه الأثيرى

يجذبه إليه قانون طبيعي مقتضاه أن « كل شبيه منجذب إلى شبيهه » سواء في دنيا الاهتزاز أم في دنيا الحب ، وكل حب صلة اهتزازية ...

إن الجسد دائماً — لا أحياناً — انعكاس صادق لعقل صاحبه ولروحه فالأفكار الجميلة تصنع وجوهاً جميلة ، بل وأجساداً جميلة كما بدأنا نجد في « رياضة العلاج الروحي [1] » . وتغيرات الجسد والروح يمكن أن تستمر من الولادة إلى الوفاة ، وبمقدورنا إذا شئنا أن نصير أكثر جمالا حتى الموت ، لأن العمر خرافة ... فليذكر كل واحد منا أن كل فكرة تمر خلال شبكية المخ تغير تعبيرات الجسد إلى ماهو أكثر رقة أو نظافة . وأصحاب العقول الفظة من الرجال والنساء سيحصلون مع الوقت على وجوه فظة ، وبعد وقت قصير على أجسام فظة أيضاً .

ولو أن هؤلاء النساء التعيسات المضللات اللائي يمضين الساعات من كل يوم في وضع الأصباغ والمساحيق على أجسادهن التعيسة بذلن عشر هذا الوقت في الأفكار الرفيعة وفي شرب الماء النقي ، وفي الرياضة التي جعلت من نساء أثينا أجمل نساء العالم ، لأخذهن العجب ، ولأخذ العجب من حولهن عندما يصبحن نساء جديدات بكل معنى الكلمة . .

وفيما يتعلق بالجسد الأثيري ، فإننا نعلم من الملاحظة المباشرة في « المعمل الروحي » وفي غيره أن « الأثيريين » (أي الأرواح) لديهم القدرة حتى على أن يتشكلوا في العمر الذي يريدونه ، وأن يرتدوا أية ملابس أثيرية يرغبون فيها ، وبوجه عام يمكنهم بالفكر أن يضيفوا ذراعاً إلى قامتهم إذا شاءوا ! . ومنذ ساعات قليلة من كتابة هذه الكلمات ظهر صديق لي توفي بالسرطان بعد بضع ساعات فقط من وفاته ، وعلى بعد مئات فقط من الياردات من منزله ، مرتدياً كما عهدناه زيه الخاص القديم وتحدث إلى صديق له بكلمات واضحة كأي صوت أرضي قائلا « كل شيء على مايرام بالنسبة لي ، كل شيء

---

(١) Gymnastic Psycho Therapeutics.

على مايرام ، عندما ظهر بنفس العمر والمظهر والملابس التى عرفناه بها فى الحياة .

وفى المعتاد يظهر الإنسان الأثيرى — أو كما نسميه الشبح — فى مظهر العمر والملابس التى يمكننا أن نتعرف عليه بها . كما أخبرت أنه فى الجانب الآخر من الموت ، يظهر الأثيريون عادة بمظهر من لم يتجاوز الثلاثين من العمر ، مهما كان العمر الذى كانوا عليه عندما تخلوا عن أجسادهم المادية ، وسواء أتخلوا عنها عندما كانوا أطفالا أم شيوخاً .

كما ينبغى أن نقرر استناداً إلى البينات التى حصلنا عليها عن طريق وسطاء كبار خلال نصف قرن بالأقل ، أن الأطفال يكبرون فى المستوى الكوكبى ، وأنه فى الأجواء المنخفضة « للمستوى الكوكبى الثالث » يولد الأطفال ، ولكن بغير الطريقة التى يولدون بها هنا ، وأنه بمقدور النساء والرجال أن يحملوا معهم مظهر العمر عندما يتقدمون نحو «الموت الكوكبى» الذى يحررهم بدوره إلى مستويات أعلى ، كما يفعل الموت الفيزيقى عندنا عندما يحررنا إلى المستوى الكوكبى . لأن الموت من خصائص الحياة والحب سواء هنا أم هناك . ولكن على المستوى الكوكبى يقابلونه بالمرح كأسعد تحرر إلى حالات أسمى من الوعى .

ولا يفقد الكوكبيون القدرة على النظر إلى أعزائهم الذين إنتقلوا عن طريق الموت الكوكبى إلى الممالك العليا من العالم الكوكبى ، بل تبقى الأبواب مفتوحة دائماً ، هذه الأبواب التى بدأنا الآن فقط فى فتحها على هذه الأرض المتشككة . وفى العالم الكوكبى يحيا الحب بعد الانتقال كما يحيا هنا . والعاشق الذى تقدم إلى مستوى أعلى من الوجود يظل يترقب وصول المعشوق الذى تركه — أو تركها — خلفه على المستوى الكوكبى المنخفض .

ولا يوجد فارق آخر بين حياة الحب على المستوى الكوكبى عن مثيلتها على الأرض ، ولا بين الموت الكوكبى عن مثيله على الأرض ، وهو أن

الحجب بين العوالم الكوكبية الدنيا والعليا مرفوعة دائماً ، أو بالأقل شفافة مهلهلة ، وهى الآن فى عصر برج الدلو هذا آخذة فى الارتفاع بين الأرض والحياة الكوكبية على كوكبنا . فالاتصال الحر ، وفى أى وقت ، موجود بين المستويات الكوكبية ، رغم أنه توجد فترات — فيما أعتقد — يكون فيها على الكائنات الأعلى اهتزازاً أن تنزوى للراحة وللتأمل ، حتى عن أحبائها ممن يقيمون فى المستوى الأثقل اهتزازاً ...

الموت نوم ونسيان ! . فهوم نوم مؤقت حتى يتأقلم الجسد الأثيرى الذى تحرر حديثاً من الأرض عن طريق نوع من الميلاد السماوى ، وهو نسيان بمعنى أن الروح المتقدمة تواجه عن طريقه ذهولا من مشاعر جديدة ، وحيرة إزاء إمكانيات جديدة ، ويقيناً بأن ما قابلته الروح على الأرض من صور الفشل وخيبة الأمل ستصبح الآن — فى انطلاقة الزمن — الطريق إلى السماء ، وبذلك ينسى القادم الجديد مع مرور الوقت تعاسات الأرض وتفاهاتها .

أما الشىء الوحيد الذى لن ينساه أبداً الرجل أو المرأة القادمان إلى هناك فهو الشخص المحبوب الذى تركه أيهما خلفه . فهذه هى نشوة الموت بغير أن نخشى الخطأ . وهذه هى الذكرى السعيدة للوجود الكوكبى الجديد التى تظل أبداً بين توائم الروح عندما يرجع خط الحياة إلى الوراء فى الأيام الخاليات . وهذا هو نجم المشرق الذى يقود الحب فى المستقبل بغير حدود — هذا المستقبل غير المهدد بخوف ولا بإذلال .

فن العشق

وفى الفصل الواحد والعشرين يعالج المؤلف « فن العشق » قائلا لنعد من نشوة الموت إلى نشوة الحب ، فإن فن العشق يقدره الكوكبيون ، ويقدرون فيه أسمى الفنون كلها ، لأنه الفن الذى به نحيا لسببين : أولهما طارىء بالنسبة لتكوينهم « الفيزيقى » والعقلى ، وثانيهما لأنه بسبب هذا الفن يتحملون الآلام غير المحدودة التى تربط بينها وبين العبقرية . وعندما « أتحدث » عن العشق

فى الفصل الحالى فإنما « أتحدث » عن العشق الروحى ، وأيضا عن العشق فى المعنى الجسدى الخالص .

و « لأتحدث » عن الأخير أولا ، فأقول إن الكوكبيين — الذين سنلحق بصفوفهم يوماً ما بعد موت الجسد الأرضى — يحيون خلال حيواتهم برمتها على المستوى الروحى بالحب وبالحب وحده . ولست أقول إنه لا توجد كراهية فى ذلك « المستوى الثالث » — وهو عالم واحد من عوالم أخرى لا تحصى — تذهب إليه الغالبية منا نحن الأرضيين عند الانفصال عن المحارة الأرضية ، إذ أننا ننقل معنا إلى هناك كل عواطفنا من حب وكراهيه . ولكن الحب على المستوى السماوى شريعة الحياة ، شريعة علينا أن نطبقها تطبيقاً ضمنياً أو صريحاً ، بينما نخرج عليها فى عالمنا الأرضى كيما نحيا فى الكراهية على نطاق واسع جداً .

ولكن الإنسان الكوكبى يدرك دائماً ضرر الكراهية وعجزها ، وهو ما ندركه نحن أيضاً — مغلفين بالجسد — من آن لآخر . ونحن نربط بين الجنس والمتعة ، كما نربط بين المتعة والخطيئة . وفى الحقيقة نحن نتحدث فى قانون الطبيعة الأسمى الخاص ببقاء الأنواع عندما نبرر الجنس ، وهكذا نبرره على أسس نفعية صرف ، كما لو كان موضوع العشق ليس موضوعاً للحب بل للأطفال ، وليس موضوعاً للخلق بل للتكاثر ، وهكذا نبرىء خالق الحب والجنس كما نبرىء أنفسنا أيضاً .

أما حياة الإنسان الكوكبى فهى حياة الحب مستخدمين هذا التعبير بمعنى أوسع بكثير من الجنس . ومع ذلك فإن الحب الجنسى يلعب هناك كما يلعب هنا دوراً أساسياً بل جذرياً . فالإنسان الكوكبى بالأقل لايسخر من الجنس ، ولاينظر إليه كشىء غير حميد تماماً — يطوى جملة معان للخطايا وللخطاة ، كما نفعل نحن كثيراً على الأرض .

والسبب الثانى الذى يدعو الكوكبيين أو « السماريين » لأن يقدروا فن

العشق هو أنهم يحيون فى الجسد الأثيرى — لا فى الحرارة الغليظة الفيزيقية — وذلك يجعلهم أكثر إحساساً منا بكثير بالحب وبما يقتضيه . ولا «أخطىء» إذ أقول إن انفعال العشق على المستوى الكوكبى أعمق وأرق من محاولاتنا فى أقدم الفنون الأرضية ، بمقدار المسافة بين محاولاتنا الأرضية فى عمقها ورقتها وبين محاولات الحيوانات السفلى .

وكل طفل كوكبى يعلم منذ ولادته أن الحب فى شتى صوره هو سيد الحياة ، ويعلم كل شىء عن الحب ، وأن العشق جميل ، وأن الجسد الأثيرى له جماله الخاص شأنه فى ذلك شأن العقل والروح اللذين يحملهما ، وأن الله وراء كل شىء وقد أعطانا هذه الأشياء كيما نستخدمها فى سبيل صحتنا ورضائنا وفى سبيل مجده . . . وفى هذا الشأن وحده يوجد فارق حيوى بين تعاليم الحب التى تعطى لأطفال الأرض وتلك التى تعطى لأطفال السماء .

وحياة الحب على الأرض نحياها محكومة بسلسلة من الطقوس ، أما حياة الحب فى السماء فهى الحرية الكاملة التى تحدث عنها المسيح وعاش بنفسه فيها فالمسيح لم يكن داعية تبتل ، ولم يهمس حرفاً عن التبتل فى كل أقواله المدونة بوصفه طريقاً مرغوباً فيه . وما نادى به فهو ضبط النفس وهو ذلك التحكم فى الحب وفى الحياة الذى يمكنه وحده أن يظهر جمال كليهما . وهو لم يتزوج ولم يعشق فى المعنى الجنسى لهذه الكلمة لأن سادة الحياة والحب يجدون رضاءهم الكامل فى اهتزازات للعقل وللروح أرفع من هذا الجسد الفج .

وكان يعلم قبل كل شىء أن الشهوانية والتبتل — الأمران المتناقضان بحسب الظاهر — هما العدوان للروح ، ومع ذلك فهما — كما يعلم كل فسيولوجى معاصر — وجهان لشىء واحد . فهناك شهوانية للتبتل تقود إلى انحلالات للروح تقابل انحلالات الجسد . وهناك أيضاً جمال روحى ، للاستخدام ، بغير إساءة لجميع ملكاتنا يقارن بما فى التحقيق والتنفيذ من جمال روحى . وعندما تتعلم أرضنا ذلك تكون قد قطعت نصف الطريق إلى السماء .

فأبغض منظارين على أرضنا : هما منظر الناسك الذى يعذب نفسه من جانب ، المشغول لآخر مدى بروحه الصغيرة المعذبة ، والذى يؤدب جسده ويمسخ عقله فى محاولته لأن يقتطع نفسه من الدنيا ومن تلك الحياة التى بدونها ما كانت لتوجد حياة ، ومن جانب آخر هو منظر الإباحى الذى يفترس جسده وروحه معاً فى سعيه لأن يجد متعته فى الإشباع والاختلاط الماجن ...

وقد قال الكوكبيون لنا خلال الخمسين السنة الأخيرة من الاتصال بالأرواح مراراً وتكراراً ، نحن الأرضيين ما نرفض الإصغاء إليه وهو أنه ليس بالإشباع السريع للجسد النهم ندخل إلى مملكة الحب ، بل بالاعتدال وضبط النفس . وأن التودد الأثيرى ينبغى أن يسبق التودد إلى الجسد ، وأن سعادة الجسد ليست إلا مقابل يدعو للأسى لسعادة الروح التى لا تتم إلا باختيار الجنس الإنسانى ..

وإذا كان لديهم شىء آخر يقولونه لنا فهو أننا مالم نتحقق من أن الرجال والنساء أرواح خالدة معتقلة مؤقتاً فى أجسادها فلن نفهم أبداً فن العشق وهدفه حتى العشق الجسدى . وأن أول سعادة عابرة للقيا هؤلاء العشاق لا ينبغى أن يعوقها عائق حسابى ، ومع ذلك فهناك كما يقول الكوكبيون فن للحب كما يوجد فن لكل شىء رفيع فى الحياة . وأن الطريقة التى يتبادل بها اثنان عواطفهما ذات أهمية حيوية ، فى جنون الحب ينبغى أن يتوافر أيضاً طريقة للحب . . . .

قصة حب أثيرية

وفى الفصل الثانى والعشرين يقرر المؤلف أن الحب بين الرجل والمرأة مشكلة مركبة لا نهاية لها ، ونحن نعرف عنها أقل مما نعرف عن المشكلات الأخرى للحياة . وهى غالباً مشكلة للموت أكثر منها مشكلة للحياة . وكيفما

كان الأمر فإن الحب هو القنطرة بين الحياة والموت ، قنطرة لا يقدر على عبورها إلا أولئك الذين عرفوا الطريق إلى الحب . وهو القنطرة الوحيدة بين البرزخ الذى يفصل ذلك الجزء من كل واحد منا الذى يتجسد على الأرض عن نصفه الآخر ، الذى قد يكون على الجانب الآخر من حجاب الموت . . . أى من توأم الروح الذى هو أنت وأنا ، أو النصف الذكر أو الأنثى بحسب الأحوال ، وفى ذلك يكمن لغز .

فعشاق الأرض يجتازون عـــدة قناطر من حياة إلى حياة ، لأنهم يعودون ثانية وثانية إلى الأرض كيما يتعلمون دروسهم (إذ المؤلف من المعتقدين الجازمين بالعودة المتكررة الى التجسد الأرضى) إما فرادى وإما مجتمعين . فإذا ما عثر الإنسان فى مرة من مرات تجسداته المتعددة على توأم الروح كان ذلك مفاجأة غير متوقعة شأنها شأن كل الهبات الحلوة التى يهبها الله لنا ، وذلك قد يحدث عندما يتجسد كلاهما على الأرض فى وقت واحد . ويحاول العالم الكوكبى الآن أن يحقق هذا التجسد للعشاق فى وقت واحد .

والمأساة فى الزواج تحدث فى عالمنا — أساساً — بسبب أننا قلما نعود إلى الأرض فى نفس الوقت مع توأمنا فى الروح ، لأن لكل واحد منا توأماً للروح ينتظره إما على هذا الجانب من القبر وإما على الجانب الآخر ، وفى النهاية يعثر كل منا على الآخر دائماً .

وما « الوقوع فى الحب » الذى هو الأنشودة الرئيسية منذ أبعد الأزمنة للشاعر وللفيلسوف وللقصصى ؟ إننا يمكننا أن ننظر اليه خلال العيون الكوكبية ، وبالتالى لعلنا نتعلم لماذا يبدو غير مرض للأغلبية العظمى من الأرضيين . فمن منا ينكر أنه فى الحب الأرضى يكمن عادة من الأنين أكثر مما يكمن من النعيم ؟

وإحدى قصص الحب الكوكبية قصة المؤلف صلة شخصية ببطليها

وهى ليست مجرد حلم أو أحدوثة ، بل حقيقة واقعة . فمنذ حوالى ثلاثة آلاف سنة كانت تعيش فى مصر بجوار النيل أجمل الأميرات المصريات ، وكانت حلوة لأن عقلها كان حلواً كجسمها ، وكان هذا الجسم مشهوراً حتى فى عصر أمنحتب الثالث لفرط جماله ورقته .

وقد أحبت هذه الأميرة اقوى المصريين فى أيامه ، ذلك الذى طالما نظرت أنا إلى تمثاله فى المتحف البريطانى — وطالما اجتمعت به للذكرى — حيث يجلس هناك فى الحجر الأصم ممثلاً قوة على نفس النحو الذى كان يعرف به فى مصر القديمة التى كانت جزءاً من رمال الصحراء . . .

وهذا المخلوق القوى المتلهف على الانتصار على الحياة ، وأحياناً المتلهف على الانتصار الأنبل على الخطيئة والموت ، كما هو ربما الشأن بالنسبة لنا جميعنا ، وقع فى حب أجنبية عن الصحراء ، ولكن حبه لها كان حباً أرضياً كحب أغلب الذكور ، أى كان حباً وصولياً لإرضاء الجسد ، أكثر منه حباً للحب نفسه ، فكان شركة للجسد لا للروح .

وكانت هى تمثل جزءاً من خطته فى البحث عن القوة . أى كانت بالنسبة له شيئاً يكسبه الإنسان كما كان يريد هو أن يكسب معاركه ضـــد الشعوب والقبائل التى كان يخف إلى غزوها ... وقد نسى هذا السياسى المحارب العظيم حبه لزوجته فى غمار حبه للقوة . وحب الرجل للمرأة ظل باهت لمحبة الله ، أما حب الرجل للقوة فهو أحط صور الحب الذى سرعان ما يحطمه الفساد ، كما يحطم الفساد حب الإنسان للثروة ، ولا يمكن أن يكون أسلوب الرجل مع جارية هو نفس أسلوبه مع الله . . . .

وهكذا فقد أميرته فى ذلك التجسد ، ولكن أثناء حياة بعد حياة . . . ظلت « أميرته » فى انتظاره على الجانب الآخر من الموت مترقبة أوبته كيما يعد نفسه للعودة من نعيم السماء إلى جحيم الأرض . وأخيراً جاء اليوم الذى اجتمعا فيه هناك . وهما الآن مجتمعان للأبد فى المستوى

الكوكبي الرابع ، ولكنهما على صلة بنا كيما يساعداننا بمعلوماتهم الكوكبية الرفيعة .

وقد قام هذا الزوج من الأرواح — الذى تكلل فى الحب وتزوج فى الخدمة — بتقديم الدليل على دوام الحياة بعد الموت ومعها دوام الحب من حياة إلى حياة . وهو ما يمكن أن يشهد به علماء الآثار المصرية Egyptologists بالنظر إلى اللغة المصرية القديمة التى اتصلوا بنا عن طريقها كما يشهد بذلك رجال الأدب هنا . وقد ذكرت شطراً من قصة الحب الكوكبية هذه فى روايتى المصرية عن العودة للتجسد التى عنوانها « إيزيس المتجسدة »[١] فى صورة خيالية .

ولكن هناك أكثر من ذلك ، وهو أن هذه الأميرة نفسها سجلت — خلال وساطة صديق من الأرضيين — على أسطوانة جراموفون عبارة بعد أخرى باللغة المصرية القديمة وبلهجة الأسرة المالكة التى عاشت فى ظلها منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة ، وكان هذا التسجيل فى مقر جمعية راقية للبحث الروحى وتحت رقابة قاسية ، وقام بالترجمة عالم الآثار المصرية هوارد هيولم Howard Hulme ونشرت هذه الوقائع على العالم عدة مرات[٢] .

واذكر وصفاً شخصياً بمعرفة هذه السيدة العظيمة لمنزلها فى العالم الكوكبي وللحدائق وللزهور . فقد قالت عن منزلها إنه من مادة أرق كثيراً من الطوب والملاط لأنها مادة أثيرية . وأن بناءه قد تم بالعقل لا باليد . وأن أحد هذه المبانى قد تم تشييده عن طريق أفكار المحبة المنبعثة من مجموعة عظمى من الأرواح كان عملها الخاص هو إراحة المريض وتعزية البائس على أرضنا . وأنه كان من ضمن هذه المجموعة اسم لا يمكن أن تنساه الأرض ولا السماء

---

(١) Incarnate Isis.

(٢) راجع ما ورد فى هذا الشأن فى الجزء الأول ص ٢٥٨ ، ٢٥٩ .

وهو اسم الممرضة كافل Cavell التي قالت الأميرة إنها شاهدتها أثناء العمل . . .

وبما أننا لدينا الآن مواكب لاتنقطع من نساء ومن رجال من العلماء وغيرهم يشهدون لهذه الأمور بعضهم من سكان الجانب الآخر للقبر وبعضهم الآخر لا يزالون على الأرض فإنه من حقنا أن نضيق ذرعاً بأولئك المغالطين المتشككين « العلميين » الذين هم غالباً ليسوا علميين ، لأنهم ينكرون شهادة حواسهم الخاصة . . .

بل إن العقول العلمية في نطاق البحث الروحي بدأت ترفض أن تضيع وقتها هباء عاماً بعد عام في مناقشات لجة فيما إذا كانت الحياة تبقى بعد الموت أم لا ، وفيما إذا كان يوجد حقيقة « عالم آخر » أم لا . وإن طلاب دراسة الحياة والحب يتجهون نفس الاتجاه ويرغبون في أن يحرروا أنفسهم من المناقشة التي لا تنتهي عن وقائع يمكن أن تخضع للاختبار ولمتناول اليد شأنها في ذلك شأن حقائق العلوم الأخرى حتى المادية منها . وقصتنا في الحب الكوكبي ليست مجرد أحدوثة ، بل هي عبارة عن تسجيل كامل لحقيقة عاطفية ، وهي واحدة من مئات القصص .

ومما يستحق الذكر هنا أن وصول حقائق كهذه من العالم الأثيري أو من المستوى الثالث يتم إما عن طريق وساطة « الصوت المباشر » الذي قد يتم أحيانا في ضوء النهار ، وإما يتم أحيانا أخرى خلال حنجرة الوسيط الذي أصبح مساعداً للعالم الروحي .

الاتصال الكوكبي والميلاد

وفي الفصل السادس والعشرين يعالج دزموند موضوع « الاتصال الكوكبي والميلاد » قائلا إنه يعلم من مراسلين متعددين من العالم الكوكبي أن تجاربهم عن « رفقة الجسد والعقل » لاتتوقف وأنهم يعالجون استخدام الجسد الأثيري استخداماً حكيماً ، وأن أساس هذه المعالجة هو رابطة الذبذبة

الاهتزازية (أى اهتزاز الهالة وما قد ينبعث عنها من أضواء مختلفة[1]) ، وأننا عندما نعرف كيف نستخدمها فإن الصلات الزوجية ستتقدم روحياً والعكس بالعكس .

وقد أظهرت «أحاديثى» مع مرشدى المصرى (روحه المرشد ردكلاود ، وهو فرعون قديم) أن الكوكبيين أكثر رقة منا فى أحاسيسهم، ولذا يشعرون بالمتعة وبالألم شعوراً أعمق بكثير منا . . وإنى بين أولئك الذين يعتقدون أننا حتى هنا فى الأرض بصدد بناء فردوس جديد — منذ الآن — وأرض جديدة للروابط الزوجية و « لشركات المحبة » بين الأرواح المتطورة الراقية .

والآن ماذا يعنى ذلك الاتصال الكوكبى الفيزيقى المباشر ؟ إنه فيما أعتقد تطويق وعناق متبادل للأجساد الأثيرية للعشاق ، فهو المقابل الفيزيقى لعناق العقول والشخصيات فيه يجد كل عاشق فى رفيقه المكمل والنصف الآخر له إذا كانت الطبيعة قد اختارت حقيقة كلا منهما للآخر . ولكن الاتصال الفيزيقى هناك — كما فهمت من مراسلى الكوكبيين — ليس هو نفسه اتصال الأجساد اللحمية على الأرض ، لأنه اتصال أثيرى فحسب . وهذا الاتصال الأثيرى الكوكبى له مقابله على الأرض عندما تعرف الأجساد الأثيرية للعشاق كيف تتلامس قبل أن تتلامس أجسادهم المادية . أما تلامس الأجساد المادية قبل الأجساد الأثيرية — أى قبل أن يحدث الغزل الأثيرى أثره ، فإنه يغلق الدائرة الكهربية للحب كيما تكون النتيجة هى الفشل وخيبة الأمل !

وأعتقد أنه فى هذا الاتصال المتبادل للأجساد الأثيرية لعشاق الكواكب تعمل بعض مراكز معينة منها كموصلات لقوى ليست فيزيقية فحسب بل عقلية وروحية أيضاً . وهذه الموصلات هى المفاتيح التى تفتح أبواب الروح وغيرها كيما تكشف لمن يحملها عن كنوز لا يتوقعها ...

بل يقرر دزموند بأن «شركة الأرواح» هذه قد تنجب أطفالا كوكبيين

(١) راجع ما سبق فى الجزء الأول عن الهالة والجسد الأثيرى فى ص ٤٤٠ — ٤٥٥ .

ولا يمكنه بعد أن يعطى إجابة محددة عما إذا كان هذا الإنجاب يتم عن طريق الولادة كما هى الحال فى أطفال الأرض ، بل كل مايعلمه على وجه التحديد هو أن الولادة هناك غير مؤلمة . وأنه لايحدث أى تغيير فى شكل الأم فى فترة الحمل ، بل إن الحمل هناك روحى أكثر منه مادى ، وأن فترة الحمل فى الراجح أطول كثيراً منها على الأرض لأنها متعلقة بحياة أكثر تطوراً من الحياة الأرضية[1] .

كما يقرر أن جمال مواليد السماء يفوق كثيراً جمال مواليد الأرض خصوصاً بالنسبة لأولئك الذين لم يولدوا من قبل على الأرض ، وأنهم يأتون لآبائهم وأمهاتهم لأنهم من نفس مستوى اهتزازهم أو ترددهم ، ولذا فلا يوجد فى المستويات العليا هذا المنظر المألوف عندنا لأطفال يتشاجرون مع والديهم بمرارة أو لأسر متصدعة ، وفى الجملة لكافة مظاهر التعاسة التى تعرفها أسرنا الأرضية .

ثم يتوجه باللوم إلى أولئك الرجال والنساء ذوى الخيال المحدود العاجزين عن تصور أى شىء خارج حدود تجاربهم الأرضية ، وكيف سيسخرون مما تقدم بغير أن يقوموا ببذل أية جهود لدراسة مشكلة مفرطة فى تعقيدها ، بل هى عدة مشكلات فى الحقيقة . ولكن أولئك « الواقعيون الأرضيون » سيستيقظون يوماً فى العالم الكوكبى وسيعلمون أن أحلامنا اليومية عن الحب والزواج والأولاد هى حقائق أرضية لكن مقرها فى السماء . فنحن الأرضيون قد بدأنا منذ عهد قريب فحسب نعرف عن طريق « التخيل الخالق » الله الذى هو فى تحليله الأخير محبة .

تلامس الأفكار

وفى الفصل الثامن والعشرين يعالج المؤلف موضوع « تلامس الأفكار »

(١) هذا الرأى محل نقاش كبير بين الروحيين . ولا ينبغى أن يفوتنا أن الأرواح تجىء من مناطق شتى من مستوياته هذا الوجود غير المحدود بين كوكبية روحية وعقلية، مما يضاعف مشقة البت فى رأى حاسم فى هذه النقطة وغيرها .

قائلا ، بعد أن بين صور التلامس بين عشاق العالم الكوكبي ، إن هناك ابتداء صوراً أربع للتلامس وهي : —

أولا : تلامس التردد غير الواعي لنداء الحب[١] ، أو العثور على التردد Vibration

ثانيا : الاختلاط الواعي لهالتي العاشقين العقليتين[٢] ، يتبادلان خلاله الترددات لا الأفكار .

ثالثا : الاختلاط المتعمد العقول والهالات[٣] الذي يتضمن عنصراً فيزيقياً بداخله .

رابعا : العثور الواعي على تلامس الأجساد[٤] في المرة الأولى ، إذ أن هذه الأجساد أثيريه سواء هنا أم هناك . فالعاشق الأرضي له أيضاً جسده الأثيري الذي يستخدمه في العشق كما يستخدم جسده المادي .

وبعد إتمام التلامس المبدئي العقلي الذي يتم عن طريق الهالة ، والذي تصح تسميته بتلامس «الموجة القصيرة» أو المسافة البعيدة ، وأخيراً تلامس «الموجة الطويلة» أو «تلامس الأجساد الأثيرية عن قرب» يجيء دور التلامس العقلي الثاني الذي مهد له تلامس الهالات ، وهذا هو تلامس الأفكار . لأن اقتراب الهالات واختلاطها هو الذي يفتح الأبواب المغلقة بين العقول الواعية للعشاق ، ويجعل تبادل الأفكار ممكناً فيما بينهم للمرة الأولى .

والتلامس العقلي المباشر ، أو تلامس الأفكار ، هو أحد أساسين هامين للحب الكامل ، وثانيهما هو تلامس الأرواح . بل إن الاتصال

---

(١) Unconcious vibrational love - call.

(٢) Cencious mixing of the mental auras.

(٣) Deliberate blendeng of the minds and auras.

(٤) Cencious finding of the contact of bodies.

الجثمانى بدون اتصال عقلى عبارة عن سراب بدون ماء . فالعشاق من الرجال والنساء يحاولون دائماً أن يشيدوا مسكن الحب بغير رباط من مادة العقل . وعندما يتحدث عاشق عن حبيبة الفؤاد فهو يبدأ الحديث دائماً عن مظهرها الخارجى ، وقلما يتحدث عن عقلها ، مع أن الجسم بلا عقل محض طيف بائس عاجز ، أو منزل بلا ساكن ، أو جمال بلا مخ .

وليس من الأمور الجوهرية أن يتفق المرأة والرجل العاشقان أحدهما مع الآخر فى اتجاهاتهما العقلية والذهنية ، فقد تكون بينهما فروق قوية فى نظراتهما لجميع الأمور السياسية وغيرها ... ولكن الأمر الجوهرى هو أن يتوافر لهما نفس المستوى الروحى أو نفس المستوى الترددى . .

وتقارب العقل للعقل ينبغى أن يتم برقة . ومع مراعاة مشاعر الشخص الآخر . واذكروا أن الآراء العقلية والدينية لأى إنسان مقدسة ولا ينبغى أبداً تحديها ولا انتقادها . وإن كان انتقاد مايحبه قلب الإنسان بمعرفة آخر من شأنه أن يساعد أحياناً ـ لا أن يجرح ـ ولكن بشرط أن يكون انتقاداً بنّاءً يهدف إلى الإعانة وإلى الراحة ، أما متى جاوز النقد هذا الهدف إلى المناقشات الغثة فى السياسة أو فى الدين التى نشاهد أمثالها كل يوم على المنصات ، فقد تعين طرحه جانباً ، لأن هذا النقد يجلب الشياطين لا الملائكة ، والفكر هو الذى يهم لا الكلمات . . .

وبين العشاق ينبغى أن تتوافر الصراحة حتى عندما تبدو الصراحة مستحيلة ، فعلى الصراحة تؤسس كل محبة ، بل كل « زوجية » فى العالم الكوكبى . فبغير صراحة لاتوجد ثقة ، وبغير ثقة لا ينشأ حب . بل « لأذهب » أبعد من ذلك فأقول إنه بالأقل بغير بعض التراسل العقلى لا يمكن أن يوجد حب جدير بهذا الاسم . إن ملايين من العشاق من يوم لقائهم إلى يوم فراقهم المحتوم ، لا يقيمون أبداً تلامساً عقلياً ، محاولين عبثاً العثور على عش الغرام بغير توجيه العقل ، كما لو كانوا غزّالين يغزلون بغير خيط على مغازل المصادفة ! . . .

إن ذلك لا يحدث على المستوى الكوكبي ، حيث يتم التحرر من الجسد المادى بالموت ومعه تحرر العقل من اللحم . وحيث يتبادل أولئك العشاق المتمازون لغة الحب بكلمات عقلية وروحية أكثر مما يتبادلونها بالغزل ، ويعامل الرجل المرأة وتعامل المرأة الرجل ككائن إنسانى أكثر منهما كذكر وكانثى ، إلى الحد الذى يعدنا للقول بأن معاملة أحدهما للآخر مختلفة تماماً عن المعاملة كما تعرفها قصص الحب والحياة الإنسانية عندنا .

التأقلم المتبادل هناك

وفى الفصل الحادى والثلاثين يعالج دزموند موضوع التأقلم المتبادل هناك قائلا إنه تلقى من مراسلين فى عالم الروح مثل فردريك مايرز (عالم النفس الشهير الذى انتقل إلى عالم الروح منذ سنة ١٩٠١) كما تلقى من غيره مايفيد — ولو أن ذلك قد يبدو غريباً — أننا بعد وصولنا إلى العالم الكوكبي بفترة قد تطول وقد تقصر نشعر بالجوع وبالعطش وبالحنين إلى الأكل وإلى الشرب ، بل أيضاً بالحنين إلى التبغ وإلى الخمر كما ذكر ريموند لوالده سير أوليفرلودج . ولكن الحنين الأول للقادم حديثاً هو الرغبة الجامحة فى أن يلتصق جسمياً وعقلياً بمن يحبهم . والأطباء الكوكبيون ينظرون بعين التسامح الحذر لدوام الشهوات الأرضية ويحاولون التسامى بها تدريجياً ، وبذلك يجنبون أصحابها وقع الصدمة .

وفى « التأقلم التدريجى » يتعلم القادم حديثاً الذى قابل هناك من يعشق أن هناك أحاسيس أرق من التلامس ، وأن هناك تبادلا لمشاعر روحية لا نعرفه بعد أثناء تجربتنا الأرضية . « فالعثور على الذات فى داخل الشخص الآخر » ، كما يصفونه ، كشف جديد بمعنى الكلمة يتجاوز فى أهميته كثيراً التلامس الأثيرى للأجساد الأثيرية بين أولئك الذين يجد كل منهم فى الآخر الإحساس بكيانه الروحى ، فضلا عن الميل إلى

(١) راجع ما سبق فى الجزء الأول ص ٢٢١ ، ٢٢٢ عنه قبل انتقاله ، وما ورد فى الجزء الثانى فى ص ٦١ — ٦٣ عنه بعد انتقاله .

إشباع حواسه . ومع ذلك فمن الجائز القول بأن شركة الأجساد والأرواح معاً ، التي تتم أحياناً حتى على المستوى الأرضي ، عبارة عن استباق ضعيف لما سيجرى فى المستوى الكوكبى .

فأول اكتشاف للرجل وللمرأة العائدين ثانية إلى وطنهما هناك ، بعد غربتهما فى الكوكب الأرضي الحزين ، هو أن فتح نافذة الحب الأثيرى يفتح أيضاً طريق الوصول إلى العوالم الأخرى ، هذه العوالم التى قد يشاهدها الإنسان أحياناً فى أحلامه ، العالم بعد الآخر ، والتى تتلاشى فى الأبعاد الكونية ولكنها حقيقية أكثر من هذا العالم الذى اكتب فيه هذه الكلمات .

وهذا الاكتشاف المبدئى هو الذى يقود فوراً إلى أن نعى كيف أن أحلام الحب وأخيلته Romance تمثل وحدها فى صورها العديدة خط الحياة الذى يجرى خلال العوالم المختلفة ويربط بعضها بالبعض الآخر كما يربط سلك رفيع من الفضة حبات المسبحة . ويمكننى أن أقرر — مثل كثيرين غيرى — أن كل رسالة تلقيناها من الجانب الكوكبى للموت تؤكد ماذكرته فى جملته وتفاصيله . فكل هذا ليس من ابتكارات الخيال ، بل هو حقيقة رائعة ...

«ويمكننى» عن اقتناع تام أن أقرر هنا أنه تقريباً على الدوام تقابل الأم ولدها بعد الانتقال والأب ابنته والصديق صديقه بمجرد الخروج من محارة الجسد الأرضى . وإذا كان حب الأم لوليدها هو أكثر صور الحب إنكاراً للذات ، فإنه ليس أكثرها ذكاء لأن الحب يعمى . وتعليم القادم الجديد قد يقتضى شهوراً أو سنين عديدة بحسب تقويمنا الأرضى ، لأن الزمن هناك لا وجود له . ولكن بقدر ما تستنير العين تدريجياً ويسقط عنها الحجاب فإن هذا القادم الجديد سوف يأخذه الذهول من الإمكانيات غير المحدودة لعالمه ولوجوده الجديدين ...

الحب والموسيقى فى العالم الكوكبى

وفى الفصل الثانى والثلاثين عن « الحب والموسيقى فى العالم الكوكبى » يقرر دزموند إن روح فردريك مايرز وأرواح أخرى حدثته كثيراً عن « موسيقى الأجواء » ، التى يتصور أنها تبدأ من الكون الرابع ، هذا الكون ذى الجمال الرائع حيث الرغبة معناها الحيازة ، وحيث يكون على الأرواح أن تراعى الاعتدال وضبط النفس أكثر مما راعيهما على الأرض ...[1]

والموسيقى الكوكبية غنية ومرحة ، قائمة بصفة أصلية على فكرة الحب بين جميع الشعوب ، وليست محصورة كموسيقانا فى « الحب الجنسى » . وهى تنفذ هناك إلى كل ركن من أركان الحياة الكوكبية . . . فهناك تسـام بالأحاسيس ... ونحن نعرف حتى هنا كيف أن الموسيقى الجميلة يمكنها أن ترتفع بنا فوق المادة التى تربطنا فتجعلنا مشوقين إلى أن نكون إناساً أرق وأفضل مما نحن ، وتساعدنا فى حبنا كما تساعدنا فى موتنا ، لأن الحب والموت على الأرض لا يبعدان كثيراً عن بعضهما .

كما يقرر أن هناك « أحلاماً » فى العالم الكوكبى تنقل العشاق — عادة مجتمعين معاً — إلى مستوى الاستماع إلى موسيقى الأجواء وعندما تتقابل

---

(١) السائد فى المؤلفات الروحية هو القول بأن موسيقى الأجواء التى تتحدث عنها أرواح المستوى الرابع فما فوق لا يعزفها أحد ، بل تعزفها الطبيعة نفسها ، وهى تحـدث من تحركات النجوم والكواكب ، كما تحدث من اهتزاز أثير الفضاء الذى تتكون منه الأجرام الكونية ، والذى يهتز فى نغم رائع متناسق .

ومن الطريف أنه ورد فى عدد السبت ٢٩ مايو سنة ١٩٦٥ من جريدة « أخبار اليوم » الخبر الآتى ننقله بحروفه بدون ارتباط به : —

« استمع علماء الاتحاد السوفيتى إلى تغريد البلابل ساعتين أمس . كانوا ينصتون فى أكاديمية العلوم إلى أصوات صادرة من الشمس سجلوها بأجهزة التسجيل . سبب الأصوات ذبذبات الكترو — مغناطيسية تحدث فى هالة الشمس ولا يمكن تفريقها عن تغريد البلابل » .

وهذه بطبيعة الحال غير الموسيقى التى يعزفها سكان المستويات الأثيرية المختلفة بآلات منها ما يشبه آلاتنا الموسيقية الشائعة ، ومنها ما قد يختلف عنها ، على ما بيناه فيما سبق (راجع ص ١٢١ ، ١٢٢) .

« هالاتهم » يجدون أنفسهم وقد انتقلوا إلى ممالك لا يمكن الوصول إليها بغير ذلك . وحتى فى أشعار الحب الأرضية نجد أحياناً مثل هذه التعابير عن العشاق وهى « حملتهما أجنحة الحب » أو « العشاق الذين أخرجوا من أنفسهم » أو « يفقد الإنسان نفسه فى اللانهاية » .

فالشاعر ليس هو بحسب العالم الحقيقى بل هو عادة — عن غير وعى منه — رائد السماء . كما توجد هناك أيضاً « أشعار علمية » كتلك التى نجدها فى أعمال دون أو ادنجتون أو جينز أو بوس Bhose ...

بل « يمكننى » أن أقول لعشاق الأرض إنهم لو عرفوا كيف يصلون إلى اتحاد الروح والعقل والجسد الذى يصل بهم إلى نشوة الحب ، فلن يكونوا بعد نفس الأشخاص . ولا تدعوا أى إنسان يحتقر رباط الحواس التى تقود الروح ، كما أن الروح هى مصدر إلهامها وعلة وجودها ... وفى العالم الكوكبى لا توجد أنصاف حلول فى الحب ، فنحن نعبث بالحب ، أما هم فيحيون فيه .

فى تعليم الحب

ثم ينتقل دزموند فى الفصل السابع والثلاثين إلى الكلام فى « تعليم الحب » متسائلا متى سنعلّم الحب ؟ متى سنعلم أولادنا فى المدارس والجامعات كيف يتحاشون عثرات العاطفة ويفهمون عقولهم الخاصة وأجسامهم للوصول إلى هذه السعادة التى لا تجىء عن طريق التبتل ولا عن طريق الإباحية ، بل عن خير الأمور وهو « الوسط بينهما » مراعياً أن المسيح لم ينصح مرة واحدة بتبتل الجسد ولا العقل للرجل ولا للمرأة ، لأن إشباع الجنس إشباع للروح ومعه إشباع الغريزة الخالقة . بل إن بولس الرسول هو الذى نصح بالتبتل وليس المسيح . وبمقارنة أعمال الرسل بالأناجيل الأربعة يبين بدون أدنى ريب أن تعاليم المسيح وبولس تمثل وجهتى نظر مختلفتين تماماً لحياة الجسد والروح .

وقد ذكر له روح ف . و . ه . مايرز من المستوى الرابع للعالم الكوكبي ما يلي : « إن الغريزة الخالقة جزء هام من طبيعة الإنسان ، واستخدامها بحكمة يجوز أن يكون أحد مشاغله الرئيسية . وهي تنبع جزئياً من الرغبة الجنسية العاجلة ، ولكنها تقدم أعظم سعادة في أوجه نشاطه المنعزلة تماماً عن الجنس . وكيفما كانت الحياة الجنسية للرجل أو للمرأة فإن أيهما يكون حكيماً إذا ما وجد بطريقة أو بأخرى متنفساً للمبدأ الخالق . وإذا لم يكن للرجل (أو للمرأة) عقل مبتكر أو قدرة على التخيل فيمكنه التعبير عن هذه الغريزة في التنعم بالجمال على وجه أو على آخر بالتسامح المقيد الحكيم ، مع ضبط الحواس ولكن ما أسعد الإنسان الذي يملك القدرة على ضبط النفس ، كما يملك القدرة على الابتكار الحقيقي مهما كانت متواضعة عنده وسائل التعبير عنها » .

وبعد ذلك علق روح مايرز منتقداً موقف داعية التبتل الذي قد ينكر إلهه عندما ينكر الاستخدام السليم للحواس « لأن الإيمان والأمل والبر بدون حكمة يجعلها أيضاً بدون ضوء . والأشياء التي تحجب عنها الضوء تمنعها من أن تصل إلى نموها الصحيح » . فتبا لأولئك العلماء الذين يرفضون تعليم الشباب الغافل كل شيء في هذه الأمور الحيوية ! . .

إن لغز الحب بين الرجل والمرأة سيظل دائماً مجرد لغز رغم إمكانياته وتعقد صلاته . ولكن عندما تدخل المشكلات إلى منزل الزوجية فتباً للعاشق الذي لا يعرف معرفة أكيدة من أين جاء إلى هذا العالم ، وإلى أين سيذهب بعد الموت . لأنه بدون الوعي ، والراحة ، والاتزان الذي تضفيه هذه المعرفة على النفس ، فإن سفينة الحب قادرة على أن تجنح إلى الشاطىء الذي ينتظر دواماً كل عاشق غافل . فليست « مشاحنات الحب » كما نسميها هي وحدها التي تسبب جنوح سفينته إلى الشاطىء ، إنه دائماً شيء أعمق من ذلك ، شيء يدخل في خيوط النسيج نفسه كعيب قد يبدو تافها ، ولكن إذ أهمل أفسد نسيج الحب برمته ...

إن الحب المعكر بين الزوج وزوجته له أوجه عديدة، ولكن « الانسحاب من الحياة » ، للتأمل فى الأماكن النائية والخلوية كما كان يفعل النساك فى سالف الأيام علاج شبه مضمون للتعاسة الشديدة التى يسببها تعكير الحب.. وإذا تأملنا الأمور تأملا صحيحاً لتبين لنا أنه لا توجد مشكلة إنسانية من النوع العميق إلا وارتبطت ارتباطاً مباشراً أو غير مباشر بالحب. فمشكلة الحب هى مشكلة الحياة، واقصد مشكلات الحب، لا مشكلات الجنس كما ذهب فرويد فى نظرياته البالية .

وكل ذلك يعلمه الكوكبيون . وقد ذكرت «لى» هذه الرابطة من الأرواح التى طالما راقبت وساعدت عشاق الأرض فى محنهم وآلامهم « أننا نفعل ذلك لا خدمة فحسب لسكان أرضكم، بل نخدم أنفسنا لأننا على عكس أطبائكم نؤمن أن الوقاية افضل من العلاج. ولذا فنحن نحاول أن نعالج الاضطراب فى مصدره الأرضى قبل أن ينمو مع الوقت ، ويصل صاحبه إلى هنا فى حالة متأخرة من المرض. » ... فمتى نعى نحن الأرضيين ذلك؟ . ومتى نكبد أنفسنا مشقة تعليم مراهقينا « علم الحب » كما نعلمهم غيره من العلوم، لأن الحب علم شأنه شأن أقوى الغرائز قاطبة .

ولقد علمت من الأثيريين أو الكوكبيين أن لديهم طريقة فى مدارسهم لتعليم ما يصح وصفه بأنه فن أو « قلب الحب » تدخل فيما الموسيقى بصفة أساسية، وكذلك فيما أعتقد التلباثى أو انتقال الأفكار . والأمر الحقيق هو أن الشاب والفتاة الكوكبيين يتعلمان الحب من سنيهما الأولى، لا من كتاب مدرسى بل من نفس كتاب الحياة والحب . وسيأتى اليوم الذى سنفعل نحن فيه نفس الشىء فى مدارسنا الأرضية ، لأن الكوكبيين يؤكدون لنا أن الحب الكامل أمر مستطاع سواء على الأرض أم فى السماء .

الطفل والأسرة بعد الموت

وفى الفصل الثامن والثلاثين يعالج المؤلف موضوع الطفولة والأسرة

هناك ، وهو الموضوع الذى طالما شغل عدداً كبيراً من الباحثين الروحيين ، قائلا « إننا نعلم الآن شيئين وهما . أن لديهم أطفالا هناك كما سبق أن بينا » وبدون نزاع لديهم « حياة الأسرة » ، وأننا عندما نغادر المستوى الكوكبى الثالث الذى تذهب إليه الغالبية منا بعد الموت ونعثر على بدء اهتزازات المستوى الرابع سنشاهد تغيراً فى الشكل وفى الشخصية يمس مساً عميقاً الأسرة والطفل على المستوى الرابع للوجود .

وقبل أن « نناقش » موضوع الطفل والمسكن اللذين هما نتاج التكاثر ينبغى أن نطرق ونتأمل موضوع الحب الكوكبى الجنسى وأثره من زوايا لا تزال مجهولة فى هذه الصفحات ، بما فى ذلك الميلاد ، والعودة للميلاد ، واختيار الآباء بمعرفة الأبناء ، والأمومة ، ووجهة النظر الأثيرية عن رغبتنا الجسدية .

وحسبما قادتنى إليه « بحوثى الخاصة ، أظن أن على أن أقرر أن الجنس موجود على كل مستوى من مستويات العالم الكوكبى إلى المستوى الرابع . « فالموجب » و « السالب » وبمعنى أوسع الذكر والأنثى موجودان وباقيان بلا نزاع إلى المستوى الرابع . ومع ذلك فالصلات بين الجنسين تتخذ هناك شكلا ونوعاً مختلفين عن « الجنس » فى المستويات المنخفضة لأرضنا ، حتى ليبدو تعبير « الجنس » غير ملائم ولا يصلح للاستخدام .

و « يهمنى » فى الابتداء أن أوضح أمراً ، وهو أن لاشىء ضائع البتة عند تقدم الرجل وشريكته المرأة من مستوى إلى آخر . فالحب ليس بضائع ، والحب ينمو بشدة فى قدرته وحساسيته ، ولا تضيع الشخصية عندما تتشرب المعانى والمفاهيم الأكثر اتساعاً للحب . فبقدر ما تتشرب بهذه المعانى وترتوى تربح الشخصية ربحا يتجاوز القياس ، وتصبح هى « الذات العظمى » للإنسان . وكما أن الأمة على أرضنا هى الذات العظمى بالمقابلة

للأفراد الذين يكونونها ، فكذلك الذات الجماعية للمستوى الكوكبي الأعلى تمثل الذات العظمى للعوالم الكوكبية .

وما أشد جبننا أهل الأرض عندما نخشى دائماً أن نغامر فى مياه أشد عمقاً حتى لا نفقد مواطىء أقدامنا . ومع ذلك فإننا لحسب عن طريق المغامرة والجرأة على اقتحام كل صعوبة نربح ، ونحصل على متع التحقيق والوصول .

وكثيراً مايتم الاتصال على الأرض بطريقة لاعاطفة فيها ، وحتى عندما يتم على الوجه المطلوب فلا يشابهإلا نادراً ظل الاتحادالكوكبي . فهو بالنسبة للملايين مجرد متعة للجسد خالية من أية متعة للعقل ، فهو عمل حيوانى . . إن الحماقة الأرضية تفترض أن الحب لايحتاج إلى دراسة ولا إلى عناية ، كما تفترض أن « أمنا الطبيعة» التى لا نعرف عنهافى المعتاد شيئاً البتة ، ستعلمنا كيف نحب . . .

ثم يتساءل دزموند عن الفارق الجوهرى بين الاتصال عند الأرضيين وعند الكوكبيين قائلا إن هذا الفارق هو — فيما يعتقد — أن الأعضاء على الأرض لاتظل أعضاء بقدر ماتصبح مصادر طاقة موصلة Conductors بسبب ارتفاع تردد الجسد الأثيرى ، وهذا موضوع لا يمكن أن يعالج علاجاً صريحاً إلا فى مؤلف خاص عن « وظائف الأعضاء الكوكبية » وهو ماكان المؤلف مشغولا به وقت كتابة هذه الكلمات .

ثم يضيف أنه حتى العاشق الأرضى يعرف متعة الاقتراب الأول من المعشوق ، وقبل أن يتم أى تلامس بينهما . فهذا الاقتراب بالنسبة لملايين العشاق يكاد يكون هو العمل الوحيد الذى لم يصدمهم بخيبة الأمل . وهذا سبب واحد من أسباب عديدة تدعو لأن يتم الاتصال فى روية على قدر الإمكان، ولأن يتم ارتياد معبد الحب فى خشوع كما لو كان الارتياد إلى مكان

مقدس . ولأن يتم فى رقة وفى فهم للأمور حتى نهاية الحب ، إن كان للحب نهاية . وهذه هى الأسباب التى تجعل لغة الاقتراب الأول وطريقته حاسمتين فى مصير ما قد يتبعه من صلات جسدية وعقلية وروحية .

بناء المسكن فى العالم الأثيرى

وفى الفصل الأربعين يلاحظ دزموند أن « الطفل » معناه « المسكن » لأنه لا يمكن أن يوجد مسكن (بمعناه الجميل) بدون أطفال ولا أطفال بدون مسكن . وسنعرف الآن كيف يبنى الكوكبيون مساكنهم . وكلمة « مسكن » تتردد أثناء كل محادثة كوكبية كما تتردد أثناء المحادثات الأرضية ، لأن المسكن هو نواة الحياة الكوكبية والأرضية ، ولذا كانت الذكريات ، وذكريات الحنين إلى الوطن، هى المنظم الإنسانى للحياة على هذا الكوكب. وأغلبها يجد مصدره فى « المسكن » ، ولم تجد أية أغنية فى عالمنا صدى عالمياً مثل أغنية « مسكنى أيها المسكن الجميل » Home Sweet Home التى ظلت الألسنة تغنيها خلال أجيال كثيرة على كوكبنا ...

وعندما ننتقل إلى مسكننا الكوكبى ستصدم الحقائق تصوراتنا وتقديراتنا السابقة . إذ سنجد هناك أسلوباً للحياة العائلية وللمسكن يتجاوز إلى مدى غير محدود كل ما تعرفه أساليبنا الأرضية الخانقة . .

فمن الشائع الزعم بأن المسكن المتوسط للحياة فى أرضنا هو المثل الأعلى، ولكن الكوكبيين يعرفون أفضل منا، بما لديهم من قدرة النظر إلى أرضنا وقلوبنا، ويرون أن كل شىء ليس على ما يرام فى الأسرة الأرضية ، وأن الأسرة السعيدة التى يتحدث عنها القصصى الرخيص نادرة نسبياً . وحتى الأسرة السعيدة يمكن أن تصبح بسرعة غير سعيدة فى غمرة التطور وضغطه لأن المسكن — شأنه شأن الفرد الذى يشيده — يمكن أن يتقدم فحسب عن طريق حركة البندول عندما يهتز بين السعادة والشقاء . .

وفى أرضنا الحديثة نحن نبنى مساكننا بالآلات ، فنحن نحيا حياتنا على أوسع مدى عن طريق الآلة ونتصرف كما لو كنا عبيداً لها ، ولكن عندما يسيطر الإنسان على الآلة نكون قد دخلنا حقيقة فى عصر «برج الدلو» الذى يتقدم فاتحاً ذراعيه للإنسانية المتعبة الشقية . وعصر برج الدلو هذا سيصبح فى مراحله الأخيرة العصر السعيد الذى سيصير هذا الكوكب البائس فيه كوكباً سعيداً ، أو بالأقل مسكناً معدوداً بين الكواكب التى تقدم إمكانيات للسعادة أعظم بكثير من السعادة التى نجدها فى هذه الأيام .

فنحن نبنى مساكننا بالآلات ، أما الكوكبيون فيبنونها بالفكر ، وهذا فارق من أهم الفروق الضخمة بين العالمين الأرضى والكوكبى ، وقد «عالجت» فى عدة كتب أسلوب هذا « الخلق بالفكر » الذى يبدو لأول وهلة للإنسان العادى كما لو كان من قصص الجنيات ، فإذا تأملته عن قرب لم يبد لك بعيداً عن التصديق إلى هذا المدى ، ولا تنس فى كل ذلك « أنى » ما زلت أكتب — بوجه عام — عن المستوى الثالث .

وهاهو مستخرج من حديث شفهى جرى مع مهندس كوكبى عن الطريقة الغريبة التى بها يشيدون مساكنهم فى العالم الأثيرى . وقد كان ذلك فى محاضرة ألقاها هذا الكوكبى إلى مجموعة كانت تجتمع خصيصاً كيما تتلقى هذه المعلومات . وقد تبينا مراراً أن هذه البيانات قد دعمتها الحقائق التى تنتمى إلى عالمنا حتى ولو كان تصديقها من الصعوبة بمكان . وعن طريق الاختبار المتبادل Cross Checking (١) مع كوكبيين آخرين أمكن للبعض منا أن يصلوا إلى

---

(١) يشير إلى طريقة التراسل المتبادل Cross Correspondence (راجع ما ورد عنها فى الجزء الأول ص ٢٢١ ، ٢٩٦).

الاقتناع بأن البيانات الواردة من العالم الكوكبي — عن طريقتهم في تشييد مساكنهم — بيانات صادقة .

وقد بدأ (هذا المهندس الكوكبي) حديثه بالقول بأن هدف كل تطور إنساني هو الوصول إلى الإدراك الواعي ، ومعه تأثير العقل في المادة[1] . وقال بأن أرضنا هي الثانية من أسفل في ترتيب تطورها وتقدمها بين جميع الكواكب . وعندئذ أدرك بعضنا إلى أي مدى نبدو متخلفين بالمقارنة مع الكائنات الكوكبية ، بل بالمقارنة مع ذواتنا العظمى Greater Selves على المستوى الكوكبي . وبحسب عن طريق الاتصال به يمكننا أن نقدر ضآلتنا وقلة أهميتنا ، ومعهما حماقة فلسفاتنا — المشيدة بعناية — ومعها ادعاؤنا بأننا قد حزنا كل المعرفة وكل الحكمة فنحن بعد لا نزال أطفالاً نلهو على حبة رمال واحدة تمثل الكون الذي نحيا فيه ، وفقط عن طريق التسليم بذلك يمكننا أن نتعلم فعلا شيئاً ذا قيمة على حد قول الكوكبيين لنا مراراً .

وقال هذا المهندس الكوكبي « إنكم تشيدون مساكنكم بالفكر كما نفعل نحن ، وكل الفارق هو أنكم عندما تكون لديكم فكرة أولية عن تخطيط مساكنكم تستدعون مهندساً هو الذي يصنع لكم رسماً منتزعاً من الفكر ، ثم يجيء دور البنّاء وغيره . أما هنا فنحن لا نحتاج لأي رسم أو لاستدعاء بناء أو سباك أو نقاش ، بل بحسب نتخيل مساكننا وحدائقنا وعندئذ تجيء إلى الوجود شيئاً فشيئاً ، كما يعمد الفنان المبدع إلى رسم مشروع أولي بالقلم الرصاص ، وبعد ذلك يملأ أجزاءه ثم يجعله أكثر وضوحاً إلى أن تتكامل الصورة أمامه .

وبعد ذلك يسرد المؤلف مناقشاته مع هذه الروح بالتفصيل . وهي

---

(١) راجع ما ورد في هذا الشأن في الجزء الأول ص ٤٦٤ — ٤٧٣ .

لا تخرج عما سبق أن ذكرناه عن أسلوب الحياة هناك وبخاصة عن سلطان الفكر فى صياغة جميع مظاهر هذه الحياة من الأثير وحده حتى يصبح كل شىء مادياً بالنسبة لحواسهم بما فى ذلك مساكنهم[1].

ثم يقول المؤلف إننا نعرف أن هذه الأرواح المرشدة ، التى هى مخلوقات أرضية واهنة يمكنها أن تبعث — كما تبعث محطات الإرسال — بعواطفها وبأفكارها المحبة إلى آلاف من « الفانين » فى وقت واحد . . فلماذا يكون من المحال على مخلوقات الله الصغيرة أن تظهر بالإرادة وحدها فى صورة أى عمر قد تراه وأن تشكل رغبتها إلى المدى الذى يمكننا من أن نتذكرهم ، وإذا شاءوا أن يكونوا موجودين على الأرض أو فى السماء .

إن ابن محبتنا يختلف عن ابن كراهيتنا فى أنه لا ينسانا ولا يتركنا أبداً . إن هناك آلافاً عديدة من الأمهات ذوات القلوب الكسيرة اللاتى عندما يقرأن هذه الكلمات يشعرن تماماً بمدى النعمة والراحة اللتين يجيئان من التجارب الحالية التى يقوم بها وسطاء الجلاء البصرى وغيرهم . ويجيئان عندما أقول لهن «حتى الآن وأنتن تقرأن تقف طفلتكن المتنقلة أو طفلكن بجانبكن ، يتطلع إليكن بعين مشرقة بالحب ، متلهفاً إلى الحديث معكن لإخباركن بكل شىء عن مسكنه الكوكبى الجديد ، وبأنه لا يوجد أى حاجز بين العالمين . وبأنه لا موت »

الحب الأفلاطونى

وعن الحب الأفلاطونى يتحدث المؤلف فى الفصل الخامس والأربعين متسائلا هل هذا الحب يمكن أن يوجد ؟ ومجيباً أنه قد يبين من الصفحات السابقة أن وجهة النظر الأثيرية عن الحب تتضمن ليس فحسب الحب

(١) راجع ما سبق فى ص١١٣ — ١٢٥ .

الشخصى الصرف purely personal بل أيضـــا الحب غير الشخصى impersonal ، إن أمكن للحب أن يكون أبداً كذلك . ومع ذلك ففى هذا المعنى الذى يتضمنه « الحب الأفلاطونى » يوجد مثال واحد من الحب الإنسانى الذى يقع بين الحب الشخصى الصرف الذى ينفى ما عداه ، وبين الحب غير الشخصى الأعظم منه الذى يعرف « بالعفة » التى تحدث عنها بولس الرسول . وصلات عفيفة كهذه قد تعزى عادة إلى روابط كارمية (نسبة إلى قانون الكارما أو ارتباط العلة بالمعلول فى نطاق حياة الروح) ترجع إلى تجسدات سابقة مشتركة ، تحدمن بين أثمن اختباراتنا الأرضية .

والحب الإفلاطونى عبارة عن حب بين رجل وإمرأة لا يرغبان فى معيشة جنسية مشتركة، ولا حاجة بهما لإشباع الجسد ، أو يقاومان هذه الرغبة بعزم إذا كانت موجودة ، وهو أمر لا يمكن لأحد من أتباع فرويد Frued أن يفهمه أو أن يصل إلى فهمه ...

لقد «عرفت» عدداً وفيراً من صداقات كهذه تقوم على الجمال والاتزان بين رجال ونساء كانوا أصدقاء أفلاطونيين . ومن هذه الأمثلة سأذكر مثالا واحداً كيما أوضح بمعانى « السماوية »، فالآن تجد أن مستوى المادة والروح مترابطان ومتداخلان ، وليس بمقدورك أن تفصل أحدهما عن الآخر وإنى أعلم عن اثنين راقيين ، عرف أحدهما الآخر عن طريق لقاء من لقاءات الصدفة كما نسميها ، ووجد كل منهما فى أخيه توأم الروح . فلا العمر ولا المظهر ولا الارتفاع ولا العمق يمكنه أن يحول بين توأم الروح وبين العثور على توأمه فى النهاية ، ومن ثم اندفع كلاهما إلى هذه الشركة بين الأرواح التى نتحدث عنها بطلاقة وعن غير فهم .

وأحد هذين « التوأمين » عبارة عن سيدة غير متزوجة فى الستين من عمرها الأرضى ، أما الرجل فهو شاب متزوج له عدة أولاد لا ينتمى أحد منهم بميوله إليه كما قد يعبر هو نفسه . وهذا الشاب مهذب ومتفان فى أداء

الواجب تفانياً نادراً ، وبالتالى متفان نحو زوجته ومنزله وأولاده الذين يمثلون مجتمعه الذى هو تعذيبه اليومى ، كما هى الحال بالنسبة لآلاف من الرجال من أمثاله . . .

وذات يوم شاهد هذا الرجل مصادفة تلك السيدة ذات الستين عاماً بعد أن أثقلت السنون كاهلها دون أن تثقل عقلها، وكانت إلى هذه اللحظة صلبة الرأى موضوعية فى تفكيرها ، وأدرك الرجل على الفور أنها تمثل له توأم الروح،إذ شعر لأول مرة فى حياته ـ كما قال ـ بأنه سعيد تماماً بالقرب من كائن إنسانى من الجنس الآخر ، برغم أنه لم توجد أبداً أية صلة مادية بينهما ، وشرع على الفور فى التودد إليها .

وذهلت السيدة العجوز ، بل فزعت من هذا التدخل فى حياتها الرتيبة فى العزوبية ونظرت بعين الريبة إلى الرجل ، وكما قالت لم يمكنها أن تفهمه بل ظنته مجرد مجنون عندما صارحها بأنها بالنسبة له كل شىء ، وبأنه لا يريد منها شيئاً إلا صداقتها وحبها إذ ليس دائماً يكتشف أحد التوأمين شقيقه من أول نظرة ، برغم أنه قد يحـــدث هذا « الوقوع فى الحب » من النظرة الأولى التى هى عادة « نفخة » الحب عند توأم الروح .

وظلت السيدة لمدى شهر أو شهرين تسخر آسفة من عاشقها ومن متابعاته الفجة . وفى عدة مرات طلبت منه أن ينصرف إلى أعماله وأن يعود إلى زوجته ، ولكنها ذات يوم جاءها الإلهام يرفع عنها الحجاب ، وتعرفت فى هذا الرجل الذى كان فى نصف عمرها الأرضى العاشق القديم الذى فقدته فى تجسد بعد آخر . وهى — التى كانت من المتعصبين لمذهب اللا أدرية Agnostic ومادية فى نفس الوقت — احست فى تلك اللحظة من التحقيق شيئاً يشبه الإيمان فى الحياة،وفى حب هجرته منذ زمن بعيد. وأصبحت كما لو كانت طفلا صغيراً ، على ما لاحظه معارفها ، وهى الآن سعيدة تماماً مع صديقها الذى أنشأت معه علاقة أفلاطونية نقية ، وأصبحت تحيا مع زوجته وأولاده دون أن تخفى عنهم قرابتها الأخرى له ، فالصراحة معناها الحرية .

لماذا تكون صداقة عذرية كهذه شيئاً حراماً فى مجتمعنا المتحضر ذى العقل المتشكك الذى لا يمكن أن يتصورها ؟ إنه — فحسب — عن طريق الحرية الكاملة فى الاجتماع وفى الصداقة بين الرجل والمرأة ، سواء أكانا عاشقين أم لا ، يمكننا أن نحصل على نصف بديل لسلطان عشق الجنس ، ومع هذا البديل قيم خلقية صحيحة.

ولا توجد قاعدة للحب ، ولا للعمر . فالحب ليس له عمر وهو كائن خارج الزمن . فقد كانت جاذبية الكاردينال ريشيليو Richelieu لا تقاوَم وهو فى الثمانين من عمره ، وفى وقت لم يكن بمقدوره أن يقف على قدميه . وغرق جوته Goethe فى الحب وهو فى السبعين من عمره وكان بدوره لا يقاوَم . ولقد سمعت شخصياً عن فتاة رائعة صغيرة فى الثامنة عشرة من عمرها وقعت فى غرام عنيف مع رجل يكبرها بمقدار ثلاثة أضعاف عمرها ، وظلت وفية لحبها على مر السنين رغم ممانعة الرجل فى إصرار المذهول السعيد ، فلا توجد قاعدة فى الحب .

جحيم الحب وجناته

وفى الفصل السابع والأربعين يتحدث دزموند عن «جحيم الحب وجناته» فى ضوء معلومات تلقاها أيضاً من روح عالم النفس الشهير ف . و . ه . مايرز ، وهى تمثل وجهات نظر وثيقة صلة بالتجارب الأرضية والكوكبية التى جمعتها « أنا » وآخرين خلال أكثر من ربع قرن . وبين جميع المتشككين أعتقد «أنى» أصعبهم مراساً لأن التجربة الطويلة علمتنى أن أكون حذراً حتى مع الأمر الواضح ، والا أتقبل أمراً إلا بعد تجارب وتأكدات متكررة ، ولذا « على » أن أقول إن ما سأدونه هنا ينبغى قبوله بالأقل فى أسسه . .

فعندما « تساءلت » ، « هل يختفى الجوع الجنسى أيضاً بالانفصال عن

الجسد المادى؟، أجابت روح مايرز كما فعل علماء آخرون من العالم الكوكبى، « إنه لا يختفى ولكنه يتغير » . وعن هذا التغير أحاول أن « أعطى » الآن أفكارى وتجاربى الروحية واضحة بقدر الإمكان .

إن ما « أسميه » «جحيم الحب» ليس مكاناً وهمياً، فهو جحيم الرغبة التى تفتقر إلى الإشباع. هو جحيم الشخص الإباحى الذى شيده لنفسه على الأرض خلال الاندماج وراء رغبته غير الأمينة، وعقابه هو أنه بعد إذ فقد جسده الفيزيقى ،ومع ذلك فإن أفكاره لا تزال متركزة فى إشباع شهوته السفلى ، فإنه يقع على اكتشافه الرهيب أنه لن يمكنه بعد الآن إشباعها فى المعنى اللحمى الدنىء ، لأن نشوة الجسد الأثيرى مختلفة عنها تماماً إن الرغبة الضالة تدعو للأسى، ولكن الهاوية التى يسقط فيها أمثال هذا الشخص تجل عن التصوير . كما أضاف روح مايرز قائلا « إن المسيح عندما تحدث عن الظلمة الخارجية بوصفها مقراً للخطاة كان يقصد ظلمة الروح وأسى العقل ، وضلال الرغبات التى لن تجد لها إشباعاً » .

وبحسب ما «سمعته» من روح مايرز وما «تعلمته» من أرواحى المرشدة إن أولئك الإباحيين يحاولون عن طريق باثولوجية التخيل أن يقيموا لأنفسهم « جنات للجنس » تصبح مع الوقت « جحيماً للجنس » . وفى هذه الجنات يحاولون عن طريق الفكر التخلى عن شهوة الجنس عن طريق إشباعها . ومع الوقت ينجحون لحسب فى الوصول إلى إنهاك قوة العقل الغارق فى الخطيئة ، المجرد حتى من القدرة على إشباع الرغبة الجسدية البائسة ،وبالتالى يتركون فى « الظلمة الخارجية » التى تحدث عنها المسيح ، أو المطهر الذى يعرفه بعض العقائد .

ولا محل لأن أؤكد أن تجارب أى اثنين من الإباحيين قد لا تتشابه كما لا تتشابه تجارب أى اثنين من الأرضيين الذين وصلوا إلى العالم الأثيرى أو الكوكبى ولو كانا عالمين علويين .

بل « إنى » ميال حتى للاعتقاد أنه بتركيز باثولوجى شديد للعقل قد يكون الإنسان الشهوانى القادم حديثاً إلى العالم الكوكبى قادراً على صنع جسد فيزيقى بديل مزود بأعضاء جنسية وكفيل بإشباع المتعة المطلوبة ولكن إلى حين فحسب ، فكما تقضى الخطيئة على نفسها بنفسها ، فكذلك جسد الرغبة المنحطة سرعان ما يتلاشى تاركاً النفس الشقية بشهوتها عارية أمام عالم التجربة. أو ليست هذه تجربة إباحيين كثيرين حتى فى عالمنا الأرضى، وهى أنهم بقدر ما يجرون وراء شهوة الجسد بقدر ما تفلت هذه منهم ؟ . .

ولكن فى يوم من الأيام ، وربما بعد قرون من التعاسة فى «الظلمة الخارجية» قد تجد هذه الروح البائسة المحطمة مهرباً من أسرها ، وقبل كل شىء من رفقائها السكريهين الذين اجتذبتهم نحوها باهتزازتها المظلمة . لأنه حتى فى مملكة الجحيم التى تقع فى المستوى الكوكبى المنخفض ، والتى وصفها الإنجيل وغيره، فإن الحب هو الحاكم والآمر الناهى ، ، ولكن شتان بين حب الشهوات السفلى ، وبين حب الروح الذى وصفه والترسكوت W. Scott قائلا « الحب هو الفردوس والفردوس هو الحب » .

لا شىء أبداً فى لغز هذا الحب قابل للزوال ، إنه حقيقى كالبارود أو كنسيج العنكبوت ، وهو قوى وجبار شأن كل قوى الحياة العظمى الجبارة سواء أعشنا فى الأرض أم فى السماء . فانصت إلى روح مايرز وهى تقول « وراء الطموح ، ووراء كل صور الأنانية فى الإنسان ووراء الصراع، ووراء الرغبات التى ينبغى أن نسوى حسابها فى حذر ، توجد العاطفة ، يوجد الحب : القوة المحسوسة التى تربط بين الأرواح المتآلفة . فهو أقوى من الموت ، وهو يغزو اليأس ، ويمكن أن يغزو كل مستويات الوجود المتناهية ، فينبغى أن يعتبر مبدءاً كونياً ، ويعرف بوصفه القوة الكائنة الموجودة وراء الرداء الذى يحاك لكم ، على مدى الزمن » .

« إن الموت يبدو رهيباً للإنسان العادى بسبب الانفراد الظاهرى . فلو

علم الحقيقة لذهبت مخاوفه أدراج الرياح ، لأن خطر انتزاع ردائه، أى انتزاعه من أولئك الذين يحبهم لا أساس له ، ولا جوهر صحيح فيه ، فحيثما ذهب الإنسان بعد الموت فسيجد دائماً أرواحاً آدمية قد ارتبطت بحياته الأرضية وأحبها بعمق — وربما حباً أعمى أو شريراً — فى تلك الأيام الخوالى وذلك مهما كانت غفلته الوقتية الآن ، أو مهما تنوعت تجاربه » .

وهذا القول الأخير (من روح مايرز) صحيح بقدر صحة دوران الأرض حول الشمس . فقد كررته مراراً لى ولآخرين خلال سنين كثيرة ، وبكل الوسائل وفى كل الظروف ، هذه الكائنات غير المتجسدة من الملائكة ومن الأرضيين المنتقلين . وهو يعطى أملا ويقيناً إلى أولئك الذين لم يموتوا روحياً أنه فى مكان ما وفى وقت ما سيعثرون هناك على أحبائهم ، ومعهم التحقيق الكامل لحياة الروح ...

إن كل شىء يتوقف على مستوى الوجود The Plane . فعشاق الأرض يذهبون إلى المستوى الذى أعدوا أنفسهم له خلال حياتهم الأرضية ، كما نفعل كلنا . فإذا ما عشنا حياة لبقة وجميلة على قدر إمكاننا فسنجد أنفسنا فى ذلك المستوى من الحياة الكوكبية الذى يمكن تشبيهه بسهولة بعالم الفردوس . أما لو عشنا معيشة الوحوش فسنجد أنفسنا إلى حين فى واحد من جحيم الكواكب ولكن فحسب إلى حين ، لأنه حتى الأبالسة يمكنها أن تخلص نفسها من نفسها ، بل إن رئيس الأبالسة نفسه ستدركه يوماً رحمة الله .

الحواجز تتداعى

ويختتم دزموند مؤلفه الرائع هذا عن «الحب بعد الموت» بالفصل الرابع والخمسين وموضوعه «الحواجز تتداعى» قائلا فيه « إن العصر الذى ولدنا فيه عصر مجيد، فينبغى أن نشكر الله على ذلك ، فهذا العصر الذى نمر به هو عصر برج الدلو Aquarian Age للحب وللحكمة .

إن الحواجز تتداعى ، وقبل مضى سنين كثيرة من الآن سيكون عندنا زائرون من السماء واقفين على المنصات العامة من يوم إلى يوم للحديث إلينا بأصواتهم الخاصة[١] ، فى وقت لا يجرؤ عالم يستحق هذا الاسم على إنكار حياة الإنسان بعد موت الجسد ، ولا إنكار أن أدلة دوام الحياة وخططها هى أخطر موضوع على الأرض ... بل الموضوع الحقيق الوحيد الذى ينبغى أن يعنينا جدياً ..

إن الحواجز تتداعى وكراسى الأستاذية ، وجمعيات البحث الروحى ، لم تؤسس فحسب فى اكسفورد وكامبردج بل أيضاً فى الولايات المتحدة ، وفى أمريكا الجنوبية ، وفى كل مكان آخر على هذا الكوكب ، وكلها تعلن انهيار الحواجز ، ولن يمكن أبداً بعد الآن ، وفى أى ظرف لأى إنسان مادى أن يغلق النوافذ .

« ويرى شبابكم رؤى ويحلم شيوخكم أحلاماً » فى حالة الانتقال هذه من المنظور إلى غير المنظور ، تظهر رؤى وأحلام لم يحلم بها أحد من قبل ... إن الدين نفسه هنا وهناك — وبالتدريج — ينسى نظرياته اللاهوتية كيما يعثر على «حبه» لأن الدين هو الحب والحب هو الدين ، وبسقوط الحواجز عن الاعتقاد المصنوع نجد الحواجز تسقط أيضاً عن الخرافات وعن الأوهام حول الحب والزواج .

فالحب ينبع من الروح ، والزواج ينبع من الحب لا من مجرد التراضى أو الادعاء ، ونيل المرام يكون فى هذا الحب الذى هو « الحرية الكاملة » . ولن يمكن بعد الآن لأى كاهن أو سياسى أو لاعب بالألفاظ أن يقيد وثاقه برياء الماضى .

---

(١) تحققت فعلا هذه النبوءة فأصبحت القاعات العـــامة فى الخارج تعقد الجلسات العلنية للاستماع إلى الأرواح وهى تخطب بأصواتها المباشرة ، وتحاضر ، وتعالج الأمراض المستعصية وسط جمهور غفير من الخاصة والعامة (راجع ماسبق فى الجزء الأول ص ١٤٤، ٣٨٩، ٤١٦).

إن الحواجز تتداعى . . . وإن عالمنا الصغير ينتقل الآن من مراهقة الكراهية إلى النضج الكامل للحب . وعندما نتحقق أن الرجل وشريكته المرأة خالدين غير قابلين للفناء وأن « القتل » مستحيل فإن حروبنا ستبطل تدريجيا من أرضنا الدامية ، وسندخل إلى العصر الذهبي للحب الذى تحدث عنه كل شاعر .

ولكن الحواجز ستتداعى فحسب بقدر مانقدر على تحمل الكشف الكامل والضوء الباهر . فالانحسار المباغت للحجب التى تحجب الروح عن مادتنا العاجزة قد يقود إلى العمى المباغت ، وإلى التقهقر للوراء ، لأن البشر كالقطط الصغيرة تتحمل الضوء بصعوبة .

إن أرضنا تتطور ، وإننا نتعلم كيف نتحمل تدريجياً هذا الضوء الذى فرض نفسه علينا خلال السنين الأخيرة . إن الضوء يلقى شعاعه على شواطئنا الحزينة . لقد طلع الفجر ، وولد الحب من الموت » . .

خاتمة

هذه هى بعض الجوانب الهامة فى النظرية العامة التى وصل إليها علم الروح الحديث بعد بحوث قرن ونيف من الزمان عن أسلوب الحياة فى بعض عوالم ما بعد المادة استعرضناها فى هذا الباب من أهم زواياها — إجمالا — ومستندين إلى أعمال لفيف من أبرز العلماء والبحاث ومستبعدين تماماً ماعداها ، لأننا نعلم أن هذه الناحية بالذات من نواحى البحث هى أشدها دقة وأكثرها وعورة . فينبغى أن يكون الإنسان فيها أكثر تحفظاً من غيرها ، ولو أن التحفظ فى كل مقام صفة محمودة .

وقد كان اهتمامنا موجهاً بوجه خاص إلى بعض جوانب أسلوب الحياة فى ذلك المستوى من عوالم ما بعد المادة الذى اصطلح الباحثون على وصفه بالمستوى الثالث « أو بالسمرلاند » لأنهم اتفقوا أيضاً على أنه هو المستوى المخصص للغالبية العظمى من الأرواح الأرضية السعيدة . فهو « مكان »

أو بالأدق مستوى من حالة نفسية يهم أمره كل إنسان من ساكنى هذا الكوكب الضائع فى اتســـاع الأبدية ، كما تضيع ذرة من الرمال فى الصحراء الكبرى .

والمستوى الثالث هذا مستوى راق تماماً كما ظهر للقارىء بغير ريب خلال الأوصاف التى أسلفناها ، ومن باب أولى المستويات التى تليه ارتفاعاً بكل ما تحتوى عليه من مناطق لا تنتهى فى تنوعها عند حد ، وبالتالى فى تنوع أساليب الحياة فيها . وإذا كانت الحياة منوعة جداً هنا فى هذا الكوكب الضئيل الحجم فما بالك بالحياة الكوكبية فى اتساعها غير المحدود .

فهناك مستويات كوكبية للحياة غير راقية ولا سعيدة يشير إليها الباحثون أحياناً بوصف اصطلاحى هو « الظلمة الخارجية » ومثله وصف « وادى ظل الموت » وغير ذلك من الأوصاف الاصطلاحية المتعددة .

ففى هذه المناطق غير الراقية يقاسى الإنسان حتماً من مظاهر « فاقة الروح » التى قد يتصف بها . كما قد يقاسى أحياناً من الانفراد والعزلة ، وأحياناً أخرى من الضوء النفاذ الذى يؤلمه ويكشف عيوبه للناس ، أو من الظلام ، او من عشرة الأرواح الجاهلة أو الشريرة التى تعكس له فى الواقع رذائله الخاصة ، وأنانيته التى قد يتصورها دفينة بين جنبيه ، وهى ظاهرة فى كل تصرفاته وأفكاره .

وهذه العشرة المؤلمة تكون للانسان بمثابة المرآة التى تعكس له أخلاقه الخاصة فيقاسى منها بنفس المقدار الذى قد يفرضه على الآخرين فى حالته الجديدة ، والذى سبق أن فرضه عليهم فى حياته الأرضية . فقانون التوافق أو التجانس يمثل حكمة الله تعالى فى عدله وفى رحمته معاً ، أو هو بالأدق يمثل للإنسان عدل الله إلى أن تدركه رحمته التى لن تتخلى عنه — فى النهاية — أو تنساه ، مهما تخلى هو عن نفسه واستسلم لمصيره التعيس الذى جلبه على نفسه ، وعلى ذلك أجمع البحاث فى كل مكان .

وفى وصف هذه المناطق غير الراقية يقول سويدينبرج الوسيط الفيلسوف « لا ينقطع النقاش بين النفوس الزائفة ، ولا الصراع فيما بينها لأنها تحيا فى زيف الحياة ، فلا ينقطع أيضاً الاحتقار المتبادل فيما بينها والبغضاء والكبرياء والإلحاد . وكل يدافع عن زيفه قائلا إن هذه هى الحقيقة بعينها»[1].

وذلك يكشف عن وجود قوانين طبيعية للكون تحكم التطور الخلقى للحياة بنفس الصرامة التى تحكم بها تطورها المادى . قوانين أخذ العلم الروحى فى الكشف عنها تدريجياً ، ولكن بمشقة بالغة ، لأنها تحكم مستوى آخر للوجود مختلفاً تماماً عن مستواه المادى ، الذى لم يستكشف الإنسان بعد سوى قدر لا يكاد يذكر من قوانينه ، رغم خضوعه لحواسه ولوسائل اختباره المألوفة .

فإذا كانت حقائق علم الروح قد تطمئن الإنسان على قدره ومصيره ، فإنها قد كشفت أيضاً عن قوانين كانت مجهولة للألم وللحرمان لا تفريط فيها ، من شأنها تعزيز ثقة الناس فى قيمة الفضيلة والإيمان بالله ، وتنبيه الغافلين ، المستسلمين لسلطان النفس الأمارة بالسوء ، أو لدعاوى التشكك والإلحاد ، والتى لم تقف فى وجهها قوة فى هذا العصر العلمى أقوى من قوة هذا البحث الجديد ، الذى يمثل فى نفس الوقت بعثاً لأقدم معارف الإنسان .

وذلك كله يتطرق بنا إلى الباب الثالث الذى خصصناه للكلام فى موضوع « الثواب والعقاب » بوصفه أخطر مشكلة فلسفية يقدم فيها علم الروح الحديث نظرية وضعية جديدة — مستمدة من محض تجارب واقعية — بأساليب علمية لم تكن معروفة من قبل ، ومؤيدة تماماً لما نادت به جميع العقائد منذ أقدم الأزمنة عن وجود نواميس طبيعية ثابتة أزلية للثواب وللعقاب .

---

(١) « الفردوس والجحيم » من الفرنسية فقرة ٥٧٥ ص ٤٤٢ .

الباب الثالث
فى الثواب والعقاب

تمهيد

يعد الثواب والعقاب من أهم الموضوعات الفلسفية التى عنى بها الباحثون فى الروح ، الأقدمون منهم والمحدثون . ومن أفضل من كتب فيها بالعربية من الأقدمين الإمام الغزالى فى كتاب « الأربعين فى أصول الدين » الذى يقرر فيه أن « الروح لا تفنى البتة ولا تموت ، بل تتبدل بالموت حالها فقط ، ويتبدل منزلها فترقى من منزل إلى منزل » « كما يقول « فأما الحقيقة التى أنت بها أنت فلا تفنى بالموت أصلا بل يتغير حالك فقط ، فيبقى معك جميع معارفك وإدراكاتك الباطنة وشهواتك » ويقول أيضاً « المشهور عند أهل العلم أن الإنسان يعدم بالموت ثم يعاد ... فاعلم أن من قال إن الموت معناه العدم فهو محجوب عن حضيض التقليد ويفاع الاستبصار جميعاً » .

ثم يذكر الأسباب الرئيسية للعذاب بعد الموت فيقول إنها على ثلاثة أصناف : الأول — العذاب الناجم عن حرقة فراق المشتهيات الدنيوية . الثانى — العذاب الناجم عن انكشاف فضائح الميت بعد موته . الثالث — العذاب الناجم عن الحسرة على ما فاته من الدرجات العالية عندما يرى أن غيره قد نال تلك الدرجات .

وهو يقرر أن هذه الأنواع الثلاثة من العذاب تصيب الميت بالتدريج ، وعلى الترتيب المذكور . كما يقرر أن عذاب فراق الشهوات الدنيوية وعذاب الخزى والفضيحة ربما يخففان عنه بمضى الزمن وبعد العهد عن الدنيا « ثم تبقى حسرة الفوت آخراً ، ويشبه أن يكون ذلك لا آخر له » .

كما يبين أن تحريم اللذات على أهل العذاب « ليس من جنس تحريم

الرجل نعمه على عبده يغضب ... فلا تظن أن الله يغضب عليك فيعاقبك انتقاماً ، ثم تخدع نفسك برجاء العفو فتقول : لم يعذبنى ولم يضره معصيتى ، بل يلزم العذاب من المعصية كما يلزم الموت من السم » . فالعذاب بعد الموت عند الإمام الغزالى إنما هو نتيجة طبيعية لمقدمات معينة . أى أن قانون السببية يحدث أثره فى عذاب الروح وهنائها من تلقاء نفسه ، كما أشرنا إلى ذلك فى جملة مناسبات ، وكما سنبين ذلك مؤيداً بأسانيده فيما بعد .

وقد بدأنا باب الثواب والعقاب بهذه الفقرات نضعها تحت بصر القارىء ، كيما يدرك كيف أن العلم الروحى الحديث يوضح هذه المعانى العامة ويحددها ويعطى أمثلة عملية لها مأخوذة من واقع التجربة العملية لا الاجتهاد النظرى ، أما المبادىء فلا زالت على حالها دون أى تغيير ، وفى ذلك وحده ما يدل على أن الإمام الغزالى كان ملهماً عظيماً من الأثير ولم يكن فحسب من أصحاب التفاسير . وكل من قرأ للغزالى وتعمق فيه يقدر تماماً روحه الشفافة ، هذه الشفافية التى هى العلامة المميزة لكل عمل جليل على مر الدهور .

وفى شأن الثواب والعقاب بعد الموت مباشرة كتب الأستاذ رابح لطفى جمعة ـ القاضى حالياً ـ يقول إن هذا ما « يؤيده القرآن الكريم حيث يقول « وهو الظاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون . ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق إلا له الحكم وهو أسرع الحاسبين » فإن هاتين الآيتين تؤيدان حصول الحساب بعد الموت مباشرة كما هو واضح من معنيهما » .

ثم يضيف قائلا ، وعلى ذلك قال إخوان الصفاء « إن النفس إذا فارقت هذا الهيكل فليس يبقى معها ولا يصحبها من آثار هذا الجسد إلا ما استفادت من المعارف الربانية والأخلاق الجميلة . فإذا رأت تلك الصورة فرحت بها وذلك ثوابها ونعيمها » (ص ٦٥ عن فلاسفة الإسلام) . وخلاصة القول إن ثواب الإنسان وعقابه بعد الموت مباشرة أمر محقق ولا سبيل إلى

إنكاره ، لا سيما وأن الروحية الحديثة أيدت هذا الأمر كل التأييد ...»[1]

ثم يستشهد فى موضع آخر بآيات كريمة كثيرة منها : —

— « إنا نحن نحي الموتى ونكتب ما قدموا وكل شيء أحصيناه فى إمام مبين » (٣٦/٢١) .

— « زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا . قل : بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير » (٦٤/٧) .

— « يوم يبعثهم جميعاً فينبئهم بما عملوا . أحصاه الله ونسوه . والله على كل شيء شهيد » (٥٨/٦) .

— « وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً . اقرأ كتابك . كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً » (١٧ ، ١٤/١٧)[2] .

* * *

وإذا كنا نعتمد هنا بوجه خاص على نتيجة أبحاث العالم الروحى آلان كاردك Allan Kardec ، فلأن محور بحثنا فى المؤلف الحالى هو «العلم الروحى الحديث» . وقد اخترنا آلان كاردك بالذات لأن إنتاجه لا يزال يمثل حتى الآن مستوى من أرفع مستويات الإنتاج الفلسفى فى نطاق علم الروح ، إلى حد أن غالبية من خلفوه فى فلسفة الحركة الروحية الفرنسية لم يضيفوا إليه شيئاً يذكر ، فلا زال معتبراً زعيماً للفلسفة الروحية الفرنسية ، بل اللاتينية بوجه عام . ولا تزال بحوثه معتبرة المراجع التقليدية لمن يريد أن يحيط من علم الروح بجوانبه الفلسفية التى أولاها عناية خاصة .

وقد اسند فلسفته إلى أرواح راقية كثيرة ، مثل أفلاطون فيلسوف الإغريق ولامنيه Lamneais الفيلسوف الفرنسى وفنيلون Fénélon ، وإلى عدد من القديسين مثل القديس بولس St. Paul والقديس لويس St. Louis

---

(١) مجلة « عالم الروح » عدد مارس سنة ١٩٤٨ (عدد ٥ سنة ١) ص ٢٤، ٢٥ .

(٢) مجلة « عالم الروح » عدد أغسطس سنة ١٩٤٩ (عدد ١٠ سنة ٢) ص ٣١، ٣٢ .

والقديس أوغسطين St. Augustin . وكان في إسناده دقيقا فكان يسند كل فقرة أو إيضاح أو إجابة على سؤال معين إلى مصدره الروحي معيناً باسمه . وقد ذكر في « كتاب الأرواح » أن هذه الأرواح الراقية انبأته أنها جاءت خصيصاً كيما تؤدى هذه الرسالة الهامة . وأن هذه التعاليم تقصد بها خدمة الإنسانية ودفعها إلى الأمام في طريق تفهم مستقبلها ومصيرها لأن العناية الإلهية تريد لها النجاة ولا تريد التخلي عن مساعدتها .



آلان كاردك

وقد ولد هذا الباحث الفيلسوف — وكان اسمه الأصلي هيبوليت ليون دنيزار ريفاى Hippolyte-Leon-Denizart Rivail — بمدينة ليون في ٣ أكتوبر سنة ١٨٠٤ من أسرة عريقة أنجبت كثيراً من القضاة والمحامين . واتجه إلى دراسة العلوم والطب والفلسفة. وقضى جزءاً من شبابه في سويسرا لإتمام تعليمه ، ثم عاد إلى بلاده واشتغل في التعليم ردحاً من الوقت وترجم إلى اللغة الألمانية بعض مؤلفات فرنسية في التعليم وفي الأخلاق، بالإضافة إلى أعمال الفيلسوف فنيلون Fénélon .

ثم اختير عضواً في بعض هيئات علمية راقية من بينها الأكاديمية الملكية بمدينة أراس Arras التي منحته جائزة أدبية عن أحسن بحث يوضع للإجابة عن السؤال الآتي: « ما هو أحسن نظام للتعليم وأكثرها التئاماً مع حاجيات العصر » ؟ ، كما وضع عدة كتب في مادة التربية Pedagogie لا تزال مراجع هامة حتى الآن في الجامعات الفرنسية .

وقد نظم دروساً بمعاونة زوجته — وكانت مثقفة مثله — في الفيزياء والفلك والتشريح . ثم بدأ بحوثه في موضوع العلم الروحي الحديث منذ أوائل العهد به في سنة ١٨٥٤ عن طريق أحد أصدقائه الذي كان والداً

لوسيطتين قويتين ، وفى إحدى الجلسات الأولى طلبت منه روح مرشدة كانت ترمز إلى نفسها « روح الحقيقة» أن يستعير اسم آلان كاردك الذى كان اسمه السابق عند تجسده الأرضى أيام الدرويد Druides كما أخبرته ، طالبة منه أيضاً أن يواظب على جلساته الروحية . ومنذ هذا التاريخ اهتم بموضوع الأرواح هذا .

وقدظهر أول مؤلفله وهو « كتاب الأرواح»(١) فى أبريل سنة١٨٥٧ ثم ظهر له « كتاب الوسطاء»(٢) فى يناير سنة ١٨٦١ . ثم كتاب «الانجيل طبقاً للروحية»(٣) فى أغسطس سنـــة ١٨٦٤ . ثم كتاب « التكوين والمعجزات والنبوءات طبقاً للروحية»(٤) فى يناير سنة ١٨٦٨ . كما أسس « المجلة الروحية» فى نفس التاريخ وكان يطلق عليها أيضاً «جريدة الدراسات النفسية » .

ثم أسس فى أبريل سنة ١٨٦٨ «الجمعية الباريسية للدراسات الروحية(٥)» تحت رئاسته وقد كان لها عدة فروع فى الأقاليم . وانتقل إلى عالم الروح بباريس فى ٣١ مارس سنة ١٨٦٩ عن خمسة وستين عاماً .

وكانت حياته فى ذروة النقاء والفضيلة متسمة بطابع التفانى فى أداء الواجب والخدمة المجانية ، فلم يجد أعداؤه — وكانوا كثيرين — أية شائبة فيها أو أى مأخذ يأخذونه عليها ، كما كانت كتاباته مع ما فيها من تجديد — بل من ثورة فى الفكر الروحى الفرنسى — تتميز بالاتزان التام وبالهدوء فى عرض آراء الأرواح ومناقشة معارضيه .

فلم ينزلق لسانه بأية كلمة من العنف أو الاندفاع ، رغم أن كتبه

(١) Le Livre Des Esprits.

(٢) Le Livre Des Mediums.

(٣) L'Evangile Selon Le Spiritisme.

(٤) La Génèse, Les Miracles, Et Les Prédictions Selon Le Spiritisme.

(٥) La Société Parisienne d'Etudes Spirites.

حرقت ذات مرة فى مدينة برشلونة علناً بحجة منافاتها للعقيدة ، وكان آلان كاردك قد أرسل منها أربعمائة نسخة هدية مجانيـة منه إلى مكتبة المدينة ، فقابل ذلك بهدوء ولم يخرج عن طريقته العلمية فى المحاجاة المنطقية المتزنة حتى النهاية ، وفى الدفاع عن عقيدته الروحية وهى أنه « بغير البر لا يوجد خلاص » فهل فى ذلك ما يدعو إلى غضب إنسان ؟ ... وباعتداله هذا أمكنه أن يكسب المعركة ويضم للحركة الروحية أنصاراً جدداً من بين المتدينين ، ومنهم صفوة من المفكرين والأدباء والعلماء .

وقد وصفه العلامة شارل ريشيه Ch. Richet — عضو أكاديميتى الطب والعلوم — فى مطـــوله « فيما وراء الروح » (ص ٣٤) بأنه « بلا منازع أقوى من أحدث تأثيراً نفاذاً ، وقد رسم أعمق الخطوط فى علم ما وراء الروح منذ تجارب وليام كروكس الشهيرة التى ترجع إلى سنة ١٨٧١ » .
كما وصفه الأستاذ أندريه ديماس André Dumas بأنه تناول دراسة جميع الأنواع الكبرى للظواهر فوق العادية . وأحسن تقسيمها وشيد عليها خطر المبادىء العلمية الحديثة . وهذا الجانب العلمى فى إنتاج آلان كاردك هو الذى تولى تنميته وإبرازه فيما بعد جابريل ديلان وكامى فلا ماريون بين آخرين ، مسايرين التيار العظيم الذى بدأه الإنتاج القوى لفردريك مايرز ووليام كروكس ، وممهداً بذلك الطريق أمام علم ما وراء الروح بمعناه الحديث..»[1]

وقد نقل المرحوم الشيخ طنطاوى جوهرى فى « كتاب الأرواح»[2] طرفاً من بحوث آلان كاردك مبيناً كيف أن ما بها من تعاليم خلقية سامية، ومن تفاصيل دقيقة عن الثواب والعقاب، تتفق مع التعاليم الدينية ، ومدللا على ذلك بقدرة الفقيه المتبحر ، والعالم صاحب التفاسير القيمة التى ينظر إليها فى العالم الإسلامى كله بعين التقدير التام .

ونحن نقدم هنا طرفاً من كتابات هذا الرائد الروحى الكبير عن مؤلفه

(١) عن « علم الروح » ص ٤٠٤ La Science de l'Ame. P. 404

(٢) راجع طبعة ١٩٢٠ ص ٥٦ وما بعدها .

« الجنة والنار »(١) موجهين النظر إلى أنها ليست آراء شخصية له ، بل هي خلاصة أبحاث طويلة مع أشخاص انتقلوا إلى عالم الروح في درجات متفاوتة من العلم والإدراك ، وقد عاشوا حياتهم الأرضية خلال عصور مختلفة من التاريخ ، وكان بعضهم معروفاً من المؤلف معرفة شخصية والبعض الآخر مجهولا منه . وكان يحضر من تلقاء نفسه أو بتأثير من الأرواح المرشدة للجلسات بهدف إثارة الموضوع في أذهان الحاضرين في مقر « الجمعية الباريسية للدراسات الروحية » التي كانت تنشر محاضرها أحياناً في « المجلة الروحية » مع أسماء هؤلاء الحاضرين .

وقد نشر المؤلف في القسم الأول من مؤلفه هذا — في الفصل السابع منه — ما أسماه « قانون العقوبات في الحياة المستقبلة » في ثلاث وثلاثين قاعدة لخص فيها في عبارات سريعة القواعد العامة للثواب والعقاب ، وذلك بعد أن استعرض في الفصول السابقة لذلك الفصل النظرية الروحية بالمقارنة مع النظريات الأخرى في شأن « الجنة والنار » بما يضيق عنه المقام .

وإنما نكتفي بأن نعرض هذه القواعد العامة — وعددها ٣٣ كما قلنا — في فصل أول . ثم نقدم بعض نماذج من الاتصالات التي تمت مع الأرواح ، وسنختارها من فئات مختلفة منها تتفاوت بين السعادة والشقاء في فصل ثان ، وذلك كله لإعطاء فكرة عامة عن النظرية الروحية في شأن الثواب والعقاب أما من يريد المزيد فعليه بالرجوع إلى المؤلفات التي تناولت شرح هذا الموضوع .

والفقه الروحي في شأن الثواب والعقاب لا يستمد قوته — كما لاحظ المؤلف — « من سلطان الروحية الخاص في إنشاء قانون كيفما اتفق بل من أن قانونها فيما يتعلق بمستقبل الروح مستقى من مشاهدات مبنية على وقائع » . إذ أن ذلك هو ما يميز في الواقع جوهر البنيان الروحي في شتى جوانبه ، هو أنه مستمد من تجارب معملية ومشيد على وقائع محددة ، وهو ما كفل له القدر المطلوب من الترابط في كل بحث علمي يستحق هذا الاسم .

---

(١) Le Ciel Et l'Enfer.

الفصل الأول

فى مبادىء الثواب والعقاب بوجه عام

قبل أن نبين المبادىء التى تحكم الثواب والعقاب كما استخلصها العلامة آلان كاردك من بحوثه نبادر إلى القول بأن المؤلف قد أشار فى أكثر من موضع منها إلى فكرة عودة الروح إلى التجسد الأرضى بعد الخروج منه بمدة طويلة أو قصيرة . ونظرية العودة إلى التجسد الأرضى Reincarnation, Métempsychose سائدة جداً فى الفقه الروحى ، ويؤمن بها أغلب الباحثين فى الروح إلا أنه لا يمكن القول مع ذلك بأنها تلاقى قبولا عند إجماعهم .

وقفة عند نظرية العودة للتجسد

فنظرية العودة للتجسد هذه نظرية قوية لها أنصارها الكثيرون — كما قلنا — دون أن يمكن القول بأنها حقيقة علمية قد ثبتت بمقدار ثبوت الحياة بعد موت الجسد فى تقدير هؤلاء الباحثين أنفسهم . وذلك لسبب هام يجعل إثباتها بالبراهين العملية أمراً شاقاً ، وهو أن العودة إلى التجسد الأرضى تؤدى إلى فقدان ذاكرة العائد الواعية تماماً فيما يتعلق بحياته الأرضية السابقة .

ومن الأمور محل النقاش فى هذا الميدان بحث عدد مرات العودة ، والفاصل الزمنى بين كل حياة أرضية وأخرى ، وما إذا كانت العودة اختيارية أم مفروضة على كل إنسان كقاعدة عامة ، وبواعثها وظروفها ... وغيرها من أوجه النقاش بين المدارس الروحية المختلفة على النحو الموجود فى كل ميدان من ميادين العلوم النظرية والعملية معاً .

وتنادى غالبية الأرواح المعلمة أيضاً بإمكان العودة للتجسد على المستوى الأرضى ، وذلك كوسيلة تتخذها روح راقية — أحياناً — لأداء رسالة ما من الخدمة الراقية على هذا المستوى قد لا تؤدى إلا عن طريق العيش بين البشر

والاختلاط بهم. وتكون الروح فى هذا الشأن كإنسان راق يقبل السفر إلى بلاد نائية متخلفة حضارياً ، ويقاسى أهوالا من سوء المعاملة ومن الظروف الطبيعية القاسية فى سبيل أداء رسالة علاجية نبيلة ، أو رسالة لتخفيف ويلات مجتمعه الجديد ، أو تعريفه ببعض أسباب التقدم والعرفان اللازمة له .

كما يقولون إن العودة للتجسد قد تكون ـ أحياناً أخرى ـ وسيلة لتكفير الروح المتجسدة عن أخطائها السابقة ، أى لسداد ديون الماضى بصورة ما ، أو كيما تحصل هى نفسها على مزيد من التطور والارتقاء تحت تأثير قسوة ظروف الحياة فى هذا الكوكب الحزين الملىء بصنوف الشقاء ، وبدواعى الكفاح المرير . ويعد عندئذ يوم ميلاد الروح على هذا المستوى الأرضى من أتعس أيام حياتها ، كما يعد يوم انطلاقها من أسر هذا المستوى الكئيب هو يوم الإفراج المرتقب بعد طول الاعتقال فى المنفى السحيق .

ويجد عدد ضخم من الروحيين فى نظرية العودة للتجسد هذه تفسيراً لأمور كثيرة يتعذر تفسيرها تفسيراً مقبولا بغيرها : ومنها ولادة بعض الأطفال عمياناً أو مشوهين أو عاجزين ، مع أن الله تعالى عادل ورحيم ولا يتصور أن يكون قد فرض على هؤلاء الأبرياء آلاماً رهيبة لغير ذنب جنوه ، أو لذنب اقترفه أحد آبائهم أو أجدادهم . أما مذهب العودة للتجسد فيقول إنهم قد اقترفوا فى حياة سابقة لهم ما اقتضى ولادتهم على هذا النحو للتكفير عن طريق الألم عما اقترفوه .

وكذلك الشأن فى تعليل كل تعاسة قــــد تصيب إنساناً ما . وقد لا تبدو مسئوليته عنها واضحة فى سلوك حياته الحاضرة ، فهم يقولون إن سبب تعاسته كامن فى حياته أو فى إحدى حيواته السابقة ، وإن هذه التعاسة تعد نتيجة محتومة لقانون الكارما Karma أو ارتباط النتائج ارتباطاً محتوماً بأسبابها ، بقدر اتصال هذا الارتباط بحياة الروح التى لا تتوقف . فهذا القانون يعلل التعاسة ، كما يعلل السعادة الراهنة على نفس النحو .

ويجد أنصار هذا المذهب — من الأرواح ومن الروحيين — تعليلا لما يبدو فى البشر من تفاوت ضخم فى المواهب وفى الملكات العقلية والخلقية والروحية . وهو تفاوت لا يتناسب فى مداه مطلقاً مع سنى الحياة الأرضية القصيرة وما يحدث أثناءها من تطور ضيق النطاق محدود المدى . بل إن هذا التفاوت قد يظهر منذ سنى الحياة الأولى على الأرض ، فمنذ الطفولة المبكرة قد تظهر على طفل معين مخايل الذكاء والنجابة ، وجمال الأخلاق أيضاً ، حين قد تظهر على طفل آخر — وقد يكون شقيقاً له — مخايل البلاهة أو الغباوة أو شراسة الطباع .

ويجدون فيه أيضاً تعليلا لما قد يبدو على بعض الذكور من عراقة فى الذكورة ، وعلى بعض الإناث من عراقة فى الأنوثة ، وعلى البعض الثالث من حالة مشتركة قد تجمع إلى صلابة الرجولة واعتدادها برأيها قدراً واضحاً من رقة الأنوثة ولين عريكتها ، وعلى البعض الرابع من انحراف نحو نفس الجنس . فيقولون إن ذلك كله راجع إلى التجسد المتكرر فى أحد النوعين دون الآخر ، أو فيهما معاً مرة بعد مرة ، بل يحاول بعض الروحيين تفسير بعض صور الشذوذ بأنها قد تتضمن نوعاً من الحنين غير الواعى للماضى السحيق فى صورة أو فى أخرى .

ويقولون أيضاً إنه إذا كان التجسد على المستوى الأرضى مفيداً فى نضج الروح ونمو ملكاتها ومواهبها عن طريق الألم فإن التجسد لمرة واحدة قد لا يكون كافياً ، خصوصاً إذا كانت فترة التجسد الأرضى قصيرة بسبب حلول الأجل المحتوم فى طور الطفولة أو حتى فى الشباب . وإن تعدد مرات التجسد على هذا المستوى يفسح للروح مجالا أكبر للحصول على مزيد من المعرفة والاختبار ، وبالتالى على مكانة أسمى فى العالم الذى تستحقه الروح - بحسب مرحلة تطورها — من عوالم ما وراء المادة .

فمثلا تجسد الروح فى الرجولة يعطيها فرصة أو أكثر للتقدم فى صفات

الرجولة الطيبة ، مثل الشجاعة والعزيمة والإقدام والحكمة والتواضع والصدق والتسامح . وتجسدها فى الأنوثة يعطيها فرصة أو أكثر للتقدم فى الصفات الطيبة للأنوثة مثل قوة الاحتمال ورقة الشعور وعمق العاطفة والتضحية والحنان والحياء ، كما قد تكون الأنوثة ترويضاً للروح على العفة وضبط النفس ... وهكذا حتى تتكامل الفضائل المطلوبة فى الروح فلا تعود بحاجة للتجسد بعد على المستوى الأرضى ومعاناة دروسه وآلامه ، بل قد تستحق عندئذ مكاناً أرقى فى مستوى آخر من المستويات الراقية فى عوالم الأثير .

بعض تجارب معملية فى جانب هذه النظرية

هذا عن بعض النواحى النظرية ، أما عن النواحى المعملية فيستند أنصار العودة للتجسد Reincarnationalistes إلى بعض تجارب معملية منها :

أولا : بعض حالات نادرة من عودة الذاكرة القديمة فجأة ، التى حققها علماء ثقاة عند أشخاص أمكنهم أن يتذكروا أحياناً قليلة ماضياً معيناً لهم سابقاً على حياتهم الحالية ، ويقيموا بعض الأدلة عليه مثل الإرشاد الصحيح عن بعض الوقائع ، أو بعض الأماكن ، أو بعض الذكريات الدفينة . وهذه الحالات خضعت للبحث فى نطاق علمى السيكولوجى والباراسيكولوجى .

وهذه الظاهرة يطلق عليها ظاهرة « رؤى من قبل Déjà vu » أو « سمع من قبل Déjà entendu » . ومنها صور ثبتت صحتها ، وصور أخرى تنتمى إلى تخيل موهوم للرؤية أو للسماع من قبل ويطلق عليها وصف Paramnesie .

ثانيا : كما أمكن أحياناً عن طريق بعض الحالات العميقة للتنويم المغناطيسى إرجاع ذاكرة المنوَّم مغناطيسياً إلى ما قبل ولادته ، فروى بعضهم ذكريات عن وقائع معينة وبأسماء محددة فى الذكورة وفى الأنوثة معاً ، وقد أخضعت بعض هذه الحالات للتحقيق العلمى . وقد بدأ هذه التجارب منذ مطلع القرن الحالى الكونت كولونيل ألبير دى روشا

Albert De Rochas مدير مدرسة الهندسة العسكرية L'Ecole Polytechnique بباريس وشرحها فى مؤلفاته المعروفة فى التنويم المغناطيسى[1]، ثم واصلها غيره فى عدة بلاد.

ثالثا : وأمكن لعدد من الأرواح بعد تحررها من أجسادها الأرضية « بالوفاة » أن تتذكر شطراً من حياة سابقة لها أو أكثر. ذلك أنه بحسب الأصل تفقد الروح ذاكرة حياتها السابقة بمجرد الالتصاق بجسد الجنين فى بطن أمه فلا يتبقى لها من هذه الذاكرة سوى درجة التطور التى وصلت إليها النفس، والتى تنزلق إلى عقلها الباطن كيما تمهد لها طريقها فى حياتها المستقبلة. ولذا كان العقل الباطن مخزناً لدروس الماضى وخبراته، مخزناً مليئاً بصنوف التجربة التى أصبحت — بحسب الظاهر — فى طى النسيان من العقل الواعى.

وهذا النسيان يحصل لحكمة إلهية سامية ، وهى دفع عجلة التطور للأمام وحتى لا يكون ماضى الروح السحيق عائقاً يعوقها فى تقدمها، بما قد يكون فيه من أخطاء ووصمات وآلام وأهوال. فهو رد اعتبار من الطبيعة للروح يسلبها مخازيها السابقة ، ولا يسلب النفس حقها فى الاحتفاظ بالمرحلة التى وصلت إليها فى التطور عن طريق الألم والاختبار المتكرر.

وسنقابل فى المبحث الأخير من الفصل المقبل اتصالات وساطية بعدد من الأرواح التى أمكنها أن تتذكر — استثناء من ذلك — شطراً ولو غامضاً من ذكريات حياة سابقة لها أو أكثر طفت إلى السطح — بعد الموت — من عقلها الباطن إلى عقلها الواعى ، وأن تربط بين ذكرى هذه الحياة السابقة وصنوف التجارب القاسية التى تعرضت لها فى حياتها الأخيرة للتكفير — فى صور شتى — عن ذنوب اقترفتها فى حياتها السابقة على الأرض.

---

(١) راجع بيانها فى الجزء الأول ص ٢٧١، ٢٧٢ .

رابعا : وهناك أيضاً حقيقة علمية سائدة الآن حتى فى علم النفس ، وهى أن العقل الباطن أعمق وأعم من العقل الواعى . فهذا الأخير ليس سوى جزء ضئيل من العقل يطفو على سطح الماء حين يختفى الجزء الأكبر منه وهو العقل الباطن تحت السطح ، بالأقل طيلة الحياة الأرضية .

ويقول عدد كبير من الروحيين إن علة ذلك هى أن الوعى الإنسانى لا يتجسد كله فى المرة الواحدة ، فلا يتجسد منه فى المرة الواحدة سوى جانب يسير عن طريق المخ الذى يتحكم بدوره فى الجهاز العصبى للإنسان ، ومقتضى ذلك بالضرورة هو تعدد عدد المرات التى ينبغى أن يتجسد فيها الوعى للحصول على النمو المطلوب ، وعلى التناسق الكافى بين شتى أجزائه ، وهذا التناسق هو الذى يحقق للإنسان قدراً أوفر من السعادة[1] .

وقد أيدت أرواح متعددة صحة هذا النظر . بل منها من علل بعض الأمراض العقلية بعدم حدوث التجسد الأرضى على النحو الطبيعى . فإذا لم يكن الجانب المتجسد من الوعى كافياً كيما يحقق السيطرة المطلوبة للمخ — ومن ورائه العقل — فقد المخ سيطرته على وظائف الأعضاء ، وبدا صاحبه ناقص الإدراك عديم الاتزان فى حركاته وسكناته ، ومثل هذا المرض العقلى — الذى تعودنا أن نصفه بالبله أو بالعته أو غير ذلك من أوصاف — سرعان ما يختفى بالوفاة عندما يندمج الجزء الضئيل الذى كان متجسداً فى باقى أجزاء الوعى فيبدو الإنسان « المعتوه سابقاً » إنساناً طبيعياً فى ذكائه ، وأحياناً إنساناً على درجة ممتازة من الذكاء أو الألمعية مؤدياً على أتم وجه وظائف حياته الجديدة .

وقد فتح علم الروح بذلك آفاقاً جديدة فى دراسة أسباب الأمراض العقلية لم تكن معروفة من قبل ، بجانب الآفاق التى فتحها من ناحية التسليم

---

(١) راجع ما سبق فى ص ٩٩ — ١٠١ على لسان الدكتور جيلى Geley مدير « المعهد الدولى لما وراء الروح » بباريس .

بإمكانية ظاهرة المس والاستحواذ الروحى obsession and possession التى تصدى لبحثها الفيلسوف المعروف وليام جيمس William James [١]، وأخضعها أيضاً للبحث الدقيق لمدى عشرات من السنين الدكتور تيتوس بول[٢] Titus Bull ثم كارل ويكلاند[٣] Carl Wickland ووصلوا فى بحوثهم إلى نتائج إيجابية محددة واضحة فى دلالتها .

موقف بعض الآراء من العودة للتجسد

وهذا الاعتقاد فى تناسخ الأرواح Métémpsychose يغاير تماماً الاعتقاد فى إمكان تقمص بعض أرواح الآدميين لأجساد الحيوانات ، فهذا الاعتقاد الأخير ينكره علم الروح ولم يقم عليه أى دليل ؛ ولم يرد له ذكر على لسان أية روح راقية . أما تناسخ الأرواح أو العودة للتجسد فمعناه مجرد إمكان عودة الروح إلى الحياة الأرضية فى صورة آدمية تشبه إلى حد ما صورتها السابقة .

وهو ليس عقيدة جديدة جاء بها علم الروح الحديث ، بل هو اعتقاد قديم قدم الفلسفة ، وجد سبيله إلى أذهان عدد ملحوظ من فلاسفة الإغريق[٤]، كما عرف سبيله من بعدهم إلى عدد أقل منهم من فلاسفة المسيحية ، ثم الإسلام . وأيده بعض هؤلاء وأولئك ببعض الشواهد والأدلة الدينية .

ولكن هناك منهم من أنكره وقاومه تأسيساً على اقتناعه بأن الحياة التالية للموت هى الخلود رأساً فى النعيم أو فى الجحيم ، فلا محل فيها لعودة ثانية إلى الأرض . وفاتهم أن تلك الحياة التالية قد تكون أيضاً حياة برزخية ، أو « انتقالية » على النحو الذى فهمه الكثيرون من شراح الآيات الدينية ، وقد تفتح هذه الحياة البرزخية بالتالى الباب واسعاً لجميع الاحتمالات ، بما فى ذلك « احتمال » العودة إلى التجسد من جديد فى صورة آدمية .

---

(١) راجع ما سبق فى الجزء الأول ص ١٦٠ .

(٢) راجع ما سبق فى الجزء الأول ص ١٧٢ .

(٣) راجع ما سبق فى الجزء الاول ص ٤٠٧ .

(٤) بل كان فيثاغورس عالم الطبيعة المعروف يؤمن به ويقول إنه كان فى تجسده السابق يدعى أوفورباس Fuphorbus .

والحياة ذاتها، وفى كل مكان وزمان، ليست أكثر من تطور بطىء للروح المحدودة داخل الروح غير المحدودة ، وانتقال من حالة سابقة إلى حالة لاحقة أتم منها وأفضل . وهذه هى بعينها سنة النشوء والارتقاء التدريجى البطىء الذى لايعرف الطفرة ، كما لايعرف التطرف إزاء ارتباط النتائج بمقدماتها ارتباطاً محتوماً .

هذا وقد كان من أنصار العودة للتجسد فى فرنسا ـ قبل آلان كاردك ـ سان سيمون Saint Simon وسان مارتن Saint Martin وهما من وسطاء الإلهام. وفوريه Fourier وبيير ليرو Pierre Leroux وجان رينو Jean Reynaud وهم من الفلاسفة .

وبعد كاردك دافع عن مذهب العودة للتجسد من الباحثين الروحيين ليون دينيز Léon Denis ثم جابريل ديلان Gabriel Delanne ثم الدكتور جيلى G. Geley مدير « المعهد الدولى لما وراء الروح بباريس» ثم خلفه الأستاذ رينيه فاركوليه René Warcollier ، حتى لقد أصبح الاعتقاد بمذهب العودة للتجسد هذا من خصائص المدارس الروحية بوجه عام ، والمدارس الفرنسية بوجه خاص ، ومحوراً رئيسياً من محاور الحركة الثيوصوفية ، حين أنكره عدد لايستهان به من الباحثين الروحيين .

وعلى أية حال فإنه حتى مع التسليم بتوافر عدد من الشواهد العلمية على احتمال صحة نظرية إمكان عودة الإنسان للتجسد على المستوى الأرضى ، فلا محل للجزم بأنها قد ثبتت علمياً بقدر ثبوت دوام حياة الإنسان بعد الموت.

هذا وقد قال فى شأنها الفيلسوف والأديب الكبير موريس ماترلنك Maurice Maeterlinck إنه حتى مع عدم اقتناعه بثبوتها علمياً يأسف جداً لأن يجد حجج الثيوصوفيين والروحيين الجدد غير حاسمة بشأنها ، يأسف لأنه « لم يوجد قط من قبل اعتقاد أكثر جمالا وعدالة ونقاء ، وخلقاً ، وغنى فى نتائجه ، وتعزية ، وقرباً إلى التصور من هذا الاعتقاد .

فهو بما يقيمه من فقه عن التكفير والتطهير المتتابع مرة بعد الأخرى يفسر التفاوت بين إنسان وآخر فى الجسد وفى العقل ، كما يفسر المفارقات الاجتماعية ، وما يبدو من مظالم صارخة فى المصائر . ولكن مزايا أى اعتقاد ليست دليلا على صحته . وبالرغم من أن هذا الاعتقاد يمثل عقيدة ستمائة مليون من البشر[1] فهو أقربها إلى تفسير الأصول الخفية ، ولعله التفسير الوحيد الذى لا يثير الامتعاض ، ولا يبدو بعيداً عن التصور ، وينبغى أن يلقى من العناية فى دراسته أكثر مما يلقاه غيره ، وأن يقدم لنا الباحثون فيه أدلة لا تدحض ، أما ماقدموه لنا حتى الآن (قبل سنة ١٩١٣) فهو ليس أكثر من ظلال أولية لأدلة لاتزال فى مبدئها »[1]

كما يقول أيضاً « إنه حتى لو ثبتت نظرية العودة إلى التجسد علمياً ، ومعها حياة الإنسان بعد الموت ، فإن ذلك لا يكفى لحل مشكلة التساؤل الهام عن الأصل وعن المصير ، وهما المشكلتان الأساسيتان للإنسان ، بل إن ثبوت ذلك يؤدى فحسب إلى تراجع المشكلتين للوراء لعدة قرون ، أو لعدة آلاف من السنين بأمل أن نفقد المشكلتين أو ننساهما فى الصمت أو فى الفضاء ... [2] » .

* * *

ثم إن لعقيدة العودة إلى التجسد — إن ثبتت علمياً — مزية أخرى فى تقديرنا ، وهى تخفيف حدة الفواصل الصناعية التى قد تفصل بين شتى الأجناس والأديان والألوان . فبحسب هذه النظرية قد يتعاقب الشخص الواحد على التجسد فى أجناس مختلفة ، وفى أديان متنوعة ، وذلك وحده يدعوه حتماً إلى أن ينظر بعين الوداعة والتسامح إلى باقى الأجناس والأديان الأخرى ، إذ من الجائز أنه كان بين اتباعها يوماً ما ، أو سيكون يوماً ما من هؤلاء الاتباع ، فى تجسد لاحق عندما تشاء ذلك مشيئة الله . فعلام هذا الاعتداد المفرط بالانتماء إلى جنس دون آخر أو إلى دين دون غيره فى مرحلة التجسد الحالى ؟ ...

---

(١) يشير إلى ذيوع هذا الاعتقاد فى بلاد الشرق الأقصى بوجه خاص .

(٢) La Mort ص ١٦٨ — ١٧١ .

وفى كل تجسد جديد من المفروض أن يكتسب الإنسان خبرة جديدة وخلقاً متزايداً ، ولعل ذلك يعطى تفسيراً مقبولا لحكمة بارىء هذا الكون التى سمحت بتعدد الأجناس والألوان والأكوان والأديان على النحو المعروف لزيادة فرص التعلم والاختبار، ولتحقيق رسالة التطور، ومعها رسالة المحبة والتسامح التى لنا إليها عودة تفصيلية فيما بعد .

بل إنه قد يكون من آثار الاعتقاد بالعودة إلى التجسد تخفيف حدة التعصب حتى بين الذكور والإناث : فهى بما قد تسمح به من احتمال التجسد مرة فى الذكورة واخرى فى الأنوثة ، تحمل الإنسان خصوصاً الرجل على ألا يحتقر الجنس الضعيف لمجرد ضعفه !.. إن الفروق بين الجنسين — إذا استبعدنا ما يسند منها إلى طبيعة الجنس Sex الذى ينتمى إليه الإنسان — ليست قوية ، بل ضئيلة عند من تعودوا أن يتعمقوا فى بحث انفعالات الروح ودوافعها وغرائزها بعيداً عن الارتباط بجسد من نوع معين.

فبين الشقيق وشقيقته أو الأم وإبنها أحياناً من وجوه التشابه فى الشكل وفى الوعى ماقد يسترعى الأنظار ويحير الألباب، وما قد لا تجده بين شقيقين كليهما من الذكور ثم إن للجنسين معاً ميلا للتقارب أشار إليه فيكتور هيجو عندما لاحظ أن أول أعراض الحب الصادق فى الرجل هو الخجل ، وفى الفتاة الجرأة ... فللجنسين ميل غريزى للتقارب وكل منهما قد يتخذ صفات الآخر .

* * *

ولنكتف الآن بهذا القدر عن موضوع العودة للتجسد ، فهو موضوع عويص، وحتى لانخرج عن موضوعنا الأصلى وهو الثواب والعقاب ، وإنما يتعين أن نبين للقارىء بعض المراجع ، إذا كان يرغب فى المزيد من الأطلاع فيه[١] .

---

(١) Shaw Desmond: Reincarnation For Everyman.
E. D. Walker: Reincarnation : A. Study Of Forgotten Truth (1919).
Annie Besant & C. W. Leadbeater: The Lives Of Alcyone: 2 Volumes (1924). =

والاعتقاد بإمكان العودة إلى التجسد الأرضى أو بعدمها ليس من شأنه البتة أن يؤثر شيئا فى قيمة مبادىء الثواب والعقاب كما استخلصها آلان كاردك . لأن من مبادىء العلم الروحى أن حياة الأنسان — على أية حال — عبارة عن سلسلة متصلة الحلقات من الوجود فى عوالم مختلفة بين أرضية وأثيرية، وأن هذه الحيوات متضامنة معاً فى إسعاده أو إشقائه بحسب النهج الذى قد ينتهجه من خير أو من شر .

أساس الثواب والعقاب ارتباط النتائج بمقدماتها

كما تنبغى الإشارة هنا إلى أن مبادىء الثواب والعقاب التى أشار إليها

= Annie Besant : Reincarnation.
H. P. Blavatsky : Isis Unveiled.

وله ترجمة فرنسية بعنوان :

Isis Devoilée.
William Walker Atkinson : Reincarnation And The Law Of Karma (1908).
F. Bligh Bond : 1— Gate of Remembrance.
2— The Company of Avalon.

وراجع بحثا للأستاذ ج . آرثرهيل G. Arthur Hill فى مضابط « جمعية البحث الروحى » بلندن (المجلد الثامن والثلاثين) عنوانه :

Some Reincarnationist Automatic Scripts.

وقد أملت روح عالم النفس المعروف فردريك مايرز بياناً من هناك عن صحة العودة للتجسد فى مؤلف للوسيطة جيرالدين كامينز عن « الطريق إلى الخلود » The Road to Immortaliy

L. Stanley Jast : What It All Means, 1941.

وبالفرنسية راجع :

Papus (Dr. G. Encausse) : La Réincarnation.
G. Delanne : Documents Pour Servir à l'Etude de la Réincarnation (J. Meyer, Paris 1924).
Ch. Lancelin 1— La Vie Posthume.
2— La Réincarnation.
A. De Rochas 1— Les Cas Profonds De L'hypnose.
2— Les Vies Successives.
Gustave Geley : De L'inconscient Au Conscient.

ويلاحظ أن من بحثوا موضوع تطور الروح الانسانية تعرضوا حتما لموضوع احتمال العودة للتجسد الأرضى . ويحوى عدد كبير من المراجع والمجلات المبينة فى الباب الثالث من الجزء الأول اصولا أو مقالات عن موضوع العودة للتجسد هذا .

كل علماء الروح هى نتائج محتومة لمقدمات طبيعية ، تحدث طبقاً لرابطة العلة بالمعلول،وهى الرابطة الفلسفية التى تربط كل نتيجة بأسبابها Lien de Causalité ou de cause à effet. فى نطاق أى علم من العلوم ، وذلك من تلقاء نفسها وبغير ما حاجة إلى إرادة إنسان معين كيما يتولى تطبيقها بأساليب مادية ، وهذه الرابطة فى نطاق ثواب الروح وعقابها يطلق عليهاعادةوصف قانون الكارما Law of Karma ، وهو تعبير هندى الأصل وشائع الاستعمال فى هذا الصدد ، ويشير إلى قانون عادل طبيعى هو قانون « ماتزرع إياه تحصد » أو « الجزاء من جنس العمل » .

فدراسة مبادىء ثواب الروح وعقابها تكون على هذا الوضع جزءاً لا يتجزأ من دراسة قوانين الطبيعة، وهى بحث فلسفى بحسب أصله . ولو أن هذه الدراسة تكون قد انتقلت بنا إلى ماوراء الطبيعة La Métaphysique مع فارق هام، وهو أنها فى نطاق البحث فى الروح دراسة مستمدةمن بحوث معملية لامن نظريات لاهوتية على طريقة أرسطو، وهو مؤسس علم ماوراء الطبيعة على أسس فلسفية جعلت منه نوعاً من اللاهوت . وهذاهو الاعتبار الذى دفع العالم الألزاسى شارل هنرى Ch. Henry أن يقرر أنه إذا كانت دراسة الروح قد اعتبرت فيما مضى جزءاً مما وراء الطبيعة فإنها ستعتبر فى المستقبل جزءاً من علم الأحياء .

وأساس الناموس الخلقى عند آلان كاردك هو أن جميع الأرواح خلقت فى البدء متساوية وعلى درجة واحدة من الجهل والبساطة ، وأنها أعطيت حرية الاختيار ، كما فرض عليها منذ البدء أن تتطور كلها طبقاً لقانون التطور والارتقاء ، خلال حيوات عدة متصلة ومتعاقبة هنا وهناك ، حتى تستكمل سعادتها باستكمال أسباب رقيها العقلى والخلقى . وبقدر نموها فى المعرفة وفى الفضيلة بقدر ما تنمو إرادتها وبالتالى حريتها فى الاختيار، وهو ما عنى أيضاً بشرحه فى مؤلفه الآخر وهو « كتاب الأرواح » على ضوء ماتلقاه من بيانات فى هذا المعنى من أرواح راقية .

والفضائل التى تتطلبها الفلسفة الروحية فى الإنسان ، حتى يستكمل أسباب سعادته ، تكاد تنحصر إجمالا فى فضيلة المحبة وشقيقها التواضع ، حين تنبع الرذائل عن الأنانية وشقيقها الغرور، لذا كانا مجتمعين العدو الأول للإنسان والمسئول الأوحد عن تعاسته حيثما وجد .

وقد اتفق الباحثون فى الأرواح على أن المحبة ليست مجرد عاطفة موقوتة بظروفها ، بل هى طاقة حقيقية من شأنها أن تؤثر فى اهتزاز الجسد الأثيرى فترفع منه وتحافظ على تناسقه ، وتعطى الإشعاعات التى تنبعث منه جمالا خاصاً . وتجعله بالتالى جديراً بعوالم أرقى طبقاً لقانون التوافق، وهو القانون الطبيعى الذى يحدد للجسد الأثيرى مكانه بعد تخلصه من مقابله المادى[1]. وهذا الرأى أصبح شائعاً ، بل مجمعاً عليه فى الفقه الروحى... أليس الله محبة ؟

مبادىء الثواب والعقاب عند كاردك

أما المبادىء التى لخص بها آلان كاردك قواعد الثواب والعقاب — والتى أساسها جميعها حيازة الروح لقدر كاف من الإرادة وحرية الاختيار — فهى : —

١ — أن الروح تتحمل فى حياتها الروحية نتائج كل مالم تتخلص منه من رذائل أثناء حياة الجسد . فحالها من ناحية السعادة أو الشقاء يتوقف على درجة نقائها أو عدمه .

٢ — أن السعادة المطلقة متصلة بكمال الروح أى بنقائها المطلق . فكل رذيلة هى بذاتها مصدر للعذاب وللحرمان من النعيم ، كما أن كل فضيلة اكتسبت هى بذاتها مصدر للنعيم ولتخفيف هذا العذاب .

٣ — أنه لا توجد فى الروح رذيلة واحدة لا تحمل بذاتها نتائجها الأليمة التى لا مفر منها ، كما أنه لا توجد فيها فضيلة واحدة ليست بذاتها مصدراً للتنعم . فعلى قدر الرذائل يكون القصاص وعلى قدر الفضائل يكون التنعم .

(١) راجع ما سبق فى الجزء الأول ص ٤٢٧ — ٤٥٥ وفى الجزء الحالى ص ١٥٠ — ١٥٢ .

فالروح التى لها عشر رذائل مثلا تتألم أكثر من تلك التى ليس لها سوى ثلاث أو أربع منها. وحينما تتخلص الروح من ربع هذه الرذائل أو نصفها يصبح ألمها أخف وطأة، ويزول هذا الألم وتصبح الروح سعيدة تماماً عندما تتخلص منها كلها ، فمثلها مثل من لديه أمراض متعددة ، فهو يتألم أكثر ممن لديه مرض واحد أو ممن ليس مريضاً على الإطلاق . ولنفس السبب أن للروح التى لديها عشر فضائل قدرة على التنعم أكثر من تلك التى لديها أقل من ذلك .

٤ — أن كل روح تملك طبقاً لقانون التطور والارتقاء المقدرة على استكمال ما ينقصها من خير ، وعلى التخلص مما يشوبها من شر طبقاً لجهودها الخاصة ولقوة إرادتها ، الأمر الذى ينتج منه أن يكون باب المستقبل غير مغلق فى وجه أى مخلوق ، فالله تعالى لا يطرد أحداً من رحمته ، بل يفتح لعباده أبوابها بقدر ما يحصلون عليه من تطور نحو الكمال ، تاركاً بذلك لكل منهم فضل أعماله .

٥ — طالما أن الألم مرتبط بالنقص، كما أن التنعم مرتبط بالرقى الخلقى والعقلى ، فكل روح تطوى بين جنبيها جزاءها الخاص حيثما وجدت دون ما حاجة لوضعها فى مكان خاص . فالجحيم يوجد فى كل مكان توجد فيه أرواح متألمة ، كما أن الجنة توجد كذلك فى كل مكان توجد فيه أرواح سعيدة.

٦ — أن ما نقدمه من حسنات أو من سيئات إن هو إلا ثمار ما نحوزه من صفات حسنة أو رديئة ، وحتى مجرد الامتناع عن فعل الخير الذى يمكننا فعله إن هو إلا نتيجة نقص فينا . ومن ثم فالروح تشقى بما أقدمت على ارتكابه من سيئات، وأيضاً بما أحجمت عنه من حسنات كان فى مقدورها اتمامها أثناء حياتها الأرضية .

٧ — أن الروح تتألم من نفس الإثم الذى أقدمت على ارتكابه ، فيصير التفاتها موجهاً إلى عواقب هذا الإثم مدركة بذلك أكثر من غيرها سوء هذه العواقب ومدفوعة بالتالى إلى إصلاحها .

٨ — لأن عدالة الله غير محدودة فكل ما فينا من خير أو من شر موضع حساب دقيق . فما من عمل سيء واحد، بل ما من فكرة سيئة واحدة إلا ولها عواقبها المحتومة . كما أنه ليس من عمل صالح بل ما من حركة طيبة من الروح ، بل ما من فضل مهما كان شأنه ضئيلا يضيع على صاحبه ، حتى ولو صدر عن أشد الناس انحرافاً عن الصواب ، لأنه يشير إلى بدء التقدم عنده .

٩ — أن كل معصية ارتكبت هي دين علينا مستحق الوفاء إن لم يكن فى حياتنا الأرضية ففي حيواتنا الأخرى لأنها كلها متضامنة معاً . وحين يوفى الدين مرة لا يوفى ثانية .

١٠ — أن الروح تتحمل قصاص سيئاتها سواء فى عالم الروح أم فى عالم المادة . فكل ما نقاسيه من عناء ومن تقلبات فى حياتنا الأرضية إن هو إلا نتائج نقائصنا الخلقية ، أو تكفير عما ارتكبناه من أخطاء سابقة فى حياتنا الحالية أو السابقة . ومن طبيعة هذه الآلام وتقلبات الحياة التى نقاسيها فى حياتنا المادية يمكننا أن نحكم على الأخطاء التى ارتكبناها فيما مضى ، وعلى نقائصنا التى دفعتنا إليها .

١١ — أن التكفير عن الخطأ يخفف طبقاً لطبيعة هذا الخطأ ومدى خطورته . وبالتالى إن نفس الخطأ قد يولد طرقا مختلفة للتكفير عنه طبقاً لما أحاط بارتكابه من ظروف مخففة أو مشددة .

١٢ — أنه لا توجد فيما يتعلق بطبيعة القصاص ومدته قاعدة عامة وموحدة، إنما الناموس العام الوحيد هو أن كل خطأ يلاقى قصاصه ، كما أن كل عمل صالح يلاقى جزاءه بحسب أهميته .

١٣ — أن مدة العقاب متوقفة على تقدم الروح الآثمة . فليس هناك من حكم بالإدانة لأجل محدد يصدر ضدها . بل إن كل ما يتطلبه الله تعالى كيما يضع حداً لآلامها هو تقدم وارتقاء جادان وحقيقيان ، وعودة مخلصة إلى طريق البر .

ومن ثم فالروح هي صانعة مصيرها الخاص ، فيمكنها أن تطيل آلامها بإصرارها في طريق المعصية ، كما يمكنها أن تخففها أو تختصر أمدها بجهودها لعمل الخير . فكل حكم بالإدانة لوقت محدد أياً كان ، يكون عيبه مزدوجاً : فهو إما أن يؤدي إلى استمرار تعذيب روح تكون قد تهذبت ، أو إيقاف تعذيب روح ما زالت في طريق الإثم . فالله العادل يعاقب الشر طالما كان موجوداً ويوقف العقاب عندما يقف الإثم . أو بعبارة أخرى أنه طالما كان الشر الخلقي هو مصدر تعذيب النفس ، فلا يطول هذا التعذيب إلا بقدر ما يطول الشر . وتضعف حدته بقدر ما تضعف حدة هذا الأخير .

١٤ — أنه ما دام أن مدة القصاص متوقفة على تقدم الروح الآثمة ، فإن توقف الروح عن التقدم يؤلمها ، ويبدو لها قصاصها أبدياً (بمعنى أنه يصبح غير محدد الأجل ، ولا يمكن للروح أن ترى نهايته ، حين أنه ليس سرمدياً إذ ما من عقاب سرمدي على ما وضحه المؤلف في مكان آخر) .

١٥ — أن من نتائج حطة الروح أنها لا ترى نهاية لآلامها وتعتقد أنها ستتألم دائماً ، ومن ثم يبدو لها عذابها أبدياً .

١٦ — أن التوبة هي الخطوة الأولى نحو التقدم ، لكنها لا تكفي وحدها ، بل يتعين دائماً التكفير عن الخطأ وإصلاح نتائجه . فالتوبة والتكفير والإصلاح هي الشروط الثلاثة الضرورية لمحو بقايا الخطأ ونتائجه المحتومة .

فالتوبة تخفف آلام التكفير من ناحية أنها تمنح صاحبها الأمل وتمهد السبيل لرد اعتباره ، لكن إصلاح الخطأ وحده يمكنه أن يبطل هذه الآلام بإزالة دواعيها . فالمغفرة تصبح بالتالي عفواً عن الخطأ وليست محواً لعواقبه .

١٧ — أن التوبة ممكنة دائماً في كل مكان وزمان ، فإذا ما تأخرت تألمت الروح لمدة أطول . والتكفير يكون بالآلام الحسية والمعنوية التي هي نتائج أي خطأ يرتكب سواء في الحياة الحاضرة أم بعد الموت ، وسواء في أي وجود جسدي جديد ، وذلك إلى أن تزول آثار هذا الخطأ . وأما

الإصلاح فيكون بالعمل الصالح لمن نكون قد أسأنا إليهم ، ومن لا يصلح أغلاطه فى حياته الحاضرة بسبب عجزه أو سوء نيته سيجد نفسه فى حياته الأخرى على صلة بمن يكون قد آلامهم . وذلك إلى أن يثبت تفانيه نحوهم ، وإلى أن يقدم إليهم خيراً على قدر ما قدم إليهم من شر .

فجميع الأخطاء لا تنتج ضرراً فعلياً ومباشراً . ولذلك فإن الإصلاح يتم بفعل ما كان ينبغى أن نفعله وأغفلناه ، وبالقيام بالواجبات التى أهملنا القيام بها أو تجاهلناها ، وبأداء الرسالة التى قصرنا فى أدائها ، وبفعل الخير المضاد لما فعلناه من شر ، بمعنى أن يصبح متواضعاً منا من كان متكبراً ، ورحيماً من كان قاسى القلب ، وباراً من كان أنانياً . وطيب الطوية من كان خبيثاً ، ونشيطاً من كان خاملا ، ومفيداً من كان عديم الجدوى ، ومعتدلا من كان متطرفاً ، وقدوة حسنة من كان قدوة سيئة ، وعلى هذا النحو تتقدم الروح فى ترقيها متخذة العبرة من ماضيها .

وضرورة إصلاح الضرر مبدأ مبنى على العدالة المطلقة ، ويمكن اعتباره القانون الحقيقى لإمكان استرداد الروح لاعتبارها ومكانتها ، وهو من هذه الوجهة ضرورة لم يعلنها أحد من قبل لإمكان التوبة ، ومع ذلك يرفض بعض الأشخاص هذا المبدأ واجدين أن من الأيسر لهم أن يعتقدوا أن بمقدورهم محو آثار رذائلهم بعبارة ندم بسيطة لا تكبدهم شيئاً ، تكفى كيما يحسبوا أنفسهم بعد تلاوتها انهم قد سددوا دينهم بالكامل .

هؤلاء سيرون فيما بعد إن كان ذلك يجديهم فتيلا . الا ينبغى أن نسألهم لماذا فرض قانون البشر مبدأ إصلاح الضرر ، وهل القانون الإلهى أقل من قانون البشر ؟ وهل الندم مهما بلغ مداه يكفى لتعويض إنسان لحقه خراب من جراء أى عمل من أعمال الخيانة ، ولماذا نتراجع أمام التزام يعتبره كل إنسان حقاً مقضياً ، عليه أن يؤديه فى حدود طاقته ؟

وعندما يصبح هذا الإيمان بضرورة إصلاح كل ضرر نسببه للآخرين

جزءاً من عقيدة الجماهير ، فإن ذلك سيصبح حائلا دون الخطأ أقوى من الاعتقاد فى نار الجحيم والعذاب السرمدى لأنه مستمد من صميم حياتنا الحاضرة ، ولأن الإنسان سيدرك حينئذ أسباب ما قد يصيبه من ظروف أليمة .

١٨ — أن الأرواح البعيدة عن الكمال تظل بعيدة عن المناطق العالية حتى لا تفسد تناسقها ، بل تبقى فى مناطقها الدنيا إلى أن تجعلها صروف الدهر تكف عن أخطائها وتتخلص من نقائصها فتستحق الانتقال إلى عوالم أرقى معنوياً ومادياً . ولو كان لنا أن نتصور مكاناً معيناً للقصاص فلن يكون هذا المكان إلا فى مناطق التكفير عن الأخطاء ، لأنه فى هذه المناطق تهيم الأرواح السفلى فى انتظار وجود جديد يمكنها من إصلاح أخطائها ويساعدها بالتالى فى تقدمها .

١٩ — نظرا لأن الروح تملك دائماً حرية الاختيار فقد يحدث أن يكون تقدمها بطيئاً وعنادها فى الشر شديداً ، بل يمكنها أن توغل فيه سنوات وقروناً . لكن يحل دائماً وقت ينهار فيه إصرارها على تحدى العدالة الإلهية ، وذلك تحت وطأة شدة الألم فترغم رغم مكابرتها إلى التسليم بالقوة العظمى التى تحكمها . وبمجرد ماتبدو عليها أولى دلائل التوبة ، فإن الله يلهمها أن تلمح بصيصاً من الأمل . فما من روح فى حالة تمنعها من التقدم أبداً ، وإلا لأصبحت موهوبة إلى انحطاط أبدى ، ولشذت عن قانون الارتقاء الذى يسود — لحكمة إلهية — جميع الكائنات .

٢٠ — أنه مهما بلغ من مقدار انحطاط بعض الأرواح وانحرافها عن الصواب فإن الله تعالى لا يتخلى عنها أبداً ، بل يهيء لها دائماً أرواحاً تحميها وترشدها وتسهر عليها مترصدة خلجات نفسها ، ومحاولة أن تثير فيها نزعة الخير والرغبة فى التقدم ، كيما تصلح فى وجودها اللاحق ما اجترحته من آثام فى وجودها السابق . ومع ذلك فالروح المرشدة تعمل بطريقة غير منظورة دون ما ضغط ، لأن كل نفس ينبغى أن تتقدم بمحض إرادتها ودون أى

إكراه عليها . فهى تتصرف تصرفاً حسناً أو قبيحاً طبقاً لحريتها فى الاختيار، ودون أن يدفعها القدر فى اتجاه أو فى آخر ، فإذا اقترفت إثماً تحملت نتائجه طالما ظلت فى طريق الاعوجاج . أما إذا خطت نحو الخير خطوة واحدة أحست على الفور بطيب النتائج .

ملحوظة

من الخطأ الاعتقاد بأنه طبقاً لقانون الارتقاء يصبح يقين المرء من الوصول إلى الكمال فالسعادة عاجلا أو آجلا سبباً لتشجيعه على التمادى فى غيه ، أو إرجاء وقت التوبة إلى ما بعد . وذلك أولاً لأن الروح الدنيا لا ترى نهاية لعذابها ، وثانياً لأن الروح — وهى صانعة شقاءها بيديها — تنتهى بأن تفهم بأنه يتوقف عليها هى أن تضع حداً لهذا الشقاء ، وأنه بقدر ما يطول إصرارها على الشر بقدر ما يطول شقاؤها ، وأن آلامها ستطول إلى ما لا نهاية إذا لم تحدد هى أجل انتهائها ، وبالتالى يكون ذلك من جانبها حساباً خائباً هى ضحيته الأولى .

وعلى العكس من ذلك إذا كان كل أمل فى المستقبل مغلقاً فى وجهها ، كما تقول بذلك نظرية الخلود فى العذاب فلن تكون للروح فائدة من العودة إلى طريق الخير ولا سبيل لها إلى ذلك .

وأمام هذا القانون — قانون الارتقاء — ينهار الاعتراض المؤسس على فكرة القدر الإلهى prescience divine فإن الله بخلقه روحاً يعلم مقدماً أن هذه الروح لها كما تشاء — طبقا لحريتها فى الاختيار — أن تسلك سبيل الخير أو الشر . فإذا ما تنكبت الطريق ستلاقى عقاباً مؤقتاً ، وهذا العقاب مجرد وسيلة كيما تدرك خطأها وتعود بذلك إلى الطريق السوى حيث تصل إلى الكمال إن عاجلا أو آجلا . أما طبقاً لنظرية الخلود فى العذاب فإن الله يعلم أنها ستخطىء وأنه محكوم عليها مقدماً بسعير لا آخر له .

٢١ — كل امرىء مسئول عن أخطائه الخاصة ، فلا تحمل نفس وزر أخرى إلا إذا كانت هى السبب فى خطيئتها بأن دفعتها إليها عن طريق القدوة

السيئة ، أو لأنها لم تمنعها عنها إذا كان فى مقدورها ذلك . فالانتحار معاقب عليه،فإذا دفع إنسان بقسوته إنسانا آخر إلى اليأس من الحياة فإهلاك نفسه، فإنه يتحمل وزراً أشد منه .

٢٢ — رغم تباين صور العقاب إلى مدى غير محدود ، فإن هناك طريقاً ينجم عن انحطاط الروح وتتشابه نتائجه بوجه عام: ذلك أن العقاب العاجل لأولئك الذين يتعلقون بالحياة المادية مهملين تقدمهم الروحى هو فى بطء انفصال أرواحهم من أجسادهم أثناء الاحتضار ، وفى بطء استيقاظ حواسهم فى الحياة الأخرى ، وهى لديهم فترة قد تطول أشهراً أو أعواماً . وعلى العكس من ذلك يكون الانفصال سريعاً وبدون أى قلق ، كما تكون اليقظة مطمئنة والاضطراب لا أثر له تقريباً لمن كان نقى الضمير قد أعد نفسه لحياته الروحية أثناء حياته الأرضية متحرراً من اغلال المادة وقيودها .

٢٣ — كثيراً ما يتوهم بعض الأرواح الدنيا أنه لا يزال على قيد الحياة الأرضية ، وقد يمتد وهمه إلى سنين يعانى أثناءها كل احتياجات الحياة الأرضية وآلامها ومتاعبها .

٢٤ — تكون صور الضحايا ، وكذلك ظروف ارتكاب الجريمة، ماثلة بغير انقطاع فى ذهن المجرم . وفى ذلك له عذاب أليم .

٢٥ — تغمر بعض الأرواح ظلمة كثيفة ، حين يشعر بعضها بعزلة تامة فى الأفق يعذبها جهلها التام بحالها ومصيرها . وأشدها إثماً يشعر بآلام يضاعف من قسوتها أنه لا يرى نهاية لها . كما أن البعض منها محروم من أعزائه والأرواح تقاسى من الآلام على قدر ما سببته لغيرها إلى أن تخفف منها فى النهاية توبتها ورغبتها فى الإصلاح، فترى أن نهاية آلامها تتوقف عليها هى نفسها .

٢٦ — من تعذيب المتكبر أن يرى أن من كان يحتقرهم على سطح الأرض أصبحوا أعلى منه مكانة تحوطهم أسباب المجد والنعيم ، حين يرى أن مكانه فى المؤخرة . ومن تعذيب المنافق أن يرى الضوء يكشف للناس أجمعين عن خبيئة صدره ، وبذلك يقرأون أفكاره دون ما قدرة منه على

إخفائها أو على إخفاء نفسه . ومن تعذيب الشهوانى ألا يستطيع إشباعاً لشهواته ، ومن تعذيب البخيل أن يرى ذهبه ينتزع منه ولا يستطيع له إمساكاً . ومن تعذيب الأنانى أن يجد نفسه مهجوراً من الناس وحيداً ، وأن يقاسى ماقاساه الآخرون منه . فكما أنه لم يفكر إلا فى نفسه أثناء حياته الأرضية فإن أحداً لا يفكر فيه ولا يرثى لحاله بعد مماته .

٢٧ — الطريقة المثلى لتفادى آثار نقائصنا فى الحياة المستقبلة أو تخفيفها هى فى التلخص منها على قدر الإمكان فى الحياة الحاضرة . هى فى إصلاح أخطائنا حتى لا يكون علينا بعدئذ أن نصلحها بطريقة أشد قسوة علينا ، لأننا بقدر ما نتأخر فى إصلاح عيوبنا بقدر ماتكون العواقب أكثر سوءاً ، وبقدر ما تكون الجهود لإصلاحها أشد عناء .

٢٨ — مركز الروح عند دخولها إلى عالم الروح يتوقف على ما أعدته لنفسها فى حياتها الجسدية . وقد تعطى الروح فيما بعد حياة أخرى للتكفير ولإصلاح أخطائها عن طريق محن جديدة ، وتستفيد الروح من ذلك بدرجة تتفاوت طبقاً لملكتها فى التمييز ، فإن لم تستفد من ذلك ، فعليها أن تبدأ العمل من جديد فى ظروف أشد قسوة ، بحيث أن من يتألم أكثر من غيره على سطح الأرض يمكنه أن يقول لنفسه إنه كان عليه أن يكفر عن الكثير . أما أولئك الذين يتمتعون بنعيم زائف رغم مساوئهم وانعدام الجدوى منهم، فليكونوا على يقين من أنهم سيدفعون ثمن ذلك غالياً فى حياتهم اللاحقة ، وهذا هو المعنى الذى قصده المسيح بقوله « طوبى للحزانى لأنهم يتعزون » .

٢٩ — أن رحمة الله — ولو أنها غير محدودة — إلا أنها ليست عمياء . فالمجرم لا يغتفر له مالم يمح آثار جرمه ، وإلا فليتحمل نتائجه، لأن رحمة الله غير المتناهية ينبغى أن يفهم منها أن الله غفور رحيم ، وأنه يفتح بابه دائماً لمن يريد العودة إلى الصراط المستقيم .

٣٠ — العقوبات مؤقتة ومتوقفة على التوبة والإصلاح ،والتوبة رهينة بحرية الاختيار لدى الإنسان . وهى فى نفس الوقت قصاص وبلسم شاف

يساعد على التئام جروح المريض . فالأرواح التى تحت العقاب ليست كمحكوم عليهم بالسجن لأمد محدود ، إنما تعامل كمرضى يعانون فى مستشفى مرضاً نجم فى الأغلب عن خطئهم ، كما يعانون من سبل العلاج العاجلة المؤلمة ، لكن لديهم الأمل فى الشفاء وسيحصلون عليه سراعاً كلما كانوا أكثر اتباعاً لتعليمات الطبيب الذى يسهر على راحتهم . أما إذا أطالوا آلامهم بأخطائهم فليس للطبيب من حيلة إزاءهم .

٣١ — يضاف إلى الآلام التى قد تقاسيها الروح فى حياتها الروحية آلام حياتها الأرضية التى هى نتائج نقصها وانقيادها لشهواتها ، وسوء استخدامها لملكاتها للتكفير عن أخطائها الحاضرة والماضية . ففى الحياة الأرضية تصلح الروح شرور حيواتها السابقة . وتنفذ ما كانت قد اعتزمت عمله فى حياتها الروحية . وعلى هذا النحو يفسر البؤس وصروف الدهر التى تبدو لأول وهله بلا سبب مفهوم ، مع أن مصدرها عادل كل العدالة مادام هو سداد ديون ماضينا ، ومادام أنها تخدمنا فى ترقينا .

٣٢ — ربما سأل سائل ألم يكن بمقدور الإله تعالى أن يظهر محبة أعظم لمخلوقاته بخلقها معصومة من الخطأ منذ البداءة ، وبالتالى معفاة مما تجلبه عليها نقائصها من تقلبات الحياة ؟ ... إنه كان ينبغى تحقيقاً لهذا الغرض خلق كائنات ليست بحاجة لأن تكتسب شيئاً من المعرفة أو الفضيلة ... وبلا ريب كان فى مقدوره تعالى ذلك ، فإذا كان لم يفعل فلأنه بسامى حكمته أراد أن يجعل من التطور والارتقاء قانوناً عاماً . فالإنسان ناقص وهو هدف بالتالى لتقلبات فى حياته تتفاوت قوة وضعفاً . هذه حقيقة ينبغى أن نتقبلها لأنها موجودة فعلا ، وأما القول بأن الله غير رحيم ولا عادل فهو ينطوى على الثورة عليه . وإنما كان يتحقق الظلم لو أنه خلق كائنات مختلفة ، وميز بعضها على البعض الآخر ، فأعطى بعضها — دون أى عمل — النعيم الذى قد يحصل عليه البعض الآخر بعد الكد والعناء ، أو الذى لا يمكن أن يحصل عليه البعض الثالث مطلقاً .

لكن عدالته تبدو واضحة للعيان فى المساواة المطلقة التى سادت خلق

جميع الأرواح ، فكلها تبدأ من نفس نقطة البدء دون أن يكون لإحداها عند خلقها ملكات أكثر من غيرها ، ودون أن يتيسر لبعضها سبل الارتقاء بطريق الاستثناء ولا يتيسر ذلك للبعض الآخر . كلا وإنما يصل منها إلى الهدف من يجوز الطريق الوعر بنجاح متخطياً عثرات المحن ، ومتحدياً دواعي الانحطاط .

فإذا قبلنا ذلك فماذا يكون هناك أعدل من حرية الاختيار التي تركت لكل منا ؟ إن طريق السعادة مفتوح أمام الجميع ، والهدف واحد للجميع ، والظروف للوصول إلى هذا الهدف واحدة لهم ، والقانون المنقوش في ضمير البشر أعطي للجميع . فالله تعالى جعل من السعادة ثمناً للعمل لا للحظوة لديه كيما يكون لكل منا فضل اكتساب هذه السعادة . فكل منا حر في أن يعمل أو لا يعمل شيئاً في سبيل ترقيه . لكن من يعمل كثيراً وبسرعة يلاقي جزاء أوفى وأسرع . أما من يضل الطريق ويضيع وقته عبثاً فهو يعوق نفسه ولا يلوم من إلا إياها . فالخير والشر إراديان واختياريان، لأن الإنسان حر لا يدفعه قدر محتوم إلى جانب أو إلى آخر .

٢٣ — يمكن تلخيص قانون العقاب للحياة المستقبلة — رغم تعدد أنواع العقاب ودرجاته — في هذه المبادىء الثلاثة : —

(ا) أن الألم مرتبط بالنقص .

(ب) أن كل نقص وما يستتبعه من خطيئة ينطوي بنتائجه الطبيعية المحتومة على عقابه الخاص به ، كالمرض نتيجة الإفراط ، أو كالملل نتيجة الكسل ، دون ما حاجة لحكم يصدر بالإدانة ضد أي عمل أو ضد أي شخص كان .

(ح) أن كل إنسان يمكنه أن يتخلص — عن طريق إرادته — من نقائصه موفراً على نفسه المتاعب ومحققاً بذلك سعادته المستقبلة ، إذ أن هذا هو في كلمة ناموس العدل الإلهي : أن لكل بحسب أعماله ، كما في السماء كذلك على الأرض .

الفصل الثانى

اتصالات بأرواح شتى

لتوضيح مبادىء الثواب والعقاب

أتينا فيما تقدم على ملخص سريع للمبادىء العامة التى تحكم الثواب والعقاب — كما استخلصها بعد بحوث طويلة فى الروحيــة الفيلسوف آلان كاردك Allan Kardec — نقلا عن القسم الأول من مؤلفه « الجنة والنار » Le Ciel Et L'Enfer . أما فى الفصل الحالى فسنقدم نماذج عملية من اتصالات تمت فى « الجمعية الروحية » بباريس وفروعها بالأقاليم مع أرواح فى درجات متفاوتة من السعادة والشقاء ، وقد وردت فى القسم الثانى من الكتاب المذكور ، مراعين اختيار نماذج متنوعة من رسائل كل نوع من أنواع هذه الأرواح . وسنراعى هنا أيضاً الإيجاز على قدر الإمكان ، وهو الأمر الذى يفرضه علينا — إلى حد ما — ضيق المقام : —

وهذه النماذج العملية من الاتصالات بأرواح فى درجات متفاوتة من السعادة والشقاء سنقدمها فى سبعة مباحث متتابعة على النحو الآتى : —

المبحث الأول : اتصالات بأرواح سعيدة .
المبحث الثانى : « « فى حالة وسط بين السعادة والشقاء .
المبحث الثالث : اتصالات بأرواح تشكو آلاماً شتى .
المبحث الرابع : « بمنتحرين .
المبحث الخامس : « بأرواح قتلة .
المبحث السادس : « « عنيدة .
المبحث السابع : « بأرواح كفّرت عن سيئاتها على الأرض .

ونرجو أن يكون فى هذه النماذج بينات جديدة على صحة موضوع الأرواح ، فقد تمت هذه الاتصالات فى جمعية روحية كانت تضم صفوة من العلماء

والأدباء والمفكرين ، وكانت تدون فى محاضر دقيقة ،منظمة ،مؤرخة، موقع عليها من الحاضرين ، ولم يكن لأى إنسان مصلحة فى تخيل وقائع لم تحصل ، ويعجز عنها خيال المتخيلين ، الذين لا وجود لهم إلا فى صفوف الجهلة من المكابرين . وهذه البينات يمكن بسهولة أن تضاف إلى البينات الكثيرة التى تضمنتها الأبواب السابقة ، والتى تقف كلها متساندة كيما تثبت أن الحياة العلمية تواجه الآن فقهاً جديداً متكاملا فى الموضوع الأول للإنسان — الذى يتوقف عليه هناؤه أو شقاؤه فى الدارين معاً — وهو موضوع الروح .

المبحث الأول

اتصالات بأرواح سعيدة

(١) مع السيد سانسون Sanson

كان عضواً قديماً فى « الجمعية الروحية » بباريس وتوفى فى ٢١ أبريل سنة ١٨٦٢ بعد عام من آلام سرطانية قاسية . وقبيل انتقاله حرر خطاباً للمؤلف (كاردك) كيما يحاول الاتصال بروحه بعد « وفاته » مباشرة . وفعلا تم الاتصال معه فى ٢٣ أبريل فى نفس الغرفة التى كان جسده لا يزال مسجى فيها لم يدفن بعد ، وجرى الاتصال على النحو الآتى : —

— لقد استجبت لندائكم حتى أفى بوعدى .

س : إننا أيها السيد العزيز سانسون نؤدى واجباً ، ونحقق متعة بمناجاتك فى أقرب وقت ممكن بعد موتك استجابة لطلبك .

ج : إنه فضل خاص من الله أن يسمح لروحى أن تقدر على الاتصال بكم فاشكركم على طيب سريرتكم ...

س : لقد تألمت كثيراً إلى الحد الذى يدفعنا إلى أن نسألك عن حالك الآن ، فهل ما زلت تشعر بآلامك ؟ ، وما هو شعورك الآن بالمقارنة مع شعورك منذ يومين ؟

ج : إن حالتى الآن سعيدة جداً لأنى لا أشعر بعد بأى قدر من آلامى

القديمة ، لقد رجعت معافى «وجديداً» كما تعبرون عندكم . لقد جعل الانتقال من الحياة الأرضية إلى حياة الأرواح كل شيء فى مبدأ الأمر غير مفهوم لى إذ أننا قد نظل حيناً بدون أن نسترد التمييز الواضح lucidité ، ولكنى قبل أن أموت توجهت إلى الله بالصلاة كيما يمكننى من القدرة على الحديث إلى أولئك الذين أحبهم ، وقد استجاب لى .

س : بعد كم من الوقت استرجعت التمييز الواضح لأفكارك ؟

ج : بعد ثمانى ساعات ، إذ أعطانى الله علامة من علامات عطفه التى قدر أنى استحقها، ولا أعرف كيف أشكره .

س : هل أنت متحقق أنك لم تعد بعد من سكان عالمنا ، وما حكمك على ذلك؟

ج : بالتأكيد لم أعد من سكان عالمكم ، ولكنى سأظل دائماً قريباً منكم كيما أحميكم وأؤيدكم فى رسالة الدعوى إلى البر والتسامى التى أرشدتنى فى حياتى ، كما سأعلم الإيمان الصحيح ، الإيمان الروحى الذى ينبغى أن تنبع منه عقيدة الإنسان العادل الطيب . لقد أصبحت قوى البنية ، بل قويها جداً ، أى فى كلمة تغيرت ، فلن تتعرفوا فىّ على الكهل القعيد الذى كان عليه أن ينسى كل شيء ، وأن يدع بعيداً عنه كل متعة ومرح . فأنا الآن روح وطنى هو الفضاء ، ومستقبلى هو الله الذى يشرق فى الفضاء الشاسع . إنى فى لهفة لأن أتحدث إلى أولادى كيما أعلمهم هذه الأمور (الروحية) التى رفضوا بعناد الاقتناع بها .

س : ما هو الأثر الذى يحدثه فيك منظر جسدك بجانبنا هنا ؟

ج : أى جسدى البائس التافه !.. ينبغى أن تعود إلى التراب كيما أحتفظ بالذكرى الطيبة التى أحملها لكل من كانوا يقدروننى ، أما هذا اللحم المشوه الذى كان موطناً لروحى فقد كان محنة طالت لسنين كثيرة . شكراً لك ياجسدى البائس لأنك طهرت روحى ، وقد أعطانى الألم المقدس للغاية مكاناً استحققته بجدارة ، إذ أجد على الفور المقدرة على الحديث إليكم .

س : هل احتفظت بأفكارك حتى آخر لحظة ؟

ج : نعم احتفظت روحى بملكاتها . لقد فقدت القدرة على النظر ولكن كان عندى إحساس بما سيقع ، وجرت حوادث حياتى أمام ذاكرتى ، وكان آخر أفكارى ورجائى هو التمكن من الحديث إليكم ، وهذا هو ما أفعله الآن ، وبعد ذلك طلبت من الله أن يحميكم حتى يتحقق حلم حياتى .

س : هل كنت مدركاً فى اللحظة التى لفظ فيها جسدك آخر أنفاسه ؟ وما هو الإحساس الذى أحسست به ؟

ج : كانت الحياة تنطفىء ، والنظر — أو بالأدق نظر الروح — كان ينطفىء ، وبعد العثور على الفراغ والمجهول يجد الإنسان نفسه محمولا على رهبة لا أعرف ماهيتها إلى عالم كل ما فيه يمثل النعيم والعظمة . لقد فقدت الإحساس والإلتفات ، ومع ذلك فقد امتلأت نشوة لا توصف ، ولم أعد أشعر بعد بسطوة الألم .

س : هل تعلم بما أنويه ؟ (من العزم على إلقاء كلمة رثاء على قبرك[1]) .

ج : نعم ياصديقى إنى أعلم ذلك ، لأنى رأيتك بالأمس وأراك اليوم ، وسرورى عظيم فشكراً وشكراً ، وقلها حتى يفهمنى الناس وحتى يقدروك ولا تخش شيئاً ، لأن الناس يحترمون الموتى ، فقلها إذاً حتى يؤمن غير المصدقين ، فوداعاًوقلها ، وشجاعة وثقة ، ولعل أولادى يتحولون إلى الإيمان الذى لا يتزعزع .

ج . سانسون

وأثناء مراسيم دفن الجثة أملت الروح الكلمات الآتية على لسان الوسيط : « أرجو ألا يكون الموت محنة لكم يا أصدقائى . إنه خطوة لكم ، وإذا عرفتم

---

(١) بمجرد النطق بالكلمات الأولى للسؤال أجابت الروح فوراً ، وهى تجاوب هنا بدون توجيه سؤال لها عن مناقشة أثيرت بين الحاضرين حول مدى ملاءمة إلقاء نبأ هذا الاتصال الروحى فى المقبرة (عند القيام بمراسيم الدفن) لاحتمال وجود أشخاص قد لا يشاركون الحاضرين هذه الآراء التى كانت حينذاك جديدة على العالم .

كيف تقضون حياتكم على صورة حسنة فالموت سعادة متى استحققتم ذلك بجدارة ، وأحسنتم اجتياز تجاربكم . وأكرر لكم القول : لتكن لديكم شجاعة ونية طيبة ، ولا تعطوا إلا قيمة تافهة لمتاع الأرض وستعوضون عنه ، ولا يمكن للإنسان أن يتمتع أكثر مما ينبغي إلا على حساب هناءة الآخرين ، وإلا بأن يحدث بنفسه ضرراً أدبياً جسيماً ، فلتترفق الأرض بجسدى » .

وبعد ذلك بيومين أعيد طلب الروح داخل « الجمعية الروحية بباريس » أى بتاريخ ٢٥ أبريل سنة ١٨٦٢ .

فقالت : أيها الأصدقاء إنى بجواركم .

س : نحن سعداء جداً للحديث الذى جرى معك فى يوم الدفن ، ويسعدنا أن نتمم الحديث — إذا سمحت — لتعليمنا .

ج : إنى مستعد وسعيد لأنكم فكرتم فى .

س : إن كل ما يثيرنا حول حالة العالم غير المنظور ويفهمنا إياها ذو قيمة تعليمية عظمى ، لأن الفكرة الزائفة عن هذا العالم هى التى قادت الناس غالباً إلى عدم الإيمان ، فلا تتعجب إذاً من الأسئلة التى قد نوجهها إليك .

ج : إنى لن أتعجب منها ، وفى انتظار أسئلتكم ... ...(١)

س : هل تتفضل بأن تذكر لنا ماذا شاهدت فى اللحظة التى تفتحت فيها عيناك من جديد على الضوء ؟ وهل تتفضل بأن ترسم لنا صورة الأشياء كما بدت لك إذا كان ذلك فى المقدور ؟

ج : عندما تمكنت من أن أسترجع نفسى وأشاهد ما هو أمام ناظرى

---

(١) استبعدنا محاورات كثيرة مع الروح ، لأنه ليس فيها معان جديدة غير ما تقدم فى بعض صفحات هذا المؤلف .

أصبحت كالو كنت مذهولا ، ولم أكن مدركاً تماماً ما جرى لأن التمييز الواضح لا يسترد بغتة ، ولكن الله الذى منحنى علامة عميقة عن رأفته قد سمح لى بأن استرد ملكاتى وأشاهد نفسى محوطاً بأصدقاء مخلصين كثيرين ، فجميع الأرواح التى تحمينا وتساعدنا كانت محيطة بى باسمة تغذيها سعادة لا نظير لها، بل إنى نفسى تمكنت بعد أن أصبحت قوياً معافى من الانتقال بغير جهد خلال الفضاء ، وما شاهدته لا يمكن التعبير عنه بلغات الآدميين .

وبالإضافة إلى ما تقدم سأجىء كيما أحدثكم حديثاً أكثر استفاضة عن مواطن سعادتى بغير أن أتجاوز مع ذلك الحد الذى يتطلبه الإله . فلتعلموا أن السعادة كما تفهمونها عندكم مجرد خرافة . فعيشوا فى حكمة وفضيلة وفى روح البر والمحبة وعندئذ تعدون لأنفسكم مشاعر يعجز عن وصفها أحسن شعرائكم . . . »

هذا وقد أملت إحدى الأرواح المرشدة وتدعى جورج Georges الكلمة الآتية بمناسبة الاتصال بروح السيد سانسون هذا : —

« إن موت الشخص الذى يشغلكم الآن هو موت العادل ، أى الموت المقترن بالسلام وبالأمل . فكما يعقب النهار قدوم الفجر ، كذلك أعقبت حياته الروحية حياته الأرضية بدون صدمة ولا أسى ، ولفظ أنفاسه الأخيرة فى نغم من الإحساس بالوفاء وبالمحبة ، وما أقل من يجتازون على هذا النحو هذا الممر الوعر ، فما أقل من يدركون أنغام الأجواء المتناسقة بعد ما فى الحياة الدنيا من ترح ومن خيبة . فكما أن الإنسان الذى تصيبه قنبلة يتألم من موضع الأعضاء التى نزعت عنه حتى بعد أن يشفى منها ، فكذلك روح الإنسان الذى يموت خلواً من الإيمان ومن الرجاء ، يمزقها الألم والتخبط عندما تفلت من الجسد منطلقة فى الفضاء غير واعية لنفسها .

فصلوا لأجل هذه الأرواح المضطربة ، وصلوا لكل من يتألم ، فليس البر محصوراً فى الإنسانية التى ترونها ، بل إنه يعين الكائنات التى تعمر الفضاء

ويريحها . وقد كان لديكم الدليل المقنع عنـــدما آمنت بغتة روح السيد برنارد Bernard [1] الذى أثرت فيه الصلوات الروحية التى قمتم بها على قبر هذا الإنسان الخير الذى كنتم تستجوبونه الآن (السيد سانسون) والذى يرغب فى أن يراكم تتقدمون فى الطريق المقدس . فليس للحب من حدود ، وهو يملأ رحبات الفضاء ، معطياً أسباب الطمأنينة والعزاء ومتقبلا إياها .

فنحن نشاهد البحر فى منظر لا ينتهى ، ويبدو فى نهايته الأخيرة متصلا بالسماء ، فيصيب هذا المنظر الرهيب لعظمة البحر والسماء بالذهول الروح التى تتأمله . وكذلك الحب فهو أعمق من الأمواج ، وأرحب من الفضاء وينبغى أن يجمع شملكم جميعاً ، إن كنتم بشراً أم أرواحاً فى شركة برّ واحدة فيتحقق به الاندماج الرائع بين ما انتهى أمره وبين ماهو خالد لا ينتهى » .

جورج

(ب) من السيد جوبار Jobard .

كان مديراً للمتحف الزراعى فى بروكسل وتوفى فى ٢٧ من أكتوبر سنة ١٨٦١ عن تسعة وستين عاماً ، وكان فى حياته رئيساً فخرياً للجمعية الروحية فى باريس ، وقد حضرت روحه من تلقاء نفسها فى جلسة ٨ نوفمبر سنة ١٨٦١ فى مقر نفس الجمعية وأملت الرسالة الآتية : —

« هأنذا الذى كنتم تريدون حضوره وقد أردت إظهار نفسى أولا لهذا الوسيط الذى كنت أبحث عنه عبثاً حتى الآن . أريد أولا أن أقص عليكم إحساسى ساعة انفصال روحى . لقد أحسست حينذاك اهتزازاً عنيفاً ثم تذكرت بغتة ولادتى وسنى شبابى ، فسنى نضوجى ، وعادت جلية إلى ذهنى ذكريات حياتى . وأحسست رغبة فى أن أجد نفسى فى المناطق التى تكشف

---

(١) كانت روحه قد حضرت من تلقاء نفسها فى يوم جنازة سانسون . (راجع المجلة الروحية عدد مايو سنة ١٨٢ ص ١٣٢) .

لنا عنها عقائدنا العزيزة علينا . لقد صرت طليقاً ورقد جسدى خاملا .

« إيه أيها الأصدقاء الأعزاء ، كم هو مبهج أن نعانق الفضاء ، لكن لا تحسبوا مع ذلك أنى قد صرت فجأة مختاراً عند الله . كلا بل أنا ممن ألموا بالقليل لكن ينقصهم الكثير كيما يتعلموه . لم يلزمنى وقت طويل لكى أتذكركم أيها الإخوة الذين فى المنفى ، وإنى أؤكد لكم أن محبتى وجميع أمانى كانت محيطة بكم .

« إنكم تريدون أن تعرفوا أرواح من هى التى استقبلتنى ، وماذا كان شعورى إزاءها ؟ لقد كان أصدقائى من بينهم هم الذين كنا نتصل بهم ، وكذلك الأخوة الذين كانوا يشاركوننا فى أعمالنا .

« لقد رأيت روعة لكن هيهات أن أقدر على وصفها ، فانصرفت إلى تمييز ما كان صحيحاً فى الرسائل استعداداً لكى أصحح لكم كل بيان خاطىء منها ، حتى أكون خادماً للحقيقة فى العالم الآخر كما كنت فى عالمكم » جوبار .

ويلى ذلك حوار طويل بين الروح وبين الجالسين من أعضاء الجمعية الروحية عن بعض حقائق عالم الروح التى أصبح الكثير معروفاً منها الآن ، والتى عرضنا لأهمها فى الباب السابق .

(ح) من السيد فان دروست Van Drust

كان موظفاً وتوفى فى أنفرس Anvers (بلجيكا) فى عام ١٨٦٣ عن ثمانين عاماً ، وأملى الرسالة الآتية بعد أربعة أيام فقط من انتقاله : « أيها الصديق ، لقد كانت حياتى ثقلا تافهاً فى ميزان الأبدية ، ومع ذلك فلست الآن شقياً ، بل إنى فى مركز متواضع كإنسان عمل قليلا من الشر دون أن يرقى مع ذلك إلى الكمال ، وإذا كان هناك سعداء فى محيط ضيق فأنا أكون منهم . لست نادماً إلا على شىء واحد فقط ، وهو أنى لم أعرف ما تعرفونه أنتم الآن ، وإلا لأصبح اضطرابى أقصر أمداً ، وألمى أخف وطأة ، لقد كان هذا الاضطراب فى الواقع عظيماً . . . أن نحيا وألا نحيا ، أن نرى أجسادنا

وأن تظل صلتنا وثيقة بها ، ومع ذلك نعجز عن استخدامها ، أن نرى من كنا نحبهم وأن نحس مع ذلك بانطفاء شعلة الفكر التى تربطنا وإياهم .

لكم هذا مؤلم ولكم قاسية هذه اللحظة . . . هذه اللحظة التى يستولى علينا فيها الدوار كيما يصرعنا وبعد فترة نرى ظلاماً دامساً ، أن نحس ثم نفنى ثم نريد أن يكون لنا الإحساس بالذات فلا نقدر على استرداده . لم نعد كما كنا ، ومع ذلك نشعر بأننا لازلنا كما كنا . كلا بل إنه اضطراب عميق ، وبعد وقت لا يمكن تقديره ، وقت مضايقات ممتدة لأنه لم تعد لنا القدرة على الإحساس به ، بعد هذا الوقت الذى يبدو غير متناه نولد ثانية فى الوجود محلقين فى عالم جديد ليس فيه جسد مادى ولا حياة أرضية بل حياة خالدة..

لم تعد الأجسام من لحم ودم بل صارت أشكالا لطيفة ، أرواحاً تنساب من كل جانب تحيط بنا ، ولا يستطيع النظر أن يحيط بها كلها لأنها تحلق فى اللانهاية . . . أن نرى الفضاء وأن نستطيع اجتيازه بالإرادة وحدها ، وأن نتصل بالفكر بكل من يحيط بنا ! أية حياة جديدة ومشرقة هذه يا صديق ، بل أى نعيم وأى سلام هذا أيتها الأبدية التى احتويتنى فى أحضانك .

وداعاً أيتها الأرض التى احتجزتنى وقتاً طويلا بعيداً عن العنصر الطبيعى لروحى . ما كنت أريد منك أكثر من ذلك . كلا لأنك أرض منفى وأكبر ما فيك من سعادة لا يعد شيئاً مذكوراً .

لكن لو كنت أعلم ما تعلمونه أنتم الآن لكان وصولى إلى الحياة الأخرى سهلا ولذيذاً ، إذاً لعلمت قبل أن أموت ما تعين على أن أعلمه بعد ذلك وقت الانفصال ، ولتخلصت روحى من جسدى بسهولة عما جرى . إنكم على الطريق لكن لن تذهبوا إلى أبعد من ذلك أبداً . قولوا ذلك لولدى حتى يؤمن به ويتعلمه، وحتى لا ينفصل أحدنا عن الآخر عند حضوره إلى هنا .

وداعاً أيها الأصدقاء جميعاً وداعاً ، وإنى أثناء الوقت الذى ستمكثونه على الأرض سأحضر إليكم كيما أتعلم بالقرب منكم ، لأنى لا أعرف بعد قدر

ما يعرفه الكثيرون منكم ، إنما سأتعلم سريعاً هنا حيث لا يعوقنى عائق وحيث ليس من عمر يهد من قواى . هنا نحيا ونتقدم بخطوات واسعة لأننا نرى أمامنا آفاقاً بلغ من جمالها أننا لا نصبر على رغبة ارتيادها . وإنى أغادركم فوداعاً ثم وداعاً » .

(د) من الدكتور ديمير Demeure .

كان طبيباً بمدينة آلبي Albi وتوفى بها فى ٢٥ من يناير سنة ١٨٥٦ ، وقد كفلت له معلوماته وأخلاقه احترام مواطنيه وتبجيلهم ، كما كان معين بره وطيبته لا ينضب . علم المؤلف بوفاته يوم ٣٠ يناير فاتجه تفكيره على الفور إلى الاتصال به فقال : « ها أنذا وقد وعدتكم منذ حياتى أن أحضر بمجرد وفاتى لأصافح يد أستاذى العزيز آلان كاردك . لقد سبب الموت لروحى هذه الإغفاءة العميقة التى نسميها بالغيبوبة ولكن كان عقلى متيقظاً ، فنفضت عن نفسى هذا الغثيان الكريه الذى يطيل ما يعقب الموت من اضطراب وسرعان ما استيقظت وقمت برحلتى إليكم .

كم أنا سعيد لأنى لم أعد كهلا محطماً ، إذ لم يكن جسدى سوى قيد مفروض على . لقد صرت صغيراً ووسيماً وسامة الشباب الذى هو للروح صفة لا تزول ، هذا الشباب الذى لا تعلو وجهه التجاعيد ولا يبيض شعره تحت وطأة الزمن . إنى أشعر بخفة الطير الذى يخترق السماء بقفزة سريعة وأتعجب ، وأنا كذرة فى الوجود ، كما أتأمل وأبارك وأحب وأنحنى احتراماً أمام عظمة فن الخالق وحكمته ، وأمام ما يحوطنى من إبداع .

إنى فى سعادة ومجد . أواه من يقدر يوماً أن يصف ما فى أرض المختارين من روائع زاهية ، وأن يصف العوالم والشموس ودورها فى مضمار هذا التوافق العام . حسناً إنى سأحاول يا أستاذى أن أدرس ذلك وسأحضر كيما أضع تحت تصرفك أعمالى فى الروح — كعلامة ولاء — وأهديها لك مقدماً وإلى اللقاء » ديمير .

وقد أعطت الروح بعد ذلك رسالتين بتاريخ ١،٢ فبراير وكانتا بخصوص مرض المؤلف وقد تضمنتا عدة نصائح فى شأن علاجه

وأما الرسالة الآتية فقد أملتها نفس الروح بتاريخ ٢٦ يناير أى غداة يوم وفاة صاحبها فى دائرة روحية انعقدت من بعض أصدقائه بمدينة منتوبان Montouban وقالت فيها . « أنا أنطوان ديمير Antoine Demeure لم أمت بالنسبة لكم يا أصدقائى الطيبين ، إنما مت بالنسبة لأولئك الذين لا يعرفون مثلكم هذا الفقه الكريم الذى يجمع من تحابوا على الأرض ، ومن كانت لديهم نفس الأفكار ونفس عواطف المحبة والبر .

إنى سعيد ، بل اسعد مما كنت أتصور لأنى أشاهد بوضوح ، وهو أمر نادر الحصول لدى الأرواح التى تخلصت من المادة منذ وقت قليل كهذا . فتشجعوا أيها الأصدقاء الطيبون ، وسأكون قريباً منكم ولن أتوانى عن إرشادكم إلى أشياء كثيرة نجهلها عندما نكون متصلين بمادتنا البائسة التى تخفى عنا روائع ومتعاً كثيرة ، فصلوا لأجل المحرومين من هذه السعادة لأنهم لا يعرفون ما يسببونه لأنفسهم من أحزان » .

لن أسترسل اليوم كثيراً ، وإنما أكتفى بأن اذكر لكم أنى لا أجد نفسى غريباً على الإطلاق فى هذا العالم غير المنظور منكم ، ويبدو لى أنى كنت دائماً مقيماً به ، وإنى به جد سعيد وأشاهد هنا أصدقائى ويمكننى الاتصال بهم كلما أردت ذلك . لا تحزنوا أيها الأصدقاء لئلا تجعلونى آسفاً على معرفتكم ، وإنما دعوا الزمن يفعل فعله ، والله سيقودكم إلى هذا المقر حيث ينبغى أن نلتقى جميعا . أسعدتم مساء ، والله يعزيكم وإنى قريب منكم » .

ثم ذكر المؤلف بعد ذلك قصة طريفة عن روح هذا الطبيب المشبع بالإنسانية فقال إن وسيطة كان يعرفها وقت حياته الأرضية مرضت بساقها وكانت تجهل وفاته ، فحضر وعالجها من مرضها أثناء جلسة روحية بالتدليك دون أن يسمح لها برؤية وجهه ، لكنها تعرفت عليه فصرخت مذعورة

لهول المفاجأة، اذ كانت تعتقد أنه لا يزال على قيد الحياة الأرضية ، فهدأ من روعها. ولما استعادت غيبوبتها الوساطية تصالحا بحرارة وشفيت الوسيطة .

المبحث الثانى

الاتصال بأرواح فى حال وسط بين السعادة والشقاء

(١) من السيد جوزيف بريه Joseph Bré .

توفى فى سنة ١٨٤٠ وطلبت حفيدة له الاتصال به بجلسة بمدينة بوردو Bordeaux فى سنة ١٨٦٢ فقال لها « إنى اتألم بصورة لا يمكنك أن تفهميها ندماً على أنى لم احسن استخدام وقتى على الأرض . هنـــاك هوة بين الإنسان الشريف أمام الناس والإنسان الشريف أمام الله . إنك تريدين أن تتعلمى يا ابنتى العزيزة وسأحاول أن أجعلك تحسين بالفارق العظيم بين الاثنين .

يعد الإنسان شريفاً بينكم إذا احترم قوانين بلاده احتراماً قد يكون مرناً للكثيرين ، وذلك بألا يلحق أذى بجاره فلا يسرق ماله ، لكن كثيراً ما يغتال الإنسان بلا وازع شرف هذا الجار وهناءه فلا يتمكن القانون أو الرأى العام من الوصول إليه لأنه جمع إلى الإثم الرياء .

إنما الإنسان الشريف أمام الله هو الذى يخصص حيـــاته بكل محبة وإخلاص لعمل الخير ولتقدم أمثاله ، هو الذى يقضى حياته مستعداً لأن يؤدى واجبه المادى المفروض عليه فى حماسة ونشاط، لأنه ينبغى أن يعلم إخوته حب العمل . هو النشيط فى الأعمال الصالحة لأنه لا ينبغى أن ينسى أنه تابع مطالب يوماً بتقديم حساب لمتبوعه عن استخدامه وقته ، نشيط حتى الغاية ، لأن عليه أن يكون القدوة الصالحة فى محبة الله والقريب معاً .

الإنسان الشريف أمام الله يجب أن يصم أذنيه عن أى نداء للكبرياء أو للحسد أو للطموح ، ويجب عليه أن يكون صبوراً وليناً مع من يهاجمه ، وأن يغتفر من أعماق قلبه — بلا مكابدة ولا عناء — إساءات الغير . وعليه

كذلك أن يحب خالقه فى كل خليقته،وأن يطبق بالفعل هذا الملخص الصغير الكبير لواجبات الإنسان ؛ أن تحب ربك قبل كل شيء وأن تحب قريبك كنفسك .

هذا هو يا طفلتى العزيزة ما ينبغى أن يكونه بوجه التقريب الإنسان الشريف أمام الله . فهل حققت أنا كل ذلك ؟ . . كلا لقد قصرت فى الكثير من هذه الواجبات وهو ما أبوح به بلا خجل ، فلم يكن لدى النشاط الذى ينبغى أن يكون عليه الإنسان . ولطالما قادنى نسيان الإله إلى نسيان واجبات أخرى ، وإن كانت غير معاقب عليها فى شريعة البشر ، فإنها لا تفلت من العقاب فى ناموس الله ، ولقد تألمت كثيراً عند ما أحسست بذلك . ولذا أؤمل الآن أملا هو عزائى فى رحمة الله الذى يرى توبتى .

قولى ذلك يا طفلتى وكرريه لكل من أرهقتهم ضمائرهم : أن يشتروا أخطاءهم بالأعمال الصالحة . لأن الرعاية الإلهية ستتوقف عند السطح ،لكن نظراته الأبوية ستحصى كل ما يفعلونه للتكفير عن أخطائهم فتمحو يده القادرة هذه الأخطاء » .

(ب) من السيدة هيلين ميشيل Hélène Michél .

هى سيدة صغيرة السن توفيت فجأة فى الخامسة والعشرين من عمرها . كانت غنية، فاترة الإحساس نوعاً ، كما كان اهتمامها بالأمور التافهة أكثر من اهتمامها بالجاد منها . ورغم ذلك فقد كانت طيبة القلب رقيقة سليمة الطوية ومحسنة ، قالت بعد ثلاثة أيام من وفاتها « لا أعرف أين أنا ، ولا ما هذا الاضطراب الذى يحيط بى : لقد طلبتمونى فحضرت ولا أعرف لماذا لست بمنزلى الآن . يبكوننى لأننى غائبة مع أنى هنا ولا أقدر أن أشعرهم جميعا بوجودى . إن جسدى أصبح لا ينتمى إلى ومع ذلك أشعر به بارداً مثلجاً . إنى أريد أن أغادره . . . وقد حضرت إلى هنا . إنى شخصان . . . أواه

متى أفهم ماذا حل بى . . . ينبغى أن أذهب إلى هناك حيث ذاتى الثانية . ماذا سيحل بهذه الذات الغائبة . . . وداعاً » .

وعند استدعائها بعد بضعة أيام أخرى قالت : « أشكركم لأنكم صليتم لأجلى ، وإنى أومن برحمة الله التى وفرت على الآلام ، وكذلك الإحساس باللحظة التى انفصل فيها جسدى عن روحى . إن والدتى ستتحمل عناء كبيراً حتى تستسلم لإرادة الله . لكن هناك من سيساعدها . وما يبدو لها الآن مصيبة كبرى (هى وفاتى) كان أمراً لا مفر منه حتى تكون إرادة الله بالنسبة لها ما ينبغى أن تكونه سأكون بجانبها حتى نهاية محنتها الأرضية وسأساعدها على تحملها . لست شقية لكن على أن أفعل الكثير حتى أتقدم نحو المقر السعيد وسأصلى إلى الله حتى يأذن لى بأن أعود إلى هذه الأرض لأن على أن أعوض ما فقدت من وقت فى هذا الوجود . ليقوكم الإيمان أيها الأصدقاء . ولتكن لديكم ثقة فى قوة الصلاة إذا صدرت من القلب ، فالله كريم » هيلين ميشيل .

(ح) من الدكتور كاردون Cardon .

« إن الله قدر لى صلواتى وإيمانى التام به إنى فى طريق التقدم وسأصل إلى الهدف الذى سمح لى برؤيته . صلوا أيها الأصدقاء لهذا العالم الغير المنظور الذى يتحكم فى مصائركم ، فإن هذا التعاون بين الإخوة هو من عمل البر . إنه وسيلة قوية لتواصل الأرواح من جميع الأكوان .

إنى أرجو جميع معارفى أن يؤمنوا بالله القوى العادل الصمد . وأن يؤمنوا بالصلاة التى تقوى وتعزى ، وبالبر الذى هو أنق ما تعمله الروح فى تجسدها ، وليذكروا أن ما يمكن أن يعطيه الإنسان قليل ، لكن صدقة الفقير هى الأكثر استحقاقاً عند الله . فما دام أن الفقير يعطى كثيراً إذا أعطى قليلا فعلى الغنى أن يعطى كثيراً حتى يستحق مثله .

إنما المستقبل هو فى البر والنية الخالصة فى جميع الأعمال . هو فى الإيمان بأن جميع الأرواح إخوة ، هو فى الإنكار الدائم لجميع الصبيانيات التى نزهو بها . يا أسرتى المحبوبة ستلاقين محناً كثيرة ، لكن تعلمى أن تقابليها بشجاعة ويقين أن الله معك وصلى دائماً هكذا : —

« يا إله المحبة والبر الذى يهبنا دائماً كل شىء ، امنحنا هذه القوة التى لا تتقهقر أمام أى ألم . امنحنا أن نكون طيبين ورحماء وأبراراً ، قليلة أموالنا وكبيرة قلوبنا ، وأن نكون روحيين على الأرض حتى نكون أكثر لك فهماً ومحبة . وليكن اسمك أيها الإله شعاراً للحرية ، وغاية معزية لجميع الحزانى ، وأيضاً لمن يعوزهم المحبة والمغفرة والإيمان » . كاردون

المبحث الثالث

اتصالات بأرواح تشكو آلاما شتى

(١) من أوجست ميشيل Auguste Michel .

كان شاباً غنياً مقبلا على الحياة ، نعم بحياة المادة وحدها ، وكان عدم الاكتراث بالأمور الجدية من صميم أخلاقه وذلك رغم ذكائه . كما كان محبوباً من رفقاء المتعة ومعروفاً فى الأوساط الراقية كإنسان اجتماعى . لم يكن شريراً ، بل كان أقرب إلى الطيبة ولو أنه لم يفعل خيراً على الإطلاق . مات من سقوط سيارته أثناء النزهة . حضرت روحه عن طريق وسيط كان يعرفه معرفة غير مباشرة ، وذلك بعد بضعة أيام من وفاته فأعطت الرسائل الآتية :

١ — رسالة بتاريخ ٨/٣/١٨٦٣ بمدينة الهافر Le Havre .

« لقد تخلصت منذ برهة وجيزة من جسدى ، ولهذا فإن بمقدورى مخاطبتكم لكن بصعوبة . إن السقطة الشنيعة التى أودت بحياتى سببت لروحى اضطراباً عظيماً . إنى قلق قلقاً شديداً من ناحية ما سأكونه . وإن الألم المخيف

الذى تحمله جسدى لا يعد شيئاً مذكوراً بجانب القلق الذى أنا فيه . صلوا كيما يغفر الله لى . أواه من الألم . الرحمة يا إلهى . أواه من الألم وداعاً » .

٢ — رسالة بتاريخ ١٨٦٣/٣/١٨ :

« لقد حضرت عندكم مرة قبل الآن ، ولكنى لم أتمكن من محادثتكم إلا بصعوبة . والآن أيضا أحادثكم بصعوبة . أنت الوسيط الوحيد الذى يمكن أن اطلب منه أن يصلى حتى تنتشلنى رحمة الله من الاضطراب الذى أعانيه . لماذا أتألم أيضاً مع أن جسدى لم يعد يتألم ؟ لمَ هذا الألم الشديد ؟ هل سيستمر أبداً هذا الضيق العظيم ؟ صلى وصلى دائماً كيما يهبنى الله الراحة . أواه ما هذا الشك الرهيب إنى ما زلت متصلا بجسدى ولا يمكن أن أرى إلا بصعوبة ، أين يمكن أن أكون ؟ إن جسدى هنا ، ولماذا أنا هنا دائماً ؟ تعالوا وصلوا بجواره حتى أتخلص من هذا القيد الفظيع . إنى أرجو أن يغفر الله لى ، أرى الأرواح القريبة منكم ويمكن أن أحادثكم عن طريقها . صلوا لأجلى » .

٣ — رسالة بتاريخ ٦ أبريل :

« ها قد حضرت كيما أطلب منكم أن تصلوا لأجلى . إن عليكم أن تأتوا حيث يوجد جسدى لتصلوا إلى الله القادر أن يخفف من آلامى . كم أتألم فاذهبوا إلى هذا المكان واطلبوا من الله أن يمنحنى المغفرة . إنى أرى أنه من المحتمل أن أصبح أكثر اطمئناناً ، ولكنى أعود بغير انقطاع إلى المكان الذى وضع فيه هذا الذى كنته (يقصد جسده) .

٤ — ورسالة رابعة بتاريخ ١١ مايو :

« لقد انتظرتكم وكنت أؤمل فى الساعة التى تحضرون فيها إلى حيث يبدو أن روحى لا تزال ملتصقة فعلا كيما تبتهلوا إلى إله الرحمة أن يخفف من آلامى . إن صلاتكم يمكن أن تفيدنى فأرجو ألا تتوانوا عن أدائها »

أرى الآن كم كانت حياتى على نقيض ما كان ينبغى أن تكون عليه . كما أرى الأخطاء التى ارتكبتها . لقد كنت مخلوقاً عديم الجدوى فى العالم فلم أستخدم مواهبى ولم أنتفع من أموالى إلا فى إرضاء شهواتى ونزوات الترف والغرور . لم أكن أفكر إلا فى متعة الجسد دون الروح .. فيا أيتها الروح البائسة التى تتألمين من أخطائك الأرضية ، هل ستشملك رحمة الإله ؟ ... فصلوا كيما يغفر الله لى وأتحرر من الآلام التى مازلت أعانيها ، وإنى أشكركم لأنكم فرغتم من الصلاة لأجلى » ..

٥ — ورسالة خامسة فى ٨ يونية :

« إن بمقدورى محادثتكم وشكراً لله الذى سمح لى بذلك . ولقد رأيت أخطائى وأرجو أن يغفرها لى الله . سيروا فى حياتكم دائماً طبقاً للحقيقة التى تملأكم لأنها ستحقق لكم فى المستقبل راحة لم أحصل عليها بعد . شكراً لصلاتكم وإلى اللقاء » .

وهنا يقول آلان كاردك تعليقاً على رسائل هذه الروح «إن إلحاح الروح فى الصلاة على قبرها خاصية جديرة بالذكر ، وإن كان سببها واضحاً وهو الصلة الشديدة التى كانت تقيد الروح بالجسد ، إذ كان الانفصال بطيئاً وصعباً بسبب مادية المعيشة التى عاشها صاحبها . ومن ذلك يمكن أن نعرف أن الاقتراب من جثة الميت يهيء للصلاة أن تحدث نوعاً من تأثير مغناطيسى قوى لمساعدة الروح على التخلص من الجسد . أليس العرف المألوف من الصلاة بالقرب من أجساد الموتى مصدره نوع من الإلهام غير الواعى عن هذا التأثير ؟ ... إن قوة الصلاة فى هذه الحالة يكون لها أثران : أثر مادى وأثر معنوى فى وقت واحد »[١] .

---

(١) الأمر الطبيعى ، هو أن الحبل الأثيرى الذى يربط الجسد الأثيرى بالجسد المادى ينفصم تدريجيا أثناء الاحتضار ويعقب انفصامه التام توقف النبض والتنفس ، وبالتالى حدوث الوفاة وانطلاق الجسد الأثيرى إلى عالم الروح . إلا أنه لوحظ أنه فى بعض حالات قليلة من الموت =

(ب) من باسكال لافيك Pascal Lavic .

هذه روح حضرت من تلقاء نفسها وأملت ما يلي :

« إنى أومن بعدالة الله الذى سيشمل برحمته روحى البائسة . لقد تألمت وتألمت كثيراً . كما هلك جسدى فى البحر وظل لمدة طويلة طافياً على الأمواج ، ولكن الله ... (ثم توقفت الروح فجأة ، وفى اليوم التالى أتمت رسالتها قائلة) « قد شاءت إرادته أن تجعل من صلاة من تركتهم على الأرض سبباً لانتزاعى من حالة القلق والشك التى كانت تغمرنى . لقد انتظرونى طويلا وتمكنوا من العثور على جسدى وهو يرقد الآن . وحالما تخلصت روحى رأت الأخطاء التى ارتكبتها والمحنة التى تحملتها . إن الله يحكم بعدالة وبمحبة تمتد إلى التائبين . وإذا كانت روحى قد ظلت تهيم أمداً طويلا على جسدى فذلك لأنه كان على أن أكفر عن أخطائى . اتبعوا الطريق المستقيم إذا كنتم تريدون من الله أن يحرر أرواحكم سريعاً من غلافها . وعيشوا فى محبة لأن الموت الذى يبدو رهيباً للبعض يصبح هيناً لكم إذا عرفتم الحياة التى تنتظركم. إنى تائب وأرجو أن يغفر الله لى ... لقد عثروا على جسدى يوم ٦ أغسطس، وكنت بحاراً بائساً ثم هلكت منذ مدة طويلة » . باسكال لافيك

س : وأين عثروا عليك .

ج : قريباً منكم .

وهنا يقول المؤلف أنه قرأ فى جريده الهافر فى عدد ١١ أغسطس سنة ١٨٦٣ النبأ التالى الذى لم يكن بمقدور الوسيط أن يعرف عنه شيئاً : —

= المباغت — كما كانت الحال هنا — لا ينفصم الحبل الأثيرى فوراً ، بل قد تتوقف الحياة فى الجسد المادى بسبب الصدمة المباغتة التى تلقاها من الحادث، أو من العدوان أو من الانتحار أو ما أشبه وبظل الحبل الأثيرى على حاله ، فلا ينقطع إلا بعد فترة قد تطول وقد تقصر . ويكون ذلك سببا فى آلام الروح وهى تشاهد جسدها أثناء تحلله ، وقد يساعد على ذلك جهل الروح بمصيرها وبحقيقة الحياة الأخرى (وقد وضح ذلك الأديب الكبير شو دزموند Shaw Desmond فى مؤلفه « كيف نحيا عند ما نموت » وراجع ما سبق فى الجزء الأول ص ٤٣١ ، ٤٣٢) .

« سبق أن نشرنا أنه قد عثر في يوم ٦ الجاري على بقايا جثة ألقاها اليم بين بلليفيل Belleville ولاهيف La Hève وقد فقد منها الرأس والصدر والذراعان ، ومع ذلك فقد أمكن التعرف على شخصية صاحبها من الحذاء الذي كان لا يزال عالقاً بالقدمين ، وقد تبين أنها للبحار لافيك Lavic الذي غرق في يوم ١١ ديسمبر على الباخرة لا ليرت L'Alerte التي انتزعها هياج البحر أمام تروفيل Trouville . وكان عمر لافيك تسعة وأربعين عاماً وهو من مواليد كاليه Calais وقد تعرفت عليه أرملته » .

ثم عادت روحه مرة أخرى في يوم ١٢ أغسطس أثناء الحديث في موضوعها في الدائرة الروحية التي ظهرت فيها لأول مرة وأكدت شخصيتها من جديد للحاضرين ، كما أعادت وصف محنتها بما لا يخرج عما تقدم ذكره .

(حـ) السيدة كلير Claire : دراسة يشترك فيها الأحياء والأموات .

هي سيدة عرفها الوسيط أثناء حياتها الأرضية ، وكان خلقها وسلوكها يبرران كل التبرير ما احتملته من آلام . فقد كانت من صفاتها الأنانية المفرطة وكانت شخصيتها تنعكس في رسالتها الثالثة التي طلبت فيها من الوسيط ألا يشغل نفسه بأحد سواها . وقد وردت رسائلها في أوقات مختلفة، وكانت الثلاث الأخيرة منها تشير إلى تقدم محسوس لديها في صفاتها كروح بفضل اهتمام الوسيط الذي أخذ على عاتقه عناء العناية بها :—

١ — «هأنذا كلير الشقية فماذا تريدون أن تتعلموا مني ؟...[1] إن القناعة والأمل لفظان أجوفان لمن يعلم أن آلامه ستطول على مر القرون ، ولا نهاية لها . وتقول مع ذلك إنه يمكنني أن أخفف منها ، فأي لفظ غامض

(١) كان بعض الأرواح يحضر عالما بالغرض من حضوره، وهو تحقيق رغبة الموجودين في التعلم والدراسة . ويبدو أن الأرواح المرشدة كانت تشترك في اختيار الأرواح التي تحضر وكانت تبين لها مقدما الغرض من الحضور لإقناعها به ، ولمساعدتها على التخلص من آلامها إن كانت بحاجة إلى المساعدة مثل روح كلير هذه

هذا، وأين أجد الشجاعة والأمل ؟ ! فلتحاول أيها العقل المحدود ان تفهم ما معنى يوم لانهاية له، أهو يوم أم عام أم قرن ! إنى لا أعلم شيئاً عن ذلك لأن الساعات لا تجزئه، والفصول لا تغير منه، بل هو أبدى وبطىء كالماء الذى يخرج من الصخر ... إنى أتألم ولا أرى شيئاً حولى سوى ظلال صامتة وغير مكترثة بى . إنى أتألم ... ولكنى أعلم مع ذلك أنه فوق كل هذا الشقاء يحكم الله الآب الذى يتجه إليه كل شىء . إنى أريد أن أفكر فيه وأن أبتهل إليه » .

٢ — «إن شقائى يزداد يوماً فيوماً بقدر ما تزداد معرفتى عن الأبدية . تباً لك أيها الشقاء ! كم ألعنك أيتها الساعات الآثمة ، ساعات الأنانية والنسيان التى تجاهلت فيها كل بر وكل إخلاص ، ولم أفكر إلا فى هنائى الشخصى ! . كم أنت جديرة بالاحتقار أيتها التدابير البشرية وأيتها المشاغل المادية التافهة . عليكم اللعنة أنتم الذين غررتم بى وأعميتمونى ، لكم يحز فى نفسى ندم لا ينقطع كلما تذكرت الزمن الذى أمضيته ... ماذا أقول لك يا من تصغى إلى ؟ أسهر على نفسك بنفسك بلا انقطاع وأحبب الآخرين أكثر من نفسك ، ولا تتلكأ فى طريق الخير ، ولا تغذ جسدك على حساب روحك . اسهر كما قال السيد لتلاميذه . لا تشكرنى على هذه النصائح فإن روحى تدركها ولكن فلبى لم يصغ إليها أبداً » .

٣ — « ها قد حضرت أبحث عنك فى هذا المكان لأنك نسيتنى . أتعتقد أن صلوات متقطعة ينطق فيها باسمى تكفى لتخفيف ألمى ، كلا وألف كلا . إنى أذوب هماً ، وأهيم بلا راحة ولا مأوى ولا أمل ،شاعرة بسيف العقاب الأبدى مصلتاً على روحى الثائرة . إنى أضحك عندما أسمع شكواكم وعندما أراكم مغلوبين على أمركم ! ماذا تعد أحزانكم الباهتة ودموعكم . وماذا تعد متاعبكم التى تنقطع أثناء النوم ، وأنا هل أنام ؟ إنى أريد — هل تسمعنى ؟ أريد أن تتركوا بحوثكم الفلسفية وأن تهتموا بى وأن تجعلوا الغير

يتم بى أيضاً . إنى لا أجد ألفاظاً أعبر بها عن ضيق هذا الزمن الذى انقضى دون أن تحدده الساعات ، لكنى أرى بصيصاً من أمل أعطيتنى إياه فلا تهجرنى إذن » .

٤ — وهنا أملت روح القديس لويس Saint Louis البيان التالى عن روح هذه البائسة : « هذا تصوير صادق لازيادة فيه ، ولعل المرء يتساءل عما فعلت هذه المرأة حتى تصبح بائسة إلى هذا الحد ، فهل ارتكبت جريمة نكراء من سرقة أو اغتيال ؟ كلا إنها لم تأت مايستحق عدالة البشر بل كانت تتمتع على العكس من ذلك بما تسمونه السعادة الدنيوية : جمال وثروة ومباهج واستهتار . لم يكن ينقصها شىء ، بل كان الكل يرمقها ويحسدها على حالها ، قائلا كم هى سعيدة هذه المرأة ، فماذا أتت ؟

لقد كانت أنانية ، كان لديها كل شىء عدا القلب الطيب ، فإذا كانت لم تنتهك قانوناً بشرياً فإنها انتهكت ناموس الله بأن أنكرت أولى الفضائل وأقصد البر . لم تحب سوى نفسها فلا يحبها الآن أحد . لم تعط شيئاً فلا تعطى الآن شيئاً . إنها منفردة ووحيدة ومهجورة يغمرها الفضاء ، لا يفكر فيها أحد ولا يشغل نفسه بها وهذا هو عذابها .

ولأنها لم تبحث إلا عن المتع الدنيا ، وهى لاتوجد الآن ، فإنها تشعر من حولها بفراغ ، ولا تشاهد سوى العدم والعدم يبدو لها كأنه الأبدية . فهى لاتحس تعذيباً أبدياً يقوم به الأبالسة ، كلا لأن ذلك لاضرورة له ، بل هى تعذب نفسها بنفسها فتتألم أكثر فأكثر ، لأن هذه الأبالسة كانت ستكون كائنات وكانت ستفكر فيها . كانت الأنانية نعيمها على الأرض ، لكنها تطاردها الآن وأصبحت لها بمثابة الدود الذى يأكل قلبها وإبليسها الحقيقى » . سان لويس

٥ — « سأحدثكم عن الفارق الكبير بين الخلق الإلهى والخلق الإنسانى . الأول يساعد المرأة الساقطة فى عزلتها ويقول للخطاة « توبوا تفتح لكم

ملكوت السموات » . الخلق الإلهي يتقبل كل توبة ويغتفر كل خطيئة يعترف صاحبها حين ترفض ذلك أخلاق البشر التي تتقبل رغم ذلك الخطايا المستورة وتغضي عنها نصف إغضاءة . الأول يمنح المغفرة أما الثاني فيشجع الرياء . فاختاري أيتها الأرواح المتلهفة على معرفة الحقيقة بين السماوات المفتوحة للتوبة وبين تسامح البشر الذي يقبل الشر طالما كان لا يكشف عن كبريائنا وتدبيراتنا الزائفة ، لكنه تسامح يستنكر مع ذلك العاطفة ونزوات الأخطاء إذا اعترفنا بها في وضح النهار . فتوبوا يا جميع الخطاة وارجعوا عن الشر . لكن ارجعوا بوجه خاص عن الرياء الذي يغطي قبح نفوسكم وانبذوا هذا القناع الضاحك الخداع الذي تواضعتم عليه » . كلير

٦ — « إني الآن هادئة وقد استسلمت للتكفير عن الخطايا التي ارتكبتها . الشر فيّ وليس فيما يحوطني . فأنا التي ينبغي أن أتغير لا الأشياء الخارجية ، فإنا نحمل في نفوسنا جنتنا ونارنا ، كما أن أخطاءنا المسجلة في ضمائرنا نقرؤها غادة في يوم بعثنا ، ونصبح قضاة أنفسنا . وحالة روحنا هي التي ترفعنا أو تهوي بنا . ولأفسر ذلك أقول إن الروح غير النقية تثقلها أخطاؤها فلا يمكنها أن تتصور ارتفاعاً لا تقدر على تحمله ، ولا ترغب فيه .

اعلموا هذا جيداً فكما أن الأنواع المختلفة من الكائنات يعيش كل منها في محيط خاص به ، فكذلك كل نوع من الأرواح يتحرك بحسب مدى تقدمه ، وفي الجو الذي تعده له ملكاته ، ولا يمكن أن يتصور غيره إلا إذا انتزع الارتقاء — وهو الوسيلة البطيئة للتحول — هذه الأرواح من ميولها الرديئة وجردها من مصدر الخطيئة فيها ، فتتمكن من الانطلاق محلقة بسرعة نحو الله الذي يصبح هدفها الوحيد الذي ترغب فيه . أما أنا فما زلت للأسف أحبو . لكن لم أعد أحقد على إنسان ، متصورة السعادة التي قد تمنحني إياها محبة الإله ، فصلوا لأجلي دائماً فإني أرجو وأنتظر »

٧ — « لقد أتيت إليك يا من تركتني طي النسيان منذ زمن طويل ، لكنني تعلمت الصبر ولم أعد يائسة ، أنك تريد أن تعرف مركز فليكس البائس (زوجها وكانت قد تألمت منه كثيراً أثناء حياتها الأرضية) إنه يهيم في الظلمة فريسة لتدهور روحـــه العميق وذاته السطحية المستخفة التي لوثها الإقبال على الجسد . كان يجهل معنى الحب والصداقة ، ولم تلق العاطفة عليه شيئاً من ضوئها الساطع . إني أشبه حالته بحالة طفل أحمق إزاء حوادث الأيام وهو محروم من معونة من يعاونه . إن فليكس يهيم مذعوراً في هـذا العالم الأجنبي حيث يسبح كل شيء بنور الله الذي كان ينكر هو وجوده » .

ثم توقفت الروح بغتة وتدخلت الروح المرشدة للوسيط واسمها جورج Georges على النحو الآتي : « لقد كان فليكس سطحياً في آرائه وإحساساته ، عنيفاً لأنه كان ضعيفاً ، شهوانياً لأنه كان فاتر العاطفة ، فدخل إلى عالم الروح عاري النفس كما كان في عالم المادة الذي لم يستفد منه شيئاً ، فعليه أن يستأنف كل شيء من جديد . وكإنسان يستيقظ من حلم طويل كيما يرى كم كان مضطرب الأعصاب ، فإن هذا البائس سيعرف — عند خروجه من اضطرابه — أنه عاش في الأوهام التي ضللت حياته ، فيلعن المادية التي جعلته يتمسك بالأجوف من الأمور معتقداً أنه على حق كما يلعن الواقعية التي كانت تجعله يسمي الحياة المستقبلة حلماً ، والتطلع إليها جنوناً ، والإيمان بالله ضعفاً . . . سيرى المسكين عند يقظته أن هذه الأسماء التي استبعدها كانت أسماء الحقيقة ، وأن صيد الفريسة كان أقل نفعاً له من صيد الظلال ، على عكس ما هو وارد في الأسطورة » .

* * *

وقد علق آلان كاردك على هـذه الرسائل ذات القيمة التعليمية الكبرى في موضوع الثواب والعقاب قائلا إنها تكشف لنا عن جانب من

أكثر الجوانب شيوعاً فى الحياة ، وهو جانب الأنانية . فهنا لا توجد هذه الجرائم التى تشمئز منها أشد النفوس انحرافاً عن الصواب ، وإنما هى حالة فريق من الناس يحيا فى العالم مجداً مرموقاً ، لأن له بريقاً خاصاً ... ففى عالم الروح لا يقاسى هؤلاء عقاباً استثنائياً تقشعر منه الأبدان . وإنما هم فى وضع بسيط وطبيعى بسبب أسلوبهم فى الحياة .

فكثير كما رأينا كانت روحاً ذكية جداً ، لكن قلبها كان خاوياً . وكان مركزها الاجتماعى وثروتها ومزاياها الجسدية سبباً فى منحها الإعزاز الذى ارضى غرورها ، وكان فيه كفايتها . لكنها لا تقابل هناك سوى عدم الاكتراث ، يحوطها الفراغ وهو عقاب آلم لها من أى ألم . بل إنه قاتل لأن الألم يستثير العطف والإشفاق ، كما أنه وسيلة للفت الأنظار إليها وشغل الآخرين بها وجعلهم يهتمون بمصيرها !

أما عن الرسالة السادسة فهى تحوى فكرة سليمة تماماً فى أنها تشرح عناد بعض الأرواح فى الشر ... فهذه الأرواح تعيش هناك إلى حد ما فى بيئتها لا تتصور المتع النقية ، وتفضل أرديتها الملوثة على الملابس النظيفة الأنيقة ، كما تفضل أعيادها الماجنة على متعة المصاحبة الحسنة . لقد عود أصحابها أنفسهم على هذا النوع من الحياة فصار لهم طبيعة ثانية . بل لقد صاروا يعتقدون أنهم عاجزون عن السمو فوق محيطهم ، ولذا يظلون فيه ، حتى يفتح التغيير أذهانهم ، وينمو فيهم الإحساس الخلقى فيصبحوا أكثر قابلية لمشاعر أجدى لهم .

فهذه الأرواح لا تحصل فور تخليها عن أجسادها على رقة الإحساس . ويتعين عليها أن تبقى وقتاً قد يطول وقد يقصر فى المناطق السفلى من عالم الروح ، كما شغل أصحابها هذه المناطق فى عالم المادة . وستلبث بها طالما ظلت ثائرة على التقدم . لكن سيأتى عليها وقت تتطلع فيه إلى ما هو أسمى وتبدأ

فى إدراك ما ينقصها ، مع طول الزمن والتجربة وتقلبات الحياة والشقاء الذي تعانيه . وعندئذ تبدأ فى بذل جهدها للحصول على ما يسمو بها ، ومتى طرقت هذا الطريق فإنها تسير فيه مسرعة لأنها تكون قد تذوقت إحساساً يظهر لها امتيازه ، وتعد حقيرة بجانبه كل المتع الأخرى التى لاتلبث أن تستذكرها .

المبحث الرابع

اتصالات بمنتحرين

أجمع البحاث فى الروحية على أن الانتحار لايعد وسيله للخلاص من الآلام الأرضية بالغاً ما بلغ مداها . وأن الوسيلتين الوحيدتين للخلاص منها هما الصبر والصلاة ، وقد أملت روح راقية كتيباً عنوانه « دروس مختصرة فى الروحية »[1] على وسيط يدعى ج . ف J.F جاء فيه عن الانتحار . « إنه فى جميع الأحوال — إلا فيما ندر — يكون المنتحر بأية طريقة كانت ولأى سبب كان، قد اختزل لمدة تتفاوت فى مداها أمد وجوده الأرضى ، فيبقى فى حالة اضطراب ، وغالباً يظل بالقرب من جثته طيلة الوقت الذى كان عليه أن يحياه على الأرض . وعند انتهاء هذه الحالة — التى تتراوح من ناحية الطول ومن ناحيه الألم تبعاً للأحوال وللظروف ولعدد السنين التى كانت متبقية للمنتحر على الأرض — يجد المنتحر نفسه وقد عاد إلى بيئته الروحية » .

وقد أعطت روح البحاثة دينز برادلى Dennis Bradley جواباً فى شأن الانتحار عن طريق الوسيطة مسز بيركل Berkel جاء فيه[2] .

---

(١) Cours Abrégés de Spiritisme.

(٢) جريدة الصنداى اكسبريس عدد ٦ يناير سنة ١٩٣٥ والمجلة الروحية الفرنسية عدد مارس ١٩٣٥ .

« إن الانتحار جريمة . وإنك لتقدم خدمة جليلة إلى كل من تحدثه نفسه بالانتحار إذا ما أقنعته بأن ذلك لن يسبب أى تخفيف لآلامه . هناك هالة aura مظلمة حول الرقعة من الأرض التى تكون روح المنتحر مضطرة أن تبقى فيها ريثما تقضى ما كان سيكون نصيبها العادى من الحياة على الأرض (لو لم تنتحر) ، وذلك قبل أن تتمكن من الدخول إلى عالم الأرواح » . ويلاحظ إلى أى مدى بلغ التطابق بين الرسالتين مع تباين مصدرهما .

وقد أثبتت اتصالات آلان كاردك فى « الجمعية الروحية » بباريس صحة مضمون هاتين الرسالتين ، كما يتضح ذلك من المحاورات الآتية :

(ا) حديث مع منتحر الساماريتين

فى حوالى الساعة السابعة من مساء يوم ١٨٥٨/٤/٧ توجه رجل حسن المظهر فى الخمسين من عمره إلى حمامات الساماريتين Samaritaine بباريس وطلب إعداد حمام له ، ثم وجد منتحراً بأن ذبح نفسه بشفرة حلاقة وظلت شخصيته مجهولة . وقد أحضرت روحه فى جمعية باريس الروحية بعد ستة أيام من الحادث ودار معها الحوار الآتى :

س : أين أنت الآن ؟

ج : إنى لا أعلم فقل لى أنت أين أنا ؟

س : إنك فى جمعية مكونة من أشخاص مهتمين بالدراسات الروحية ويريدون العناية بك .

ج : قولوا لى ما إذا كنت لا أزال حياً لأنى أكاد أختنق فى الصندوق .

« من المؤلف : إن روحه رغم انفصالها عن الجسد مازالت غارقة فيما يصح تسميته بدوار المادة الجسدية . كما أن أفكاره الأرضية ما زالت على حالها ، فهو لا يتصور نفسه ميتاً »[1] .

---

(١) راجع ما سبق فى هامش ص ٢٧٩ ، ٢٨٠ .

س : من الذى كلفك بالحضور إلى هنا ؟

ج : لقد أحسست بشيء من التخفيف .

س : ما الذى حملك على الانتحار ؟

ج : وهل أنا ميت ؟ كلا مازلت أقطن جسدى ولا تعرفون كم أتألم وأختنق ، فلتحاول يد رحيمة القضاء على .

س : لماذا لم تترك أى أثر يمكن به التعرف عليك ؟

ج : إنى مهجور وهربت من الألم لأقابل العذاب .

س : هل لديك الآن نفس الأسباب كيما تظل مهجوراً ؟

ج : نعم ولا تضعوا حديداً ساخناً على جرحى الدامى .

س : هل ترغب فى ذكر اسمك وسنك وعملك وعنوانك ؟

ج : كلا .

س : هل كانت لديك زوجة وأولاد ؟

ج : كنت مهجوراً ولم يحبنى إنسان .

س : وماذا فعلت حتى لا يحبك أحد ؟

ج : كثيرون مثلى ، إن الإنسان يمكن أن يكون مهجوراً وهو وسط عائلته إذا لم يجد قلباً يحبه .

س : هل أحسست بأى تردد عند تنفيذ عزمك ؟

ج : كنت متعطشاً إلى الموت وباحثاً عن الراحة .

س : ألم يجعلك خوف المستقبل تتراجع عما شرعت فيه ؟

ج : لم أكن أومن بالمستقبل . كما كنت بلا أمل والمستقبل هو الأمل .

س : فِيمَ كنت تفكر فى اللحظة التى شعرت فيها بانطفاء شعلة الحياة ؟

ج : لم أفكر بل شعرت ، ولكن حياتى لم تنطفىء ، لأن روحى متصلة بجسدى وأشعر بالدود يقرضنى .

س : وماذا كان إحساسك عندما مت تماماً ؟

ج : وهل الأمر كذلك ؟

س : هل كانت لحظة انطفاء الحياة أليمة ؟

ج : كانت أقل ألماً من اللحظة التى تلتها . لقد تألم الجسد وحده .

س : إلى «القديس لويس» ماذا يعنى بقوله إن لحظة الموت كانت أقل ألماً من تلك التى تلتها ؟

ج : لقد تخلصت الروح من حمل كان يثقل كاهلها بعد أن كانت تشعر بشهوة الألم .

س : هل يحدث ذلك دائماً فى حالة الانتحار ؟

ج : نعم ، فروح المنتحر تظل متصلة بجسده حتى نهاية حياته (الأرضية) لأن الموت الطبيعى هو التحرر من هذه الحياة ، أما الانتحار فتحطيم لها برمتها .

س : هل هذه هى الحال بالنسبة لكل موت عارض إذا أدى إلى تقصير الأمد العادى للحياة ؟

ج : كلا وإلا فماذا تعنون بالانتحار؟ إن الروح لاتدان إلا بأعمالها .

* * *

ثم علق آلان كاردك على هذا الحوار بالآتى :

الشك فى حدوث الموت أمر مألوف لدى من ماتوا حديثاً، خصوصاً لدى من لم يرتفع منهم بروحه فوق مستوى المادة خلال حياته الأرضية ، وهى ظاهرة تبدو غريبة لأول وهلة ولو أن تفسيرها يسير . فلو سألنا شخصاً منوماً تنويماً مغناطيسياً أثناء يقظة نومية حركية Somnambulisme عما إذا كان نائماً لأجاب فى جميع الأحوال تقريباً بالنفى . وجوابه منطقى فالخطأ يقع على عاتق السائل الذى يستعمل فى سؤاله لفظاً غير مناسب ، لأن النوم فى لغتنا الدارجة مرتبط بتوقف جميع ملكات الحس ، أما من يكون فى حالة يقظة نومية حركية ، فهو يفكر ويرى ويشعر ويدرك حريته المعنوية ، ومن ثم لايعتقد أنه نائم لأنه بالفعل ليس نائماً طبقاً للمدلول الشائع لهذه الكلمة .

وهذا هو نفس الوضع بالنسبة للميت حديثاً . فالموت كان عنده بمثابة القضاء على ذاته ، وما شأنه إلا كشأن المنوّم مغناطيسياً ، فهو أيضاً يرى ويشعر ويتحدث ويكون فى نظر نفسه كأنه لم يمت،ويأخذ فى القول بذلك حتى يلهم إدراك حالته الجديدة ...

(ب) رسالة من لوفيه فرانسوا سيمون Louvet François Simon

فى اجتماع روحى عقد بمدينة الهافر Le Havre فى يوم ١٢ فبراير سنة ١٨٦٣ تقدمت روح من تلقاء نفسها وأملت الرسالة الآتية :

« لتكن لديكم شفقة على بائس مسكين يعانى منذ مدة طويلة آلاماً مرة . أواه من الفراغ ... من الفضاء ... إنى أهوى ... إنى أهوى (من علٍ) فهل من مغيث ...؟ يا إلهى لقد كانت حياتى تعيسة وكنت شيطاناً بائساً ... تألمت طويلا من الجوع فى شيخوختى ولذا أدمنت الشراب فمجت نفسى كل شىء،إلى أن رغبت فى الموت فألقيت بنفسى ... إيه يا إلهى أية لحظة هذه ، ولماذا أردت أن أنهى حياتى ما دام الأجل كان دانياً إلى هذا الحد؟!. فصلوا لأجلى حتى لا أرى بعد الآن هذا الفراغ دائماً من تحتى . أكاد انحطم على هذه الأحجار واستحلفكم يا من تعرفون آلام من لم يعودوا بينكم ... وأتوجه إليكم رغم أنكم لا تعرفوننى لأنى أتألم كثيراً ... ولماذا تريدون أدلة ؟ إنى أتألم أليس فى ذلك الكفاية ؟ . لو كنت جائعاً بدلا من الألم الرهيب الذى أقاسيه والذى لا تشاهدونه — أكنتم تترددون فى التخفيف عنى بكسرة من الخبز ؟ فأطلب منكم أن تصلوا لأجلى ... لا يمكننى المكوث هنا طويلا ، واسألوا أحد هؤلاء السعداء الموجودين هنا تعلموا من أكون. وصلوا لأجلى » .

فرانسوا سيمون لوفيه

الروح المرشد للوسيط

هذا الذى فرغ من الاتصال بكم بائس مسكين قاسى محنة الفاقة على الأرض وتملكه السخط كما خانته شجاعته ، وبدلا من أن ينظر إلى فوق كما كان

ينبغي وهب نفسه للمسكر فنزل إلى أشد حالات اليأس ، ووضع حداً لمحنته القاسية بأن ألقى بنفسه من برج فرانسوا الأول في ٢٢ يوليه سنة ١٨٥٧ فلتعطفوا على روحه البائسة التي لم تتقدم ، وإن كان لديها من المعرفة بالحياة المستقبلة ما يكفي مع ذلك لكي تتعذب وتطلب تجربة جديدة . فصلوا إلى الله حتى يهبها المغفرة تؤدوا لها عملا طيباً » .

* * *

ويقول آلان كاردك إنه بالبحث في الصحف اليومية وجد بالعدد الصادر بتاريخ ٢٣ يوليه سنة ١٨٥٧ من جريدة الهافر النبأ التالي :

« أمس في الساعة الرابعة مساء روع المتنزهون بحادث فظيع . ذلك أن رجلا ألقى بنفسه من فتحة البرج وتحطم على الأحجار ... وقد تبين أن اسمه فرانسوا فيكتور سيمون لوفيه ، ثم نقلت الجثة إلى منزل إحدى بناته بشارع الكوردبري Corderie ، وهو يبلغ من العمر سبعاً وستين سنة » .

ويعلق مشيراً إلى مرور ستة أعوام على وفاة هذا الرجل وكيف أنه لا يزال يرى نفسه مع ذلك كما لو كان يهوى من البرج ويتحطم على الصخور ومن ثم يفزع من الفراغ الذي تحته .. وكم سيستمر ذلك ؟ إنه لا يعلم ، وهو شك يضاعف من آلامه . ألا يساوي هذا العقاب الجحيم ولهيبه ؟ ومن الذي كشف لنا هذه العقوبات ؟ هل اخترعناها ؟ أم نفس الذين يقاسونها يأتون ويصفونها ، كما يصف آخرون سعادتهم ؟ .. ولطالما قاموا بذلك من تلقاء أنفسهم ، وهو ما ينفي تماماً الزعم القائل بأننا ضحايا لأوهامنا الخاصة .

(ج) مع منتحر ملحد

كان السيد ج.ب.د. رجلا ملحداً ، كما كان متشبعاً بالآراء المادية إلى أقصى مدى وغير مؤمن بالله ولا بالروح . وقد طلب بعض أقاربه حضوره بعد عامين من وفاته :

الروح : إنى اتألم والشكل ينكرنى .

س : طلب أقاربك استدعاءك لأنهم يرغبون فى معرفة مصيرك ، فهل هذا الاستدعاء يرضيك أم يضايقك .

ج : يضايقنى .

س : وهل مت بإرادتك ؟

ج : نعم (وهنا بدا عليه الاضطراب والغضب حتى حطم القلم ومزق الورقة) .

س : فلتكن أكثر هدوءاً وسنصلى جميعاً إلى الله لأجلك .

ج : إنى مضطر إلى الايمان بالله .

س : وما الباعث الذى حملك على إهلاك نفسك ؟

ج : سأم من حياة بلا أمل .

س : هل تتفضل بكتابة حالتك على قدر ما يمكنك ؟

ج : ما يؤلمنى هو الاضطرار إلى الايمان بكل ما كنت أنكره ، فتتعذب روحى عذاباً رهيبا كما لو كنت على جمر من النار ...

س : ماذا كنت تعتقد عن مصيرك عندما أغرقت نفسك ؟

ج : لم تكن لدى أية فكرة عنه ، إذ كان ذلك بمثابة العدم فى رأيى ، لكنى تبينت بعدئذ أن على أن أتألم كثيراً وأنى أستنفد عقوبتى بأكملها .

س : لكن هل أنت مقتنع تماماً الآن بوجود الله والروح والحياة الاخرى ؟

ج : نعم للأسف وذلك يعذبنى كثيراً .

س : هل شاهدك أخوك .

ج : لا .

س . ولماذا .

ج : ولماذا نجمع بين آلامنا ؟ إن الشقاء يفرق للأسف أما السعادة فتجمع .

س : وهل يسرك أن ترى أخاك بجوارك ، إذ يمكننا استدعاءه ؟

ج : كلا ، لأننى فى حالة دنيا .

س : ولمَ لا تريد أن تستدعيه ؟

ج : لأنه هو أيضاً غير سعيد .

س : هل تخشى مشاهدته ؟ إن مشاهدته لا يمكن إلا أن تفيدك .

ج : ليس الآن ، بل فيما بعد .

وبعد ذلك حضرت روح شقيقه الذى كان يشاركه آراءه ، لكنه لم يمت منتحراً ، وكانت روحه أكثر منه هدوءاً وخطه أكثر وضوحاً .

الروح : لعل صورة آلامنا تكون درساً مفيداً لكم وتقنعكم بوجود حياة أخرى يكفر فيها الإنسان عن خطاياه وعن عدم إيمانه .

س : هل تتبادل النظر مع شقيقك الذى كان هنا ؟

ج : بل يهرب منى .

س : بما أنك أكثر هدوءاً فهل تقدر أن تصف لنا آلامك بصورة أكثر دقة ؟

ج : ألا يتألم الواحد منكم فى كرامته وكبريائه عندما يضطر إلى التسليم بأخطائه وهو على الأرض . وألا تثور روحكم خشية المهانة أمام من يكشف لكم عن أغلاطكم ؟ حسناً فماذا تعتقدون يمكن أن تكون آلام الروح التى ثابرت خلال وجود بأكمله على إقناع نفسها بعدم بقاء شىء بعدها ، وبأن الحق فى جانبها وإن كره الجميع ؟ ثم ألا يلحقها بعدئذ الخزى والتلاشى عندما تجد نفسها وجهاً لوجه إزاء الحقيقة الصارخة ؟

فإذا أضيف إلى ذلك وخز الضمير لأنها تمكنت أثناء وقت طويل إلى هذا المدى من إنكار وجود إله لطيف ورحيم كهذا ، فإن حالتها تصبح لا تطاق ، كما يعز عليها الهدوء والراحة، بل أنها لن تعثر على بعض الطمأنينة

إلا عندما يلحقها الغفران الإلهى ، أو ما نعبر عنه بمحبة الله تعالى . وما سبب ذلك إلا استيلاء الكبرياء على روحنا البائسة ، فإنها تحيطها برداء يكاد يهلكها ، فيلزمنا وقت كاف للخلاص من هـــذا الرداء بمساعدة من يصلى لأجلنا من إخوتنا .

س : هل ترغب فى الحديث عن إخوتك الأحياء أو الأموات ؟

ج : عن هؤلاء وهؤلاء .

س : عندما كنا نتحدث مع شقيقتك قام أحد الموجودين هنا بالصلاة لأجله فهل أفادته الصلاة ؟

ج : ليست ضائعة . وحتى لو رفض المغفرة الآن فإنها ستفيده عندما يكون فى حالة تسمح له بالاستفادة من هذا الدواء panacée المقدس (وهنا يقول المؤلف ما ملخصه أن اللفظ الذى استعملته الروح للتعبير عن الدواء وهو panacée كان بمثابة لازمة لفظية عرفت عن المتوفى خلال حياته الأرضية ، وقد لاحظ ذلك أحد أقاربه ، وأرسل إلى المؤلف خطاباً بهذا المعنى . وهذا اللفظ نادر وغير مألوف الاستعمال فى التعبير عن معنى الدواء ، وهو حرفياً يشير إلى ما يصلح من الدواء فى علاج جميع الأمراض[1]) .

(د) انتحار مزدوج بدافع الحب والواجب

بتاريخ ١٣ يونية سنة ١٨٦٢ نشرت إحدى الصحف القصة الأليمة الآتية :

« كانت الآنسة بالمير Palmyre تشتغل عاملة للأزياء وتقيم مع والديها ، وكانت تمتاز بمظهر جذاب فضلا عن خلقها المحبوب ، ولذا طلب يدها الكثيرون وقد فضلت من بينهم السيد « ب » الذى كانت تشعر نحوه بعاطفة قوية ، ولكنها نزولا على إرادة والديها اللذين كانت تحبهما قبلت الزواج من

(١) ولعله يقابل ما يعبر عنه باللغة العربية بالبلسم .

من السيد « د » ، لما بدا لهما من تفوق مركزه الاجتماعى على مركز منافسيه .

وكان « ب » و « د » مع ذلك صديقين حميمين يجتمعان كثيراً ، ولم يضعف الحب المتبادل بين «ب» والآنسة بالمير التى أصبحت زوجة لصديقه « د »، بل ازداد الحب بينهما على مر الأيام بسبب العنف الذى حاول الحبيبان أن يقاوماه به . وقد تزوج «ب» من جانبه بسيدة صغيرة على صفات رقيقة كثيرة محاولا بذلك إطفاء نار حبه وباذلا جهده كيما يحب زوجته ، إلى أن تبين له أن هذه الطريقة قصرت أيضاً عن شفائه من هواه ، ومع ذلك ظل الحبيبان خلال أربعة أعوام دون أن يخونا واجباتهما مؤثرين على ذلك تحمل آلام يجل عنها الوصف ، خصوصاً وأن « د » الذى كان يحب صديقه حباً جماً كان يدعوه كثيراً إلى منزله ويرغمه على البقاء معه .

وذات يوم وقد جمعت المصادفة البحتة بين الحبيبين تطارحا الوجد واستقر رأيهما على أن الخلاص من الحياة قد يكون هو العلاج الوحيد لما يقاسيانه من آلام الهوى ، واتفقا على الانتحار معاً ومجتمعين فى اليوم التالى ، حيث كان « د » سيتغيب جزأ كبيراً من النهار . وبعد أن تما إعداد العدة حررا خطاباً طويلا ومؤثراً يبرران فيه السبب الذى جعلهما يؤثران الانتحار وهو رغبتهما فى عدم التفريط فى واجباتهما الزوجية ، وتوسلا فى نهايته المغفرة ، وطلبا أن يدفنا فى قبر واحد .

وعندما عاد السيد « د » إلى منزله وجد الحبيبين مختنقين بالغاز ، فاحترم رغبتهما وطلب ألا يفرق بينهما فى القبر » ... هذا ما ورد بالصحيفة .

وقد اقترح بعضهم أن تكون هذه الحادثة موضوعاً للدراسة فى « جمعية باريس الروحية » فأجابت الروح المرشدة بما يلى : « العاشقان المنتحران لا يمكنهما بعد الإجابة ، فإنى أراهما وقد تملكهما الاضطراب والخوف من جو الأبدية . وستتعقبهما النتائج الأدبية لما أقدما عليه خلال حيوات متعاقبة

حيث ستبحث روحاهما المنعزلتان إحداهما عن الأخرى . وسيعاقبان عقاباً مزدوجاً من القلق ومن الرغبة إلى أن يتم التكفير ، فيجمع بينهما لقاء دائم في ظل حب خالد .

وبعد ثمانية أيام ، أي في جلستكم المقبلة يمكنكم طلبهما ، وسيحضران ولكن لن يشاهد أحدهما الآخر ، بل سيفصل بينهما ليل بهيم وذلك لأمد طويل . . » وقد تحقق فعلا الاتصال بروح السيدة ودار نقاش بينها وبين بعض الحاضرين كالآتي : —

س : هل ترين حبيبك الذي انتحرت معه ؟

ج : لا أرى شيئاً ، ولا أرى حتى الأرواح التي تقيم معي في المقر الذي أنا فيه ، فأي ليل هذا ! أي ليل ! وأي حجاب كثيف على وجهي !

س : أي إحساس شعرت به عندما استيقظت بعد موتك ؟

ج : إحساس غريب ، كنت أشعر ببرودة وبحرارة شديدة . فالبرودة تجري في عروقي ، والحرارة تشتعل في جبيني ، شيء عجيب وخليط لا يطاق ، فالثلج والنار معاً يبدوان قابضين علي ، وخيل إلي أني سأموت مرة ثانية .

س : هل تشعرين بألم جثماني ؟

ج : كل ألمي هنا وهنا .

س : ماذا تقصدين بذلك ؟

ج : هنا في رأسي وهنا في قلبي .

س : هل تعتقدين أنك ستكونين دائماً في هذه الحالة ؟

ج : نعم دائماً دائماً ! وإني أسمع أحياناً ضحكات جهنمية ، وأصواتاً كريهة تزمجر بهذه الكلمات « هكذا دائماً ! »

س : حسناً ولكن يمكننا أن نقرر لك بكل تأكيد بأن الحال لن تكون كذلك دائماً ، وأنك عند التوبة ستحصلين على المغفرة .

ج : ماذا قلتم ؟ فإني لا أسمع .

س : أكرر لك أن آلامك تنتهي عندما يمكنك أن تتعجلي التوبة ، وسنساعدك بالصلاة .

ج : إني لم أسمع سوى كلمة واحدة وأصوات غامضة وهذه الكلمة هي العفو ، فهل كنتم تتحدثون عن العفو ؟ لاريب أنكم كنتم تتحدثون عن العفو إلى الروح التي بجواري وهي لطفل بائس ينوح ويؤمل .

(هنا قالت سيدة من الجمعية إنها كانت تصلي لأجل هذه التعيسة ، ولا ريب أن هذه الصلاة هي التي شعرت بها لأنها كانت تطلب لها العفو من الله) .

س : إنك تقولين إنك في ظلام ، أفلا ترينا ؟

ج : بمقدوري أن أستمع إلى بعض الكلمات التي تنطقون بها ، ولكني لا أرى إلا نقاباً أسود ترتسم عليه أحياناً صورة رأس تبكي .

س : إذا كنت لاترين حبيبك ، أفلا تشعرين به حاضراً بالقرب منك لأنه هنا .

ج . اه لا تحدثوني عنه ، إذ ينبغي أن أنساه الآن ، إذا كنت أريد أن تمحي من هذا النقاب الصورة التي أراها مرسومة عليه .

س : ما هي هذه الصورة ؟

ج : صورة رجل متألم ، قضيت على كيانه الأدبي على الأرض لأمد طويل (تقصد زوجها) .

ثم يعلق آلان كاردك على هذه القصة قائلا :ـــ

« بقراءة هذه القصة قد يميل الإنسان بادىء ذي بدء إلى أن يجد في هذا الانتحار ظروفاً مخففة ، بل قد ينظر إليه كعمل بطولي إذ كان الدافع إليه هو الإحساس بالواجب . ولكن يرى القارىء كيف أن الحكم كان غير ذلك ، وكيف أن عقاب المذنبين طويل ومخيف لأنهما لاذا بالموت هرباً من الصراع . وفكرة عدم خيانة واجباتهما الزوجية كانت فكرة مشرفة

بغير ريب ، وستوضع موضع الاعتبار فيما بعد ، ولكن كان فضلهما الحقيق سيكون فى مقاومة الغواية ، حين آثرا أن يتصرفا كالجندى الهارب من الميدان فى لحظة الخطر ...

ومدة عقابهما ليست مطلقة ، وستتوقف على الطريقة التى بها يتحملان تجاربهما المستقبلة ، وهو ما يمكن مساعدتهما فيه بالصلاة ، وسيكونان — ككل الأرواح المذنبة الأخرى — هما الحكمان فى مصيرهما الخاص . وألا يفضل ذلك الاعتقاد باللعنة الأبدية بغير أمل ولا نهاية للمنتحرين ؟

المبحث الخامس

اتصالات بأرواح قتلة

هـذه طائفة خامسة من الأرواح التى تم الاتصال بها فى نفس الجمعية . وهى أرواح شقية لأنها أرواح قتلة ممن ماتوا على المقصلة . وفى الواقع لقد تباينت آراء الأرواح الراقية حول عقوبة الإعدام . فلهذه العقوبة أنصارها كما أن لها أعداءها حتى فى عالم الروح . ويضيف اعداؤها حجة جديدة لمعارضتها تضاف إلى الحجج القديمة التى يثيرها المعارضون لها ، وهى أن الإعدام كثيراً ما يحرر أرواحاً شريرة مرتبطة بالأرض بصـــورة ما earthbound ويلقى بها إلى خارج عالم المادة قبل تطورها المطلوب حيث تكون أكثر حرية ومقدرة على الإساءة، ولو فى صورة مس روحى ، كما قد يحدث أحياناً . وهذا الاعتراض يصدق بطبيعة الحال على من أعدموا عن جدارة واستحقاق ، ولا يصدق على الأبرياء الذين قد يروحون ضحية خطأ القضاء ، أو على المجاهدين وأصحاب الرسالات الراقية الذين راحوا ضحايا الجهل والاستبداد من أمثال سقراط وجاليليو وجان دارك .

أما بالنسبة للأشقياء والأئمة الكبار فلا يزال لعقوبة الإعدام أنصارها وأعداؤها . ففى رسالة نشرتها جريدة الفيجارو الفرنسية فى ١٥ من يناير سنة ١٩١٩ سئلت روح الشاعر والأديب العظيم فيكتور هيجو V. Hugo عن العقوبة

التى ترى توقيعها على المسئول عن نشوب الحرب العالمية الأولى بحيث تكون أشد إيلاماً وردعاً من عقوبة الموت ، فأجابت الروح « بل عقوبة الحياة » !

وفيما يلى بعض هذه الاتصالات . : —

١ — ليمير Lemaire

حكم عليه بالإعدام من محكمة جنايات الإين L'Aisne ونفذ فيه فى ١٨٥٧/١٢/٣١ وحضر فى ١٨٥٨/١/٢٩ ثم قال : إنى هنا .

س : ما شعورك لدى رؤيتنا ؟

ج : الخجل .

س : هل حافظت على إدراكك حتى اللحظة الأخيرة ؟

ج : نعم .

س : وهل أدركت وجودك الجديد عقب تنفيذ الحكم مباشرة ؟

ج : غمرنى اضطراب كثيف لم أخرج منه بعد ، كما شعرت بألم هائل وخيل إلى أن قلبى تألم منه . ثم رأيت شيئاً لا أعرفه يتدحرج تحت قدم المقصلة ودما يسيل . وأصبح ألمى أشد قوة .

س : وهل كان هذا الألم جثمانياً مثل الألم الناجم من جرح كبير ، كبتر عضو مثلا ؟

ج : كلا بل تخيلوا تأنيب الضمير لأنه ألم معنوى عظيم .

س : متى بدأت فى الإحساس بهذا الألم ؟

ج : بمجرد أن تحررت .

س : هل الروح أم الجسد هو الذى أحس بالألم المادى الناجم عن التنفيذ ؟

ج : كان الألم المعنوى فى روحى ، وأما الجسد فقد أحس بالألم الجسدى ، مع أن الروح رغم انفصالها أحست به أيضاً .

س : هل شاهدت جسدك وهو مبتور الرأس ؟

ج : شاهدت شيئاً ليس له شكل محدد بدالى كأنه لم يغادرنى ، ومع ذلك أحسست بذاتى كاملة وأنى أنا نفسى .

س : وما هو الأثر الذى تركه فيك هذا المنظر ؟

ج : أحسست بألمى رهيباً واستغرقت فيه .

س : هل من الصحيح أن الجسد يحيا لبضع لحظات بعد فصل الرأس وأن من يقتل يحتفظ بإدراكه ؟

ج : الروح تنسحب تدريجياً ، وبقدر ما تقيدها أواصر المادة بقدر ما تطول لحظة الانفصال ».

س : قيل إنه لوحظ أنه بدت على وجوه بعض من نفذ فيهم الإعدام تعابير الخنق وحركات معينة كما لو كانوا يريدون أن يتكلموا ، فهل ذلك نتيجة تقلص عصبى أم هو عمل إرادى ؟

ج : إرادى لأن الروح لا تكون قد انسلخت بعد .

س . ماذا كان إحساسك الأول عند ما دخلت فى وجودك الجديد ؟

ج : ألم لا يطاق ونوع من وخز الضمير كنت أجهل سببه .

س : هل اجتمعت بشركائك الذين أعدموا معك فى نفس الوقت ؟

ج : كان اجتماعنا للأسف تعذيباً مستمراً لنا ، فكل منا كان يسند إلى الآخر جريمته

س : هل ترى ضحاياك ؟

ج : أراهم وإنهم سعداء وتطاردنى نظراتهم كما أحس بها تنفذ فى أعماق نفسى وأحاول عبثاً الهرب منها .

س : وبماذا تشعر عند مرآهم ؟

ج : خزياً وتأنيباً فى الضمير ، فقد قمت بتربيتهم بيدى ، ومع ذلك فما زلت أمقتهم .

س : وبماذا يشعرون عند مرآك ؟

ج : بالإشفاق .

س : هل بهم حقداً ورغبة فى الانتقام ؟

ج : كلا بل هم يطلبون لى المغفرة ، إنه ليس بمقدوركم أن تتصوروا مطلقاً أى تعذيب رهيب ينبغى أن يؤديه المرء نحو من يكرهه .

س : هل تأسف على حياتك الأرضية ؟

ج : لست آسفاً إلا على جرائمى ، ولو عاد الأمر بيدى من جديد لما سقطت بعد الآن .

س : هل كان الميل إلى الشر طبيعة فيك أم دفعك إليه الوسط الذى عشت فيه ؟

ج : كان الميل إلى الجريمة فى طبيعتى إذ كنت روحاً سفلية وأردت أن أرتفع بغتة فتطلعت إلى أكثر مما تتحمل طاقتى ، حسبت نفسى قوياً فاخترت محنة قاسية واستسلمت إلى غواية الشر .

س : هل كنت تترك حياة الإجرام لو أنك تلقيت مبادىء تعليمية طيبة ؟

ج : نعم ولكنى اخترت الوضع الذى ولدت فيه .

س : هل كان بمقدورك أن تكون إنساناً صالحاً ؟

ج : بل إنساناً ضعيفاً وعاجزاً عن الخير والشر معاً . ولئن كان بمقدورى إصلاح طبيعتى الشريرة أثناء وجودى، فإنه لم يكن بمقدورى السمو إلى حد فعل الخير .

س : هل كنت تؤمن بالله أثناء حياتك ؟

ج : كلا .

س : ومع ذلك يقال إنك ندمت ساعة التنفيذ ؟

ج : بل آمنت بإله منتقم وخشيت عدالته . .

وهكذا يسترسل الحوار حتى نهايته .

(ب) روح كانت ترتاد بلدة كاستلنودارى Castelnaudary .

فى منزل صغير بالقرب من قرية كاستلنودارى كانت تحدث ضوضاء

غريبة وظواهر جعلت الناس يعتقدون أن روحاً شريرة تسكن هذا المنزل . وكان السيد « د » يريد أن يسكنه ولكنه توفى فجأة بعد بضع سنوات . ولما أراد ابنه أن يسكنه تلقى أثناء دخوله فيه صفعة قوية من يد مجهولة ، ولما كان حينئذ وحيداً فلم يساوره شك فى مصدرها الخفى وصمم نهائياً على مغادرة المنزل . وقد طلبت هذه الروح فى جمعية باريس فى سنة ١٨٥٩ فأحضرت وأظهرت نفسها بحركات عنيفة بحيث عجز عن تهدئتها جميع ما بذل معها من جهود . وعندئذ طلب بعض أعضاء الجمعية بياناً من القديس لويس Saint Louis عن موضوعها فأجاب :

« إنها روح من أردأ نوع ، بل روح مارد حقيق جعلناه يحضر لكننا لم نقدر على إكراهه على الكتابة رغم كل ما قلناه له .. إن للمسكين حريته فى الاختيار وهو يسىء استعمالها » .

س : وهل هذه الروح قابلة للتقدم ؟

ج : ولم لا ؟ أليس هو والآخرون جميعاً قابلين للتقدم ؟ لكن علينا أن نتوقع أن تلاقى صعاباً . ومهما كانت درجه التوائه فإن مقابلة الشر بالخير ستنتهى بالتأثير فيه . فلنرجه أولا ، ثم فلتطلبوه فى بحر شهر حتى يمكنكم أن تحكموا على التغير الذى سيطرأ عليه .

وقد أعيد طلب الروح فى نفس الدائرة الروحية فبدت أسلس قياداً ثم استسلمت وابتدأت فى التوبة ، واتضح من البيانات التى تلقتها الدائرة أنها لشخص كان فى سنة ١٦٠٨ يقطن نفس هذا المنزل ، وفيه اغتال شقيقه بأن طعنه بسكين أثناء نومه بدافع من الشك والغيرة اللذين سببتهما المنافسة بينهما فى الحب ، كما اغتال فيه أيضا السيدة التى تزوجها بعد بضع سنوات من اغتيال شقيقه . وأخيراً توفى فى سنة ١٦٥٩ عن ثمانين عاماً دون أن يعاقب على جرائمه التى كانت تثير قليلا من الانتباه فى أوقات الفوضى هذه . ومنذ وفاته لم ينقطع عن عمل الشر ، وتسبب فى ارتكاب كثير من الحوادث التى وقعت

فى هذا المنزل . وقد شاهده وسيط الجلاء البصرى فى الجلسة الأولى لحضوره وهو يهز بعنف ذراع الوسيط فى اللحظة التى أريد فيها دفعه إلى الكتابة،وكان شكله مخيفاً ،كما كان يلبس قميصاً ملوثاً بالدماء ويحمل فى يده خنجراً .

س : إلى القديس لويس : هل تتكرم بوصف نوع العذاب الذى تعانيه روح هذا الشخص ؟

ج : إنه عذاب قاس له فقد قضى عليه بالإقامة فى هذا المسكن الذى اقترف فيه جرائمه دون أن يتمكن من توجيه فكره إلى شىء آخر سوى هذه الجرائم ، فهى أمام ناظريه دائماً . ويعتقد أنه محكوم عليه بهذا العذاب الأبدى ،كما يشعر بنفسه كما لو كان يعيش على الدوام فى اللحظة التى ارتكب فيها جريمتيه ، وقد سلبت منه كل ذكرى غيرهما ،كما منع من الاتصال بأية روح أخرى . فطالما هو فى الأرض لا يغادر هذا المنزل ، أما إذا كان فى الفضاء فإنه يعيش منفرداً فى ظلام .

س : وهل من وسيلة لإخراجه من هذا المنزل ؟ وما هى ؟

ج : إذا أردتم التخلص من مضايقات الأرواح التى تماثلها فإن ذلك متيسر بالصلاة لأجلها ، وهو ما يهمله الإنسان عادة مفضلا إرهابها بعبارات للطرد تلهو هى كثيراً بالاستماع إليها .

س : ها قد مضى عليها قرنان من الزمان وهى على هذه الحالة ، فهل يبدو لها هذا الوقت طويلا كما لو كانت تعيش على الأرض ؟

ج : إنه يبدو لها أكثر طولا فليس للنوم وجود بالنسبة لها .

س : قيل لنا إنه لا يوجد زمن بالنسبة للأرواح وإن قرناً بالنسبة لها هو عبارة عن نقطة فى الأبدية ، أفليس هذا هو الوضع بالنسبة للجميع ؟

ج : كلا لأن هذا هو الوضع بالنسبة للأرواح التى وصلت إلى درجة

مرتفعة جداً من الرقى ، لكن الوقت يكون أحيانا للأرواح السفلى طويلا جدا خصوصاً عندما تكون متألمة .

س : ومن أين أتت هذه الروح قبل تجسدها ؟

ج : كان لها وجود بين أشد الشعوب همجية وتوحشاً ، وقبل ذلك حضرت من كوكب دون الأرض .

س : هذه الروح تعاقب بقسوة عن الجريمة التى ارتكبتها ، فلو كانت قد عاشت بين الشعوب الهمجية ، وعمدت حينئذ بالضرورة إلى ارتكاب أفعال لا تقل قسوة عن هذه الأخيرة،فهل كانت ستعاقب بنفس الطريقة ؟

ج : كان عقابها سيكون أخف لأنها بحكم جهلها كان فهمها سيكون أقل قدراً لمدى أعمالها .

وبعد اتصالات متعددة مع هذا الشخص لاحظ المؤلف تقدماً محسوساً فى حالته ، وها هى بعض أجوبته : —

س : لماذا لم تتمكن من الكتابة عندما استدعيناك لأول مرة ؟

ج : لم أكن أرغب فى ذلك .

س : ولماذا ؟

ج : جهل وتوحش .

س : هل يمكنك أن تغادر منزل كاستلنوداري عندما تريد ؟

ج : نعم يمكننى ذلك لأنى استفدت من نصائحكم الطيبة .

س : هل تشعر بتخفيف ؟

ج : بدا لى الأمل .

س : فى أى مظهر كنا سنراك لو أمكننا ذلك ؟

ج : كنتم سترونى بقميص وبلا خنجر .

س : وأين ذهب خنجرك ؟

ج : إنى ألعنه ، وقد أعفانى الله من منظره .

س : هل إذا عاد السيد « د » إلى المنزل نلحق به سوءاً ؟

ج : كلا لأنى نائب .

س : ولو أراد تحديك مرة ثانية ؟

ج : لاتطلبوا منى هذا فقد لا أتمكن من السيطرة على نفسى ، لأن ذلك فوق مقدورى . . . فأنا لست سوى بائس .

س : هل ترى نهاية لآلامك ؟ .

ج : كلا وإن هذا أكثر بكثير مما استحق أن أعرفه ، ويكفينى أنى علمت بفضل تدخلكم أنها لن تستمر هكذا .

س . هل تتفضل بوصف حالتك قبل أن نستدعيك للمرة الأولى؟ وأنت تعلم أننا لانفعل ذلك بدافع من حب الاستطلاع ، بل لعله يكون فى مقدورنا أن ننفعك .

ج : ذكرت لكم أنه لم يكن لدى إدراك أى شىء فى العالم سوى جريمتى ، ولم يكن بمقدورى مغادرة المنزل الذى ارتكبتهما فيه إلا للتحليق فى فضاء ليس فيه من حولى غير الوحدة والظلام . ولست بقادر أن أعطيكم فكرة عن ذلك ، ولم أكن أعلم عنه شيئاً ، بل عندما كنت أرتفع فى الهواء كان من حولى السواد والفراغ ، ولا أعلم ماذا كان هذا . واليوم أشعر بتأنيب أكثر بكثير ولست مكرهاً على أن ألازم حتماً هذا المنزل . بل لقد صار لى أن أهيم على الأرض وأن أستنير عن طريق الملاحظة . ولكنى أعرف مع ذلك جسامة أخطائى بصورة أشد عنفاً . فإذا كانت آلامى قد نقصت من ناحية فإنها قد زادت من ناحية أخرى بفعل تأنيب الضمير ، لكن لدى الأمل بالأقل .

س : وهل كنت تشعر أثناء عزلتك بأى تأنيب للضمير ؟

ج : كلا على الإطلاق ولذا تعذبت كثيراً ، وإنما عندما بدأت فى

الشعور به تهيأت على غير علم منى الظروف التى أدت إلى حضورى ، وهى التى أنا مدين لها ببدء خلاصى فشكراً لكم يامن عطفتم على ونورتمونى .

ومما قاله المؤلف تعليقاً على هذه الحالة :

« إنه نظراً لأن الغرض من حضور هذا الشقى كان إفادته ، فلم يكن حضوره مصادفة ، بل إن الأرواح الساهرة عليه ، عندما رأت أنه بدأ فى إدراك جسامة جرائمه قدرت أن اللحظة قد حانت لتقديم مساعدة فعالة له، ومن ثم هيأت له الظروف المؤاتية للحضور ، وهو ما شهدنا حدوثه عدة مرات .

وقد استفسرنا عما كان سيؤول إليه مصير هـــذه الروح لو أنها لم تحضر ، وكذلك مصير الأرواح الأخرى المتألمة التى لا يمكن حضورها أو تلك التى لا يفكر فيها أحد فأجيب على استفسارنا بأن الوسائل الإلهية لنجدة مخلوقاته لاتحصى . وما مناجاة الأرواح سوى وسيلة منها ، وهى — بيقين — ليست الوسيلة الوحيدة لذلك ، فإن الله تعالى لايترك روحاً منها طى النسيان ، كما أن صلاة الجماعة لابد وأن تؤثر فى الأرواح القابلة للتوبة .

وقد أراد الله أيضاً بهذه الطريقة إظهار التضامن الموجود بين جميع كائنات الدنيا وإعطاءها قانوناً طبيعياً كاساس لمبدأ الإخاء فيما بينها ، فضلا عن أنها فتحت سبيلا جديداً لعمل البر تظهر منه الناحية النافعة بحق والجدية من عملية الاتصال بالأرواح التى حولها الجهل والخرافات عن الهدف الذى رسمته لها العناية الإلهية . . فالأرواح المعذبة لم يكن ينقصها سوى المساعدة فى أى عصر من العصور ، وإن كان الاتصال بها قد فتح لها باباً جديداً من أبواب المعونة ، ولعل الأحياء أكثر استفادة من هذا الباب، لأنه أتاح لهم فرصاً جديدة لفعل الخير ، فى نفس الوقت الذى يدرسون فيه الحياة المستقبلة على حقيقتها .

المبحث السادس

اتصالات بأرواح عنيدة

هذه طائفة سادسة من الأرواح تميزها صفة خاصة وهى درجة واضحة من العناد الذى كان هو سبب شقائها هنا وهناك ، والعناد ابن الكبرياء التى هى مصدر رذائل كثيرة فى الإنسان . وقد اخترنا من الاتصالات التى تمت معها النماذج الآتية :

(أ) لابوميراى La Pommeray (العقاب بالضوء) : أثناء جلسة فى جمعية باريس — وقد كان الأعضاء يتناقشون فى حالة الاضطراب التى تعقب الموت عادة — حضرت روح من تلقاء نفسها وبغير أن يرد ذكرها على لسان أحد ، وأعطت الرسالة الآتية التى لم تضع توقيعها عليها ، لكن عرف الحاضرون بغير عناء أنها من روح مجرم خطير كانت العدالة البشرية قد اقتصت منه حديثاً :

« ماذا تقولون عن الاضطراب ! وما هذا الكلام الباطل ؟ إنكم حالمون خياليون وتجهلون تماماً الأمور التى تدعون أنها تشغلكم ! كلا ياسادة إن الاضطراب ربما لا وجود له إلا فى أذهانكم . فقد مت بقدر ما يكون الموت جلياً ، وأشاهد كل شىء واضحاً فىّ وحولى وفى كل مكان .. ما الحياة سوى مهزلة كئيبة . ومن ينسحب من فوق خشبة المسرح قبل نزول الستار هو عديم التوفيق . والموت يكون فزعاً كما قد يكون عقاباً أو رغبة طبقاً لضعف أو لقوة من يهابونه أو يتحدونه أو يتلمسونه — ولكنه للجميع سخرية مرة — فالضوء يبهر عينى ويخترق ذاتى الشفافة كسهم حاد . إنهم عاقبونى بظلمة السجن ، كما اعتقدوا أنهم سيعاقبوننى بظلمة القبر ، أو بنار جهنم ، ولكن ها أنتم أيها السادة تتحملون الظلام ، أما أنا طريد المجتمع فأحوم

من فوقكم . أريد أن أبقى ، ولأن ذهنى قوى فإنى أحتقر مايدوى حولى من تحذيرات . إنى أرى بوضوح ! ، وما هى الجريمة ! إنها كلمة . . الجريمة توجد فى كل مكان وعندما يرتكبها جماعة من الناس تكون عملا مجيداً ، أما إذا كان الفاعل لها فرداً فيهان من أجلها ، فأية سخافة هذه . لا أريد من أحد أن يشكرنى ولا أطلب شيئاً من أحد ، بل إنى أكفى نفسى بنفسى ، وسأعرف كيف أقاوم هذا الضوء الكريه » .

الإمضاء . هذا الذى كان بالأمس رجلا

١ — وقد كتب آلان كاردك تعليقاً على هذه الرسالة الفريدة يقول فيه :

« فى الجلسة التالية عندما حللنا هذه الرسالة علمنـا من نفاق أسلوبها صورة جديدة من صور العقاب التى تنتظر الأشرار . فحين يغرق البعض فى الظلمة أو العزلة التامة ، إذ بالبعض الآخر يتحمل لمدى سنين طويلة آلام ساعته الأخيرة ، أو يعتقد أنه ما يزال فى هذا العالم . وأما هذا الشخص فإن روحه تتمتع بكامل ملكاتها فيعلم جيداً أنه مات ، ولا يشكو شيئاً ولا يطلب مساعدة من أحد ، بل لا يزال يتحدى القوانين الإلهية والبشرية ، فهل معنى ذلك أنه بمنأى عن العقاب ؟ !... كلا إنما هى العدالة الإلهية تتخذ طريقها فى صور شتى ، فما قد يكون متعة للبعض قد يصير عذاباً للبعض الآخر . والضوء هو عذاب هذا الشخص الذى يكابد منه ويجعله يقول رغم كبريائه « إنى أكفى نفسى بنفسى وسأعرف كيف أقاوم هذا الضوء الكريه» كما يقول « والضوء يبهر عينى ويخترق ذاتى الشفافة كسهم حاد » .

٢ — كما أعطت روح لامنيه Lamenais[1] تعليقاً نقتطف منه ما يلى :

« لديكم أنموذج رهيب من رسالة هذا الشقى العنيد وهو يتخبط ضد عدالة الله التى تطارده بعد عدالة البشر ، فحين كان بالأحرى أن يدفعه

---

(١) مفكر دينى فرنسى (١٧٨٢ — ١٨٥٤) ومن مؤلفاته « بحث فى عدم الاكتراث الدينى » و « أقوال مؤمن » .

التكفير — أو بالأدق الألم المحتوم الذى يحيق به — إلى الإفادة منه والإحساس بالمعنى العميق لآلامه ، إذ به يدفعه إلى التمرد ويعث ذلك الأنين الذى سماه الإنجيل فى بلاغة شعرية « بصرير الأسنان » ، وما هو سوى صورة نموذجية تبين التعذيب ينزل على الروح دون أن ترضخ له ، وتبين الألم وهى تضل فى بيدائه ، ولكنها تتمرد عليه تمرداً عنيفاً إلى المدى الذى يحملها على رفض التسليم بحقيقة العقاب والثواب معاً .

« إن الإخطاء الجسيمة والنفوس البالغة الإجرام تبقى عادة — وفى كل الأحوال تقريباً — حتى فى عالم الروح . لكن هل نكون كما كنا رغم كل شىء ونبقى هكذا متنقلين أمام اللانهاية ؟ .. كلا إنما يشبه ذلك غشاوة الشخص الذى يتأمل النجوم على حسبان أنها نقوش فى السقف ، كما كان يحسبها أهل الغال فى أيام الاسكندر .

« إن هناك خلقاً متطوراً ، ومن لايرى فى العالم الآخر إلا ما يراه لديكم يكون بائساً وتافهاً وراغباً فى مواصلة صراعه الدنيوى والجرى وراء عبثه الصغير ، وأقل ما يستحقه مثله هو الغشاوة واحتقار الآخرين ودوام شخصيته الأنانية الذليلة ، بل ووقوف التقدم لديه ! كم من صلة خفية تربط — أيها الإنسان — بين خلود الذكر النقى الذى تخلفه على الأرض وبين الخلود الذى تحافظ عليه الأرواح بالفعل فى تجاريبها المتتابعة » .

٣ — وكذلك أملت روح إراست[1] Eraste البيان الآتى :

« سيان أن يلتى الإنسان فى الظلمة أم فى أمواج من الضوء ، أليست النتيجة واحدة ، ففى هذه الحالة أو تلك لا يرى الشخص شيئاً مما يحيط به ، وقد يعتاد على الظلمة أسرع مما يعتاد على الضوء الكثيف الذى يغمره . فالروح التى اتصلت بكم فى الجلسة الأخيرة أجادت التعبير عن حقيقة حالها عند ما

(١) هو توماس ليبير اراست Thomas Liebere Eraste وكان من مفكرى القرن السادس عشر .

قالت « أواه إنى سأتخلص تماماً من هذا الضوء الكريه » إذ أنه فى الواقع ضوء مخيف ورهيب على قدر ما يخترق الروح تماماً جاعلا أدق خبايا أفكارها مرئية ومكشوفة . وعندما تجد الروح أنها أضحت سجينة منزل زجاجى كذلك الذى كان يطلبه سقراط ، فإن ذلك يكون من أقسى صور عقابها الروحى ، كما يكون أيضاً بمثابة درس لها ، لأن النور — والمفروض أن يكون جزاء العاقل وعزاءه — يصير قصاصاً مشيناً للشرير وللشقى ولقاتل والده الذى يصبح ذعراً من شخصيته الخاصة .

« فلتفهموا هذا يا أولادى . إن الألم والخوف ينبغى أن يأخذا برقاب من كان يحلو له أثناء حياته المشؤومة أن يتواطأ وأن يدبر أسوأ أنواع الشرور فى أعماق نفسه حين كان يختبىء كما يختبىء حيوان مفترس فى كهفه . وعندما يجد نفسه الآن مطروداً من ذلك الكهف الأمين ، فأين يختبىء من نظرات مواطنيه وتعقبهم له ؟ بعد إذ نزع عنه حجابه الكثيف وصارت تنعكس على جبينه كل فكرة من أفكاره المتتابعة .

نعم فمنذ الآن ليس لهذا المجرم الآثيم من راحة ولا ملجأ ، لأن كل فكرة شريرة لديه — والله يعلم ما يخفى صدره منها — تخونه من الخارج والداخل كصدمة تيار كهربى قوى . إنه يريد الانسلال عن الناس ، لكن ضوء النهار الكريه يخترقه على الدوام ، إنه يريد الهروب بل يهرب بسرعة جنونية يائسة خلال فضاء لا يمكن قياسه ... ومع ذلك فالضوء فى كل مكان ... ودائماً تخترقه النظرات فيندفع من جديد سعياً وراء الظلام وبحثاً عن الليل . ولكن لم يعد الظلام والليل له شيئاً . إنه يستجير بالموت لمعونته ، لكن الموت أصبح لفظاً بلا معنى ، فيهرب المسكين باستمرار سائراً نحو الجنون الروحى حيث يصارع نفسه كيما يتخلص منها ، فهذا هو القانون الأسمى لما بعد الأرض : أن يصبح المجرم جلاد نفسه الذى لا يرحم !

وإلى متى تدوم هذه الحال ؟ . إلى الساعة التى تنهار فيها إرادته فى النهاية

حيث تنحنى تحت وطأة وخز الضمير ، وحينما تخر جبهته الشامخة أمام ضحاياه بعد صفحهم عنه ، وكذلك أمام أرواح العدالة ، فلا حظوا المنطق الأسمى للقوانين الأبدية . وفى هذا النطاق أيضاً ستتمم هذه الروح ما كتبته فى رسالتها المتكبرة الواضحة القوية والمليئة للأسف بذاتها ، والتى أعطتها لكم يوم الجمعة مساء عند ما تخاصت بعمل من أعمال إرادتها الخاصة » .

٦ — وبعدئذ قامت روح جان رينو Jean Reynaud [1] بكتابة ما يلى :

« إن العدالة البشرية لا تراعى فردية العقوبات التى تطبقها بل تقيس الجريمة على نفسها ، وتضرب بغير تفريق بين من ارتكبوها . فذات العقوبة تنال الفاعل بغير ما تمييز من ناحية الجنس أو درجة الثقافة ، أما العدالة الإلهية فتنتهج سبيلا آخر ، لأن عقوباتها تتناسب مع درجة تقدم الأرواح التى تؤخذ بها بغير أن تترتب على المساواة بين الأفعال المساواة بين الفاعلين . فقد يميز بين اثنين ارتكبا نفس الفعل مدى تجارب كل منهما . فأحدهما قد يكون غارقاً فى بلادة ذهنية كبلادة الجماعات البدائية الأولى ، حين يكون الآخر قد تجاوز هذه المرحلة وصار لديه من التمييز ما يعفى روحه من التخبط ، فحينئذ يكون عقابه بواسطة حدة نور الروح الذى يخترق ذكاءه الأرضى ، ويجعله يشعر بمضايقة كمضايقة الجرح إذا ما ثلم .

إن الكائنات غير المتجسدة — التى يطاردها التصوير المادى لجرائمها — تتحمل صدمة بدنية كصدمة الكهرباء كما تتألم بحواسها . أما من تحررت روحهم من المادة فيعانون ألماً أقسى من ذلك بكثير ، حتى يمحو هذا الألم بلفحاته المرة ذكرى الحوادث غير تارك للنفس سوى الإلمام بأسبابها . فالإنسان رغم أفعاله الإجرامية يمكن أن يكون حائزاً لرقى داخلى بحيث أنه ، وإن كانت تدفعه عواطفه إلى التصرف بحماقة ، إلا أن ملكاته الرقيقة قد

---

(١) سياسى فرنسى عاش من سنة ١٨٠٦ — ١٨٦٣ ويعد من مفكرى عصره ، ومن كتبه « الأرض والسماء » La Terre Et Le Ciel .

ترفعه إلى ما فوق المستوى الكثيف لأجواء الطبقات السفلى . لذا كانت المفارقات كثيرة فى عصور المادية وفى فترات الانتقال نتيجة لانعدام التعادل أو التوازن بين التقدم الخلقى والتقدم العقلى .

فالضوء الذى يعذب الروح الآثمة هو إذا بمثابة الشعاع الذى يغمر تراجع كبريائها خلسة ، كاشفاً لها عن تفاهة ذاتها العديمة التناسق . وهذه هى أولى أعراض الاحتضار الروحى التى تبشر بانحلال العناصر العقلية والمادية المكونة للازدواج النفسى الأول، وذوبانها ، ثم باندماج هذه العناصر التى ينبغى أن تتلاشى بعدئذ فى الوحدة العظمى للكائن بعد تمامه » .

٥ — وبعدئذ عاد آلان كاردك يقول « هذه هى الرسائل التى حصلنا عليها فى وقت واحد ، وهى يكمل بعضها البعض الآخر ، وتوضح العقاب فى مظهر فلسفى ومنطقى إلى أبعد الحدود . ومن المحتمل أن هذه الأرواح — وقد أرادت معالجة الموضوع بناء على نموذج — هى التى هيأت لهذا الغرض الاتصال الذى حدث تلقائياً من روح ذلك المجرم .

وللمقارنة فقط أعطى صورة لجهنم كما يراها واعظ فى بلدة مونترى سير مير Montreuil Sur Mer فى موعظة له نشرت فى « المجلة الروحية » فى عدد يوليه سنة ١٨٦٤ « إن نار جهنم أقوى ملايين المرات من نار الأرض ولو تمكن أحد الأجساد التى تحترق فيها من الإفلات قبل تمام احتراقه ، والهرب إلى كوكبنا فإنه يحيله خراباً من أقصاه إلى أقصاه ! إن جهنم عبارة عن كهف واسع ومظلم مزود بمسامير رفيعة وخناجر مسنونة وأمواس حادة حيث تهوى فيها أرواح من تحل عليهم اللعنة ! » .

(ب) أنجيل Angéle — حياة لغو وبطلان . تقدمت روح من تلقاء نفسها إلى الوسيط تحت اسم أنجيل .

س : هل تندمين على أخطائك ؟

جـ : كلا .

س : ولمَ تتقدمين نحوى ؟

ج : كيما أحاول .

س : ألست سعيدة إذاً ؟

ج : كلا .

س : وهل تتألمين ؟

ج : كلا .

س : وماذا ينقصك إذاً ؟

ج : السلام (بعض الأرواح لا تعتبر آلاماً إلا ما يذكرها بآلامها الجسدية ، وذلك رغم تسليمها بأن حالتها المعنوية ليست على ما يرام) .

س : وكيف ينقصك السلام فى الحياة الروحية ؟

ج : من الندم على الماضى .

س : لكن الندم على الماضى تأنيب فهل تشعرين بالتوبة ؟

ج : كلا بل بدافع الخوف من المستقبل .

س : وممَّ تخافين ؟

ج : من المجهول .

س : هل بمقدورك أن تصفى لى حياتك الأخيرة ؟ فلعل ذلك يساعدنى على تنويرك .

ج : لم تكن شيئاً .

س : فى أية حالة اجتماعية كنت ؟

ج : فى حالة متوسطة .

س : هل تزوجت ؟

ج : كنت زوجة وأما ؟

س : فهل أتممت بنشاط واجبات هذا المركز المزدوج ؟

ج : كلا بل أضجرنى زوجى وأولادى .

س : وكيف أمضيت أيامك ؟

ج : فى اللهو عندما كنت آنسة ، وفى الضجر عندما كنت سيدة شابة.

س : وماذا كانت مشاغلك ؟

ج : لا شيء .

س : ومن كان يعنى بمنزلك ؟

ج : الخادمة .

س : أليس انعدام الجدوى منك على الأرض يجيب عن سبب أسفك ومخاوفك ؟

ج : لعلك محق .

س : لا يكفى التسليم بذلك ، بل ينبغى لتصحيح حياتك غير المنتجة أن تساعدى الأرواح الآثمة التى تتألم من حولنا .

ج : وكيف ذلك؟

س : بأن تساعديها على التقدم بإرشادك وصلاتك .

ج : كلا .

س : ولماذا؟

ج : من التعب .

ثم أملت الروح المرشدة للوسيط وكانت تحمل اسم مونو Monod شرحاً لحالتها جاء فيه : «كانت أنجيل Angéle عاجزة عن الابتكار وحياتها بلا جدوى لها أو لغيرها . فكانت لا تحب سوى اللهو ، ولا تجد فى الدرس أو فى إتمام واجباتها العائلية أو الاجتماعية إشباعاً لمطالب قلبها، وذلك مع أن هذه المطالب هى التى يمكنها دون سواها أن تمنحها بهجة الحياة لأنها عامة على كل العمر . أما هى فلم تستخدم سنى حياتها إلا فى متع رخيصة ، وعندما حان وقت الواجبات الجدية أحست بفراغ الدنيا من حولها لأنها هى التى وضعت هذا

الفراغ فى قلبها . وكما كانت بلا رذائل خطيرة كانت كذلك بلا فضائل. فسببت تعاسة لزوجها، وأضاعت مستقبل أولادها وهدمت سعادتهم بخمولها وبعدم اكتراثها ، بل زيفت قلوبهم وحكمهم على الأمور . أولا بأن كانت لهم القدوة ، وثانيا بأن تركتهم لعناية الخدم الذين لم تكلف نفسها حتى عناء حسن اختيارهم .

كانت حياتها عديمة الجدوى للخير ، وفى ذلك إثمها لأن إهمال الخير يولد الشر ، فلتفهموا ذلك جميعاً : أنه لا يكفى مجرد الامتناع عن الأخطاء ، بل ينبغى أيضاً عمل الفضائل .. فالشر مقابل للخير ومن يريد تفاديه عليه أن يسلك السبيل المضاد وإلا أضحت حياته عبثاً وأعماله ميتة ، وإلهنا الآب ليس إله اموات بل إله أحياء . . .

« اعملوا واعملوا بلا توقف وأتمموا واجباتكم بغير استثناء ، أتموها بحماسة وشجاعة وإصرار لأن إيمانكم سيقويكم . ومن يؤد بضمير يقظ أكثر الأعمال جحوداً لأسمى مائة مرة فى عين العلى من يفرض ذلك على الآخرين ولا يقوم به . فكل هذه درجات سلم للوصول إلى السماء فلا تحطموها تحت أقدامكم ، وقدروا أنكم محوطون بأصدقاء يمدون إليكم أيديهم ويساعدون من يستمدون قوتهم من الله ».

(ح) ملكة أود La Reine Oude

(ملكة هندية سابقة توفيت فى فرنسا فى سنة ١٨٥٨ ودفنت بها) .

س : بماذا شعرت عندما غادرت حياتك الأرضية ؟

ج : لا أعلم وإن كنت أشعر باضطراب .

س : هل انت سعيدة ؟

ج : إنى آسفة على الحياة ... لا أعلم ... لكنى أشعر ألماً قوياً كانت ستعفينى منه الحياة (الأرضية) . . كم كنت أريد أن ينهض جسدى من قبره .

س : هل تأسفين لأنك لم تدفنى فى بلادك ؟

ج : نعم فأرض الهند كانت ستكون أكثر رفقاً بجسدى .

س : ماذا كان شعورك نحو مراسيم التكريم الجنائزية التى عملت لجثمانك ؟

ج : كانت غير كافية ، فقد كنت ملكة ولم يركع الجميع أمامى ، ولا أريد أن تعلموا ما أنا عليه وإنما اعلموا جيداً أنى كنت ملكة !

س : إنا مع احترامنا لمقامك نرجوك التفضل بالإجابة وذلك لتعليمنا ، فهل تعتقدين أن ابنك سيسترد يوماً ملك والده ؟

ج : نعم إن دمى هو الذى سيسود وهو أهل لذلك .

س : وهل تعلقين على عودة ابنك للملك نفس الأهمية التى كنت تعلقينها على ذلك أثناء حياتك (الأرضية)؟

ج : إن دمى لا يمكن أن يختلط بدم الغوغاء .

س : لم يمكن قيد اسم المكان الذى ولدت فيه فى شهادة وفاتك فهل يمكنك ذكره لنا الآن ؟

ج : إنى ولدت من أعرق دم فى الهند وقد ولدت فى دلهى .

س : يا من عشت فى مظاهر الترف وكانت تحوطك أسباب التكريم ماذا ترين فى ذلك الآن ؟

ج : ذلك ما كان ينبغى نحوى .

س : هل يعطيك المقام الذى كنت تحتلينه على الأرض الحق فى مقام أعلى فى العالم الذى أنت فيه الآن ؟

ج : إننى ملكة دائماً فلترسلوا عبيداً لخدمتى ... إنى لا أعلم لماذا يبدو عليهم الآن عدم الاكتراث بى ، ومع ذلك فأنا دائماً أنا ...

وهكذا دار الحوار بين الموجودين وبين هذه الروح التى ما تزال تتصور أنها من طبيعة أخرى غير طبيعة البشر إلى أن قالت لهم « لو تمكنت من عدم الحضور لما حضرت لأنكم تعاملوننى بما هو دون القدر الواجب من الاحترام». فقال القديس لويس لهم « اتركوا هذه الهائمة المسكينة مترفقين بها فى غشاوتها ، ولتكن نموذجاً تدركون منه كم تقاسى الروح من كبريائها » .

ثم كتب آلان كاردك تعليقاً على هذا الحوار : « باستدعاء هذه العظيمة

المنهارة لم نكن نتوقع أجوبة ذات عمق بالنظر إلى نوع تعليم سيدات هذه البلاد . لكننا كنا نتوقع أن نقابل لديها بالأقل شعوراً أصدق عن الواقع وفكرة أصح عن تفاهة مطامع وجاه عالمنا هذا . لكنها بعيدة عن ذلك ، وما تزال جميع الأفكار الأرضية محتفظة لديها بكل قوتها ! إنه شعور الكبرياء لم يفقد شيئاً من تضليله لها وهو يجعلها تقاوم ضعفها ، كما يفرض عليها أن تعانى كثيراً من عجزها » .

(٤) اكزيمين Xuméne . بوردو سنة ١٨٦٢ .

تقدمت روح بهذا الاسم إلى الوسيطة التي كانت قد اعتادت هذا الصنف من الظواهر ، لأن مهمتها كانت فيما يبدو مساعدة الأرواح السفلى التي قد يأتى بها إليها مرشدها الروحى لتحقيق غرض مزدوج هو تعليم الوسيطة ، وفى نفس الوقت تقدم هذه الأرواح .

س : من أنت وهل هذا الاسم لرجل أم لسيدة ؟

ج : رجل بائس على قدر ما يكون البؤس ...

س : ألا تدخل الأنانية فى عداد ما قد يؤلمك من أسباب ؟

ج : ربما .

س : إذا كنت ترغب فى المعونة فابدأ بنبذ ميولك الرديئة .

ج : لا تشغل نفسك بذلك فإنه لا يخصك وابدأ بالصلاة لأجلى كما للآخرين وسنرى فيما بعد .

س : لكن الصلاة ضعيفة الأثر مالم تساعدنى بالتوبة .

ج : إذا كنت ستعمد إلى الكلام بدلا من الصلاة فلن تفيدنى فى تقدمى .

س : وهل تريد إذاً أن تتقدم ؟

ج : ربما ... لا أعلم ... لكن انظر ما إذا كانت الصلاة تخفف من الآلام ، وهذا هو الأمر الهام .

س : فلنتعاون بعزم ثابت للحصول على إزاحة بعضها ؟

ج : هيا دائماً .

س : (بعد صلاة من الوسيطة) هل أنت راض ؟

ج : ليس كما كنت أريد .

س : إن الدواء لا يمكن أن يشفى مرضاً عضالا عند تعاطيه لأول مرة !

ج : من الممكن ذلك .

س : هل ترغب فى العودة إلينا ؟

ج : نعم إذا ناديتنى . . .

الروح المرشدة للوسيطة : « ستعانين يا ابنتى من هذه الروح العنيدة . لكن ما من فضل هناك فى إنقاذ أولئك الذين لم يقودوا أنفسهم إلى التهلكة فشجاعة وجلداً ، وستصلين إلى هدفك . لا يوجد أثمة — حتى إلى هذا المدى — إلا ويمكن هدايتهم بالإقناع وبالقدوة الحسنة ، لأن أشد الأرواح التواء تنتهى مع طول الوقت بإصلاح نفسها بنفسها . وحتى إذا لم نفلح فى أن نصل بها بغتة إلى طيب الأحاسيس ، وهو ما يكون فى المعتاد أمراً مستحيلا ، فإن ما نبذله من جهد ليس ضائعاً . كما أن ما نلقى به إليها من أفكار لابد وأن يهزها ويجعلها تفكر رغم أنفها ، لأن هذه الأفكار تكون بمثابة بذور طيبة ستعطى ثمرها إن آجلا أو عاجلا ، ولا يحطمن المرء صخرة بأول ضربة من معوله .

« وهذا الذى أقوم لك يا ابنتى يصدق على المتجسدين أيضاً . ولذا يمكنك أن تفهمى لماذا لا تخلق الروحية حتى لدى أشد الناس اقتناعاً بها أشخاصاً كاملين على الفور . بل إن الاقتناع بها هو مجرد خطوة أولى يعقبها الإيمان ثم يأتى دور التحول . ومع ذلك فإن الكثيرين يلزمهم أن يأتوا كيما يندمجوا فى عالم الروح أولا » .

وقال المؤلف تعليقاً : « لا يوجد بين العنيدين سوى أرواح ملتوية وشريرة . ومع ذلك فإن هناك أرواحاً أخرى كثيرة العدد تبقى متأخرة رغم أنها لا تعمل شراً بدافع من كبريائها أو عدم اكتراثها أو بلادتها . وهى

ليست أقل شقاء من سابقتها ، بل يزيد فى هذا الشقاء لديها أنها لا تجد تعويضاً لها عن خمولها فى ملذات كلذات هذه الدنيا ، كما أن احتمالات المستقبل غير المحدودة تجعل حالتها لا تطاق . وذلك بغير أن تكون لديها القدرة والإرادة على الخروج من هذه الحالة . ومن هذا الصنف الأرواح التى تنتهج أثناء تجسدها على الأرض حياة خاملة بلا جدوى لها أو لغيرها ، وقد يعمد أصحابها إلى الانتحار بدون أسباب جدية . وتكون إعادة هذه الأرواح إلى طريق الخير أكثر مشقة فى المعتاد من إعادة الأرواح الصريحة فى الشر ، لأن هذه الأخيرة لا يعوزها النشاط فإذا ما أضيء أمامها السبيل اندفعت فى طريق الخير بنفس النشاط الذى كان يدفعها فى طريق الشر . . . »

المبحث السابع

اتصالات بأرواح كفرت عن سيئاتها فى الأرض

(١) مع مارسيل Marcel (الطفل رقم ٤)

فى ملجأ من ملاجىء الأرياف كان يوجد صبى بين الثامنة والعاشرة من عمره تقريباً ، فى حالة يصعب وصفها ، ولم يكن يعرف فيه إلا بأنه « رقم٤ » إذ كان مشوهاً تشوهاً تاماً إما بطبيعته وإما بسبب أمراضه . وكانت ساقاه ملتويتين حتى كادتا أن تلامسا رقبته ، وكان من النحافة على درجة يبدو معها جلده تحت رحمة عظامه ، فكانت آلامه رهيبة . . . وظل على هذه الحال لمدة أربع سنوات .

ومع ذلك كان ذكاؤه ملحوظاً بالنسبة لسنه ، وكان على درجة رائعة من الحنان والصبر والاستسلام للمقادير ، وكانت روحه نبيلة ، فما أكثر ما عبر عن عدم رغبته فى الأنين ، حتى لا يقلق راحة باقى المرضى الذين كانوا إلى جواره . . . فمن أين استمد مشاعره النبيلة هذه ؟ إن ذلك لا يمكن أن يكون فى الوسط الذى تربى فيه ، ولا فى السن التى بدأ يئن فيها ، كما لم يكن بمقدوره أن يعى أى أمر ، فكانت هذه الصفات النبيلة إذاً فطرية فيه ، ولكن لماذا

قضى الله عليه بأن يحيا حياة تعيسة وأليمة إلى هذا المدى ، إذا ما افترضنا أنه تعالى قد خلق هذه الروح فى نفس الوقت مع هذا الجسد ، الذى كان أداة لآلام رهيبة كهذه ؟

إما ينبغى أن ننكر رحمة الله ، وإما ينبغى أن نفترض وجود سبب قديم لذلك وهو الوجود السابق للروح على الجسد ، وتعدد حيوات الإنسان.
وأخيراً مات الصبى وكانت أفكاره الأخيرة متجهة إلى الله وإلى الطبيب البار الذى كان يعطف عليه . وبعد مضى وقت على وفاته طلبناه فى « جمعية باريس الروحية » حيث أعطى فى سنة ١٨٦٣ الرسالة الآتية :

« لقد استدعيتمونى ، ولقد جئت كيما أسمعكم صوتى فى هذا المكان لعله يمس كل القلوب ، ولعل صداه يصل إلى كل متألم فى وحدته كيما يذكره بأن احتضار الأرض يمهد الطريق لمتع السماء ، وأن الألم ليس إلا القشرة المرة لفاكهة حلوة تمنح آكلها الشجاعة والترفع . إن صوتى سيقول لهم إنه على الحصيرة التى تستلقى عليها التعاسة يوجد مبعوثون من الله رسالتهم أن يعلموا الإنسانية أنه ليس هناك ألم يعجز الإنسان عن تحمله بمعونة الله القادر على كل شيء ، وكذلك بمعونة الأرواح الراقية . وسيقول لهم أيضاً أن يستمعوا إلى الأنات عند ما تختلط بالصلاة ، وأن يتفهموا ما فيها من تناسق متعبد ، مختلف تماماً عن عبارات الأنين الآثمة المختلطة بالتجديف على الله .

« لقد تفضلت روح من أرواحكم الراقية — وهى روح مبعوث عظيم للروحية — أن تترك لى مكانها هنا هذه الليلة[1] . ولذا فمن واجبى بدورى أن أقول لكم كلمات قليلة عن تقدم فقهكم الروحى . فإنه ينبغى أن يساعد فى أداء رسالتهم أولئك الذين يتجسدون بينكم كى يتعلموا كيف يتألمون .

(١) يقول المؤلف إنها روح سانت أوغسطين St. Augustin وهى الروح المرشدة التى كان يتم الاتصال أحياناً عن طريقها بالأرواح الأخرى .

فالروحية ستصبح بمثابة علامة الطريق للمتألمين الذين سيجدون فيها المثال . وسيسمعون منها الصوت ، وعندئذ ستتحول أنات الألم إلى صرخات للبهجة وإلى دموع للفرح » .

س : إنه يبدو مما ذكرته الآن أن آلامك لم تكن بالمرة تكفيراً عن أخطاء سابقة ؟

ج : لم تكن تكفيراً مباشراً ، ولكن كونوا متأكدين من أن لكل ألم سببه العادل . إن ذلك الذى عرفتموه تعيساً إلى هذا المدى كان فيما مضى جميلا وعظيماً وغنياً ، وكان له من يتملقه ويتودد إليه ويثنى عليه ، وكنت أفخر لذلك وأتكبر . كنت فيما مضى آثماً تماماً ، حتى لقد أنكرت الله وأسأت إلى القريب ، ولكنى كفّرت عن كل ذلك بقسوة ، أولا فى عالم الأرواح ، ثم على الأرض . وما تحملته من آلام أثناء سنين قليلة فحسب فى هذا الوجود القصير الأخير تحملت مثله خلال حياة كاملة سابقة حتى بلغت من العمر أرذله . وعن طريق الندم عرفت سبيل مغفرة الله الذى تفضل فعهد إلى بمهمات كثيرة تعرفن الأخيرة منها . ولقد توسلت إليه كيما أتم تطهيرى .

فوداعاً أيها الأصدقاء ، وسأعود إليكم أحياناً ، ومهمتى هى أن أعزى لا أن أعلّم ، ولكن يوجد هنا كثيرون من ذوى الجراح الدفينة يسرهم حضورى .

مارسيل

بيانه من الروح المرشدة للوسيط

« أيها الكائن الصغير المتألم الرقيق الجريح المشوه ! كم من أنات سمعت منه فى ملجأ التعاسة ذلك والدموع ! ورغم عمره الصغير كم كان مستسلماً ، وكم كانت روحه واعية للهدف من آلامه منذ ذلك الحين ! فكان شاعراً تماماً أنه كان ينتظره بعد القبر الثواب عن هذه الأنات المكبوتة ! وكم صلى

أيضاً لأولئك الذين لم تكن لديهم الشجاعة مثله كى يتحملوا آلامهم ، وخصوصاً لأولئك الذين كانوا يجدفون على السماء ، بدلا من أن يتوجهوا إليها بصلاتهم .

وإن كان الاحتضار طويلا فإن ساعة الموت لم تكن مخيفة على الإطلاق ، ولا ريب أن الأعضاء المتشنجة كانت تتلوى ، وكان يبدو للحاضرين كما لو كان الجسد ثائراً ضد الموت ، وضد قانون اللحم الذى يرغب فى البقاء رغم كل اعتبار . ولكن ملاكاً كان يطوف عندئذ فوق فراش المحتضر ، فأخذ يشق قلبه ، ثم حمل على جناحيه الأبيضين هذه الروح الجميلة التى أفلتت من إسار الجسد المشوه قائلة هذه الكلمات : ليكن لك المجد يا إلهى ! وعندما صعدت هذه الروح نحو بارئها القدير صرخت هاتفة : هأنذا أيها السيد ، لقد كلفتنى بمهمة تعليم الألم للآخرين ، فهل تحملت التجربة بجدارة ؟[1]

والآن لقد استردت روح الفتى البائس إمكانياتها ، وهى تحلق فى الفضاء ، متنقلة بين الضعيف والصغير قائلة للجميع : أملا وشجاعة . وبعد أن تخلصت من كل مادة ومن كل دنس هاهى بالقرب منكم تتحدث إليكم ، لا بصوتها المتألم الباكى ، بل بعباراتها القوية قائلة لكم : إن أولئك الذين نظروا إلى قد شاهدوا فىّ الطفل الذى لم يكن يئن ، فاستمدوا منه الهدوء لآلامهم والسكينة لقلوبهم فى ثقة عذبة بالله ، وهذا هو هدف معبرى القصير على الأرض » .

سانت أوغسطين

(ب) مع السيدة الفقيرة جوليين مارى Julienne—Marie

فى مركز يدعى فيلات Villate بمديرية اللوار الأدنى Loire—Inferieure

---

(١) على أن الصورة الرائعة التى رسمتها الروح المرشدة لحظة انتقال هذا الفتى صورة رمزية برمتها للإبانة والتوضيح فحسب ، فلا محل لإعطائها معنى حرفياً كما يحاول الكثيرون عند تفسير بعض النصوص .

كانت توجد سيدة عجوز عاجزة تدعى جولين مارى تعيش على الإحسان العام . وفى يوم سقطت فى مستنقع ماء فأخرجها منه أحد الأشخاص ويدعى «م . ا »وكان معتاداً على الإحسان إليها . وبعد نقلها إلى منزلها بفترة قصيرة قيل إنها توفيت من جراء الحادثة ، وكان الاعتقاد السائد أنها قد تعمدت الانتحار ، وفى يوم وفاتها شعر الشخص الذى أنقذها ـ وقد كان روحياً ووسيطاً ـ بوجود شبح بالقرب منه يحاول أن يشعره بوجوده ، ولم يكن قد علم بعد بأنها قد أسلمت الروح ، فلما علم بذلك اعتقد أنها ربما تكون قد جاءت لزيارته .

وبناء على رغبة هذا الصديق ، وقد كان عضواً فى «الجمعية الروحية» بباريس قام بطلبها بهدف مساعدتها ، لكنه ابتداء طلب مشورة أرواحه المرشدة التى تلقى منها الجواب الآتى :

« يمكنك استدعاؤها ، وذلك سيسرها رغم أن الخدمة التى تفكر فى إسدائها إليها لن تفيدها، لأنها سعيدة ووفية تماماً لمن عطفوا عليها ، وأنت واحد من أصدقائها الطيبين وهى لا تغادرك أبداً وتحاول الحديث إليك على غير علم منك ، فكل خدمة يؤدى عنها ثوابها إن عاجلا أو آجلا إن لم يكن بواسطة المدين بهذه الخدمة فبواسطة من قد يهمهم أمره ، سواء قبل موته أم بعد الموت . فإذا لم يكن لدى الروح وقت كاف لتعرف أمرها ، فإن أرواحاً أخرى تعبر نيابة عنها عن كل امتنانها ، وهذا هو ما يفسر ماشعرت أنت به فى يوم وفاتها . والآن هى التى تساعدك فى الخير الذى تريد إسداءه . . . »

ثم تلقى من الروح رسالة مطولة كان من ضمن ما ورد فيها « إنك أحسنت صنعاً إذ لم تحتقر المساكين ، فإن صوت المتألم الذى تحمل راضياً بؤس هذه الدنيا مسموع دائماً ، وكل خدمة تؤدى تتلقى ثوابها دائماً كما ترى . والآن فلأذكر لك كلمة عنى تؤيد لك ماسبق أن ذكرته .

« إن الروحية تفسر لك لهجتى كروح ، ولست بحاجة للدخول فى تفاصيل مافى هذا الشأن ، كما أعتقد أنه من غير المجدى أن أشركك فى وجودى السابق ، فإن الوجود الذى عرفتنى فيه على هذه الأرض لابد أن يجعلك تعرف وتقدر حالات وجودى الأخرى التى لم تكن دائماً فوق المآخذ ، والتى وهبتنى (فى هذه المرة) لحياة البؤس والعاهة والعجز عن العمل ، والتسول طيلة حياتى . ولم أدخر شيئاً لأيام شيخوختى لأن مدخراتى كانت مقصورة على مائة فرنك احتفظت بها لليوم الذى تعجز فيه ساقاى عن حملى . وعندما قدر الله أن تجربتى وتكفيرى كانا كافيين وضع حداً لهما وانتزعنى بغير آلام من الحياة الأرضية ، فأنا لم أنتحر البتة كما اعتقدتم فى مبدأ الأمر ، بل مت بالسكتة على شاطىء المستنقع عندما كنت أتجه بصلاتى الأخيرة نحو الله فانحدر جسدى إلى الماء بسبب انحدار الأرض ، ولذا عثرتم على فى الماء .

لم أتألم ، وإنى سعيدة لأنى تمكنت من إنجاز مهمتى راضية وبغير عقبات ، فكنت مفيدة فى حدود قدرتى ووسائلى ، وتحاشيت أن ألحق ضرراً بإنسان ، والآن أثاب على ذلك وأشكر الله السيد السماوى الذى يخفف عنا مرارة التجارب عندما يجعلنا ننسى أثناء الحياة حالات وجودنا السابقة ، واضعاً على الطريق نفوساً خيرة كيما تساعدنا فى تحمل أثقال أخطائنا .

فاذكر ذلك أنت أيضاً ، وستثاب مثلى ، وأشكرك لصلاتك الطيبة وللخدمة التى أديتها لى ، فلن أنساها أبداً ، وسنلتقى يوماً ، وسأشرح لك أشياء كثيرة ، لا لزوم لها الآن واعلم فحسب أنى وفية لك جداً وأنى سأكون قريبة منك عندما تحتاج إلى للتخفيف عمن يتألم .

السيدة الفقيرة المسكينة جولين مارى

ثم طلبت الروح من جديد فى جمعية باريس بتاريخ ١٠ يونيه سنة ١٨٦٤ فأملت الرسالة الآتية : —

« شكراً لأنكم قبلتمونى فى اجتماعكم أيها الرئيس العزيز ، لقد شعرتم تماماً أن حالات وجودى السابقة كانت أكثر ارتفاعاً فيما يتعلق بمركزى الاجتماعى ، وإذا كنت قد عدت للأرض كيما أقاسى من محنة الفاقة فذلك كان لعقابى عن كبريائى الزائفة التى كانت تدفعنى فيما مضى لأن أتنكر لكل مسكين وبائس ، ولذا تحملت هذا القانون العادل وهو قانون « الجزاء من جنس العمل » الذى جعل منى أكثر الناس فاقة فى هذه المنطقة . ومع ذلك فكان رحمة الله أرادت أن تكشف لى عن وجودها فلم يتنكر لى الجميع ، وقد كان كل خوفى من ذلك ، وهكذا تحملت محنتى بغير تذمر فى توقع الوصول إلى حياة أفضل لاينبغى أن أرجع منها إلى أرض المنفى والتعاسة هذه .

أية سعادة هى سعادة اليوم الذى يمكن لأرواحنا التى لا تزال شابة أن تدخل فيه إلى الحياة الروحية كيما ترى من جديد الكائنات المحبوبة ! فأنا أيضاً أحببت ، وأشعر بنفسى سعيدة لأنى عثرت على من سبقونى . وشكراً لهذا السيد « م . ا » الذى فتح لى باب التعبير عن العرفان بالجميل ، فبدون وساطته ما كنت لأقدر على شكره أو إثبات أن روحى لن تنسى التأثيرات السعيدة لقلبه الطيب ، ولا على أن أوصيه بنشر رأيه المقدس (فى الروحية) الذى يهدف إلى هداية الأرواح الضالة ، فليثق تماماً من تعضيدى . نعم يمكننى أن أقدم له مائة ضعف أكثر مما فعل لأجلى عندما أزوده بالمعرفة فى الطريق الذى تتبعونه .

فاشكروا الله لأنه سمح للأرواح أن تقدر على أن تزودكم بالمعرفة التى تشجع الفقير فى آلامه وتمنع الغنى من التمادى فى كبريائه . حاولوا أن تتفهموا مدى الخزى فى التنكر لإنسان بائس ، وذلك حتى تتفادوا أن تعودوا مثلى إلى الأرض كيما تكفروا عن أخطائكم بمثل هذه المراكز الاجتماعية الأليمة الوضيعة التى تجعل منكم نفاية فى المجتمع » .

وتلى ذلك رسالة ثالثة من نفس الروح لا تخرج فى جملتها عن هذه المعانى :

(حـ) قصة خادم

فى أسرة من طبقة عالية كان يعمل خادم شاب ذو ملامح ذكية رقيقة وفى تفان يسترعى الانتباه ، ولم يكن فى أساليبه الذكية ما يحمل على الاعتقاد بأنه ينتمى إلى طائفة الخدم . وبعد عام ذهب لقضاء بضعة أيام فى بلدته حيث توفى هناك . وقد جاءنا خاطر بأن نطلب روحه ، وها هو ما ذكره لنا :

« فى تجسدى قبل الأخير كنت من أسرة كريمة جداً ، بحسب التعبير الأرضى ، ولكنها أفلست بسبب تبذير الأب . ثم تيتمت صغيراً فأصبحت بغير موارد ، وقد تبنانى صديق لوالدى فكفلنى كما لو كنت ولده وهيأ لى تعليماً طيباً أعدنى لدرجة من الغرور أكثر مما ينبغى ! وهذا الصديق هو الآن السيد « ج » الذى شاهدتمونى أعمل خادماً عنده .

ولقد أردت فى تجسدى الأخير أن أكفر عن غرورى بأن أولد فى ظروف تقتضى العمل كخادم ، وقد وجدت فيها المناسبة التى أعبر بها عن وفائى نحو الشخص الذى أحسن إلى ، بل لقد أنقذت حياته بغير أن يرتاب فى ذلك بالمرة . وكانت تلك فى نفس الوقت تجربة خرجت منها رابحاً ، إذ مكننى العمل من عدم الفساد عن طريق الاختلاط بوسط يكاد يكون غارقاً فى مباذله دائماً . ورغم الأمثلة السيئة التى مرت بى فقد ظللت نقياً ، والشكر لله الذى أثابنى بالسعادة التى أنعم بها الآن على .

س : فى أى ظروف أنقذت حياة السيد « ج » ؟

ج : فى أثناء نزهة على ظهور الجياد ، حيث كنت أتبعه بمفردى عندما شاهدت شجرة ضخمة على وشك السقوط دون أن يشاهدها فناديت عليه صارخاً مذعوراً فارتد بغتة ، وعندئذ سقطت الشجرة عند قدميه ، ولولا الحركة التى أحدثتها لكانت الشجرة قد هشمته .

(وقد تذكر السيد « ج » هذه الواقعة المتعلقة به تذكراً تاماً) .

س : ولماذا مت صغيراً إلى هذا الحد ؟

ج : لقد قدر الله أن تجربتي كانت كافية .

س : وكيف أمكنك أن تستفيد من هذه التجربة ما دمت كنت لا تذكر السبب الذي دعا إليها ؟

ج : في مركزي المتواضع كانت متبقية لدي غريزة الكبرياء التي كنت سعيداً بالقدرة على السيطرة عليها ، وهو الأمر الذي جعل التجربة مفيدة لي ، وإلا لتعين علي أن أبدأها من جديد . وكانت روحي تذكرها في لحظات تحررها ، وكانت متبقية لدي في يقظتي حاجة فطرية لمقاومة اتجاهاتي التي كنت أشعر برداءتها . وكان فضلي في المقاومة على هذا النحو أكثر مما لو كنت متذكراً ماضي بوضوح ، فإن تذكر ماضي السحيق كان سيستثير كبريائي ويثير اضطرابي ، حين لم يكن علي إلا أن أكافح مقتضيات مركزي الجديد (كخادم) .

س : لقد تلقيت تعليماً لامعاً ، ففيم أفادك التعليم في وجودك الأخير مادمت كنت لا تذكر المعلومات التي حصلت عليها ؟

ج : هذه المعلومات كانت ستكون غير مجدية - بل لعلها ضارة - في مركزي الجديد ولكنها ظلت خاملة ، والآن عثرت عليها ، ومع ذلك فلم تكن عديمة الجدوى (حتى في الحياة الأرضية) لأنها أدت إلى نمو عقلي ، وكنت أتذوق المعاني السامية بطريقة غريزية ، وهي المعاني التي كانت تلهمني كراهية الأمور المبتذلة غير الكريمة التي كنت أراها تحت عيني ، فبدون التعلم كنت سأصبح مجرد خادم عادي .

س : هل للخدمة الوفية للمخدوم ، التي قد تصل إلى حد التفاني ، من أسباب سابقة (أي ترجع إلى حيوات سابقة) ؟

ج : بلا ريب أن هذه بالأقل هى الحالة الاعتيادية ، وهؤلاء الخدم هم أحياناً أعضاء فى نفس الأسرة ، أو - مثلى - هم مدينون بمعروف سابق يسددون دينهم ويساعدهم تفانيهم على التقدم . إنكم لا تعرفون جميعكم آثار الحب أو الكراهية التى تحدثها هذه الصلات القديمة فى العالم . فالموت لا يفصم هذه الصلات التى تخلد عادة من قرن إلى قرن .

س : ولماذا تبدو هذه الأمثلة من إخلاص الخدم نادرة الآن ؟

ج : ينبغى تحميل روح الأنانية المسئولية ، وكذلك الكبرياء المتفشية فى عصركم والتى غذاها عدم التصديق ، والأفكار المادية . فالإيمان الصحيح يبدده الجشع ورغبة الكسب ، ويبدد معهما صور الإخلاص المتفانى . والروحية عندما تعيد الناس إلى الإحساس بالحقيقة تحيى من جديد الفضائل المنسية .

ويعلق المؤلف على هذا الاتصال الروحى قائلا إنه لا شىء مثله يوضح مزايا نسيان حالات الوجود السابقة ، فلو أن المخدوم « ج » كان يذكر ماذا كان عليه خادمه فى وجوده السابق لوجد حرجاً كبيراً فى علاقته معه ، ولما قبل أن يستبقيه فى هذه الحالة ، ولعاق بالتالى نجاح هذه التجربة التى كانت مفيدة للاثنين معاً .

(د) قصة عالم طموح

لم تقاس مدام ب ... من مدينة بوردو Bordeaux من الضيق أو الفاقة ، لكنها كانت طيلة حياتها ضحية آلام جثمانية من جراء أمراضها الخطيرة التى لا تحصى - والتى أصابتها منذ كان عمرها خمسة شهور إلى أن توفيت فى الخامسة والستين من عمرها - وكانت ابنتها وسيطة روحية ، وما أكثر ما تضرعت إلى الله أن يخفف من آلام أمها ، ولكن كانت روحها المرشدة

تطلب منها فحسب أن تطلب لأمها أن تعطى القدرة على أن تتحمل آلامها بصبر واستسلام . وأملت عليها البيانات الآتية :

« لكل شيء علته فى الوجود الإنسانى ، فما من ألم تتسببون فى إحداثه إلا وله صداه فى ألم تقاسونه ، وما من شطط ترتكبونه إلا وله مقابله فى حرمان تعانونه ، وما من دمعة تنسكب من عيونكم إلا كيما تمحو خطأ صدر عنكم ، بل ربما جريمة أحياناً .

فتحملوا إذاً بصبر واستسلام آلامكم الجسدية والنفسية ، مهما بدت لكم قاسية ، وتأملوا فى الزارع الذى يحطم الإجهاد أعضاءه ، ولكنه يواصل عمله بغير توقف ، لأنه يترقب أمامه السنابل الذهبية التى ستكون من ثمار عزيمته . فهذا هو شأن البائس الذى يقاسى على أرضكم ، فإنه يترقب النعيم الذى ينبغى أن يكون ثمرة صبره ، والذى يقويه فى وجه الآلام العابرة لبنى الإنسان .

هكذا كان الشأن مع أمك ، فكل ألم تتقبله ككفارة هو عبارة عن وصمة تمحى من ماضيها . وبقدر ما تمحى الوصمات سراعاً بقدر ما تسرع نحوها السعادة ، وعدم الاستسلام يجعل الألم مجدياً ، إذ يتعين عندئذ البدء من جديد فى تحمل التجارب ، فأنفع شيء لها هو الشجاعة والخضوع ، وهذا هو ما ينبغى أن نسأل الله أن يمنحها إياه ، بمعونة الأرواح الطيبة .

لقد كانت أمك فيما مضى طبيباً ناجحاً معروفاً لدى الطبقات الغنية التى أغدقت عليه الكثير من العطايا ومن صور التكريم . وكان الطبيب طموحاً إلى المجد والمال راغباً فى الوصول إلى ذروة العلم ، لا كيما يخفف من آلام إخوته ، لأنه لم يكن عطوفاً ، بل كيما تزداد شهرته ، وبالتالى زبائنه . فلم يدخر وسعاً فى الوصول بعلمه إلى غايته . وكان يتعمد مثلا إحداث تشنجات فى أم قد تقاسى الأهوال من التشنج العصبى على فراش الألم كيما يدرس هذه التشنجات ، وكان يخضع طفلا لتجارب مؤلمة عساها أن تعطيه مفتاحا لدراسة بعض

الظواهر ، وكان الإنسان القوى البنية قد يرى نفسه وقد هزل بسبب بعض تجارب هذا الطبيب عند ما كان يرغب فى مراقبة أثر بعض العقاقير والمشروبات فى الأجسام ، وهكذا كان يجرى تجاربه بغير حــــذر على البائسين من مرضاه .

وكان الهدف من سلوكه هذا هو إرضاء جشعه وكبريائه وتعطشه للمال وللشهرة وقد اقتضى ترويض هذه الروح المتكبرة الطموحة انقضاء عدة قرون ، ومرورها بتجارب مريرة . وبعدئذ بدأت التوبة تلعب دورها فى التجديد ، وأوشك الإصلاح على التمام ، لأن تجارب هذا الوجود الأخير هينة بجانب التجارب التى تحملتها فيما مضى. فشجاعة إذاً ، ولئن كان الألم طويلا وقاسياً ، فإن الثواب سيكون عظيماً بعد الصبر والاستسلام وذل الألم .

فشجاعة ياجميع من تعانون ، وفكروا فى الوقت القصير الذى يبقاه وجودكم المادى ، وفكروا فى متع الأبدية ، متوسلين بالأمل ، هذا الصديق الوفى لكل قلب يتألم . ومتوسلين أيضاً بالإيمان شقيق الأمل ، الإيمان الذى يقدم لكم السماء التى يدفعكم الأمل إلى دخولها قبل الأوان . وتوسلوا أيضاً بهؤلاء الأصدقاء الذين منحكم الله إياهم كى يحيطوا بكم ويؤازروكم ويحبوكم ، وعن طريق التوسل إليهم ترجعون إلى الله الذى تعديتم عليه بخرق قوانينه » .

وبعد موتها أعطت مدام «ب» إلى كريمتها فى «الجمعية الروحية بباريس» رسائل تنعكس فيها أرفع الصفات ، ومؤيدة فيها ما سبق ذكره آنفاً عن ماضيها .

(هـ) مع أديلايد مارجريت جوس Adélaide Marguerite Gosse

كانت أديلايد خادمة متواضـــعة فقيرة من مقاطعة نورماندى Normandie بالقرب من هارفلير Harfleur ، وعند ما بلغت الحادية العشرة

من عمرها دخلت فى خدمة أسرة غنية تقوم بتربية الأغنام ، وبعد سنوات قليلة حدث فيضان فى نهر السين أغرق جميع أغنامها ، ثم حدثت نكبات أخرى أفقرت أولئك المخدومين، ولكن أديلايد ربطت مصيرها بمصيرهم، وأخفتت نداء الأنانية . فلم تعد تستمع إلا إلى صوت قلبها الوفى ، وجعلتهم يتقبلون منها خمسمائة فرنك كانت قد ادخرتها لنفسها ، وظلت فى خدمتهم بلا راتب ، وبعد وفاة مخدوميها ظلت مرتبطة بابنتهما التى أصبحت أرملة وبغير موارد ، فكانت أديلايد تعمل فى الحقول، وتحضر ما تكسبه إلى المنزل. ثم تزوجت، وصار الزوجان معاً يعاونان السيدة الفقيرة ، ودامت هذه التضحيات النبيلة لمدى نصف قرن .

ولم تتجاهل ، جمعية المباراة على البر ، بمدينة روان Rouen هذه السيدة النبيلة والجديرة بكل احترام وتقدير فنحتها مدالية شرفية ومكافأة نقدية .

وفى لحظة واحدة انتزعت نوبة شلل هذه المخلوقة البارة بدون ألم من على الأرض .... (وفى الجلسة الروحية جرى الحديث معها كالآتى) : —

س : إننا نسأل الله القادر على كل شىء أن يسمح لروح مارجريت جوس أن تتصل بنا .

ج : نعم إن الله قد أنعم علىّ بذلك .

س : يسعدنا أن نعبر لك عن إعجابنا بسلوكك الذى حافظت عليه أثناء وجودك الأرضى ، ونرجو أن يكون الله قد أثابك عن نبلك .

ج : نعم لقد كان الله مغدقاً حبه ورحمته على خادمته ، وما صنعته مما تجدونه مرضياً ، كان أمراً طبيعياً جداً .

س : هل يمكنك — لإنارتنا — أن تذكرى لنا علة المركز المتواضع الذى كنت تشغليه على الأرض ؟

ج : لقد شغلت خلال وجودين سابقين مركزاً عالياً ، فكان المال موفوراً،

وقضيتهما بلا تضحيات لأنى كنت غنية ، وتبينت أنى كنت أتقدم تقدماً بطيئاً فطلبت أن تكون عودتى إلى الأرض فى مركز أكثر تواضعاً حيث يكون على فيه أن أكافح بنفسى ضد الحرمان . وأعددت نفسى لذلك خلال زمن طويل . وقد أيد الله شجاعتى وأمكننى أن أصل إلى الهدف الذى تخيرته ، بفضل ما منحنى الله من معونات روحية .

س : هل شاهدت سادتك السابقين ؟ اذكرى لنا ـ إذا تفضلت ـ ما مركزك إزاءهم ، وهل مازلت تعتبرين نفسك تابعة لهم ؟

ج : نعم لقد شاهدتهم ، ولقد كانوا فى استقبالى عند حضورى إلى هذا العالم . وبكل تواضع يمكننى أن أقول إنهم أصبحوا يعتبروننى كما لو كنت أعلى منهم .

س : وهل كان لديك سبب خاص للارتباط بهم دون غيرهم ؟

ج : لم يكن هناك أى سبب ملزم ، وكان من الممكن أن أحقق هدفى فى أى مكان آخر ، ولقد تخيرتهم كيما أبرىء ذمتى نحوهم من دين الإقرار بالمعروف ، إذ كانوا فيما مضى كرماء نحوى ، وسبق أن قدموا لى خدمة .

س : وما هو المستقبل الذى تؤملين فيه ؟

ج : أؤمل أن أتجسد فى عالم بلا ألم . ولعلكم تجدوننى بذلك أؤمل فى المحال ، ولكننى أجيبكم بما فى قلبى ، وفى النهاية إنى مستسلمة لإرادة الله .

س : نشكرك لحضورك بناء على طلبنا ، والله قادر أن يغدق عليك نعمه .

ج : شكراً ، والله قادر أن يبارككم وأن يتمكم جميعكم فى لحظة الموت بنفس مشاعر السعادة النقية التى كانت من نصيبى .

(و) مع كلارا ريفييه Clara Rivier

كانت هذه الفتاة ذات العشرة الأعوام تنتمى إلى أسرة من العمال فى قرية من قرى جنوب فرنسا ، وأصبحت عاجزة تماماً منذ الرابعة من عمرها

ولم يسمع منها أى ضجر، ولم تصدر منها أية علامة على ضيق أو تبرم ورغم أنها كانت محرومة من التعليم فكانت هى التى تعزى أسرتها الجريحة، وتمنيها بالحياة المستقبلة وما يوجد فيها من نعيم ! .

وتوفيت فى شهر سبتمبر سنة ١٨٦٢ بعد أربعة أيام من آلام قاسية ومن تشنجات لم تتوقف أثناءها عن الابتهال لله ، وكانت تقول فيها « إنى لا أخشى الموت لأن حياة السعادة محفوظة لى بعده » . كما كانت تقول لأبيها الباكى « تعز لأنى سأعود لزيارتكم ، إنى اشعر بأن ساعتى قريبة ، ولكنها عندما تأزف سأعلم بذلك وسأخطرك مقدماً » . وعندما كانت اللحظة الحاسمة على وشك الحلول دعت جميع ذويها قائلة لهم « لم يتبق لى فى الحياة سوى خمس دقائق فأعطونى أيديكم » ثم أسلمت الروح كما قدرت من قبل .

ومنذ ذلك الحين حضرت روح مشاغبة لزيارة منزل أسرتها ، حيث عمدت إلى أن تقلب كل شىء، وإلى أن تحدث طرقات على المائدة كما لو كانت تحمل هراوة ، وإلى أن تحرك الأغطية والستائر والآنية ، وظهرت هذه الروح فى صورة كلارا لشقيقتها الصغيرة التى كانت فى الخامسة من عمرها ، والتى كانت تقول إن شقيقتها تتحدث إليها كثيراً ، وكان ظهورها لها مبعث صيحات فرح ، فكانت تقول « انظروا كيف أن كلارا جميلة ! » .

حضور روحها : انى بالقرب منكم مستعدة للإجابة .

س : من أين جاءتك هذه الأفكار العالية التى كانت تصدر منك عن الحياة المستقبلة قبل موتك ، رغم أنك كنت صغيرة إلى هذا المدى وغير متعلمة ؟

ج : من الوقت القصير الذى أمضيته على كوكبكم ومن تجسدى السابق فقد كنت وسيطة عندما غادرت الأرض ، وكنت وسيطة عندما عدت إليكم ولقد كان هذا هو قدرى ، وقد كنت أشعر بما كنت أقوله وأراه .

س : كيف يتأتى لطفلة من عمرك ألا تصدر منها أية شكوى خلال أربعة أعوام من الألم ؟

ج : لأن الألم الجثمانى كان خاضعاً لسيطرة قدرة أقوى منه هى قدرة ملاكى الحارس الذى كنت أراه دوماً بالقرب منى . وكان يعرف كيف يخفف عنى كل ما كنت أشعر به ، وبفضله أصبحت إرادتى أقوى من الألم .

س : كيف أخطرت بلحظة وفاتك ؟

ج : اخطرنى بها ملاكى الحارس الذى لم يخدعنى أبداً .

س : لقد ذكرت لوالدك « تعز » فسأحضر لزيارتكم ، فكيف — مع المشاعر الطيبة التى كانت تغذيك نحو والدك — حضرت بعد موتك لإقلاقهم عن طريق الشغب فى المنزل ؟

ج : لقد مررت بتجربة بلا ريب ، أو بالأدق أنه كان لدى مهمة على أن أؤديها . لقد حضرت لمشاهدة والدى فهل تعتقد أن ذلك ينبغى أن يمر عبثاً ؟ فهذه الضوضاء ، وهذا الشغب ، وهذا النضال الذى كان يجرى بسبب وجودى ، كل ذلك كان بمثابة تنبيه لهم ، وكانت تساعدنى أرواح أخرى كان لها هدفها من وراء هذا الشغب ، كما كان لى أنا أيضاً هدفى من الظهور لشقيقتى ، فبفضلنا كم من أشخاص سيقتنعون ! ولقد كان على ذوى تجربة ينبغى عليهم أن يقاسوها ، وهى ستتوقف قريباً ، ولكن بعد أن تكون التجربة قد حملت الاقتناع إلى الكثيرين .

س : إذاً فلست وحدك مصدراً للشغب .

ج : لقد ساعدتنى أرواح أخرى اشتركت فى المحنة المدخرة لوالدى العزيزين .

س : وكيف تأتى لأختك أن تتعرف عليك ، إذا لم تكونى مصدر هذه الظواهر .

ج : أختى لم تر أحداً غيرى ، إن لديها قدرة ثانية على النظر ، وليست هذه آخر مرة كان حضورى فيها سبباً فى تعزيتها وتشجيعها .

س : لماذا امتحنك القدر بعاهات كثيرة مع صغر سنك .

ج : لقد كنت محملة بأخطاء سابقة وكان على أن أكفر عنها . لقد أسأت استخدام صحتى ومركزى اللامع الذى كنت أنعم به فى تجسدى السابق. وكأن الله كان يقول لى « لقد نعمت إلى مدى عظيم وغير محدود ، فستتألمين بنفس المقدار ، لقد كنت متكبرة فستصبحين وضيعة ، لقد كنت فخورة بجمالك فستصبحين محطمة ، وبدلا من التفاهة ستحاولين أن تحصلى على البر والطيبة » . فتصرفت بحسب مشيئة الله وساعدنى ملاكى الحارس .

س : هل ترغبين فى أن تقولى شيئا لذويك ؟

ج : بناء على طلب احد الوسطاء ، لقد قدم ذوى كثيراً من البر ، وكان لهم ما يدعوهم لعدم الصلاة من الشفاه فحسب ، إذ تنبغى الصلاة من اليد والقلب ، فإن الصلاة هى العطاء الذى يعطى للمتألمين ، وهى التى تجعل الإنسان روحياً .

لقد أعطى الله إلى جميع الأرواح حرية الاختيار، أى القدرة على التقدم كما أعطاها كلها نفس الطموح ولذلك «فإن الفستان الرخيص أقرب إلى الفستان الموشى بالذهب مما قد يظن الإنسان عادة» (مثل فرنسى) . فقربوا المسافات عن طريق البر ، وافتحوا أبوابكم للمسكين وشجعوه وارفعوه ولا تهينوه. ولو عرف الإنسان كيف يطبق فى كل مكان هذا القانون العظيم من قوانين الوعى ، لاختفت هذه التعاسات التى تشين فى أوقات معينة الشعوب المتحضرة ، والتى يبعث بها الله كيما تعاقب ، وكيما تنفتح الأعين المغلقة .

يا أقربائى الأعزاء ، أحبوا بعضكم بعضاً وطبقوا قانون المسيح وهو ان « كل ما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا هكذا أنتم بهم أيضاً » ،

وابتهلوا إلى الله عندما يمتحن إيمانكم بأن تظهروا أن إرادته مقدسة وعظمى مثله . وتعلموا أن تتسلحوا بالشجاعة وبالعزيمة فى ترقب المستقبل ، لأن عليكم أن تتألموا أيضاً . وينبغى أن تتعلموا كيف تستحقون مركزاً طيباً فى عالم أفضل ، يتحقق فيه تفهم العدالة الإلهية فى عقاب الأرواح الشريرة .

يا أقربائى الأعزاء سأكون دائماً قريبة منكم فوداعاً وإلى اللقاء ، وليكن عندكم الاستسلام والبر، وحب الآخرين ، وستكونون سعداء يوماً » كلارا .

ويعلق المؤلف على هذه الرسالة قائلا إن الإشارة إلى أن « الفستان الرخيص أقرب إلى الفستان الموشى بالذهب مما قد يظن الإنسان عادة » تتضمن الإشارة إلى الأرواح التى تتحول بين وجود وآخر من مركز لامع إلى مركز وضيع أو بائس ، لأنها تكفر عادة فى وسط وضيع عن سوء استخدامها للنعم التى سبق أن أنعم الله عليها بها ، وهى عدالة يفهمها كل البشر .

وهناك فكرة أخرى لا تقل عمقاً وهى التى تعزو مآسى الشعوب إلى خرق القانون الإلهى ، لأن الله يعاقب الشعوب كما يعاقب الأفراد ، فمن المحقق أنه لو كانت الشعوب تطبق قانون البر لامتنعت الحروب والنكبات العظمى . وتطبيق هذا القانون هو ما تؤدى إليه الروحية، فهل لهذا الاعتبار تلاقى الروحية أعداء ألداء إلى هذا المدى ؟ وهل أقوال هذه الفتاة لذويها أقوال شيطان ؟

(ذ) مع آنا بيتر Anna Bitter

إن فقدان طفل حبيب أمر أليم ، فما بالك بالأب عندما يرى بعينيه ابنته الوحيدة — التى عقد عليها كل الآمال والتى ركز عليها عواطفه التى لا يملك غيرها — وقد سقطت مريضة منهارة أمام عينيه ، بغير آلام ولسبب مجهول من تلك الأسباب الخفية الشاذة التى تقف حكمة العلماء حيرى إزاءها ؟ . .

وقد استنفد الأب بغير جدوى جميع إمكانيات العلم ، وأصبح متيقناً بأنه لا يوجد أى رجاء فى الشفاء ، وظل على هذا العذاب الرهيب لمدى سنين طويلة لم يكن ليرى لها نهاية ، وقد كان هذا تعذيباً رهيباً بالنسبة له ، تعذيباً ضاعف منه أن ثروته كانت فى ازدياد متواصل ، ولم يخفف منه الأمل بأن ثروته سيتمتع بها مخلوق عزيز عليه .

كان هذا هو مركز والد الطفلة آنا بيتر الذى استولى يأس مقبض على نفسيته وأخذ طبعه يتحول شيئاً فشيئاً إلى الحدة عندما كان يقع بصره على هذا المشهد الأليم ، الذى لاينتهى إلا بنهاية ابنته بعد أجل لا يعلمه إلا الله . وقد كان للأسرة صديق عرف الطريق إلى الروحية وقد ارتأى أن يستجوب روحه الحارس فى هذا الشأن ، فجاءه الجواب الآتى : —

« إنى أرغب جيداً فى أعطيك تفسيراً لهذه الظاهرة الغريبة التى تقع الآن تحت بصرك ، لأنى أعلم أنك عندما تطلب منى تفسيراً لها لا تطلبه على الإطلاق مدفوعاً بحب استطلاع فى غير موضعه ، بل للفائدة التى ستخرج بها من هذا التفسير ، بالنظر إلى ما تعتقده فى عدالة الله ، هذه الفائدة التى تقتضى ممن يشاء الله أن يجربهم أن يحنوا له الجباه بدلا من السخط والتذمر ، لأن الله لا يجرب أبداً بغير ما داعٍ .

إن الطفلة الصغيرة البائسة التى شاءت إرادة الله القدير أن تؤجل تنفيذ حكم الموت عليها ينبغى أن تعود قريباً بيننا ، لأن الله قد عطف عليها ، أما والدها — هذا البائس بين الرجال — فقد كان ينبغى أن يجرَّب فى موضع عاطفته الوحيدة فى الحياة ، لأنه عبث بقلوب أولئك الذين يحيطون به وبثقتهم . وذات لحظة وصلت توبته إلى سمع العلى ، فرفع الموت سيفه من على هذه الرأس العزيزة عليه ، ولكن التذمر عاوده ثانية ، والعقاب يلحق التذمر دائماً ، فطوبى لمن يعاقبون على هذه الأرض ، وصلوا يا أصدقائى لهذه الطفلة البائسة ، فطفولتها تجعل لحظاتها الأخيرة قاسية ، وماء الحياة يجرى غزيراً

فى عروقها رغم إعيائها ، إلى حد أن انفصال روحها لن يكون أمراً سهلا . فصلوا لأجلها ، وستساعدكم فيما بعد ، وستعزيكم بنفسها لأن روحها أسمى من روح أولئك الأشخاص المحيطين بها .

وبسماح من الله أمكننى أن أجيب على سؤالك، لأنه ينبغى لهذه الروح أن تتلق المساعدة حتى يكون انطلاق روحها أكثر يسراً لها» .

ثم توفيت الطفلة، وتوفى والدها ، بعد أن قاسى من الفراغ ومن الوحدة بعدفقد ابنته ، وها هى رسائل تلقيناها من الابنة ، ثم من الأب بعد انتقاله:

من الابنة(١)

« شكراً ياصديق لأنه اهتممت بالطفلة البائسة ، ولأنك أصغيت إلى نصائح مرشدك الطيب . نعم فبفضل صلواتكم أمكننى أن أغادر غلافى الأرضى بطريقة أكثر سهولة لأن أبى بدلا من الصلاة ، كان ساخطاً ، ومع ذلك فأنا لا ألومه لأنه فعل ذلك بدافع من حبه العظيم لى ، فأسأل الله أن ينعم عليه بنعمة النور قبل أن يموت ، وإنى أنبهه وأشجعه ، ورسالتى هى أن أخفف وقع لحظاته الأخيرة. ويبدو أحياناً أن بصيصاً من الضوء المقدس قد وصل إليه . ولكن هذا بصيص عابر، إذ لا يلبث أن يسقط من جديد فى وهدة أفكاره الأولى . ولا توجد بداخله إلا نواة من ضمير خنقتها مصالح الدنيا ، ولن تنمو إلا فى ظل محن جديدة أشد مرارة ، وذلك هو ما أخشاه كثيراً من جانبى .

أما بالنسبة لى فلم تكن أمامى سوى بقية من تكفير كان على أن أتحملها، فلم تكن محنتى مؤلمة جداً ولا صعبة جداً . وفى مرضى العجيب لم أكن أتألم وكنت بالأكثر أداة تجربة لوالدى ، لأنه كان يتألم من رؤيتى على هذه الحالة أكثر مما كنت أتألم أنا نفسى ، فقد كنت مستسلمة ولم يكن هو كذلك. والآن تلقيت الثواب ، وقد أنعم الله على باختزال مدة إقامتى فى الأرض وأشكره

(١) رسالتها هذه كانت قبل وفاة والدها .

على ذلك ، فإنى سعيدة بين الأرواح الطيبة التى تحيط بى ، ونقوم بمشاغلنا فرحين ، فالخمول تعذيب قاس .

حديث مع الأب

س : (بعد شهر تقريباً من موته) إننا نرمى من وراء دعوتك إلى أن نستفهم عن مركزك فىعالم الأرواح عسانا أن نكون مفيدين لك ، إذا كان ذلك بمقدورنا .

ج : عالم الأرواح ! إنى لا أراه ، ولا أرى سوى الأشخاص الذين عرفتهم ، والذين لا يفكر واحد منهم فى ولا يأسف على . وبالعكس يبدو عليهم السرور لأنهم تخلصوا منى .

س : ألا تدرك مركزك جيداً ؟

ج : تماماً . اعتقدت فى وقت ما أنى لا أزال فى عالمكم ، ولكنى أعلم الآن جيدا أنى لم أعد فيه بعد .

س : كيف يتأتى إذاً أنك لا ترى أرواحاً أخرى من حولك ؟

ج : إنى أجهل الإجابة رغم أن كل شىء واضح من حولى .

س : ألم تشاهد بعد ابنتك ؟

ج : كلا ، لقد توفيت ، وإنى أبحث عنها وأناديها بغير جدوى ، فأى فراغ رهيب سببته لى وفاتها على الأرض ، وعندما كنت أحتضر كنت أقول لنفسى إنى سألقاها من جديد بغير ريب ، ولكن لا شىء ، ودائماً الوحدة من حولى ، ولا أحد يوجه إلى عبارة عزاء ولا رجاء ، فوداعاً لأنى ذاهب للبحث عن ابنتى .

بيانه من الروح المرشدة للوسيط

« هذا الرجل لم يكن ملحداً ، ولا مادياً ، ولكنه من أولئك الذين يؤمنون إيماناً غامضاً ، بغير أن يشغلوا أنفسهم بالله ولا بالمستقبل ،

ويحيون غارقين فى المصالح الدنيوية . وكان أنانياً عميقاً ، وما كان ليتأخر بغير شك عن تضحية كل شىء فى سبيل إنقاذ ابنته ، ولكنه ما كان ليتأخر أيضاً عن تضحية كل مصالح الآخرين — بغير تأنيب — فى سبيل تحقيق مصلحته الذاتية .

فبعيداً عن ابنته ، لم يكن لديه ولاء لأى إنسان . وقد عاقبه الله كما تعلمون بأن انتزع منه عزاءه الوحيد على الأرض ، ولما لم يرتدع انتزع منه هذا العزاء حتى فى عالم الأرواح . ولم يكن يعنى بأى إنسان على الأرض فلذلك لا يعنى به أى إنسان هنا ، فهو وحيد مهجور ، وذلك هو عقابه . ومع ذلك فإن ابنته موجودة بالقرب منه ولكنه لا يراها ، لأنه لو كان يراها ، لأفلت من العقاب وماذا يصنع هو؟ هل يتوجه إلى الله ؟ هل يتوب؟ كلا إنه يتمتم دائماً بل يجدف ، وفى كلمة يفعل نفس ما كان يفعله على الأرض . فساعدوه بالصلاة وبالإرشاد على الخروج من عميه » .

(ع) مع جوزيف ميتر Joseph Maitre

كان جوزيف ميتر ينتمى إلى الطبقة المتوسطة فى المجتمع وكان على درجة متواضعة من اليسر ، وقد منحه والداه تعليماً طيباً ، وكانا يعدانه لحياة الصناعة ، ولكنه فقد الإبصار تماماً فى العشرين من عمره ، ثم أصيب بعاهة أخرى إذ فقد السمع تماماً أيضاً منذ عشر سنوات تقريباً قبل وفاته ، إلى حد أن صلاته بالآخرين لم تكن لتجرى إلا عن طريق الملامسة . وكان فقد البصر مؤلماً له ، أما فقد السمع فقد كان تعذيباً رهيباً . وفى باريس طلبنا روحه بناء على اقتراح من شخص كان يعرفه ، وكان يعتقد أن الحديث مع روحه قد يعطينا بعض إرشادات مفيدة ، وهذه هى رسالته التى ترجع إلى سنة ١٨٦٣ : —

« إنى أشكركم يا أصدقائى لأنكم تذكرتمونى ، ورغم أنكم ربما اعتقدتم أن اتصالى بكم سيفيدكم بوجه ما ، إلا أنى أعلم أن هناك دافعاً أهم من ذلك

يدفعكم إليه ، ولذا استجبت مسروراً لندائكم ، طالما أن هناك من يريد السماح لى بذلك ، وسعيداً لأن أتمكن من أن أخدمكم فى تثقيفكم . ولعل حياتى تعطيكم دليلا يضاف إلى الأدلة العديدة التى تعطيكم إياها الأرواح عن عدالة الله .

لقد عرفتمونى كفيفاً أصم ، وتساءلتم ما الذى فعلته كيما أستحق مصيراً مؤلماً كهذا؟ وسأذكر لكم السبب . واعلموا ابتداء أن هذه هى ثانى مرة حرمت فيها من نعمة البصر . فى وجودى الأرضى السابق الذى حدث فى مبدأ القرن الماضى ، كنت قد أصبحت كفيفاً فى الثلاثين من عمرى بسبب الانهماك فى الملذات ـ بكل صورها ـ الذى دمر صحتى وأضعف أعضائى ، وكان ذلك عقاباً لى لأنى أسأت استخدام النعم التى تلقيتها من العناية الإلهية التى وهبتنى الكثير منها .

ولكنى بدلا من أن أقر بأنى كنت السبب الأول لعاهتى ، لقد حملت تبعتها على العناية الإلهية التى لم أكن أؤمن بها فى النهاية إلا قليلا . أى جدفت نحو الله الذى كنت أنكره ، وكنت أقول لو أن الله كان موجوداً لكان ظالماً شريراً لأنه يؤلم خليقته على هذا النحو ، حين كان ينبغى أن أشعر بأنى سعيد ـ على العكس من ذلك ـ لأنه لم يكن على أن أتسول مثل الكثيرين من البؤساء العميان المضطرين لأن يستجدوا خبزهم . ولكنى لم أكن أفكر إلا فى نفسى ، وفيما فرض على من حرمان من متع .

وتحت سلطان هذه الأفكار وعدم إيمانى أصبحت شرساً ، كثير المطالب ، وفى كلمة ، لا أطاق بالنسبة للمحيطين بى . وأصبحت حياتى منذ ذلك الحين بلا هدف ، ولم أعد أفكر فى المستقبل الذى بدأت فى التطلع إليه كسراب . وبعد أن استنفدت كل السبل العلمية لعلاجى ووجدت أن شفائى أمر مستحيل ، عزمت على التخلص من الحياة سريعاً فانتحرت .

وعندما استيقظت وجدت نفسى غريقاً للأسف فى نفس الظلمات التى عرفتها فى حياتى . ومع ذلك فما لبثت أن أدركت أنى لم أعد أنتمى إلى العالم

المادى ، ولكنى كنت روحاً عمياء . فالحياة بعد القبر أصبحت إذاً حقيقة، وكانت محاولتى للتخلص من الحياة والذهاب إلى العدم محاولة يائسة وتعثرت فى الفراغ ، وإذا كانت هذه الحياة الروحية خالدة ، طبقاً لما كان يقال فقد كان على إذاً أن أظل للأبد على هذه الحالة . وكانت هذه الفكرة رهيبة ، ومن المحال أن أصف لكم ما كنت فيه من عذاب ومن ضيق ، وكم طال ذلك ؟ لا أدرى ، ولكن بدا لى هذا الوقت طويلا .

وبعد أن أنهكت وأجهدت رجعت إلى نفسى فأدركت أن هناك قوة عليا تثقل كاهلى ، وقلت لنفسى إذا كان بمقدور هذه القوة ذلك فإن بمقدورها أيضاً أن تخفف عنى فتوسلت إلى عطفها . وبقدر ما كنت أصلى بحرارة متزايدة بقدر ما كان هناك هاتف ما يقول لى إن هذا المركز التعيس ستكون له نهاية ، وأخيراً حل النور وكانت سعادتى القصوى عندما أبصرت أضواء السماء ، وبدأت أميز الأرواح التى كانت تحيط بى باسمة بحنان ، والتى كانت تحلق مشرقة فى الفضاء ، وكنت أريد أن أقتفى خطاها ، ولكن قوة غير منظورة كانت تمنعنى .

وعندئذ قالت لى إحداها « إن الله الذى كنت تنكره قدر رجوعك إليه وسمح لنا أن نعيد النور إليك ، ولكنك لم تتراجع إلا بطريق الإرغام والإجهاد . وإذا كنت تريد فى المستقبل أن تشارك فى السعادة التى يتمتعون بها هنا ، فينبغى أن تثبت إخلاصك فى توبتك ، وطيبة مشاعرك بأن تبدأ من جديد محنتك الأرضية فى ظروف ستكون معرضاً فيها للوقوع فى نفس الأخطاء السابقة لأن هذه المحنة الجديدة ستكون أقسى عليك من الأولى » ، وقد قبلت على الفور وارتبطت مع نفسى بألا أفشل فى هذه المرة . وهكذا عدت إلى الأرض فى الوجود الذى تعرفونه .

ولم أجد مشقة فى أن أكون طيباً ، لأنى لم أكن شريراً بطبيعتى ، لقد ثرت على الله وقد عاقبنى ، وعدت إلى الأرض مزوداً بالإيمان الفطرى . ولذلك لم أعد أتمتم بالشكوى ضده ، وقبلت عاهتى مستسلماً ، بوصفهما

تكفيراً يستمد مصدره من عدالة السماء . والوحدة التي كنت فيها في سنواتي الأخيرة لم يكن فيها ما يدعوني لليأس إذ كنت واثقاً في المستقبل وفي رحمة الله . بل كانت الوحدة مفيدة لي ، لأني في ذلك الليل الطويل ، حيث كان كل شيء ساكناً ، كانت روحي — بعد أن أصبحت أكثر تحرراً — تتجه صوب الخلود وترى عن طريق البصيرة العالم اللانهائي . وعندما أزفت نهاية منفاي على الأرض قدم إلى عالم الأرواح روائع ومتعاً لا تمحى .

والمقارنة بالماضي تجعلني أرى مركزي سعيداً جداً نسبياً ، والشكر لله ، ولكني عندما أتطلع إلى الأمام ، أرى كم لا أزال بعيداً عن النعيم الكامل . لقد كفَّرت عن أخطائي ، ولكن يلزمني الآن أن أصلح نفسي . ولم يكن وجودي الأخير مفيداً إلا لي أنا وحدي ، وأرجو قريباً أن أبدأ وجودا جديداً أكون فيه مفيداً للآخرين ، وسيكون في ذلك إصلاح عدم جدواي فيما مضى ، وعندئذ فقط سأتقدم في الطريق المبارك المفتوح لجميع الأرواح ذات النوايا الطيبة .

ها هي قصتي ، أيها الأصدقاء ، وإذا كان بمقدورها أن تنير السبيل أمام بعض إخواني الذين في الجسد وتجنبهم الوحل الذي سقطت فيه ، فسأكون بذلك قد بدأت في سداد ديني» .

خاتمـــة

هذه بعض نماذج اخترناها لتوضيح المبادىء العامة في الثواب والعقاب . وأقل ما قد يقال في هذه المبادىء ، وفي النماذج التي شرحتها ، أنه ليس فيها شيء يعجز العقل عن تصوره أو عن إدراك احتماله . بل بالعكس إنها تحمل الإنسان حتماً على أن يتعقل الثواب والعقاب على أسس جديدة منطقية كتلك الأسس التي يعرفها المحلل النفساني عندما يتقصى الأسباب - الواعية وغير الواعية - لآلام مريضه النفسية . أو كتلك الأسس التي يؤمن بها علم الأخلاق Ethics عندما يقدر أن لكل فضيلة ثوابها المحتوم ، وكذلك

لكل رذيلة عقابها طبقاً لناموس ارتباط العلة بالمعلول دون ما حاجة إلى حكم ينطق به قاض من البشر أياً كان مستواه ، فالقوانين الطبيعية تعرف كيف تطبق نفسها بنفسها سواء أكانت قوانين للروح أم للمادة ، وسواء أعرفنا هذه القوانين أم جهلناها كلها أو بعضها ، وسواء أرضينا بها ، أم لم نرضَ وبدا لنا أن من الجائز التنكر لها ومقاومتها .

والمنطق المتماسك الذى يبرز فى هذه الدراسات ما كان يكفى بمفرده لإقناع المتشكك أو المنكر ، حتى إذا أضيف إليه نوع الأشخاص الذين قاموا بها ، والظروف التى تمت فيها ، وانتفاء كل مصلحة لهم فيها ، بل وتعارضها مع جميع آرائهم السابقة فى هذا الشأن .

ولكن إذا روعى أيضاً أن الدراسات التى تمت عن نفس الموضوع فى بيئات علمية أخرى فى شتى البلاد أدت إلى نفس النتائج وإلى نفس القواعد التى انتهى إليها آلان كاردك وصحبه فى فرنسا ، اتبين إلى أى مدى تتعذر الآن المكابرة فى صحة هذه النتائج ورفضها جملة باعتبار أنها وهم أو خرافة ، أو نحو ذلك من الألفاظ التى قد يلقيها الجاهل بهذه الأمور جزافاً بغير ما بحث ولا تجريب ، ولا أية حجة مقبولة تسند هذا الإنكار بالجملة لوقائع محددة ، مبينة بأمكنتها وبتواريخها وأشخاصها وتفاصيلها وشهودها وأدلتها ودلالاتها ، وموضحة بمقدماتها ونتائجها الفلسفية التى لا يعوزها التساند ولا الترابط المطلوبان .

ثم إذا روعى كذلك أن هذه النتائج ليست مترابطة فيما بينها فحسب ، بل مترابطة بنفس القوة مع نتائج فلسفية أخرى عديدة وصلت إليها الروحية التجريبية فى موضوعات مكملة لموضوع الثواب والعقاب ، لتبين تماماً أننا لا يمكن أن نكون إزاء خيال أو وهم ، بل إزاء بنيان علمى مرصوص يشد بعضه بعضاً . فالمنطق السليم يأبى إباء تاماً أن يكون الأمر — على هذا الوضع — غير ذلك .

وهذه النتائج مترابطة أيضاً مع الشعور الأصيل فى نفس الإنسان بوجود قوانين عادلة موضوعية للأخلاق تحكم الكون جنباً إلى جنب مع

قوانين المادة . فما دام التلازم محتوماً بين العقل والمادة فى هذا الكون — على ما بيناه فى مناسبة سابقة — فهو محتوم بالتالى بين قوانين العقل فيه — أو إن شئت الروح — وبين قوانين المادة .

وهذه القوانين الطبيعية تثيب الناس — تلقائياً — وتعاقبهم على أخلاقهم — لا على مجرد أفعالهم — بغير خشية إفراط ولا تفريط ، لأنها تعرف خلجات النفس وسكناتها ، كما تعرف ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، فهى لا تحابى نفساً ولا تظلم أخرى .

وهى تلهم النفوس الرشاد وترشد البصائر إلى الصواب ، وتدفع عجلة التطور التدريجى للأمام فى عقول الناس وأخلاقهم ، وتأخذ بيدهم فى طريق صلاح أمرهم ، ولو عن طريق الألم الحكيم ينزل بهم لغسل ذنوبهم ، وهداية قلوبهم إلى سواء السبيل ، عند يتنكرون لها أو يحيدون عنها بدافع من نقص أخلاقهم وقصور مداركهم .

والإيمان بوجود هذه القوانين الطبيعية العادلة مكمل محتوم للإيمان بالله تعالى مصدر كل عدالة ، كما هو مكمل محتوم للإيمان بقيمة الضمير فى تعرف سبيله إلى نواميس الأخلاق الطبيعية هذه التى أجمعت عليها العقائد والفلسفات الراقية . والتى أصبح من رسالة علم الروح الحديث أن يحاول إزاحة النقاب عن بعضها تدريجياً ، وأن يلقى عليها أضواءه لتنير جوانب أخرى لهذه المشكلات العميقة ، إلى جانب الأضواء السابقة التى جاءتها من شتى مصادر الاعتقاد والفلسفة .

وسيزداد هذا الأمر وضوحاً عندما نعالج فى الباب المقبل بعض هذه المشكلات العويصة التى ألقى عليها علم الروح الحديث هذه الأضواء الجديدة ، وبخاصة تلك المتعلقة بتعزيز الإيمان بالله تعالى وبالخلود ، وبالناموس الخلقى وتعزيز دور الضمير ، وذلك بالإضافة إلى توضيح رسالة الموت والألم ، كما يقدم نظريات واقعية فى هذه الأمور تساند نظريته فى الثواب والعقاب وتستند إليها .

الباب الرابع

بعض المشكلات الفلسفية
فى ضوء علم الروح الحديث

تمهيد

عالجنا فى الباب السابق موضوع « الثواب والعقاب » الذى يمثل أخطر مشكلة فلسفية قدم فيها علم الروح الحديث نظرية واقعية جديدة جاءت مؤيدة تماماً لما وصل إليه الإنسان بفطرته منذ القدم من أن لكل فضيلة — فى ناموس الطبيعة — ثوابها، ولكل رذيلة عقابها .

وفى الباب الحالى نبين كيف أن هذا العلم قد أتى أضواء جديدة على مشكلات فلسفية أخرى ووصل فيها إلى حلول وضعية ـ متفقة فى جملتها ـ مع ما تسعى إليه العقائد كافة من تدعيم الإيمان المستنير بالله تعالى ، وبناموسه الخلق الحكيم ، ومن تعزيز دور الضمير فى توجيه تصرفات النفس إلى مافيه خيرها وصلاح أمرها . وذلك بالإضافة إلى مساهمته فى تبيان رسالة الموت الذى تدركه حواسنا فناء حين يدركه ناموس الطبيعة بقاء ، ومعها رسالة الألم الذى تدركه حواسنا عناء حين يدركه ناموس الطبيعة ارتقاء . . .

وهذه الأضواء الجديدة على الموضوعات التى بيناها قد تتطلب فى شرحها مؤلفات برمتها تعد جزءاً من فلسفة الروحية لا من بحوثها العملية . ولما كنا نهدف إلى أن نقدم إلى القارىء فى المؤلف الحالى عرضاً شاملا لكافة الجوانب العامة لهذا العلم الروحى، بما فى ذلك أهم جوانبه الفلسفية، لذا نرى أن نتعرض بشىء من الأناة لهذه المشكلات هنا فى فصول ثلاثة كالآتى : —

الفصل الأول : عنوانه « فى الإيمان بالله وبالخلود » .

والفصل الثانى : عنوانه « فى الخلق والضمير » .

والفصل الثالث : عنوانه « فى الموت والألم » .

الفصل الأول
فى الإيمان بالله وبالخلود

كان الإيمان الوطيد بالخالق وبالخلود هو طابع الفلسفة العريقة فى العالم بالأمل منذ عهد الإغريق إلى عهد الثورة الفرنسية، وقد ساد هذا الطابع فلسفة العصور الأولى والوسطى فى أوروبا كما ساد فى غيرها ، لأن الله كما يقول ديكارت Descartes الفيلسوف العظيم (١٥٩٦ - ١٦٥٠) فى رسالته إلى صديقه شانو فى أول فبراير سنة ١٦٤٧ .. هو خيرنا الأسمى لو عرفنا قدرته اللامتناهية التى تتمثل فى خلقنا وخلق العالم ، وتأملنا كمال معرفته التى يرى بها الأحداث الحاضرة والماضية والمستقبلة، ثم ضرورة أحكامه ، ثم ضعفنا وصغر شأننا بالنسبة إلى عظمة العالم المخلوق .

ويملأ هذا التأمل صاحبه بفرح عظيم لا يريد بعده الإنسان إلا الامتثال لأمر الله ، فلا يخشى مرضاً أو ألماً أو ضعة أو الموت ذاته ، ما دام واحد من هذه الأشياء لا يتم إلا بأمر الله . والإنسان العارف يجل ذلك الأمر الإلهى ويحبه إلى أحدأنه حتى لو أتيح له تغيير الأمر لرفض ذلك . ولاشك فى أن هذا الفرح الذى يملأ نفس المتأمل قد لايشبه فرح الانفعالات شبهاً كبيراً ، فهو فرح خالص يملأ النفس حباً صافياً عقلياً لله تعالى .

ولكن هذا الفرح لقيامه فى الحياة الإنسانية قد يصحب أيضاً الفرح الانفعالى ذاته ، وذلك عندما يعرف الإنسان أنه جزء من العالم العظيم الذى خلقه الله ورعاه بعنايته، وأنه رغم صغر مقامه وقلة شأنه متحد بذلك العالم الهائل ، إنه يشعر عندئذ بفرح عظيم . هذا هو الخير الأسمى الذى تتحقق لنا فيه الفضيلة والسعادة . هذا هو الخير الأسمى الذى تؤدى إليه سيادة

النفس على رغباتها ومعرفتها للأحداث فى ضرورتها ، وفى توقفها على العناية الإلهية . . . »[1].

وقد أرجع ديكارت إلى الله المادة ، كما أرجع إليه القوانين الطبيعية مميزاً بين المادة والروح وموزعاً الطبيعة إلى مملكتين: مملكة للمادة وأخرى للروح . وكان ديكارت فى ذلك يمثل أسلوب عصره فى النظر إلى الأمور ، فلم يكن الإيمان الراسخ بالله وبالروح المتميزة عن المادة من صنعه ، لكنه صنع لنفسه الإيمان عن طريق لم يسبقه إليه أحد ، وهو طريق التساؤل المستمر ، أو بالأدق طريق الإنكار المبدئى ، والمنطق الناقد لكل ما يخضع لحكم الحواس ، ولكل ما يصل إلى العقل من معلومات سابقة .

فالإنكار عند ديكارت هو طريق الإيمان ، والشك هو طريق المعرفة . وهذا هو ما يميز إيمان ديكارت بالله وبالروح وبالخلود عن إيمان غيره . فإيمانه إيمان العقل الناقد ، وإيمان المنطق المدعم بأسانيده ، والذى يختلف تماماً عن إيمان الشعور الصرف ، أو التسليم الأعمى ، أو الانقياد السهل لإيمان الآخرين ، والذى لو تأملناه لما وجدنا فيه من فضل يذكر ، ولا من فضيلة خاصة . وكان ديكارت بذلك لا يمجد فحسب الإيمان عن طريق العقل ، بل يمجد أيضاً العقل الذى ينبغى أن يصل إلى الإيمان عن طريق التفكير المتأمل ، والمتحرر تماماً من ترهات الزمان والمكان .

وهذه هى نفس الطريقة التى استحوذت على ألباب فلاسفة كثيرين غيره من أمثال بوسويه Boussuet وفنيلون Fénélon ومالبرانش Malebranche وسبينوزا Spinosa ، وغيرهم ممن قدموا فلسفات باقية على الزمن تقوم فى جوهرها على نفس أسس الشك التحليلى الناقد الذى ابتدعه ديكارت ، والذى بلغت به الروح الفرنسية مالم تبلغه من قبل من مزايا

---

(١) عن « ديكارت » للدكتور نجيب بلدى سنة ١٩٥٩ ص ١٦٣ ، ١٦٤ .

الوضوح مع الشك ، والربط المنطقى بين المقدمات ونتائجها ، ورفض الاقتناع بما لا يستقيم من نتائج مع مقدمات واضحة محددة .

بل إن فلسفة ديكارت استحوذت فى الواقع على تيار التفكير العلمى فى الغرب استحواذاً لم تصل إليه من قبل إلا فلسفة أرسطو، ومن بعده إلا فلسفة برجسون ، فكان لها أحسن الأثر فى توجيه الأساليب العلمية نحو فتوحاتها الضخمة عن طريق الشك الناقد للأمور ، حتى كادت هذه الأساليب أن تصبح كما أراد لها ديكارت محض تحليل ناقد ، وشك قد ينتهى إلى الإيمان ، وإنكار قد يؤدى إلى المعرفة .

وهذه الأساليب هى التى وجهت علوم المادة كما وجهت علوم الحياة فوجهت بالتالى — إلى آخر مدى — بحوث علم الروح الحديث ، فإن جميع بحوثه التى تستحق الذكر ، والتى يصح أن يطلق عليها « بحوث علمية » بدأت بالإنكار التام ، ثم مرت بمرحلة الشك ، ثم انتهت إلى مرحلة الاقتناع . وإذا كانت بحوث المادة الخاضعة للحواس بدأت بالإنكار فما بالك ببحوث تطوى ما لا يخضع للحواس إلا فى ظروف معينة وبقدر معلوم ؟!

وإذا كان الإنكار حقاً مشروعاً عند ديكارت لكل عقل يفكر ، فما بالك به عند فلاسفة كبار وعباقرة مرموقين قدموا لقضايا العلم أجل الخدمات ؟ وما بالك به فى عصر كانت قد استقرت فيه فى أذهان العلماء عقيدة ثابتة عن آلية الكون ، ومادية الإنسان ، وفناء الحياة بالموت ، وكان ذلك بسبب انتشار المدارس المادية فى تعليل الحياة والتى كانت الطابع المميز للحركة العلمية ، منذ الثورة الفرنسية (سنة ١٧٨٩) إلى منتصف القرن التاسع عشر ، بل إلى أواخره . يستوى فى ذلك الفلك مع الفيزياء مع السيكولوجيا مع البيولوجيا مع غيرها، حتى طغت هذه المدارس العلمية على فلسفة الفلاسفة السابقين فحجبتها تماماً أو كادت بغيوم صناعية كثيفة .

فنظريات الفلك كانت تسند حركة الكواكب والنجوم إلى طبيعتها

الآلية لا غير ، ونظريات الفيزياء كانت تفترض أن الذرة لا تقبل التجزئة وأنها نهاية المادة ، كما أن المادة هي بداءة الحياة لأنها قادرة بذاتها على خلق الحياة . وكانت نظريات علم النفس لا تعترف بقوة أخرى خارج قوة المخ والحواس الفيزيقية للإنسان . وأقامت البيولوجيا على أيدى فلاسفة وعلماء كبار مثل لامارك وسبنسر ومن بعدهما داروين نظريات للتطور على أسس مادية لا محل فيها لأية قوة روحية . بل لقد ساد الاعتقاد فى وقت من الأوقات أن هذه النظرية قضت نهائياً على « خرافة » العقل الخالق ودوام الحياة بعد الموت .

فى عمد مدارس المادة

إلا أن عمد هذه النظريات المادية فى تعليل الحياة قد تداعت تدريجياً تحت وطأة الضربات الشديدة التى وجهتها إليها معاول شكوك هذا الإنسان الجديد ، بفضل تقدم العلوم فى شتى مناحيها وكان ذلك بوجه خاص فى نطاق الرياضة ، والفيزياء ، والبيولوجيا والبحوث الروحية التى جرت فى عدد من البـــلاد تحت أسماء شتى : منها العلم الروحى ، وما وراء الروحى ، والباراسيكولوجى ، وذلك على الإجمال الآتى : —

أولا : فبالنسبة لتقدم الرياضة ، فإن الاعتقاد الذى كان سائداً فى تعليل الحياة هو تعليلها « بالمصادفة » أو بالأدق تعليلها بأن انفجاراً غامضاً قد حدث منذ ملايين السنين فى مكان ما من الكون ، فولدت هذه المصادفة غير العاقلة قوانين عاقلة للحياة وللوعى . أما الآن فقد أثبتت الرياضة الحديثة أن المصادفة تخضع بدورها لقوانين رياضية تنفى تماماً قدرتها على خلق هذا العدد الهائل من النواميس المتكاملة المترابطة ، ومن الحقائق التى تلزم مجتمعة لنشوء الحياة وللمحافظة عليها ، سواء فى صورتها الحية أم النباتية أم الجمادية .

فالمصادفة — التى هى من معدن الفوضى — أصبحت فى حقائق الرياضة الحديثة لا تصلح لتفسير نشوء الحياة ولا للمحافظة عليها . خصوصاً بعد أن ظهر كتاب الطبيعة أكثر عمقاً وإحكاماً بمراحل كثيرة من أى كتاب خطته

يد أعلم العلماء وأعظم الرياضيين ، يستوى فى ذلك كتاب الفلك مع كتاب الكائنات الحية مع كتاب الحياة النباتية . بل حتى مع كتاب المادة الصلبة التى تبين أنها تمثل فى تكوين بروتوناتها وإلكتروناتها إحكاماً فلكياً ورياضياً يذهل الألباب ، حتى إن الذرة الواحدة أصبحت ـ على ضآلتها المتناهية ـ تمثل مجموعة شمسية كاملة، فيها كل الإعجاز الذى تمثله أية مجموعة شمسية ، مهما تفاوتت النسب والأبعاد بين المجموعتين . فنشوء الحياة من انفجار قد حدث فى مكان ما من الكون أصبح أبعد احتمالا الآن من نشوء كتاب بالغ الروعة والإحكام من انفجار قد يحدث فى مطبعة ما ، على ما عبر بعض المعبرين .

ثانياً . وبالنسبة لتقدم الفيزياء فقد كانت النظرية القديمة عن المادة الصلبة أنها تحوى كل خصائص الحياة وأنها قادرة بذاتها على خلق الحياة ، وكانت قدرة المادة تمثل فى مدارس القرن الماضى إيماناً يصل عندها إلى حد البداهة التى لا تحتاج إلى إثبات . وقد ظلت مدارس الإنكار تغذى هذا الإيمان بقدرة المادة وتتغذى به حتى أصبح الأمر بمثابة حلقة مفرغة بين مدارس العلم المادى ومدارس الإنكار، سرعان ما وجهت «مبادىء» العلم حتى استحوذت عليه الاستحواذ الذى لا يعالى بشىء قدر طفولة المعرفة ، وإيمان الإنسان المطلق بذكائه ، فضلا عن ثقته التامة فى كفاية حواسه للإنباء عن جميع حقائق الحياة .

إلا أن الكشف الحديث عن طبيعة المادة الصلبة بوصفها مجرد أثير فى رتبة اهتزاز معينة نفى عنها نهائياً قدرتها على خلق الحياة والمحافظة عليها . فبعد أن كانت المادة تصلح لتعليل الحياة أصبحت هى نفسها بحاجة إلى التعليل وأصبح أقرب تعليل علمى للمادة هو تعليلها بالحياة ، وهكذا انقلبت قضية التعليل رأساً على عقب وأصبح السبب نتيجة والنتيجة سبباً ...

أو بعبارة أخرى لقد تبين أن المادة لا تصلح لتعليل أى قانون من قوانين الحياة لأنها ليست أكثر من طاقة محبوسة . ولأن كل ذرة من ذرات

المادة تمثل رغم ضآلتها المفرطة فى مجموع إلكتروناتها وبروتوناتها بمجموعة شمسية كاملة متحركة لا يعوزها شىء ولا تختلف عن أية مجموعة شمسية يعرفها علم الفلك ، إلا من ناحيتى الأحجام والأبعاد ، فمن هو ياترى ذلك الذى حبس ذرات المادة طبقاً لهذا النظام البديع الذى يحير العقول ؟ ومتى وكيف جرى ذلك ... هذا هو الوضع العلمى الآن لسؤال تعليل المادة . وإذا كان ثمت جواب ، فلن يكون إلا أن الحياة تعلل المادة ، أما المادة فلا تعلل الحياة ، بعد أن ثبت عجزها وقصورها حتى عن أن تعلل نفسها .

وإذا قلنا إن الحياة تعلل المادة ، فإنما نقصد الروح لأنها علة كل حياة فهى بالتالى علة كل مادة . ونقصد بالروح فى — النهاية — العقل الذى يتفاعل دوماً مع الكترونات المادة وبروتوناتها ، والتى تتمثل — ابتداء — فى الجسم المادى على المستوى المادى وفى الجسم الأثيرى على المستوى الأثيرى . بل لقد تبين أن كل ذرة من ذرات هذا الكون تملك درجة من الذكاء الفطرى تمكنها من أن تعمل مايعجز العقل البشرى أن يتفهم أسلوبه ووسائله وغاياته فى الحيوان والنبات والجماد على حد سواء ، حتى لقد أصبح الجسم الأثيرى فيما يبدو من خصائص كل جسم مادى بحسب رأى بعض العلماء مثل إدنجتون A. Eddington على ما بيناه آنفاً ، لأنه هو الذى يمسك ذرات المادة أى بروتوناتها وإلكتروناتها[1]، أما العقل فهو خاصية قد ميز الله بها الإنسان دون غيره من الكائنات الحية والجامدة . فهو مصدر ذاته الناطقة الواعية ، وهو جزء من الشعلة القدسية التى تصله بجوهر الحياة الكونية .

ثالثاً : أما من ناحية تقدم البيولوجيا (علم الأحياء) ، فقد كانت مبادىء البيولوجيا تعرف الخلية الحية وتعترف بها ، أما سر الحياة الكامن وراءها فقد ظلت لاتكبد نفسها عناء تعليله إلا بلفظة «الحياة» أى ظلت تعلل الشىء

(١) راجع ما سبق ل ص ٣٤ — ٣٨ .

بالشيء نفسه ، وهو ليس تعليلاً ، بل هروباً من التعليل ، يشبه فى الكثير محاولة الهروب من البحث فيما وراء المادة عند الماديين ، والهروب من التقدم عند الجامدين !

ولكننا نرى غصن شجرة، ونلمسه ، ونعرف أنه يؤدى للشجرة وظائف هامة عاقلة ، خطتها مقدماً طبيعة عاقلة ، ومثله جذع الشجرة ، وجذرها ، وتربتها التى تستمد منها بعض أسباب الحياة ، وما يحيط بالشجرة من هواء ومن ضياء ومن ماء ، فلكل هذه الأشياء وظائف عاقلة محددة مقدماً ، لازمة للحياة فى وجودها وفى نموها وفى ازدهارها وفى ذبولها وفى تطورها . ولكن قوانين المادة عاجزة تماماً عن أن تجيبنا عن تساؤلاتنا الهامة عن سر الحياة ... وهى كيف ؟ ولماذا ؟ وإلامَ ؟ وعلامَ ؟ ... وكيف جاءت الشجرة كلها — بغصنها وجذعها وجذرها — من بذرة ضئيلة الحجم والقيمة كانت تبدو بحسب مظهرها جسيماً ميتاً لا حياة فيه ولا أمل يرجى فى حياة ؟ بل كيف تتحول البذرة الواحدة عن طريق الإنبات إلى بذور كثيرة ؟

ونحن نأكل بيضة دجاجة مكونة من مادة هلامية رخوة ، ولكننا نعلم جيداً أنها لو تعرضت لدفء معين لمدة معينة لتحول ما فيها من مادة رخوة إلى كائن مزوَّد بالحياة ، قابل للنماء ، متكامل الأعضاء ، مختلف تماماً عن المادة الرخوة ، لأنه يبصر ويسمع ، ويصيح ويجرى ، ويتنفس ويشعر ، فيحب ويكره ، ويطمئن ويخاف ، ويرضى ويغضب ، ويجوع ويشبع ، حين لا تفعل ذلك البيضة قبل وضعها فى هذا الدفء العجيب الذى يخرج الحى من الميت والميت من الحى !

بل نحن نسير على التراب فى احتقار تام له ، لفرط كثرته ، لكن هل يقدر العلم الحديث — بكل وسائله ومعداته — أن يصنع ذرة تراب واحدة من العدم ؟ وهل يقدر أن يهب ذرة التراب هذه الطاقة التى تمكنها من أن تؤدى وظائفها فى إنبات النبات ، وبناء جسم الإنسان والحيوان ، ومن أن

تموج بكل أسباب الحياة التى تجعلها تصنع الحياة النامية المتطورة ، بل تصنع الوعى والأخلاق ، حسبما يذهب إليه نفس المذهب المادى فى تعليل الحياة ؟ ومثله إلى حد كبير المذهب الوضعى ؟

وإذا تأملت فى الإنسان وجدت عجباً يفوق ذلك بكثير . فبحسب المذهب المادى مصدر الإنسان « شىء » ضئيل الشأن لا يختلف كثيراً عن ديدان الأرض الصغيرة ، بل هو أضألها إطلاقاً لأنه لا يرى بالعين المجردة . ثم عملية تلقيح ، فانقسام سريع « للخلية الحية » . ولكن هل يعطى هذا القول أى تفسير لما يتمتع به الإنسان من عقل ومن إحساس ، وللمركز الممتاز الذى وضعته فيه الطبيعة ؟ إن هذا القول قد يعطى تعليلا للنمو وللتكاثر ، ولكنه لا يعطى تعليلا للعقـــل المخلوق ، الذى يكمن وراءه بالضرورة عقل خالق .

أما علم الروح فلا يجد فى هذا القول — قول تلقيح البويضة ثم انقسام الخلايا — سوى تعليل مبدئى لصنع الرداء الخارجى الذى يرتديه الإنسان ، وهو جسده المادى . أما « صاحب الرداء » فلا يزال بعد — بغير تعليل . إنه الروح الخالدة السابقة فى الوجود على الرداء ، لأن صاحب الرداء ينبغى أن يوجد أولا ، ثم يبحث عن ردائه فيما بعد .

ولذا اتجهت كافة العقائد كما اتجهت الفلسفة العريقة — من قبل الأديان ومن بعدها — على أن خلق الروح سابق لخلق الجسد ، أو بالأدق أن الله يخلق الروح ثم تصنع الروح رداءها « هنا » و « هناك » . وهى تصنعه أبداً من « مادة » قد تكون ترابية وقد تكون أثيرية ، ولكنها فى النهاية خاضعة للإحساس ولازمة للروح : لاعتقالها بهدف الارتقاء ، وللتعرف عليها فى المستويين المادى والروحى . ولكنها فى النهاية لا غنى عنها ، لأن العقل لازم للمادة ، كما أن المادة لازمة للعقل . وإذا كانت المادة الترابية لا تناسب الروح ، حاملة العقل — عند ما تعود من المستوى الروحى الذى منه جاءت وإليه تعود — فينبغى أن تتخلى عن ردائها الذى جاء بدوره من

التراب وإليه يعود » لأن هذا الفاسد (جسد الإنسان) لابد أن يلبس عدم فساد ، وهذا المائت عدم موت . ومتى لبس هذا الفاسد عدم فساد ولبس هـــذا المائت عدم موت فحينئذ تصير الكلمة المكتوبة ابتلع الموت إلى غلبة »[1].

وهكذا كانت الخلية الحية معتبرة فى الماضى مصدراً للحياة ، أما الآن فإن الاتجاه الصريح فى البيولوجيا هو أن الحياة هى مصدر الخلية الحية لا العكس . لأن الحياة هى وحدها التى تعلل قدرة الخلية على أن توجد أولا ، ثم قدرتها ثانياً على أن تنمو وتتكاثر وتعرف سبيلها إلى انتزاع غذائها من الأرض ومن الماء ومن الهواء — فتصنع لنفسها الرداء — وعلى أن تدافع عن نفسها ضد عوامل الفناء ، وعلى أن تتصرف بحكمة العقل الغريزى فى كل شئونها ، أما لو قيل إنها هى مصدر الحياة لظلت هذه الأمور مسائل معلقة بلا جواب ولا ارتواء !

فالخلية الحية هى مجرد مظهر خارجى للحياة إذاً — وهى ملازمة للروح — وليست مصدراً لها ، كما أن الجسد المادى مظهر للروح ، وليس مصدراً لها ، حتى يقال إن الروح تفنى بفنائه وتبقى ببقائه .

* * *

هذا عن البيولوجيا من زاوية البحث فى الخلية الحية ، وعنها من زاوية البحث فى قانون التطور عن طريق الانتخاب الطبيعى فقد كانت نظرية التطور — بوجه خاص — مؤسسة على أسس مادية صرف . وكان يخيل للعلماء فى وقت من الأوقات أنه لا قيام لها إلا على هذه الأسس . أما الآن فقد أمكن تأسيسها على أسس تعترف بوجود عالم آخر لامادى وراء المظهر المادى للوجود ، وبقوى روحانية وراء التطور تدفعه للأمام ، وتأخذ بيده طبقاً لسنن محكمة لاتمت للمصادفة العمياء بصلة ما، فظهر التطور بذلك أقوى سنداً

---

(١) رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس (١٥ : ٥٣ ، ٥٤) .

وأسمى حكمة ، وأشد وضوحاً ، وأخطر رسالة فى الحياة مما كان فى تصور بعض علماء التطور فى القرن الماضى[1] .

وفى الباب المقبل سنبين كيف أمكن لسير ألفرد رسـل والاس A. R. Wallace — وهو الذى أعلن نظرية التطور مع تشارلس داروين فى سنة ١٨٥٨ — ويعتبر نداً له فى البيولوجيا — أن يتحول — بعد بحوثه فى الروحية التجريبية واقتناعه بها — إلى مؤمن بهذا التطور الخاضع لنواميس روحانية . كما سنبين كيف أقام الفيلسوف العظيم برجسون نظرية « التطور الخالق » évolution creatrice على أسس روحية صرف . وهكذا انتهى عصر « التطور المادى » كيما يبدأ فى القرن الحالى عصر آخر للتطور الروحى الذى لا ينفى خضوع الإنسان لقوانين آلية ، لكنه ينبغى أن يعد بالأقل « آلة روحية » Automate Spirituel بحسب تعبير ولهلم ، وبالتالى ينبغى أن يعد روحاً مسيطرة فيه على عنصره الآلى اللازم لوجوده فى المستوى الحالى للوجود .

رابعاً : ثم جاءت بحوث فى شتى أنحاء العالم ، تحت وصف البحث الروحى Psychical Research وما وراء الروحى La Métapsychyique والباراسيكولوجى ، ونجحت ابتداء فى تحطيم قيمة المخ بوصفه مصدراً للعقل وفى تحطيم الخرافة القديمة التى كانت تتصور أنه لا قيام للعقل بدون المخ ، بعد أن تبين أن العقل يصلح مصدراً للمخ ، كما تصلح الروح مصدراً للمادة ،

---

(١) راجع فى المذاهب الروحية للتطور :

H. Bergson : L'Evolution Créatrice.
G. Geley : De l'Inconscient au Conscient 1919.
Henry Roger : Religion et Rationalisme 1937.
Viggo Cavling : The Collective Spirit 1925.

وله ترجمة انكليزية بمعرفة W. Worster

ومؤلف سير أوليفر لودج عن « التطور والخليقة » (١٩٢٦) .

Evolution And Creation.

ولا يصلح المخ مصدراً للعقل كما لا تصلح المادة مصدراً للروح . وقد أشرنا إلى آراء عدد من أحسن الفلاسفة والعلماء فى هذا المعنى وبخاصة كلودبرنار[1] وبرجسون[2] وريشيه[3] فى فرنسا ، وهانز دريش فى النمسا وراين فى أمريكا[4] ، ويوجد غيرهم الآن علماء كثيرون من أرفعهم مستوى وأعمقهم تفكيراً .

وقد نجحت هذه البحوث فى إثبات ما يترتب على ذلك ، وهو إمكان الإدراك عن غير طريق الأعضاء المادية extra-sensory perception ، أى أن حواس الإنسان غير مرتبطة حتماً بأعضائه المادية ، وأنها أعظم مـــدى بكثير مما كانت تصوره آراء فرويد وغيره من أقطاب المدارس المادية فى السيكولوجيا . وبالتالى نجحت هذه التجارب فى إثبات عدم الارتباط المحتوم بين الوعى والجسد المادى ، وهذا هو كل المطلوب لجعل الحياة بعد الموت حقيقة يقع فيها عبء الإثبات على من ينفيها لا على من يثبتها ، على ما لاحظه برجسون أعظم فلاسفة هذا القرن .

ثم نجحت هذه البحوث فيما هو أكثر من ذلك كله — وأشد خطورة — وهو إمكان إنشاء صلات بين وعى الذين غادروا أجسامهم المادية ووعى الذين لم يغادروها بعد ، وهذه هى رسالة الاسبرتزم الصرف التى احتضنتها أخيراً العلم الروحى الحديث ، وتولت شئونها هيئات علمية جادة أعلنت بكل وضوح وإصرار ، بعد بحوث طويلة شاقة ، مفرطة فى مشقتها ودقتها ، أن الحياة بعد الموت قد ثبتت علمياً عن هذا الطريق . فأصبحت هذه البحوث الآن جزءاً من مناهج الدراسة ، ومن النشاط العلمى فى عدد من أرقى جامعات العالم وأعرقها ، فضلا عن الهيئات العلمية المنتشرة فى كل مكان منذ نصف قرن بالأقل .

(١ — ٣) راجع ماسبق فى الجزء الأول ص ٣٥٢ — ٣٥٧ و٤٣٣ — ٤٣٧ وماسيجىء عن برجسون فى الباب المقبل .

(٤) راجع ما سبق فى الجزء الأول ص ١٧٧ — ١٨٠ .

العلم الحديث يتجه نحو الإيمان بالله وبالخلود

فلا غرابة إذا كان العلم الحديث — فى شتى فروعه — قد أخذبدوره يتجه اتجاهاً واضحاوصريحا منذ أوائل القرن الحالى نحو الإيمان بالله تعالى وبالخلود كحقيقة مقررة يشعر بها القلب قبل العقل ، على مالاحظه الفيلسوف الرياضى بسكال Pascal (Blaise) (١٦٢٣ — ١٦٦٢) .

وأصبح أحسن علماء المادة فى العصر الحالى هم أكثر الناس حديثاً عن الله تعالى وأعمقهم بياناً لحكم آثاره فى الكون ، إلى الحد الذى يصدق عليه قول الأستاذ كريسى موريسون Cressy Morrison — الذى كان رئيساً للمجمع العلمى بنيويورك — بأنه «كلما ازداد ضياء العلم سطوعاً جلا لنا شيئاً فشيئاًعظمة الخالق ، وبذلك صار الإيمان القائم على العلم يدنو بنا رويداً رويداً من معرفة الله »[1].

* * *

وفى هذا الشأن يقول أينشتين Einstein — أبو الرياضة الحديثة — إنه توصل إلى إثبات وجود الله تعالى بالمعادلات الرياضية ، وهو يحسب أن

---

(١) فى كتابه « الإنسان لا يقف وحده » Man Does Not Stand Alone وقد نقله إلى العربية الدكتور محمود صالح الفلكى وكيل وزارة المالية والاقتصاد سابقاً تحت عنوان « العلم يدعو للإيمان » .

ومن أفضل الكتب العربية فى تعريف القارىء بموقف العلوم الحديثة من الإيمان المستنير كتاب « البينة على الله فى كون آخذ فى الاتساع » The Evidence Of God In An Expanding Universe الذى ظهر فى سنة ١٩٥٨ ، وهو يتضمن آراء حوالى ثلاثين من أبرز العلماء الأمريكيين المعاصرين فى أسباب إيمانهم بالله تعالى ، وقد جمعها القس جون كلوفرمونسما John Clover Monsma ، وترجمها إلى العربية الدكتور الدمرداش عبد الحميد سرحان تحت عنوان « الله يتجلى فى عصر العلم » وراجعها وعلق عليها الدكتور محمد جمال الدين الفندى . وفيما بعد سنقدم مقتطفات سريعة من بعض هذه الآراء .

ومن الكتب الطيبة أيضاً فى هذا التعريف مؤلفان للأستاذ عباس محمود العقاد وهما « الله » و« عقائدالمفكرين فى القرن العشرين » . وكتاب « إرادة الاعتقاد » للفيلسوف وليام جيمس وقد نقله إلى العربية فى جزئين الدكتور محمود حب الله .

ومنها كتاب « سر الله فى السماء » للدكتور أحمد زكى مدير جامعة القاهرة سابقاً .

الإيمان به على أنه « ذات » بقية من تشبيهات الأديان الأولى . كما يؤمن أينشتين بعالم آخر غير عالم الشهادة « ويقول إن الإنسان الذى لم يختبر وقفة من وقفات الصوفية حيال ذلك العالم الآخر ولم يشعر نحوه بالروعة هو حى حكمه حكم الميت . ولب الديانة عنده أن نعلم أن الذى لا ننفذ إليه بمداركنا هو موجود حقاً ، متجل حقاً ، يطالعنا بالحكمة العليا والجمال الرائع ولا تحيط عقولنا الكليلة منه إلا بأشكال بدائية كالظلال »[1].

كما يقول أيضاً عن الدين « إن دينى يتألف من إعجاب متواضع بالروح الأعلى غير المحدود الذى يكشف عن نفسه فى تفصيلات بسيطة تستطيع عقولنا الواهنة الضعيفة أن تدركها ، فهذا الاقتناع العاطفى العميق بوجود قوة عاقلة عظمى تتكشف فى ذلك الكون غير المفهوم — يكون عندى رأيى فى الله » .

ويقول « إن أجمل عاطفة وأعمقها يمكن أن نمارسها إنما هى شعورنا بالخفى الغامض . هذه العاطفة هى التى تبذر العلم الصحيح كله . وذلك الذى لا يحس بهذه العاطفة ، والذى لا يستطيع بعد ذلك أن يدهش ويحنى هامته احتراماً فإنما هو شخص ميت . ولأن نعرف أن مالا يمكن أن يستقصى منا موجود فعلا ، مظهر نفسه بأنه الحكمة العليا والجمال البالغ التألق — وهما ما تستطيع قرائحنا البليدة أن تدركهما حتى فى أقصى صيغهما البدائية ، هذه المعرفة أو هذا الشعور هو مركز التدين الحق » . كما يقول أيضاً « إن الإيمان هو أقوى نتائج البحوث العلمية وأنبلها »[2].

(١) عن الأستاذ العقاد فى مؤلفه « عقائد المفكرين فى القرن العشرين » ص ٩٨ وهو يحيل القارىء إلى كتابين لأينشتين أولها « الدنيا كما أراها The World As I see » وثانيهما كتاب « من سنواتى الأخيرة Out Of My Later Years » .

(٢) راجع كتاب « الكون والدكتور أينشتين » لمؤلفه الدكتور لنكولن بارنت Lincoln Barnett وقد قرظه إينشتين بمقدمة وضعها له . ونقله إلى العربية الأستاذ محمد عاطف البرقوقى تحت اسم « العالم وإينشتين » فى مجموعة اقرأ رقم ١٦٤ عدد أكتوبر سنة ١٩٥٥ . وبالفرنسية راجع كتاب « أينشتين والكون » Einstein Et L'Univers تأليف شارل نوردمان Charles Nordmann بمرصد باريس .

ويقول سير آرثر تومسون Arthur Thompson عالم الطبيعة المعروف « ليس للعقل المتدين أن يأسف اليوم لأن العلم الطبيعي لايخلص من الطبيعة إلى ما فوق الطبيعة ، إلا أننا خلقاء أن نغتبط لأن العلماء الطبيعيين قد يسروا للنزعة الدينية أن تتنفس فى جو العلم حيث لم يكن ذلك يسيراً فى أيام آبائنا وأجدادنا . . . فنحن نقرر عن روية أن أعظم خدمة قام بها العلم أنه قاد الإنسان إلى فكرة عن الله أنبل وأسمى . ولا نجاوز المعنى الحرفى حين نقول إن العلم أنشأ للإنسان سماء جديدة وأرضاً جديدة ، وحفزه من ثم إلى غاية جهده العقلى ، فإذا به فى كثير من الأحيان لايجد السلام إلا حيث يتخطى مدى الفهم ، وذلك فى اليقين والاطمئنان إلى الله . . .

ثم تساءل تومسون «ألا يمكن أن يستعين العلم بالدين ؟» فقال إنه يوشك أن يسمع جواب هذا السؤال من زملائه بالنفى القاطع ، ولكننا ينبغى أن نفهم أن العلم للحياة وليست الحياة للعلم ، وإذا كان عمل العلم المباشر أن يفهم فعمله غير المباشر أن يزيل الشرور ويزيد الطيبات . ومن الشعور الدينى يستمد العالم ثروة حيثهى نعم المدد للبصيرة فى الكشف عن المجهول » ، ثم اختتم كلمته قائلا مامعناه إن الإنسان يجهل حاجته إذا وضع الدين أمام العلم موضع المناجزة وقال لنفسه إما هذا وإما ذاك . فالعلم الذى نحن على يقين منه أننا بحاجة إلى مزيد من العلم ومزيد من الدين »[1] .

ويرى سير آرثر إدنجتون Arthur Eddington العالم الرياضى المعروف « أن تفسير الكون بالحركة الآلية أمر لا يسيغه العلم الحديث ، وأن الكون أحرى أن يفسر بالنسب الرياضية فى عقل عاقل ، ولكن الإنسان هو سر الكون الأكبر ، وهو الذى يدرك هذه النسب ويدرك ما بين عقله وعقل الكون من علاقة وثيقة ، وأنه إذا جاز للحركة الآلية أن تخلق فى المستقبل إنساناً آلياً فليس مما يجوز فى العقول أن نتخيل ذلك

(١) عن « عقائد المفكرين فى القرن العشرين » ص ٩٣ ، ٩٤ .

الإنسان سائلا عن الحقيقة أو مبالياً بأسباب الحق والباطل . ولكن هذا الشوق إلى الحقيقة هو هو لب لباب الحياة ، وهو هو محور الوجود الإنسانى منذ نجم من صلب هذه الطبيعة : هذا هو الذى يجعل الإنسان شيئاً مغايراً كل المغايرة لما حوله من الظواهر الطبيعية ويجعله قوة روحانية . . . ومتى ارتفعت الصيحة من قلب الإنسان : فيمَ كل هذا ؟ لم يكن جواباً صالحاً لتلك الصيحة أن ننظر إلى هذه التجارب التى نتلقاها من حسنا ونقول : كل هذا هو ذرات وفوضى ، وهو كرات نارية تحوم وتحوم إلى الفضاء المحتوم . . . كلا . بل الأحرى أن نفهم أن كل هذا وراءه روح يستوى الحق فى محرابها وتكمن فيها قوابل لتنمية الذات ، بمقدار ما فيها من النزوع إلى تلبية عناصر الخير والجمال . . . »[1].

ويقول أيضا العالم الفلكى الطبيعى سير جيمس جينز James Jeans إن الكون كان فيما مضى بمثابة آلة كبرى فأصبح الآن فكرة كبرى بعد أن عرفت حقيقة المادة . كما يستدل بالنسب الرياضية على وجود الله ، لأننا لم نستخرج هذه النسب من الكون بل استخرجناها من عقولنا ، فلما عرفناها وطبقناها على ما حولنا عرفنا أنها كانت موجودة عاملة قبل أن نهتدى إليها ونترقى إلى مراقبة عملها فى نواميس الكون والحياة . فحق لنا أن نفهم أن هذه الحقائق الرياضية هى حقائق عقل إلهى أودعها أفكارنا ، كما أودعها هذه العوالم من حولنا . . . » .

* * *

وعندما سئل فرانك أللن Frank Allen عالم الطبيعة البيولوجية والأستاذ بجامعة مانيتوبا Manitoba بكندا عما إذا كانت نشأة العالم مصادفة أم قصداً أجاب بما تلخيصه « إن نظرية المصادفة والاحتمال تقدمت كثيراً من الوجهة الرياضية حتى أصبحنا قادرين على التنبؤ بحدوث الظواهر التى نقول إنها

---

(١) عن كتاب « الله » الطبعة الثانية ص ٢٨٨ .

تحدث بالمصادفة ولا نستطيع أن نفسر ظهورها بطريقة أخرى (مثل قذف الزهر فى لعبة النرد) . وقد صرنا بفضل تقدم هذه الدراسات قادرين على التمييز بين ما يمكن أن يحدث بطريق المصادفة وما يستحيل حدوثه بهذه الطريقة ، وأن نحسب احتمال حدوث ظاهرة من الظواهر فى مدى معين من الزمان ...

إن البروتينات من المركبات الأساسية فى جميع الخلايا الحية . وهى تتكون من خمسة عناصر هى : الكربون والأيدروجين والنيتروجين والأوكسيجين والكبريت . ويبلغ عدد الذرات فى الجزىء البروتينى الواحد ٤٠٠٠٠ ذرة . ولما كان عدد العناصر الكيماوية فى الطبيعة ٩٢ عنصراً موزعة كلها توزيعاً عشوائياً فإن احتمال اجتماع هذه العناصر الخمسة لكى تكون جزيئاً من جزيئات البروتين يمكن حسابه لمعرفة كمية المادة التى ينبغى أن تخلط خلطاً مستمراً لكى تؤلف هذا الجزىء ، ثم لمعرفة طول الفترة الزمنية اللازمة لكى يحدث هذا الاجتماع بين ذرات الجزىء الواحد .

وقد قام العالم الرياضى السويسرى تشارلز يوجين جاى بحساب هذه العوامل جميعاً فوجد أن الفرصة لا تتهيأ عن طريق المصادفة لتكوين جزىء بروتينى واحد إلا بنسبة ١ إلى رقم عشرة مضروباً فى نفسه ١٦٠ مرة وهو رقم لا يمكن النطق به أو التعبير عنه بكلمات . وينبغى أن تكون كمية المادة التى تلزم لحدوث هذا التفاعل بالمصادفة بحيث ينتج جزىء واحد أكثر مما يتسع له كل هذا الكون بملايين المرات .

ويتطلب تكوين هذا الجزىء على سطح الأرض وحدها عن طريق المصادفة بلايين لا تحصى من السنوات قدرها العالم السويسرى بأنها عشرة مضروبة فى نفسها ٢٤٣ مرة من السنين ... وعلى ذلك فإنه من المحال عقلا أن تتآلف كل هذه المصادفات لكى تبنى جزيئاً بروتينياً واحداً .

ولكن البروتينات ليست إلا مواد كيماوية عديمة الحياة ، ولا تدب فيها

الحياة إلا عندما يحل فيها ذلك السر العجيب الذى لا ندرى من كنهه شيئا ، إنه العقل اللانهائى ، وهو الله وحده الذى استطاع أن يدرك ببالغ حكمته أن مثل ذلك الجزىء البروتينى يصلح لأن يكون مستقراً للحياة فبناه وصوره وأغدق عليه سر الحياة » (١) .

كما قرر روبرت موريس بيج Robert Morris Page عالم الطبيعة « لا بد لنا أن نسلم بما يسلم به الكثيرون من أن قدرتنا على الملاحظة لا تستطيع أن تمتد لغير جزىء ضئيل نسبياً من الحقيقة الكلية . فالإله الذى نسلم بوجوده لا ينتمى إلى عالم الماديات ولا تستطيع حواسنا المحدودة أن تدركه . وعلى ذلك فمن العبث أن نحاول إثبات وجوده باستخدام العلوم الطبيعية لأنه يشغل دائرة غير دائرتها المحدودة . فإذا لم يكن للاله وجود مادى فلا بد أن يكون ذلك الإله روحانياً . أو هو يوجد فى عالم من الحقيقة غير ذلك العالم الفيزيقى على أية حال ، وبذلك فإنه لا يمكن أن تحده تلك الأبعاد الثلاثة ، أو أن يكون خاضعاً لقيود الزمان التى نعرفها . ولا بد أن نسلم أن هذا الكون المادى الذى يخضع لقيود الزمان والمكان ليس إلا جزء يسير من الحقيقة الكبرى التى ينطوى عليها هذا الوجود »(٢) .

وقرر جون كليفلاند كوثران John Cleveland Cothran أستاذ العلوم الطبيعية بجامعات كورنل Cornell ودالاث Duluth ومينيسوتا Minnesota وغيرها « قال لورد كيلفن — وهو من علماء الطبيعة البارزين — هذه العبارة القيمة « إذا فكرت تفكيراً عميقاً فإن العلوم سوف تضطرك إلى الاعتقاد فى وجود الله » ثم أضاف كوثران « ولا بد أن أعلن عن موافقتى كل الموافقة على هذه العبارة . إن ملاحظة هذا الكون ملاحظة تقوم على الخبرة والذكاء وتدبر ما نعرفه عنه من جميع النواحى سوف تقودنا إلى التسليم

---

(١) عن « الله يتجلى فى عصر العلم » ص ١١ ، ١٢ .
(٢) المرجع السابق ص ١٥ .

بوجود ثلاثة عوالم من الحقائق هى : العالم المادى (المادة) والعالم الفكرى (العقل) والعالم الروحى (الروح) (١) » .

وقال إدوارد لوثر كسيل Edward Luther Kessel أستاذ علم الأحياء بجامعة سان فرانسيسكو « لما كانت الحياة لاتزال قائمة ، ولاتزال العمليات الكيماوية والطبيعية تسير فى طريقها ، فإننا نستطيع أن نستنتج أن هـــذا الكون لا يمكن أن يكون أزلياً ، وإلا لاستهلكت طاقته منذ زمن بعيد وتوقف كل نشاط فى الوجود . وهكذا توصلت العلوم — دون قصد — إلى أن لهذا الكون بداءة . وهى تثبت بذلك وجود الله ، لأن ماله بداءة لا يمكن أن يكون قد بدأ نفسه ولا بد له من مبدىء أو من محرك أول ، أو من خالق هو الإله » (٢) .

وذهب ولتر أوسكار لاندبرج Walter Oscar Lundberg عالم الفسيولوجيا والكيمياء الحيوية وعميد معهد هورمل Hormel Institute إلى « أن إيمان الإنسان بالله ينبغى أن يقوم على ما تدل عليه الظواهر الطبيعية والسنن الكونية ، لكن ينبغى أن يقوم إيمان الإنسان بالله فوق ذلك وبالإضافة إليه على أساس روحانى وأساس من العقيدة والتسليم . فالإيمان بالله مصدر لسعادة لا تنضب فى حياة كثير من البشر . أما المشتغلون بالعلوم الذين يرجون الله فلديهم متعة كبرى يحصلون عليها كلما وصلوا إلى كشف جديد فى ميدان من الميادين ، إذ أن كل كشف جديد يدعم إيمانهم بالله ، ويزيد من إدراكهم وإبصارهم لأيادى الله فى هذا الكون (٣) » .

وقال بول كلارنس إبرسولد Paul Clarence Aebersold عالم الطبيعة الحيوية « قال الفيلسوف الانجليزى فرانسيس بيكون منذ أكثر من ثلاثة قرون « إن قليلا من الفلسفة يقرب الإنسان من الإلحاد ، أما التعمق فيها فيرده

---

(١) المرجع السابق ص ٢٣ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٩ .

(٣) المرجع السابق ص ٣٦ .

إلى الإيمان » . ولقد كان يكون على صواب فيما ذهب إليه ... إلى أن يقول أبرسولد « إننا نصل إلى الإيمان الكامل بالله عندما نمزج بين الأدلة العلمية والأدلة الروحية . أي عندما ندمج معلوماتنا عن هذا الكون المتسع إلى أقصى حدود الاتساع، المعقد إلى أقصى حدود التعقيد، مع إحساسنا الداخلي والاستجابة إلى نداء العاطفة والروح الذي ينبعث من أعماق نفوسنا »(١).

ويرى جورج إيرل دافيز George Earl Davis رئيس قسم البحوث الذرية بالبحرية الأمريكية ببروكلين « أن التطور الذي تكشفت عنه العلوم في هذا الكون هو ذاته شاهد على وجود الله ، فمن جزيئات بسيطة ليس لها صور معينة ، وليس بينها فراغ ، نشأت ملايين من الكواكب والنجوم والعوالم المختلفة التي لها صور معينة وأعمار محددة تخضع لقوانين ثابتة يعجز العقل البشري عن إدراك مدى إبداعها . وقد حملت ذلك كل ذرة من ذرات هذا الكون ، بل كل ما دون الذرة مما لا يدركه حس ولا يتصور صغره عقل ... ولكن هناك ما هو أشد إعجازاً وأكثر دلالة على وجود الله . فمن تلك الجزيئات البسيطة لم تنشأ النجوم والكواكب فحسب ، بل نشأت كذلك أنواع متطورة من الأحياء ، بل كائنات تستطيع أن تفكر وتبتكر وتخلق أشياء جميلة ، بل هي تبحث عن أسرار الحياة والوجود . إن كل ذرة من ذرات هذا الكون تشهد بوجود الله ، وتدل على وجوده حتى دون حاجة إلى الاستدلال بأن الأشياء المادية تعجز عن خلق نفسها بنفسها (٢) » .

وقال إرفنج وليام كنوبلوك Irving William Knobloch أستاذ العلوم الطبيعية في جامعة ميتشجان « إنى أعتقد في وجوده سبحانه لأنى لا أستطيع أن أتصور أن المصادفة وحدها تستطيع أن تفسر لنا ظهور الإلكترونات والبروتونات الأولى ، أو الذرات الأولى ، أو الأحماض الأمينية الأولى ،

---

(١) المرجع السابق ص ٣٨ .
(٢) المرجع السابق ص ٤٣ .

أو البروتوبلازم الأول ، أو البذرة الأولى ، أو العقل الأول . إننى أعتقد فى وجود الله لأن وجوده القدسى هو التفسير المنطق الوحيد لكل ما يحيط بنا من ظواهر هذا الكون التى نشاهدها [١] » .

وقال كلود م . هاثاواى Claude M. Hathaway العالم فى الآلات الكهربية والطبيعية للقياس ومصمم أحد العقول الإلكترونية « إننى أسلم بوجود اللاماديات لأننى اشعر بالحاجة إلى وجود سبب أول غير مادى . إن فلسفتى تسمح بوجود غير المادى لأنه بحكم تعريفه لا يمكن إدراكه بالحواس الطبيعية . فمن الحماقة إذن أن أنكر وجوده بسبب عجز العلوم عن الوصول إليه ، وفوق ذلك فإن الفيزياء الحديثة قد علمتنى أن الطبيعة أعجز من أن تنظم نفسها أو تسيطر على نفسها .

وقد أدرك سير إسحاق نيوتن أن نظام هذا الكون يتجه نحو الانحلال وأنه يقترب من مرحلة تتساوى فيها درجة حرارة سائر مكوناته ، ووصل من ذلك إلى أنه لا بد أن يكون لهذا الكون بداءة ، كما أنه لا بد أن يكون قد وضع تبعاً لتصميم معين ونظام مرسوم ، وأيدت دراسة الحرارة هذه الآراء وساعدتنا على التمييز بين الطاقة الميسورة والطاقة غير الميسورة ، وقد وجد أنه عند حدوث أى تغيرات حرارية فإن جزءاً معيناً من الطاقة الميسورة يتحول إلى الطاقة غير الميسورة ، وأنه لا سبيل إلى أن يسير هذا التحول فى الطبيعة بطريقة عكسية ، وهذا هو القانون الثانى من قوانين الديناميكا الحرارية . . . .

ومعنى ذلك بطريقة أخرى أن الطبيعة لا تستطيع أن تصمم أو تبدع نفسها ، لأن كل تحول طبيعى لا بد أن يؤدى إلى نوع من أنواع ضياع النظام أو تصدع البناء العام . وفى بعض الحالات قد يسير النظام من البسيط

---

(١) المرجع السابق ص ٥٦ .

إلى المركب ، ولكن ذلك لا يتم إلا على حساب تصدع أكبر للتنظيم والترتيب في مكان آخر .

إن هذا الكون ليس إلا كتلة هائلة تخضع لنظام معين ، ولا بد له إذن من سبب أول لا يخضع للقانون الثاني من قوانين الديناميكا الحرارية ولا بد أن يكون هذا السبب الأول غير مادى فى طبيعته . . . » [١] .

وقال واين أولت Wayne U. Ault أحد علماء الجيولوجيا وعضو الجمعية الجيولوجية الأمريكية « كما أن الإيمان بمعناه الواسع يعتبر أمراً ضرورياً وجزءاً طبيعياً بالنسبة لوجود الإنسان فإن الإيمان بالله يعد كذلك لازماً لاكتمال وجود الإنسان وتمام فلسفته فى الحياة . ورغم أن بعض ميادين الخبرة الإنسانية غير مادى ، فإنها ميادين حقيقية لا شك فى أمرها ، وتترتب عليها نتائج هامة فى حياة الإنسان . وقد لمس مئات الآلاف من الرجال الأذكياء ذوى الشخصيات السليمة المتزنة نتائج الاتصال بالله والإخلاص فى عبادته ، لمسوا هذه النتائج فى أنفسهم ، وكان إيمانهم بالله سبباً فى قضاء حاجاتهم النفسية والانفعالية والروحية بطرق لا تستطيع أن تحيط بكنهها عقولنا ، بل عقول البشر جميعاً . . . . .

لقد ذكرنا أن اعتقاد وجود الله لا بد أن يقوم على الإيمان ... ونؤكد هنا أن الإيمان الذى نقصده هو الإيمان البصير وليس الإيمان الأعمى ، أى الإيمان الذى يقوم على العقل والتدبر . وقد آمن كثير من الناس بالله فذاقوا حلاوة الإيمان فى أنفسهم وفى قلوبهم ، بل فى العالم المادى الذى تهتم العلوم بدراسته . . . » [٢] .

وأما بول إرنست أدولف Paul Ernest Adolph عضو جمعية الجراحين الأمريكية ومؤلف عدة كتب فى رسالة الطب فقد قرر « لقد أيقنت أن

---

(١) المرجع السابق ص ٩٢، ٩٣ .

(٢) المرجع السابق ص ١٣٣ ، ١٣٥ .

علاج الحقيق لابد أن يشمل الروح والجسم معاً وفى وقت واحد . ولقد وجدت بعد تدبر عميق أن معلوماتى الطبية وعقيدتى فى الله هما الأساس الذى ينبغى أن تقوم عليه الفلسفة الطبية الحديثة . . لقد وجدت أثناء ممارستى الطب أن تسلحى بالنواحى الروحية إلى جانب إلمامى بالمادة العلمية يمكنانى من معالجة جميع الأمراض علاجاً يتسم بالبركة الحقيقية . أما إذا أبعد الإنسان ربه عن هذا المحيط ، فإن محاولاته لاتكون إلا نصف علاج ، بل قد لاتبلغ هذا القدر(١)».

أما اندروكونواى أيفى Andrew Conway Ivy عالم الطبيعة ، ورئيس قسم الفسيولوجيا بجامعة نورث وسترن والأستاذ بكليات الطب ، فقد ذهب إلى أن « الاعتقاد بوجود الله هو الوسيلة الفكرية الكاملة الوحيدة التى تجعل لهذا الوجود معنى . وهذا الاعتقاد هو الذى يجعل لوجود الإنسان معنى أكثر من أنه مجرد كتلة من المادة أو الطاقة . والاعتقاد بوجود الله هو المنبع لأسمى فكرة إنسانية حول المحبة ، والقاعدة التى تقوم عليها الأخوة بين البشر بسبب اجتماعهم على محبة الله وطاعته ، وهو مصدر إحساسنا بالحقوق والواجبات ، لأننا لا نتساوى إلا فى نظر الحب والعدالة والرحمة المطلقة . والاعتقاد بوجود الله هو الحصن الذى يعصمنا من الشرور ، وهو بعد ذلك الأساس المتين الذى يقوم عليه الإيمان وتدوم بسببه القيم الروحية التى يعتبر وجودها رهيناً بوجوده تعالى ...

إن أحداً لايستطيع أن يثبت خطأ الفكرة التى تقول إن الله موجود ، كما أن أحداً لايستطيع أن يثبت صحة الفكرة التى تقول إن الله غير موجود ، وقد ينكر منكر وجودالله ، ولكنه لايستطيع أن يؤيد إنكاره بدليل . وأحياناً يشك الإنسان فى وجود شيء من الأشياء ولا بد فى هذه

(١) المرجع السابق ص ١٣٨ ، ١٤٠ .

الحالة أن يستند شكه إلى أساس فكرى . ولكننى لم أقرأ ولم أسمع فى حياتى دليلاً عقلياً واحداً على عدم وجوده ، تعالى . وقد قرأت وسمعت فى الوقت ذاته أدلة كثيرة على وجوده ، كما لمست بنفسى بعض ما يتركه الإيمان من حلاوة فى نفوس المؤمنين ، وما يخلفه الإلحاد من مرارة فى نفوس الملحدين . . .

إن اعتقادى بوجود الله الذى خلق كل شىء والذى يوجد داخل الكون وخارجه ، والذى يرعانى ويرعاك، يقوم أولا على استخدام العقل ، ثم يقوم بعد ذلك على الإيمان والأمل والمحبة . فأنا لا أستطيع أن أمتلك الإيمان والأمل والمحبة إلا إذا كانت كلها قائمة على أساس العقل. ولا يجوز للإنسان أن يتخلى عن عقله ، بل لابد من استخدامه استخداماً دقيقاً قوياً . والإيمان الذى لايسبغه العقل يعتبر إيماناً ضعيفاً هزيلا ، ويكون عرضة للهجمات الفتاكة والهزيمة الساحقة .

والإيمان الدينى الذى لايقوم على العقل يؤدى إلى الأخلاق السيئة والسلوك الشائن ، ولذلك ينبغى ألا يتخلى الإنسان عن عقله أبداً ، ولا عن المبادىء الفكرية التى تقوم عليها الأعمال والأفكار التى يستخدمها الناس فى حياتهم اليومية ، والتى يقوم عليها جميع ما أحرزه علماؤنا من انتصارات فى الميادين العلمية . . . فإذا كان التفكير هو وسيلة التقدم المادى فلماذا لا يكون كذلك وسيلة للتقدم الروحى والخلقى ؟ . . .

لقد درست صفات الله دراسة مطولة على أساس من التحليل المنطقى الذى قام به الفلاسفة . وأمكن باستخدام المنطق الوصول إلى أن لله صفات معينة، وفيما يلى مجموعة كاملة منها : الله أبدى ـ خالد ـ لطيف (ليس مادياً) ـ ليس حادثاً ـ قدوس ـ طيب ـ يعلم الشر ولكنه ليس شريراً ولا يريد الشر ـ لا يكره الأشياء ـ حق ـ عليم ـ محب ـ مريد ـ منزه عن الشهوات والنزوات ـ أصل الفضائل جميعاً . . .

ثم يقول أيضاً : وقد اقتضى التفكير والتاريخ أن أهمية القيم الروحية والخلقية بالنسبة للإنسان ترجع إلى اعتقاده أو عدم اعتقاده فى شخصية مقدسة تمثل الكمال المقدس وتوجه سلوك الإنسان . إن عقولنا تكشف عن وحدة الكون ونظامه وعن مبدأ السببية . ولكن هذه الأشياء وحدها لا تكون الدين ، أولا تكون ديناً ثابتاً إلا عندما يسمح لها بأن تؤثر فى حياتنا اليومية على أساس من الحرية فى اتخاذ القرارات ، وصدق العبادة لله ، والأخوة بين البشر .

فإذا كنا نريد أن تبقى الحياة على سطح الأرض محافظة على ما عرف عنها فى الماضى من سمو فإننا نحتاج إلى توجيه مقدس . فالأحزان والأمراض والكوارث التاريخية تثبت لنا أن الأخلاق والحق والعدالة والرحمة والحرية قد تفقد معانيها وتؤدى إلى حياة ذليلة خسيسة مالم تكن متصلة بإيمان عملى، أو قائمة على أساس . . .

وأعود فأقول هل الأخوة بين الناس اتفاق مادى يقوم على أساس أن القوة وحدها هى التى تحدد سلوك الأفراد والجماعات ، أم أن هذه الأخوة ترجع إلى اشتراكنا فى عبادة الله ؟ وأى المصدرين يهيئ لها بقاء أطول ودواماً أدوم ؟ وهل ترجع حريتنا إلى حرية الروح ، حرية اتخاذ القرارات وحرية العقل ، أم هى مجرد اتفاق مادى له صبغة اجتماعية؟[1] . . .

* * *

وفى هذا الصدد يتحدث أيضاً إدموند.و. سينوت Edmund W. Sinnott وهو عالم فى النباتات وأستاذ بجامعة هارفارد وبعدد من الجامعات الأمريكية الأخرى ، ورئيس مجلس إدارة «الجمعية الأمريكية لتقدم العلوم» ، فى مؤلفه

---

(١) المرجع السابق ص ١٤٩ — ١٦٤ .

عن « حياة الروح » قائلا : « إن المادية تقضى بأن البدن هو صاحب السيادة المطلقة وأن الجزء اللامادى فى الإنسان يتخذ منه مطية . . . غير أن البدن والعقل إذا كانا نابعين من أصل واحد فكيف نستطيع أن نقضى بأيهما يسيطر على صاحبه؟ ويقتضى هذا الرأى يكون منطقياً أن ننظر إلى العقل – أو النفس – بأنه الأقنوم الأعلى منهما . وربما كان الجزء المادى حاصلا من الروح . لقد كان شارلس كنجسلى أول من تصور أن النفس تفرز البدن كما يفرز الحلزون صدفته . وصور إدمند سبنسر هذا المعنى بطريقة شاعرية .

« من النفس يصدر البدن ، لأن النفس صورة وبها البدن يتصور » .

أقل ما فى الواحدية التى ندافع عنها من نتيجة أن المادة ليست سيدة الموقف . فإذا كان فى تضاعيف الكون مبدأ منظم فقد لا يبعد أن يحل فى كل منا جزء منه هو النفس ، لا مجرد شكل عابر موقوت يتناول الذرات والجزيئات والكميات ، بل جزء من روح أزلى كونى . إن النفس هى أرفع مستويات تلك المقومة الهادفة التكاملية التى هى الحياة . إن هذا افتراض جليل ككل افتراض آخر من شأنه أن يعلل لنا حقائق كثيرة تظل بغيره فاقدة المعنى ، وحتى نصل إلى مزيد من المعرفة لطبيعة المشكلات التى لم نفرغ من حلها ، تلك المشكلات التى تزدحم من حول كل شىء تجرى فيه نسمة الحياة ، فلا ينبغى أن نتعجل إلى إنكار احتمال صحتها ورسوخها . . .

ثم يقول سينوت : نسلم بأن للإنسان روحاً هو أسمى وأرفع ما يعبر به عن تلك الممكنات المتضمنة فى تضاعيف المادة الموات ... ونسلم بأن هذا الروح فى مقدوره أن يولد حساسية فائقة نحو ما هو جميل وحق وخير ، ونسلم بأنه جدير منا بالحب والاحترام ، وأن من حوله ، على ما تحاول حركة التجديد الحديثة ، يمكن استحداث جو من الإيمـــان بالإنسان ، وتقديس لما يمكن أن يكون منقلبه من بعد ، حتى لا يبعد أن يتشكل ذلك فى صورة دين يعتنقه الكثيرون . إذا سلمنا بجميع ذلك إذن نتساءل :

أية علاقة قد تقوم بين هذا الروح وآخر أعظم وأشمل منه يغمر الكون الخارجى ؟

لقد تكفل الدين بأن يقفز هذه القفزة الواسعة من روح الإنسان إلى الروح الأعظم : إلى الله . إن سلطان الدين وما يضفى علينا من توكيد وسلوى إنما يقوم جميعاً على الاعتقاد بأن الحقيقة الجوهرية فى الطبيعة هى الروح . . . . » (١)

كما سئل المهندس الكهربائى شارل ب . شتيمتز ما لون البحث الذى سوف يعاصر أكبر تقدم فى الخمسين السنة القادمة ؟ فأجاب قائلا : « أظن أن أجل اكتشاف سيكون فى الأمور الروحية التى يخبرنا التاريخ بجلاء أنها كانت أكبر قوة فى تنشئة البشر ، مع أننا كنا فقط نلعب بها ولم ندرسها بكيفية جدية كما فعلنا بالقوى الطبيعية . ولكن سيأتى اليوم الذى يعلم فيه الناس أن الأشياء المادية لن تجىء بالسعادة ، وأنها عاجزة عن الوصول بالإنسان إلى الإبداع والقوة . وحينذاك سوف يوجه العلماء تجاربهم نحو دراسة الله والصلاة والقوى الروحية التى لا يعرفون عنها إلا النذر اليسير ، وحينما يأتى ذلك اليوم سوف يشهد العالم تقدماً فى جيل واحد يبن ما رآه فى الأجيال الأربعة السابقة » . . .

* * *

ولا نريد أن نسترسل فى سرد هذه الآراء الصريحة وإنما يكفى أن نحيل القارىء إلى هذا الكتاب الرائع وهو « الله يتجلى فى عصر العلم » فهو حافل بعشرات من الأقوال العلمية المدروسة التى تعبر عن أسانيد الإيمان العلمى المستنير بالله تعالى وبالروح من لفيف آخر من أفضل العلماء المعاصرين .

---

(١) عن The Biology Of The Spirit . ترجمة عربية للأستاذ اسماعيل مظهر عنوانها « حياة الروح فى ضوء العلم » ص ١٨٥ — ١٨٧ .

وإنه لمما يدعو للأسى أنه فى العصر الذى يعود فيه جل علماء المادة إلى تفسير الكون — بكل ظواهر الحياة فيه — بقوانين روحية ، إذ بعقول البعض تبدو أميل إلى التعلق بالتفسير السطحى الذى كان يبدو فى وقت ما مستنداً إلى أوليات علوم المادة عندما كانت فى مهدها ، بل لعلها كانت لم تصل إلى المهد بعد .

والإيمان بالحياة بعد موت الجسد المادى متمم للإيمان بالله وبالروح ، ولقد تبين على مر العصور وجود تلازم تام بين هذين النوعين من الإيمان . فعندما ازدهرت مدارس إنكار القدرة الخالقة فى وقت من الأوقات ازدهرت معها مدارس إنكار حياة الإنسان بعد الموت والإصرار على القول بفنائه بسبب فناء الجسد .

ولما ازدهر الإيمان بالخلود ازدهر معه الإيمان بالقوة الكونية العظمى التى هى وراء كل خلود ، لأنها تمثل بذاتها هذا الخلود ، كما تمثل تحقيق العدالة المطلقة عن طريقه ؛ وقد عبر عن هذا المعنى الأستاذ مالكولم جرانت Malcolm Grant فى مؤلف له عنوانه «حجة جديدة لإثبات الله والخلود»[1] ، عندما لاحظ أنه ، «إن لم تكن للإنسان حياة أخرى فقد يتعذر الإيمان بإله يعنى بسعادة خلائقه ، وما أكثر الذين يعفون من الشقاء المرهق ، ولكنهم يقصرون فى الذكاء أو الخلق أو الخلقة أو الأغراض التى كانوا يحرصون على تحصيلها لو كانت حياتهم مقصورة على أمدها القصير فى الدنيا » .

وهكذا ازدهر الإيمان بالخلود فى عصرنا الحالى، كما ازدهر به ومعه الإيمان بالله ، وكان ازدهارهما على أسس علمية مستنيرة بالنظر إلى تقدم العقل فى المعرفة ، هذا التقدم الذى لا ينكره إلا من قد يتصور الجمود علماً والغباوة عرفاناً .

وقد يوضح ذلك أن نذكر أيضاً أنه عندما سئل روبرت بروم Robert Broom عضو الجمعية الملكية البريطانية عن عقيدته بوصفه رجلا

---

(١) A New Argument For God And Survival.

علمياً ، أجاب بأنه منذ نحو عشرين سنة (وكان ذلك حوالى سنة ١٩٣١) اهتم بعضهم بأن يبحث عن الآراء المادية التى شاعت فى الدوائر العلمية.. هل لا تزال على نفس شيوعها القديم؟ فتبين أن نسبة ضخمة من أعضاء الجمعية الملكية أجابت بصيغة جازمة بأنها تؤمن بمملكة الروح ، وبالعناية الإلهية المهيمنة ، وببقاء الشخصية بعد الموت . وظهر أن عدداً آخر من الأعضاء لم يفصح عن رأيه ، أى لم ينكر ، مما يشير إلى توافر الشك عندهم أو التردد الذى قد يكون أول خطوة فى طريق الإيمان[1].

دور الروح فى هذا الإيمان العلمى

فإذا كانت بعض المعرفة بعلوم الحياة قد شيدت دعائم هذا الإيمان المستنير بالعناية الالهية ، وبعالم الروح ، وببقاء الشخصية بعد الموت ، فما بالك ببعض المعرفة بالروح وببعض الفهم لحقيقة عالم الروح ؟

فلا غرابة أننا إذا ما انتقلنا إلى علماء المادة الذين أتيح لهم الاتصال بالظواهر الروحية لبحثها وتحقيق صحتها ، والذين أمكنهم أن يربطوا بينها وبين علمهم المادي ، وجدنا لهم بدورهم حديثاً عميقاً عن الإله تعالى فى جليل قدرته وعظمته ، وعن وجوب الإيمان به ، وتعزيز الصلة به عن طريق العمل الصالح ونقاء الضمير والصلاة المخلصة .

وكذلك الشأن أيضاً فى الفلاسفة الذين اتصلوا عمليا ببحث الظواهر الروحية وتحقيق صحتها ، فإنهم انتهوا إلى فلسفة رائعة سداها الإيمان الوطيد بالله وبالخلود ولحمتها توطيد الصلة به عن طريق الضمير اليقظ وإرادة التسامي بالروح . ونقصد بهؤلاء أمثال وليام جيمس فى أمريكا وهنري برجسون فى فرنسا . وذلك بالإضافة إلى فلاسفة الروحية الصرف ومفكريها

---

(١) راجع ص ٢٩ من مجموعة
Modern Spirit Towards Philosophy Of Faith, 1951.
التى جمعتها السيدة بربارا وايلين Barbara Waylen وهى باحثة فى الأمور الروحية .

من أمثال فلاماريون وكاردك وليون دنيز وجابريل ديلان فى فرنسا ، ودويل وستيد وهانن سوافر وإيفانز وباربانل وبول برنتون وغيرهم فى إنجلترا ، وإلى الوسطاء الكبار الذين مهدوا الطريق أمام البحوث العلمية فيها من أمثال سويد نبرج فى السويد، وأندرو جاكسون دافيز وهدسون تاتل فى أمريكا وغيرهم كثيرين .

وغير هؤلاء وهؤلاء هناك كثيرون يعدون الآن بالمئات، وهم موزعون على جميع أنحاء العالم ، نجد لهم بدورهم حديثاً عميقاً عن الإله تعالى فى عظيم حكمته ورحمته وقدرته ، وتقام فيه الأدلة متماسكة مدروسة على وجوده على نحو كفيل بأن يعيد إلى حظيرة الإيمان المستنير من خيل إليهم أن بمقدورهم الخروج عليها والتمرد على سننها باسم العلم والمعرفة ، حتى لكأن الروحية الحديثة ليست سوى حقائق تعد الإنسان ـ كما يقول ديكارت ـ إلى الرجوع إلى نفسه ، وإلى تعرف مرتبته فى الوجود بين إله القـــدرة السامية وبين موضوعات العلم وحقائقه . فعندما يعرف الإنسان مركزه هذا يستطيع أن يصبح فيلسوفاً ، لأن الفلسفة ليست إلا معرفة الإنسان لذاته ولله . . .

من أقوال الأرواح عن الله تعالى

فإذا تركنا أقوال هؤلاء وأولئك إلى ما تقوله الأرواح الراقية بدورها عن هذه القوة الكونية العظمى التى تمسك مقاليد الحياة والخلود لوجدنا فلسفة بسيطة شديدة الوضوح والترابط فى فهمها والتعبير عن آثارها ، فلا يعرف الإلحاد إليها سبيلا ، وليس لمدارس الإنكار أو الشك فيها متسع بعد ، حتى كأنها تقول كما قال رسكن « إن ذلك الذى يقدم لله المكان الثانى لا يقدم له مكاناً ما » . فهى تريد بتعاليمها أن تضع الله فى المكان الأول من قلوبنا وتجعل من صلتنا به جزءاً من صلتنا بالحياة التى لا تعرف الموت ، ولا تعترف بإمكان حصوله ، لأن الله بدوره حى لا يموت .

وتستوى فى ذلك رسائل الروح جوليا Julia (١) مع حكمة سيلفر بيرش Silver Birch(٢) مع فلسفة أجاشا Agasha(٣) مع تعاليم زودياك Zodiac(٤) وأفرار Aphraar مع آراء هوايت هوك White Hawk(٥) مع إرشادات فنياس Pheneas (٦) مع مخطوطات كليوفاس Cleophas(٧) مع نظريات إمبراتور Imperator(٨) مع أفكار هوايت إيجل White Eagle(٩) مع أشعار باشينس وورث Patience Worth (١٠)، مع غيرها من الأرواح الراقية التى أصبح الحديث عن جمال فلسفاتها ومبادئها على ألسنة الناس فى كل مكان .

وهى عندما تتحدث عن الإله تعالى فى صفاته غير المحدودة إنما تتحدث فى ثقة تامة وفى بلاغة رائعة . « فالله ظاهر فى كل شىء — يقول أجاشا — بعلمه . . بقدرته . . بإرادته . . بصفاته . . بحياته . . وما ظهر الله فى شىء كظهوره فى الإنسان . فالإنسان يمتاز حتى عن الشمس فى تأدية رسالة الخير لأنه محب للخير مفكر فى فعله ، فعال له بإرادته الخيرة ». كما يقول « اعلم أن روح الله الكلية تملأ الوجود ، وأن روحك قبس منها . . . » . كما يتحدث عن

---

(١) الوسيط هو سير وليام ستيد .

(٢) الوسيط هو الكاتب المعروف موريس باربانيل (راجع ما سبق فى الجزء الأول س ٢٤٩) .

(٣) الوسيط هو القس ريتشارد زينور (راجع ما سبق فى الجزء الأول س ١٢٨) .

(٤) الوسيطة هى السيدة وينفريد مويز Winifred Moyes .

(٥) الوسيطة هى السيدة كاتلين باركل Kathleen Barkel .

(٦) كانت هذه الروح تتولى الإرشاد فى جلسات سير آرثر كونان دويل (راجع ما سبق عنه فى الجزء الأول س ٢٣٨ — ٢٤٣) .

(٧) الوسيطة هى السيدة جيرالدين كامينز (راجع ما سبق عنها فى الجزء الأول ص ٢٥٢ — ٢٥٤) .

(٨) الوسيط هو الأسقف ستانتون موزس (راجع ما سبق عنـــه فى الجزء الأول س ٢٦٣ — ٢٦٥) .

(٩) الوسيطتان هما السيدتان برتا هرست Bertha Hurst وجريس كوك Grace Cooke

(١٠) الوسيطة هى السيدة كارن Mrs. Carren.

الله تعالى بوصفه المذيع الأكبر ، « فكل ماتلقته المخلوقات العاملة من علوم وآداب وفنون وفلسفات صدر أولا من هذا المذيع الأكبر الذى علم الإنسان ما لم يعلم ... وكل ما أسماه علماء النفس والروح من أفكار راقية وخواطر ليس إلا إذاعات الخالق تسجلها عقولنا كأجهزة ضئيلة للاستقبال .... فلا تدع إلا الأفكار الخيرة التى تعود على المجتمع بالمنفعة . لو فعلت ذلك لكافأتك الأرواح بموجات نورانية مباركة ... »(١).

من أقوال جوليا

كما تقول الروح جوليا Julia فى إحدى رسائلها الجميلة لوسيطها سير وليام ت. ستيد: « لا يوجد شىء فى الوجود أكثر صدقاً وحياة وانتشاراً من القول بأن الله والمحبة مترادفان ، وأنك عندما تكره لأى سبب — أو لا تحب — فإنك تطرد الله من حياتك . فإذا كانت لدى رسالة واحدة أبعث بها إليك فهى رسالة المحبة .

إذا كنت تريد أن تتشبه بالله فاحبب ، وكل شىء تحبه إنما يقربك خطوة نحو السماء ، وكل شىء تكرهه إلى الحد الذى يمنعك من حب أى إنسان يبعد بك خطوة عن الله .

ولكن حتى إذا غضبت وسخطت فإنك لست مع الله إذا جعلت الغضب والسخط ينسيانك واجب البر بالمعتدى ، قد تعاقب المعتدى لكن عاقبه فى محبة ، فإذا كنت تريد أن تعاقب ، وكان الألم الذى تحدثه بخصمك يسعدك فاحــذر فإنك خارج نطاق المحبة ، ومعنى ذلك أنك بعيد عن جوهر الله .

وليس معنى ذلك إفساد الناس ، فكن عادلا ، وعادلا إلى آخر مدى ،

---

(١) راجع ماسبق عن هذه الروح ووسيطها فى الجزء الأول ص١٢٨ وهامشها ، وما سبق فى هذا الجزء ص ٣٦ — ٤٣ عن بعض الآراء الحديثة لعلماء المادة فى هذا المعنى ، وهو معنى وجود العقل الكونى العام الذى يذيع كل علم ومعرفة وإلهام .

فلا تهمل معاقبة ابنك لأنك تحبه ، مع أن الألم الذى تنزله به تشعر به أنت أولا ، وهكذا فإنك لا يمكن أن تعاقب إنساناً عقاباً عادلا إلا إذا أصاب الألم قلبك أنت أولا .

وكل مرارة ، وكل شهوة للانتقام، وكل قسوة فى القلب ، تدفعك إلى عدم الإحساس بالألم الذى قد توقعه بغيرك، كل ذلك ضد المحبة وبالتالى ضد إرادة الله .

إن الحب الذى يفسد الطفل قاس كالكراهية ، فهو حب أنانى . فينبغى أن تضرب بمحبة ، والمحبة تشعر بالضربة قبل أن تصيب المضروب ، فهى تتألم أولا وتشعر بالقدر الأكبر من الضربة . وهذا درس واحد من الدروس العديدة التى نتلقاها من صفات الله تعالى . . .

إن أعظم شىء وأجمله وأهمه عندما يقارن بغيره — فيبدو غيره عدماً — هو أننا عن طريق هذا الذى تسمونه موتاً نقترب من الله أكثر من ذى قبل ، ونتحقق من وجوده ، ومن حياته فينا ومن حياتنا فيه . وكل ما يمكننا أن نقوله عبارة عن رموز باهتة وقاصرة .

أى صديق : إنك لا يمكنك أن تعرف ، ولا يمكننى أن أزعم أبداً أنى بدأت أوضح لك ، ما فى التحقق من محبة الله لنا من عظمة ومن مجد ومن شعور غير متناه . هذا الشعور الذى نحيا فيه ، وفيه نتحرك ، ومنه نستمد وجودنا . كم كنت أود أن أجعلك أكثر قدرة على الشعور به ، وأن أكون أكثر قدرة على شرحه .

ولكن لا يمكننى أن أقول أكثر من أن هذا الحب أعظم من أي حب حلمت به ، وأنه يتجاوز بكثير كل ما حاولت أن أشرحه لك فى خطاباتى الأولى . إن كل ما تعرفونه من الحب الأرضى هو حب الأم لوليدها، أو العروس لعريسها ، أو الزوج لزوجته . إن كل صنوف الحب التى تعرفونها مع ما فيها من نشوة العاطفة ليست أكثر من ألف باء لغة السماء .

وبقدر ما يكون حبكم مثالياً خالياً من الأنانية بقدر ما تفهمون الله وتضعونه فى داخلكم فيتحقق الأمل المجيد ! ألا ما أعظم أمجاد الشمس الشارقة بجانب الشعاع الرمادى الباهت الذى يسبق الشروق ؟ إنه كذلك أيضاً الفارق بين حياة المحبة التى تحياها والحياة التى تحيونها ، فيما خلا لحظات الإلهام الخاطفة السامية عندما ينبض قلبكم بالنشوة المقدسة التى يولدها الإلهام والتفانى فى الحب ...[1]

من أقوال هوايت هوك

كما تقول الروح هوايت هوك White Hawk (أى الصقر الأبيض) :

« إن رسالتى هى مساعدة الإنسان على إدراك الله فى دخيلة نفسه ، وإلى أن يصل إلى هذا الإدراك فهو غير عليم بإمكانياته . سوف أقول تيقظ أيها الإنسان وطالب بارثك السماوى ، لأن فى دخيلتك القوة التى توصلك إلى مملكة السماء .

أعتقد أن فى الإنسان بصيرة تمكنه من تفهم أسرار الحياة والموت ، وفيه القوة التى تمكنه من التغلب على المرض والفقر والانهيار ، اعتقد أن الإنسان إذا ما توصل حقاً إلى إدراك ذاته سوف يكون مخلوقا بديعاً ، ولكن كيف تخبر رجل الشارع بذلك ؟ إنه لن يستطيع الفهم ... »

من أقوال ليتارى

وتقول روح الدكتور ليتارى Letari المرشد للوسيط الى Lilly المعالج المعروف فى نفس الاتجاه أيضاً : « إذا سعيتم للقاء الرب فالرب يستطيع أن يأتى كيما يقابلكم ... هناك حياة ليس إلا . كل شىء ما هو إلا حياة . الحياة قوة والقوة هى الروحية ، والروحية هى إحساس الإنسان للإنسان . إن الألوهية هى الوعى الإلهى فى الإنسان ، وهذا معناه نزول السماء إلى الأرض ... »

(١) « بعد الموت » أو خطابات من جوليا ص ١٠٤ — ١٠٦ وراجع ما سبق عن هذه الروح فى الجزء الأول ص ٢٣٢ وما بعدها .

« إن صلاتكم تكون أفضل عندما تنسون أنكم تصلون . ينظر الإنسان إلى هنا وهناك باحثاً عن الله ناسياً أنه تعالى كائن فى داخله .



الدكتور ليتارى

الجسم الطاهر معناه الفكر الطاهر ، لأن الأفكار الشريرة تسبب المرض . كيما تكون غنياً فى عالم الروح لا يلزمك أن تؤمن بالله فحسب ، بل عليك أن تؤمن بنفسك وروحانيتك أنت . القدرة الروحية محكومة بالطهارة والقوة والفهم من جانب نفسك . القداسة معناها وجود الله فى الإنسان ، والقدرة معناها وجود الله فى الإنسان، وعلى هذا تكون القداسة معناها القدرة[1] » .

من أقوال زودياك

ويقول الروح زودياك Zodiac فى خطاب ألقاه فى قاعة الموسيقى بادنبرة فى سنة ١٩٥٧ عن طريق الوسيطة الآنسة وينفريد مويز Winifred Moyes :

« إن الله خلق الإنسان على صورته . وهذا حق مبين مهما يقل فى ذلك العلماء . ولكن على مر الزمان وبسبب سوء استخدام حرية الاختيار ، فإن الإنسان قد فقد صورة الله وأصبح شيئاً نصفه روح والنصف الآخر وحش . بل وجد أناس سقطوا أسفل سافلين ، ليس على هذا الكوكب فقط ، وإنما فى عوالم أخرى أخذت النفس فيها طريقها — وجد أناس سقطوا بعيداً جداً عن تلك المخلوقات التى أبدعها الله أول خلقه بحيث أصبحوا فى صورة أحط من الوحش نفسه .

---

(١) عن « أرواح مرسلة » للدكتور على عبد الجليل راضى ص ٧٩ .

إذا صليتم لله فإنه يسمعكم فى الحال ، ولكن الإجابة على الصلاة تأتى على درجات سلم من مخلوقات الله . لأن الله يريد أن ينال بركته كل واحد ممثلا فى تلك الحلقات ، بركته على الخدمة ، وعلى علاج الآخرين ، تلك البركة التى تعنى أن القوة الإلهية تزود هؤلاء العاملين كما تزود المستحقين ... »



زودياك

« إن الذين يئسوا من الأرواح إنما كانوا يتعاملون مع أرواح مرتبطة بالأرض . ولقد كان الفشل متوقعاً لأن الوسطاء نسوا أن يصلوا . نسوا أن يبحثوا عما يحب الإله الذى كان من الممكن بالتأكيد أن يبنى حولهم وقاية ضد النفوس الشريرة التى عليها أن تتعلم الكثير .

إنا هنا محاطون بمضيفين من الأرواح ، بأقربائكم ، بآباء من عصر آخر ، بأطفال جميلة تسير معى ومعكم . عمَّ يبحثون ؟ إنهم يريدون أن يدخلوا فى عقولكم أن معظم النهار قد انقضى ، وأن الليل سادل أستاره ، ولكن الليل يقود إلى الفجر الإلهى البديع . فإذا جاء الفجر هل تتفتح أعينكم على سجل من الماضى التافه ؟ أم تتفتح على الطريق المضىء ؟... » (١) .

من أقوال أفرار

ويقول أفرار Aphraar الروح المرشد للأستاذ روبرت جيمس ليز Robert James Lees : « لقد كان فضل الله على أكثر مما كنت أتصور ، وكانت الحياة الأخرى مختلفة جداً عما كنت أتوقع . ولهذا فأنا كبشر قد وجدت نفسى عاجزاً عن الصمت ، عندما أدركت أن الصمت ليس مفروضاً على ، وأن

---

(١) عن المرجع السابق ص ٥٣ ، ٥٤ .

العطف على الإنسانية والشكر لله يجعلانني أخلد للراحة قبل أن أعمل كل ما في وسعي من التبشير بكرمه تعالى ، ذلك الكرم الذي يفوق كل ماتتصور وما نقدر ، والذي يوجد في تلك الحياة التي تنتظر مباشرة خلف ضوء الشفق الخفيف الذي يظهر في لحظة الانفصال عن الجسد . إن الله الذي كنت أتوقع أن أقف أمام كرسي عدالته لأجده قاسياً لا يغفر كان حقاً أعظم من أي أب ، لم أصمت وحالما وجدت العودة ممكنة والعوائق الطبيعية مزاحة أجبت رغبة قلبي ، ونشرت على العالم رسالتي الأولى اعترافاً بالجميل(١) » .

من أقوال إمبراتور

كما يقول إمبراتور Imperator — الروح المرشد للأسقف ستانتون موزس — الأستاذ بجامعة لندن — في مؤلفه « تعاليم أخرى للروح(٢) » :

« إننا نتحدث عن الفكرة الصحيحة عن الله ، ليس ككائن شخصي ، إنساني في صفاته فيما خلا القدرة ، ليس كإنسان مجيد ، بل كروح مهيمنة على الجميع وسائدة على الكون . والإنسان على استعداد الآن كيما يتلقى فكرة أكثر اتساعاً عن الله . وأنا أقدم إليكم إلهاً اسمه المحبة التي لا تحدها حدود ، أما فكرة « الإله الشخصي » فقد كانت نتاج عبادة الإنسان لذاته التي سادت في وقت ما في الجنس الإنساني ، وتصحيح مثل هـــذه الأخطاء جزء من رسالتنا .

إن الله ليس شخصاً ، ولا يجلس على عرش في مكان معين ، بل يسود كل مكان وزمان ، ويرشد الجميع ويحبهم ، بينما يتصوره الإنسان — عندما يكون

---

(١) عن « خلال الضباب » Through The Mists

(٢) More Spirit Teachings.

فى جسده — محدوداً بحدود ، أما الله — بقدر ما عرفناه — فهو ليس شخصية ذات حدود . . . .

والصلاة حسنة ، لأنه عن طريقها يحرك الإنسان قوى يعمل الله عن طريقها ، فمن الخير للجميع أن يصلوا ، والروح البليدة التى لا تصلى لا يمكن أن تصل إلى سفراء الملائكة ، لأن سفراء السماء تجذبهم الأرواح المصلية .

فمن جانب ، علينا أن نتحاشى الخطأ المدمر الذى يحاول أن يختزل الإله إلى مجرد « قوة » . ومن جانب آخر علينا أن نحذر من أن نضفى على الإله الوهم الذى يصوره بصورة إنسانية بكل سقطاتها واحتياجاتها ، ولهفتها التى لا تشبع للسلطة .

فى الأيام المبكرة صنع الإنسان إلهاً لنفسه ، طاغية بشرياً ، أسوأ مما يقدر الإنسان نفسه أن يكون . أما الله الحقيقى فهو المرشد ، والروح التى تتابع ، وتزودكم بالضوء والمحبة اللذين يمنحان الجمال لكل ما هو حولكم .

فالله ليس مجرد قوة ، ولا هو الكائن الموضوعى الذى تسمونه الطبيعة . فحاولوا أن تفهموه وتنظروه بوصفه الروح التى تلهم والتى تسود كل شىء ، وكلمة الآب هى الفكرة الصحيحة . الطبيعة ليست هى الله ولكنها تعبير عن القدرة السامية ، كما أن اليد ليست هى الجسد ، ولكنها تعبير عن القدرة التى تنتمى إلى الجسد .

وإن أكثر الأفكار زيفاً عن الآب العظيم شاعت بين أبنائه ، فنظروا إليه فى الماضى كإله غضوب لا يستعطف إلا بالدموع وبالعويل . كإله يجد نعيمه فى أن يلقى بأبنائه فى تعاسة أبدية . أما الإله الذى نعرفه — لا الإله الذى نتخيله — فهو إله محبة كاملة وخالدة ، تحتضن الطالح والصالح . إله يتطلع بعطف نحو جميع أولاده ولا يعرف بينهم تمييزاً بسبب الجنس أو الطقس ، ولكنه حنون ومجيب لكل من ينادى اسمه .

آه لو أمكن الإنسان أن يرى كما نرى حبه الذى لا يهدأ والذى يميل نحو

أشد أطفاله تدهوراً وتعاسة ويعزهم . وكيف أن فرقاً من الملائكة تحوط حقيقة أولئك الذين يحبهم .وآه لو أمكن لأعين بنى البشر أن تتفتح كيما ترى الهواء من حولهم وقد امتلأ بفرق من الكائنات المشرقة ، لمست بيقين شغاف قلوبهم ، ولا رتفعت أصواتهم بالتمجيد والدعاء .

فهل لقلب الإنسان المتحجر الذى أغلق تماماً عن الإحساس بالتأثير الذى يجىء من علٍ أن يشعر بإشعاعات شمس الحقيقة ، وأن يطلق صيحة التمجيد لواهب كل شىء ، إله المحبة الكلية ؟ » .

من أقوال سيلفر بيرش

كما يقول سيلفر بيرش Silver Birch الروح المرشد للكاتب الكبير موريس باربانيل Maurice Barbanell وسيط جلسات هانن سوافر H. Swaffer نقيب الصحفيين البريطانين[1] فى إحدى صلواته المشهورة[2] :

« أيها الروح الأعظم إننا جميعا نرغب فى ان نكون عبادك المخلصين لننشر صدقك وحكمتك وحبك وفهم قوانينك الطبيعية الخالدة . نود مخلصين أن نعرف أطفالك مكانهم فى ملكوتك اللانهائى ، حتى يمكنهم أن يعثروا حقاً على أنفسهم ، ويتعلموا كيف يستخدمون القوة التى أنعمت عليهم بها فى عالم مملوء بالظلام والمرارة والحزن والبغضاء . نرغب فى بيان الصدق البسيط عن الحقائق الروحية التى تقوم عليها دائماً الأسس الخالدة للعدل والخير والجمال. غرضنا هو تعليم الذين ضلوا سبيلهم، الذين لا يعرفون أين يجدونك، أنك موجود فى داخلهم ، وأن الروح اللانهائية تقيم بين هيا كلهم ، وأن مملكة السماء فى الباطن حقاً ، مملكة السرور والسعادة ، مملكة الحكمة والفهم ، مملكة التسامح والبر » .

---

(١) راجع ما سبق فى الجزء الأول ص ٢٤٥ ، ٢٤٦ .

(٢) هذه صلاة من بين عدد من الصلوات التى أدلى بها سيلفر بيرش والتى تعبر عن نفس مشاعره الراقية وعن إيمانه العميق ، ومنشورة فى كتاب عنوانه « إلى الروح الأعظم » To The Great Spirit.

« نحن نرغب فى الوصول إلى كل الحزانى والمهمومين ، المرضى والمكروبين ، الشكالى والمجهدين والمتعبين والمنكودين الذين لايعرفون أين يتجهون للإرشاد والفهم حتى يتحققوا أنك لم تتركهم وحيدين ... رسالتنا تشمل العالم المادى جميعه ، لا تميز بين كل الناس الذين يسكنونه ، ونؤكد أن روحك تسرى خلال كل طبيعة بشرية ، وفى كل صيغة فى الكون الجبار وأنها تظهر فى كل ذرة من الشعور .

وبمعرفة الصدق سوف يأتى سلام جديد يوقظ قلوب الناس ونفوسهم وعقولهم ، ويجعلهم يعيشون لبعضهم البعض خادمينك بخدمتهم لأطفالك أينما يكونون » .

...

ويناقش سيلفر بيرش كيفية فهم بعض الناس لله تعالى على أنه يشبه ملكاً أرضياً جالساً على عرش من مادة منظورة قائلا :

« مازالوا متعلقين بأفكارهم عن إله على هيئة بشرية . إن القانون يسرى ويتدخل ويظهر فى كل ناحية من الحياة . والقانون لا يعمل خلال الحب فقط إذ يشمل البغضاء أيضاً . القانون يتحكم فى شروق الشمس وفى العاصفة . القانون يعمل خلال الصحة والمرض . هل يريدون شكر الله على شروق الشمس، ولا يشكرونه على المطر ؟ . . .

سيلفر بيرش

« الروح الأعظم هو القانون الذى يتحكم فى كل حياة . لاشىء يمكنه أن يوجد خارج ذلك القانون طالما علمتم ذلك . وما تسمونه البغضاء ما هو إلا تعبير عن نفس غير

متقدمة . النفس داخل القانون . وفى وقت ما يأخذ الفرد الاتجاه الخاطىء وبهذا يبرز أقل صورة من صفة ، إذا ما استخدمت على وجه صحيح كانت هى الحب . الحب والبغضاء يسيران جنباً إلى جنب لأن الصفة التى تساعدك على إظهار الحب هى الصفة التى تستخدمها فى التعبير عن البغضاء . إن الحياة تعمل خلال المقارنة ...

إذا سكنت إلى الأبد تحت أشعة الشمس فإنك لن تقدر الشمس . إنك تقدر الشمس لأنك تسكن غالباً فى الظل . كذلك الحياة ، أنت تفهم السعادة لأنك ذقت المرارة . تستمتع بالصحة إذا ما عرفت قسوة المرض ، فنفس الصفة التى تجعلك مريضاً هى التى تجعلك صحيحاً ، ونفس الصفة التى تجعلك تحب هى التى تجعلك تكره . لاشىء يمكن التعبير عنه خارج القانون الذى يتحكم فى كل طور من الحياة ...

« إنكم إذا حددتم يوماً لفظ الروح الأعظم ، فالروح الأعظم لن يكون بعد ذلك الروح الأعظم . سيكون روحاً ذا خصائص ، روحاً محدوداً ، إذ أن طبيعة الروح الأعظم هى أن يكون لانهائياً قادراً على كل شىء ، لا يتغير ولا يتبدل ، لا يتوقف عن العمل خلال نفاذ القوانين الإلهية ...

ماذا على أن أفعل ؟ لقد تعلموا منذ زمن بعيد أن الله يوجد فى الخير والسبب البسيط هو أنهم صوروا الروح الأعظم كإنسان ضخم ، وبذا فهم لا يريدونه أن يحمل أية صفة يظنونها غير حسنة ، غير رحيمة أو غير عاقلة .

إن الروح الأعظم ليس بشراً . الروح الأعظم هو القانون الذى يتحكم فى كل الحياة ، وبدون القانون لا توجد حياة . القانون هو الروح والروح هى القانون ، لا يمكنكم تغيير ذلك . قد يخلق هذا مشكلات لهؤلاء الذين لا يستطيعون فهمه ، ولكن بالتقدم سوف يأتى الفهم ويتغير القول بأن

الروح الأعظم يعطيكم الأشياء الحسنة والشيطان يعطيكم الأشياء السيئة ، لأنكم سترجعون ثانية إلى نفس الورطة القديمة وهى من الذى خلق الشيطان ؟ . . .

الروح الأعظم هو القانون. اعرفوا ذلك، وعندئذ تتعلمون السر الأعظم للحياة . لأنكم إذا ما تحققتم مرة من أن العالم محكوم بقانون لا يتغير ولا يتبدل ولا يتحطم قادر على كل شىء عرفتم أن العدالة سارية ، وأنه لا يمكن أن ينسى أحد فى تدبير الخليقة العظيم ... »[1].

تعليق

وهذا الفهم من بعض الأرواح لمعنى الجلالة قد يبدو أقرب إلى حقائق الاعتقاد والعلم معاً من تصوير الإله على صورة ذات أو ملك يجلس على عرش فى رقعة ما من هذا الكون الهائل الاتساع . فقد أجمعت العقائد على أن الله روح أو محبة أو « نور على نور » او هو « نور السموات والأرض » ولم تجمع فى أية صورة من الصور على أنه جسم مادى . ومن ثم فإننا نحيا فى الواقع فى الله عندما نعرف كيف نحيا فى هذا الروح أو النور أو القانون الأزلى الذى لا يتغير ولا يتبدل ، ولذا كانت الحياة خالدة لأن الله روح خالد لا يموت ، أو نور لا ينطفىء . كما اتضح أيضاً من حقائق الفلك والفيزياء مجتمعة بحقائق الرياضة أن اتساع هذا الكون غير محدود ، أو محدود لكن قطره يقاس ببلايين السنين الضوئية[2] .

وروح الله تعالى تملأ هذا الكون كله فى جميع الأديان والفلسفات وتهيمن على كل كبيرة وصغيرة فيه طبقاً لنواميس محكمة غاية الإحكام . ولذا يصفه سيلفر بيرش « بالقانون الذى يسرى ويتدخل ويظهر فى كل ناحية من الحياة... والذى يتحكم فى كل حياة ... » . كما يرفض أى تحديد لطبيعته ، إذ أن طبيعته أن يكون « لا نهائياً قادراً على كل شىء لا يتغير ولا يتبدل . . . »

---

(١) من « سفير الأرواح العليا » للدكتور راضى ص ١٨٢ — ١٨٦ .

(٢) راجع ما سبق ص ٤٧ — ٥٢ .

وذلك كله متفق مع كافة العقائد ، وكلها تقوم على التسليم بصفاته غير المحدودة التى لا يحدها حد ولا يقيدها قيد من مكان ولا من زمان .

وهذا الفهم أقرب أيضاً إلى عقول العلماء عندما يدافعون عن هذه القدرة الكونية غير المحدودة التى انبثقت منها الحياة — ولا تزال تنبثق — بكل قوانينها المحيرة ، ما وصل منها إلى علم الإنسان ، وما لا يزال سراً مغلقاً عليه .

كما أنه أدعى إلى توثيق صلة الإنسان بخالقه ، وشعوره بأنه إلى جواره وأقرب إليه من نفسه فإذا دعاه فهو سميع الدعاء مجيب . . ولذا قال بحق أحد الحكماء إنه « بالرغم من عظم تدبير الأكوان وجسامته فإن الله جل جلاله معنا هنا دائماً ، هنا حولنا ، هنا فينا . إنه أقرب للأخ من أخيه ، أقرب من الأم إلى رضيعها ، أقرب من الحبيب إلى حبيبه . أقرب إليكم من قلوبكم ، من دمائكم ، من عقلكم . إن الروح دائماً معكم فتشجعوا ولا تخورن عزائمكم . . تعلموا أن تعرفوا أن الله فيكم وفى جميع الآخرين ، وأنكم من الضرورة له بمكان ضرورته لكم ، لأنكم جزء من فكرته ومشيئته . تعلموا أن الحياة فى كل شيء واحدة ، وافتحوا قلوبكم لفيض الحب الالهى والحكمة العلوية ، فكونوا راغبين فى النمو . تقدموا وازدهروا ... »[1] .

وذلك ينتقل بنا إلى موضوع مكمل للإيمان بالله تعالى وهو موضوع الصلاة والابتهال .

فى الصلاة والابتهال

لا تقتصر تعاليم الأرواح الراقية على تعزيز الإيمان بالله وتثبيت عمده على أسس روحية علمية مفهومة ، بل إنها تطالب الإنسان — كما رأينا فى أقوالها الصريحة — بالصلاة الحارة ، وتتطلب فيها أن تكون صلاة إيجابية

---

(١) عن « فلسفة اليوجا » المرجع السابق ص ٣٥٠ .

منبعثة عن القلب لا عن اللسان، عن عميق محبة وعن قوة إيمان . وتؤكد أن صلاة هذا شأنها تقدر على تلقى العون فوراً ، وعلى تحقيق ما نسميه هنا بالمعجزات ، ويسمونه هناك تطبيقات لقوانين الله العادلة التى لم نعرف منها بعد سوى النزر اليسير .

فإيمان العقل أو الضمير لا يكفى ، بل لا بد من صلة وثيقة بالله تعزز هذا الإيمان وتنبع منه ، هى صلة الصلاة أو الضراعة أو الابتهال أو الدعاء أو التوسل إليه فى أية صورة يستريح إليها ضمير الإنسان ويطمئن إليها وجدانه .

وفى هذا الصدد تتحدث الروح الفرعونية نونا التى عاشت فى مصر تحت حكم أمنحوتب الثالث (بين سنتى ١٤٠٦ ، ١٣٧٠ قبل الميلاد) على لسان الوسيطة الشهيرة روزمارى قائلة عن الحرب والسلام من ناحية صلتها بالصلاة «لقد أثارت الرغبة فى خلق السلام موجة من الكراهية عند ذوى العقول الغليظة فى عالمكم . لا يمكن أن تحدث عندكم حرب ما لم تنطلق قوة الشر التى قد تتغلب بعض الوقت على قوة الخير .. معظم زعمائكم لا يعرفون الصلاة ، ولو علموا أية قوة هى بين أيديهم لصلوا دائماً . إن الصلاة هى الصلة المباشرة التى بواسطتها يمكن أن تنفتح فى أية لحظة صنابير كل القوى العالمية التى يسيرها الله لتنفيذ أغراضه .

إلى أن تقول «إن قوة الفكر فى عالمكم اليوم تكون سحباً واسعة تمنع كل أشعة الضوء الصادرة من العقل والرحمة وحب البشرية (كان هذا قول بين عامى ١٩٣١ ، ١٩٣٦) وليساعد الله دنياكم إذا لم يبرز ينبوع للقوة يمكنه الاندفاع عالياً . . .»[١]

* * *

(١) عن كتاب «روح فرعونية تتكلم» تأليف الدكتورين هوارد هولم H. Hulme (عالم فى التاريخ الفرعونى) وفردريك وود F. Wood وترجمة الدكتور على عبد الجليل راضى ص ٩٤ .

وهذه الصلاة بدأ بعض علماء المادة مثل العالم الطبيب ألكسيس كاريل Alexis Carrel — الحائز على جائزة نوبل فى سنة ١٩١٢ ومدير معهد روكفلر بباريس والمشرف على عدد من معاهد العلاج — يعطيها قيمة عظمى فى العلاج والشفاء، بل فى حياة الإنسان، فيجعلها ألزم لها من الماء والهواء. فإذا به بعد أن حقق بنفسه حالات متعددة من الشفاء المعجز فى قرية لورد Lourdes عند الحدود الفرنسية الأسبانية يضع رسالة مشهورة عن الصلاة يقول فيها: « وليس من الضرورى لحدوث ظاهرة الشفاء المعجز أن يصلى الإنسان لأجل نفسه. فقد شفى أطفال صغار لم يتكلموا بعد كما شفى أناس لا يؤمنون فى لورد لأن بجوارهم إناساً يصلون لهم. وكثيراً ما كانت الصلاة لغير صاحبها أنفع من صلاته لنفسه، وإنما تستمد الصلاة فعلها من عمقها وخلوصها ».

كما يقول كاريل فى تعريف الصلاة، إن الصلاة على ما نرى تسام فى النفس إلى أوج اللامادية من الدنيا. وهى — على أكثر ما تكون — شكاية أو ابتهال أو صرخة أو استغاثة. وهى فى بعض الأحايين تأمل خالص فى أصول الوجود ومصادره. ويصح أن يقال إنها ارتفاع بالروح إلى المقام الإلهى عنواناً للتوجه بالحب والعبادة إلى ذلك الذى صدرت منه الأعجوبة التى هى الحياة ...»

كما يقول: والشعور بالجانب المقدس من هذا الوجود حالة لا تنفصل من حالة الخشوع الذى يلازم الصلاة. فلا صلاة مع الابتذال والجشع والتهافت على اللبانات، وإنما الصلاة تطلع مع الحب وفزع مع الثقة. وهى بهذا نوعان: مناجاة وابتهال. ومن الجهل أن يقال إنها أشبه شىء بأن يطلب إنسان من الله أن يخل بنظام الكون، ويغير الأسباب والمسببات، لأن المصلى وعقائده وملهماته جزء من نظام الكون، وسبب من الأسباب التى يحيط بها علم الله ».

ثم يختتم رسالته قائلا : « والخلاصة أن الشعور بالقداسة مع غيره من قوى النشاط الروحانى له شأن خاص فى الحياة لأنه يقيمنا على اتصال بآفاق الخفاء الهائل من عالم الروح . وبالصلاة يسمو الإنسان إلى الله ويداخل الله سريرته . وهى على ما نرى ضرورة لاغنى عنها لنمو الإنسان فى أرفع حالاته. ولا ينبغى أن ننظر إليها كأنها عمل لايلجأ إليه غير الضعاف والمتسولين والجبناء، كما قال نيتشه إنها شيء مخجل . فما الصلاة بأدعى إلى الخجل من الشرب والماء والتنفس ، وإن الإنسان ليحتاج إلى الله حاجته إلى الماء والأكسجين. وهذا الشعور بالقداسة إلى قرائنه من الشعور بالبصيرة والحاسة الخلقية وذوق الجمال وضياء الفهم — هو تمام الازدهار والنضج للشخصية الإنسانية . ومما لا جدال فيه أن استيفاء حياتنا يتطلب منا أن ننمى كل نشاط فينا يشمل الجسد والذهن والعاطفة والروح ، وما الروح خلو من العقل ولا من العاطفة . فمن واجبنا إذن أن نحب جمال العلم وجمال الله . . . » .

وقد كانت رسالة الصلاة هذه — على حد تعبير المرحوم الأستاذ عباس محمود العقاد — زبدة آراء هذا العالم الطبيب فى مسائل العقيدة وأجمع منها لآرائه كتابه عن « الإنسان . هذا المجهول » وهو فى بابه أجرأ كتاب كتبه عالم باسم الطب والعلم فى مسائل العقيدة والروح ، لأنه أعلن فيه أن النظر إلى الإنسان كأنه آلة جسدية هو خطأ طبى أو خطأ علمى .. وختمه بنداء إلى ذوى الرأى والبصيرة كأنه توسل فى محراب ناشدهم فيه «أن يعتقوا ضمائرهم من ربقة الكون المادى الذى بناه لهم الطبيعيون والفلكيون ، ولكننا لا نزال غائصين فى الدنيا التى خلقتها علوم المادة الميتة غير ملتفتين إلى عوامل النمو والكمال التى فى نفوسنا ، بين جدران دنيا لم تخلق لنا لأنها من صنع الخطأ فى تفكيرنا والذهول عن حقيقتنا . ومثل هذه الدنيا لا يمكن أن تلائمنا ونلائمها، فلامناص لنا من الخروج عليها وأن نبدل قيمها ونعيد نشأتها وفاقاً لمطالبنا الصادقة .

وإن هذه العـــلوم الإنسانية اليوم لتخولنا أن ننمى كل قوة كامنة فى أجسامنا . فنحن نعلم الأسرار الآلية فى وظائفها وفى ملـكاتها القليلة ونعلم من ثم مواطن ضعفها ، كما نعلم كيف تخطينا اوامر الطبيعة ، ولماذا عوقبنا وضللنا فى الظلمات ، ولـكننا على هذا نبصر خلال الضباب قبساً من الفجر خليقاً أن يهدينا سبل النجاة ... »

هذا هوما يقرره كاريل فى كتابه المعروف «الإنسان هذا المجهول» والذى يقرر الأستاذ عباس محمود العقاد فى شأنه أنه « قد جاء فى إبانه فتجاوبت به الأندية العلمية والدينية سنوات ، وقيل إن وطأته على مذاهب الإنكار قد حملت دعاتها على تطويقه بسد خفى من المصادرة فوقفت نشره عند حد محدود »(١). فإذا كانت مذاهب الإنكار لم تطق كتاباً واحداً يعتبر ضربة موجهة لها ، فهل يمكن أن تطيق أمهات الـكتب الروحية ، وأى منها قد يصدق عليه نفس هذا الوصف ؟

بل إن الروحية الحديثة تحارب فى الواقع فى جبهتين فى وقت واحد : جبهة مذاهب الإنكار هذه ، وهى تأبى أن يفترض إنسان — حتى مجرد افتراض — وجود الروح ودوام الحياة بعد الموت ، وجبهة مذاهب الجمود التى تأبى أن يبحث أى إنسان فيها خشية المباراة السليمة ، وخشية أن يسفر بحثه عن خطوة واحدة للأمام ، وهذه هى الطامة الـكبرى التى ينبغى ألا تـكون ! . . .

* * *

وما يصدق على كاريل عندما علق هذه القيمة الـكبرى على الصلاة بعد بحوثه الروحية وبخاصة فى ظاهرة العلاج الروحى يصدق أيضاً على سير أوليفرلودج — وهو من أبرز الأسماء فى الحركة الروحية الحديثة بين علماء الفيزياء لأنه ظل لمدة أكثر من نصف قرن يبحث فيها ويؤلف ويحاضر

---

(١) عن « عقائد المفـكرين فى القرن العشرين » ص ٨٥ .

بمقدرة وبلاغة نادرتين، وقد راح يعلق على الصلاة نفس الأهمية التي عاقها عليها كاريل ويناقش الذين يتصورون التناقض بين الصلاة وبين القوانين الأبدية بأنهم « يتصورون أنفسهم كأنهم شيء منعزل عن الكون وخارج منه يعمل فيه من ظاهره ويحاول أن يبدل مظاهره بالابتهال إلى نظام في القوى المسيرة . . . ولكن إذا استطعنا أن نتفطن إلى أنفسنا وأننا نحن جزء صميم من النظام بأسره ، وأن رغباتنا ومطالبنا هي نفحة من الإرادة المسيطرة الهادية ، لم يمتنع على حركات عقولنا أن يكون لها أثر فاعل، إذا سرنا بها وفاقاً لأصدق ما في الكون من قوانين وأعلاها . . . »(١)

* * *

وكلام الأرواح الراقية لايخرج في جملته عن هذه المعاني في شأن لزوم الصلاة وفائدتها ، كما لمسنا آنفاً من أقوال الدكتور ليتاري وزوودياك وسيلفر بيرش وغيرها . وكما لمسنا ذلك أيضاً في الباب الذي خصصناه « للثواب والعقاب » وقد رأينا كيف أنها — سواء أكانت أرواح سعيدة أم شقية ، راقية أم غير راقية — تتحدث عنها كثيراً وتطالبنا بها كما تطالب نفسها بها(٢).

والأرواح الراقية عندما تطالب الإنسان بعبادة الله تعالى على الصورة التي يستريح إليها وجدانه ، لا تطالبه بأن يفعل ذلك لمجرد إرضائه بالزلفى إليه ، ولا لمجرد تحقيق أغراض تافهة دنيوية قد تضر ولا تنفع(٣). كما لا تطالبه بأن تكون عبادة الله على صورة من صور التعلق الغامض بالغيبيات أو الخضوع لسلطان التقليد وما آتواه من سلطان . . . بل تطالب بعبادة حارة مخلصة

---

(١) عن كتاب « الله » للأستاذ العقاد ص ٢٨٩ .

(٢) راجع أمثلة فيما سبق ص ٢٧٦ ، ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٩١، ٣٤١ .

(٣) قال الفيلسوف روسو « إني أعبد الله ولا أسأله شيئاً لأن السؤال معناه الشك في عناية الله وطيبته ». وقال الفيلسوف كنط « إن الله عليم بكل شيء ، طيب للغاية ، ميال إلى معونتنا وهو يعرف حاجتنا أفضل مما نعرفها ، فمن الفضول الإعراب عنها بالصلاة ... ».

صادرة من القلب لا من اللسان ، عن صحيح تقوى وإيمان ، وذلك حتى يكون المتعبد أقرب إلى ناموس الاعتدال وضبط النفس وأقدر على اتباعه مهما كان مراً وقاسياً عليه ، وأشجع فى مواجهة صعاب الحياة الدنيا التى عليه أن يجتازها فى بحر من الظلمات قبل أن يصل راضياً إلى بر الأمان مرضياً . . .

فلنعبده إذاً إلهاً موضوعياً ـ مطلقاً أو مجرداً ـ تتمثل فيه وتصدر عنه جميع قوانين الطبيعة الحكيمة التى يكتشفها العلم ببطء وفى مشقة . أما الإيمان الشخصى المتحيز فقد كان عقبة كؤوداً — ولا يزال — فى طريق التعبد المستنير ، بل حافزاً للشك عند الكثيرين .

ولنعبده إذاً إلهاً عادلا وغفوراً معاً ـ لأن المغفرة من العدالة ـ وقاضياً سوياً لا يعرف محاباة ولا تحيزاً يكون مع الإنسان عندما يكون هو معه ، ويحقق رغباته عندما يعرف كيف يحيا فى توافق مع نواميسه الحكيمة التى تعرف بذاتها كيف تثيب من يطيعها وتعاقب من يخالفها ، بما لا يمكن لأية عدالة أرضية أن تصل إليه ، أو أن تدرك منه ولو جزءاً يسيراً ...

لله في تعدد الأديان حكمة سامية

قد يتساءل الإنسان قائلا إذا كان الله واحداً تتمثل فيه هذه القوانين الأزلية التى لا تقبل التبديل لأنها معصومة من كل خطأ ، فلماذا إذا تعددت الأديان ، وما موقف العلم الروحى الحديث من تعليل هذا التعدد ؟ والجواب على ذلك يسير ، وهو أن لهذا التعدد رسالة فى ناموس الحياة جليلة وهى توسيع آفاق الإنسان فى المعرفة وفى الفضيلة ، وتغذية عاطفة التسامح والمحبة فى قلب المؤمن لسائر الناس من أى جنس كانوا ومن أى دين .

فلولا تعدد الأديان لما كان لفضيلة التسامح الدينى — وهى أصل لفضائل كثيرة — من مبرر ولا مكان . والتسامح هو طريق المحبة الحقيقية التى لا تعترف بأخوة أصدق ولا أعمق من أخوة الإنسان للإنسان ، وبغيرها يصبح الإيمان بالله نوعاً فحسب من إيمان الإنسان بنفسه وبما ورثه من اعتقاد ،

وبالتالى حافزاً للأثرة بدلا من الإيثار، الذى هو الأب الشرعى والأم الرؤوم لكل فضيلة حقيقية .

ولله تعالى من تعدد الأديان حكمة أخرى سامية كحكمته من تعدد الأجناس والأوطان والألوان ، وهى دفع ناموس التطور والارتقاء إلى الأمام ، كما تقول الفلسفة الهندية المسالمة الجميلة « فالتطور هو التحرك إلى الأمام من خطوة إلى أخرى . وفى هذا التحرك تغيير وتبديل وهما أصل الاختلاف . فإذا محوت الاختلاف وجعلت التطابق يعم الخليقة محوت التطور وأعدمت التقدم ، لأن الكون كما أبدعه الخالق آلة هائلة منسجمة الأغراض سائرة إلى التطور فى كل جنباتها ، لكن يربط بين أواصرها نظام واحد فى العمل ، وتجمعها وحدة شاملة فى الغرض .

فإذا حاولت أن تمحو الاختلاف فى الدين وتجعل الخلق منتظمين فى دين واحد ، وأن يتجه تفكيرهم فى مجرى واحد لا يتغير لوجدت نفسك فى النهاية وقد قضيت على الدين نفسه ، ولظلت أفكار البشر راكدة آسنة . ولقد شاهد الإنسان أن مجرد الوقوف عند الاجتهاد فى الدين يؤدى إلى ضعف الإيمان وإلى الفتور فى العبادة . وبدلا من التطلع إلى الأفضل ينساق العقل إلى الخزعبلات والشعوذة والأباطيل . فالتعدد واجب ما دامت الحياة أبدية . وكذلك سنة التطور وهى قانون من قوانين الخالق جل شأنه ...

ولا نعد متسامحين مع الأديان الأخرى إلا إذا عاملناها بمثل ما نحب أن نعامل به ، وإذا كانت الأديان كلها ذات مصدر واحد وتبشر بالحق وتسعى بالإنسانية إلى الكمال ، فمن التعسف أن توكل هذه المهمة إلى فرد بذاته أو إلى جماعة بذاتها ، فإن معرفة الحق مشاع بين الجميع كما أراد الله لكل نفس أن تتمتع بالشمس والهواء والماء [1] » .

---

(١) ترجمها صديقنا المرحوم الدكتور زكى العزيزى الطبيب النفسانى عن مجلة « براذها بهارتا » الهندية ونشرها تحت عنوان « الدين لله » فى مجلة عالم الروح عدد ابريل سنة ١٩٥٩ ص ١٧ وما بعدها .

ولعله لتحقيق هذا الهدف قال غاندى أيضاً « إننى أملك ثقة عمياء بالله وبجوده ، وميلا للحق والحب لا ينضب معينه ، ولكن أليس هذا كامناً فى نفس كل إنسان ... إننا وصلنا إلى اكتشافات واختراعات جديدة فى العالم الخارجى ، فهل ينبغى أن يكون الإنسان ضارياً فى مبدأ الأمر ثم إنساناً بعد ذلك إذا قدر له أن يكون ؟ ... »

* * *

ومما قاله أيضاً فى هذا الصدد أحد الحكماء الروحيين «فى حروبنا العصرية نجد كلا من الطائفتين المقتتلتين تدعو الله لينصرها على عدوها ، وكل من الفريقين يعتقد أن الله معه ... لقد اضطهد الإنسان أخاه الإنسان لأنه رأى فى الله غير رأيه ، فلما اشتد ساعد الضعيف المضطهد وتمكن ممن هو أضعف منه ومن يرى فى الله غير رأيه اضطهده . وكل يعتقد أنه ينفذ مشيئة الله وهو ينكل بخصمه الضعيف ، وذلك الخصم وهو يلق النكال يلقاه راضياً لأنه فى سبيل الله ... والكل يعتقد أو يدعى أنه يرضى الله بالانتقام من اعدائه . وكم يبدو هذا كله عبث أطفال لمن أوتوا من سعة العلم وبسطته ما يجعلهم يدركون أن الناس جميعاً عيال الله ، وأنهم جميعاً يعملون بخير ما وصلت إليه عقولهم ومعرفتهم ولا لوم ولا تثريب عليهم .

فمن كان يعمه فى ضلاله فهو إنما يعمل ما وسعه وكل ميسر لما خلق له ، وكل يعبد الله بما ألقى فى روعه وهو يؤمن بأن عبادته خير العبادات ، وأن إيمانه أصح الإيمان ، وأن معبوده هو الحق ، وما يعبد الناس من دونه إلا الباطل ، وكلهم يعمل بدافع الغريزة الدينية التى تحفز الناس إلى الأمام ... إنهم يظنون أنهم يعبدون آلهة تخيلية وما ذلك إلا وهم . فهم جميعاً يعبدون إلهاً واحداً ويقدسونه ، الخالق المبدع لا إله إلا هو الواحد الحق .

إن العقول المختلفة لها مناظير مختلفة ترى خلالها لله صوراً متعددة حتى ليبدو بعضها للناس مخيفاً ، ولكن هذا كله لا يغير الواقع ولا يبدله . فالحقيقة

هى هى ، والله لا إله إلا هو ، لا شريك ولا مثيل له ، الواحد الدائم الأول الآخر ... فمن عبده فى أعلى ما يتخيل من صفاته فقد أحسن صنعاً ، شأنه شأن الذين وصلوا إلى المراحل السامية الذين يعبدونه حق عبادته وعليه أجرهم . وسيزداد إيمان المتوحش والعالم النقى مع الزمن إذ ينبسط عقل كل منهما عاماً بعد عام ليتقبل نعمة الله ، ويتفتح ليسمح للمعرفة الروحية أن تفيض عليه .

وواجب من أوتى شيئاً ولو قليلا من العلم أن يأخذ بيد من هم أقل منه شأناً إن استطاع وإن قبلوا معونته وإرشاده . ولكن ليس لنا أن نعين من هم دوننا إيماناً وعقيدة ، فهم إخوتنا فى الله يسيرون على الطريق شأنهم شأننا ، وما نحن وهم إلا أطفال فى مختلف مراحل التعليم كل حسب نضجه وسنه ، كل يعمل على شاكلته ، يعمل ما يؤهله له سنه ودرجته . كل له من الفهم ما يمكنه منه سنه كل يحاول أن يصل بما يعمل إلى حد الكمال الذى يستطيعه ويتصوره .

يجب علينا ألا نسخر من أحد ،أو نتهم أحداً ، أو نبغض أحداً . يجب أن يغمر حبنا كل إخوتنا ، حتى ولو كانوا لم يفتحوا أعينهم بعد على ضوء المعرفة ... »[1] .

من أقوال سيلفر بيرسه

وفى هذا الشأن يتحدث الروح سيلفر بيرش قائلا أيضاً : « ينبغى أن تتذكروا أننا لانفكر فى الروحية كشىء يمكن مقارنته بالديانات الأخرى. إن الروحية بالنسبة لنا قانون الكون الطبيعى . وكل ديانة كانت وسيلة للتعبير عن القانون الطبيعى .

---

(١) من الحكيم بوجى راما شارا كا فى « فلسفة اليوجا » ترجمة الأستاذ مريان يوسف سعد. ص ٢٣١ — ٢٣٥ .

لكل زعيم ملهم جاءت الرؤيا والإلهام وفهم القانون الطبيعي يتصرف فيها على حسب العصر الذى عاش فيه،من نمو وتقدم وتطور وعادات وتجربة وفهم . وكما تلقاها النبى فهو قد نقلها لمن كان لديهم استعداد ...

ولم يستطع الحق البسيط أن يبقى على فطرته جميلا . لقد غدا مزيجاً من الإلهام الذى أضيفت إليه المعتقدات السائرة ، والأساطير اللاهوتية ، والتجارب الدينية ، والتقاليد الموروثة . وفى وقت ما اندثر كلية ما يتعلق بالروح العظيم ، وظهرت الحاجة من جديد لبعث ما دفنه الإنسان وإحيائه .

لقد استقر العزم على أن الحق الروحى قد جاء هذه المرة لأجل أن يبقى ، ولا توجد قوة على الأرض فى استطاعتها أن تمنعه ، والخطة آخذة فى النجاح ، فالحقائق الروحية أصبحت محسوسة الآن فى كل الأقطار فى عالمكم .

وهذه الحقائق الروحية يجب أن تعيش لأنها هى أساس الأمر الجديد الذى يقام بينكم . إننا نستعين بنفوس لا عداد لها من عالم الروح . والذين يصطفون بجانبنا يسعون للعمل مع كل الناس من أى جنس ولون ، من أى مذهب وشعب، ممن يرغبون فى إسراع الأمر واستعجال هذا العصر الجديد ، ونحن نتكلم عن علم عندما نقول إن عالمكم القديم المؤسس على المادية الأنانية يموت ، وإن دنياكم الجديدة قد ولدت بين ظهرانيكم » .

كما يقول أيضاً : « الدين هو أن تخدم الروح الأعظم بخدمتك أطفاله . الدين هو ذلك الذى يساعد الروح الأعظم الذى فيكم على أن يبرز فى حياتكم ، الدين هو ذلك الذى يزيد من الرباط بينكم وبين الروح الأعظم وبين أطفاله الآخرين ، الدين هو ذلك الذى يجعلكم تنتشرون فى الأرض لتقدموا الخدمات أينما تقدرون ، الدين هو الخدمة والخدمة هى الدين . إنما يزداد نمو النفس بالخدمة لا غير ، لأنك عندما تنسى ذاتك فى خدمة الآخرين تنمو نفسك فى التركيب والقوة .

«الأشياء التي من أجلها تسبب في الماضي سيل الدماء والتعذيب والتحريق لا تزيد من روح الإنسان ذرة واحدة، لقد قسمت البشر إلى معسكرات متضادة، خلقت الحواجز، سببت فروقاً لا لزوم لها بين الشعوب والعائلات. خلقت المنازعات وعملت كل شيء ديدنه المهاترة وعدم التآلف. لقد فشلت في تآلف أطفال الروح الأعظم، هذا هو السبب في أننا لا نعنى كثيراً بالمباني. لا نهتم بما يسميه الإنسان بنفسه، إن ما يهمنا هو ما يعمله من أعمال(١)».

من رواسب الجهالة إلى حقائق المعرفة

وهذا الفهم الصحيح لمغزى تعدد صور الاعتقاد — وصحيح رسالته في شتى مستويات الوجود — لا تظهر قيمته على حقيقته إلا عند ما نقارن بينه وبين أي فهم آخر قد تنادى به مدارس الانطواء أو الجمود. فنجد أن أي فهم آخر من نتائجه المحتومة أن يغلق الإنسان على نفسه جل أبواب المعرفة، ويعصب عينيه عن النظر إلى حقائق الحياة المشرقة الجلية. فيحيا في غير زمانه وغير مكانه، ويقاوم — يائساً — كل معرفة، بل ينكر ناموس التطور نفسه، مع أن الله تعالى بدعه لرقي الإنسان وسيره حثيثاً نحو نجاح رسالته في الحياة، ونجاح رسالة الحياة فيه. وهو الذي انتقل به من حالة إلى حالة، وهيأ له أن يصل إلى ما وصل إليه من رقي ومن عرفان.

والتطور ليس فحسب لازماً لتقدم الحياة، بل لنشوئها ولاستمرارها، لأن الحياة ليست أكثر — ولا أقل — من حركة عاقلة دائبة تنكر السكون من أية ناحية نظرت إليها. فهي متحركة في تحرك الشموس والكواكب والنجوم في أفلاكها على هدى حتى وإن بدت لحواسنا ثابتة لا تتحرك، أو متحركة

---

(١) عن «سفير الأرواح العليا» ص ١٣٢، ١٣٣.

على غير هدى ! وهى متحركة فى النبات والحيوان فى ظهورهما ونموهما وذبولهما . وهى متحركة فى الحجر الأصم الذى يمثل طاقة محبوسة متموجة لا تعرف السكون ، فهل نكون — نحن بنى البشر — أشد من الحجر الأصم صلابة وجموداً ؟! . . .

وهل نرفض كل معرفة جديدة لمجرد جدتها ، وكل حقيقة غريبة لمجرد غرابتها ؟! . . وهل نضحى على مذبح جمودنا وصلابتنا فهم الحقائق العلمية ومعها أمور الحياة الجلية ؟ إن هذه التضحية سهلة ميسورة ، بل مريحة جداً ، لكنها فى نفس الوقت ضارة هدامة ! لأن معناها إنكار الحقائق فى سبيل التمادى فى عبادة « قديمنا » عبادة تنال حتماً من صحة تقدير الأمور بطريقة شعورية أحياناً ولا شعورية أحياناً أخرى ، بما فى ذلك أمور العلم والفلسفة والاجتماع والأخلاق والتشريع ، وغيرها من مقومات الحياة الكريمة ، فإذا النتيجة المحتومة خطأ متراكم فى التفكير وفى التقدير .

والخطأ الذى نعرفه فى شرائعنا أمره غير ذلك الخطأ الذى تعرفه شريعة الطبيعة . « فالبطلان » فى « إجراءاتنا » مثلا قد يغيب أمره عن وعينا ، وقد نتنازل عنه ، وقد نراوغ فيه ، بل قد نستفيد منه أحياناً . أما الخطأ فى حقائق الحياة فهو رهيب لا يغيب عن وعيها ، وليس من سبيل للتنازل عنه أو للمراوغة فيه ، أو لجر مغنم منه . بل إن آثاره محتومة لأن النتائج مرتبطة فى ناموس الحياة ارتباطاً محتوماً بمقدماتها .

ومن يبحث فى العلل الدفينة لتخلف الشعوب والجماعات لن يجد علة أخرى حقيقية غير الأخطاء المتراكمة — بسبب عبادة القديم — فى الحكم على حقائق الحياة ، وعدم الرغبة فى تفهم صحيح نواميسها ، ولا اتباع سننها . فالخطأ يبدو عندئذ صواباً ، والعنف يبدو عندئذ قوة ، والقسوة رحمة ، والشطط حكمة ، والمنطق المتفكك ذكاء ، والتسلط إخاء . . وهكذا دواليك مما يؤدى حتماً إلى إلغاء

رسالة العقل الناقد وبالتالي إلى جمود الروح وتوقفها ، ثم ضعفها وتخلفها .

وفي إلغاء دور العقل الناقد المتحرر ، إذكاء أيضاً لعناصر الطغيان عند « الأقوياء » في المجتمع والخنوع عند « الضعفاء » ، وفي النهاية دعوة مستترة لتمجيد الأشخاص على حساب الحقائق الناصعة والمبادىء الرائعة ، ثم ذبول هذه وتلك معاً وبالتالي اختفاؤها في خجل واستحياء ! . .

ولمن يشك في ذلك أن يتأمل متروياً كيف يمكن أن تجني على أي مجتمع طريقة تمجيد الأشخاص هذه، ولو لمثل عصبية الدم أو الجوار وهي أسلوب التقدير والموازنة عند الكثيرين حتى في الأمور اليومية البسيطة ، وكيف يمكن أن تضحي على مذبح هذه المهالأة جل دوافع النهوض والاستباق ، كيما تسود — موفورة — دوافع التردي والإخفاق ، كلما أثيرت موازنة بين عمل وآخر ، أو رأي وآخر .

وذلك لحساب إنسان لن يفيد من مثل هذه المهالأة شيئاً إلا عبئاً ثقيلا على ملكاته ، وعقبة جديدة من الخيلاء في طريق تطوره وارتقائه ، وبالتالي في أداء رسالته الصحيحة في الحياة ، كما تريدها له موازين الطبيعة العادلة لا موازين الخديعة التي لا فائدة منها ولا كرامة لها ، والتي قد تنجح مرة في خداع البصر ، لكن لن تنجح أبداً في قيادة البصيرة التي هي قبس الروح ومصدر إلهامها ، كيما تتعرف على طريقها الضائع في الظلام عندما تريد قوى المهالأة في هذا الكون أن تحيطه هائثة بالمظالم وبالظلمات .

ولو ترك هذا الإنسان المدلل بغير هذه العقبة الكؤود في طريقه لسار حثيثاً إلى الأمام ، وربما وصل بجده وجهاده إلى مرتبة حقيقية عالية من الإجادة والإتقان ، وهكذا تنمو الحياة وتتقدم حتماً في أية بيئة تعرف قدر العدالة والمساواة، حين تتراجع للوراء كاسفة ذليلة في أية بيئة للمالأة والمحاباة، أياً كان موطنهما ومصدرهما ...

فالويل لتقدم الحياة إذاً من — شعور المهالأة — إذا قدر له أن يسود ،

والويل لنا نحن — بنى البشر — إذا ما تصورنا أن مثل هذا الشعور ينبغى أن يعد من علامات التقوى أو من دلائل الإيمان . وهو شعور مهما قيل إنه غريزى، فإنه يمثل غريزة بدائية — مصدرها الأنانية وانفعالها العدوان — فهو يرجع إذاً فينا إلى ماضينا السحيق ، كما ترجع جل غرائزنا البدائية إلى أصول قد لا يشرفنا الانتماء إليها، مهما جزم العلم بصحة هذا الانتماء . فهو لا يمت على أية حال بصلة إلى رسالة العقل المتطور النامى ، وإلى خطورة دوره فى الحياة الصاعدة المتحررة من أغلال الترهات والأوهام .

بل هو شعور يتضمن فى الواقع إلغاء لرسالة العقل ، لحساب إحساس موهوم بالتضامن البدائى ، فإذا العقل مع طول الأمد محض أشلاء ، لا قيمة لها ولا رونق فيها ، تبحث عمن يزيحها من طريق الحياة المتحررة الصاعدة التى تعرف كيف تشق سبيلها دائماً ، وتعرف كيف تتخلص من عوائقها الصناعية ، كنتيجة محتومة لقانون تنازع البقاء وبقاء الأصلح ، ولو عن طريق الصراع الدامى والألم المرير .

وهذه سنة من سنن الحياة التى تفسر الكثير من صروف الدهر وأحداثه الأليمة غير المفهومة ، كما تفسر علة رسوخ الفشل عندما نعبد الأشخاص دون الحقائق، ونصبح أعداء كل تقدير موضوعى وكل منطق من التجريد قويم . فإننا بقدر تخلينا عن سنن الحياة الراقية عن عمد أو عن خطأ بقدر تخلى هذه السنن العاقلة عنا عن عمد — أيضاً — أو عن خطأ !! لأن الجزاء فى الطبيعة دائماً من جنس العمل .

وعبادة الأشخاص هذه قد تكون كريمة — بحسب مظهرها — فتتخذ فى أذهاننا ذرائع الدفاع عن قاعدة سليمة أو عن مبدأ قويم، أو تشجيع القريب أو مساعدة الضعيف، أو غير ذلك من الأوصاف البراقة التى تعودت أن تخدع ضمائرنا فى كل عبادة منا لذواتنا. فعبادة الذات لا تكون إلا مستترة بأردية زاهية براقة تخلب اللب والضمير حتى تحقق هدفها فى الغواية والتغرير .

فلنتعلم إذاً كيف نحترم — ونحب — الإنسان فى المبدأ ، لا المبدأ فى

الإنسان ، ولندع جانباً كل تغرير عاطفى قد يوجهنا غير وجهة التفكير الموضوعى القويم ، ولنتعلم كيف نتحاشى — فى غير ما كراهية ولا احتقار — كل من وما لا يمثل فى وضوح وصراحة أصدق مبادىء النبل والاستقامة التى تهدى إليها الفطرة السليمة ، مع الطاعة التامة لقوانين الحياة الراقية وسننها الجليلة، قبل أن تدهم الروح عواصف القدر التى لا تبقى ولا تذر..

ولندع جانباً كل عبادة للأشخاص،وكل دعوة إليها صريحة أو مستترة، فطالما جنت على حقائق الأمور ، وطالما عوقت قافلة التقدم والارتقاء ، وطالما هدمت جل مبادىء الحق والعدالة التى نادى بها الأنبياء والفلاسفة والمصلحون فى كل زمان ومكان .

ولنقدّر أن عبادة الله لا يمكن أن تلتقى مع عبادة الأشخاص فى محراب واحد ، لأن عبادة الله استمساك بكل ما هو عادل وجميل،واستهجان لكل ما هو ظالم وقبيح . أما عبادة الأشخاص — أية كانت صورتها وموضعها — فهى إلغاء لقيمة الفكرة ، ولحقائق الحياة ، وأنانية ضارة تخلق فى النفس عناصر التواطؤ مع قوى الظلام الفعالة وما أكثرها . فإذا بالتحيز المغرض يبدو صراطاً مستقيماً ، وإذا بالالتواء البين يبدو طريقاً قويماً ! وما أيسر على العقل فى غشاوته من أن ينتحل المعاذير انتحالا ، لأنها موجودة أبداً عند ما يحلو للغرور أن يعانق الغيرة ، وللغش أن يساند الغواية ، ولظلام الشعور أن يحجب نور النهار عن أعين « المبصرين » من كل ملة ودين ، فإذا النتيجة المحتومة تدهور وانهيار .

وليس أيسر من تلبس العلل والأسباب ، ووضع الصيغ والعبارات عند جموح الهوى وانطلاقة الغريزة العمياء للتغرير بالضعفاء والأقوياء ، وبالجهال والعلماء ، فإذا الكل سيان فى اللغو والبطلان . . . وإذا عقل العاقل وعلم العالم صنوان — فى موازين الأمور — لصخب الدهماء فى

موكب بهتان ، تدوى فيه عالية هتافات المجد والفخار ، بدلا من أن تذرف غزيرة دموع العار والشنار !! .

فإذا ما رأيت الأمور الواضحة، أيا كان موضعها فى الحياة، تناقش طويلا فى أى زمان أو مكان كيما ينتهى رأى « العمالقة » من بنى الإنسان إلى الزيغ والبطلان فاعلم أن وراء النقاش الطويل هوى جامح هيهات لمنطق الزيغ أن يكبح جماحه ، أو أن يكشف عنه النقاب . واعلم أن وراء هذا النقاب يقف مارد — أو أكثر من مارد — قادم من عالم الظلام ليحرس البهتان ويحميه، فكم للبهتان من مردة ومن أخدان يشقيهم الحق ويسعدهم العدوان . . .

وقدرة الهوى الجامح على تخريب ملكات الضمير لا حد لها ولا نهاية ، لأن الضمير سيد التقدير والتفكير ، وليس أصعب من تقويم آثار التفكير الخاطىء ولا من إصلاح أضراره ، مهما طال بها الأمد . بل إنها مع طول الأمد تكتسب حتماً ضراوة تفوق بكثير ضراوتها عندما كانت الفكرة الخاطئة فى مبدئها غضة الإهاب لينة الأطراف .

عن الجهاد الأكبر

ولنتعلم إذاً كيف نسعى نحو حقائق الحياة لا نحو أوهامها ، لأن من يسعى إليها يسعى إلى الله وهو الحقيقة الأولى والأخيرة للحياة ، وهو حياة الحقيقة ، ومركز كل عدالة ، وقبلة كل عبادة ، أما الأوهام فإلى زوال سريع .

ولن نسعى لله عن طريق أية ممالأة أو محاباة بل — فحسب — عن طريق الجهاد الأكبر ، وهو جهاد النفس عند جموح هواها وانطلاقة غرائزها . وكل جهاد غيره باطل أو فى القليل صغير ، بل أصغر مما قد تصوره لنا عقولنا المزيلة ، وأقل شأناً بكثير مما قد يبدو لنا فى نشوة انتصاراتنا الزائفة ، وزهو أمجادنا الصبيانية الضئيلة .

ولنثق أن « الجهاد الأكبر » هذا هو أعظم المبادىء قاطبة وأسماها . وأن من يعرف كيف يجاهد نفسه قاض عادل على نفسه وعلى الآخرين ، وبطل صنديد تعرف له موازين البطولة حق قدره مهما ظل جندياً مجهولا فى موازين الخديعة والمحاباة . فهذا الجهاد الأكبر هو التراث الحق الذى ورثه الإنسان من سفر الحياة الكريمة وهو السبيل الأوحد للنهوض به ، ولرفعة شأنه فى العالمين بطلا كريماً ، وإنساناً جديراً بالحياة راقياً عظيماً . . .

وأى « مبدأ » آخر غير مبدأ هذا « الجهاد الأكبر » عبارة أيضاً عن إحساس منا بعدم الثقة فى أنفسنا ، وتغرير من شيطان الأنانية الكامن فينا ، ومن وحش الوصولية الرابض وراء أهوائنا وغرورنا ، واندفاعاتنا وجموحنا ، وانحرافاتنا وسقوطنا . ومن لا يقاوم هذا الوحش الضارى يهلكه ، ومن لا يصارعه يصرعه فيتركه محض أشلاء تثير الإشفاق والرثاء .

ولنقدّر أن الروح التى لا تعرف كيف ترتقى إلى تحقيق رسالة الجهاد الأكبر تنزل إلى تحقيق رسالة الغرائز السفلى التى تسيطر على المردة والوحوش ، أو بالأقل إلى رسالة القطيع فى تضامنه البدائى لا رسالة المجتمع الراقى فى مقاومته لعوامل التدهور مهما جاءته براقة المظهر زاهية الرداء ، وكيفما زفها إليه تجار « المبادىء » والشعارات !.

وتدهور الروح ـ كارتقائها ـ لا يحدث بغتة ، بل هو جزاء طبيعى من صنع القرون والدهور التى لا حساب لها فى زمان الطبيعة . فهو تدريجى بطىء ، ولكنه متى توافرت دواعيه فى أى مكان أمر محتوم لأن نفس الأسباب تولد نفس النتائج . ومن شأنه أن يستفحل مع الوقت وأن يهبط بمستوى العقل والعاطفة ـ وهما أنبل ما يميز روح الإنسان ـ فى الفرد والجماعة معاً فى إصرار عنيد لا يوقفه إفراط فى اعتقاد ، ولا تفان فى عبادة أو فى طقوس .

أما العاطفة الإنسانية القويمة ـ النابعة من العقل النامى ـ فهى مصدر كل ارتقاء فى الروح ، والسد المنيع فى طريق كل تدهور فيها . ومن ثم كانت كلمة الحق ـ حتى فى الأمور العادية التافهة الشأن الضئيلة القيمة ـ أقرب

بغير ما ريب إلى جوهر الإيمان الصحيح من كل صنوف العبادات التي عرفها البشر . لأن الله تعالى حق ، بل هو ـ وحده ـ مصدر كل حقيقة نقية نطق بها اللسان ، أو شعر بها الوجدان ، وذلك مهما كان وقع الحقيقة غريباً أو أليماً على بعض النفوس والآذان . . .

ثم إن الحقائق تكشف الأباطيل ، أما الأباطيل فلا تكشف الحقائق ، بل تساوم العقل على التواطؤ معها ، وتخادع الضمير للتضليل عنها في خفية عن العقل وفي مهارة بالغة . . . فأية حقيقة تتوقعها إذن من الضمير عندما يصبح معصوب الوجدان أبكم اللسان ، وأي قرار تنتظره من وعي الإنسان عندما يخفى عنه مصدر كل حق وكل برهان ؟! ..

وهكذا كلما قلبت النظر في علل تدهور الروح ـ في أي مكان أو زمان ـ لن تجد شراً من هذا التواطؤ على الخديعة والبهتان ، الذي كثيراً ما يتستر برداء خلاب من مظهر «المحبة» أو «الأخوة» أو «العطف» أو «العاطفة» ولكنه يخفي تحته صوراً شتى من الأنانية ومن تغرير الشعور .

فلندع نحن — بني البشر — الدين للديان إذاً ، ولنذكر أن الدين لله والله للجميع ، وأن «الحقائق للعقل كالطعام للجسم ـ كما يقول العالم الاجتماعي جاك بيرك ـ فعلى هضم الحقائق هضماً لائقاً تتوقف قدرة الإنسان العقلية وحجاه ، كما تتوقف العافية والصحة على الطعام . فالرجل الذي يهضم عقله أكبر قدر من الحقائق هو أعقل الرفاق في المجلس ، وأقدرهم على الإقناع وأرقهم في الحياة معاملة ومعاشرة » .

ولنعترف ـ مع الواقع ـ بأن هذا الفهم الموضوعي السليم لمعنى الإيمان هو أكثرها كرماً وسماحة ، وأقربها إلى لب الحياة الراقية وجوهرها ، وأدعاها إلى السمو بالعقل وبالعاطفة ، وبالتالي بالروح الإنسانية حيثما ولدت وكيفما عاشت . وهذا الفهم يتسع لمحبة الله في كل خليقته من بني الإنسان ،

بل فى كل ذرة من صنع يديه فى هذا الكون وفى غيره من الأكوان .
وأى فهم آخر لا يناقض حقائق الحياة الجلية فحسب ، بل يناقض كل محبة ،
وبالتالى كل عقل، وكل عاطفة نبيلة ، وكل عدل ، وكل دفعة للحياة كريمة !.

وبغيره هيهات أن تتحقق هذه المنة الكبرى التى ينبغى أن يسعى كل
عاقل إليها، وهى سعادة العقل والوجدان التى هى السعادة الوحيدة التى يعرفها
ويعترف بها عالم الروح حيث تتوافر فيه ما اعتدنا أن نسميه «بماديات الحياة»
بوفرة تفقدها كل قيمتها، فلا يتبقى للإنسان إلا أن يسعى لهذه السعادة العظمى،
سعادة العقل والوجدان.

وهى ليست سهلة المنال ولا تجىء مطلقاً عن طريق أى منطق ملتو ، ولا
عن طريق أى منطق أنانى، ولا عن طريق خديعة الذات والتظاهر بمحبة الله
والناس، لأنها أعظم مزايا الحياة قاطبة . وكل مزية عظمى تتطلب للوصول
إليها جهاداً عظيماً ، قويماً ، مستقيماً فى سبله وفى غاياته ، حكيماً فى أصوله
وفى أسبابه ، مستنداً إلى حقائق الأمور ، بعيداً عن أوهامها وترهاتها ..
وشهوات النفس ونزواتها . . .

ولكل مزية من مزايا الحياة مسئولياتها ، وأخطر مسئوليات الحياة
فى المستوى العقلى الراقى للوجود الفكرة النقية تنبعث من العقل فى غير
ما تكلف ولا عناء ، وفى غير ما قيد ولا تحفظ . وذلك يتطلب شخصية
ناضجة ، وفطرة نقية ، وشجاعة فى إبداء الكلمة ، وقدرة على قبول الناس
على اختلاف مشاربهم وعقائدهم ، مهما بدا فيها من عيوب ، قد تكون فى
حقيقتها مزايا لا نفهمها ولا نقدرها .

ومن يذكر العيوب ـ ولو فى مقام الحب لا الكراهية ـ لا يغتفرها
بسهولة . فالأب لا يحب أولاده رغم عيوبهم ، بل يحبهم لعيوبهم ، ويرى
فيها مظاهر ضعف الطفولة الجديرة بالحب وبالحماية، لا بالقمع وبالانتقام ،
حتى تنمو مداركهم فتحررهم منها مهما بدت جسيمة .

وفى العلاقة بين بعض البشر وبعضهم الآخر لايوجد أب راشد وأطفال صغار ، بل إخوة ممتلئون بأسباب الخطأ والعثار ، وبكل صور الضعف والانهيار . وأ كثرهم غروراً هم أ كثرهم خطأ ورذيلة ، وشططاً واندفاعاً . فكيف يدعى بعضهم الوصاية على البعض الآخر للهيمنة حتى على ما تحتفظ به الضمائر فى اقدس ركن منها ، وتفتديه هانئة سعيدة بالمهج وبالأرواح؟ ! .

وإذا كان ناموس الحياة فى علاقته معنا لايعرف تحيزاً ولا محاباة ، «فإنه يشرق شمسه على الأشرار والصالحين ويمطر على الأبرار والظالمين[(١)]» . فكيف يحل لنا أن نكون غير ذلك فى علاقتنا مع الآخرين ؟ ونحن نزعم أننا أبناء هذا الناموس ورسله ودعاته وجنوده المجندين ؟ . . .

وهذا الفهم السليم الوحيد للأمور لايمكن أن يستقيم فى ضمائر البشر إلا مع سحق أسباب الضغينة والبغضاء فى غير ما تصنع ولا ادعاء ، وإزاحة ما يعترض طريق الحقائق الناصعة من عقبات فى الغرائز والشهوات، وفى الضمائر الملتوية عند الصغار والكبار . وإلى هذه المعانى مجتمعة أشارت آيات كثيرة فى القرآن الكريم منها : —

— فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر .

— ليس عليك هداهم ، ولكن الله يهدى من يشاء .

— لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى .

— آمنا بالله وكتبه ورسله لانفرق بين أحد من رسله .

— قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً .

— أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين .

وفى هذه المعانى أيضاً تحدث عدد كبير من الفلاسفة والمتصوفين ، ومنهم

---

(١) متى (٥ : ٤٥)

الشاعر الفيلسوف محي الدين بن عربي المتوفى في سنة ٦٣٨ والذى كتب في قصيدة معروفة له يقول :

كنت قبل اليوم أنكر صاحبي	إذا لم يكن دينه إلى ديني داني
لقد صار قلبي قابلا كل صورة	فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف	وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت	ركائبه . فالحب ديني وإيماني

الأخوة الإنسانية حقيقية كونية

وهذا الذى ذكرناه عن موقف الفلسفة الروحية من العبادة ومن تعدد الأديان لا يمثل رأياً لباحث دون آخر ، أو لروح دون أخرى ، بل يمثل فلسفة عامة مجمعاً عليها أسفرت عنها بحوث قرن وربع من الزمان فى الأمور الروحية فى كل مكان ، وقد تكشفت كلها عن حقيقة كونية واضحة لا افتراض فيها ، ولا غموض فى تأويلها ، وهى أن أخوة الإنسان للإنسان هى الأخوة الوحيدة التى تعرفها قوانين الحياة وتعترف بها . أما أية أخوة أخرى فهى من صنع كبرياء الإنسان مهما قيل إنها من صنع وحدة الإيمان .

يهدينا إلى ذلك أن قوانين الحياة واحدة للجميع ، وأن فرص السعادة والشقاء تتوقف بالتالى على مدى استحقاق كل روح ومدى احتياجاتها ، وبالقدر اللازم لسرعة تطورها ودفعها فى طريق خيرها وصلاح أمرها . وهو ما يمكن التعبير عنه بأن الأخوة الإنسانية التى كانت فيما مضى مجرد دعوة فلسفية ودينية أصبحت فى ظل هذا العلم حقيقة كونية ثابتة بقدر ثبوت الحياة بعد الموت .

وهذه الحقيقة الكونية ذات محور بسيط غاية البساطة ، وهو أن الصواب المطلق ليس ملكاً لأى من الناس بل هو ملك لجميع الأجناس ، فهو موزع بينها بالعدل والقسطاس ، وبنفس الحكمة التى وزعت الطبيعة بها عوامل التطور والارتقاء فى أرجاء هذا الكون الفسيح . فأي فهم للأمور

على غير وضعها الصحيح هذا إنما ينبعث عن غشاوة الكبرياء عند الإنسان التي طالما باعدت بينه وبين تطوره المطلوب ، وطالما فرقت بين البشر موفرة لهم — ولا تزال — من أسباب العناء أكثر مما وفرت من عناصر السعادة ودوافع الارتقاء .

ألا ترى كيف تتكافأ فرص السعادة والشقاء أمام مختلف الأشخاص والأجناس فلا ترتبط في نواميس الحياة لا بخلق المرء ونواياه ؟ أليس كل البشر خليقة رب واحد ؟ أليس رب هنا هو رب هناك ؟ فلماذا يقبل ضمير البعض أن يتصور أن يكون « إله المحبة » و « الرحمن الرحيم » في رقعة ما من هذا الكون هو بذاته إله الكراهية أو القسوة فيما عداها ولمن عداه ؟ !

ألم يدع جميع الرسل والفلاسفة إلى الأخوة والتضامن بين جميع الناس منذ أقدم العصور ؟ ألم يحرص رسول المسيحية على تذكير الناس بذلك في موعظة الجبل عندما قال « طوبى لصانعي السلام فإنهم يدعون أبناء الله » . وعندما قال « إن كل من يغضب على أخيه باطلا يستوجب الحكم ... » « ومن سخرك ميلا واحداً فامض معه اثنين » ؟ ...

كما حرص رسول الإسلام بدوره على تحذير الناس من الاعتقاد بغير ذلك عندما قال بكل وضوح في خطبة الوداع المعروفة « أيها الناس إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد . كلكم لآدم وآدم من تراب . إن أكرمكم عند الله أتقاكم . ليس لعربي فضل على أعجمي إلا بالتقوى » ؟ ...

فلمَ والامَ تلصق بعض المدارس بمبدع هذه القوانين العادلة الحكيمة صفات من المحاباة ينكرها أي إنسان على نفسه بشدة لو ألصقها به أي عدو له لدود ، وأية كانت دوافعه وأسبابه ؟ ...

ولمَ والامَ يتصور صانعو الأحقاد بين الشعوب والجماعات أن من حق أحقادهم الصبيانية أن توجه ناموس العدل والحكمة ، ومصائر الشعوب والأجيال ... ؟ وأن تتحكم فيها كما يتحكمون هم في عقول السذج والبسطاء ؟ !

وهل لإرضاء هذه الأحقاد المدمرة كانت الرسالات والأنبياء ، وكان ناموس المحبة والإخاء ؟ .. وكان الارتباط المحتوم بين الإيمان بالله ومحبته وتمجيده ، وبين إحساس الإنسان بحريته وشعوره الراسخ بأنه « حيث توجد روح الرب فهناك حرية » ؟

إيمانه الحرب أم إلحاد السلام ؟ !

وحرية العقيدة كما يقول الفيلسوف الألمانى المعاصر كارل يسبرز K. Jaspers جزء لا يتجزأ من إحساس الإنسان بحريته نحو الله « لأن الإنسان الذى يشعر بحريته شعوراً حقيقياً إنما يزداد يقيناً بوجود الله ، فالحرية والله حقيقتان متصلتان لا تقوم الواحدة منهما بدون الأخرى . ومعنى هذا أن شعورنا بالحرية من شأنه أن يظهرنا على أننا قد منحناها على سبيل الهبة أو العطية أو الهدية ، وكأننا بأكلنا مجرد منحة من قبل الحقيقة المتعالية أو القدرة الإلهية ! ومن هنا فإنى كلما ازددت شعوراً بحريتى ازددت فى الوقت نفسه يقيناً بوجود الله ، إذ أشعر عندئذ بأنى لست حراً من ذاتى أو بذاتى ، بل بفضل تلك الإرادة العليا التى شاءت لى أن أفصل فى حياتى بمقتضى إرادتى »[1]

ويتحدث أيضاً الفيلسوف جون لوك John Locke قائلا إنه « لا الدولة ولا الكنيسة من حقها التدخل فى حرية الفرد السلوكية أو العقيدية ، فله أن يسلك الطريق الذى يراه ، وأن يدين بالدين الذى يحبه ويؤثره لأن الدين فردى خاص ، معينه فى نفسى استنبطه من ذاتها ويستحيل على إنسان آخر فى الدنيا بأسرها أن يهدينى فى الدين صراطاً مستقيماً إذا لم تهدنى نفسى » .

ويتحدث المفكر توماس باين Thomas Payne أيضاً قائلا « إنك إذا أردت أن تعرف كيف ينبغى للإنسان أن يسلك وأن يفكر فى السياسة وفى الاقتصاد وفى العبادات ، وفى كل جوانب الحياة ، فالعقل يكشف لك عما

---

(١) عن « مشكلة الإنسان » للدكتور زكريا إبراهيم طبعة ١٩٥٩ ص ٢٣٣ .

يحقق الاضطراد والاتساق والنظام . ولا تركن فى ذلك إلى حكم تحكم به الحكومة أو فتوى يفتى بها رجال الدين »(١).

وفى نفس الاتجاه يقرر السياسى الفيلسوف توماس جيفرسون Tahomas Jefferson الذى كان رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية فى وقت ما « إن الحرية الدينية حق طبيعى للإنسان ، فكما أنه لايجوز أن يستبد بها حاكم سياسى فكذلك لايجوز أن تنتقص منها هيئة دينية . وحسب الإنسان أن يرضى ضميره سواء فى رأيه السياسى أم فى عقيدته الدينية » .

كما يقرر أيضاً « لن أجثو أبداً أمام كعبة التعصب فى قولى أو فعلى أو أجيز حق مساءلة الآخرين عن أفكارهم الدينية . بل إنه يتحتم علينا على العكس ـ أنت وأنا وكل فرد ـ أن نجعلها قضية عامة . . . تحفظ للجميع حق حرية الضمير . يجب علينا أن نتكاتف قلباً واحداً ويداً واحدة فنحطم المجهودات الجريئة الخطرة التى يبذلها أولئك الذين يغررون بالرأى العام ويغرونه بالتحكم والسيطرة على العقيدة الدينية التى أباحت القوانين جميعاً حريتها حقاً وعدلا » .

ويستطرد قائلا : « أقسمت أمام مذبح الإله أن أضمر عداء أبدياً لكل صورة من صور الطغيان أو السيطرة على عقل الإنسان . ولكن هذا كل ما تخافه منى الطوائف الدينية ، وهو كفيل ببث الخوف فى قلوبهم حسبما يرون »(٢).

وكما أن حرية الاعتقاد هى جوهر الإيمان بالله تعالى ، فإنها هى أيضاً جوهر الاعتراف بالروح . فأولئك الذين يفهمون ـ صدقاً لا كذباً ـ

---

(١) عن « حياة الفكر فى العالم الجديد » للدكتور زكى نجيب محمود ص ٢٥ ، ٤١ .

(٢) عن « جيفرسون » تأليف جون ديوى ترجمة الدكتور عبد الحميد يونس ص ١١٢ — ١١٤ .

معنى الحرية ويقدرونها يدركون بسهولة معنى الروح الخالدة الحرة وما تتطلبه من تقديس لحرية الإيمان والشعور فى الإنسان .

فهل يتوافر أى قدر من حرية الإيمان والشعور فى مدارس التعالى والجمود ؟ ! . . . أم أن هذه المدارس لا تشعر أن لها رسالة أخرى فى الحياة غير رسالة استعباد الإيمان وازدراء الناس فى أمنهم وحرياتهم ؟ ! . . وغير رسالة إطلاق صيحات الفرقة الظاهرة والمستترة . هذه الصيحات التى لن تجد لها الآن نفس صداها القديم بعد أن تخطى عقل الانسان دور الطفولة ، إلى دور النضج ورغبة تعقل كافة أمور الحياة . . . بل أمور الموت أيضاً . . .

وهذه الحرية المقدسة التى من حقك أن تشعر بها أنت هى نفس الحرية التى هى حق مقدس للآخرين كيما يتكشف الله لهم خلالها ، فيتعرفون على ذواتهم عن طريقها ، ويزدادون إحساساً بوجودهم ، فيرتبط بوجدانهم ومصيرهم . ويصبح هذا الإحساس جزءاً من كيانهم ، وبالتالى يستيقظ قوياً الشعور لديهم بأنهم قد أصبحوا جزءاً من تلك القوة الكونية الجليلة التى انتزعتهم من أنفسهم ، فأصبحوا قادرين على الترنم مع أسمى ما فى الكون من مشاعر الحرية وأحاسيس الإيمان .

ولعله لا يسعفنا فى هذا المقام شىء قدر حكمة الهند ـ فكم فى الهند من حكماء أتقياء ـ عندما تقول « لا تكن متعصباً متعنتاً » ، ولا تكن من الغلاة المتطرفين الذين يرون أن الهدى فيما يتبعونه ، وأن كل طريق غير طريقهم ضلال بعيد . فإن للحق أوجهاً متعددة يرضى كل وجه طائفة من الناس . وكم من النظريات تبدو متناقضة مع بعضها ، فإذا أنعم النظر فيها تكشفت عن أسس متقاربة متجانسة .

إن الكثير من الخلاف بين التعاليم المختلفة قد يكون سببه استعمال ألفاظ معينة أو سوء استعمالها ، ووضعها فى غير مواضعها ، فإذا فهمت الكلمات والاصطلاحات فهماً صحيحاً بدت الحقائق التى وضعت الكلمات

للدلالة عليها وقد زال الكثير من الخلاف بينها، وإذا التعاليم المتعارضة تفقد ما بينها من تعارض»[1].

* * *

ولا ريب أن هذا الأسلوب السليم فى فهم رسالة الاعتقاد هو وحده الذى يناسب عقل إنسان هذا القرن، وطريقة العصر العلمى الذى نعيش فيه، والذى يمكن وحده أن يهضمه بعد طفولة طويلة امتدت إلى قرون وقرون. ولا ريب أنه هو الذى وجه المجلس المسكونى للكنائس الذى عقد فى روما فى سنة ١٩٦٤ عندما قرر صراحة، ولأول مرة فى تاريخه «بأن أبواب السماء مفتوحة لجميع الأشخاص الصالحين مهما كانت عقائدهم ومذاهبهم الدينية»[2]. وعندما عاد فى سنة ١٩٦٥ ليقرر «وجوب عدم إرغام أى شخص على أمر ما خاص بالدين يخالف معتقداته، وبألا يمنع أى شخص من العبادة بحسبها»[3]. فقارن هذه المواقف بمواقف أخرى مقابلة، وبتفسيرات خاطئة كثيرة كانت تصدر فيما مضى، وكأنها تنزيل لا يأتيه باطل من خلف ولا من قدام...

ولا ريب أيضاً أن فهم الأمور على هذا النحو أدعى إلى تثبيت إيمان الناس فى الله، وإلى توجيه ضمائرهم توجيهاً موضوعياً سليماً نحو فهم سننه السامية، على نحو يصلح تمهيداً مناسباً لتذويب الحواجز الصناعية التى تراكمت على مدى الأجيال بين الإنسان وأخيه الإنسان، والتى شادتها عقول انطوائية كثيرة حتى قضت أو كادت على ما فى الإيمان الصحيح من رونق وضياء، وعلى ما فى رسالات السماء من محبة وإخاء، وحتى أضحت هذه الحواجز عند

---

(١) عن «فلسفة اليوجا» تأليف يوجى راماشاروا كا ترجمة الأستاذ عريان يوسف سعد ص ٧٧.

(٢) راجع جريدة الأهرام فى ١٩٦٥/١/٢٣.

(٣) « « « « ١٩٦٥/٩/٢٢.

بعض النفوس ذرائع للشك والإلحاد ، وعند بعضها الآخر منبعاً لإذكاء الإحن والأحقاد ! .

فلنقلها كلمة صريحة لمن تعود — تحت أى عنوان وفى أى مكان — أن يعبد إلهاً شخصياً يكيل له بمكيال النعمة لظروف البيئة والميراث ويكيل لغيره بمكيال النقمة ، أنه يعبد فى حقيقة الأمر نفسه لا إلهه ، وأنه يحرق البخور تمجيداً لأهوائه ، وفى قلبه من رهبة منه أكثر مما فيه من إيمان ، ومن نفاق له أكثر مما فيه من عرفان . وفى روحه من عجز الطفولة أكثر مما فيها من براءتها ، وفى عقله من ضعف الحجة أكثر مما فيه من قوة البرهان .

بل فلنعلنها حقيقة واضحة ، وهى أن إيمان هذا « المؤمن بالله » محض رهبة ونفاق . فهو يرهب إلهه كما يرهب الرعديد قاضياً للظلم فى مدينة للظلام ، وينافقه كما ينافق حاكماً يأمره فى غفلة من الزمان ... فهل هذا هو أفضل نوع من الإيمان يملكه ضمير الإنسان ؟

أليس الإيمان بالأصنام التى لا تضر ولا تنفع أفضل بكثير من إيمان هذا الإنسان بإله غشوم ، حاقد وظلوم لكل ما عدا جنسه من الشعوب والأجناس ؟ . . . بل أليس الإيمان « بعدالة » قاضى الظلم هو من نفس نوع الإيمان بمظالم إله الحقيقة والعدالة فى كل زمان ولكل إنسان ؟ ... ثم أليس الشرك بالله شر ؟ فما بالك عندما نشرك الله بالشياطين فى أحقادها وفى أهوائها ، ونقول بل هذا هو بعينه الاستمساك بعبادته عن فهم وعن إيمان ؟ ! ...

وكلما ازداد — للأسف — مثل هذا النوع من الفهم الخاطئ عمقاً واتساعاً كلما ازداد صاحبه عمقاً فى غوايته واتساعاً ، وتشبثاً بأهوائه وبأحقاده ، أسوة « بشيطان الأنانية » الذى يعبده وتقليداً له ، وحتى يبلغ الغاية من استرضائه ... ... ويا ويح مجتمع توجهه أهواء بناته وبنيه ، حتى فى فهمهم لله وعبادتهم إياه ، ويا ويح الأبناء فيه من الآباء والآباء فيه من الأبناء ! ...

ويا ويح دعوة السلام من إيمان هو فى حقيقته دعوة للحرب وللعدوان ، فأيهما أفضل للأنام إذا ، إيمان الأنانية والعدوان هذا أم إلحاد التواضع والسلام ؟ ! ..

بين الايمان الشخصي والموضوعي

وليس الإيمان بالله معناه ترديد اسمه تعالى دواماً بغير عرفان ، بل معناه محاولة تفهم صفاته الحسنى وترتيب نتائجها المحتومة بعيداً عن منطق الأنانية لأنه مصدر كل خطأ يبطل المنطق وينفيه ، ونفى النتائج نفى لأسبابها ، وهو فى هذا النطاق نفى للإيمان النقى بالله وبأسمائه الحسنى .

فإذا قلنا إن «الله محبة» أو إنه «عادل ورحيم وغفور ورؤوف وحكيم».. ولا تقف صفاته الحسنى غير المحدودة عند حد ولا قيد فى اتساع مداها، تعذر على العقل أن يستدرك قائلا بعدئذ، ولكن الله تعالى لغيرنا من بنى البشر هو عكس ذلك كله . « فالمحبة » لنا كراهية لهم ، والعادل لنا ظالم لهم ، والرحيم بنا قاس عليهم ، والغفور الرؤوف بنا حقود لا يرحمهم ، والحكيم علينا غير حكيم على غيرنا ... وهكذا من شتى صور الإيمان الشخصى الذى هو فى تحليله الصحيح محض أنانية بدائية لا تختلف شيئاً عن شر صور الإلحاد التى عرفها البشر . بل إنها تحمل — إلى جانب معنى إنكار الله فى أسمائه الحسنى — معنى طغيان الرأى تحت تأثير ما قد يعتمل فى النفس من أحاسيس ضارة إذا أطلق لها العنان فإنها لا تبقى ولا تذر ! ...

أما الله فتعالى عما نرسم ، وعما نخطط لأنفسنا ولأولادنا من بعدنا . فإذا كنا أبراراً « فهو » بار ورحيم . وإذا كنا جهلة أغبياء ، فطريقة فهمنا لنواميس الله مصدر جهلنا وغبائنا ، وإذا كنا عدولا حكماء « فإلهنا » عادل وحكيم مثلنا .

أما إذا كان هو عادلا ورحيماً وحكيماً وغفوراً ... فليس مقتضى ذلك بالمرة أن نكون مثله فى شىء من صفاته إلا إذا اخترنا — ابتداء — أن نحاول الاقتراب منه ، فنغير ما بأنفسنا تغييراً شاملا لأن «الله لا يغير ما بقوم حتى

يغيروا هم ما بأنفسهم » ، وهو ما يقتضينا أن نغير طريقة فهمنا لنواميس الله التى هى نواميس الحياة الأزلية ، إذا مافهمنا أن الله تعالى يملأ بروحه رحبات المكان والزمان ، ماداً ذراعيه لمن يتجه إليه من بنى الإنسان . . ولن تتقدم الحياة إلا فى ضوء فهم صحيح لعلاقة الإنسان بالله ، وبأخيه الإنسان ، وبغير ذلك لا تنتظر سلاماً يرجى ، ولا تقدما يذكر للحياة.

انظر إلى نواميس الحياة فى كل مكان وزمان ، فهل تجد فيها شيئاً يغاير هذه المعانى الجلية بذاتها ؟ ! وهى التى ما أصبحت بحاجة لمن يبرزها ويدافع عنها على الدوام ، وقد يتحمل المدافع الثبور وعظائم الأمور من وراء دفاعه، إلا لأن ظلام روح الإنسان أحاطها من كل جانب بالظلمات ، والويل للنور من الظلام وللوداعة من الحماقة !! ...

ثم تأمل فى الإله الواحد ، الذى لا تتناقض صفاته ولا تتضارب ، فهل ترى فيما ذكرت شيئا ينفيه العقل أو يرفضه الوجدان ؟ أم أن العقل والوجدان لا يمكن أن يقبلا التسليم بغير ذلك إلا إذا قبلا ابتداء تعدد الآلهة المتباينة الصفات والنزوات ، كتعدد الأصنام التى عبدها أسلاف ذلك الإنسان فى قديم الزمان ؟ . ولما تخلى عنها أحفادهم اتجهوا إلى عبادة ذواتهم بدلا من عبادة الواحد الديان ! ! .

فأى إله إذاً نختاره كيما يكون موضع حبنا ، ضارعين إليه فى صلاتنا وصومنا نحن البشر أبناء مشيئته الواحدة ؟ وأبناء محبته التى لن تعرف سبيلها إلينا إلا إذا عرفت سبيلها إلى الجميع على حد سواء . . ولن نعرف سبيلنا إليها إلا إذا ارتقت إليها نفوسنا عن فهم نقى لمعنى المحبة والإيمان ..

ولحسن الحظ أن ذلك النوع من الإيمان الأنانى المتحيز الذى طالما وقف — وما يزال — فى ضمائر بعض الحرفيين من كل عقيدة ومذهب عقبة تحول دون قبول حقائق العلم الروحى الحديث — بغير مابحث ولا اطلاع — آخذ فى الأفول التدريجى تحت تأثير تقدم العقل فى المعرفة والضمير فى الفضيلة .

فالمعرفة السليمة بنواميس الحياة كفيلة مع الوقت بأن تبدد نهائياً ضباب ذلك الإيمان المتحيز الذى ينبع من طفولة الشعور كيما تشرق فيه شمس الإيمان الموضوعى المجرد ، الذى هو ثمرة لنمو العقل فى المعرفة والضمير فى الفضيلة ، وفى نفس الوقت طاقة حقيقية تقويهما وتتقوى بهما .

كما أنه ثمرة لفلسفة واعية أكثر ترابطاً — وأنسب للإنسان فى تطوره المستمر — من أية فلسفة تقوم على تملق انفعالات الكبرياء الطبيعى فيه حيثما وجد ، وأينما كان .

ثم إن المعرفة الصحيحة بقوانين الحيـــاة فى كل فروعها كالطب والسيكولوجيا والبيولوجيا والفسيولوجيا . . . أظهرت أنها موضوعية ومجردة إلى أقصى ما يستطيع الإدراك أن يصل إليه ، فهى لا تعرف تحيزاً ولا محاباة ، فلماذا تكون غير ذلك قوانين الروح ، مع أن الروح هى أصل كل قانون وعلة كل حياة ؟ . .

فالقانون الوضعى يعد أداة فاشلة إذا ما وضع تحقيقاً لاعتبارات شخصية ، أو لمجاملة فريق من الناس على حساب آخر ، أو إذا نظر إلى جانب واحد من أية مشكلة مهما كانت صغيرة دون باقى جوانبها ، ويعد بالتالى معيباً إذا ما أغفل تقديرولو نتيجة واحدة من نتائجه المحتومة . والتشريع العادل الذى يعتبر الناس « سواسية كأسنان المشط » هو الهدف الأسمى لكل شارع يريد أن يتقى الله فى تشريعه ، فكيف يمكن أن يكون غير ذلك التشريع الإلهى نفسه ؟ ! ..

* * *

وإن فلسفة هذه الروحية العلمية لتسلم تماماً بالمساواة بين النـاس أمام ناموس الطبيعة — كما ترى — ولا تعرف سبباً للمفاضلة بين إنسان وآخر إلا الشمائل الطيبة والفضائل الخلقية ، التى ليس منها الانتماء إلى شعب دون آخر ، وكلها ينتحل لنفسه الامتياز ، وكلها يطالب الناموس الإلهى بالانحياز ،

مع أن هذا الناموس واضح منقوش فى ضمير الجميع، لأنه ناموس العمل الصالح والخلق القويم اللذين ينحنى لهما الإنسان النبيل احتراماً حيثما كانا وكيفما ظهرا... فهل المخلوق الضعيف أفضل من خالقه ؟

كما أنها تسلم تماماً بالعروة الوثقى من التضامن بين الإنسان وأخيه الإنسان من أى جنس ومن أى دين كانا . فكما أن الفرد لا يمكن أن يعيش سعيداً فى أسرة شقية ، فلا يمكن لأى مجتمع أن يعيش سعيداً فى عالم شقى ، ولذا كان كل إنسان مسئولا عن خدمة أخيه أمام ناموس الطبيعة الحكيم الذى وضع كل واحد فى موضعه بلا شذوذ ولا انحراف ، فكان توزيع البشر جماعات وأفراداً فى هذا الكون جزءاً لا يتجزأ من الطبيعة فى تناسقها العظيم ، الذى تكشف تدريجياً لعقول العلماء ، والذى أثبت فى العصر الحالى أكثر من كل وقت مضى أن « الكل واحد » ، وأنه ليس بمقدور أى إنسان أن يقول كما قال قايين عن هابيل « وهل أنا مسئول عن أخى ؟»... ولكن كم واحد بمقدوره أن يشعر شعوراً حقيقياً كما شعر غاندى العظيم عند ما قال « إذا قدرت لى ولادة ثانية فأرجو أن أولد طريداً بين المطرودين حتى أستطيع أن أؤدى لهم خدمة فعالة أبعد أثراً[1] » ؟ !...

وقد التقت المدارس الروحية — مهما تعددت فلسفاتها — عند التسليم بالأخوة الإنسانية كحقيقة كونية ، وعند التسليم أيضاً بأن المعرفة الصحيحة قد ألقت بذورها فى كل زمان ومكان ، فأنبتت زهوراً يانعة تسبح بمجد الله وقدرته ، لكن سرعان ما نبتت إلى جوارها أشواك خانقة كادت أن تفتك بها ، رواها ضعف الإنسان وغروره الطبيعى .

وهى تعلم أن هذه الأشواك وجدت للأسف فئات كثيرة من الناس ترعاها على مر العصور ، عن طريق تملق غرائز الجماهير واستجداء كبريائها

(١) كتب العلامة اينشتين كلمة تحية لذكرى غاندى يقول فيها « بالكاد ستصدق الاجيال القادمة أن إنساناً كهذا خطر على الأرض فى لحم ودم » .

الزائفة وانفعالاتها الصاخبة بشعارات « ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب » ، كما تضمن موفورة ذرائع التسلط عليها ، إذ أن الجماهير تسلس قيادها لمن قد يحسن إثارة مشاعرها وتملق كبريائها .

وقد ظل هذا التسلط واضحاً طيلة القرون الأولى والوسطى إلى أن دالت دولة الطغيان باسم الاعتقاد . ولما أشرقت دولة الفكر المتحرر والمنطق المترابط أشرقت معها شمس الإيمان العلمي ساطعة من خلف غيوم للجهالة كثيفة ، فأضاءت للجميع آفاق الإيمان المستنير تحت سماء مشتركة اسمها سماء المعرفة الصحيحة .

وعلم الروح الحديث رسالته هي أن يحمي الأزهار من الأشواك ، والشروق من الغيوم ، والمعرفة الصحيحة من الأوهام . وهو إذ يحمل عبء هذه الرسالة السامية ليعلم جيداً أنه إنما يخوض حرب مواجهة مع عدوان الكبرياء والجهالة وشرورهما ، سلاحه فيها قوة الحجة وسلامة البرهان ولا شيء غيرهما ، وهدفه منها سلام العالم لا أقل من ذلك . . . فهل يقدر له الانتصار حتى تنال البطولة ، بل الحياة نفسها ، مغزى أسمى كثيراً من مغزاها الحالي عند الجامدين والحرفيين من كل ملة ودين ؟ . .

هذا ما يرجوه له كل عامل على تحرير عقل الإنسان من أغلاله وكتفه من أحماله الثقيلة ، للدفع به قدماً في طريق مستقبل يسوده الوئام ، بل التضامن التام بين جميع الأجناس والأديان ، على النحو الذي سعى إلى تحقيقه منذ القدم كافة الأنبياء والفلاسفة عند ما وجهوا ضمائر الناس إلى المحبة والإخاء وقلوبهم إلى النقاء ، وبذلوا نفوسهم سخية في سبيل هذا التوجيه العسير غاية العسر ، بسبب ارتطامه بما في نفوس الناس من غلو ومن كبرياء . .

وما كانوا ليبذلونها لولا إيمانهم بأن نظام الله تعالى في الكون « يمكن أن يتأصل في الحب — كما يقول أحد الحكماء — أليس ذلك الفكر البسيط يقدم عزاء للقلب البشري أعظم من مجلد عويص في علم الكون؟ ! إن كل

قديس نفذ إلى لب الحقيقة قد شهد بأن هناك نظاماً عاماً مقدساً ، وأنه جميل ومفعم بالفرح » .[1]

وفى هذا الشأن يتحدث أيضاً حكيم آخر قائلا « إن البشرية الآن على أبواب تغيرات عظيمة ، وإن الريح لتهب وقد عرف من أين تأتى وفى أى اتجاه . إنها الآن نسيم رقيق ، ولكن بعد قليل ستصبح عاصفة تطيح بالكثير مما بناه الإنسان وهو يظن أنه ثابت للأجيال . وعند ما تهدأ العاصفة سيبنى الإنسان من جديد أشياء أحسن وأبقى ، فهل أحسستم النسيم وشاهدتم النذر ؟ .

ولكن لن يحدث هذا التغير نتيجة للبغضاء والحقد والتنافس والتنابذ ، إنه سيحدث نتيجة للحب والتعاطف والشعور بأن الناس إخوة ، بل أعضاء جسد واحد ، وأن سعادة الكل فى سعادة كل جزء وكل فرد ، وهكذا يبدأ فجر جديد ، فجر العصر الذهبى ..

سيقول لنا الصوت الصاعد من الصمت : اذهبوا واعملوا فى كرمى لا بقوة السواعد وبإرغام الأشياء على أن تنمو وتزدهر ، ولكن ليكن عملكم بالقدوة الحسنة وبالحياة أسمى ما تكون الحياة . إن الناس محتاجون إليكم لينتشر ضوءكم فى ظلامهم[2] » .

وعلى أمثال هذه المعانى أجمعت الفلسفات الروحية فى كل ركن من أركان هذا الكوكب داعية للإخاء الإنسانى العام الذى يسمو على كل الحواجز والسدود ، ويحطم الأغلال والقيود ، كيما يقيم سلاماً حقيقياً بين البشر مختلفاً تماماً عن دعوات السلام الزائفة التى تقوم على التظاهر والرياء ، لأن الروحية هى الدعوة الوحيدة التى تقوم على أساس من الإيمان بالحب الشامل للإنسانية كلها ، ذلك الحب غير المشوب بكبرياء ، وغير المدنس بشهوة تسلط ولا ادعاء . كما تقوم على أساس من الإيمان العميق بالتضامن التام بين الناس جميعاً ، والذين ينبغى أن يجمع الإحساس بهذا التضامن بين قلوبهم ، كما ينبغى أن يدفعهم — فى ركب واحد — ناموس التطور والارتقاء .

---

(١) عن « فلسفة الهند فى سيرة يوجى » . المرجع السابق ص ٥٢٠ .
(٢) عن « فلسفة اليوجا » المرجع السابق ص ١٣٢ ، ١٣٣ .

الفصل الثانى

فى الخلق والضمير

تتحدث فلسفة الروحية عن قوانين طبيعية للأخلاق لاتعرف هوادة مع من يخالفها ، ويشعر سكان الأثير بقوتها ونفاذها أقوى من شعورنا هنا بأشعة الشمس الحامية عندما تدفىء أجسادنا وتطهر أجواءنا . فتحكم هذه القوانين عالم الأثير حكماً مباشراً بغير ما حاجة لحاكم من البشر يتولى مراقبة تطبيقها ومعاقبة مخالفيها ، على الأسلوب المألوف فى المستوى الأرضى .

وهذه القوانين تكاد — رغم تعددها وتنوعها — ترجع إلى أصل واحد ، وهو أن كل ماينبعث عن الأثرة شر يعوق تقدم الروح ويسىء إليها ، لذا يجمل بالعاقل تفاديه ، وأن كل ما ينبعث عن الإيثار خير يجمل الإقبال عليه ، لأن الإيثار طاقة حقيقية تغذى ملكات الروح وتدفع بها إلى الأمام فى طريق نمو العقل والعاطفة .

فكل أخطاء النفس وشرورها تنبع عن رذيلة الأثرة وشقيقتها الغرور ، وكل فضيلة فيها تنبع عن الإيثار وشقيقه التواضع . ومن ثم تتوقف سعادة النفس على ماقد يغذيها ويوجه تصرفاتها من إيثار ، كما يتوقف شقاؤها على ماقد يغذيها ويوجه تصرفاتها من أثرة .

وعوامل الضعف والعثار كثيرة ، ولكن مصدرها فى النهاية هو الغرور الذى يفترس العقل افتراساً ـ ومعه كل موهبة حقيقية ـ كما يفترس الوحش الضارى فريسته الواهنة المستسلمة ، ويمزق ملكات الروح الدفينة فيتركها خلواً من كل موهبة إلا القدرة على التغرير والادعاء ، كما يمزق الداء الوبيل الصدر والأحشاء ، تاركاً ضحيته البائسة حطاماً وأشلاء ، ويستوى فى ذلك السيد مع المسود ، وصاحب القوة والجاه مع العاجز الذليل ، والعملاق القوى مع المحطم العليل .

فعندما يتساءل المرء قائلا : ماذا دها هذا العملاق كيما يبدأ حياته مشرقاً جميلا فإذا به ينهيها مسخاً هزيلا ؟! . . فلن يجد إلا جواباً واحداً بسيطاً وهو أن الغرور هو المسئول الأول والآخير عن هذا الشر المستطير .

ومن ثم فليست هناك خدمة أجل للمجتمع من أن يعرف المربون كيف يوجهون الجيل الصاعد وجهة التواضع والوداعة . فهنا تكمن مناعة الخلق، والوطنية المضحية النبيلة ، وهنا تكمن كل قوة حقيقية، وكل خير للوطن فى بنيه . فليست التربية الوطنية غروراً ولا شراسة ، وليست هى ادعاء وانطواء كما فهمها خطأ بعض المربين ولا يزال .

بل إننا إذا قلنا التواضع والوداعة فقد قلنا فى نفس الوقت البساطة والإخلاص لكل ماهو راق ونبيل . فمنذ عرف قلب الإنسان طريقه إلى البساطة والإخلاص عرف طريقه بنفس المقدار إلى الإلهام وإلى العبقرية ، وبالتالى إلى التقدم والحضارة ، وإلى كل تضحية نبيلة تنحنى لها الرؤوس إجلالا .

والتربية لا تكون بالوعظ والإرشاد ، بقدر ما تكون بالقدوة الحسنة تقدم للبنات وللبنين فى أقرب صورها وأدعاها للاقتداء . فليفهم الجميع أن التواضع والوداعة من صفات الله تعالى لأنه « رحمن ورحيم ». والرحمة تنفر من الغرور لأن شيطان الغرور قاسٍ لا يرحم . فمن يريد أن يعبد الله حقيقة فليتشبه به أولا ، بدلا من أن يقتدى بالشياطين فى غرورها وقسوتها ، وكل من يعبد الله يأبى أن يشرك به الشيطان المتوثب لأن يقلب نعيم الحياة جحيماً على الجميع . ولا تبحث عن هذا الشيطان بعيداً لأنه أقرب إلىّ وإليك من الله بكثير ، فهو كامن فينا ، أما الله فقد أبعدناه عن حياتنا بغرورنا وقسوتنا . . .

إنما الامم الاخلاق

وما يصدق على الفرد يصدق على المجموع أيضاً ، فلا شيء يلتهم ذكاء الجماعة ويحوله إلى طاقة هدامة مثل نزعة الأثرة هذه . فعلة تخلف كثير من

الجماعات كائنة فى مستواها من الأخلاق لا فى مستواها من الذكاء . ثم إن تدهور الخلق يؤدى حتماً إلى تدهور الذكاء ، لأنهما وجهان متقابلان لشىء واحد اسمه العقل أو الوعى ، ولذا قال شوقى ـ رحمه الله : ـ

إنما الأمم الأخلاق مابقيت ۞ فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

كما قال أيضاً : ـ

وإذا أصيب القوم فى أخلاقهم ۞ فأقم عليهم مأتماً وعـــويلا

والفرد يتفاعل مع مجتمعه ابداً ، فهو يأخذ منه ويعطى أراد أم لم يرد، وشعر بذلك أم لم يشعر . وهذه الآن ليست فحسب نظرية فلسفية أواجتماعية ، بل حقيقة علمية وصل إليها علماء النفس المعاصرون ـ وبخاصة كارل جوستاف يونج K. Jung ـ عندما قرر أنه يوجد لكل مجتمع وعى عام مشترك يصل بين جميع أفراده بطريقة غير واعية منهم ، كما يجمع بين آبار المياه الموزعة فى رقعة واحدة قاع عام مشترك يمدها كلها بطريقة مستترة بنوع واحد من المياه .

وذلك ينمى مسئولية الفرد إزاء الجماعة ، ومسئولية الجماعة إزاء الفرد . ويقيم تضامناً وثيقاً فى المسئولية بينهما، كما يعطى لفطرة الشعوب قيمة عظمى فى توجيه مصائرها ومقدرتها فى قافلة واحدة عليها أن تشق طريقها فى وحدة وطيدة فى صحراء هذا الوجود قبل الوصول الى واحة الأمان والاطمئنان . حتى ليبدو أن وحدة البيئة هى الرابطة الحقيقية التى تعترف سنن الطبيعة بها كيما تصحح فى نفوس الناس ما قد ينال منه تعدد الأجناس والألوان والأديان فى الوطن الواحد ، ثم فى الكوكب الواحد . فهل آن للإنسان أن يعى عظمة هذا الدرس ويرتب عليه نتائجه المحتومة التى أرادتها له إرادة حكيمة من عند عزيز مقتدر ؟

ولما كان كل إنسان يمثل تركيباً من أثرة ومن إيثار ، فهو يمثل فى نفس الوقت تركيباً من رذائل ومن فضائل شتى مجتمعة معاً . ولذا كان لكل

إنسان مستوى محتوم من السعادة بقدر ما يزينه من إيثار ، وفى نفس الوقت من الشقاء بقدر ما يشينه من أثرة ، ومن حب للعالم ، بحكم ارتباط المقدمات بنتائجها المحتومة فى سنن الطبيعة . وذلك إلى المدى الذى دفع سويد نبرج إلى القول بأن حب الذات هو الحب السائد فى الجحيم ، وهو الذى يصنع الجحيم فى الإنسان ! ....

وليس الغرور من صفات إنسان دون آخر ، بل إنه يكاد يكتسح نفوس البشر أجمعين وإن تفاوت فى قوته وضعفه . ولا يذهبن بك الظن أنه من صفات الأقوياء أو الأغنياء ، أو ذوى الجاه والسلطان دون غيرهم ، فقد يصيب هؤلاء ، كما قد يصيب بنفس المقدار الضعفاء والمحرومين . وقد يكون العجز والحرمان هما جزاء الطبيعة العادل لإنقاذ المحروم من خيلائه ، فينجو من وهدة حرمانه . .

وإذا بلغ الغرور فى القوة مداها فهنا الشطط والاندفاع ، وهنا الشر والعدوان ، وهنا الغموض والالتواء ، وهنا التخبط والاضطراب ، وهنا الكذب والنفاق ، وهنا التسلط والاستبداد ، وهنا الحماقة والرذيلة ، والجبن والخديعة ، وهنا الصغار والشماتة ، وهنا فاقة المواهب والملكات ، وانطلاقات الغرائز والشهوات ...

ولا تسل بعدئذ عن فارق بين « قوى » وبين « ضعيف » أو بين « قادر » وبين « عاجز » ، لأن مآل الجميع فى النهاية إلى العجز إزاء رغبة الحياة فى الارتقاء ، وإزاء رغبة الروح — وحقها المشروع — فى أن تنعم بالسكينة فى حاضرها والاطمئنان إلى مستقبلها ... وحقائق الحياة تنبئنا أنه مع تقدم الغرور تتخلف الحياة ، ويتخلف معها كل سكينة وكل اطمئنان للفرد فى الجماعة وللجماعة فى الفرد .

وسنن الطبيعة هذه تعطى الحياة ولا تأخذها ، لأن الحياة كما قلنا لا تتوقف ولا تفنى ، فهى تمثل بذاتها الدرجة القصوى للإيثار خاليا من الأثرة . ولذا

كان الإحساس بالسعادة فى ضمائرنا يشير إلى قانون من قوانين الحياة عرفنا كيف نطيعه ونترنم معه ، حين يشير الإحساس بالشقاء إلى قانون آخر عصيناه. ولا يدفعنا إلى إطاعة قوانين الحياة شىء قدر نزعة الإيثار إذا ما وجهت تفكيرنا ، ولا يدفعنا إلى مخالفته شىء قدر نزعة الأثرة التى تتعارض حتما مع قدرة الطبيعة فى أسلوبها معنا عند ما تعطى فلا تأخذ وتهب فلا تسلب ، وتمنح فلا تمنع إلا ما نمنعه عن أنفسنا بأنفسنا ، وبما فينا من أثرة ومن عناد.

ولذلك كله كانت « السعادة ليست حادثة بل قدرة ، وكانت أبواب السعادة الحقة — كما قال تولستوى — تفتح من الداخل » . . أى من داخل النفس ، هذه النفس التى لا نملك — بالموت — إلاها .

السعادة تنبعث من داخل النفس

ولنوضح هذه الحقيقة الفلسفية الهامة — وهى مجىء السعادة من داخل النفس لا من خارجها — بمثال ننتزعه من فلسفة وليام جيمس عندما يقول « إن التفاؤل بالحياة فضيلة ، ويصبح الإنسان متفائلا إذا ما اعتقد بخير العالم لأنه سوف يجد العالم يلبى رغباته ويخدمه وسيرفع عنه الاضطراب والقلق ، وحينئذ لن يفكر فى الشر وسيعتبر أنه شىء غير موجود ، أو سيتجاهله بالأقل » . ثم يضيف قائلا « إن معظم مانسميه شراً يرجع إلى النحو الذى يأخذ به الناس الظواهر . يمكنك أن تجعل الشر خيراً بتغيير بسيط فى الموقف الداخلى للإنسان المتوقع لك الشر . أى تغيير من موقف الخوف منه إلى موقف النضال إزاءه ، وستصبح لذعة الشر حلاوة إذا قبلنا مواجهته بفرح وابتهاج . انكر ما فى الوقائع من سوء واحتقر شبح سوئها وأدر ظهرك لها فإن الشر الذى فيها قد يزول . . . » [1]

فالسعادة والشقاء لا يجيئان إذاً من ناحية الأحداث الخارجية التى قد تواجهنا

---

(١) صنوف التجربة الدينية ص ٨٩ .
Varieties Of Religious Experience

بقـــدر ما يحويان من ناحية الطريقة التي نواجهها بها ، والتي تتوقف أول ما تتوقف على مقدار ما فينا من فضيلة أو رذيلة ، « فالإنسان الصالح من كنز قلبه الصالح يخرج الصلاح ، والإنسان الشرير من كنز قلبه الشرير يخرج الشر ، فإنه من فضلة القلب يتكلم فمه » .

* * *

بل إن سعادة الإنسان وشقاءه لا يتوقفان فحسب على مقدار فضائله ورذائله ، التي اصطلح الناس عليها في مألوف حياتهم وقيمهم الاجتماعية السائدة بقدر ما يتوقفان قبل كل شيء آخر على مدى ذكائه وحكمته . وأيضا على صحة إحساسه بذاته واستقلاله عما يحيط به من مظاهر الحياة ، وبالتالي يتوقفان على نوع شعوره ، وعلى عمق العاطفة الصحيحة لديه أو ضآلتها ، وعلى عمق الإحساس بالجمال حيثما وجد أو ضآلته . الجمال في كل شيء : في الطبيعة ، في نفوس الناس ، في الفكرة الجميلة ، في التصرف النبيل ، في اللوحة الجميلة ، في النغم المعبر ...

وكل ذلك يتوقف على المستوى الروحي — أو إن شئت — العقلي للإنسان ، هذا المستوى الذي يتحكم فيه شيء واحد في النهاية وهو المعرفة أو الجهل ، إلى الحد الذي دفع سقراط إلى القول « بأنه يوجد خير واحد للبشر هو المعرفة ، كما يوجد شر واحد هو الجهل » ... والذي دفع شكسبير إلى القول بأن « الجهل هو لعنة الله ، أما المعرفة فهي الجناح الذي نطير به إلى السماء » . ودفع إيمرسون إلى أن يقول « بنبئني بما يدور في ذهن الرجل انبئك أي رجل هو » ، ونورمان فنسنت بيل إلى أن يقول بدوره « إنك لست من تفكر أنه أنت وإنما أنت ما تفكر » .

فالمعرفة لعقل الإنسان هي إذاً كل شيء حتى الفضيلة والعاطفة . ولعله لذلك قال طاغور أيضاً « نحن لا نعرف لأننا لا نحب » ... والمعرفة أيضاً هي الإحساس الفني والذوق السليم ، بل هي أيضاً الشجاعة والنخوة والوطنية

والتضحية ، والاستقامة والجهاد . وهى حتى فى هذا النطاق تنبع من إنكار الذات ، لأنها لا تجىء إلا عن هذا الطريق ولا تقف فى طريقها عقبة كعقبة الأثرة التى تعطل فى الإنسان نشاطه العقلى ومعه المعرفة الصحيحة والعاطفة الكريمة ، وتقلب الموازين والقيم رأساً على عقب ، فإذا الجهل عرفاناً والغباوة إيماناً ، والشر خيراً ، والمغالطة برهاناً .. كما أن الأثرة تولد احتقار الآخرين ، والحقد والحسد والانتقام وبالتالى القسوة ، كما تولد الحرب والعدوان على الحقوق . . .

بل إن الأثرة لا تكتفى بتعطيل كل فضيلة حقيقية فى النفس ، فلا تقنع بأقل من التهامها فى النهاية — ومعها كل موهبة ، بل كل ألمعية وذكاء ، وكل علم وعرفان — جاعلة منها عناصر للتخلف بدلا من الارتقاء — وذلك كله بحكم الصراع الخالد بين الشر والخير فى ناموس الحياة ، والذى يتمثل أول ما يتمثل فى اصطراع عوامل الخير والشر داخل الروح ، سواء عندما تكون فى أسر جسدها المادى ، أم عندما تتخلص من هذا الأسر ، كيما تصبح سيدة جسدها الأثيرى .

ولا يوقف طغيان الأثرة عند حدها شىء قدر قوة الإيثار . وإرادة الإنسان هى فى النهاية الفيصل فى هذا الصراع الخالد بين الشر والخير ، أو بالأدق بين شهوات الذات السفلى محكومة بالجهالة ونوازع الذات العليا محكومة بالمعرفة ، وبإرادة التسامى التى تستلهمها الروح من إحساسها بحقيقتها ، ومن اتصالها غير الواعى بعالمها الأصيل .

ولذلك يمكن بغير كبير عناء القول بأن كل فضائل النفس تنبع من فضيلة واحدة حقيقية . فهى أشبه ما تكون بالصيغ المتنوعة للمادة الصلبة عندما ترجع رغم تعددها إلى أصل واحد وهو الأثير ، الذى يرجع بدوره إلى طاقة واحدة محبوسة بحاجة إلى عقل كيما يوجهها ويتوجه بها . كذلك

فضائل الإنسان ترجع كلها إلى طاقة واحدة تغذيها وتتغذى بها وهي طاقة الإيثار التي تغذيها المعرفة ، ويرجع عكسها إلى الصورة العكسية لنفس هذه الطاقة وهي الأثرة التي تغذيها الجهالة . وهكذا يظهر بجلاء معنى القول المقدس « من يحب نفسه يهلكها ، ومن يبغض نفسه في هذا العالم يحفظها إلى حياة أبدية » .

الأضواء = المعرفة في الفلسفات القديمة

وليس بغض النفس معناه ازدراء ملكاتها ، ولا إنكار حقيقة الإحساس الصحيح بالذات كشرط لسعادة الإنسان ، بل معناه فحسب الترفع عما قد يحط من قدر الروح ، مع تكريس النفس للخدمة الشريفة ، وتكريس العقل لأداء رسالته الصحيحة ، وهي الابتداع . فرسالة العقل التي أعدتها له الطبيعة منذ بدء الخليقة هي أن يكون نامياً مبتدعاً ، فإذا ما توقف عن أداء رسالته فقد ارتكب الوزر الأكبر نحو قانون الطبيعة الأكبر ، وهو الارتقاء ! ...

ولا ينمو العقل إلا في ظل انكار الذات ، وفي ضوء حرية كاملة من التفكير والتقدير ، ومن البحث وراء المعرفة غير مقيدة بقيود . فكل قيد على العقل أياً كان مصدره ، أو مداه ، إنما هو حرب معلنة على تقدم الحياة ، بل على كل فضيلة ، أشد وزراً من كل حرب دموية أعلنتها الحماقة على الحكمة ، والجمود على التقدم .

ومن يقف عاجزاً عن تفسير الكثير من ألغاز الطبيعة ، وعن تفهم حكمة الأحداث الضخمة التي غيرت مجرى التاريخ الإنساني ، وحكمة المآسي المرة التي عاني منها الإنسان ولا يزال يعاني ، فإنه لن يجد مفتاح اللغز إلا في قانون التطور وسلطانه الرهيب على الروح والمادة ، وتفوقه الساحق على كل قانون آخر عداه ، مهما ظهر لنا إنسانياً رحيماً ، في هذا المستوى الضيق المحدود من الوجود .

وإذا كان تطور الجسد هدفاً سامياً من أهداف الطبيعة ووسيلة من وسائلها نحو ارتقاء الحياة فتطور الروح — حاملة العقل — أحق وأوجب . فنحن لا نحيا لإشباع شهواتنا وغرائزنا بل لتنمية ملكاتنا ومداركنا ، ومن ثم كان العقل غاية الحياة ، كما أن الحياة المتكاملة غاية للعقل المتكامل ، فالحياة تدور مع العقل وجوداً وعدماً ، كما تدور معه ارتقاء وانحطاطاً . وهيهات لناموس الله العادل أن يكون الأمر غير ذلك ، إلا إذا نزل بنا مستوى الإدراك عن إدراك حقائق الحياة الواضحة ... وارتفع بنا مستوى الادعاء إلى زعم العلم بكل أسرار الكون وخفاياه ، كيما تكون أداة طيّعة فى يد ادعاءاتنا ، وكأن الله تعالى يتلقى منا الوحى والإلهام ويتعرف منا على الحلال والحرام ...

وقد كانت الفلسفات القديمة تعرف للمعرفة حق قدرها ، وأثرها المباشر فى الارتفاع بالروح وتطورها للأمام كما تعرف أثر الجهل فى الانحطاط بها . ففضيلة النفس الصحيحة — عند سقراط وأرسطو وأفلاطون — هى المعرفة . وفى هذا الشأن يقول الأخير « المعرفة انعكاس النفس على ذاتها لكشف المبادىء التى تهديها وتنير لها السبيل وتأخذ بيدها فى طريق الحق . وسائر الفضائل تنبع عن فضيلة المعرفة . والعقل هو أساس سائر الفضائل التى تواضع الناس عليها »[1] .

ومثل هذا الرأى نجده أيضاً عند الفلاسفة الكبار الفارابى وابن سيناء والغزالى وابن رشد :—

فالفارابى يقول كأفلاطون إن النفس العاقلة هى جوهر الإنسان عند التحقيق . وإن المعرفة الحقة هى سبيل الصعود إلى العالم العلوى . كما يقسم قوى النفس إلى قسمين رئيسيين : أحدهما موكل بالعمل والآخر موكل

---

(١) محاورة مينون ٨٨

بالإدراك . ثم يقسم القسم الثانى إلى قسمين فرعيين : حيوانى وإنسانى . أما الحيوانى فوظيفته الإحساس ، وأما الإنسانى فيهدف إلى تحصيل المعرفة العقلية بمعنى الكلمة ، ويطلق على هـــذا القسم الأخير وصف العقل النظرى[1] .

أما الرئيس ابن سيناء فيقسم النفوس إلى ثلاث متفاوته تبعاً لاختلاف مرتبتها من حيث الكمال فى الفضيلة والمعرفة . وهذه هى طائفة السابقين الذين يدركون الدرجة القصوى فى جنات النعيم فيلحقون بعالم العقل ويتنزهون عن مقارنة أدران الحياة الجسمية ... والأمر الذى يهمنا هنا أن نبرزه هو كيف أنه يجعل الكمال فى الفضيلة إلى جانب الكمال فى المعرفة شرطاً لإدراك الدرجة القصوى فى جنات النعيم للحاق بعالم العقل .

كما يعرف الإمام الغزالى النفس الإنسانية بأنها « كمال أول لجسم طبيعى آلى من جهة ما يفعل الأفاعيل بالاختبار العقلى والاستنباط بالرأى ، ومن جهة ما يدرك من الأمور الكلية [2] »

ويذهب الإمام الغزالى أيضاً فى تبيان قيمة المعرفة إلى « ان الروح متجهة من ناحيتها إلى العودة إلى أصلها ، وقد جاءت إلى هذا العالم بالرغم من إرادتها لتحصل على معرفه أوسع بالله ، ومستوى عودتها هو درجة المعرفة التى تكتسبها فى هذا العالم . فرغبتها فى العودة ، ممزوجة مع عجزها عن تحقيق ذلك دون أن تتحقق لها المعرفة، هى سر الحياة الإنسانيه فى هذه الدنيا . وهذا السر نفسه هو حكمة الله فى خلق الحياة والموت بالنسبة للإنسان ، وهو نفسه الذى يضفى على الحياة الإنسانية على هـذه الأرض أهميتها الخاصة فى حياة الإنسان الخالدة . ويعيش الإنسان ليس بإرادة منه بل تبعاً لطبيعة روحه فى شعور دائم من القلق لإحساسه بعزلته وبعده عن

---

(١) أنظر « عيون المسائل » وهى فى مجموعة « الثمرة المرضية » ص٧٢ — ٧٤ .
(٢) « فى النفس والعقل » للدكتور محمود قاسم طبعة ٣ ص ٩٨ .

الملكوت السماوى وهو الإحساس الذى يدفعه إلى التفكير فى نفسه وفى كل ما يحيط به من آفاق . . .

وعلى الإنسان قبل أن يحاول معرفة الملكوت السماوى ليصل إلى الرضى واطمئنان النفس أن يعرف أولا عالم المشاهدة الذى يحيط به ، وأن يحرر نفسه من قيوده . وكل علم يحصل عليه هو ذو قيمة كبيرة حتى ولو لم يكن ذا قيمة مباشرة فى حياته ، إذ أنه يضيف شيئاً إلى معرفته بأعمال الله ، ويمكنه من المضى فى سيره نحو السعادة . وتكون سعادة الإنسان ورضاه هى النقطة النهائية فى عملية أكتساب متدرج للمعرفة بأمور كثيرة طبقا لقدرته المتزايدة نتيجة نضوجه . وليست السعادة فى حد ذاتها إلا حالة وجودية ترافق أداء الإنسان للأمانة التى حملها الله إياها ، وهى معرفة الله عن طريق معرفة عوالمه المختلفة فى خلقه . . . »[1].

ويذهب فيلسوف قرطبة أبو الوليد بن رشد إلى أن اتصال النفس بالبدن لا يمكن أن يكون إلا لحكمة إلهية ، وهى أن يدرك المرء حقيقة الأشياء ويقف على جوهر نفسه . وإلى أنه يجب أن تكون المعرفة هى غاية الإنسان فى أفعاله التى تخصه دون سائر الحيوان ، وهذه هى أفعال النفس الناطقة . ولما كانت النفس الناطقة جزئين ، وهما جزء عملى وجزء علمى ، وجب أن يكون المطلوب الأول منه هو أن يوجد كماله فى هاتين القوتين[2] . كما يقرر «أن النفس تنتهى إلى أن تدرك أنها ليست صورة للجسم فحسب ، بل تعلم أنها جوهر عقلى يحل مكاناً وسطاً بين عالم الحس والعالم الإلهى . . . »

ولسوء الحظ أن تقدير قيمة « المعرفة العقلية بمعنى الكلمة » على حد تعبير الفارابى ، للوصول إلى « الكمال فى الفضيلة والمعرفة » على حد تعبير

---

(١) عن « الإنسان عند الغزالى » تأليف الدكتور على عيسى عثمان وتعريب الأستاذ خيرى حماد ص ١١١ ، ١١٢ .

(٢) عن « كتاب مناهج الأدلة » ص ٢٤٠ .

ابن سيناء ، وللوصول إلى طريق « السعادة والرضا » وللحصول على معرفة أوسع بالله » على حد تعبير الغزالى ، و « إدراك المرء لحقيقة الأشياء والوقوف على جوهر نفسه » على حد تعبير ابن رشد . . . قد خبا مع الوقت تحت تأثير فهم خاطىء ساد فى عصور لاحقة مقتضاه أن الإيمان الأعمى هو كل شىء للإنسان ، وأنه يغنى عن كل شىء حتى عن المعرفة الصحيحة ، حتى كاد التسليم الأعمى أن يسحق فى طريقه الإدراك المبصر ، وأن يصبح ذريعة لظلام الغموض الذى ينبغى أن يحل فى بعض الأذهان محل نور العرفان ..

بل كاد التسليم الأعمى أن يسحق فى طريقه الاستقامة والفضيلة والمحبة والوداعة ، وأن يصبح ذريعة لإنكار فضائل الآخرين وخدماتهم وتضحياتهم ، وبالتالى لإهدار حتى القيم الصحيحة والموازين العادلة . . .

ووجد هذا التقدير الخاطىء لمعنى الإيمان من يغذيه ، ولا يزال يجد حتى الآن بسبب غشاوة الكبرياء — وهى العدو الأول للإنسان فى كل زمان ومكان — والتى لا يمكنها أن تدرك أن المعرفة الصحيحة هى التى تقوى ملكات الروح ، وأن هذه الملكات هى سبيل الإيمان الصحيح . فالإيمان يبدأ أبداً وينتهى حيث تبدأ به وتنتهى المعرفة الصحيحة لحقيقة الأشياء ووقوف الإنسان وقوفاً صحيحاً على جوهر نفسه ، وعلى مكانه المحدد له فى الوجود منذ الأزل وإلى الأبد . . .

وفى هذا الشأن يتحدث الدكتور أحمد زكى — مدير جامعة القاهرة سابقاً — قائلا « الناس فى كهولتهم وشيخوختهم صنفان . . . صنف يسلم أمره للواقع ويسلم فهمه ، فهو لا يفكر إما جهلا وإما عجزاً . وكثيراً ما يتدارى فى التعبد على أى دين كان . ويغمغم فى تعبده بما يدرى وما لا يدرى ، ويغمغم بالذى يكون له معنى ثم يصير من كثرة التكرار وليس له معنى يعيه . وهو يرجو أن ينزل عليه القدر بالخاتمة على هذه الحال ويرجو من ذلك حسن المآل . . .

« أما الصنف الآخر فيؤسس إيمانه على الفهم ما استطاع إلى ذلك سبيلا. ولقد يعلم أن العقل سوف لا يبلغ الغاية ، ولكن عنده أن بعض الغاية خير من فواتها كلها . وعنده أن عقلا يتحرك يسنده القلب خير من عقل كسيح، وأن عقلا ينبض بشيء من الحياة خير من عقل لا حياة فيه . فإلى هذا الصنف الأخير من شبان وشيوخ على الأخص أتوجه بالحديث ...[1] »

هل من نواميس طبيعية للأخلاق ؟

وعلم الروح الحديث — وإن كان لم يأت بجديد فى شأن ماهية المبادىء الخلقية المستقرة من ناحيتى قيمتها فى إسعاد الانسان ، ووثيق اتصالها بنوع المعرفة الذى يغذيها ويتغذى بها — إلا أنه ألقى على هذه المبادىء المستقرة أضواء جديدة — لا تقل فى قوتها عن تلك التى ألقاها على الإيمان المستنير وعلى سلطان الضمير — عندما أعطاها أسانيد جديدة تجعل العقول أقرب إلى فهمها ، وأسباب جديدة لتقدير قيمتها وبالتالى الاستمساك بها .

ويكفى فى هذا الشأن أنه وضح تماماً كيف أن للكون نواميسه الطبيعية الصارمة التى تحكم الخلق ، كما تحكم قوانين أخرى المادة ، فتوجهها فى منظوماتها الذرية العجيبة وهى تسبح فى فراغها الأثيرى كما توجه الضوء والحرارة والكهربائية والمغناطيسية ، وكل حركة فى الكون نحو الاتزان والتناسق مع سائر مظاهر الوجود الذى يبدو لنا مادياً وما هو فى حقيقته من « المادى » فى شىء .

ولكل قانون « مادى » قانون خلقى يقابله ، أو بالأدق قانون عقلى مرتبط به مادام الارتباط محتوماً بين العقل والمادة . إذ من غير المتصور أن توجد قوانين طبيعية تحكم مظاهر الوجود المادى ولا تحكم فى نفس الوقت وبنفس المقدار مظاهر الوجود الروحى أو بالأدق العقلى ، الذى يمثل الوجود الحقيقى للحياة .

---

(١) فى مؤلفه « مع الله فى السماء » ص ٩ .

وإذا كنا لا نحس على المستوى الأرضى بكل ما لهذه القوانين الطبيعية الخلقية من سطوة فلأن الغلاف الجسدى الكثيف الذى يغلف عقولنا يحجب عنا هذا الإحساس إلى حد كبير . فإذا سقط هذا الغلاف بالتغير الذى اعتدنا أن نسميه موتاً سطعت هذه القوانين سطوع الشمس بعد سقوط الأمطار ، وشعرت الروح بكل نفاذها فاستضاءت بها الحكمة وهربت منها الحماقة ، ولكن إلى أين المفر ؟

وهذه القوانين الخلقية الطبيعية وصلت إليها المعرفة حتى عن طريق حقائق علم النفس التى أثبتت أن الأمراض النفسية كثيراً ما يكون سببها الأساسى الأنانية ، وأن السعادة النفسية مرتبطة برسالة الخدمة والعمل على إسعاد الآخرين . كما أثبتت أن الفراغ مدعاة لليأس والقنوط ، وأن العمل المثمر يفتح باب الأمل ويشفى الكثير من أدواء النفس وعوامل شقائها ، وأن الحقد الدفين هدام للنفس والجسد ، ولذا كان الزمن بلسم الطبيعة لجراح النفس والجسد ... وغير ذلك من القوانين الخلقية الطبيعية التى يسلم بها تماماً علم النفس الحديث .

ثم إن من يختبر نفوس الناس يدرك أن نوازع الهوى الجامح فيها تتجاوز نوازع الاعتدال ، وأن عوامل الزيغ أصيلة فيها هيهات أن يقاومها شعور راسخ بأن الحق أحق بأن يتبع ، وأن التواطؤ على الاثم أقرب إليها من التعاون على البر والتقوى . وكبرياء أى إنسان تزين له أبداً سبيل السوء وتلبس أسباب الالتواء ، كما تصور له أنه دائماً على صواب ، ولو كان بعيداً عنه بعد الأرض عن السماء ! . . .

فالباحث عن العدالة فى ضمير الإنسان متطلب فى الماء جذوة نار ... ومن أين إذا يمكن أن تشرق نار العدالة ونورها فتبدد فى رحبات الكون الفسيح مظالم البشر وظلمة ضمائرهم ؟ وكيف تعيد إلى النفوس الجزعة الحزينة حقها السليب وسكونها الطبيعى المشروع ؟ ثم . إن وجود هذه القوانين العادلة المطلقة، المعدة كيما تحكم أحداث الحياة منذ الأزل وإلى الأبد ، فى كل مكان

وعلى كل مستوى ، هو الأمر الوحيد الذى يفسر معنى الضمير الإنسانى ، ومعنى رسالة هذا الضمير فى استلهام هذه القوانين حلولها ، ومحاولة الوصول إلى أسرارها .

وهو الأمر الوحيد الذى يفسر معنى قولنا بأن إرضاء الضمير يرضى الله تعالى ، وأن مخالفته تغضبه . فلولا هذه القوانين المطلقة الحكيمة لما كان للضمير الإنسانى من مغزى ولا من هدف ، ولما كان هناك محل لرضاء ولا لغضب . ولما كانت هناك وحدة سامية تربط بين ضمائر الناس على اختلاف عقائدهم ومشاربهم برباط وثيق من الإحساس بقوة الفضيلة ، وبضعف الرذيلة ، بل من الإحساس المشترك بماهية هذه وتلك على مر الدهور والأجيال ، وبالتمييز بين القبح والجمال فى معالم الحياة ، بل وفى نفوس الناس ودوافعهم فيها حيثما كانو وأينما وجدوا .

* * *

وفى هذا الشأن يتحدث أديب الروحية وفيلسوفها المعروف ليون دنيز Léon Denis قائلا « إذا كنا نجيء من العدم لنعود إلى العدم ، وإذا كان نفس المصير ، نفس النسيان ينتظر المجرم والحكيم ، الأنانى والمخلص ، وإذا كان بحسب مفارقات المصادفة ينبغى أن يكون العناء وحده من نصيب البعض والسعادة والمرح من نصيب البعض الآخر ، إذاً فلنجرؤ على أن نعلن أن الأمل سراب ، وأنه ليس من عزاء بعد للحزانى ، ولا من عدالة لضحايا سوء المصير .

فالإنسانية تدور محمولة على حركة الأرض بغير هدف ، بغير وضوح ، بغير قانون خلق ، مجددة نفسها بنفسها عن طريق الولادة والوفاة ، وهما الظاهرتان اللتان يتردد الإنسان بينهما ، ويمضى غير تارك من أثر بعده إلا ما هو كضوء باهت فى الليل .

وتحت تأثير مذاهب كهذه (يتحدث عن المذاهب المادية والوضعية)

ليس على الضمير إلا أن يسكت تاركا مكانه للغريزة الوحشية ، وعلى روح الوصولية أن تخلف النخوة ، وحب المتعة أن يحل محل التطلعات الكريمة للروح . وعندئذ فلا يفكر كل إنسان إلا فى نفسه . وبغض الحياة ، بل أفكار الانتحار ستجيء للاستحواذ على البؤساء . ولن يملك الفقراء إلا الحفيظة على الأغنياء ، وفى غمرة غضبهم قد يحطمون تحطيماً هذه الحضارة الفجة المادية .

ولكن كلا ! إن العقل والمنطق يثوران غاضبين محتجين ضد مذاهب اليأس هذه ، قائلين إن الإنسان لا يمكن أن يكون قد كافح وعمل وتألم كيما ينتهى إلى لاشيء ، وإن المادة ليست كل شيء ، فهناك قوانين أسمى منها ، قوانين للنظام وللتناسق ، فليس السكون مجرد آلة لا وعى فيها .

فكيف يتأتى للمادة العمياء أن تحكم نفسها بنفسها عن طريق قوانين ذكية حكيمة ؟ وكيف يتأتى لها وهى مجردة من العقل ومن الشعور أن تنتج كائنات عاقلة، شاعرة، قادرة على أن تميز بين الخير والشر ، وبين الأمر العادل والظالم ؟ ماذا أقول ؟ إن الروح الإنسانية عرضة لأن تحب لغاية الفداء ، ومعانى الجمال والخير منقوشة فيها ، ومع ذلك يقولون إنها تابعة من عنصر لا يملك — فى أية درجة — شيئاً من هذه الصفات ؟ فهل نحن نشعر ونحب ونتألم ، ومع ذلك فقد انبعثنا من مصدر أصم صلب صامت ؟ وبالتالى فنحن أكمل وأفضل من مصدرنا ؟

إن منطقاً كهذا هو عدوان على المنطق ، فليس من الحكمة أن نقبل القول بأن الجزء يمكن أن يكون أسمى من الكل ، أو ان الذكاء يمكن أن يجيء من مصدر غير ذكى . أو أنه يمكن أن يخرج من طبيعة لا هدف لها كائنات عرضة لأن تتابع الجرى وراء أهدافها .

إن الذوق العام يقول لنا على العكس من ذلك إنه إذا كان الذكاء ، وحب الخير والجمال ، كائنين فينا فينبغى أن يصلا إلينا من مصدر يملكهما

بدرجة أعلى منا . وإذا كان النظام ظاهراً فى جميع الأشياء ، وإذا كانت هناك خطة تكشف عن نفسها ، فذلك لأن تفكيراً قد وضعها ، ولأن عقلاقد رسمها . . . »[1]

فى عراقة الإيمان بالنواميس الطبيعية

وهذا الإيمان بوجود قوانين طبيعية للعدالة المطلقة ليس بالجديد على الأفهام بل هو قديم ، لأن الإلهام الروحى قديم . فعندما ارتقى عقل الإنسان المستوى الذى مكنه من تلقى الإلهام الراقى بدأ فى التحدث عن قوانين طبيعية للعدالة المطلقة مصدرها ضمير الوجود لا ضمائر البشر ، وتفسر وجدها المجرى العام للحياة الذى تعودنا أن نعبر عنه بالقضاء والقدر . وعلينا أن نبحث عنها كنجم ماس مخبوء فى أعماق بعيدة ، وإذا عثرنا عليه قلنا بل نحن الذين بعقولنا صنعناه وهكذا وضعناه ! ! . فما أضل ما نفكر ومانزعم من أوهام .

ولم يضعف إيمان الإنسان بهذه القوانين الطبيعية إلا عندما بدأ عصر الإنكار ، فكان أن ساد اعتقاد آخر يريد أن يرجع جميع القوانين الخلقية إلى قيم اجتماعية عابرة لا منطق فيها غير روح الاجتماع ، ولا رابطة تربطها إلا مصلحة الجماعة . فأصبح إنكار قوانين الطبيعة رفيقاً وفياً لمدارس إنكار القدرة الخالقة ، كما كان الإيمان بإله شخصى متحيز رفيقاً وفياً لمدارس الجهالة وما أكثرها ! ..

أما فلسفة الروحية فإنها تقوم الآن فى جملتها على التسليم بوجود نواميس طبيعية موضوعية تحكم الروح فى تقدمها وارتقائها ، هذا الارتقاء الذى ليس له مفتاح آخر إلا الخالق القويم ، نواميس تعرف كيف تثيب بذاتها وتعاقب لأن يوم الدينونة هو كل يوم هنا وهناك ، وذلك حتى تحصل كل روح

---

(١) عن مؤلفه « بعد الموت » Après La Mort ص ١٠٩ — ١١١ .

على الارتقاء المطلوب ، لأن الله تعالى يريد الخلاص لجميع الأرواح ولا يريد لروح واحدة أن تتألم أو تقاسى من الخروج عليها، إلا بالقدر اللازم لدفعها فى طريق تطورها للأمام وصلاح أمرها . هذا وقد بينا فى باب الثواب والعقاب كيف أن هذه النواميس تعمل فى نطاق الارتباط الطبيعي بين المقدمات ونتائجها المحتومة ...

وهذا البنيان الذى تقوم عليه الفلسفة الروحية الحديثة ليس جديداً على الأفهام كما قلنا ، بل كان مزدهراً منذ كانت الفلسفة فى أكثر أيامها ازدهاراً.

فها هو مثلا الشاعر الإغريقى سوفوكليس Sophocles يذكر فى قصة انتيجون أن « قوانين الأخلاق صادرة من الآلهة لا من الإنسان الفانى ولا يستطيع النسيان أن يؤثر فى يقظتها » . وها هو أفلاطون يقارن بين العدل المطلق والقانون الصالح وبين التقاليد والتشريعات النافذة فعلا . وها هو أرسطو يقسم العدل إلى نوعين : طبيعى ووضعى، ويقرر أن القواعد الطبيعية أسمى من القواعد الوضعية وسائدة فى كل مكان رغم تطبيق مبادىء متنوعة ومخالفة لها فى شتى البلاد . فالفلسفة الإغريقية كانت تعرف العدل المطلق كما كانت تعرف حرية الإرادة .

ثم اعتنق فكرة العدل المطلق فيما بعد فلاسفة كبار منهم فولتير ومنتسكيو وهما من أنصار مدرسة العدالة المطلقة التى ظهرت فى أعقاب ثورة سنة ١٧٨٩ فى فرنسا . كما اعتنقها من بعدهم آخرون فى فرنسا منهم جوزيف دومستر Joseph De Maistre (١٧٥٣ — ١٨٢١) الذى كان يؤمن بالعدالة الإلهية المطلقة حتى فى أحكام القضاء الأرضى سـواء أصابت بحسب تقديرنا أم أخطأت . واعتنقها أيضاً الفيلسوف الألمانى عما نوئيل كنط E. Kant (١٧٢٤ — ١٨٠٤). وتمتاز آراء كنط بطابع روحى يريد أن يحتفظ للفرد بحريته إزاء الدولة ، حين تبدو آراء دوميستر أقرب إلى الدفاع عن سلطان الدولة على الأفراد فى سبيل تحقيق العدل الإلهى المطلق الذى كان يؤمن به.

واعتنقها فى انجلترا فلاسفة كثيرون ، وأيضاً نفر من كبار الفقهاء والمشرعين ، فنجد مثلا الفقيه بلاكستون Blackstone يقول إن القوانين البشرية وضعت على أساس من قانون الطبيعة the Law of Nature الذى يرتكز على القوانين الالهية الأزلية التى لا تتبدل ولا تتغير ، قوانين الخير والشر التى جعل الله الانسان يدركها بعقله . ولأن قانون الطبيعة خلق مع الجنس البشرى فهو موازله ، ولأنه من وضع الله فإن له السيادة والأسبقية على كل ما عداه . وليس لأى قانون وضعى قيمة ولا اعتبار إذا ما تعارض مع قانون الطبيعة . وأن كل قانون من القوانين الوضعية إن كان سليماً فلأنه يستمد كل قوته وسلطانه مباشرة أو بالواسطة من هذا الأصل . . .

* * *

ولسنا نريد أن نتابع هنا موضوع هذا الإيمان بوجود قوانين مطلقة خلقية تحكم هذا الكون بصرامة لا تقل عن صرامة قوانين المادة ، مثل الجاذبية والحرارة والمغناطيسية والكهرباتية والسكون والحركة ... فإن هذا موضوع يطول شرحه . إنما يكفى أن نقرر أن هذا الاعتقاد بدأ فلسفياً ثم تبنته شتى العقائد فى كل مكان جاعلة منه محوراً أساسياً من محاور الإيمان الدينى بجانب الإيمان بالحياة بعد الموت وبالثواب وبالعقاب .

حتى لقد سادت فى وقت من الأوقات فلسفة مقتضاها أن الدولة ينبغى أن تعاقب الجانى من باب الانتقام منه لأنه خرق القانون الإلهى ، وهذا هو عصر الانتقام الالهى أو المقدس Vengeance Divine الذى اتسمت فيه العقوبات بالقسوة عن فهم غير سليم لناموس العقاب الذى توجهه رحمة الإله عندما توجه الانسان فى نموه الروحى وتطوره البطىء للأمام على المدى البعيد ، الذى يتعارض تماما مع كل قسوة . فالقسوة لم تصد تيار الجريمة فى أى عصر من عصور التاريخ ولا أعادت أحداً من الجناة إلى صفوف المجتمع ، ولا هذبت أخلاقه فدفعت به إلى الأمام .

والاعتقاد بوجود قوانين خلقية طبيعية يكاد يكون هو بعينه قانون الثواب والعقاب موضوعاً فى قالب فلسفى ، لولاه لما وجد هذا الاعتقاد صداه القوى فى أذهان الكافة منذ القدم . ولم تغفل الفلسفة الروحية فى العصر الحديث إلا أن تولت إبرازه وشرح مقدماته ونتائجه بأساليب جمعت إلى قوة المنطق تماسك البنيان ووضوح البرهان .

السعادة وثيقة صلة بالعقل وبالدافع

ولهذا أيضا فإن الإحساس بالسعادة أو الشقاء بحسب هذه القوانين الطبيعية لا يجيء من محض بيئة خارجية قد يحيا فيها الإنسان ، ولا من محض نوع من الشعور الداخلى الغامض قد يعمر قلبه . بل إنه مشكلة لها جوانب أكثر تركيباً مما نتصور — إذا لم نحسن فهمها . وهى مشكلة فى غاية البساطة إذا أحسنا فهمها على أنها فى النهاية مشكلة الحالة العقلية للإنسان ، ولا شيء سواها فهى القوة المسيرة له ، وهى صانعة مصيرة .

فى وسع العقل كما قال ملتون الشاعر « أن يخلق وهو فى مكانه مقيم جحيماً من الجنة أو نعيماً من الجحيم » إذ فى العقل تكمن عواطف الإنسان ومشاعره ، وفيه تتفاعل دوماً آلامه وآماله ، وتتصارع فضائله ورذائله . وقد أرجعنا فيما سبق جميع فضائله إلى نزعة الإيثار وجميع رذائله إلى نزعة الأثرة . فعندما ما يحدد العقل مكانه بين النزعتين إنما يحدد فوراً مكانه بين السعادة والشقاء . فكأن مشكلة سعادة الإنسان الحقيقية هى بالتالى مشكلة موضعه بين الإيثار أو الأثرة الذى يتمثل أيهما فى دافع سلوكه فى الحياة أكثر مما قد يتمثل فى المظهر الخارجى لهذا السلوك .

فنوع الدافع هو كل شيء ، « الأمر رهن دائماً بالدافع — تقول الروح سيلفر بيرش — إنك لا تستطيع أن تخدع الناموس . والناموس سجل مدون فى قرارة نفسك . فكل فعل وكل ظن وكل رأى وكل رغبة — كل هذا يدون إلى الأبد فى هالة النفس ... إن الدوافع لكل ما أتيتم من عمل فى دنيا كم

المادية معروف لأولئك الذين يبصرون بعيني الروح ، إذ أن نفسك تكون عارية أمامهم » . ومن ثم كانت السعادة تنبعث — أبداً — من داخل النفس لا من خارجها على ما بيناه آنفاً [١]. وقد ثبت ذلك بأدلة سيكولوجية وفلسفية تتفق تماماً مع فلسفات الأقدمين ، وذلك بالإضافة إلى الأدلة المعملية التي جاءت بها تجارب علم الروح على ما سردناه في باب الثواب والعقاب .

وفي هذا الشأن تقول نفس الروح أيضاً : « إنكم دائماً مركبات تستقبل الأفكار والآراء والقدرة . ولكنكم في نفس الوقت روح . جزء من روح الحياة الأعظم . فيمكنكم الدعاء لذلك المنبع اللا نهائي وأن تساعدوه ليعبر عن نفسه بصورة أكمل مما هي عليه . هل تظنون أن الإنسان قد وصل إلى الدور النهائي في تطوره . أليست مدنيتكم الحالية برهاناً واضحاً على أن الإنسان مازال أمامه الكثير بعد في نموه وتطوره ؟ . . .

... وهذه الألوهية ولو أنها شرارة صغيرة إلا أنها ساكنة في دخيلة كل إنسان . وسواء نفختم في الشرارة كيما تجعلوها ضوءاً عظيماً ، أم تجاهلتموها حتى أصبحت مطفأة ، فهذا أمر عليكم أن تقطعوا فيه برأى مستلهمين عزيمتكم الحرة ، لأنه لا يوجد بتاتاً شخص آخر يفعل لكم ذلك .

« أنتم الحكام في مصائركم . أنتم تصنعون وتشكلون مستقبلكم . وسواء سمحتم للروح الأعظم ليظهر أم لا فهذا أمر متروك لتقديركم إن هذا لا يعمل لكم . ولا يوجد أحد يستطيع إثارة التقدم حتى تبدأوه بأنفسكم » [٢] .

* * *

وفي نفس هذا الاتجاه تقول أيضاً الروح جوليا : « اذكروا ذلك ، أن الجنة هي أن يعيش الإنسان في إحساس دائم بمحبة الله . فكل تصرف

---

(١) راجع ماسبق في ص ٤٢٣ — ٤٣٠ .

(٢) عن « سفير الأرواح العليا » ص ٨٠ .

أو كلمة أو فكرة لا تنبع من المحبة تبعد روحاً خارجاً عن السماء ، وتغلق عليها أبواب الجحيم بقدر ما تقوم الحياة على الأفكار .

فالأفكار السوداء والخبيثة والمريرة كلها قضبان فى بوابة جهنم . وأنتم يامن ساعدتم على وضع هذه الأرواح هناك عليكم أن تساعدوا على إعادة الأسرى إلى حريتهم . ولا تحسبوا أن عملكم فى هذا الشأن سيكون محض عناء . إن أكبر متعة فى حياتنا هنا هى أن نكون مشغولين إلى مالا نهاية بأن نعيد نور المحبة إلى أولئك الذين ساعدنا على حرمانهم منها .

وعندما أتحدث عن ذلك لا تحسب أنى اتحدث بحسب عن الحب العاطفى أو الانفعالى ، كلا ، فإن طريق كل محبة هو العدل ، فإذا لم تكن عادلا فليس بمقدورك أن تحب . فإعادة المخطىء إلى الطريق القويم ، وإنصاف المظلوم ، وإنقاذ المقيمين فى الهاوية ، هذه هى أمجاد حياتنا ، هذه هى رياضات السماء ... » (١)

كما تقول أيضاً فى مؤلف آخر اسمه « دروس من العالم التالى (٢)» إن الأفكار أشياء . الأفكار تعطى إلى مركز الروح أكثر مما تعطى الكلمات الكثيرة ، والاعتقادات الكثيرة ، والتصريحات الكثيرة عن الإيمان والوعظ الكثير . . . فهل هذه كلها تعطى الروح حقيقة ما تحتاج إليه ؟ إن الأفكار النقية المقدسة تبعث بالروح إلى ممالك السلام والمجد المشرق حين تبعث بها الأفكار الفجة والشهوية إلى الجحيم الأسفل . فانظر إلى مدى ما يترتب على موقف العقل من آثار » .

* * *

وفى نفس الوقت الذى تتحدث فيه الأرواح الراقية عن أثر العقل فى سعادة النفس أو شقائها تتحدث كما سبق أن بينا عن أمكنة لا حصر لها

---

(١) « بعد الموت » لسير وليام ستيد طبعة ١٩٥٢ ص ١٤٥ ، ١٤٦ .

(٢) Lessons From The Beyond ص ٢٧ ، ٢٨ وهذه الدروس وردت بعد انتقال ستيد عن طريق وسيطة اسمها السيدة ماى May .

تتفاوت تفاوتاً ضخماً من ناحية مناظرها وأجوائها وأضوائها وألوانها وظروف الحياة فيها. ويستحق كل إنسان مكانه فيها طبقاً لقانون طبيعي للتوافق الروحي هو الذي يحدده هذا المكان بحسب مدى نموه العقلي والخلقي ولا أثر فيه لارستقراطية المولد أو الثراء الأرضي (١) .

لذا يمكننا في ضوء فهمنا لبعض بيانات الأرواح عن السعادة والشقاء أن نقرر بأن « الجنة تكمن في الإنسان السعيد وهو فيها ، ويكمن الألم في الإنسان الشقي وهو فيه . وكلاهما موقع في سلم الاهتزازات الكونية ، وفي نفس الوقت حالة عقلية تقع في داخل النفس الإنسانية . ولا محل للفصل بينهما ، ولا للفصل بين حالة وأخرى بحواجز فاصلة لا يمكن اجتيازها ... »

وعلى ذلك فسعادة الإنسان لا تتوقف فحسب على المكان الذي قد يوجد فيه ، بل تتوقف قبل كل شيء على حالته النفسية أو إن شئت العقلية أي على ضميره في النهاية . ولذا قال ماركوس أوريليوس « إن حياتنا من صنع أفكارنا» ، كما قال سويدنبرج إن الشر في الإنسان هو الجحيم ، فالجحيم والشر شيء واحد» . وهذه الحقيقة ندركها على هذا المستوى الأرضي بشكل واضح ، لكنهم يدركونها هناك بشكل أكثر وضوحاً . لأن الإحساس بالمكان هناك يتوقف أولا على المستوى العقلي للروح ، مادام العقل هو هناك وسيلة الانتقال الوحيدة على ما بيناه فيما سبق ، ومادام للروح تأثير مباشر فيما حولها من مظاهر الوجود بحكم تأثير العقل في المادة .

ومن ثم يصح القول بأن العقل هو كل شيء في الإنسان ، فهو النور الذي يشرق في جنبات الضمير ، وهو النار التي تحرق ما يغذيه من شعور الخير إذا شاء ، أو شعور الشر إذا شاء ! فهو إذاً — وحده — مصدر سعادتنا وشقائنا ، ورافعنا وخافضنا ، ومحطم الأغلال وواضع القيود ، وهو صديقنا الأوفى إذا شئنا ، وهو أيضاً العدو اللدود !

(١) راجع ما سبق ص ٧٣ وما بعدها ، و ١٥٠ وما بعدها .

فإذا ما اختزلنا الإنسان إلى مادة — ولو كانت حجراً كريماً — لاختزلناه إلى مجرد تراب ، أما إذا اختزلناه إلى عقل لما بعدنا عن الصواب . وهذه الحقيقة الرائعة لا تبدو على كل روعتها إلا فى ظروف العيش فى أى مستوى من مستويات « ما بعد المادة » بعد إذ يتم تحرر العقول من الأجساد المادية التى لا تتفاوت كثيراً فى مظهرها الخارجى ، والتى قد تخدعنا أحياناً عندما يطوى الجسد الذى قد يبدو جميلا عقلا لا جمال فيه ، والتى لا تتفاوت كثيراً ، بل قد تتفاوت لمصلحة الأحمق أو الجهول ! ثم إن تفاوتها بلغ ما بلغ مداه لا يمكن أن يعد فى النهاية شيئاً مذكوراً إلى جانب تفاوت بنى البشر فى عقولهم وملكاتهم ودوافعهم وعواطفهم وضمائرهم ، وكل هذه تبرز هناك مكشوفة واضحة للعيان فى عيش لا استتار فيه ولا بهتان .

وهذه الحقيقة الأولية فى علم الروح هى التى تفسر الآلام الضخمة التى قد يتعرض لها بنو البشر — بوجه عام — فى هذا المستوى الحالى من مستويات الوجود ، والتى تهدف إلى النهوض التدريجى بعقول الناس — وبالتالى بملكاتهم ودوافعهم وعواطفهم — حتى تحسن التأثير فيما سيحوطها مستقبلا من ظواهر الحياة الطبيعية التى ستخضع لها خضوعاً مباشراً . وحضارة العقل والعاطفة هى إذاً الهدف الأسمى من نشوء الحياة على مستوى المادة بكل ما يكتنفها من أسباب للآلام ، وللكفاح الذى لا يتوقف . ولعله لتحقيق هذا الهدف تصور برجسون الكون كله « آلة لصنع آلهة » كما قال .

وهى لا تتفق إلا مع التسليم للإنسان بقدر وافر من حرية الاختيار ، فهذه الحرية هى التى تمكنه من أن يريد الخير أو الشر ، ويتقدم أو يتقهقر ، ويسرع فى الحالين أو يبطىء ، ويصيب أو يخطىء ، « وهى التى تقيم — بحسب تعبير سويدنبرج — توازناً بين النعيم والجحيم ، لأنه توازن بين الخير الذى يجىء من النعيم والشر الذى ينبعث من الجحيم ، وهذا التوازن الروحى هو نفسه حرية الاختيار فى الإنسان »[1]

(١) عن « الجنة والنار » الترجمة الفرنسية فقرة ٥٩٧ ص ٤٦١ .

فإذا وجد الإنسان نفسه — هنا وهناك — فى مكان جميل لكن لا يناسب مستواه العقلى فهو غير سعيد بالمرة ومآله المحتوم إلى الشقاء ، لأن الجهالة تشقى الإنسان حيثما كان ، بل قد تصيبه بأشد الأمراض النفسية قسوة على أصحابها. هذا وقد تبين علم النفس الحديث أن من الأسباب الأساسية لبعض العقد النفسية المستعصية الجهالة ولا شيء غيرها . فالعقل الذى يحيا فى غير بيئته هو كساكن القرية المتخلفة السعيد بها إذا فرض عليه أن يقيم فى مدينة كبرى جميلة لكن لا تجانس بينه وبين مظاهر الوجود المختلفة فيها ، ولا بينه وبين أخلاق ساكنيها ولغتهم وعاداتهم وتقاليدهم ، فهل يمكن أن يكون سعيداً فيها كسعادته فى قريته التى تناسبه والتى ألف الحياة فيها ؟ . .

« وعندما يولد الناس فى عالم أحسن ، فالمسئولية عليهم أكبر — يقول سيلفر بيرش — ولو أنهم لن يقابلوا العقبات التى قابلها غيرهم فى الأيام الغابرة ، إنها مسألة نسبية . وتذكر دائماً أنه لا يمكنك أن تخدع قانون الروح العظيم . ولن يمكنك فى أى وقت أن تغير ما تستحقه ولو بقدر قيد أنملة . فليس هناك محسوبية ، بل هناك عدالة إلهية فى أتم صورها .

« إن قوانين دنيا كم قد تساعد عن غير استحقاق أو تعاقب . وقد تجر الفائدة على ذوى الألقاب والطبقات ، ولكن النفس يسجل عليها طور التقدم الذى وصلت إليه فى حياتها الدنيوية بالضبط ، والدرجة التى صعدت نفسك إليها هى الدرجة التى ستكون فيها عندما يناديك الموت لحياة أخرى » .

فى الضمير

من المشكلات الفلسفية القديمة « الضمير الإنسانى » الذى قد تنكره العلوم المادية ، والذى يتحدث عنه كثيراً الإنسان العامى دون أن يدرك تماماً خطورة ما يتحدث عنه ، لأنه قد لا يعرف تماماً مدى يقظته فى تسجيل كل حركات النفس وسكناتها . .

ومن الصعوبة بمكان وضع تعريف واحد للضمير ، «فقد قال قوم إنه الجانب الرفيع من العقل يتحدث إلى الإنسان ، وقال آخرون إنه صوت الله يتحدث إلى الروح ، وقال غيرهم إنه العقل غير الواعى فى الإنسان يردد ما ألقى إليه ، ولذلك فإنه يزداد مع الخبرة والتجربة نمواً واكتمالا .

وكل إنسان يحس — وإن تفاوت إحساسه عن إحساس أخيه — بوجود صوت داخلى يتردد فى حنايا نفسه . إنه شيء من المعرفة ظاهر الاستقلال عن القوة العاقلة intellect . هذا الصوت يتحدث إليه إما بلهجة المستدرج الراجى — إما يأمره بأن يفعل كذا وكذا أو أن يمتنع عن فعل كذا وكذا . وقد يدفعه حينا إلى رفيع العمـــل وصالحه ، ويسكت حيناً عما لا يليق به من سوء الفعال، أو يحبب إليه فعل السوء .

هذا الصوت ندعوه الضمير إذا سما وارتفع ، فإن هوى إلى ما سفل من الأمر سميناه وسواساً temptation . يهتف الأول بالإنسان أن اعمل خيراً ويوسوس له الآخر بفعل السوء ... »(١) .

« فإذا أحسست الوحش القديم يتحرك فى طبقات وعيك السفلى يريد أن ينطلق من الغياهب التى وراءه فيها ماعلاه من طبقات التطور نحو الكمال فلا تفزع ولا تضطرب . إنك إذ تبصر به وتدرك أنه شيء منفصل عنك يريد أن يدفعك إلى فعل ما لا ترضاه وما تجد انه لا يليق بك ، فهذا وحده دليل الخير وبشراه . لقد كنت فيما مضى ذلك الوحش ، وأما اليوم فإنه جزء منك فقط متوارٍ فيك ، وعما قليل سيختفى من كيانك اختفاء تاماً إلى غير رجعة ...

فالضمير يتصل بالخير والشر يبصّر بهما العقل،والإلهام يتصل بما يجب فعله فيما لا صلة له بمبادىء الأخلاق . الضمير يهدى للخير وينهى عن الشر والإلهام يسدد خطوات الإنسان فى طريق النجاح ...

---

(١) عن « فلسفة اليوجا » ترجمة الأستاذ عريان يوسف سعد ص ٢٩٢ .

وإن الضمير إذا اهتُدى به كان الاهتداء على قدر ما بلغ الضمير من النور الداخلى ، وإن مبلغ النور هذا قد يجعل الضمير مشرقاً وقد يجعله مظلماً ، قد يرى صاحبه فى ضوئه مادق من الأمور فيضع كل أمر فى نصابه، وقد يضعف نوره حتى يغيب عن صاحبه الكثير فلا يراه ولا يكون له فى حسابه وزن ، لذلك قد يفعل الرجل الفعلة الشنعاء فى نظرنا ، وهو يتيه على الناس من أمثاله إعجاباً بما فعل، وهم يصفقون استحساناً لسوء فعلته ..»[1] .

* * *

وإذا صح أن كان للعقل حيوات متعددة سابقة،سواء على مستوى المادة أم الروح — وهما مرتبطان معاً دواماً مهما تغير مدى فهمنا لهما وإحساسنا بهما — فإن الضمير يكون إذا هو المخزن الذى يختزن فيه العقل تجارب الماضى ودروسه وعبره، كما يستمد من هذا الكنز المخبوء منذ ماضيه السحيق ما يتزود به فى رحلته التى لاتتوقف. وفيه ما قد ينبهه إلى بعض مافى الطريق من مخاوف ومن مخاطر، وبعض مافيه من أسباب التيه والضلال ، ولذا كانت راحة الضمير هى سبيل النجاة وحسن المآل .

والضمير فى علم الروح الحديث هو الإنسان . هو فيه كل شىء ، وما عداه لا يعد شيئاً مذكوراً . لأن ما نفقده هنا من جسد مادى بالوفاة نحصل هناك فوراً على أفضل منه بكثير . أما إذا خسرنا راحة الضمير فقد خسرنا كل شىء هنا وهناك . فالضمير إذاً هو الذى يسعد النفس — ابتداء — أو يشقيها لأنه هو المسئول الأول عنها .

والاقتناع المؤسس على يقين علمى ثابت بأن لكل فضيلة ثوابها ولكل رذيلة عقابها فى ناموس هذا الكون — وهو ما نعتقد أننا قد أقمنا أسبابه وأسانيده فيما سبق — يجعل من الإنسان رقيباً على نفسه فى تصرفاتها الظاهرة والباطنة ، وهذا هو الهدف الأسمى لكل تعليم خلقى عرفه

---

(١) عن المرجع السابق ص ٢٩٥ ، ٢٩٧ ، ٣٠٠ .

الإنسان منذ كان إنساناً مختلفاً — بالضمير وحده — عن وحش الغابة أو سمك البحار .

والضمير هو قاضينا هنا وهناك ، لأنه هو الذى يعاقب ويثيب ويحكم وينفذ،لأنه جزء من قانون طبيعى هذه هى رسالته العظمى .. وأين المفر من يقظة الضمير ، إذا ما أيقظته رقدة الموت المحتومة ، حتى إن بدا أثناء الحياة الأرضية قاضياً متحيزاً بليداً ، أو ممالئاً لصاحبه غبياً عنيداً ؟! . . .

روح ستيد تتحدث عن الضمير

إلا من حق أى متشكك أن يعترض قائلا « لكن من يدرينا أن هذا الكلام المرسل ليس من عندك كيما تغرينا بالاقتناع ؟ » . لذا أترك الكلام فى هذا الشأن لروح سير وليام ستيد الذى كان نقيباً للصحافة فى بلاده فى كتابه « الجزيرة الزرقاء » الذى بعث به من عالم الروح عن طريق الوسيط بارودى ودمان على ما بيناه آنفاً[1] . وعن الفصل الخامس الذى عنوانه « قرارة النفس » أنقل الفقرات الآتية فى شأن الضمير :

« فعقل الإنسان هو غلاف نفسه أو روحه ، وعند فحصه بطريقة علمية بحت يتبين أن المخ هو العضو الوحيد فى الجسم الذى حير رجال العلم فى بحثهم . وعندى أنه يمكن فهم الشىء الكثير عنه ، ولكن لا يمكن معرفة كل شىء . وإذا كان العقل هو غلاف الروح وآلتها المحركة فإنه يصبح بذلك أكثر دقة وتعقيداً ، بل يصبح حقاً العضو الذى حارت فيه الألباب . وإذا كنتم تعلمون أن العقل هو القوة المحركة لكل أعمالكم فكيف لا تفقهون جيداً أن كل عمل تعملونه ، وكل تفكير تفكرونه، يدون أو يسجل فى كتاب؟!...

وإذا اشترى أحد منكم شيئاً من مؤسسة تجارية كبيرة دون أن يدفع الثمن فوراً فإنه لا يشعر بخطة العمل الدقيقة التى تجرى من ورائه ، إذ يدون

---

(١) The Blue Island. وقد أعطاه المعرب الأستاذ عبد الحميد فهمى مطر اسم « ميت يتكلم أو الجزيرة الزرقاء » ص ٨٠ ومابعدها . وراجع ماسبق فى الجزء الأول ص ٢٣٧، ٢٣٨ .

الحساب فى وثيقة تمر على أياد كثيرة قبل أن يصلك بيانه فيما بعد . فإذا دفعت قيمة الوثيقة فإنك تنسى كل شىء ، ولكن التسجيل الذى تم فى تلك المؤسسة لا يزال قائماً . هكذا الحال فى المخ ، فإن كل عمل أو فكر مهما كان نوعه يسجل إلى الأبد ثم يحل وقت الحساب عنه بعد الحياة الدنيا . ثم إنه بعد دفع الحساب يصبح السجل غير ضرورى بل عديم الأهمية لكنه يبقى رغم ذلك . أمفهوم هذا ؟ »

وتستمر الروح قائلة « ليس من سبب للبؤس وللشقاء فى حياتكم الدنيا إلا نزعة المادة التى تولد التفكير الخبيث . وسيتراكم كل ذلك ويتزايد بمجموعه حتى يصغى البشر جمعاً وفرادى ويجتهدوا فى أن يفهم كل عن نفسه شيئاً أكثر وأعمق مما يتعلق ببيع بضائعه وشرائها ، وبذلك يعطى فرصة أوسع للتفكير الطيب المؤدى إلى الخير ، والذى يستطيع وحده أن ينقذ العالم وينجيه » .

ثم تقول نفس الروح فى موضع آخر : « ... هناك أناس من الأذكياء الماهرين الذين يستعملون عقولهم فى الحصول على الكسب المادى مهما كلف ذلك غيرهم من الناس . وأمثال هؤلاء منغمسون فى أسوأ الأفكار الخبيثة وليس موقفهم سلبياً ، لكنه إيجابى مملوء بالحركة والنشاط . أما أفكارهم فخليط من الخبيث والطيب ، ولكن نصيبهم من الطيب قليل . وعندما يجيئون إلى هنا يكون حسابهم ثقيلا عسيراً ، لأنهم بنوا لأنفسهم بناء من التفكير الشره الذى ملأوا به الدنيا ، والذى لابد من أن يحاسبوا عليه حساباً عسيراً فى هذه الحياة الأخرى .

ومهما كان نوع التفكير فإنه مادام قد اشتغل به العقل وخرج إلى حيز الفكر فإنه يعد موجودا كاملا بالنسبة لذلك العقل . وهذا التفكير قد يصحبه عمل مادى أو لا يصحبه ، ولكن ذلك عديم الأهمية مادمت قد وضعته حجراً فى بنائك الذى تبنيه لمستقبلك هنا . وطالما انشغل به العقل وفكر فيه

فقد قضى الأمر وسجل على ذلك العقل (١) .

قد يقال تعليقاً على ذلك إنه من المستحيل التحكم فى جميع الأفكار التى تمر بخاطرنا يومياً ، ومع موافقتى على ذلك فإنى أرى أنك إذا قبلت نهائياً الحقيقة التى ذكرتها فلا شك أنك ستراقب بعين يقظة كل أحوالك العقلية لأنها لاشك ذات أهمية ، ولكنك ستجد صعوبة فى الاعتراف بتلك الأهمية لأن مثل هذه الأمور داخلية للنفس وشخصية فلا يستطيع أحد فى الدنيا أن يعرف مايجرى فى قرارة النفس غيره ، ولذلك جعلت عنوان هذا الفصل « قرارة النفس » .

وسيحيا كل منكم كيما يشكر الشخص الذى نبهه إلى تلك الحقائق إذا عمل بها . أما أولئك الذى يسمعون ويعلمون ولا يعملون بعلمهم ، فسيحل بهم يوم يعضون فيه نواجذ الندم على ما حل بهم من الخيبة ، وإنه لأخف مرارة على النفس أن تعلم بخيبتها وتتحققها من أن تشعر أن غيرها قد علم بها ، ففكروا فى ذلك وتدبروه قليلا فى قرارة نفوسكم »(٢) .

وفى الفصل الثامن الذى عنوانه « حقيقه الاتصال الفكرى» تقول نفس الروح : « يرى كثير من الناس أنه من المستحيل عليه أن يصدق أن كل تفكير مباشر يسجل عليه . أو أن هذا التفكير يؤثر بطريقة مافى الشخص المتعلق به ، أو أنه يعود فيؤثر فيه شخصياً ، غير أن هذا هو الواقع، ولا شك أنكم تتأثرون بحالة شخص بلغ منه الحزن العميق أو الفرح العظيم مبلغاً كبيراً ، ولا بد أن كلا منكم قد أحس بهذا التأثير نفسه ، وهو طبعاً ناشىء عن الاهتزازات الفكرية — منخفضة كانت أو مرتفعة — التى تبعث تيارات مختلفة عند كل من الحزن أو الفرح ، وهذه التيارات جميعها متساوية فى القوة ، لكن مفعولها يختلف باختلاف الأفراد الذين تقع عليهم ، وبهذه الطريقة تعمل الأفكار المباشرة عملها دون أن يشعر الشخص الذى يفكّر

(١) « إنما الأعمال بالنيات » حديث شريف .

(٢) عن المرجع السابق ص ٨٥ — ٨٨ .

فيه غالباً بوجودها ، ولكن تأثيرها يكون موجوداً ومحسوساً بدرجة تختلف قوة وضعفا .

ثم إن كل تلك الأفكار تسجل بدقة فى عقل المفكر نفسه إلى ما بعد مرور الحادث بزمن طويل . وعند حلوله فى هذه الدار يُبحث هذا السجل كله ، وليس الذى يبحثه قاض فى ملابسه الرسمية ولكن الروح تفحصه بنفسها . فتجدنا نتذكر بوضوح تام كل تلك الأشياء . وعلى نوع تلك الأفكار الفردية تتوقف حالة الشخص هنا من ناحية الندم أو السعادة أو الشقاء ، ومن ناحية اليأس أو القناعة . وهنا تتمنى الروح لو أتيحت لها العودة إلى الحياة الدنيا مرة أخرى لتكفر عما سلف منها من تعاسة ، وعما وقعت فيه من خطأ صغيراً كان أم كبيراً نجم عن تفكيرها وعملها السيء .

لهذا السبب أنصحكم أن تضبطوا فى دنياكم تفكيركم وتنظموه ، لأن هذا هو عين الحكمة . وإنه لما يؤسف له أن أهل الدنيا لا يتنبهون لذلك فى حياتهم مع أنهم يعلمون فى قرارة نفوسهم أنى إنما أقرر الحقيقة . وأملى فيكم جميعاً أن تتعرفوا نتائج أعمالكم والتعاسة التى تسببونها لغيركم ، والندم والأسف اللذين ينتظرانكم فى الحياة الأخرى عندما تواجهون بما جنت أيديكم .

اذكروا أن عقولكم هى القوى المحركة ، وأن مستقبلكم فى أخراكم مبنى على ما تعملونه فى دنياكم ، وعلى مقدار تفكيركم وأيضاً على درجة تحكم عقولكم فى أجسامكم ، بدلا من تحكم أجسامكم فى عقولكم ، إذ طالما كان الواحد منكم فى الحياة الدنيا فهو عبارة عن جسم ونفس وروح ، فإذا ما بارحتموها إلى هنا فقد صرتم إلى عقل وروح فقط .

ولضمان السعادة فى مستقبل حياتكم الأخرى ينبغى أن يسود العقل ويتحكم فى الحياة الدنيا ، ولم يبق إلا أن يصمم كل منكم على ذلك . أما إذا صممتم على أن يكون حسابكم عسيراً فسيروا كما تسيرون الآن ، غير أنكم ستجدون ديونكم هنا ثقيلة ولن تجدوا لكم نصيراً ...

لقد جعلت الأرض للإنسان ليتمتع بها لا لتغريه ثم تقف به فجأة فتأمره بالكف ، فليست هذه هى طريقة الخلاق الرحيم . لأنه أنعم علينا بكثير من الجمال وخلق لنا عقلا ليهدينا إلى المتعة بكل ذلك . وطالما كان العقل يقودنا فإننا نظل متمتعين بالجمال ، أما فى الوقت الذى يحكم فيه الجسم على العقل ويحقره فهنا الشقاء الكثير الذى يعقبه الألم ... »[1] .

وهكذا تسترسل روح الكاتب الكبير ستيد فى بيان دور الضمير فى سعادة النفس أو شقائها ، بعد أن خبر ذلك بنفسه فى « جزيرته الزرقاء » التى وصل إليها عقب انتقاله مباشرة بما يضيق المقام عن إيراد المزيد منه .

* * *

وعلى كثرة ماقرأت فى كتب الأرواح ماوقع بصرى على نصيحة واحدة غير خلقية ، أو على أية فكرة صريحة أو مستترة تدعو إلى التحلل من ناموس استقامة الخلق أو نقاء الضمير ، بل إنى أقابل فيها على الدوام تحليلا دقيقاً لهذا الناموس ، وعمقا فى فهمه وإثباته ، وقدرة على غرسه ، وذلك بالإضافة إلى تحليل نواميس التوبة والمغفرة والتكفير عن الذنوب تحت أضواء جديدة ذات طابع علمى بعيد عن شوائب التعصب أو الغموض ، أو التعلق الفطرى بالأشكال والصيغ والطقوس ، مما أعطى التفكير فى هذه الأمور وضوحاً وترابطاً يندر أن يقابل القارىء لها مثيلا .

فهل هى أرواح الشياطين وصلت فجأة إلى مستوى من الخلق لم يصل إليه بعض فلاسفة الأرضيين ؟ ... وهل هناك مبرر للقول بأى تعارض بين البحث فى الروح والبحث فى الدين ؟ أم أنه لامندوحة من التسليم مع البرهان الواضح بأن البحثين فى حقيقتهما مرتبطان معاً بخدمة موضوع واحد ، ويهدفان إلى هدف نبيل واحد هو إنقاذ الإنسان من نفسه ، ومن نزواته ومن شهواته ، وفى نفس الوقت من شكوكه ومن أوهامه ، والأخذ بيده إلى بر الأمان فى رفق وفى يقين ... عن طريق تعزيز إيمانه وعاطفته وضميره ؟ ...

---

(١) عن المرجع السابق ص ١٠٣ — ١٠٧ .

وهذه المعرفة الروحية لو تقبلها الناس بما تستحقه من اعتبار لكان لها شأنها فى تصحيح قيم اجتماعية كثيرة تنبعث كلها من الأثرة لا من الإيثار ، وتتضمن فى جوهرها إهــداراً لدور ضمير الفرد ورسالته العظمى فى تحقيق رقى الروح ، والأخذ بيدها فى طريقها الوعر المحفوف بالعقبات والصعاب ، وتجنيبها الكثير من المحن والآلام. فالضمير هو الصلة التى تصلنا على غير وعى منا بعالم الضمير فى مستوى من مستوياته ، وتربطنا بقوانين الروح الراقية التى تخالف فى الكثير منها قيمنا غير القويمة ، طالما كانت حياة الروح أكثر سعادة ونقاء من حياة الجسد ...

فضمير الإنسان هو أسمى ما يرفع قدره ويقيم له عناصر استقلاله عن وعى المجتمع الصاخب فى فطرته وبدائيته ، والذى يعمل باندفاعات غريزة القطيع أكثر مما يعمل بإلهام العقل المتطور النامى . فالضمير هو الصلة التى تصلنا بعالم الضمير ، كما هو فى نفس الوقت الحاجز الذى يفصلنا عن أوهام الجماهير عندما يعوزها ترابط التفكير .

ومن ثم فمن يجارى روح القطيع مغفلا صوت الضمير ، يسىء إلى نفسه كما يسىء إلى القطيع . أما من يقف فى طريق اندفاعاته وحماقاته ، فهو الراعى الأمين الشجاع الذى تفتقده الجماعات فى المحن والشدائد ، وقلما تجده بسبب طغيان روح الجماعة على روح الفرد ، وطغيان روح الانقياد الأعمى على روح الإرشاد المبصر .

وطغيان روح الجماعة على ضمير الفرد صورة فى الطغيان أشد ضرراً — بمراحل كثيرة — من طغيان إرادة الفرد على روح الجماعة ، لأنها صورة خلابة فى مظهرها قد يستغلها الباحثون عن السلطة بوصفها « شعبية » ، ويجد فيها الوصوليون وسيلة رخيصة ينفذون منها إلى تحقيق أطماعهم فى السيطرة على حساب حقائق الحياة .

ومن جهة أخرى فإن طغيان الفرد على الجماعة كثيراً ما يجد رد فعله فى شعور المجتمع ويقظته المحتومة لدفع العدوان الحاصل عليه إن عاجلا أو آجلا . أما طغيان روح الجماعة على الفرد فهو بمثابة الداء الدفين — لأنه فى مظهره الخارجى عافية وقوة — فلا يثير انتباه أحد إلى حقيقته إلا بعد أن يكون قد فات أوان الإنقاذ من زمن بعيد ...

ولذلك لم يقف فى وجه طغيان روح الجماعة إلا قلة من الفلاسفة والمفكرين عبر التاريخ ميزتهم الطبيعة بأجمل ما يميز به أى إنسان ، وهو استقلال الضمير والتفكير ، وشجاعة اللسان والشعور ، وهذا وذاك لا يوجدان إلا مع إنكار الذات ونضج الأخلاق والملكات .

فالإنسانية مدينة فى ارتقائها إلى جهود أفراد لا إلى جهود جماعات ، لأن العقل المبتدع ، والخلق النامى ، والإحساس المرهف ، والضمير اليقظ ، من خصائص روح الفرد لا الجماعة ، ومن صفات النبى أو العبقرى أو الفيلسوف أو الحكيم أو الشاعر الملهم أو الفنان المبدع ، لا من صفات الجماهير ولو فى المجالس أو الهيئات . . .

فإذا ما ناقشت فرداً عادياً فى أى موضوع عادى قد تسمع منه فوراً كلمة الحق صريحة ، أما إذا عرضت نفس الموضوع على عدد من الأشخاص مجتمعين فى مجلس أو فى لجنة فقد ظهرت على الفور — صريحة — عناصر التواطؤ على البهتان ، وكانما بين « روح الاجتماع » و « روح الحقيقة » عداء مبين هيهات أن يهدأ أو يستكين .. فكم من أمور يفعلها الإنسان متحمساً وهو فى جماعة سرعان ما يخجل منها ضميره وهو فى خلوة ، إذا كان على أية درجة من الإحساس بمعنى الحقيقة أو العدالة !

ومن ثم كانت أخطر رسالة للروح فى اختباراتها التى تنتزعها من اتصالاتها بالمجتمع هى أن تعرف كيف تعثر على ذاتها وسط صخب القطيع ، وأن تشق طريقها — فى وداعة وفى هدوء — إلى أرض السلام وسط حماقاته واندفاعاته ،

غير عابئة بخاطىء أحكامه وموازينه . فلبصيرة الروح قيمة أرقى من قيم المجتمع، وموازين أصدق من موازينه ، وما أشد قدرة هذه على تضليل بصيرة الفرد وبالتالى قدره ومصيره .

وليس فى استقلال ضمير الفرد عن ضمير الجماعة أى معنى من معانى شراسة الانطواء ، ولا شهوة التسلط التى يفهمها الجهول خطأ على أنها من صور التضحية النبيلة أو الجهاد الكريم ، ولن يدرك أبداً أنها من وحى النفس الأمارة بالسوء . إذ أن هذا الاستقلال يقوم على الاتجاه أولا إلى محبة الإنسان للإنسان . هذه المحبة التى معناها حب الخدمة ، والتفانى الذى ينكر تماماً كل انطواء ، ويتعارض مع كل تسلط ، وهما توأمان من أم اسمها الكراهية وأب اسمه الغرور .

وحيثما قلبت النظر فى قيم المجتمع وجدت هذه الحقيقة ناصعة واضحة . فلنقف برهة إذاً مع بعض هذه القيم الخاطئة لنرى العجب العجاب من قدرتها على التخريب ، ومن طغيانها الرهيب على بصائر الجماهير وعقولها .

فمنها قيم اجتماعية ما زالت تعطى لمطالب الجسد الأسبقية على مطالب الروح ، وللغريزة التفوق على العاطفة ، وللجموح السيادة على الاعتدال .

ومنها قيم ما زالت تعتبر الوداعة عجزاً والتواضع ضعفاً : فهى تدعو إلى تمجيد الكبرياء تحت أوصاف خلابة شتى طالما استهوت مشاعر الدهماء ، وتحت عبارات من المثالية الزائفة طالما خدعت السذج والبسطاء .

ومنها قيم تقدس الغلو والاندفاع ، وتكره الاعتدال والتواضع مهما كان الغلو هداماً ، وكان الاعتدال حزاماً للنجاة ، وصخرة للأمان فى خضم الحياة .

ومنها قيم تعطى للمظهر التفوق على الجوهر ، حتى كادت الفضيلة أن تصبح مجرد «إتقان المظهر» ، وكاد بريق المظهر أن يصبح هو جوهر الفضيلة وأسمى ما يستحق عناء البحث عنه والتعلق به ، وصارت القدرة على الخديعة عند الكثيرين هى كل مجدهم ، وكأنها الباب الضيق الموصل إلى أمجاد

السماء لا الطريق الواسع والباب الرحب الموصل إلى هاوية الهلاك ! إن « حكم الناس » هو كل شيء في الوجود ، أما حكم الضمير فلا وزن له ولا اعتبار إلا عندما يتخذ وسيلة للتغرير وحب الظهور ! ...

ومنها قيم تعتبر أن خطيئة الجسد خزي وعار ، أما أغلب خطايا الروح فهي مجد وفخار ! فالمرأة التي تبيع نفسها للشيطان تستحق الاحتقار ، أما تلك التي تنفث سموم الكراهية فهي وحدها محل الاعتبار . والرجل الذي يتردد على دور اللهو خليع جدير بالازدراء ، أما أقطاب الإيذاء فسادة تنحني لهم الجباه ، ويسعى إليهم موفوراً السلطان والمال ! ...

وتعاليم الضمير لا تنكر وزر خطيئة الجسد ولا تهون من شأنها . لكنها ترى أن في بعض خطايا الروح ما يتجاوز في مداه خطايا الجسد بكثير ، وأن زلات الجسد بالغاً ما بلغ مداها قد لا تبلغ في التدمير مبلغ « زلات الضمير » . وأن تجار الأحقاد أشد خطراً من تجار الأجساد ... وأن صريع الضمير لا نجاة له ولا حياة ، أما صريع الجسد فسيفيق يوماً من غفوته ، وينهض من كبوته .

ومنها قيم تعتبر أن السلطة غاية سامية ينبغي أن يتهافت عليها الإنسان ولو على حساب كل فضيلة ، مع أن تعاليم الضمير تقول إن الجري وراء السلطة شر من سوء استعمالها ، وأنها هدف الوصوليين الضعاف الذين إذا ما انتشوا بخمر السلطة فقدوا وعيهم كما يفقد الوعي كل سكير عربيد ! . . أما هدف الأحرار الأقوياء فهو مسئولية الكلمة الحرة ، والفكرة الصحيحة في شرف السعي إليها ، وفي شجاعة إعلانها والعمل بما تقتضيه .

ومنها قيم تقوم على تكريم الغنى واحتقار الفاقة ، مع أن الفاقة الوحيدة التي يعرفها علم الروح هي فاقة الروح في المواهب العقلية والخلقية ، وهي كثيراً ما أدت إلى فاقة المادة . أما فاقة المادة فكثيراً ما سببت الألم الذي يفضي إلى غنى الروح إذا ماعرفت الروح كيف تتعظ من الألم... أليس ذلك واضحاً حتى على المستوى الأرضي ؟ .

ومنها قيم تحسن التحايل على الأسماء والمسميات ، وعلى اصطناع الأوصاف الزائفة البراقة : فالنفاق الغادر اسمه أدب وكياسة، والخداع الفاجر اسمه مرونة وسياسة ، والوصولية الآثمة اسمها لباقة وفراسة ، والقسوة الملتوية اسمها رحمة ووداعة ، والحماقة الجلية اسمها حكمة وبراعة ، والغرور المتعالى اسمه قوة وصراحة ، والمكابرة فى الحق اسمها عزم وصلابة !!

آه لو عرف ضمير الإنسان كيف يسمى الأشياء بصحيح أسمائها ! . . وآه لو أدرك العقل كيف تجىء عوامل انهيار الروح من داخلها لا من خارجها حاملة أسماء زائفة للمجد وللكرامة لحطمها قبل أن تحطمه ، ولطاردها قبل أن تطرده من سفر الحياة الكريمة التى ينبغى أن يحياها وأن تحيا فيه . ولأبصر فوراً أنه بسبب هذه الأوصاف الخلابة كثيراً ما يرى الرذيلة فضيلة ، والجهل عرفاناً ، والمغالطة برهاناً ، والقيود فلسفة ، والحماقة حكمة والانحلال انطلاقاً ، والتوقف استباقاً !

وما لم توصف الأشياء بصحيح أوصافها فى الضمير وفى العقل فإن تغيير حال الإنسان من المحال . لأن الترقى الحق ينبغى أن يبدأ من داخل النفس ، عندما تستيقظ النفس على أقيسة للمجد وللكرامة غير تلك التى عودتها عليها أمثال هذه الصيغ البراقة التى تغذى الكبرياء ، وتضلل الطموح ، وتقوض أحسن مبادىء الأخلاق عند الشيوخ والشباب ...

ومنها قيم تقدس الاعتداد بالرأى وشهوة التسلط على حريات الآخرين وآرائهم ، على حسبان أن عظمة الرأى فى الاعتداد به ، وأن دليل عصمته هو فى محاولة فرضه قضية مقطوعاً بصحتها فى العالمين !.. وذلك مع أن أصح الآراء وأكثرها اتصالا بحقائق الحياة هو ذلك الذى يفرض نفسه بنفسه على فطرة الإنسان فى حرية وتواضع ، وفى غير ما حاجة إلى صليل السيوف أو قصف المدافع ...

إذ فى الحرية الحقيقية يدرك الضمير معنى المسئولية ، وعن طريق الإحساس بها تصل النفس إلى معرفة حقائق الحياة الجلية . أما العبودية

المعسولة — ومثلها الحرية المغلولة — فتكتسح فى طريقها كل حقيقة أولية ، بل كل بصيرة إنسانية قادرة على التعقل ، وعلى الوصول إلى حقائق الحياة صغر شأنها أو كبر . فبدون حرية تفقد المعانى الجليلة كل جلالها، يستوى فى ذلك العلم مع الاعتقاد ، والعدالة مع الفلسفة ، والأدب مع الفن ، بل المحبة مع الصداقة ، والوفاء مع الإخاء لأن العبودية تلغى فى النفس الإحساس بالذات وبالندية ، وهو شرط لكل عاطفة نقية . . . وهكذا تفقد الحياة نفسها مغزاها وقيمتها ، وتستسلم النفس إلى عبودية النزوات والشهوات، وهى أخطر صور العبودية وأشدها تدميراً للذات وللملكات ...

ومنها قيم مازالت تبرر دناءة الوسيلة بشرف الغاية ، مع أن التعاليم الروحية تقول إن شرف الغاية لا يعرف إلا من شرف الوسيلة . فالغاية لا تبرر الوسيلة ، بل إن الغاية تتبرر بالوسيلة إذا كانت شريفة ولا تبررها إذا لم تكن كذلك لأن السبيل الأعوج نتيجته المرسومة فى الطبيعة خسارة ودمار، وغايته المحتومة سقوط واندحار ، بحسب ارتباط النتائج المحتومة بمقدماتها .

ومنها قيم من التكالب على المادة جعلت الحياة اليومية سطحية بغير عمق ، فكثرت فيها عوامل الخطأ والعثار .

— فالكاتب الأريب يعتقد أن البراعة الحقة هى فى قدرة التعبير ومداهنة الجماهير عن طريق الدفاع عن أخطائها وآثامها ، أما حقائق الأمور فليس من أهدافه البحث عنها ، ولا من وسائله المشروعة !

— والقانونى الضليع يقدم الرأى والفتيا إرضاء لرؤسائه أو لمقتضيات ظروفه وأهوائه ، لا إيماناً منه بأن هناك حقيقة واحدة موضوعية ينبغى التقيد بها والوصول إليها ، حتى لقد أصبح الكثير من حقائق الحياة الناصعة أقرب إلى رجل الشارع منه إلى عمالقة الفتيا والشرائع !

— والطبيب المعروف يداوى سعياً وراء المال والشهرة أكثر مما يعالج بعاطفة الإنسان الذى يشاطر مريضه مخاوفه وآلامه، أو بحكمة الحكيم الذى

ينبغى أن يتحلى بأنبل مشاعر الإنسان قبل محاولة تشخيص الداء ، وذلك مع أن الطب والحكمة معتبران — منذ القدم — رسالة واحدة لارسالتين !

وهكذا عما يلمسه الإنسان بسهولة فى غمار حياة سطحية تعوزها أعماق الإيمان بالروح ، والاعتماد على الضمير اليقظ فى توجيه العقل إلى استلهام خفايا الكون بعض إرشاداته ، التى بدونها لا تعد حياتنا شيئاً مذكوراً فى صحيفته ، وفى فك أسراره التى لن تفك إلا لمن يتجه إليها نقى العقل صافى السريرة ، مؤمناً بأن الحياة للروح لا للجسد ، وللخدمة لا للطعام ، وللحكمة لا للحماقة ، ولتمجيد العقل الكونى العام لا لعبادة الأصنام ! . .

وما أكثر الأصنام التى نعبدها فى تطلعاتنا وتضرعاتنا — بحسبانها آلهة — ونحن عن أنفسنا لاهون ، غير مدركين أننا نعبد أصناماً شائهة من القيم الخاطئة لا بجدفيها ولا كرامة لها . ومع ذلك فننتظر من إله الكون أن يكون — فى عدالة موازينه — مماثلاً لنا محابياً ! أى أننا نتوقع منه أن يبادلنا التواء بالتواء وخديعة بخديعة ، ويأخذنا العجب عندما نفتقده فى حياتنا فلا نجده ! . . فلنكن إذاً مع الله إذا كنا نريد منه أن يكون معنا ، ولن يكون معنا أبداً عن طريق الصخب والعويل ، ولا عن طريق التعالى والانطواء ، ولا عن طريق الغلو والعدوان ، بل فحسب عن طريق العمل الصالح إذا ما استقامت فى سرائرنا موازين التقوى والصلاح .

وما تفعله عبادة القيم الشائهة تفعل مثــــله الغيرة ، وانعدام البصيرة ، والخوف ، والتخلى عن المسئولية ، وسطحية التفكير ، وانحراف التقدير ، وغير ذلك من عوامل العثار عند الصغار والكبار . فإذا النتيجة المحتومة تدهور رهيب ، وطيدة أركانه ، خطيرة آثاره ، ثم صراخ وعويل وتساؤل ذليل لمَ التردى والإخفاق ؟! وكل يلقى المسئولية على غيره ويتصور نفسه باذخ العقل مكتمل الفضائل ! عبداً لله — لا للشيطان — صادق القصد قوى البنيان .

ولنعرف أيضاً أن الشعوب فى مسيرها للأمام بحاجة إلى القيم الصحيحة

قدر احتياجها إلى الماء والهواء، وأنها هى المنائر التى تضىء لسفينة الحياة ظلام طريقها الطويل المخيف عبر بحار الأبدية الشاسعة، فتوجه مصائرها ومقدراتها. فإذا ما تعلق الشعب بقيم خلقية غير قويمة فقد جنى على قدره ومصيره، ومسخ أهدافه وأضاع معالم طريقه، فإذا سفينة الحياة تخبط خبط عشواء، صبحاً ومساء، بغير أمل ولا رجاء...

ولنعرف كذلك أن قيم المجتمع الخاطئة بمثابة ثقوب خفية فى سفينة الحياة هذه، ينفذ منها الضمير الملتوى إلى تحقيق أهدافه غير الأمينة، ويتذرع بها لحماية نفسه من التأنيب المحتوم، ويصم بها — ولو إلى حين — أذنيه عن سماع الأنين المكتوم، عندما تجنح السفينة بمن فيها فى لجة الأهواء فتكتسحها أعاصير النزوات والأخطاء ...

ومن هنا جاء الألم بل الدمار عقاباً محتوماً للنزوات والأخطاء، يستوى فى ركاب السفينة من أخطأ مع من تسبب فى الخطأ، ومن أحدث الثغرات الخفية عامداً، مع من تجاهلها وكابر فيها — فالتضامن الاجتماعى قانون صارم من قوانين الحياة أو جدته حكمة سامية تريد للجميع الوصول إلى ميناء السلام فى مركب واحد كأسرة واحدة تجمع افرادها — فى السراء والضراء — عروة وثقى لا تريد لهم انفصالا، ولا يريدون لها انفصاماً ...

فعن طريق المعرفة الروحية يمكن أن يقتنع الإنسان — بأدلة منطقية تجريبية مدروسة — أن الخلق الفاضل هو فى يقظة الضمير، ونقائه، لأن ناموس الخير والشر منقوش فى هذا الضمير، ولأن حرية الاختيار هى التى توجهه دون غيرها. وهو أيضاً فى الإحساس بقوة التضامن بين البشر جميعاً. وهو فى الخدمة العاقلة تقدم للجميع على حد سواء. وهو فى المحبة تبذل فى سخاء بغير انتظار جزاء. وهو فى شجاعة الكلمة تصدر فى قوة ومضاء وفى غير ما ضعف ولا التواء.

أما أولئك الذين يعلقون الأهمية الكبرى على الصيغ والعبارات

— والأشكال والحركات — ويتصورون فيها خلاص نفوسهم مهدرين يقظة الضمير فهم يغالطون أنفسهم أيا كان موضعهم فى دنيا الله الواسعة ، لأن ناموس الحياة لا يقبل مغالطة من أحد ولا رياء . ويحملون أعناقهم أحمالا ثقالا تعوق تطورهم وارتقاءهم ، بدلا من التزود من الحياة بقيمها الصحيحة التى تدفع هذا التطور قدماً فى تحقيق حياة صالحة روحياً وخلقياً .

أو لنقل مثلما قال الفيلسوف الألمانى ماكس أوتو عندما لخص مذهبه عن الأشياء والمثل العليا قائلا « ليسكن فى قرارة قلوبنا أن الروح ليست اسماً لشىء ولكنها اسم لحياة ، وأن خلاص الروح ليس بالسلعة أو المنحة التى تشترى أو تستعطى ، ولكنه تطور نبلغه ونترقى إليه . وإن تخليص روح الإنسان ليس بالعمل الموقوت الذى يتم فى ساعته ، ولكنه سعى طويل يستغرق مدى العمر كله ، وليس هو إنقاذاً لكيان مبهم لا تعريف له ، ولكنه خلق لنموذج من الشخصية من طريق الاعتراف بالقيم البينة التى تدور عليها تجارب كل يوم . إنه نضج باطنى ويقظة لمعانى الحق والجمال وكرامة الحياة ... »[1]

ولذلك قال أيضاً بليك فى فلسفته « يدخل الناس الجنة لا لأنهم كبتوا عواطفهم ومشاعرهم وتغلبوا عليها ، ولا لأنه لم تكن لديهم عواطف أو مشاعر ، وإنما لأنهم طوروا فهمهم وأبلغوه أفضل ما فى استطاعتهم . ولا تمثل كنوز الجنة نفياً للعاطفة ، وإنما هى حقائق العقل التى تصدر عنها كل العواطف ، دون أن يكتمها شىء فى عظمتها الأبدية . أما الأحمق فإنه لن يدخل الجنة مهما كان طاهراً أو مقدساً »[2] .

ولمن يشك فى دور العلم الروحى الحديث فى مضمار دفع عجلة التطور الخلقى والروحى قدماً للأمام أن يقلب فى أى مؤلف فى فلسفة الروحية وأدبها الرفيع كيما يلحظ بنفسه أنها لا تهدف إلى غاية أخرى غير تعريف الإنسان بنفسه وبموضعه فى ناموس الحياة بكل رونقه محرراً من زيف

---

(١) عن « عقائد المفكرين فى القرن العشرين » للأستاذ العقاد ص ١٩ ، ٢٠ .

(٢) فى الفصل الأول من « العلم والعالم الحديث » .

الأثرة والغلو . بل تعريفه كيف يعثر على نفسه أولا عندما يعثر على المصباح المخبوء فى صدره تحت اسم الضمير ، والمدفون بين أكداس من أحجار الغرور التى تحجبه عن النور ، وتحجب عنه النور . وكيما يلحظ بنفسه أن أى فيلسوف أو كاتب روحى لا يحاول أن يتملق غرائز الجماهير ، ولا أن يستجدى آراءها الفجة فى أمور الحياة أو الموت وما أكثرها ، ولا قيمها السائدة مهما جانبت الصواب ! وذلك مع أن الجماهير تتطلب فيمن يكتب أو يقول أن يردد نفس آرائها مصوغة فى نفس العبارات التى ألفتها . ويعنيها اللفظ قبل المعنى ، ويخلبها المظهر دون الجوهر . . فإذا النتيجة حلقة مفرغة من خداع رهيب ، ومن انهيار محتوم فى روح الفرد والجماعة معاً .

بل إن الاتجاه السائد عند فلاسفة الروحية الحديثة — جميعهم — هو على العكس من ذلك النقد لما يستحق النقد من آراء الجماهير وانفعالاتها الصاخبة ولقيمها غير القويمة التى طالما جنت عليها فدفعت بها إلى مزالق خطرة ، وإلى طريق لا تبتغيه من تخلف روحى وخلقى فى عالم متطور أبداً ، كاد أن يسبق الزمن فى تطوره المادى والعلمى ، حتى لقد أصبحت المفارقة ضخمة فى عصرنا الحاضر بين تقدم العلوم وتخلف الأخلاق ، وهو ما يهدد مستقبل الإنسان — فى كل مكان — بأشد الأخطار لو استمرت هذه المفارقة فى الازدياد .

وهـــو الأمر الذى لاحظه مفكرون كثيرون ، ودفع الكونت دى نوى De Noüy فى كتابه عن « القدر الإنسانى » إلى أن يقرر أنه « على الإنسان أن يدرك أن التطورات الآلية التى أدخلها فى بيئتــه وراح يلائم بينه وبينها لن تكون لها سوى نتيجة من اثنتين ، وهما إما التقدم وإما الدمار حسب نجاحه فى وصلهما بالتطور فى بيئته الخلقيــة . فواجب الإنسان أن يضع جانباً معالم حضارته الباطلة ، ويقيم فى مكانها معالمها الصادقة وهى الكمال الذى يوافق كرامة الإنسانية . وليس المطلوب منه أن يقاوم التقدم الآلى — ولا طاقة له بمقاومتــه لما يتوقع له من المزيد فى تقدم العلم والطب — بل عليه بتهذيب النفس والارتفاع بمثلها العليا » .

ومن يتأمل فى روعة التقدم العلمى الذى حصل عليه الإنسان فى قرن يأخذه الذهول ، ويدرك مدى صحة هذا القول وخطورته . فى هذا القرن الواحد قفز الإنسان من على ظهر الدابة إلى القطار ، فالسيارة ، فالطائرة ، فسفينة الفضاء تقطع به — فى سرعة مذهلة — ملايين الأميال فى الفضاء وتوشك أن تصل به إلى سطوح الكواكب والأقمار !

وفى هذا القرن الواحد انتقل هذا الإنسان من القتال ببندقية الصيد إلى القتال بالصواريخ عابرة القارات حاملة الرؤوس الذرية التى لا تبقى ولا تذر ، وتنذر الإنسان بشر النذر . فإذا كان عمر الحياة على هذا الكوكب الضئيل يمتد إلى مئات الآلاف من الأعوام ،ومع ذلك لم يقفز الإنسان فى حضارته هذا القفز السريع إلا عندما بدأ العقل يعرف سبيله إلى الأسلوب العلمى فى التنقيب عن حقائق الحياة ، فماذا ينتظر منه مستقبلا بعدأن وضع قدميه فيه بعزم وثبات؟ وماذا ينتظر أن يعرف مستقبلا من وسائل الخراب والتدمير ؟

ولكن ما يروع الإنسان الروحى ليس هو خطورة المستقبل على المادة وعالم المادة ، وبالتالى احتمال فناء الحياة من على ظهر هذا الكوكب الصغير ، بل ما تثيره فى النفس من مشاعر هذه المفارقة الضخمة بين تخلف الروح وطفرة المعرفة المادية ، وبالتالى ما كان يمكن أن تصل إليه النفوس من ازدهار لو عرف التقدم الروحى كيف يسير جنباً إلى جنب مع تقدم المعارف . فلو عرف الإنسان قدر نفسه كما يعرف بعض معرفة هذا التراب الذى يدوسه بقدميه لعرف كيف يتطور سريعاً ليصبح هو بذاته السيد السعيد صاحب القلب العطوف والعقل الذكى ، الجدير بمكانه السامى فى الطبيعة ، لا ذلك الوحش المخيف ، القريب العهد بزهو افتراس القوى للضعيف ! . . .

الفصل الثالث

فى الموت والألم

لا ريب أن شبح الموت هو أهم مشكلة تواجه الإنسان منذ اللحظة التى يدرك فيها أنه نهاية كل حى، فإننا كما قال شكسبير « سوف نقتات بالموت الذى يقتات بالناس ، فإذا قضى على الموت فلا يموت أحد بعد ذلك ! » والموت يمثل لحواسنا الفناء لأنها تعودت أن تربط بين الجسد المادى وبين القدرة على البقاء . وعند الإنسان شعور خفى بالحياة بعد الموت ، لكنه لا يعلم أين ولا كيف تكون هذه الحياة . كما أنه يعتقد ببقاء الصلة بصورة ما بين روحه وبين جسده المادى المتحول إلى تراب . ثم إن أسلوب الثواب والعقاب غامض عنده إلى المدى الذى قد يضاعف عنده رهبة الموت بدلا من أن يخففها ، وقد يضاعف عند « الأحياء » لوعة الحزن ومرارة الفراق ، حتى مع التسليم بأن « الموت حق » وأن « هذه هى إرادة الله » .

أما عند مدارس الإنكار فالموت نهاية محتومة ، والحياة بعده خرافة كبرى أوجدها طمع الإنسان ورغبته الفطرية فى الخلود ، مع أن التلاشى هو قانون الحياة وهكذا تبدو فيها الحياة عبارة عن مأساة قائمة يصدق عليها قول فولتير Voltaire « نهاية الحياة كئيبة وبدايتها لا تعد شيئاً مذكوراً وبين الاثنين عاصفة لا تنقطع » ...

ويعد إنكار الخلود من وجهة العدالة مخيباً للآمال، لأن انتهاء الإنسان المحتوم إلى ليل الفناء بدون فجر يليه ، مهما قضى حياته على خير وجه ، لا يعد نعم الجزاء لهذه الحياة ، بل يعد حافزاً للمبادرة إلى إشباع الشهوات الأرضية ، وكلها تنبع من فردية هدامة لكل فضيلة ، طالما أشعلت نيران البغضاء بين الناس وفرضت عليهم مواكب لا تنقطع من الدموع والأحزان . فإذا صح أن الفناء هو النهاية المحتومة للإنسان لما كانت هناك غاية اخرى ينبغى أن

يدركها العقل أسمى من غاية إشباع مطالب الجسد وشهواته ، ولما كانت هناك فضيلة أخرى يعرفها غير العناية بصحة الجسد ورعايته ...

ولكن عقل الإنسان يمكنه أن يدرك — على العكس من ذلك — أن هناك غايات أخرى أسمى كثيراً من إشباع مطالب الجسد وشهواته ، بل أسمى حتى من مطالب النفس ورغباتها ولو كانت من أنواع راقية ، كما يمكنه أن يدرك أن هناك فضائل حقيقية غير العناية بصحة الجسد ورعايته ...

وكما أن الإيمان بقيمة الفضائل الحقيقية ينتهي وحده إلى الإيمان بالخلود ، فإن الإيمان بالخلود يصلح بذاته مصدراً لفضائل كثيرة ، لأن من يعرف كيف يطمئن للموت يطمئن للحياة ، ومن اطمئنانه يحصل تدريجياً على أرفع الصفات وأسماها ، مثل الصبر فى الملمات ، والعزاء عند الحرمان ، وضبط النفس عند الغضب ، والسعادة بالعمل ولو كان شاقاً ، وأداء الواجب ولو بدا قاسياً ، والاعتدال فى الحكم على الأمور ، والتسامح مع الآخرين ، وفى الجملة كل مايولده الترفع عن التكالب على أطماع الدنيا الزائلة من فضائل سامية جمة ، تكاد تصنع الإله فى الإنسان عندما تصل بين الإنسان وأخيه الإنسان . . .

بل إن الإيمان بالروح وبالخلود ، مصدر لبطولة حية فى الحرب والسلام معاً . فى الحرب لأنه إذ ينكر الفناء يمحو من النفس رهبة الموت فى جبن واستخذاء . وفى السلام لأن الإنسان المؤمن بألا فناء الموقن بأن التكل إلى بقاء إنسان محب للإنسانية برمتها ، صادق فى عاطفته مع أصدقائه ، شجاع نبيل حتى مع أعدائه . .

وأصح الناس عاطفة هو أكثرهم شجاعة عند ما يدافع عن حق يؤمن بعدالته ، بل هو أعدلهم إحساساً بذاته ، وأعرفهم بحقوقه وبواجباته . أما الإنسان الحقود فهو جبان مع عدوه ، بل مع نفسه أيضاً ، مراوغ غدار

فى تعرف حقوقه وواجباته . لذا تجده عنيفاً فى غير قوة ، عنيداً فى غير شجاعة ، متخاذلا فى غير نخوة ، أحمق فى غير حكمة ...

ومثل هذا الإنسان هو أقربهم إلى خوف الفناء ، وبالتالى أقربهم إلى الشقاء مهما بدا ضاحكاً سعيداً . . . لأن السعادة الحقة لا تقوم إلا على جوهر من فضائل جمة ، وفهم صحيح لكثير من أمور الحياة والموت أيضاً . ومن يفهم الموت على حقيقته يفهم الحياة أيضاً على حقيقتها . . . طالما كان الموت امتداداً للحياة ، وكانت الحياة امتداداً للموت .

وفى هذا الموضوع يقول الإمام الشيخ محمد عبده فى « رسالة التوحيد » .. « كذلك قد ألهمت العقول وأشعرت النفوس أن هذا العمر القصير ليس هو منتهى ما للإنسان فى الوجود ، بل الإنسان ينزع هذا الجسد كما ينزع الثوب عن البدن ، ثم يكون حياً باقياً فى طور آخر وإن لم يدرك كنهه .

ذلك إلهام يكاد يزاحم البديهة فى الجلاء ، يشعر كل نفس أنها خلقت مستعدة لقبول معلومات غير متناهية من طرق غير محصورة ، شيقة إلى لذائذ غير محدودة ولا واقفة عند غاية ، مهيأة لدرجات من الكمال لا تحددها أطراف المراتب والغايات ، معرضة لآلام من الشهوات ونزعات الأهواء ، ونزوات الأمراض على الأجساد ومصارعة الجواء والحاجات ، وضروب مثل ذلك لا تدخل تحت عد ولا تنتهى عند حد ... » .

* * *

ولذلك قال الفيلسوف سينكا Sénéque « إذا أردت ألا تخشى الموت فإن عليك ألا تكف لحظة عن التفكير فيه » . ومن ثم فإن علم الروح يطالب الإنسان بأن يتفهم الموت على حقيقته ، ويقتنع تماماً بأن بعد الموت حياة أفضل من حياته الحاضرة ، مهما بدت هذه له مشرقة ناعمة ، فنحن الآن نخشى الموت لأننا نخشى المجهول ، فإذا عرفنا هذا المجهول على حقيقته وجدنا أ كثر من سبب للمعرفة يقاوم دوافع الخوف منه .

« وإذا كان الحيوان كما قال شوبنهور Schopenhauer يحيا دون أن يشعر بالموت فذلك لأنه يتمتع بكل ما للنوع من شعور الثبات والدوام ، لذا فهو لا يشعر بذاته ، اللهم إلا بوصفه موجوداً مستديماً لانهاية له ، وأما لدى الإنسان فإن انبثاق العقل قد اقترن بالخوف من الموت ، فأصبح لدى الإنسان يقين مزعج عن حقيقة الفناء ! .. »[1]. ومهمة العقل أيضاً أن يقاوم عوامل هذا الخوف من الفناء ويبددها بقليل من المعرفة اليقينية عن قدره ومصيره . وعصر هذه المعرفة اليقينية قد أزف ، وبدت إرهاصاته واضحة عند عدد ضخم من أفضل الفلاسفة والمفكرين .

وليس معنى ذلك مطلقاً أن فكرة الموت قد قضى عليها نهائياً ، أو أن العلم سيتوصل إلى انتزاعها من قلوب الناس ، لأن حكمة الله قد أرادت أن تكون هذه الفكرة هي نفسها ، التي تخلع على شعورنا بالحياة كل ماله من قيمة وأهمية وحيوية ! وآية ذلك أنه ما تكاد فكرة الموت تغيب عن أذهاننا حتى تستحيل الحياة في نظرنا إلى مجرد عادة أو ملهاة أو تسلية ! ومعنى هذا أنه لولا «حضرة الموت La presence de la mort» ، لما وجدنا أنفسنا مضطرين إلى أن ننظر إلى الحياة وجهاً لوجه . ومن هنا فإن الشخص الذي ينصرف عن الموت لكي يستمتع بالحياة على خير وجه ، إنما ينصرف في الحقيقة عن الحياة أيضاً ، لأنه إذ يريد أن يتناسى الموت إنما ينتهي كما قال لافل L. Lavelle إلى نسيان كل من الموت والحياة »[2]....

بل ولمَ لا نقول مع بعض الفلاسفة «بأن لدينا حساً ميتافيزيقياً هو الذي يجعلنا نؤمن بأن هناك حقيقة ثابتة تكمن فيما وراء الظواهر المتغيرة ، وأنه لولا هذا الحس لما عرفنا حقيقة الموت نفسه ، وبالتالي لما انبثقت في أذهاننا فكرة الخلود ؟ ولمَ لا نقول مع موريس بلوندل مثلا بأن « فكرة الموت

(١، ٢) عن « مشكلة الإنسان » للدكتور زكريا إبراهيم طبعة١٩٥٩ ص١٥٥، ١٥٦ .
وهو يحيل القارىء إلى
L. Lavelle «La Conscience De Soi» Paris, Grasset 1933 .p. 25.

نفسها ما كانت لتكون ممكنة أو واقعية أو حقيقية لو لم تكن لدينا ثقة ضمنية أو يقين مطوى عن الخلود ... ؟

« فحينما نتساءل عن معنى الموت ، فإننا فى الحقيقة إنما نتساءل عن معنى الحياه ومصير الوجود البشرى ، لأننا لا نكاد نتصور أن تكون حياتنا قد صنعت من نسيج الأحلام كما قال شكسبير ! ، أما إذا تغنى البعض بسحر تلك الحياة المتناهية الفانية التى تجعل من كل فرد منا سائحاً عابراً قد شد رحالة فإننا لا نكاد نصدق أن يكون المعنى الأوحد لحياتنا البشرية هو هذا الترحال الذى لا يبقى معه أحد أو الذى لا يبقى على أحد ! وهكذ ترانا مضطرين إلى أن نسأل أنفسنا قائلين : أتكون حياتنا مجرد نور لا يكاد يضىء حتى ينطفىء ، أو مجرد لحن ما يكاد يشجيننا حتى ينقطع ؟ هل يكون الخلود وقفاً على العالم والمادة والأشياء ، أعنى على هذا الذى لا يدرى من أمر بقائه شيئاً ؟ هل يكون الإنسان ، وهو الحيوان الوحيد الذى يعرف أنه سيموت ، هو أيضا الحيوان الشقى الذى لا بد من أن ينحدر إلى هاوية الفناء؟ أليس من العجيب أن يكون الفكر البشرى قد جعل للفناء وهو الذى ينزع بطبيعته نحو الخلود أو البقاء ؟ ... »[1] .

وعلى هذا التساؤل الهام يرد سيلفر بيرش الروح الحكيم قائلا « إن خلود الإنسان ليس مادة من مواد الإيمان ولا بنداً من بنود العقيدة ، وإنما هو جزء من المعرفة الذاتية والتجربة الفردية . علينا أن نبعث الصدق الروحى من القبر الذى دفنه الإنسان فيه . علينا أن نقول للنفوس البشرية الضائعة إنها سوف تستمر فى الحياة ونخبرها عن الحقيقة العظمى وهى فى نفس الوقت الحقيقة البسيطة ، وهى المصير المنظور عن عناية الله التى لا تتوقف ، وعن رعاية الروح الدائمة للنفوس المتجسدة » .

كما يقول فى مناسبة أخرى وهو يصف انتقال الناس متتابعين ببلاغته المأثورة : « واحد إثر واحد . القاطف الأعظم يجمعهم حتى يتمكن زيت

(١) عن « مشكلة الإنسان » المرجع السابق ص ١٧٢ — ١٧٤ .

الحياة من الإضاءة فى عالم أكمل . إنما الدموع لدنيا كم فقط ، لأنهم ينتقلون إلى ماوراء عليكم . أما نحن فنفرح فى عالمنا عندما نحيي النفوس الحديثة التحرر التى ستبدأ فى تذوق مباهج الحياة التى لا يمكن وصفها باللغة الأرضية .

أنا أجاهد دائماً لأعلم الدرس : أن الموت ينطق بالحرية . وأنكم حين تندبون الأفراد الذين اختفوا من عالمكم ، نحن نسر لأننا نعلم أنهم بدأوا حياة حرة جديدة ، وسعادة جديدة ، وأن لديهم فرصاً أكبر لإظهار مافى دخيلتهم ، وما عجز عن أن يتحقق فى عالم المادة . لو عرفتم أنهم لم يفقدوا منكم لهبطت الرحمة عليكم . وأنا أنبئكم بأنه كلما ازدادت قدرتهم باطراد نموهم فى عالمنا فهم يعودون دائماً إليكم ليساعدوكم فى المعركة العظمى التى نشترك جميعنا فيها[1] » .

وهكذا تتكشف التجارب الروحية عن فلسفة تمهد للموت هى أوضح الفلسفات لأنها كما أرادها كارل ياسبرز K. Jaspers « تريد أن تجد الأساس الذى لا يتزعزع ، والذى يعين الإنسان إن لم يكن على فهم الموت فعلى الأقل على رؤيته وتقبله — خلال القلق والألم — باطمئنان وهدوء ليس نسيجه رواقيا ، بل حب واطمئنان[2] » .

الموت ميلاد ثانٍ

وعن طريق الاقتناع بهذه الحقائق تخف بغير ماريب أحزان الحزانى على فراق أعزائهم الذين وسدوهم الثرى وهم لا يعلمون أنهم قد أودعوهم الأثير . إنهم ليسوا فى القبور ، بل « أحياء عند ربهم يرزقون » . إن من نبكيهم أحياناً دماً لا دمعاً ينعمون — منذ الآن — ويمرحون ويجنون ثمرة كفاحهم فى هذه الحياة الدنيا طالت أيامهم فيها أم قصرت . إنهم منذ الآن يعملون ويلهون ويتزاورون ويتعاطفون ويتنقلون فى أجواء الله الواسعة وممالكه الفسيحة حيث « مالا عين رأت ، ومالا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » .

(١) عن « سفير الأرواح العليا » ص ٢٧ ، ٢٨ .

(٢) عن « مستقبل الإنسانية » ترجمة وتقديم الدكتور عثمان أمين ص ٥٣

ذلك أن الموت هو الذى يتيح للروح فرصة الخلاص من أغلال الجسد الترابى الذى يقيدها بأرض منفاها هذه كيما « تعود إلى موطن راحتها ». فهو الخادم المطيع لا السيد الآمر ، والمحرر العجيب لا العدو الرهيب . وموت البار تاج الحياة على رأسه يراه أحياء السماء ، حين يعجز عن رؤيته أموات الأرض — وهو أبهى من تيجان الملوك التى نراها فى دنيا الأشواك هذه . والموت هو الذى يتيح للذات فرصة استرجاع كامل حواسها عندما تنطلق من علل الجسد المادى وأوجاعه المحكومة بنواميس لا صلة لها بالجسد الأثيرى .

وهو الذى يحرر الجســـد الأثيرى من قيود الزمان والمكان كيما تتفرغ الروح إلى تحقيق مطالبها الراقية هناك فى المعرفة وفى العاطفة ، عن طريق الحياة فى أوسع صورها وأكثرها نشاطاً . أو بالأدق « كيما تتوصل الروح إلى تحقيق ذاتها والوصول إلى الحياة بمعناها الصحيح — كما يقول طاغور الفيلسوف العظيم — فالخلاص أمام الإنسان حيث سار يحق روحه الخالدة ... » .

أليست « أيام سنينا هى سبعون سنة — كما يقول داود النبى فى مزاميره — وإن كانت مع القوة فثمانون سنة وأفخرها تعب وبلية » ؟ . فماذا تقاس هذه السنون القليلة بالأبدية ؟ ... بل عن طريق الاقتناع بحقيقة هذه الأبدية يصبح للحياة الأرضية رغم متاعبها وبلاياها غاية واضحة وتبدو مفهومة تصاريف للدهر كثيرة كانت غامضة من قبل ، بل كانت مدعاة لليأس وللقنوط ...

ثم إن العبور إلى العالم الآخر لا يسبب ضيقاً ولا ألما . إنه مسألة لحظات قليلة يكون المحتضر فيها فى شبه غيبوبة كأنه يحلم حلماً جميلا يعقبه رد فعل عميق من الإحساس بنشوة الانطلاق إلى عالم الحرية والسلام .

* * *

هذا وقد جاءت الدراسات الطبية مؤيدة للبحوث الروحية فى هذا الشأن .
وفيه يتحدث لستر هوارد برى مدير تحرير مجلة بنسلفانيا الطبية قائلا إن « الموت ليس كربهاً ، والمرء منا يأخذه الموت رفيقاً كما أخذته سنة النوم مئات المرات . وحسبك أن تعلم أن الموت خلو من الألم . وهكذا يقول الأطباء وهكذا يقول من شارفوا غمرات الموت ، وهكذا يقول الراحلون وهم فى سكرات الموت ... »

ويقول سير جيمس جودهارت الطبيب الذى حرص على مشاهدة جميع المحتضرين فى مستشفاه « ليس فى الموت ما يفزع من جاءته الوفاة ، فإن الحجاب الفاصل بين الدنيا والآخرة لا يعدو أن يكون غمامة رقيقة يخترقها المرء وهو لا يكاد يشعر » .

ويقول الدكتور ألفرد وستر الأستاذ بجامعة هارفارد « الموت سهل دائماً فى آخره » .

ويقول الدكتور هرسلى الأخصائى فى السرطان « إن الموت نفسه لا يصحبه شىء من الألم أو من الأوجاع التى يحس بها المرء إحساساً صحيحاً » .

وقد أجاب المرضى الذين كانوا موضع التجارب التى أجريت فى المستشفيات العامة ، أو الخاصة ... بأنهم عند نزول الموت اختفت آلامهم تماماً ، وأن كل ألم للمرض كانوا يحسونه قد اختفى وهم على عتبة الموت[1] .

كما أجمعت الدراسات الروحية على أن من نسميهم « موتى » هم قريبون منا وعلى صلة دائمة بنا . فهم يشاطروننا أفراحنا وأتراحنا ويرغبون

(١) عن كتاب « الحياة الأخرى » للأستاذ عبد الرزاق نوفل ص ٧٦ ، ٧٨ . وراجع ما سبق فى الجزء الأول فى ص ٣١ .

بكل السبل فى الاتصال بنا لتخفيف أحزاننا وإعطائنا أخبارهم حين يعلمون تماماً أخبارنا ، ويباركون خطوات الخير التى قد نخطوها ، كما يتألمون لأخطائنا . فهم فى النهاية يسعدون بسعادتنا ويشقون بشقوتنا[1] . فلا توجد دراسة روحية واحدة خالفت ذلك فى كثير ولا فى قليل . وفى ذلك ما يبعث على الثقة فيها وفى الأسس التى تقوم عليها .

فأولئك الذين تعودنا أن نطلب لهم الرحمة والرضوان تعودوا هم أن يطلبوهما لنا عن فهم تام واطلاع كاف على آلامنا الرهيبة فى المستوى الذى نشغله من الوجود ، وأيضاً عن إحساس بروعة المستوى الذى يشغلونه من نفس الوجود ، حتى أن الموت ليبدو لهم نشيداً نظمته الطبيعة للخلود فى عالم لا يعرف قيوداً ولا حدوداً . .

ذلك أن عالم الأثير هذا ليس له موقع جغرافى معين على النحو الذى نفهمه ونحن على المستوى الأرضى ، بل هو مجرد رتبة مرتفعة فى سلم الاهتزازات الكونية ، حين أن عالمنا المادى هذا ليس سوى رتبة منخفضة من نفس السلم[2] ، فهو فى داخلنا ومن فوقنا ومن حولنا ، وإن كنا لا نشعر به الآن فلأن حواسنا المادية تقف فى الشعور عند حد معين لا تتجاوزه ، إلا بعد أن تتحرر من اتصالها بما يربطها بهذه الرتبة المنخفضة ممثلة فى الجسد المادى .

فنحن عندما نكون على المستوى الأرضى نحيا فى عالم الروح عن طريق أرواحنا ، ويحيا فينا — إلى حد ما — عالم الروح ، ولذا يحدث تأثيره المحتوم

---

(١) راجع مثلا ما سبق فى الجزء الأول ص ٢٥٨ وما بعدها فى شأن القصائد الجميلة المرسلة من روحى شاعرينا العظيمين أحمد شوقى وحفنى ناصف فكلها تلىء عن هذه المعانى المجمع عليها ، وتبين إلى أى مدى تعلم الأرواح أخبارنا وتشاطرنا أفراحنا وأتراحنا .

(٢) راجع ما سبق فى هذا الجزء ص ٢٢ وما بعدها .

فينا ، فيطلق عليه علماء الروح وصف العالم الحقيق أو الداخلي(١) ، وذلك بغير أن نشعر به شعوراً واعياً لبلادة حواسنا المادية . فهو قريب منا بحسب موقعه فى سلم الاهتزازات الكونيةالذى يطوى جميع العوالم والدنى ، ولكنه بعيد عنا - فى نفس الوقت - بسبب تفاوت رتبتى الاهتزاز بيننا وبينه ، فلا نحس به إحساساً واعياً بحسب الأصل .

ألم أقل إن نظرية الاهتزاز كفيلة بأن تترجم المعانى العامة التى يعرفها الروحيون إلى حقائق علمية ؟ وبأن تبدد بعض مخاوف الإنسان من الموت والفناء ، وبعض أحزانه عن فراق الأعزاء ، وبعض آلامه ومتاعبه التى لا تضيع هباء ؟

وهذه النظرية هى أيضاً التى توضح كيف أن المواد الصلبة أمكن إرجاعها كلها إلى كهارب تهتز على مستويات مختلفة فتبعث أمواجاً مختلفة تلتقطها حواسنا، فإذا ما ارتفع تردد هذه الأمواج إلى مستوى يتجاوز اهتزاز الضوء اختفت تماماً من حواسنا لكنها لا تتلاشى من الوجود ، إذ ليس للتلاشى مكان فى نظريات الفيزياء الحديثة التى تسلم بأن المادة لا تفنى ، وأن الطاقة أيضاً لا تفنى .

ولا ريب أن العقل يمكنه بسهولة أن يتصور كيف أن القدرة الحكيمة التى خلقت هذا السلم المادى المحدود من اهتزازات الأثير ذات الرتبة الأرضية التى تتخذ أشكال المواد الصلبة والسائلة والغازية والمشعة — أى أشكال العناصر المختلفة وقد بلغ عددها حوالى مائة — وهى تكون مجتمعة الكون المادى الذى نحيا فيه الآن — يمكنها أيضاً أن تخلق سلماً آخر من الاهتزازات ذات الرتبة المرتفعة التى تكون المستوى الروحى أو الأثيرى للحياة على ما بيناه فى الباب الأول .

* * *

(١) The real world or the inner.

ولعله ما من شيء يصور عظم العزاء الذي يمنحه الإيمان المستنير بحقائق هذه الروحية التجريبية إزاء صدمات الموت الرهيبة، قدر ما تصوره هذه الواقعة التي نرويها كما حدثت لرائد الروحية المرحوم الأستاذ أحمد فهمي أبي الخير. فقد امتحنه الله باختطاف نجله نبيل عقب مرض قصير وكان في السابعة عشر ربيعاً من عمره، وظل والده رغم فداحة الصدمة على قلبه الأبوي الحنون، رابط الجأش باسماً حتى في أثناء مراسيم الدفن، كأن حدثاً رهيباً لا يمر أمام ناظريه.

فظن أحد أصدقائه أن الوالد المفجوع يخفي آلام فجيعته بين جنبيه، ويتحمل من عناء الإخفاء أكثر مما تطيق قدرة البشر، فرجاه أن يستسلم — كغيره — لفجيعة الأب في ابنه وهو في عمر الزهور، ويذرف ولو بعض الدموع لعلها تخفف عنه بعضاً من فجيعته فيه. فإذا الوالد المفجوع ينظر إلى الصديق — هادئاً باسماً كعادته — ويرد عليه «صدقني هذا اليوم أحب إليّ من يوم زفافه» . . .

ولم تمض بضعة أيام إلا وروح شوقي تبعث تصويراً لهذا الموقف الجليل في بضعة أبيات لا تقدر عليها إلا عبقرية شوقي، في استهلال رائع تقول فيه: —

للروح شأو في العزاء مقشّع	والصمت في جلل أعز وأوقع
آسي على البعد السحيق بجسه	كم شاء لو يجلو المصاب ويقشع[1]

وبعد بضعة أيام كان نبيل في غرفة «الجلسات» يعانق والده ويطمئنه، ويراه وسطاء الجلاء البصري هانئاً سعيداً مع أصدقاء أبي الخير ممن سبقوه إلى

(١) والقصيدة منشورة في الجزء الأول ص ٥٤٣، ٥٤٤. وهي قليلة في أبياتها، لكنها رائعة زاخرة بأسباب العذوبة التي قلما توافرت في أية أبيات أخرى قيلت في مثل هذا المقام.

دار الخلد . وكان الوالد هانئاً سعيداً كما لم يكن من قبل ، وظل على صلة وثيقة به لسنوات طوال إلى أن لحق به فى دار البقاء .

فعلامَ إذاً يحزن الحزانى ويبحثون عن أجـــداث موتاهم فى ظلام القبور ؟ ! ... إن علم الروح لا يعرف ظلاماً ولا حطاماً ولا يعترف بهما ، بل يعلم جيداً أن موت الجسد انتقال من الموت إلى الحياة لا من الحياة إلى الموت ، وأنه إذا كانت هجعة الليل — فى سلام واطمئنان — هى مكافأة الطبيعة عن كفاح النهار فإن رقدة الانتقال هى مكافأتها العظمى عن كفاح العمر وجهاده الشاق كما يعلم جيداً أنه إذا كان الموت لوعة وفراق ، فهو فى نفس الوقت خطوة للأمام إلى تلاق محتوم مادام الحب باق يعمر القلوب ..

ومهما تعثر الإنسان فى دوامة الحياة أو أخطأ ، فالخطأ من شيمة الإنسان ، لأنه أبداً ضعيف أمام طموحه ونزواته . ومن ينقب فى ظروف الناس يغتفر زلاتهم ، فما بالك بهذه المحبة العظمى التى خلقت الإنسان كيما يخطىء حتماً فتبادره بالغفران الذى يعجز عن أن يمنحه لنفسه ... مهما أراد ... لأنه ضعيف عند ما يخطىء وعند ما يندم ، وعند ما يغتفر لنفسه أو لغيره وعند ما يرفض الغفران ! ... أليس الإنسان هو دائماً الإنسان ؟ ..

لذا نجد أن الروحى الحق لا يعترف بأحزان الموت . والفراق المر الذى يسببه يعلم جيداً أنه إلى حين ، وأنه عن طريق الاتصال الروحى من الجائز أن تعود الصلة منذ صبيحة الفراق كأقوى ما تكون إذا ما أمكن توفير وسائلها وظروفها ، وتلاقت عندها إرادة من فى الأرض مع إرادة من فى الأثير .

حتى لكأن الروحية الحديثة تتحدث بلسان سقراط أبى الفلاسفة وهو يخاطب قضاته فى وداعة وثقة قائلا « نخطىء ولا شك إذا اعتقدنا أن الموت كارثة ... أو كأنها تتحدث بلسان الشاعر العظيم والأديب فيكتور هيجو V. Hugo

عند ما قال « إن القبر الذى يغلق على الموتى يفتح لهم باب الأفق الأزرق وأن ما يبدو لنا هنا كأنه النهاية هو البداية » .

أو عند ما قال فى شيخوخته « الشتاء على رأسى ولكن الربيع الخالد فى قلبى ، وإنى أتنسم عبير الزنابق والبنفسج والورود كما لو كنت فى العشرين من عمرى ، وبقدر ما أدنو من النهاية بقدر ما أسمع واضحة السيمفونيات الخالدة للعوالم تدعونى . إن ذلك رائع لكنه بسيط ، وتلك قصة « جنية » لكنها حقيقة تاريخية . . .

وعند ما أنزل إلى القبر يمكننى أن أقول مثل كثيرين آخرين إنى قد أنهيت عمل اليوم ، ولكن لا يمكننى أن أقول لقد أنهيت حياتى ، فإن العمل اليومى سيبدأ من جديد فى الصباح التالى .

فليس القبر دربا مغلقاً ، بل طريقاً مفتوحاً يغلق عند السحر كيما يفتح عند الشروق[1] . . . »

أو كأنما نتحدث باسم الأديب الكبير موريس مترلنك M. Maeterlinck عند ما يقول « إننا نقيم دائماً فى الأبدية نفسها ، فى الكون نفسه ، ومع ذلك فمن الأمور المعقولة المشروعة أن نقنع أنفسنا أنه ليس فى اللحد ما يخيف أكثر مما يخيف ما فى المهد ، بل إنه من الأمور المشروعة المعقولة ألا نقبل المهد إلا اصطلاح اللحد إنه لو سمح لنا قبل أن نولد أن نختار بين راحة الفناء العظمى وبين حياة لن تنهيها أبداً الساعة الجليلة للموت فمن منا — إذا كان يعلم ما ينبغى أن يعلمه — كان سيفضل المجهول القلق لوجود لن ينتهى باللغز المريح لنهايته؟ ومن منا كان سيتمنى النزول إلى عالم لن نتعلم منه سوى أمور ضئيلة

---

(١) كان فكتور هيجو عملاق الأدب الفرنسى وسيطاً روحياً وصاحب دائرة روحية منزلية بمدينة جيرسى Jersey أخذت تعقد جلساتها بانتظام من سبتمبر ١٨٥٣ إلى يوليه ١٨٥٥ وقد تم فيها تلقى أشعار كثيرة من أرواح متعددة مثل شكسبير وموليير وترتاو Tyrtaeus كما تلقى بيديه رسائل متعددة من روح زوجته المتوفاة .

إذا لم يكن يعلم أنه لابد من الدخول فيه للتمكن من الخروج منه ، وللتعلم أكثر فأكثر ؟إن أحسن مافى الحياة أنها تعد لنا هذه الساعة ، وأنهاالطريق الوحيد الذى يقودنا إلى مخرج الجنبات هذا ، وإلى هذا اللغز الذى لا يضاهى، والذى لن تكون فيه بمكنة صنوف البؤس والألم التى هى من صنع الأعضاء التى سنكون قد فقدناها . . . »[1]

أو كأن الروحية تتحدث بلسان أحد الحكماء عند ما يقول أيضاً إنه « يجب أن يعلم الإنسان أنه سيظل حياً دائماً سواء أكان فى الجسد أم خارجاً عنه ، وأن هذه الحياة الجسدية الفانية شىء تستعمله النفس التى لا تموت . لذلك يجب أن تقتل تلك الرغبة فى الحياة التى تحملك على الخوف من الموت، والتى تجعلك تولى هذه الحياة الجسدية فوق ما تستحق من الاهتمام الذى يبلغ حد الافتئات على الحياة الأوسع ، حياة الروح ووعيها .

اقتلع من عقلك تلك الفكرة القائلة بأنك تنتهى حين يموت الجسد ، لأنك بعد موته تظل حياً كما أنت الآن بل ربما أكثر حياة . اعرف للحياة الجسدية حقيقة قدرها ولا تكن مخدوعاً ، وكف عن النظر إلى الموت نظرة الرعب والهلع سواء أقبل عليك أم أطبق على من تحب . إن الموت طبيعى كالحياة تماماً فى مرحلتنا هذه من التطور نسعد به بقدر ما نسعد بالحياة .

إنه لعسير أن ننفض عنا الشعور القديم بالفزع من فناء الجسد ، ولا بد للإنسان من قتال مرير قبل أن يصرع هذا الوهم البالى الذى علق بالبشرية بالرغم من الإيمان بحياة أخرى ، ذلك الإيمان الذى يتردد باستمرار على لسانها . . . .

إن الشخص الذى يصبح هذا الإحساس فى نفسه وعياً باستمرار حياته بعد الموت ، هذا الشخص يتجرد الموت فى نظره من رهبته والقبر من هوله

---

(١) عن مؤلفه عن الموت La Mort طبعة ١٩١٣ ص ١٩٠ ، ١٩١ .

وبذلك يكون قد قتل الرغبة فى الحياة القصيرة هذه ، إذا حل محلها العلم بأن الحياة دائمة لا نهاية لها ... . كما تقول أيضاً نفس الفلسفة « لاتخف الحياة ولا الموت ولا ترهب الردى ولا تطلبه ، فإن بلغت هذه الدرجة عرفت حقيقة الحياة وحقيقة الموت ، إنهما فى الواقع مظهران للحياة »(١) .

* * *

ومع التسليم بأن الإيمان الراسخ بدوام الحياة يخفف الكثير من رهبة الموت فى نفس الإنسان ، فإنه لايقضى عليها بتاتاً طالما كان الكثير عن حياة الإنسان بعد الموت لايزال أرضاً مجهولة لم يستكشفها العلم بعد .

وحتى ما عرف عنها يثير فى النفس رهبة وجزعاً ... فما معنى الانتقال بمجرد الفكر ، وكيف يتأتى للإنسان أن ينقل نفسه إلى أى مكان فى لمح البصر ؟ وما معنى الخلق بالفكر ؟ وكيف تصبح للفكر كل هذه القدرة الرهيبة التى من حقها — ونحن فى مستوانا المادى هذا — أن تثير من عناصر القلق أكثر مما تثير من أسباب الاطمئنان ؟ أن كل هذه لا تبدو الآن ملكات جميلة مريحة بقدر ما تبدو مسئوليات ضخمة رهيبة ! . . .

ثم لاينبغى أن نغفل أن إحساسنا بالنقص الذى فينا يحملنا على الهرب من الأبدية لإحساسنا أيضاً بالكمال الذى فيها فالنقص يهرب من الكمال ويخشاه كما يهرب الضعف من القوة ، والرذيلة من الفضيلة ، والعجز من القدرة . وأقسى ما فى وطأة الإحساس بالأبدية على نفوسنا هو رحمتها ، عندما تعاملنا بمحبة لا نطيقها فى حالتنا هذه ولا نفهمها ، لأننا أعداء غير واعين لهذه الرحمة غير المحدودة .

ولأننا أعداء لها فنحن لا نطلبها ، وقد لا نتقبلها بدافع من كبريائنا المستورة . والكبرياء ترفض تقبل أية حقيقة ، حتى أعظم الحقائق كلها وهى حقيقة محبة الإله الرحيم وغفرانه ، التى يتجه إليها إنسان بقوله « بسم الله الرحمن الرحيم » ويتجه إليها آخر بقوله « الله محبة » .

---

(١) عن « فلسفة اليوجا » المرجع السابق ص ٢٦ ، ٢٧ ، ٣٠ .

فما دامت فى النفس كبرياء مستورة ، فلن تنفض عنها شعورها القديم بالفزع من فناء الجسد ، حتى ولو آمنت النفس بالخلود وبمحبة الإله ، لأن عظم هذه المحبة مصدر من مصادر هذا الفزع الحكيم كيما تجنى النفس ناضجة ثمار العيش فى هذا المستوى من الالتصاق بجسدها الفانى تصيب مرة وتخطىء مراراً ، قبل أن تتحرر من ربقته وتعود إلى ربها راضية مرضية ، شاعرة تماماً بمعنى هذا القول الكريم « أليست خمسة عصافير تباع بفلسين وواحد منها ليس منسياً أمام الله ؟ بل شعور رؤوسكم أيضاً جميعها محصاة ، فلا تخافوا ، أنتم أفضل من عصافير كثيرة » (١) .

* * *

وتقول روح فرعونية قديمة فى نفس هذا الاتجاه «كان هناك اعتقاد قديم انحرف حتى فى أيامنا واختلط بتقاليد أخرى ، فكان لزاماً أن تكون هناك موسيقى مرحة ورقص فى مواكب الجنازات. هذه كانت من بين الاعتقادات الأكثر قدما بأن الموت حادث سعيد ، فكان موكب الموت رمزاً يؤدى بالنفس المنتقلة إلى حياة جديدة غير محدودة الجمال ذات جو أكثر حرية وأقرب إلى الخالق . كانت رحلة بهيجة والموت بابها . كان هذا هو الإيمان الأصيل .

لكن انحرف ذلك حتى فى أيامنا (الأسرة الثانية عشرة) ففى طقوس الجنائز اختفت النغمة المفرحة للتحرر من الجسد ، وحل محلها النواح الرسمى وحمل التراب على الرأس إلى غير ذلك من البدع إن الرحلة السعيدة للنفس فسرت خطأ بتقاليد الدفن التى كانت تقتضى إمداد الجسم فى قبره بالحاجيات المادية . واختلط كل شىء كما اختلط إيمانكم اليوم بتقاليد وطقوس دفن تختلف عن معتقداتكم الأصلية فى البعث والخلود ... » .

إلى أن تقول : « ولا يعلم أحد بالتأكيد من أين جاء الحق لأول مرة

(١) (لو ١٢ : ٦ ، ٧) .

(الإيمان بالخلود) . ولكنه جاء من الشرق البعيد عن مصر فى عصر ما قبل التاريخ . جاء عندما كانت مصر طفلة تحبو ، من نفوس قديمة عاشت عيشة كاملة الطهارة لا تصالها بالله . عرف هؤلاء أسرار الحياة الخالدة التى هى الاستمرار فى الحياة — التغير المستمر — عدم الفناء ... »[1].

وفى هذا الشأن يتحدث — من وجهة نظر العلم التجريبى — الأستاذ شو دزموند فى كتابه «كيف تحيا عندما تموت»[2] قائلا إنه تلقى فى سنة ١٩٣٤ من عالم يسكن عالم الروح محاضرة فى غرفة مغلقة ، كما سمع مثلها عن طريق وســـاطة الصوت المباشر أمام جمع غفير فى قاعة كونواى Conway Hall بلندن وفى أمكنة أخرى — تتضمن شرحاً وافياً لحالة الروح بعد موت الجسد المادى مباشرة وعند يقظتها فى العالم الآخر . وتبين كيف أن الموت عبارة عن ميلاد جديد ، وأن انفصال الجسد الأثيرى عن الجسد المادى الذى اتخذه مسكناً له خلال الحياة الأرضية هو أشبه ما يكون بانفصال الطفل الوليد من جسد أمه .

وقد وضح كيفية هذا الميلاد الثانى بعض من وسطاء الجلاء البصرى Clairvoyants عند حضورهم فى ساعة الاحتضار بالقرب من «المنتقلين» . ومن ذلك ما رواه الوسيط أندروجاكسون دافيز Andrew Jackson Davis فى مؤلفه عن «الفلسفة المتناسقة»[3] . وصفاً لعملية الانتقال قائلا «نام الرجل على فراشه يعانى سكرات الموت .. كان موته سريعاً . . . ازدادت سالبية الجسد وبرودته بازدياد الإيجابية والدفء فى الجسم الروحى..وبردت القدمان أولا . . وظهر فوق الرأس مباشرة ما يصح أن نسميه هالة مغناطيسية يراها كل ذى جلاء بصرى ، وهذه الهالة انبعاث أثيرى ذهبى

---

(١) من «روح فرعونية تتكلم» المرجع السابق ص ٩٩ — ١٠٠ .

(٢) How You Live When You Die? طبعة خامسة ص ٢٥ .

(٣) The Harmonial Philosophy .

اللون يختلج وينتفض كأنه يحس ويشعر(١) .

ثم وصلت البرودة إلى الركبتين والساعدين ثم امتدت إلى الردفين وامتد الانبعاث وإن لم يرتفع بعد . وامتدت البرودة إلى الصدر والجانبين ، واقترب الانبعاث من السقف ، وانقطع تنفس المحتضر وسكن نبضه . ثم استطال ذلك الانبعاث وتشكل بصورة إنسان وبقي متصلا بالمخ . ثم اختلجت الرأس من الداخل بهزة بطيئة عميقة ولكنها غير مؤلمة . . فكانت كهزة ماء البحر الضعيف التموج .



7. — La Mort physique et la Naissance astrale (Voy. p. 63).

موت الجسد والميلاد الكوكبي

رسم رمزي عن مؤلف للدكتور بابيس Papus (Dr. G. Encausse)
عنوانه La Réincarnation.

أما قوى الرجل الذهنية فظلت سليمة حتى مات آخر جزء منه ، وظل

(١) راجع ماورد عن الجسد الروحي أو الأثيري والهالة في الجزء الأول ص ٤٤٠ — ٤٥٥ .

يصل ما بين هذا الانبعاث الذهنى والمخ خيط دقيق جداً من خيوط الحياة، ثم ظهر على جسم الانبعاث شيء آخر أبيض لامع فى شكل الرأس ، وبعدئذ ظهر وجه زاه وبدت بعد ذلك رقبة لطيفة وكتفان جميلان ، وتلا ذلك بسرعة ظهور بقية أجزاء الجسم حتى القدمين ، فإذا الجسم شبح زاه لامع كله، يزداد اصفراره قليلا عن الجسم المادى. ولكنه نسخة طبق الأصل منه فى جميع تفصيلاته ، وظل ذلك الخيط الرفيع الدقيق متصلا بالمخ القديم ولم يبق بعد ذلك إلا انفصال هذا العنصر الأثيرى . . ثم أفلت الخيط وتحرر الجسم الروحى وانطلق » (١) .

الألم مدرسة الحياة

وهذا الفهم لعملية الموت بوصفها ميلاداً ثانياً فى عالم أرق من عالمنا الثقيل وأرقى يجعل الإنسان بغير ماريب أقدر على تحمل آلام الحياة الأرضية، مهما كان نوعها من مرض وكفاح وعوز وفشل وظلم وضيق وشيخوخة وحرمان،إذ أن الروحية الحديثة تحدد رسالة الألم تحديداً وضحاً بأنه السبيل الوحيد للتطور ولاكتساب الغنى المتزايد فى الفضيلة والعاطفه والمعرفة . فالألم هو فى عبارة أخرى تضحية الحاضر لأجل المستقبل ، وتضحية سعادة أيام وشهور للحصول على سعادة أجيال ودهور . ومحن الأرض هى وحدها التى تمهد الطريق لنعيم السماء ، أما أمجاد الأرض فأخر ما فيها عجز وهوان ، لو أدرك الناس حقيقة معناها ونفذوا إلى لبها ومغزاها .

وقد حاول الفليسوف ماكس شيلر Max Scheler فى « معنى الألم »(٢) أن يظهرنا على عمق هذه الصلة بين الألم والتضحية عندما قال « إن الألم هو فى صميمه تضحية بالجزء من أجل الكل ، أو تضحية بماله قيمة دنيا من أجل

---

(١) عن كتاب الأستاذ عبد الرزاق نوفل « الحياة الأخرى » ص ٨٢ ، ٨٣ .

(٢) ترجمة فرنسية

«Le Sens De La Souffrance» Aubier, P. P. 62—71.

ماله قيمة عليا والصلة وثيقة بين الألم والموت ، لأن الألم موت للجزء لكنه موت يتحقق من ورائه إنقاذ الكل . كذلك يمكننا أن نربط بين الألم والحب فنقول إن أية قيمة عليا لا يمكن أن تفرض علينا التضحية بقيمة أخرى دنيا إلا إذا كانت أقدر منها على انتزاع حبنا ، ومن هنا فإن الألم هو الذى يضطرنا إلى أن نخضع حياتنا الحسية لنشاط روحى يتزايد سمواً يوماً بعد يوم .

« وحينما يقول أفلاطون وغيره من الفلاسفة إن الألم أداة تطهير فإنهم يعنون بذلك أن آلام الحياة هى الكفيلة بأن توجه بصرنا الروحى نحو الخيرات العليا والقيم السامية ، فترتفع بنا إلى مستوى الطهارة القلبية الحقة التى هى ينبوع السعادة الروحية العميقة إلى الحد الذى دفع كير كجارد Kierkegaard إلى القول بأنه حينما يريد الله أن يوثق العلاقة بينه وبين إنسان ما فإنه يستدعى رفيقه الأمين الذى هو الهم وينبه عليه أن يلاحقه أينما توجه ، ويشدد عليه بأن يلازمه فى كل خطواته [١] .

« والواقع أن من شأن الألم فى كثير من الأحيان أن يولد فى النفس تناقضاً خصباً يزيد من عمق الحياة الباطنية ، إذ تشعر الذات بتوتر حاد بين ما هو كائن وما ينبغى أن يكون ؛ ومثل هذا التوتر هو على حد تعبير الفيلسوف الفرنسى رينيه لى سين R. Le. Senne شعور بالقيمة . وليس معنى هذا أن الألم هو فى حد ذاته خير ، وإنما معناه أنه قد يعود بالخير على الذات حينما تتمكن من تمثله ، أعنى حينما تستطيع أن تجعل منه أداة فعالة لتحقيق تطورها الروحى وتنمية حياتها الباطنة . وهكذا قد يكون فى وسعنا أن نقول إن القدرة على التألم هى علامة طيبة ، إذ ربما كان أعضل داء يمكن أن تصاب به النفس هو أن تصبح غير قادرة على التألم ، وإذن فإن التألم

---

(١) Jean Wahl : «Etudes Kierkegaardiennes» Vrin 1949 P.P. 367—9.

ليس مرضاً على الإطلاق ، وإنما هو بالأحرى نقاهة النفس ، أو هو السبيل إلى تحقيق سرور أعمق وأطهر ! » (١) .

ثم إن الحياة — كما يقول وليام جيمس تتطلب بذاتها النضال « فالإنسان لا يشعر بأنه يعيش فعلا إلا إذا ذاق الصراع حلوه ومره فشقى بالهزيمة أو انتشى بالنصر . وإذا كان كل شيء ميسراً ممهداً لفقدنا كل إحساس بالتوثب ولا فتقدنا بذلك ذاتيتنا ، وعدمنا إحساسنا بشخصيتنا . ففى كل منا ذخائر من الطاقة لا يمكن أن تستثمرها حياة هادئة رتيبة ، وإنما توقظها وتثيرها حياة متدفقة عارمة ، حياة خارقة فذة . هنا فى معمعة هذه الحياة نحس فعلا بأننا نعيش ، ذلك لأننا خلقنا للنضال ، ومن أجل غاياتنا يشتعل حماسنا ويضطرم نشاطنا (٢)» .

ولا يغير من ذلك شيئاً أن الحياة قد تبدو فى كثير من الأحيان مظلمة كئيبة ، لأن جيمس يعتقد « بأن هناك فى النهاية خلاصاً ، وهذا الخلاص مشروط بأن يؤدى الإنسان خير ما يستطيع . وقد تنجح فى ذلك القلة وتفشل الكثرة ومع ذلك فهو لا ييأس من المستقبل ، مادامت هناك قوة إلهية تساهم فى تقدم هذا العالم ورقى الإنسانية » .

كما يرى نفس الفيلسوف فى الحياة أنها تبدو « كأنها جهاد حق ، وكأن هناك شيئاً فى العالم متوحشاً نريد — بكل ما لدينا من مثل عليا وعقائد وإخلاص — أن نخضعه ونجعله أليفاً ... ولكن لابد لنا ان نجعل قلوبنا أليفة ، وأن نطهرها من الإلحاد والخوف لأن طبيعتنا قد تعودت على مثل هذا العالم — الذى نصفه متوحش ونصفه الآخر أليف ونقى وطاهر — وقد انسجمت معه . وإن أكثر الأشياء عمقاً فى طبيعتنا هو تلك النقطة الرطبة اللينة من القلب التى نعيش فيها وحدنا ، مع مالنا من رغبات ونفور . ومع مالنا من عقائد ومخاوف ! ... » (٣)

---

(١) عن « مشكلة الإنسان » للدكتور زكريا إبراهيم ١٩٥٩ ص ١٤٧ .
(٢) عن « وليام جيمس » للدكتور محمد فتحى الشنيطى ١٩٥٧ ص ١٥٨ .
(٣) عن « إرادة الاعتقاد » ترجمة الدكتور محمود حب الله ص ١٢٨ .

ولذلك كله قال أيضاً جوته Goethe « إن من فاته أن يتذوق خبزه فى الألم ومن لم يقض ساعات سوداء يترقب باكياً طلوع النهار المتثاقل ، إن مثل هذا الإنسان لا يعرفك أيتها القوى السماوية » . وقال ألفريد دى موسيه A. De Musset لاشىء يجعل الإنسان عظيماً غير ألم عظيم .

* * *

ثم إن الألم — أو بالأدق تفهم علة الألم ومصدره الكامن فينا — كثيراً ما ينبهنا إلى الطريق الأعوج الذى قد نسير فيه فيدفعنا إلى تغييره واختيار غيره ، بما فيه منجاة الروح ، وتحاشيها لآلام مستقبلة لعلها كانت ستصبح أشد وطأة مما نتصور. فكما أن آلام الجسد تنبهنا إلى أمراضه الدفينة وتدفعنا إلى محاولة التخلص منها عن طريق العلاج ، فكذلك أيضاً آلام الروح تنبهنا إلى عيوبها الخبيثة، وتدعونا إلى محاولة الخلاص منها عن طريق الفهم العادل وضبط تقديرنا للأمور . فالألم هو الذى يصلح عيوب الروح ورذائلها التى تحجبها الكبرياء عن صاحبها ، فتنمو هذه الرذائل بقدر نمو الكبرياء وينمو معها الألم أيضاً ، وتضعف بقدر ذل الكبرياء تحت وطأة الألم، فإذا بغشاوة الكبرياء تخلفها بصيرة التواضع، وتبددها أضواء الفضيلة ومعها إشراقة السعادة .

والألم هو الذى يحرك الضمير فيدفعه إلى الندم ، والندم هو أول خطوات التقدم الروحى . وهو الذى يعطى الإنسان أعظم نعمة تميزه وترفع من قدره ، وهى الإحساس بالمسئولية الذى يميز الإنسان المتحضر عن زميله البدائى ، والرجل البالغ عن الطفل الصغير . فالألم هو صانع المعجزات فى الإنسان ، بل هو صانع إنسان المعجزات . وأعظم معجزاته هى مقاومة حب الذات واللذات فيه ! . .

والألم هو القوة المحركة التى تجعل عقولنا تسيطر على شهواتنا ونزعات الشر فينا ، فنفكر تفكيراً أكثر نقاء واعتدالا . وإذا ماقدرنا أن التفكير

النقى العادل هو مصدر كل سعادة حقيقية لأنه الأنيس الوحيد الذى يلازم الإنسان فى رحلة الأبدية ، وأن ما عداه من متاع الدنيا الزائلة لا يعد شيئاً مذكوراً ، وليس له أى دور فى إسعاد النفس ، لقدرنا أية نعمة كبرى ، وأية بركة حقيقية يمكن ان تحصل النفس عليها عن طريق الألم وحده ، لو عرفت كيف تتعظ به ، وتخرج منه أكثر نقاء واعتدالا فى حكمها على نفسها وعلى الآخرين .

وبالألم نسدد ديوننا التى اقترضناها بما وهبنا الله من حرية فى اختيار الطريق الذى نريده ، إذاما اخترنا طريق الأنانية بدلا من الخدمة ، والخمول بدلا من النشاط ..

وهو الذى يصقل الروح فيجعلها أكثر تواضعاً ، وبالتالى أكثر حدباً على الآخرين وتسامحاً معهم ، وإحساساً بوطأة آلامهم وبالتالى تقدير معنى الأخوة الإنسانية — كجزء لا يتجزأ من ناموس الحياة — حق قدرها ، إذ لا تقف عقبة كؤود كالكبرياء بين الإنسان وبين أخيه الإنسان .

ولذا قال أحد الحكماء بحق « إن الإنسان القليل الغور هو الذى يفقد الاستجابة لأحزان الآخرين حينما يغرق فى آلامه المحدودة . فإن من يستخدم مشرطاً لتشريح ذاته سوف يبلغ أفقاً فسيحاً لشفقة عامة ، ويحصل على الانطلاق من أسر الحاجيات الذاتية التى تصم أذنيه عن مساعدة الآخرين ، ويزدهر حب الله فى مثل هذه التربة ، وفى النهاية يتجه المخلوق نحو خالقه ، إن لم يكن لسبب آخر فللسؤال الملح : لماذا يا إلهى ... لماذا ؟ وبأسواط الألم القاسية يساق المرء إلى النهاية فى الوجود النهائى الذى ينبغى أن يجذبه جماله وحده »[1] .

فكأن الألم فى النهاية هو النار التى تحول الفحم الأسود الذى فينا إلى ماس لامع مضىء ، ولكن عندما نعرف كيف نتعظ من الألم ، فنعترف — ولو

---

(١) عن « فلسفة الهند فى سيرة يوجى » بقلم برمهنسا يوجاننداترجمة الأستاذ ز كى عوض المحامى ص ٦٣ .

اضمائرنا وقلوبنا — بمصدر الألم الكامن فى عيوبنا ورذائلنا ، وهى لا تتوقف ولا تنقطع سواء اعترفنا بها أم أنكرناها ، وتجاهلناها أم جهلناها ، لأن لكل فعل — بل لكل خاطر يخطر على البال — وزن محسوب فى سفر الحياة لا يميل ولا يخطىء .

ومن يعترف بخطئه — ولو لقلبه وضميره — يخطى خطأ قليلا ويسيراً ، أما من يكابر فيه فهو يخطىء خطأ كثيراً وجسيماً ، ومثل هذا الإنسان تحوله نار الألم إلى رماد لا قيمة له فى سفر الحياة الكريمة ، حين تحول غيره إلى ماس ثمين فى وجوده المحدود وغير المحدود ، يبصره كل ذى عينين لامعاً مضيئاً على جبين الزمن يشع رونقاً يسر المتقين ويضنى الحاقدين . . . لأنه إشعاع الفضيلة يشع معها بريق السعادة . . . كما يخبرنا أن الأنين من صروف الدهر قد يجلب من الألم أكثر مما قد يجلب الألم من الأنين ! ...

* * *

وفى رسالة الألم يقول أيضاً المرحوم الأستاذ عباس محمود العقاد بحق «ومن لنا أن النقص الذى لا يرضينا هو أقرب إلى الكمال من النقص الذى نرضاه ؟ أليس حافز الألم هو وسيلة الشوق إلى الكمال ، والتفرقة بينه وبين النقص فى شعور الضمير ؟

بل الواقع أننا نرى هذه الآلام وسيلة الارتقاء بتنازع الأحياء ، وأنها وسيلة التهذيب والازدياد فى نمو فضائل الإنسان . ولو اننا سألنا رجلا ناضجاً أن يسقط من حياته آثار آلامه أو آثار مسراته لتردد كثيراً بين الآلام والمسرات . ولعله فى النهاية يسقط آثار المسرات ولا يسقط آثار الآلام .

ونحن نحكم على غايات الأبد بتجارب العمر القصير . فلا فرق فى ذلك بيننا وبين من يحكم على الرواية المعروضة أمامه بكلمة فى خطاب أو كلمة فى جواب ... » (١)

---

(١) عن مؤلفه « الله » طبعة ثانية ص ٢٩٧.

وعن الألم يتحدث سيلفر بيرش ببلاغته المعهودة قائلا « ولو كان الأمر كله سهلا لما رغب الناس فى العمل على خلاص أنفسهم ، وعندئذ لن يبقى فى عالمكم بعد عدة أجيال شيء يتيسر للروح الأعظم الظهور فيه . إن النفس التى تذوق نزعات الألم والمرض والمرارة والأسى تخرج نفساً أعظم ، نفساً تفهم آلام الآخرين . والنفس التى تعيش ناعمة فى الرفاهية تبحث عن الخرافات والظلال سيكون عليها فى يوم ما أن تلمس الحقيقة . لا تحسدوا الذين تظنونهم يقضون وقتاً طيباً ، الطريق الأوعر فى حياتهم ما زال أمامهم .. »(١) .

كما يقول أيضا « الشر والألم كما تسمونهما جزءان من التطور . إذا لم يوجد الألم لا يوجد التحذير بأن الصحة تحتاج إلى الانتباه ، وإذا لم يوجد الظلام فلا ضياء . وإذا لم يوجد الشر فلا خيرات . وكيف يمكنكم الحكم على معايير الخير إذا لم يكن هناك شر فى عالمكم؟ وإذا لم تكن هناك أخطاء تعالجونها وظلم لتحاربوه كيف تتمكن الروح البشرية من النمو؟ ... لا يمكن أن تكون الحياة نغمة واحدة . يجب أن يكون هناك ضوء وظل ، شروق وعاصفة ، فرح ودموع ، حب وبغض ، جمال وقبح ، خير وشر ، لأنه فى التضاد يمكن أن نفهم الحياة . فى النضال فقط ، فى الجهاد فقط ، بالانتصار على المصائب فقط يمكن للروح الإنسانية — التى هى إلهية — أن تنمو وأن تسمح لمواهبها الدفينة أن تظهر . هذا هو القانون .. »(٢) .

فللألم إذاً رسالة عظمى لو وعيناها لنفعتنا فى تطورنا كثيراً « فكل دمعة تسكبها — يقول أيضا الروح الحكيم أجاشا Agasha — إنما تعبر عن تجربة سوف تتبلور فى لؤلؤة من حكمة إذا أنت تقبلتها كدرس تتعلمه» كما يضيف: « كن شكوراً للقدر إذا ما امتحنك ببلاء ، أو أدخلك فى تجربة عسيرة . تقبلها بقبول حسن واعتبرها درساً مفيداً تتعلمه فى مدرسة الحياة . تحدث

---

(١) عن « سفير الأرواح العليا » ص ٣٣ .

(٢) عن المرجع السابق ص ١٨٥ ، ١٨٦ .

مع نفسك قائلا : لا يهمنى فى الكثير ولا فى القليل أن تكون المشكلة صعبة. سأحاول أن أحل عقدتها ولسوف أستفيد من هذا المجهود . أنا جزء من الكون . أنا أحد آحاد « الأحد الأكبر » . إننى أسير فى طريق التكامل حتى أؤدى رسالتى التى من أجلها خلقت . أنا شكور وحميد لهذا الإله الذى وهبنى كل هذه الفرص لأتعلم بواسطتها الغرض الأسمى من هذه الحياة . إنى أبارك كل شىء يهبنى الله إياه . ليست حياتى اليومية فارغة ، بل إنها مليئة (بالعلوم والآداب والفنون الجميلة والفلسفات والدين ...) وإذا كانت روحى ملكاً فإن الجسم مملكته ، وهذه المملكة تسير بخطى واسعة وهى تتدرج فى سنة النشوء والارتقاء » (١) .

* * *

وليس العجز عن تفسير علة الألم فى الكثير من جوانبه يصح أن يعد حجة ضد عدالة الألم فى سائر جوانبه . فإن العلم لم يصل بعد إلى المرحلة التى يملك فيها قدرة تفسير جميع أسرار الحياة ، ولن يصل يوماً إلى هذه القدرة الكاملة التى ليست من صفات العلم بل هى من صفات العقل الأعظم، وهيهات أن يصل إليه الإنسان مهما بلغ عنده مدى العلم والعرفان .

ويكفى فى هذا الشأن أن نلاحظ أن العلم لم يوضح بعد حتى طبيعة صلة الإنسان بهذا الكوكب الضئيل الذى يقطنه . وإذا صح أننا جئنا إليه كيما نتطور ونرتقى تدريجياً ثم نعود أرقى شأناً وأحسن حالا ، فإن الكثير من تصاريف القدر القاسية — حتى الزلازل والأوبئة والحروب — تصبح ذات نهاية سعيدة .

ويكون شأننا شأن إنسان رضى أن يهاجر إلى بلاد نائية ، كيما يقوم برسالة من الخدمة الشاقة أو من الدراسة المضنية ، إذا ما اضطرته ظروف قهرية أن يعود إلى وطنه الأصلى قبل التاريخ الذى قدره ، ناعماً بما قدم من

---

(١) ترجمة الأستاذ صلاح الدين يوسف فى مجلة « عالم الروح » عدد أغسطس سنة ١٩٥٦ ص ٨ .

تضحية ، أو بما اكتسب من خبرة غير ضائعة ، لأن ناموس الحياة لا يعرف خدمة منكورة ، ولا تقدماً ضائعاً فى العقل أو فى الأخلاق .

وإذا كان هذا القول صحيحاً بالنسبة لصلة الإنسان بهذا الكوكب فهو صحيح أيضاً بالنسبة لصلته بجنسه من حيث الذكورة والأنوثة ، ومن حيث صلته بالقارة واللون والوطن والعقيدة ... فإن العلم لم يوضح بعد طبيعة صلات الإنسان بكل هذه الأمور . حتى أن علم الروح لا يملك فى حالته الراهنة إلا القول بأن ثمت روابط عريقة طبيعية تربط الروح بها ، وهى عريقة عراقة الروح ، وعميقة الأثر فى تطورها وارتقائها .

وما دامت آلام الروح — ومباهجها أيضاً — وثيقة الصلة بكل هذه الروابط مجتمعة ، فعلى عقل الإنسان أن يتواضع قليلا — بل كثيراً — ويسلم بالعجز عن تفسير علة الألم ، وبأن هذا العجز لا يتعارض مع جدوى الألم إن لم يكن مع عدالته ، فى ظل ناموس طبيعى يعطى للروح قدراً كبيراً من الحرية فى تخير روابطها ومواضع أقدامها فى طريق الأبدية الصاعد الطويل . ولنا عودة إلى الكلام فى مدى حرية الاختيار فى مناسبة لاحقة .

خواطر فى الألم والسعادة

وهناك أيضاً اعتبار له قيمته فى تزويدنا بالشجاعة اللازمة لتحمل وطأة الألم ، وهو أن نعترف مع الشاعر الأديب ماترلنك بأن السعادة تقتضينا قدراً من الشجاعة مثلما يقتضينا الألم أيضاً ، وربما تلزمنا طاقة للاستمرار فى السعادة أكثر مما يلزمنا من طاقة للاستمرار فى التعاسة ، لأن ترقب النعيم الذى كان من المفروض أن تمنحه السعادة للقلب غير الحكيم أفضل من حيازة الإنسان الكاملة لكل ما كان يشتهيه من أمور . فمن قمة السعادة الدائمة يمكن للإنسان أن يشاهد بوضوح حاجيات القلب الذى يبدو أنه لا يتقوت إلا من الخوف والأمل ، والذى يتألم من التقوت بما لديه ، حتى لو كان لديه كل شىء .

وكثيراً ما يشاهد الإنسان مخلوقات قوية وممتلئة حذراً ، وقد صرعتها السعادة ، فعندما لا تجد فى السعادة كل ما كانت تبحث عنه من أمور ، فلا تقاومها ولا تتمسك بها بالحماس الذى ينبغى إظهاره دائماً فى الحياة . ولكن ينبغى أن يكون الإنسان حكيماً حتى لا يأخذه العجب من القول بأن السعادة تحمل معها الأسى أيضاً ، وحتى لا يدعونا هذا الأسى للاعتقاد بأننا لا نحوز السعادة الحقيقية بعد . ولعل أفضل ما يعثر عليه الإنسان فى السعادة هو اليقين بأن السعادة ليست شيئاً مطلوباً للنشوة ، بل هى أمر يدعو إلى التفكير .

والحصول على السعادة يصبح أمراً أيسر منالا ، وأقل ندرة ، عندما يعرف الإنسان أن الهبة الوحيدة التى تهبها للروح التى تعرف كيف تستفيد منها — هى توسيع الوعى الذى لا يمكن للروح أن تعثر عليه أبداً عن أى سبيل آخر ، فأهم للروح الإنسانية أن تقدر قيمة السعادة من أن تنعم بها . ومن اللازم فهم أمور كثيرة حتى يحب الإنسان السعادة لأمد طويل . ومما لا غنى عنه معرفة عدد متزايد منها للإقرار بأنه فى داخل السعادة التى لا تكتنفها العواصف يكمن القدر المحدد الثابت لكل هناءة فحسب فى تلك القوة الكائنة فى أعماق وعينا ، والتى يمكنها أن تجعلنا سعداء حتى بين أحضان التعاسة ذاتها . ولا يمكنك أن تقول إنك سعيد إلا إذا كانت السعادة قد عاونتك على أن ترتقى مرتفعات شاخة إلى المدى الذى لا تعود ترى السعادة بعده ، بغير أن تفقد فى نفس الوقت رغبتك فى الحياة .

ونجـــد عدداً من ذوى الأفكار العميقة المملوئين شعوراً قوياً باللانهاية وبالأزل وبالكون مثل باسكال Pascal وهيللو Hello وشوبنهور Schopenhauer لا يبدون سعداء على الإطلاق . ولكن يخطىء الإنسان خطأ غريباً لو أنه كان يعتقد أن تعبير الأسى العام يفترض دائماً خيبة شخصية عظمى . فأفق السعادة عندما نتأمله من قمة تفكير غير غريزى

ولا أنانى ولا تافه لا يختلف بشكل محسوس عن أفق آخر من نفس الطبيعة ، ولكنه يرجع إلى مصدر آخر .

وفى نهاية المطاف لا يعنينا كثيراً أن تكون الغيوم التى تتحرك هناك فى سماء الوادى ، غيوماً كئيبة أم رائعة ، فإن ما يهدىء روع المسافر هو الوصول إلى مكان مرتفع ، ليكتشف منه فضاء لا حدود له . وليس من اللازم أن تمر أشرعة بيضاء بغير توقف على البحر ، كيما يبدو لنا البحر بكل ألغازه وروعته . فحدوث عاصفة لا يضعف من حياة أرواحنا كما لا ينال منها يوم هادىء جميل . إنما يضعفها أن نظل ليلا ونهاراً سجناء فى غرفة عقولنا الضئيلة بغير نشاط ولا رحابة ، بينما المحيط يضىء السماء من حول المقر الذى فيه نقيم ... ...

ومن اللازم للسعادة أن تكون لدينا أفكار حية وجريئة عن الإنسان وعن الله وعن الطبيعة . ولكن ذلك لا يكفى ، إذ ماذا تساوى أية فكرة عميقة ما دامت لا تجلب لنا أية طمأنينة ؟ ... ...

ثم يقول « من منا لا يجد ألف سبب وسبب كيما يكون سعيداً بغير أن يبحث عن هذه الأسباب ؟ وبغير ريب من المفيد أن يبين لنا الإنسان الحكيم الأسباب العالية جداً للسعادة ، لأن الأسباب العالية جداً لعدم السعادة تكون قريبة جداً من أن تتحول إلى أسباب للسعادة ، ولكن جميع هذه الأسباب التى لا تحمل لنا بذور العظمة والسعادة (فيوجد فى الواقع فى الحياة المعنوية عددمن مساحات تم اكتشافها تختلط فيها العظمة مع السعادة) لا تستحق أن يعددها الإنسان .

وينبغى أن يكون الإنسان سعيداً حتى يسعد غيره ، كما ينبغى أن يسعد غيره حتى يظل سعيداً ، فلنحاول أن نتبسم — بادىء ذى بدء — حتى يتعلم إخوتنا أن يتبسموا ، وعندئذ سنتبسم ابتساماً أكثر صدقاً عندما نراهم

يتبسمون . ويقول ماركوس أوريليوس Marc-Aurèle [1] « إنه لا يناسبنى أن أحزن نفسى بنفسى أنا الذى لم أحزن أحداً » فى عبارة من أجمل عباراته، ولكن أليس جالب الحزن على النفس ومعرفة جلبه على الآخرين يساوى عدم معرفة الإنسان أن يكون سعيداً على قدر استطاعته [2] ؟ »

ثم يتساءل ماترلنك « لماذا لا نعترف بأن الواجب الأسمى ليس فى البكاء مع جميع الباكين، ولا فى الآلم مع جميع المتألمين ، وليس فى أن نفتح قلوبنا لكل عابر سبيل كيما يدميها أو كيما يسعدها ؟ إن البكاء والآلام والجروح أمور لا تسالمنا إلا بقدر ما تمتنع عن تثبيط حياتنا .

فلنذكر دائماً أنه أية كانت رسالتنا على هذه الأرض، وأياً كان الهدف من جهودنا وآمالنا ، وأية كانت نتائج أتراحنا وأفراحنا ، فنحن قبل كل اعتبار آخر مستودعات عمياء للحياة ، وهذا هو الشيء الوحيد المحقق بصفة مطلقة ، وهذه هى النقطة الثابتة الوحيدة للخلق الإنسانى . لقد أعطينا الحياة ، ولا نعلم لماذا ، ولكن يبدو جلياً أن ذلك ليس لإضعاف الحياة ولا لضياعها .

بل إننا نمثل صيغة خاصة من الحياة على هذا الكوكب ، وهى صيغة حياة التفكير والشعور . ولذلك يبدو أن كل ما يؤدى إلى إضعاف جذوة التفكير أو الشعور ليس أمراً خلقياً بحسب الراجح . فلنحاول إذاً أن نذكى هذه الجذوة ، وأن نجملها وأن نوسع من نطاقها ، وقبل كل شيء آخر فلنقو من إيماننا فى عظمة الإنسان وفى قدرته وفى مصيره .

ومن الصحيح أنه بمقدورى أيضاً أن أقول أيضاً ، بل فى ضآلة الإنسان

---

(١) إمبراطور رومانى معروف بحكمته وفلسفته دام حكمه من سنة ١٦١ — ١٨٠ بعد الميلاد .

(٢) عن كتاب « الحكمة والقدر » La Sagesse Et La Destinée ص ١٤٧ — ١٥٢ .

وضعفه وتعاسته . فمن المثير أن يكون الإنسان تعيساً جداً بقدر ما يكون سعيداً جداً . ويستوى فى نهاية المطاف أن يكون هو الإنسان أو هو الكون الذى يبدو لنا رائعاً ، ما دمنا نجد سبباً يثير روعتنا ويذكى فينا إحساسنا باللانهاية .

إن النجم الذى يكتشفه الإنسان لا يضيف شيئاً من الإشعاع إلى تفكيره وشعوره وشجاعته . وكذلك كل ما نشاهده من جمال فيما يحيط بنا ، كان جميلا فى قلوبنا من قبل ، وكل ما نجده رائعاً وعظيماً فى داخلنا نجده كذلك فى نفس الوقت فى نفوس الآخرين .

فإذا ما استيقظت روحى فى هذا الصباح وقابلت فى تفكير محبتها فكرة تقترب بها قليلا من الله ، الذى لا يمثل بغير ماريب سوى أجمل رغباتها ، فإنى سأجد نفس الفكرة تتردد فى ذهن ذلك الإنسان المسكين الذى قد يمر فى اللحظة التالية تحت نافذتى ، وسأحبه أكثر مما كنت أحبه ، لأنى عرفت أفضل من ذى قبل هذه الفكرة عن الله ...

ثم يقول أيضاً «إن كل فكرة تنمى قلبى تنمى فىّ حب الإنسان واحترامه، وبقدر ما ارتفع ترتفع معى . ولكنى كيما أحبك لا ينبغى أن أقص جناحى محبتى لأن محبتك لم ينم لها جناحان بعد ، فعندئذ ستتضاعف الدموع ومعها الأنين غير المجدى فى أعماق الوادى ، ولن تخطُ المحبة خطوة واحدة نحو الجبل . فلنحب من أعلى بقعة يمكن أن نرتقى إليها ، ولا ندع أنفسنا نحب بدافع من العطف عندما يمكننا أن نحب بدافع من الحب ، ولا ندع أنفسنا نغتفر للآخرين بدافع من الطيبة عندما يكون بمقدورنا أن نغتفر بدافع من العدالة ، ولا نعلم أنفسنا أن نعزى الآخرين عندما يكون بمقدورنا أن نتعلم كيف نحترمهم .

فلنكن متيقظين فى تحسين نوع المحبة التى نعطيها للآخرين . إن كأساً من هذه المحبة نجرعه فى القمم العالية يساوى مائة كأس يشربها الإنسان

من المستودع الآسن للـبر العادى . وإذا كان ذلك الإنسان الذى لا تحبه بعد بدافع العطف عليه أو لمجرد أنه ينتحب ، سيجهل حتى النهاية أنك تحبه فى هذه اللحظة كيما تجعل منه ومن نفسك إنساناً نبيلا ، فما قيمة جهله فى نهاية المطاف ؟ لقد صنعت ما تصورت أنه أمر أفضل من غيره ، وهذا الأفضل يمكن ألا يكون مفيداً . ألا ينبغى أن نتصرف فى هذه الحياة دائماً كما لو كان الله — الذى تريده أسمى احتياجات قلوبنا — يراقبنا بغير ما توقف ؟[1] » .

قانون الاستحقاق

وفهم ناموس التطور الخلق عن طريق الألم مرتبط بناموس آخر هو ناموس الحصول على أية سعادة عن طريق استحقاقها لا عن طريق اللهفة عليها ، فمن يستحق سعادة ما بسبب جدارته بها سينالها حتماً طبقاً لقانون السببية ، ومن لا يستحقها فلن ينالها مهما تعلق بها ..

ذلك لأن السعى الحثيث للاستزادة من الخلق والمعرفة — بما يصاحبه من ألم محتوم — هو السبيل الوحيد الذى قد يوصل الإنسان إلى تحقيق أهدافه ، وبقدر ما تكون راقيةومناسبة لرسالته فى الحياة فى تقدير الناموس الحكيم الذى يراقب مدى ما يستحقه كل واحد بحسب ما قد يصل إليه من خلق ومن معرفة . فيعطيه هذا الناموس أحياناً مالا يفكر فيه ولا يطمع إليه ، حين قد يسلبه ما قد يكون بحسب تقديره الضعيف فى حاجة ماسة إليه . فالإنسان يعطَى من أسباب السعادة الحقيقية بحسب استحقاقه لا بحسب رغباته .

بل إن الألم نفسه قد يكون عطية حسنة يعطاها من يستحقها لدفعه فى طريق تقدمه وصلاح أمره . ويعطاها إلى المدى الذى يمكنه أن يتحمله ، وبدون أن تهمله رحمة الرحمن أو تنساه . لأنها غالباً ما تهب مع الألم وسائل تخفيف قسوته فى حكمة بالغة يحار فى فهمها الحكماء . هى نفس الحكمة التى

(١) عن ماترلنك : المرجع السابق ص ١٧٧ — ١٨٠ .

أعطت الروح قدرة ذاتية هائلة على تحمل الألم مهما كان رهيباً ، كما أعطتها القدرة على الإحساس بفرحة الحياة وسط آلامها ومتاعبها ...

والألم مع ذلك ليس ملازماً محتوماً للشر أو للرذيلة ، وليس نتيجة محتومة لهما . فليس من يتألم أكثر من غيره شراً من غيره . بل كل إنسان يتألم آلاماً ظاهرة أو دفينة ، نفسية أو جسدية ، بحسب مرحلة التطور التى وصلت إليها النفس وقت الألم ، وبحسب نوع الألم الذى قد يلزم هذه المرحلة للانتقال إلى مرحلة أخرى أرق من سابقتها وأسمى ، حيثما وجدت النفس ، لأن قانون التطور يفعل فعله دواماً . ولا يتصور توقفه إلا إذا توقفت حياة النفس ، كقانون الجاذبية لا يتصور توقفه إلا إذا توقفت الحياة المادية . وهو — شأن كل قوانين الطبيعة — عاقل مفرط فى عقله وفى حكمته ، حتى عندما يوزع جرعات الألم لخدمة النفس كأنه طبيب ماهر يعرف كيف يوزع جرعات الدواء لخدمة الجسد .

وكقانون الجاذبية ، الألم أيضاً قانون موضوعى من قوانين الحياة التى تربط ربطاً دقيقاً بين المقدمات ونتائجها الطبيعية لخدمة دوام الحياة وتطورها ، منذ خلق الإنسان جنيناً فى بطن الطبيعة حتى يصل إلى نضج كاف فى العقل وفى الفضيلة . ومن ثم قد يتألم أفضل الناس وقد يقاسى من دهره كل صنوف الهوان والحرمان ، لمجرد أن فرص الارتقاء التى تعدها مرحلة التقدم التى وصل إليها تتجاوز تلك التى وصل إليها ذلك الذى قد يبدو ناعماً سعيداً ، على غير جوهر من فضل ولا من فضيلة .

ثم إن أولهما يملك مستقبل الأجيال والدهور ، أما ثانيهما فلا يملك سوى سكرة الساعات أو الشهور ، وله يوم وأيام من ألم مخبوء فى سفر الحياة التى لا تنتهى . ومن يملك السكرة لا يملك السعادة ، لأن سكرة الأشرار غير سعادة الأبرار واطمئنان نفوسهم فى سكينة واستقرار ، هذا الاطمئنان الذى لن يناله إنسان إلا عن استحقاق ، والذى يفضل بذاته كل ماديات

الأرض ، وما وسعت من نعيم زائف ، قد يخلب ألباب الحمق ، وقد يسعدهم فيه مالا يسعدهم فى هدوء البال وراحة الضمير .

وهذا الفهم لناموس الجدارة أو الاستحقاق يبعث فى نفس العاقل الثقة بأن ماديات الأرض لا تغنى فتيلا ، فهو على سفر عاجل إلى عالم آخر لا ينفعه فيه إلا ما كسب من اطمئنان وسكينة لأن « كل نفس بما كسبت رهينة » .

وهكذا يظهر كيف أن الطبيعة قد جمعت بين شاطئيها النقيضين معاً : الإفراط فى القسوة والإفراط فى الرحمة . وإذا كان الألم يمثل أولهما ، فإن الاستحقاق يمثل ثانيهما . وإذا كانت قسوة الطبيعة قد تصل أحياناً إلى حد اليأس منها ، فإن نور رحمتها هيهات أن ندركه ونحن فى ظــــلام قسوتها . لكن هذه هى بعينها سنة التطور والارتقاء ... ولن تجد لسنة الله تبديلا ... فالألم يمهد الارتقاء ، والارتقاء يفتح أبواب السعادة الواحد بعد الآخر . ولا يفتح باب إلا لمن تحمل وعثاء الطريق واجتاز صعابه حتى وصل إليه فاستحق أن يفتح له ...

ورسالة الموت هى أن يفتح باب الأبدية حتى يغمر نورها من قاسى من ظلام دنياه وظلمها ، فيتفيأ ظلال رحمتها من قاسى من آلام دنياه ، وما أفدح وطأتها ... وذلك إلى المدى الذى قد يصدق عليه قول سولون Solon مشرع الإغريق العظيم « لا يدعى إنسان سعيداً إلا عند موته » ... فمن يدرى ؟ لعل سولون أشار إلى حقيقة البقاء ، لا إلى خوف الفناء ... وإلى ما يعرفه الآن علماء الروحية من أن عوائق السعادة هنا للنفس الراقية تتجاوز كثيراً عوائقها هناك .

ولعل إلى هذا المعنى أيضاً أشار القائلون بأن الموت والحرية مرتبطان وثيق ارتباط ، وبأن قدرة الإنسان على الموت هى أعلى درجات الحرية ، وهو ما عبر عنه الشاعر الفيلسوف إنجلز Angelus Silesius عندما قال « إن الموت أحسن شىء فى الأشياء ، لأنه وحده يجعلنى حراً ... » .

فلم الحزن أو اليأس ؟ ... حتى لوعة الفراق علينا أن نتحملها بشجاعة... لأن أغلب آلام الحياة الدنيا ومآسيها أوجب للحزن منها وأدعى ... هذا لو وعى الناس حقيقة هذا الانتقال من حياة مقيدة إلى حياة حرة، ومن حياة دنيا إلى حياة عليا ... وحقيقة هذه الصلات التي لا تنقطع بين من انتقلوا، ومن هم في طريق الانتقال .

الموت . الألم . الاستهفاء . في رسائل بعض الأرواح

ولعل خير ما نختتم به الفصل الحالي عن « الموت والألم » هو هذه الفقرات من رسالة جميلة بعث بها من هناك بحاثة روحي يدعى ألفريد بنزيك A. Bénézech إلى وسيطة روحية فيها تلخيص لمعاني هذا الفصل يغني بذاته عن كل تعليق « إني أناديك مرة أخرى قائلا: ثقة : إنك تسيرين نحو النور الأسمى ونحو متع نقية عميقة متدفقة بما ليس بمقدورك أن تتخيليه . والويل للأشرار وللأذناب وللمرائين ، لأن مايسببونه من آلام سيتحملون مقابلها أضعافاً . فشجاعة وثقة ، إذ ماذا تعد آلام دنيا كم أيتها الابنة الطيبة بجانب نعيم هذه الدنيا ؟

لتعلمي جيداً أنه لا يستحق أي إنسان أجراً غير ذلك الذي يحصل عليه . فعيشي عادلة ولا تفكري في غدك كثيراً ، وإياك أن تطيلي الأنين من محن الحياة . كلا بل فليكن لديك من الشجاعة ما يجعلك تباركين هذه المحن . وإذا ما امتحنت فانهضي واقفة رغم الامتحان كيما تزدادين قوة وبهاء ، وقرباً من السعادة التي تنتظر الإنسان العادل عند دخوله القبر ، والتي تعجزون عن إدراكها في أرضكم .

القبر ؟ . . . كلا بل إنه باب الحياة الحقة التي تتفتح فيها زهرة الذات ، فارفعي رأسك وسيري قدماً لأنك تسيرين نحو الهدف الحق والأوحد ... أموت ؟ ... كلا بل إنه الحياة في أقوى وأروع ما يؤدي إليه اللفظ، ولكن لمن عرف كيف يجعل من حياته الأرضية أهلا لها . . .

... إنك قبل دخولك إلى عالمنا ستقتنعين بحقيقة الحياة بعد الموت . ولست أخدعك إذ أؤكد لك من جديد مالم أنقطع عن تأكيده طيلة حياتى من أن النصر للخير ، والرفعة للجهد المبذول. وإذا كان الوصول إليهما مؤلماً فى المعتاد ، ولعله شاق على الدوام ، فإن ذلك للجهد هو مصدر قوته ومبعث عصمته .

ودعى الضعفاء — الذين يجدون أن من الأيسر لهم أن يسلموا أنفسهم لغرائزهم وشهواتهم — يقولون ما يشاءون لقد كان بمقدورى أن أسميهم بالأقوياء بدلا من الضعفاء ، لكن كان بمقدورى أيضاً أن أضيف أن أقوياء الأرض سيصبحون هم ضعفاء الأثير .

فثقى فى كلامى وفى تأكيداتى المتوالية ، وواصلى حياة النقاء وتأدية الواجب ، فسينتظرك حينذاك النعيم الأسمى للجسد وللروح وللنفس ، النعيم الذى لا يمكن لأى شىء فى عالمكم أن يعطيك فكرة عنه . وعيشى فى هذا الأمل الحق راثية لحال أولئك الذين يقضون حياتهم كيفما اتفق ، ورغم كل اعتبار ، مطرحة جانباً اعتراضاتهم وشكوكهم .. وإنى لا أجد عبارات أعبر بها عن فكرى كما أتصوره »[1].

* * *

وفى نفس هذ الاتجاه أيضا تقول الروح جوليا A. Julia فى « دروسها من العالم الآخر » : « فى وسط الحياة نحن موتى » . إنى أريد أن أوضح الحقيقة الغريبة التى يتضمنها هذا القول ، لكن علينا أن ننظر إليه من زاوية تخالف تماماً تلك التى يفسر بها معناه غالباً . فنحن من هذا الجانب نرى الناس فى العالم المادى يسيرون فى ردائهم اللحمى وكأنهم موتى ، وجوهم من

---

(١) عن مؤلف للأستاذ شارل بيزيك المستشار الفخرى بمحاكم الاستئناف الفرنسية عنوانه « الحياة الأرضية وحياة ما بعد القبر La Vie Terrienne Et La Vie D'Outre Tombe » والمؤلف هو ابن صاحب هذه الرسالة ، وتلقاها منه فى جلساته العائلية .

كل جانب وبغير أن يشعروا توجد الحياة ، الحياة المشرقة تماماً آتية من الجانب الروحي .

إن العالم الأرضي ملىء برجال ونساء قتل الجوع أرواحهم وأنفسهم ، ومع ذلك فهم يحيون — كما يعتقدون — في الحياة . آه لو تعلمون أيها الأصدقاء الأعزاء ، أى موت هو هذه الحياة ! الموت لكل ما هو روحي . الموت هو المعنى الحقيقي لهذه الحياة ، والموت وسط روائع الحياة .

تأملوا هذه الكلمات « وسط الموت نحن نحيا » وفكروا فيها من جانب الحياة التي نحياها . تمثلوا في أذهانكم إشراق الألوان ، وأنغام الموسيقى الجميلة ، والمدينة العظمى البيضاء التي تبعث ضوءها إلى العالم باحثاً عن القلب الذي يمكنه أن يتقبله .

فكروا فيمن يعملون لأجل إله المحبة ، مشرقين جميعهم برغبة مساعدة الإنسان ورفعة شأنه ، وقدروا أليست هذه هي الحياة ؟ . فكروا في المنازل التعيسة التي لا تجاوب بينها وبين هذه الحياة ، لا المنازل الفقيرة بحسب المعنى المادى، بل المنازل وأحيانا القصور التي يسكنها الإنسان الدنيوى، والتي فيها يحاول الغنى المزعوم أن يحيا حياة غير خلقية سعياً وراء الملذات، ولكنها خالية من حقائق الروح . هذا هو الموت كما نراه . هذه هي المفارقة الأليمة في الحياة . ومع هاتين الصورتين وجهوا عقولكم نحو ضرورة تعليم هـــذه الحقيقة حيثما تذهبون قائلين « إننا في وسط الحياة نحن موتى » .

هنا العمل المتدفق لكل خادم يريد أن يخدم الله ، وكل ابن وضع في عقله هدف خير الإنسانية . ونحن مشوقون الآن أكثر من أى وقت مضى لأن نحرر عالمكم من الموت ، وقد كان لذلك صداه على كل مستوى من مستويات الفكر . وحين نجح هذا العمل في رفع الكثيرين من الاهتزازات المنخفضة وأطلعهم على الحياة ، فقد كان له أثر عكسى في الأرواح السيئة الفهم التي تحيا لا للإنسانية ولا لله ، بل لإشباع حاجيات الجسد .

علموا حيثما استطعتم أيها الأصدقاء الأعزاء أن الحصاد كثير ، أما الفعلة فقليلون . . .

إن سلام هذه الحياة يتجاوز مدى فهمكم إلى أن تحضروا وتختبروه بأنفسكم ، كما أن القلق المخيف « للموت فى الحياة الدنيا » يتجاوز أفهام من لا يلمسونه بأنفسهم . ولكن لكل هؤلاء يمكن أن يوجد السلام عند الوصول إلى هذه الحياة ينبغى أن تنبذوا حاجيات الجسد .. إن حاجيات الجسد لن تشبع أبداً ، وإنما التطلع إلى الروح هو الذى يرفع صاحبه من عالم الموت .

إذا ما عدتم إلى ممالك الروح بعد انقضاء الأجل المحتوم على الأرض ماذا سيكون إحساسكم ؟ وأين ستكونون قد شيدتم منازلكم ؟ إن ذلك يتوقف على الطريقة التى تكونون قد قهرتم بها عالم الموت ، وبها حققتم معنى الحياة ... إنى أترك هذه الأفكار لأولئك من بينكم الذين يقومون بالتعليم ، والذين يرغبون فى التقدم ، والذين يشعرون بالحاجة الملحة لتعلم الحياة الحقة »(١) .

ثم تستطرد جوليا — فى الفصل التالى — قائلة : « الحياة فى الموت والموت فى الحياة ، هذا هو ما نحن بصدد التفكير فيه . والآن فلنقدم مساعدة عملية ، وإنى أريد منكم أن تتابعونى عندما نبحث كيف نتابع الحياة بكل مغزاها خلال سدود الموت كيما نعدم الموت ونجعل الحياة ظافرة ، ليس على جانبنا فحسب ، بل على مستواكم الأرضى أيضاً .

---

(١) Lessons From The Beyond ص١١١ — ١١٤ .

وهذه الدروس أملتهـا جوليا فى سنة ١٩٢٧ على وسيطة تدعى كوريللى جرين Corelli Green إذ أن وسيطها السابق وهو سير و . ت . ستيد كان قد انتقل إلى عالم الروح منذ سنة ١٩١٢ ، وأخذ يعمل من هناك كروح مرشد لدائرته التى أعيد افتتاحها منذ سنة ١٩١٤ تحت اسم W. T. Stead Borderland And Library ومقرها ٥ ميدان سميث بلندن .Smith Square, 5

ولا يمكنني في الوقت الحاضر أن أحدثكم عن الحالة الدنيا للحياة التي هي أسوأ من الموت ، بل أسألكم الآن أن تدرسوا الحياة من ممالكنا العليا ، وأن تدعوا اهتزازاتكم الخاصة تستجيب إلينا عن طريق الانتصار على الموت في عالمكم .

وإني أتحدث عن «مستويات» جانبكم لأنه توجد درجات متعددة من النشاط العقلي عندكم ، إلى حد أنه يوجد فعلا عدد وافر من المستويات التي نسميها — بغير تمييز فيما بينها — الكوكب الأرضي . فهل بمقدوركم أن تلاحظوا الدرجات الكثيرة المتنوعة من الحالات العقلية والروحية ، وتفكرون في كل درجة منها بوصفها تمثل مستوى على حدة ؟ نعم إن لديكم عدداً وافراً من المستويات على الأرض . وبعضها أسمى من المستويات الكركبية الأولى ، كما أن بعضها الآخر أدنى منها .

وفي ظروفكم الحالية يمكنكم أيها الأصدقاء الأعزاء أن تشاهدوا الموت في حياتكم . ولكن ما علينا أن نضعه في الاعتبار هو إمكان إلغاء الموت على مستوياتكم ، وينبغي النظر إلى الموضوع من زاويتين : زاوية موت الجسد ، وزاوية موت النفس ، أو المظهر الخارجي للروح . وإلى أن يتحقق الإنسان من فاقة تطور العقل وتعاسته ، فلا يمكننا أن نتوقع أن نعالج هذه الحالة من ضربة الفاقة ، وبالتالي أن نلغي موت الروح الذي يجيء عن الظروف المظلمة لها . وهذه الدروس ينبغي أن تدرس ، ويمكن للجميع أن يدرسونها ، وإني أعلم أن أولئك الذين يمكنهم قبول كلماتي مع إمعان النظر فيها يتعلمون أكثر مما يمكن للكلمات أن تعطيه .. »[1] .

---

(١) المرجع السابق ص ١١٥ ، ١١٦ .

الباب الخامس

فى الروح
بين العلم والاعتقاد

تمهيد

تقوم كافة العقائد على أمور مشتركة كثيرة ، منها الإيمان بأن الروح غير الجسد وأنها لا تفنى بفنائه . وبوجود عالم أو عوالم أخرى غير العالم المادى تحيا فيها الأرواح بعد « الموت » . فهى تلتقى كلها عند أخطر حقيقة يقوم عليها علم الروح الحديث ، وهى التسليم بدوام الحياة بعد موت الجسد، وبوجود عالم آخر خير وأبقى من عالم الشهادة ، وتحتوى كلها على اتجاهات روحية مشتركة واضحة فى هذا المعنى .

كما تلتقى كافة العقائد عند جوهر الفضائل كالمحبة والرحمة والمغفرة والعفو عند المقدرة والإيمان والتقوى والصدق والأمانة والقناعة والشجاعة والإخلاص والإحساس بالمسئولية وأداء الواجب والاستقامة والاعتدال ... وكلها تنبع كما قلنا من مصدر واحد وهو إنكار الذات ، وتسلم بأن أضداد هذه الفضائل رذائل يجمل بالعاقل تجنبها . وتلتقى أيضاً عند التسليم بأن لكل فضيلة ثوابها ولكل رذيلة عقابها .

وحتى فى النواحى اللاهوتية الصرف تلتقى العقائد الكبرى المعاصرة فى كليات كثيرة . منها التسليم بوجود خالق واحد لهذا الكون ، وبصفاته غير المحدودة من القدرة والعدالة والجلالة والرحمة والمغفرة والحكمة وبهيمنته على نواميس الحياة ، وبأزليته ، وبوجوب الصلاة أو الضراعة والصوم ، وبوجود أنبياء كثيرين ورسل وملائكة ، وبالمعجزات فى صور شتى .

أما بالنسبة للجزئيات فإنها قد تختلف اختلافاً طبيعياً بين عقيدة وأخرى ، وبين مذهب وآخر ، بل وبين إنسان وآخر من نفس المذهب والعقيدة ،

لأن لكل واحد طريقته الخاصة فى فهم عقيدته ، والتى تناسب تكوينه العقلى والخلقى والروحى . وقد يكون الإنسان راقياً من هذه النواحى الثلاث بغير تعمق فى أمور عقيدته . أو بسبب تعمقه فيها . لكن الفضيلة الحقة هى التى تربط فى النهاية برباط لا ينفصم من الفهم المتبادل والولاء الوثيق بين الأشخاص الذين قد ينتمون إلى عقائد شتى ، على النحو الذى عبر عنه الفيلسوف رالف إمرسون R. Emerson (١٨٠٣—١٨٨٢) عندما قال «إن الرجال الأفاضل من كل دين يدينون بدين واحد» .

وأى إنسان يبحث فى العلم الروحى الحديث — ولو قليلا — يجد نفسه إزاء حقيقة كونية قد ثبتت تماماً — بقدر ثبوت الحياة بعد الموت — وهى أنه لا يوجد أى فارق يفرق أمام نواميس الطبيعة بين البشر بسبب العقيدة أياً كانت ، وذلك لأن عدالة الله اقتضت أن تكون محبته فوق المذاهب وطرق العبادة، وأن تكون نعمته جزءاً من الميراث الإلهى المقدس الشائع يتقاسمه البشر على حد سواء . وهذا هو جوهر البحث الحديث فى الروح ولب لباب ما وصل إليه من نتيجة بعد بحوث قرن وربع من الزمان ، وذلك فى شتى البيئات التى أخذت على عاتقها أمانة إجراء هذا النوع من البحث بطريقة علمية محايدة .

فلم يعد الأمر إذاً محض اجتهاد ، أو محض رأى فلسفى لباحث دون آخر ، بل أصبح حقيقة مقررة كأية حقيقة أخرى ، وعلى نفس المستوى . وهى حقيقة بسيطة ورائعة ، لو وعاها الناس جيداً لكانت كفيلة بأن تبدد من ضمائرهم قرينة ظالمة طالما وجهت تصرفاتهم نحو الخطأ ، وطالما أوغرت الصدور ، ودفعت العقول المظلمة — ولا تزال تدفعها — إلى أن تتصرف بغرائز الغابة وهى تحسب أنها تتصرف بضمير القاضى وحكمة صاحب السلطان الحكيم ! . . . بل طالما أشعلت نيران الحروب فى عصور ماضية لغير سبب قائم ولا هدف يرجى إلا إشباع نزعة التسلط فى الإنسان — تحت ستار العقيدة — ويا لها من نزعة .

وهذه الحقيقة الكونية الكبرى فى مساواة الناس أمام نواميس الطبيعة لها محور فلسفى فى غاية البساطة وهو أنه لو تواضع الإنسان قليلا ، وبحث بروح علمية محايدة ، لتبين له على الفور أن الحقيقة المطلقة ليست ملكا لأى من الناس ، بل ملك لجميع الأجناس . وهذه النسبية فى معارف أى إنسان وإدراكه الأمور تعد الآن حقيقة رياضية ، قبل أن تكون فلسفة نظرية . ولعل هذه النسبية هى التى قصدها ابن الهيثم (توفى سنة ٤٤٠هـ) بقوله بأنه «وثق «بأن الحق واحد ، وأن الاختلاف فيه إنما هو من جهة السلوك إليه»[1] . لذا كان الطابع المميز للبحث الروحى الراقى هو تناوله المصير الإنسانى بأفق واسع وصدر رحب يتسع فى محبة حقيقية لجميع العقائد ومعتقديها ، بما لا يكاد يجد له الإنسان نداً فى أى مجال آخر .

فلو أن أولئك الذين تعودوا — بغير ما بحث ولا تجريب — على توجيه سهام النقد المغرضة الطائشة إلى الروحيين ، وإلى الروحية فى كشوفها وفلسفتها ومبادئها الإنسانية، وجهوا عشر معشار هذا النقد إلى ما قد يعتمل فى أذهانهم من خواطر لجة كثيرة عن الحياة والموت ، والثواب والعقاب ، وعن الإنسان من ناحية صلته بالله وبأخيه الإنسان ، لما تبقى فى أذهانهم بعد شيء يستحق الاستمساك به والذود عنه بكل هذا الحماس ، ولشعروا هم أنفسهم أنهم بحاجة إلى تفهم هذا الموضوع الخطير ، بدلا من المكابرة فيه بغير معرفة، ولغير غاية مشروعة .

وفى هذا الصدد يرد الأستاذ جيمس آرثر فندلاى — مدير المعهد الدولى للبحث الروحى — على المعترضين بما رد به باستير Pasteur فى رده على أولئك الذين أنكروا كشفه الخطير لدنيا الميكروبات لأسباب دينية عندما قال لهم «ليست المسألة فى هذا كله مسألة دين أو فلسفة أو إلحاد أو مادية أو روحية ، وإنما هى بأسرها مسألة أمر واقع» .

ثم يضيف فندلاى قائلا «والحقائق ماثلة موجودة لا يغيرها أن يرفض البعض مواجهتها . وإذا كان أى فرد قد كون لنفسه نظاماً من الاعتقاد

(١) فى كتابه «مقالة فيما صنعه وصنفه من علوم الأوائل» .

يتعارض مع هذه الحقائق فالواجب أن يتغير عنده هذا النظام حتى يلائم هذه الحقائق ، وذلك لأن الحقائق لا يمكن أن تتغير لكي تلائم نظاماً خاصاً من نظم الاعتقاد والإيمان . وفي اعتقادي أن العلم والدين لابد متحدان إذا قبلا هذه الحقائق ، فيخطو بنو الإنسان إلى الأمام خطوة واسعة من حيث النمو العقلي،وعلى قدرها ستشتد أواصر الإنسانية وترتبط برباط من الإخاء المنسق المنظوم ... »[1] .

ولا ريب أن اتصال هذا النوع من البحث ببعض جوانب الاعتقاد كان من أقوى العوامل التي أثارت في وجهه غباراً — عند بعض المتزمتين والحرفيين — ولا تزال تثيره . حتى لقد جاء وقت حاول فيه بعض الهيئات أن يفرض عليه نوعاً من الوصاية التي كان يفرض مثلها فيما مضى على بعض أنواع المعرفة.فكانت وصاية للجهالة على العرفان ، بل وصاية لغرور التزمت على تواضع الإيمان... فما بالك ببحث يتناول أسرار الانتقال إلى العالم الآخر، وطبيعة الحياة فيه ، والصلات بين العالمين ... وهذه كلها نواح طالما خاض فيها شراح النصوص بطريقة المحيط بكل شيء العالم بأسرار الكون وبجميع خفاياه . فلما جاءت بحوث علم الروح كيما تؤرق بعض الرواسب الغبية في نومها العميق كثر المعترضون والمقاومون بغير بحث ولا اطلاع ، ولكن في عنف وشراسة . فأيهما أولى بالاتباع أسلوب العلم أم أسلوب الاعتقاد ؟

للإجابة على هذا التساؤل الهام نجد أنفسنا إزاء نفس المشكلة القديمة ، وهي مشكلة كيفية التوفيق بين العلم والاعتقاد ، والتي يحسن أن نعالجها في الباب الحالي إجمالا من زاوية الصلة بين علم الروح الحديث وبين العقيدة باعتبارها فرعاً من أصل وجزءاً من كل . وذلك في فصلين : —

الفصل الأول عنوانه : «البحث الروحي الحديث علم لا اعتقاد» .

والفصل الثاني عن : «دوره في توضيح بعض جوانب الاعتقاد» .

---

(١) « على حافة العالم الأثيري » الترجمة العربية للمرحوم الأستاذ أحمد فهمي أبو الخير طبعة ٣ ص ١٤٠ .

الفصل الأول

البحث الروحي الحديث

علم لا اعتقاد

البحث الروحي الحديث هو سبيل من سبل المعرفة ببعض قوانين الحياة . فهو علم وليس عقيدة ، لأن أسسه كلها مستمدة من محض تجارب معملية تقبل بطبيعتها الخضوع لأساليب النقاش العلمي للحكم لها أو عليها ، للخروج منها بدلالة أو بأخرى . وقد عبر عن ذلك النائب البريطاني جورج روجرز G. Rogers في خطاب بجمعية ماريلبون الروحية قائلا « ليس من حقنا أن نصف أنفسنا بأننا أصحاب دين قائم بذاته . ذلك لأن معظم الديانات الكبرى بدأت بظهور معلمين لها يرسمون للناس سبل الحياة . ولكننا لا نكاد نرى شيئاً من ذلك في الروحية . فليست لنا فلسفة جديدة ، وكل ما عندنا هو حركة كشف القناع عن براهين جديدة لتلك الحقائق التي ثبتت قديماً . فالروحية على ذلك امتداد لمعرفتنا بالله »[1] .

هذا من جانب ، ومن جانب ثانٍ فإن كافة العقائد تقوم على الإيمان بأمور شتى ، أما البحث الروحي فلا يعرف « إيماناً » مفروضاً بأي أمر من الأمور . ومن جانب ثالث فإن معنى الانضمام إلى عقيدة معينة هو قبول عدد كبير من نظرياتها ومن شعائرها وطقوسها ، والارتباط مقدماً بما قد تقتضيه ، أما البحث الروحي فلا يعرف شيئاً من هذا القبيل فهو محض بحث علمي ، حتى وإن أصبح عند بعض الناس أساساً لأسلوب أو آخر من أساليب الحياة القائمة على الاقتناع بثبوت الحياة بعد الموت ، وبإمكان الاتصال بأرواح تقطن عالماً غير عالم المادة .

---

(١) مجلة « عالم الروح » عدد ابريل سنة ١٩٥٣ ص ٩ عن مجلة السايكك نيوز .

موضعه من العلوم الأخرى

ومن ناحية موضعه بين العلوم الأخرى ، وصلاته بها ، يتعذر اعتبار علم الروح الحديث فرعاً من علم معين دون غيره ، وإن كان وثيق صلة بعدد منها ، وهو ما يدعو إلى اعتباره علماً قائماً بذاته له كل خصائص الذاتية ، مهما تعددت صلاته بهذه العلوم الأخرى : —

— فهو مثلا ذو وثيق صلة — ابتداء — بالفيزياء من عدة نواح مثل اتصاله بنظرية الاهتزاز vibrational system والأمواج والأثير، وبنظرية النسبية ، وبحقائق الطاقة والمادة وبمعنى الزمان والمكان . وذلك بالإضافة إلى صلته بالمجالات المغناطيسية والكهربائية الاستاتيكية على الأحياء بوجه عام والوسطاء بوجه خاص .

— كما هو ذو صلة بالسيكولوجيا ، وبفرع البارا سيكولوجي بوجه خاص ، بل لقد بينا كيف أن هذا الفرع يعد الآن الوسيلة العلمية لدراسة كافة الظواهر الوساطية ومن ضمن ظواهر الباراسيكولوجي هذه التلباثى (التخاطر) ، والاستشفاف ، والتجسد، والسيكومترى[1]، والطرح الروحى والتنبؤ بالمستقبل ، والغيبوبة الوساطية .. فضلا عن اتصاله بموضوعات التنويم المغناطيسى ، وبنظريات العقل والتحليل النفسى والعلاج الإيحائى .

— وهو ذو صلة بالفسيولوجيا (علم وظائف الأعضاء) من ناحية انبعاث مادة الاكتوبلازم وعودتها وطبيعتها . والظواهر الفيزيقية وما يتصل بها من تجسدات جزئية أو كلية ، والتغيرات التى لوحظ أنها تلحق أجسام الوسطاء أثناء الجلسات فى شأن النبض والتنفس ودرجة الحرارة ... بالإضافة إلى دراسة كوامن البشرة الكهربائية skin potentials وغيرها .

---

(١) ظاهرة يطلق عليها بالانكليزية كلمة Psychometry وهى تقصى أثر الانسان فى الزمان والمكان . وقد فضل شارل ريشيه أن يستعمل بدلا من هذا الوصف وصفاً آخر وهو بالفرنسية La cryptesthésie (راجع ما سبق فى الجزء الأول ص ٣٤٣) .

- وهو بالإضافة إلى ذلك ذو صلة بعلم الأحياء «البيولوجيا» إلى حد أن بعض العلماء يعتبره من صميم موضوعاتها لأن الروح من خصائص الأحياء دون غيرها، وبخاصة وثيق صلة بالمجالات الحية الذاتية living autonomous fields التي تعين بطبيعتها الفطرية تكوين الكائنات الحية ووظائفها. والتي يرى بعض العلماء — مثل الدكتور جوستاف سترومبرج Gustaf Stromberg بمرصد ويلسون بكاليفورنيا — أن دراستها تصل مباشرة إلى إقرار الرأى القائل بخلود نفس الإنسان عن طريق عدم فناء وعيه.

ولعل أقوى رابطة تربط بين علوم السيكولوجيا والفسيولوجيا والبيولوجيا فى نطاق هذا العلم هى دراسة الجسد الأثيرى أو اللا مادى للإنسان. ذلك أن الجسد اللامادى هذا هو الذى يحمل عقل الإنسان الذى اصطلح العلماء على تسميته بالواعى وهو يعمل عن طريق المخ، ومن ورائه الآخر — الاكثر منه اتساعاً وشمولا والأصعب منه فى فهمه ودراسته — وهو الفوق الواعى الذى يعمل عن غير طريق المخ، والذى يمثل من الشجرة جذورها الدفينة التى تستمد منها الحياة، وهو الذى يوجه مشاعر الإنسان وعواطفه وغرائزه ويتحكم فيها. وهو من هذه الزاوية يتبع النفس بمفهومه التقليدى.

وفى نفس الوقت نجد أن هذا الجسد اللامادى هو الذى يتحكم فى وظائف الأعضاء وإفرازات الغدد الصماء وغير الصماء، ودورة الدم وحركة التنفس، وهو من هذه الزاوية يتبع علم الفسيولوجيا أو علم وظائف الأعضاء.

وهو الذى يهب الحياة للجسد المادى ويمسك بذراته بما فيها من كهارب سالبة وموجبة، ويوجهها نحو النمو فالشيخوخة منذ أن يكون الإنسان جنيناً فى بطن أمه، إلى أن يصبح بانفصاله عن الجسد المادى جنيناً لحياة جديدة فى بطن الطبيعة، وهو من هذه الزاوية يتبع البيولوجيا أو علم الأحياء[1].

ومثل هذا القول يصدق أيضاً على دراسة الصلة بين المخ والعقل — حينما

---

(١) راجع ما سبق فى الجزء الأول ص ٤٢٧ — ٤٥٥.

تتصل وحيناً تنفصل انفصالا تاماً أو جزئياً — فهو موضوع مشترك بين السيكولوجيا والفسيولوجيا والبيولوجيا ، وفى نفس الوقت يمثل مفتاحاً من أهم المفاتيح التى أدت إلى اقتناع عدد من العلماء بحقيقة الروح وعالم الروح عن طريق الاقتناع بعدم الارتباط المحتوم بين المخ والعقل ، وبالتالى بين المخ والحياة نفسها . وكذلك عـــدم الارتباط المحتوم بين الإحساس وأعضاء الإحساس [1] .

فالدراسات الموضوعية المحايدة فى هذه الموضوعات العويصة لعبت — مع دراسة الظواهر الوساطية — الدور الأكبر فى إقامة دعائم هذا العلم الوليد على أسس علمية واضحة تقبلتها أذهان الباحثين والعلماء للصلات المتعددة بينها وبين حقائق العلوم الأخرى .

— وهو ذو صلات شتى بالفلك (من ناحية الفضاء الكونى واحتمال تعدد العوالم المادية) وغيرها . . . . وبالطب (من ناحية العلاج الروحى) وبالكيمياء (من ناحية بعض التحاليل) ، بالإضافة إلى أن تحقيق قيمة بعض الرسائل الروحية كثيراً ما يتطلب إلماماً خاصاً بالأدب أو التاريخ أو اللغات المختلفة أو غيرها بحسب الأحوال .

— وهو أيضاً ذو صلة وطيدة بعلم الأخلاق Ethics من ناحية اتصاله بالقوانين الخلقية المختلفة بما فى ذلك تحديد ماهيتها وآثارها .

— وهو ذو صلة بعلم « العقائد المقارنة » من ناحية دراسة الثواب والعقاب والخلود . وكافة ما يتصل فيها بموضوع الروح .

— وهو ذو صلة بعلم ما وراء الطبيعة وبفلسفاته .

ومن مجموع هذه الصلات يتضح تماماً كيف أن البحوث الروحية متى جرت على نمط علمى منظم كان لها كل خصائص العلم القائم بذاته ، لأن صلة هذه الموضوعات بعضها بالبعض الآخر تنظمها رابطة مشتركة ، أو بالأدق نظرية روحية واحدة . وهذا هو الاعتبار الذى دفع بعض كبرى الجامعات

---

(١) راجع ما سبق فى الجزء الأول ص ٣٥٢ — ٣٥٦ .

فى العالم إلى إنشاء كراسى أستاذية للبحث فى جل فروع هذا العلم، ومنها جامعات عريقة تعودت أن تأخذ الأمور الجدية مأخذاً جدياً .

كما دفعها إلى إنشاء معامل معدة أحسن إعداد لتحقيق الظواهر الوساطية وتسجيلها متى حدثت ، وقد يشترك فى بحثها إلى جانب العالم الروحى عدد من الاخصائيين — يتفاوت نوعاً ومقداراً بحسب نوع هذه الظواهر — منهم الفسيولوجى والسيكولوجى والطبيب والكيميائى وأخصائى الرسومات الدماغية وخبير فى التصوير بالأشعتين فوق البنفسجية ودون الحمراء ، وأحياناً خبير فى الأرصاد من أصحاب الخبرة الخاصة فى هذه الموضوعات .

فإذا ما اجتمع العدد المطلوب منهم واصلوا البحث لسنين كافية قبل تكوين الرأى فى نتائج بحثهم « فمن الخطورة تطبيق نظرية الاحتمالات أثناء فحص عمليه مجهولة ذات عوامل متعددة يزيد بعضها أو يقل من تأثير معين ، ولا يجوز الاستنتاج إلا ببقاء النسب ثابتة بين تلك العوامل المختلفة أثناء التجارب الكثيرة .

ولنضرب مثلا بشخص أو وسيط قادر على استعراض ظاهرة معينة لمدة أسبوع فى السنة نتيجة توفر عاملها الخاص المطلوب فإننا لو أجرينا التجارب يومياً (دون معرفة هذه الحقيقة) سنحصل على نتائج إيجابية فى ٧ أيام فقط من ٣٦٥ يوما أى بنسبة نحو ٢ ٪ . فإذا ماحدثت هذه الظاهرة فى نفس الأسبوع من كل عام ، فإننا بعد سنوات من التجارب سنقبل هذه الظاهرة كحقيقة واقعة ١٠٠ ٪ ، ولكن لو تغيرت هذه الفترة بدون نظام لعوامل خارجية مختلفة فإننا بلا شك سننكر هذه الظاهرة على أساس نظرية الاحتمالات ... » [١] .

---

(١) راجع مقالا فى هذا الموضوع عنوانه « البحث الروحى » للأستاذ محمد حسن السكرى فى مجلة « عالم الروح » عدد مايو سنة ١٩٥٣ ص ٩ — ١٧ وهو يحيل القارى إلى
Harry Price : Fifty Years Of Psychical Research.
وإلى S. W. Tromp : Psychical Physics

تبويب

ولولا الارتباط الوثيق بين موضوعات علم الروح الحديث وبعض العلوم الأخرى — وبخاصة علوم المادة — لما وجد هذا العلم الناشيء من الفلاسفة أو من العلماء — الذين يصدق عليهم هذا الوصف — من يقبل أن يواصل بحثه لسنوات طوال ثم يسلم بصحته وينصب نفسه مدافعاً عن وسائله ونتائجها،مع أنهم يمثلون أعلاماً فى علوم شتى .

فكل واحد من هؤلاء يمثل فى ناحيته مستوى خاصاً من العمق والاطلاع لا يدانيه فيه كثيرون. وأى واحد منهم لم يكن عنده أى استعداد للاقتناع الروحى إذا لم يعرف أولا كيف يوفق توفيقاً تاماً بين هذه الحقائق الكونية الخطيرة التى تكشف عنها هذا العلم ، وبين معلوماته الخاصة فى فرع تخصصه . وبيان ذلك يقتضينا وقفة قصيرة عند كل منهم لتوضيح هذه الحقيقة الهامة فى مغزاها فى جانب علم الروح .

وسنتناول ذلك فى مباحث ثلاثة على النحو الآتى : —

المبحث الأول : فى موقف بعض الفلاسفة : وسنختار طائفة من آراء وأقوال هنرى برجسون، ووليام جيمس ، وكامى فلاماريون .

المبحث الثانى : فى موقف بعض علماء المادة : وسنختار طائفة من أقوال وآراء سير أوليفر لودج ، وسير وليام باريت ، وآرثر كومبتون ، وسير ألفرد راسل والاس .

المبحث الثالث : فى موقف بعض علماء النفس وما وراء النفس : وسنختار طائفة من آراء وأقوال جوستاف جيلى ، وهانز دريش ، وبروض ، وشارل ريشيه .

وكل هؤلاء فلاسفة كبار ، وعلماء جادون ، وبحاث مادة ونفس ، من أعلى طراز عرفته الإنسانية فى مجالات الفلسفة والتفكير العلمى المترابط العميق .

المبحث الأول

موقف بعض الفلاسفة

من علم الروح الحديث

موقف برجسون

يعد هنرى برجسون H.Bergson (١٨٥٩ — ١٩٤١) — بغير ريب — أعظم فلاسفة هذا القرن، وأعظم فيلسوف فرنسى منذ ديكارت Descartes ، وقد بحث الظواهر الوساطية فى باريس على عدد من الوسطاء ، وفى لندن عندما اختير فى سنة ١٩١٣ رئيساً « لجمعية البحث الروحى » S.P.R. وهى أكاديمية كبرى للبحث المتحرر على نطاق دولى ، لأنها تنتظم لفيفاً من كبار العلماء التابعين لدول مختلفة [١] .

ومن الجلى أن مثـــل برجسون لا يقبل لفلسفته أن تدافع عن نتائج هذه البحوث — على خطورتها البالغة — مالم يقتنع تماماً بصحتها ، ومالم يوائم تماماً بينها وبين آرائه السيكولوجية والفلسفية الكثيرة العميقة عن النفس والعقل .

وقد بينا كيف أنه راح يعلن بشكل حزم « أنى أريد أن أكشف وراء اعتراضات البعض وسخريات البعض الآخر عن وجود فلسفة مستترة غير واعية لذاتها ، غير واعية وبالتالى متقلبة ، غير واعية وبالتالى عاجزة عن أن تتكيف باستمرار مع الملاحظة والتجربة كما يخلق بالفلسفة الجديرة بهذا الاسم . وأريد أن أبين من جهة أخرى أن سبب هذه الفلسفة هو العادة

(١) راجع ما سبق فى شأنها فى الجزء الأول ص ١٩٦ — ٢٠٧ .

التى تعودها الفكر الإنسانى منذ زمن طويل ، وأن ذلك هو السبب فى بقائها وانتشارها بين الناس » . وراح بعدئذ يزيح النقاب عن هذه الأفكار المادية المعترضة على البحوث الروحية والساخرة منها ، ويقابلها وجهاً لوجه ويتبين مالها من قيمة ... » على حد تعبيره [١] .

وأعظم من ذلك فى الدلالة على قيمة رأى برجسون فى هذه البحوث أنه أخذ يوفق كما قلنا بين نتائجها وبين فلسفته ، أو بالأدق أخذ يشيد عليها فلسفة روحية عظمى . فنجده مثلا فى « رسالة فى المعطيات المباشرة للشعور [٢] » ينكر قيمة المعرفة المادية وحدها فى استكناه أسرار الحياة « فلا بد لنا من معرفة أخرى تمكننا من هذا الفهم ، وتلك هى المعرفة الحدسية . ونحن بالحدس intuition ندرك المطلق ونفهم الحياة فى أعمق معنى لها .

« فنحن هنا إزاء إحساس بالنفس وهى تنبض بالحياة . إننا نتتبع النفس فى تموجات حركتها وتدفق حالتها . نحن هنا أمام نمط من التجربة المباشرة له صبغة كلية شاملة للوجدان فيها الغلبة للعقل . إن كل من يتأمل نفسه متحرراً من التحليل مستغنياً عن وسائل العلم المألوفة يمكنه أن ينطلق إلى الوجود المطلق الذى نجده فى أنفسنا كما نجده فى جميع الأشياء . والحدس ليس بمثابة امتلاك المرء لوجدانه فحسب prise de conscience وإنما هو أيضاً تعاطف عقلى sympathie intellectuelle يفتح لنا مغاليق الموجودات الأخرى مثلما يكشف لنا عن مكنون نفوسنا» [٣] .

ويرى برجسون فى شأن «التطور الخالق [٤]» أن المبادىء الآلية التى

---

(١) راجع ما سبق فى الجزء الأول ص ٢٠٠ — ٢٠٤ .

(٢) Essai Sur Les Données Immédiates De La Conscience

(٣) عن « المعرفة » للدكتور محمد فتحى الشنيطى طبعة ٣ سنة ١٩٦٢ ص ١٩٤ .

(٤) L'Évolution Créatrice.

يقابلها الإنسان عند لامارك وداروين وسبنسر تعجز عجزاً تاماً عن تفسير


برجسون

التطور فى العالم لأن همّ هؤلاء قد انحصر فى بحث المادة وحدها فلم ينفذوا إلى جوهر التطور ، الذى هو فى رأيه عبارة عن وثبة حية Elan Vital أشبه ما تكون بانطلاق الحياة وتدفقها « وليس التطور إذن وليد الصدفة ولا ثمرة الآلية، وليس التطور نابعاً من وراء خصائص يكتسبها الكائن أصلا بالعادة. وإنما التطور يتم دفعة واحدة على قفزات مباغتة sauts brusques . التطور ينجم من الباطن ولا يأتى من الخارج . ينجم عن هذه الدفعة الباطنية التى تولد كل جديد وتبتدع كل طريف. فالعقل فى نظر برجسون ليس غريزة مصقولة مستكملة ، وليست الغريزة بقية موروثة من عادات الجنس البشرى ركزت فى الأفراد على مر الأجيال . لأن الإنسان والحيوان لا يقفان على خط واحد فى التطور ... فالطبيعة شاءت أن تجعل الإنسان كائناً مبتكراً مبدعاً فزودته بعقل قادر على كل شىء صالح لكل شىء . إلا أن الإنسان كثيراً ما يتعثر فى مجالات التجربة وكثيراً ما يقع فى الخطأ . وبين الغريزة الحيوانية والعقل الإنسانى فارق طبيعى، بالرغم مما نلاحظه هنالك من ظل عقلى يحوط الغريزة وظل غريزى يكتنف العقل .. »(١) .

والحاسة الدينية عند برجسون هى الإلهام أو الكشف الذى يصل بين الملهم وبين هذه الوثبة الحية أو دفعة الحياة . . . وهى تظهر على أوضحها

---

(١) عن الدكتور الشيطى المرجع السابق ص ١٩٩ — ٢٠١ .

فى بديهة النخبة المختارة من كبار العباقرة الروحانيين ... وإذا كانت للخليقة قوة كونية تظهر لبعض كبار الملهمين ، فلمَ إذا تكون هذه الحاسة الدينية وهماً مصطنعاً أو خرافة ؟ ولا تكون من قبيل الشعور البديهى بتلك القوة الكونية . أو من قبيل الاهتداء التدريجى فى طريق البحث الصحيح عن هذه الحقيقة المجهولة ؟ . . .

كما يقول برجسون فى «التطور الخالق» «من الواجب أن تقتنص الفلسفة هذه الضروب الشاردة من الحدس والتى لا تضىء إلا على مسافات بعيدة ، لكى تدعمها أولا ، ثم لكى تمد فى أجلها وتوفق تبعاً لذلك فيما بينها . وكلما تقدمت الفلسفة فى هذا العمل أدركت أن الحدس هو الروح نفسها ، وأنه الحياة نفسها بمعنى عام ، أما العقل فإنه يقتطع من هذه الروح بعملية تحاكى العملية التى أدت إلى نشأة المادة . وهكذا تظهر وحدة الحياة العقلية ، فلا يمكن التعرف على هذه الحياة إلا إذا نظرنا إليها من وجهة نظر الحدس لكى ننتقل منه إلى العقل ، ذلك لأنه لا يمكن أن ننتقل أبداً من العقل إلى الحدس» .

وعلى هذا النحو تقودنا الفلسفة إلى الحيـاة الروحية ، وهى تكشف لنا فى الوقت نفسه عن الصلة بين حياة الروح وحياة الجسد . إن الخطأ الكبير الذى وقعت فيه المذاهب الروحية إنما يرجع إلى أنها كانت تعتقد أنها إذا فصلت الحياة الروحية عن كل ما عداها ، وإذا ما علقتها فى أعلى درجة ممكنة من الفضاء فوق الأرض فإنها تجعلها بمأمن من كل اعتداء ، متناسية أنها تنتهى بكل بساطة إلى جعل تلك الحياة تبدو فى نظر المرء بمظهر السراب !

نعم ، لقد كانت هذه المذاهب على حق فى استماعها إلى الشعور عندما كان الشعور يؤكد الحرية الإنسانية ، لكن العقل ما زال موجوداً هنا ليقول إن السبب يحدد نتيجته ، وإن المثل شرط فى وجود المثل ، وإن كل شىء معاد ، وإن كل شىء موجود من قبل . وقد كانت هذه المذاهب على

حق عندما آمنت بوجود شخصية فردية مطلقة ، وباستقلال الفرد تجاه المـادة ، لـكن العلم ماثل هنا ليبين لنا التضامن بين الحياة الشعورية والحياة العصبية .

وقد كانت هذه المذاهب على حق عندما نسبت إلى الإنسان مكاناً ممتازاً فى الطبيعة ، وقالت بأن المسافة التى تفصل الإنسان عن الحيوان مسافة لا نهاية لها ، غير أن تاريخ الحياة يأتى هنا ليعرض علينا نشأة الأنواع بطريق التحول التدريجى ، ويبدو أنه يدمج الإنسان بهذه الطريقة فى السلسلة الحيوانية .

وإذا نادت إحدى الغرائز القوية بإمكان خلود النفس كانت تلك المذاهب الروحية على حق عندما لم تصم آذانها عن سماع صوت هذه الغريزة . ولكن إذا وجدت نفوس تستطيع البقاء فى حياة مستقلة فمن أين جاءت ؟ ومتى وكيف ؟ ولمـاذا تتطرق إلى هذا الجسم الذى نراه تحت أعيننا ، والذى يصدر بطريقة طبيعية جداً من خلية مشتركة انحدرت من جسم والديه ؟

إن جميع هذه الأسئلة ستظل معلقة دون جواب وستكون فلسفة الحدس إنكاراً للعلم ، وسوف يكتسحها العلم فى طريقه إن عاجلا وإن آجلا إذا هى لم تعقد العزم على النظر إلى حياة الجسم حيثما وجدت هذه الحياة حقيقة ، أى فى الطريق الذى يقود إلى حياة الروح . لـكنها لن تعبأ فى عزمها هذا بتلك الـكائنات الحية المحددة . فإن الحياة بأسرها ابتداء من الدفعة المبدئية التى قذفت بها فى العالم ، سوف تبدو لتلك الفلسفة كما لو كانت موجة صاعدة تعترضها فى طريقها حركة المـادة الهابطة ...

إلى أن يقول « إن الشعور متميز عن الجسم الذى يبعث فيه الحياة ، على الرغم من أنه يكابد بعض ضروب التدهور بسبب ذلك . وكما أن الأفعال الممكنة التى تنطوى حالة شعورية على رسمها تستقبل بدءاً من

التنفيذ فى المراكز العصبية فى كل لحظة ، فإن الدماغ يحدد المقاطع الحركية للحالة الشعورية فى كل لحظة ، لكن تتوقف هنا التبعية المتبادلة بين الشعور والدماغ ، إذ أن مصير الشعور ليس مرتبطاً لهذا السبب بمصير المادة الدماغية . وأخيراً فإن الشعور حر بحسب جوهره ، بل هو الحرية ذاتها ، لكنه لا يستطيع اجتياز المادة دون أن يهبط عليها ودون أن يتكيف بها ، وهذا التكيف هو ما يسمى بالعقل . وإذا استدار العقل إلى الشعور الفعال أي الحر فإنه يدخله بطبيعة الأمر فى الحدود التى ألف أن يرى دخول المادة فيها ...

ثم يقول « وكما أن أصغر ذرة من الهباء تتضامن مع مجموعتنا الشمسية بأسرها ، وتنساق معها فى هذه الحركة الهابطة غير المنقسمة وهى المادة نفسها كذلك نجد أن جميع الكائنات العضوية من أشدها تواضعاً إلى أكثرها رقياً ، ومن الأصول الأولى للحياة حتى العصر الذى نعيش فيه ، وفى جميع الأمكنة وجميع الأزمنة أيضاً ، لا تفعل سوى أن توضح فى أعيننا وجود دفعة وحيدة تسير فى اتجاه مضاد لحركة المادة ، وغير منقسمة فى ذاتها .

فجميع الأحياء متماسكة ، وهى تفسح طريقها أمام نفس الدفعة الهائلة . فالحيوان يعتمد على النبات والإنسان يعلو الحيوانية ، والإنسانية بأسرها من حيث المكان والزمان جيش ضخم يخب إلى جانب كل امرىء منا وأمامنا وخلفنا خباً جارفاً يستطيع إزاحة جميع ضروب المقاومة واجتياز عدد كبير من العقبات ، بل ربما اجتاز الموت أيضاً »[1].

وفى ختام مؤلفه يتحدث الفيلسوف العظيم عن الخلق والإفناء قائلا إنهما خاصان بالحركة أو بالطاقة ، لا بالوسط الأثيرى الذى ربما تسرى فيه الطاقة والحركة ، لكن ما عسى أن يبقى من المادة عندما نجردها من كل ما يحدد من الطاقة والحركة على وجه الدقة ؟ فيجيب قائلا « على الفيلسوف

---

(١) من « التطور الخالق » ترجمة الدكتور محمود محمد قاسم ص ٣٠٤ — ٣٠٧ .

أن يذهب إلى حد أبعد مما يذهب إليه العالم ، فإذا صرف النظر تماماً عما ليس إلا رمز خيالى رأى أن العالم المادى ينحل إلى مجرد تيار وسريان متصل وصيرورة . وهكذا سيتخذ أهبته للعثور على الديمومة الحقيقية فى المجال الذى يكون العثور عليها فيه أكثر فائدة ،أى فى مجال الحياةوالشعور.».

ثم يختتمه بالعبارات الآتية : « فإذا فهمت الفلسفة على هذا النحو لم تنحصر فحسب فى عودة الروح إلى نفسه، أو فى التطابق بين الشعورالإنسانى والمبدأ الحى الذى يفيض منه ، أو فى الاتصال بالمجهود الخالق ، وإنما هى التعمق فى الصيرورة العامة ، وهى المذهب التطورى الحق ، ومن ثم فهى الامتداد الحقيقى للعلم ، ولكن بشرط أن يفهم العلم على أنه يضم مجموعة من الحقائق المشاهدة ، أو تلك التى قام البرهان عليها ، لا على أنه نوع جديد من التفكير المدرسى Scolastique الذى نما فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر حول علم الطبيعة الذى أنشأه جاليليو ، كما نما التفكير المدرسى القديم حول أرسطو » .

وهكذا انتهى برجسون إلى تأسيس التطور على أسس عقلية مختلفة تماماً عن الأسس الآلية التى كان يقول بها التطوريون الماديون من قبل ،أسس عقلية استمدها ابتداء من إيمانه بالروح عن طريق تجارب معملية — كما قال وصرح مراراً — ومن تسليمه بأن حياة النفس الإنسانية عبارة عن ديمومة durée وصيرورة devenir . فالروح من معدن غير معدن المادة لأنها صاعدة حرة ، والمادة هابطة مقيدة ولذا كانت الروح فى هذا التطور الخالق هى أصل المادة ولم تكن المادة هى أصل الروح، ولم تكن العين هى أصل النظر بل النظر هو أصل العين ، والعضو بوجه عام ليس هو أصل الوظيفة ، بل الوظيفة أيا كان نوعها هى أصل العضو(١) . مما يتفق فى جملته وتفاصيله مع الروحية

(١) راجع ما سبق فى الجزء الأول ص ٤٣٩ .

التجريبية الحديثة ولا يتفق مع غيرها ، ومما يخالل صحة النتائج التى وصلت إليها ويؤيدها . فكان موقفه يشبه إلى حد كبير موقف ألفريد راسل والاس عندما أسس فهمه الجديد للتطور هو أيضا على أسس روحانية تجريبية تخالف أيضاً التفسير الآلى له ، وكل ذلك فى ضوء الكشوف الروحية وحدها ، وللتوفيق بينها وبين نظرية التطور التى دعمتها حقائق كثيرة لا محل لإنكارها على ما سيلى فى نهاية المبحث المقبل .

* * *

ثم انظر برجسون وهو يتحدث عن الصلة بين الروح والجسد قائلا فى محاضرة له فى ٢٨ أبريل سنة ١٩١٣ ظهرت مع دراسات أخرى لعدة مؤلفين فى كتاب عنوانه « المادية الحاضرة » « . . . ماذا تقول لنا التجربة فى الواقع ؟ إنها تبين لنا أن حياة النفس ، وإن شئت فقل حياة الروح ، مرتبطة بحياة الجسد وأن هناك تضامناً بينهما ولا شيء غير ذلك . لكن هل هناك من أنكر هذه النقطة ؟

إلا أنه شتان بين ان نقرر ذلك وبين أن نقول إن الدماغى معادل العقلى ، وإن فى الإمكان أن نقرأ فى الدماغ كل ما يجرى فى الشعور المقابل . إن الثوب الذى عاق على مسمار متضامن مع هذا المسمار ، فإذا وقع المسمار وقع هو معه ، وإذا اهتز اهتز ، وإذا كان رأس المسمار حاداً تمزق الثوب ، ولكن ليس ينتج عن هذا أن كل جزء من أجزاء المسمار يقابل جزءاً من أجزاء الثوب ، ولا أن المسمار معادل للثوب ، ولا أن المسمار والثوب شيء واحد . نعم إن الشعور معلق بدماغ ، ولكن ليس ينتج عن ذلك أبداً أن الدماغ يرسم كل تفاصيل الشعور ، ولا أن الشعور وظيفة للدماغ . وكل ما تسمح لنا المشاهدة والتجربة بتقريره هو أن هناك علاقة بين الدماغ والشعور » . ولاحظ إصرار برجسون على أن يوضح أن هذه النتائج

ليست نظرية بل أنه خرج بها من « التجربة فى الواقع » ومن « المشاهدة والتجربة » .

كما يعود كيما « يقرر تجريبياً » فى نفس المحاضرة : « إن حياة الفكر لا يمكن أن تكون نتيجة لحياة الجسد ، بل إن الجسد ما هو إلا خادم للفكر ، وأنه لا يسوغ لنا والحال هذه أن نفترض أن الجسد والروح مرتبطان أحدهما بالآخر ارتباطاً لا انفصام له . وطبيعى أننى ان أقطع فى نصف الدقيقة الباقية (من المحاضرة) برأى فى مسألة هى أخطر ماطرح على الإنسانية من مسائل على الإطلاق ، ولكننى لا أستطيع كذلك أن أتهرب منها . من أين أتينا ؟ وماذا نعمل هاهنا على هذه الأرض ؟ وإلى أين المصير ؟

وإذا كان صحيحاً أن ليس لدى الفلسفة ما تجيب به على هذه الأسئلة الحيوية الهامة ، أو كانت غير قادرة على أن توضحها بالتدريج كما توضح مسألة بيولوجية أو تاريخية ، أى إذا كانت لاتستطيع أن تجعلها تستفيد من تجربة ما تنفك تتسع ، وملاحظة ما تزال تدق ، إذا كان عليها أن تقتصر على مهاجمة أولئك الذين ينكرون الخلود لأسباب مستمدة مما يفرضونه للنفس والجسد من جوهر ... فإنه لعلى جانب عظيم من الأهمية أن نستطيع منذ الآن أن نقرر — تجريبياً — أن البقاء إلى زمن ما ممكن بل محتمل . وندع لغير الفلسفة أمر القطع بأن هذا الزمن محدود أو غير محدود . وأعتقد أن المسألة الفلسفية المتعلقة بمصير النفس إذا اقتصرنا منها على هذه الأجزاء المتواضعة قابلة لأن تحل . . . » .

إلى أن يقول بكل صراحة «وإذا كانت الحياة النفسية كما حاولنا أن نبرهن على ذلك تتجاوز الحيـــاة الدماغية ، وكان الدماغ لا يزيد عن أن يعبر بحركات عن جزء صغير مما يجرى فى الشعور فإن البقاء يصبح عندئذ معقولا جداً بحيث يقع واجب البرهان بعدئذ على عاتق من ينكر لا على عاتق من

يدعى ... »[1]. ولذلك كان من الطبيعى أن يؤكد برجسون فى فلسفته عن الخلود أنه مسألة لا ينفيها العقل ، وأن تحقيقها بالأسانيد العلمية ليس بعيداً عن متناول الدراسات الروحية .

موقف وليام جيمس

ومثل ذلك يمكن أن يقال أيضاً عن موقف عالم النفس الشهير والفيلسوف الأمريكى وليام جيمس W. James (١٨٤٢ — ١٩١٠) من نتائج بحوثه الروحية التى دفعته إلى التسليم التام بوجود عالم للروح وبتأثيره الذى لا ينقطع فى عالم المادة ، فإن وليام جيمس وأضرابه لا يعطون شهادتهم لأى أمر فى يسر وسهولة كما قد يتصور المعارض المتسرع. ومثله لا ينضم بسهولة «لجمعية البحث الروحى» بلندن S.P.R. ويحمل ضميره عبء الدفاع عن نتائج بحوثها ، ثم يدفعه الاقتناع إلى أن يؤسس لها فرعاً أمريكياً ويؤسس على نتائج بحوثها فلسفة روحية مترابطة طابعها الواقعية الفكرية التى كان يمثلها جيمس أصدق تمثيل بطريقته[2].

ومن ضمن أسس هذه الفلسفة الروحية إثبات العقل المجرد ، وإنكار ما كان يذهب إليه بعض علماء الفسيولوجيا والسيكولوجيا — وما يزالون — من أن العقل من عمل المخ . فالمخ عند جيمس — كما هو عند برجسون وريشيه وكلود برنار ومكدوجال وهانز دريش وراين وغيرهم ممن سلموا بوجود عالم الروح — جهاز العقل فحسب لا مصدره . ولذا كانت ظواهر العقل فى الإنسان غير ظواهر الغرائز فى الكائنات السفلى ، وكانت ظواهر المادة عند وليام جيمس غير ظواهر الحياة .

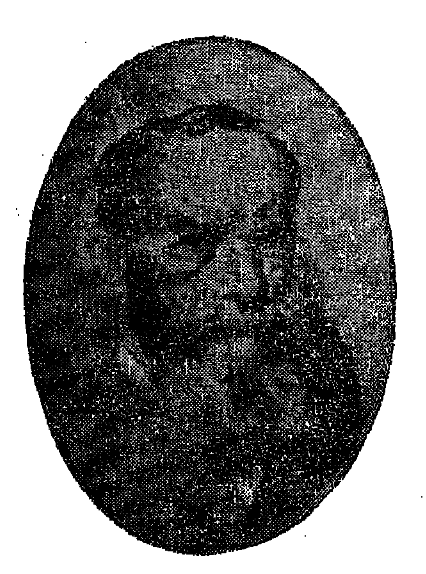
وفلسفة وليام جيمس تشبه فلسفة برجسون من ناحية ما قرره كل منهما

---

(١) ترجمة الأستاذ سامى الدروبى فى كتاب « الطاقة الروحية » ص ٥٠ ، ٥١ .

(٢) راجع ما سبق عن وليام جيمس فى الجزء الأول ص ١٥٤ — ١٦٢ ، ١٩٧ ، ٢٢١ ، ٢٢٣ .

وأكده من أنه يشيد آراءه على تجارب علمية مستمدة من الملاحظة والتجريب .



وليام جيمس

وذلك لأن جيمس وهو من أصحاب مذهب البراجماتية خير من يعلم أنه ينبغي « ألا يفوتنا دائما أن نتحقق من صحة الأفكار كما نتحقق من صحة الأوراق المالية وبعدها عن التزييف ، وإلا كان مصير أفكارنا الانهيار — كما ينهار نظام مالي . إن ما هو حقيقي لهو بمثابة مرشد في طريق السلوك . وتغدو الأفكار صادقة حين تعيننا على أن نرتبط بسائر أجزاء تجربتنا التي نعيشها ارتباطاً نرضى عنه . إن أية فكرة تؤدي إلى ازدهار حياتنا وتحملنا من جزء إلى آخر عبر تجاربنا وتربط بين الأشياء ربطاً نرضى عنه ، وتعمل في أمان وبساطة ، وتوفر علينا المجهود والمشقة ، هي فكرة صحيحة سليمة صادقة معاً »[1] .

ثم انظر جيمس وهو يقيم الأدلة الموفورة على وجوب الإيمان بالله تعالى ، وعلى أن العقائد الدينية لا ترضي فحسب ميولنا الوجدانية ، بل أيضاً عقلنا ومنطقنا « لأن للإيمان بالله مكاناً طبيعياً في نفوسنا ، فتبقى النفس مضطربة وثائرة حتى تصل إليه وتدركه ، وحينئذ تمتلىء هدوءاً وطمأنينة ، وفي يقين أن حياة التدين خير من جميع أنواع الحياة الأخرى في هذه الدنيا وفي غيرها : فهي التي تقتل روح التشاؤم ، وتملأ النفس ثقة وأملا ، وهي

---

(١) عن « المعرفة » للدكتور محمد فتحي الشنيطي ص ٢١٠ .

التى تجعل الجهاد فى الحياة حلو المذاق، وهى التى تجعل هذا العالم عالماً يستحق أن يعيش فيه الإنسان »[1] .

وفى بعض هذه المعانى يقول جيمس « إننا مضطرون لأن نعتبر أن الإله هو الموضوع الطبيعى للاعتقاد العقلى، لأن كل نظرية تؤدى إلى موضوع أقل من الإله لا يمكن أن ترضى المنطق أو تشبع العقل، إذا أخذت كلمة المنطق بمعناها الكامل ووضعها الصحيح، بينما أن كل نظرية تذهب أبعد من الإله تكون أمراً محالا فى نظر العقل .... لأن المذاهب المادية ومذاهب الشك وكل ما هو أقل من مذهب التأليه غير مقبولة عقلا، لأنها ليست بواعث كافية وليست ملائمة لطبيعة الإنسان العملية ..

ويكفى المرء أن يعرف أنه نفسه موجود، وأنه يحتاج إلى الإله، وأن هناك وراء هذا العالم إلهاً أزلياً أبدياً، وأنه يسمع نداءه واستغاثاته . وفى الإيمان بتلك الحقائق التجريبية من غير تفلسف أو نظر فى مباحث الوجود، ومن غير فيض ميتافيزيقى أو خلق ليبررها أو ليجعلها مستساغة لدى العقل، وفى السعادة الناشئة عن مجرد الاعتراف بها موجودة، توجد طمأنينة المرء وقوته التى يرغب فيها، وتتفتح له أبواب طوفان الحياة على مصراعيها فتمر منها التيارات بقوة وبشدة[2] ... » .

وقد انتهت بجيمس بحوثه العملية إلى التسليم بوجود عالم الغيب، بل لقد راح يؤكد « قد افترضت أن عقيدتنا فى عالم الغيب هى التى تلهمنا وتبعث فينا هذا الصبر، وتلك المحاولات التى تجعل عالم الشهادة عالماً صالحاً لأن يعيش فيه الرجل الخلق . فعقيدتنا أن هذا النظام المشاهد خير وحسن — وليس للخيرية

---

(١) عن « العقل والدين » وهو السفر الثانى من إرادة الاعتقاد » ترجمة الدكتور محمود حب الله ص ١٨٩ .

(٢) عن المرجع السابق ص ١٠١ — ١٠٣ .

والحسن هنا من معنى إلا الصلاحية والمناسبة لحياة ناجحة خلقياً ودينياً — عقيدتنا هذه تبرهن على صحة نفسها من حيث أنها معتمدة على اعتقادنا فى عالم الغيب . . .[1] من إن مذهب البراجماتية هذا يقوم على الاعتقاد بأن الوجود فى العالم المادى لابد أن يكون وسيلة لوجود آخر كجزء من الإيمان لدى أصحابه بأن كل شىء لا بد أن يكون وسيلة لشىء آخر أسمى منه ... فهل من المنطق العلمى فى شىء أن نهدر أمثال هـــذه الشهادات المستمدة من تجارب معملية على أسس علمية قام بها فلاسفة من طراز برجسون وو ليام جيمس ؟

موقف كامى فلاماريون

وهذا الذى قلناه عن الارتباط الوثيق بين علم الروح الحديث و بين العلوم المختلفة ، يصدق أيضاً على علم الفلك ، وإلا لما وجدنا عالماً فلكياً كبيراً من طراز كامى فلاماريون Camille Flammarion الذى يعد فى نفس الوقت فيلسوفاً من أبرز فلاسفة عصره — وقد انتقل إلى عالم الروح فى سنة ١٩٢٥ — يدافع حتى تاريخ انتقاله عن البحوث الروحية ونتائجها ويسهم فيها فيهبها عدداً من أجمل المؤلفات فيها حتى الآن مثل « الموت وغامضه » فى ثلاثة اجزاء ، ومثل « المنازل المسكونة » ، ومثل « المجهول والمشكلات الروحية » و « قوى الطبيعة المجهولة » وغيرها . وكلها روائع فلسفية فى العلم الطبيعى وما وراء الطبيعى ترجمت إلى أغلب اللغات الحية[2] .

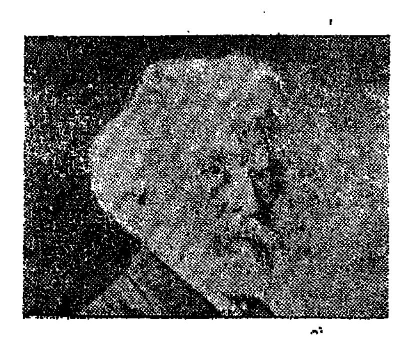
ويكفى أن تنصت إليه وهو يقدم مؤلفه فى «الموت وغامضه» (١٩٢٣) كيما تدرك أنك إزاء عالم فيلسوف متشكك ، مدقق فى بحوثه إلى أقصى مدى ، عندما يقول « لقد قررت أن أقدم اليوم لاهتمام الأشخاص المفكرين

---

(١) عن المرجع السابق ص ١٢٨ .

(٢) راجع عنه ما سبق فى الجزء الأول ص ٢٧٢ ، ٢٧٣ .

مؤلفاً بدأته منذ أكثر من نصف قرن . ومع ذلك فأنا غير راض عنه تماماً ، فإن الأسلوب العلمي التجريبي ، وهو الوحيد الذي يصلح للبحث عن الحقيقة ، له مطالبه التي لا يمكن ولا نقدر أن نروغ منها . والمشكلة الكبرى التي تعرض لها هذا البحث هي أكثر المشكلات تعقيداً ، وتمثل بالنسبة للتكوين العام



فلاماريون

للكون ، كما تمثل للتكوين العام للكائن الإنساني ، ما يمثله الجزء الصغير في الكل العظيم .

ولقد بدأت هذه الدراسات التي لا تنتهي منذ سني الشباب ، لأنه في هذه السن لا يشك الإنسان في شيء ، ولأنه يجد أمامه حياة طويلة مستقيمة ، ولكن هذه الحياة تمر مهما كان طولها ، كحلم له أضواؤه وله ظلاله . وإذا كان بمقدورنا أن نكون أمنية ما خلال هذا الوجود فهي أن نكون قد خدمنا بصورة ما التقدم البطيء ، ولو أنه حقيقي للإنسانية ، هذا الجنس العجيب ، الذي يجمع بين سرعة التصديق والتشكك ، وبين عدم الاكتراث وحب الاستطلاع ، والطيبة والشر ، والفضيلة والجريمة ، هذا الجنس غير المتناسق والجاهل في مجموعه ، والذي خرج بالكاد من إسار أصله الحيواني !...

والإنسان ، هذه الذرة المفكرة التي تحملها ذرة مادية عبر السدم الشاسعة ، يمكنه أن يسائل نفسه عما إذا كان تافهاً بالروح بمقدار تفاهته بالجسد ، وعما إذا كان لقانون التطور أن يرتفع به في صعود لا نهائي ، وعما إذا كان يوجد نظام لعالم خلقي مترابط في تناسق مع العالم المادي .

أليست الروح أسمى من المادة ؟ وما هي طبيعتنا الحقيقية ؟ وما هو

مصيرنا فى المستقبل ؟ وهل نحن لسنا إلا شعلات عابرة تومض لحظة كيما تنطفىء نهائياً ؟ وهل لن نرى أبداً أولئك الذين أحببناهم ، والذين سبقونا إلى العالم الآخر ؟ وهل انفصالنا عنهم أبدى ؟ وهل يموت فينا كل شىء ؟ وإذا كان يتبقى فينا شىء ، فما مصير هذا الشىء الذى لا يوزن ولا يُرى ولا يخضع للحواس ، ولكنه مع ذلك واع ويكون شخصيتنا الدائمة ، وهل سيبقى بعد الموت لأمد طويل ؟ وهل سيبقى بعد الموت للأبد ؟

أن نكون أم لا نكون ؟ هذا هو السؤال العظيم الذى وضعه الفلاسفة والمفكرون ، والباحثون فى جميع العصور وجميع العقائد . هل الموت نهاية أم هو تحول ؟ وهل توجد أدلة وبينات على حياة الكائن الإنسانى بعد انهيار أعضائه الحية ؟ ولغاية هذه الأيام ظل هذا الموضوع خارج إطار المشاهدات العلمية ، فهل من الجائز أن نتناوله بمبادىء الأسلوب التجريبى الذى تدين له الإنسانية بكل التقدم الذى أحرزته العلوم ؟ وهل تكون المجادلة منطقية؟ ألسنا إزاء أسرار عالم غير منظور مختلف عن هذا العالم الذى يخضع لحواسنا ، ولا يمكن اختراقه بأساليبنا فى التحقيق الوضعى ؟ ألا يصح أن يحاول الإنسان أن يبحث فيما إذا كانت هناك وقائع معينة ، متى خضعت للملاحظة الصحيحة الأمينة يمكن أن تقبل التحليل العلمى ، وتُقبل بوصفها حقائق عن طريق أشد صور النقد صرامة ؟ فنحن لا نريد بعد مجرد عبارات ، ولا « ماوراء الطبيعة » بل وقائع ووقائع ! !

والأمر متعلق بمصيرنا ، بقدرنا ، بمستقبلنا الشخصى ، وبوجودنا . وليس هو وحده العقل الفاتر الذى يتساءل ، ولا الروح وحدها ، بل أيضاً هو الإحساس وهو القلب .

وإنه لمن التفاهة الصبيانية وحب الظهور أن يخرج الإنسان إلى خشبة المسرح ، ولكن قد يكون الامتناع عن ذلك صعباً أحياناً . وبما أن ذلك يجرى بوجه خاص لمواجهة آلام القلوب الكسيرة ، التى لأجلها تابعت هذه البحوث المضنية ، فإنه يبدو لى أن التقديم المنطق أكثر من غيره لهذا

الكتاب ينبغي أن يصدر من بعض الأسرار التي لا تحصى والتي حصلت عليها منذ نصف قرن للوصول في لهفة إلى حل لهذا اللغز ... »

وبهذه الروح الناقدة المثابرة ، يستعرض فلا ماريون بحوثه في الظواهر المتصلة بخلود الإنسان ، في ثلاثة أجزاء ، تلك البحوث التي حملته على أن يقرر صحة الخلود ، وصحة الظواهر الوساطية ، والصلات بين أحياء الأرض وأحياء الأثير . ثم يختتمها بالعبارات الصريحة الآتية « لقد فكرت في أن أنهي هذا المؤلف المضني بهذا الجزء الثالث منه ، ولكن عدداً من القراء يطالبني كيلا أتجاهل الوقائع الهامة التي بعد أن جمعتها كان علي أن استبعدها من هذا الكتاب أثناء طباعته لكي أخفف من طوله . ومنها ظهور أشباح الموتى بجانب أسرة المحتضرين ، والصور الفوتوغرافية الثابتة للأشباح[1] photographies authentiques de fantomes ، وظواهر المنازل المسكونة ، والأشباح ، والظواهر الواردة في التاريخ المقدس منذ عهد صموئيل إلى عهد المسيح ، وكذلك في التاريخ العادي ، وتعدد وجود الروح بحسب وجهة النظر الفلكية . وبالإضافة إلى ذلك فيما يتعلق بالظواهر وراء الروحية ، الوثائق ، والاتصالات التي تصلني يومياً بغير انقطاع من جميع أركان العالم . إن هذه الوقائع أكثر بكثير مما يظن الإنسان عادة ، ففي كل مرة يتحدث فيها إنسان سيجد أن بين مستمعيه من يعرفون وقائع مماثلة (وهذه ملحوظة لها دلالتها) .

إن الأمر كان متعلقاً في هذا المؤلف قبل كل شيء بإثبات حقيقة الحياة بعد الموت عن طريق مشاهدات وضعية ، متعددة ، مترابطة ، وهو ما ثبت فعلا . والآن يمكن إضافة هذه الوثائق التكميلية إليه ، وتقديمها للقراء الراغبين في معرفتها ، وأولئك أيضاً الذين يرغبون في أن يجدوا فيها بسهولة النماذج المميزة ، والأشخاص الذين استعرضناهم في هذا المؤلف وفهارس أبجدية للموضوعات وللمؤلفين المشار إليهم ... وهذا الجزء الرابع سيكون عنوانه « على هامش الموت وغامضه » .

---

(١) راجع نماذج منها في الجزء الأول ص ٤٨٣ — ٤٩٧ .

وأية كانت الإضافات التى يصح أن تضاف إلى المشاهدات السابقة فإننا نملك منذ الآن اليقين العلمى لدوام حياة الروح بعد أن تلفظ النفس الأخير على الأرض ، فالروح مستقلة عن الأعضاء المادية وتواصل حياتها بعد الموت .

وبيقين أننا بعيدون عن معرفة كل شىء ، فهناك صعوبات وطلاسم وأمور يتعذر فهمها كما يعصى حلها على ملكاتنا الإنسانية ، إذ يغلفنا « مجهول » لا حدود له ولن نصل إلى حقيقته ، ولكننا إذا ما اقتربنا منه ولو قليلا فلنرض بذلك ، وبدلا من النوم فى الظلمة نكون قد استيقظنا فى الفجر ...

وبما أنه لم يصل أى إنسان حتى الآن إلى رفع النقاب عن إيزيس ، فلا أجرؤ على الزعم بأنى قد حللت حلا تاماً هذه المشكلة العظمى ، ولكننى أؤمل ألا يكون عملى هذا مجدياً ، فإننى لم أفعل شيئاً سوى تعبيد الأرض وفتح الطريق أمام علم المستقبل ، وسيحكم المستقبل عن نتائج هذا المجهود ، فقد طبقنا عملياً دعوة المسيح « أبحثوا تجدوا » ، وأياً كان مدى تقدم الكشوف المستقبلة فإن الفقه الذى حصلنا عليه يتلخص منذ الآن فى هذه الكلمات : إن الجسد يمضى ، ولكن الروح تحيا حياة أزلية فيما لا حدود له »(١) .

فهل يتصور العقل أن مثله يغامر بكلمة واحدة فى مجال هذه الروحية التجريبية إلا إذا كان — فضلا عن اقتناعه بصحة الظواهر التى حققها بنفسه وعظم دلالتها — قد وجدها تلتئم تماماً مع معلوماته الواسعة فى الفلسفة والفلك؟ ... ومع ذلك فلسنا نطالب القارىء بالاقتناع الحتمى والنهائى الآن ، وإنما ندعوه فحسب إلى مزيد من الاطلاع فى هذا الموضوع المفرط فى أهميته كيما يقدر بنفسه كيف أن كفة القول بالثبوت قد رجحت تماماً كفة الإنكار ، وأن المكابرة هنا خطأ يتعذر تبريره أو تفسيره — أية كانت بواعثه — إلا بعدم الاطلاع الكافى .

---

(١) La Mort Et Son Mystère الجزء الثالث ص٤٤٢ ، ٤٤٣ .

المبحث الثاني

موقف بعض علماء المادة

من علم الروح الحديث

موقف أوليفر لودج

ثم ننتقل إلى موقف سير أوليفر لودج — وهو عالم كبير الشأن في الأثير واللاسلكي — فنجده لا يعلن اقتناعه لأول مرة بصحة موضوع الخلود والصلات بين أرواح الأموات والأحياء إلا بعد بحوث واصلها لسنين طويلة جاوزت الخمس والعشرين ، وإلا بعد أن ربط ربطاً تاماً بين معارفه في الأثير والفضاء الكوني والمادة والطاقة ، وبين ما أسفرت عنه تجاربه العديدة مع بعض الوسطاء الكبار .

فقارن هذا الموقف السليم المتحفظ من عالم كبير — ومدير لجامعة عريقة حتى سني حياته الأخيرة — بموقف الارتجال الذي يقفه بعض المعارضين عندما لا يجد أية حجة أخرى يحاول أن يدحض بها قيمة هذه البحوث المتواصلة العميقة إلا بالقول بأن أوليفر لودج لما فقد ابنه ريموند فقد معه صوابه ، فراح يهرف بما لا يعرف عن عالم الروح والاتصال بالأرواح . وذلك مع أن ريموند هذا لقي مصرعه في الحرب العالمية الأولى في سبتمبر سنة ١٩١٥ ، حين أن والده كان عضواً مؤسساً « بجمعية البحث الروحي » بلندن منذ سنة ١٨٨٢ ، واختير رئيساً لها منذ سنة ١٩٠١ حتى سنة ١٩٠٣ ، ووضع أول مؤلف له عن « حياة الإنسان بعد الموت » منذ سنة ١٩٠٩[١] . وأخذ يحاضر في موضوع ثبوت الاتصال بالأرواح لمدى سنين طويلة قبل مصرع ابنه[٢] ،

---

(١) راجع ما سبق منه أيضاً في الجزء الأول ص ٢١٥ — ٢٢٠ ، ٤٢٨ — ٤٣٠ .

(٢) فمثلا تجد في مجلة المقتطف عدد فبراير سنة ١٩١٥ محاضرة طويلة لسير لودج عن ثبوت الاتصال بأرواح الموتى، وقد أشرنا إلى بعض فقرات منها في الجزء الأول ص ٢١٨ و ٥٠٧ـ٥٠٨ وفي هذا الجزء ص ٣١ ، حين أن ابنه ريموند لقي مصرعه في شهر سبتمبر من سنة ١٩١٥ وتلقى والده هذا النبأ في ١٧ منه . (راجع كتاب ريموند أو الحياة والموت ص ١٩٣) .

ثم واصل لودج بحوثه بعد مصرعه وهذا أمر طبيعى .

وفى الفصل الأخير ، من كتاب «حياة الإنسان بعد الموت»[١] هذا، يقرر لودج بعد بحثه الشاق المثابر «إننا نكتشف أن أصدقاء موتى من بينهم عدد ممن كانوا معروفين لنا جيداً وساهموا بدور إيجابى فى أعمال «جمعية البحث الروحى»[٢] أثناء حياتهم ، خصوصاً منهم جيرنى ومايرز[٣] وهودجسون[٤] ، يزعمون على الدوام أنهم متصلون بنا يدفعهم قصد مستقر تماماً على أن يثبتوا شخصياتهم بعد الموت فى أناة ، وهم يعطوننا «مراسلات متبادلة[٥]» عن طريق وسطاء متعددين . كما نكتشف أنهم يجيبون أيضاً على أسئلة محددة بطريقة مميزة لشخصياتهم المعروفة ،وتكشف عن معلومات كانت خاصة بهم .

وإنى أقدم هذا الإقرار لا بسهولة ولا قبل الأوان. فبالرغم من محادثات طويلة مع تلك الكائنات التى تزعم أنها تمثل الذكاء الذى تبقى بعد موت أولئك الأصدقاء والباحثين ، فإننا لم نقتنع بشخصياتهم — على أى وجه كان الاقتناع — عن طريق مجرد محادثة عامة ، حتى ولو كانت ذات صبغة ودية وشخصية ، كتلك التى تكفى لإقناعنا فى المعتاد ، وبغير تردد ممكن ، بشخصية الأصدقاء الذين نحادثهم فى التليفون مثلا ، أو يكاتبوننا عن طريق خطابات الآلة الكاتبة — بل تطلبنا منهم دليلا محدداً لا يمكن دحضه ، دليلا صعباً فى تصوره بقدر ما هو صعب فى تقديمه .

ويدرك المراسلون الظاهرون من الأرواح بقدر ما ندرك نحن ضرورة هذا الدليل،وقد بذلوا غاية ما فى وسعهم لإرضاء مطلبنا المعقول هذا ، ويعتقد

---

(١) Survival Of Man .
وله ترجمة فرنسية عنوانها «La Survivance Humaine» عن الطبعة الثالثة الانجليزية بقلم الدكتور ه . بوربون H. Bourbon .

(٢) راجع ما سبق عنه فى الجزء الأول ص ٢٢٢ ، ٢٢٣ .

(٣) راجع ما سبق عنه فى الجزء الأول ص ٢٢١ ، ٢٢٢ .

(٤) راجع ما سبق عنه فى الجزء الأول ص ١٩٨ — ٢٠٠

(٥) راجع ما سبق عنها فى الجزء الأول ص ٢٢١ ، ٣٩٦ .

البعض منا أنهم قد نجحوا فعلا فى تقديم هذا الدليل ، حين لا يزال البعض الآخر منا متشككاً (لاحظ أن هذا القول يرجع إلى سنة ١٩٠٩) . . .

« إن الحاجز بين الحالتين المعروفة وغير المعروفة لا يزال سميكاً ، ولكنه قد رق فى بضعة مواضع . وإننا وسط هدير المياه والصخب الآتى من ألف مصدر آخر نعمل كعمال يحفرون نفقاً من طرفيه ، ونحاول من آن لآخر أن نستمع إلى طرقات معاول زملائنا الذين يعملون فى الجانب الآخر .

وعندما نخرج من نفقنا إلى ضوء النهار نبلغ ما سمعناه إلى عالم متشكك منهمك ، وأحياناً سريع التصديق أكثر مما ينبغى . ولا نأمل أن يصدقنا الناس ، ولا نعدم من يقول لنا إن أخبارنا ليست طازجة ، وإن المسالك إلى الجانب الآخر من الجبل موجودة منذ القدم ، وإن النفق الذى شيدناه بعناء عديم الجدوى...

نحن لا نعلن نبأ غير مألوف ، ولا سبيلا جديداً للاتصال ، ولكننا نعلن فحسب مجموعة من أدلة لإثبات الشخصية أقيمت بعناية وبوسائل متقدمة وإن كانت قديمة . أدلة أكثر صواباً ، وربما أقرب إلى الكمال من الأدلة التى تم الحصول عليها حتى الآن . وأنا أقول أدلة أقيمت بعناية لأن البراعة التى تم بها إعدادها متوافرة لدى عقول الجانب الآخر من الحاجز بقدر ما هى متوافرة لدى هذا الجانب . فقد جرى البحث فى جو من التعاون الواضح بين أولئك الذين لا يزالون فى المادة وأولئك الذين ليسوا فيها .

فمن حقنا أن نعلن — إن لم يكن كإقرار نهائى — فبالأقل كنظرية شائعة صحة الاعتقاد القديم بإمكان التراسل بين العقول فى الأسلوب المادى للوجود وأسلوب آخر له ، أثيرى فيما يبدو .

ولا يمكننا مع ذلك أن نقبل القول بأن أولئك الذين اختفوا من على

كوكبنا ، لم يعد للمكان أى معنى عندهم . لا ريب أنهم لم يعودوا متصلين بالمادة ، وبالتالى لا يمكنهم بعد أن يلجأوا إلى أعضاء إحساسنا كما كانوا يفعلون عندما كانت لهم أجساد معدة خصيصاً لهذا الغرض . ومع ذلك فبقدر ما سمح لنا أن نعرف فإنه من الجائز أن يوجدوا فى الفضاء ، وأن تتوافر لديهم معرفة بالمكان مثلنا ، وبحقائق الهندسة إن لم يكن الجغرافيا . ولا داعى لأن نجزم بأن الظروف والوسط الذى يوجدون فيه ، أمور مختلفة اختلافاً أساسياً ومطلقاً عن الظروف وعن الوسط الذى تتحرك فيه الإنسانية . فإن هذا أمر من الأمور التى يمكننا تدريجيا كشف عدم صحتها .

وفى انتظار ذلك ماذا يمكن أن نستنتج مؤقتا من التعاليم الجادة التى يعطينا إياها التقرير بصحة هذه المراسلات ؟

أول شىء نتعلمه وأوضحه معرفة هو الدوام ، فلا يوجد فى ظروف التواجد أى انقطاع مباغت مما كان من السهل توقعه . ولا يوجد أى تصدع فى الذات الواعية الباقية ذات الخصائص المميزة والشخصية . فصفاتهم الأساسية : مثل الذاكرة والتربية والتعليم والعادات والميول والعواطف ، كل هذا يحتفظ به . بل وربما يتم أيضاً الاحتفاظ — إلى مدى معين — بنفس الذوق والاهتمامات مهما حدث . أما المشاغل الأرضية ، مثل الأموال المادية ، والآلام البدنية والعاهات ، فإنها فى جانبها الأقوى تترك جانباً » .

ثم يختتم لودج مؤلفه بهذه الكلمات «إن رؤى سويدنبورج(١) إذا جردناها من رداء الغلو — ليست كلها غير حقيقية ولا كلها خاطئة تماماً . فإن فيما ألقى إلينا من معلومات عن طريق وسطاء متعددين يوجد نوع من التوافق

---

(١) راجع جانباً من رؤاه وأقواله فى هذا الجزء فى ص ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٧ ، ١٦١ — ١٦٤ .

معها ، وأن عملى مقصور على تقديم شهادتى فى جانب صحة التصوير المعقول للأفكار العامة عن الكون التى وضعها مايرز وغيره فى مؤلفه الممتلىء بلاغة وعظمة » .

وهكذا يختتم لودج أول مؤلفاته عن الخلود ، والذى يتضمن نتيجة بحوثه لمدى أكثر من ربع قرن وحتى سنة ١٩٠٩ ، أى قبل أن يصاب بصدمة مصرع نجله فى سبتمبر من سنة ١٩١٥ التى افقدته صوابه ، كما يقول المعارضون .

* * *

ومثل هذا الاعتراض المتسرع الذى يقابله القارىء أحياناً فى كتب المعارضين يشير — فضلا عن وضوح التحامل المغرض — إلى قيمة بحوث لودج العلمية ، وكيف أنها تحاصر المعارضين بقسوة فلا يجدون منها فكاكاً إلا بمثل هذا القول الذى يلقى جزافاً . وكأن هذا الأسلوب المحزن من المغالطة — بل المهاترة — يوصل إلى أى قدر من الحقيقة العلمية .

ثم هل موضوع الأرواح هو موضوع لودج بمفرده ؟ أم أنه الآن موضوع مئات من أفضل علماء العصر المنتشرين فى كل مكان ، وموضوع العشرات من المعاهد العلمية والجامعات العريقة ؟ .

ومن يرجع إلى أى مؤلف لسير أوليفر لودج فى موضوع الأرواح والخلود — بالإضافة إلى مؤلفاته فى الأثير والفضاء الكونى — يتبين له تماماً كيف أن معلومات لودج فى الأثير وفى المادة الصلبة والطاقة وعدم قابليتهما للفناء ، وإمكان تبادل التحول فيما بينهما — عن طريق معادلات رياضية مسلم بصحتها — أوصلته إلى هذا الاقتناع ، على نفس المستوى الذى أوصلته إليه بحوثه الخاصة فى الظواهر الوساطية التى أجراها لمدة جاوزت خمسين عاماً على منهاج علمى بحت . والمنهاج العلمى أساسه النقد المتواصل كما بيناه

والنأى عن التسليم السهل أو الاقتناع السريع ، وهو وحـده الذى يوصل إلى الحقائق العلمية .

وقد بينا كيف تحدث لودج عن الأثير قائلا : « وعندما أستعمل كلمة أثير فإنما أعنى هذا الشيء الذى كان موضوع بحثى طيلة حياتى العلمية . وكل صفات الأثير التى وصلنا إليها تدل على أنه مادة كاملة » . إلى أن يقول « إن هذا الأثير يقوم بعمل أجل شأناً مما يعلمه الناس من أمره، وينبغى علينا أن نفكر فيه إذا أردنا أن نحصل على علم كامل »(١) .

* * *

وبنفس هذا الوضوح يتحدث عن الأرواح فى محاضرة له فى سنة ١٩١٧ قائلا « إنى كما تعلمون انضممت بصفة نهائية إلى جانب المقتنعين بدوام الوجود . وقد وصلت إلى هذا الاقتناع مستنداً إلى وقائع وتجارب لا تثبت فحسب حياة غامضة غير محددة بعد الموت ، بل تثبت نظرية بقاء الشخصية والذاكرة بعد الانفصال الذى نسميه موتاً .

فبعد فحص عدد كبير من الحالات وجدت نفسى مضطراً بالبينة المقنعة إلى الاعتراف بالحقيقة البسيطة عن إمكان التحدث — متى توافرت شروط خاصة — مع أشخاص عاشوا حديثاً على الأرض، وإمكان تلقى اتصالات ورسائل، رغم أن هؤلاء الأشخاص فقدوا بالموت الوسائل المألوفة لإظهار أنفسهم .

وإنى أقدر كل ما لهذا الذى وصلت إليه من أهمية ، ومن جسامة كفيلة بأن تضفى عليه نتائج تتجاوز فى خطورتها كل قياس فى اليوم الذى يتقبلها الجنس الإنسانى ويقرها ، إذا قدر لهذا اليوم أن يجيء . فى الواقع إن هذا الكشف إذا ما تقبله الناس غيّر مصائر البشرية .

ومن الأمور الحقيقية أن الحياة بعد الموت والاتصال بالأرواح كانا

---

(١) راجع ما سبق أيضا فى ص ٣١ وما بعدها .

معترفا بهما منذ أقدم العصور عند البعض ، لكن استمرار الوجود لم يعتبر أبداً حقيقة وضعية للحياة ، وقد أحاطت الاعتقادات الوقائع بغلالة كثيفة صناعية لها مظهر من الحقيقة جعلت هذه الحقائق تبدو غير مقبولة ، ومخيبة للآمال ومصدراً للاضطراب[1] ، ...

فهل كان يتأتى لمثله أن يقتنع روحياً مالم يقتنع ابتداء اقتناعاً علمياً مطابقاً تماما لمعلوماته الواسعة فى الأثير وفى الفضاء الكونى ؟ وأن يتحدث فى الموضوعين معاً بكل هذا الاطمئنان إلى صواب ما وصل إليه من نتائج بعد فحص عدد كبير من الحالات كما قال . .

* * *

وبنفس هذا الاقتناع المؤيد بأسانيده العلمية نجد لودج يتحدث فى مؤلفه « لماذا أومن بالخلود الشخصى ؟[2] » الذى ظهر فى سنة ١٩٢٨ أى بعد حوالى خمسين عاماً من مواصلة بحوثه الروحية قائلا : « إن اقتناعى مستقر برمته على أساس من التجربة ، وعلى قبول طائفة من الوقائع التى يمكن أن يحققها الآخرون لو تكبدوا مشقة التحقيق . وإنى أعلم كم تساوى كلمة « حقيقة علمية » . وإنى أقرر بغير ماتردد أن دوام الوجود الإنسانى حقيقة قد ثبتت . وقد وصلت إلى هذا الاقتناع خلال دراسة بعض الملكات الإنسانية الغامضة التى قد لا يعترف بها حتى الآن العلم الحرفى ، والتى لم يقرها اللاهوتيون بعد كقاعدة عامة . ولذلك قد يجوز لى — بل قد يتحتم على — أن أقدم من آن إلى آخر بعض التبرير والعذر على مثابرتى الثابتة فى البحث ، وعلى اقتناعى بالنتائج .

ومن الواضح أن كلمة « خلود » المستعملة فى العنوان مستخدمة بمعناها الاصطلاحى ، لأن تأكيد « اللانهاية » لا يمكن أن يدخل فى نطاق بحثنا ...

---

(١) راجع جوزيف ميرا Joseph Mira المرجع السابق ص ١٣ ، ١٤ .

(٢) Why I, Believe In Personal Immortality.

فكل ما نملك عنه بينات خاصة هو دوامنا كأفراد بعد الانفصال عن الجسد المادى . أما ماذا يحدث فى المستقبل البعيد السحيق فإنه لا يمكن الادعاء بمعرفته ، وليست بنا حاجة لأن نفكر فيه منذ الآن . بل يكفينا الآن أن نعلم أن الحياة الحاضرة ليست نهاية الوجود لنا كأفراد ، وأننا إذا أحسنا استخدامها فهى المرحلة المبكرة لفرصة من الوجود الطويل لخدمة متزايدة على الدوام ، من نوع متناسق مع طبيعتنا الحقة . ولذا فهى ملازمة للحرية التامة ..... » .

ثم تأمل ملياً كيف يلخص لودج فى مؤلفه الآنف الإشارة إليه سبع نتائج رئيسية وصل إليها من بحوثه الطويلة فى موضوع الروح ، وكل نتيجة منها أصبحت تمثل الآن حقيقة علمية بالغة أقصى درجات الخطورة ، وهذه النتائج هى : —

أولا : أن نشاط العقل ليس محصوراً فى دائرة التعبيرات الجسدية bodily manifestations برغم أنه من الصواب القول بأن هناك آلية مادية لازمة كيما تظهر نشاطه بالنسبة إلينا هنا الآن .

ثانيا : أن آلية المخ والأعصاب والعضلات مع سائر الجسد المادى تكون جهازاً من صنع الحياة والعقل وسيطرتهما ، ولخدمتهما ، جهازاً قد يصبح غير ملائم أو مستهلكاً إلى الحد الذى يحول دون إمكان السيطرة عليه بمعرفة الكائن المسيطر العادى ، وأن علامات الاستهلاك أو التلف قد تصبح واضحة بغير أن تسمح لنا بأن نخرج منها بأية دلالة، إلا بأن الرابطة أو الصلة بين العقل والمادة قد أصبحت ضعيفة أو معيبة .

ثالثاً : أنه لا الحياة ولا العقل يزولان من الوجود عند انفصالهما عن العضو أو الجهاز المادى ، بل يتوقفان فحسب عن العمل فى المحيط المادى كما كانا يفعلان من قبل عندما كان الجهاز العضوى فى حالة طيبة . والواقع أنه لا شىء يزول من الوجود بل يغير شكله فحسب . فقد تختفى الأشياء من

ناظرينا وتخرج عن نطاق حواسنا ، ولكن ذلك لا يثبت أنها اختفت من الوجود . وهذا الأمر الحقيقى الواضح بالنسبة للمادة وللطاقة حقيقى أيضاً «فى تقديرى» بالنسبة للوجود الحيوى والروحى . وليس «لدينا» أساس لافتراض أن أى شىء حقيقى يمكن أن يتوقف عن الوجود ، حتى وإن جاز أن يختفى ويبعد عن إمكان الوصول إليه بحواسنا .

رابعاً : أن ما نسميه «فرداً» هو تجسد محدد ، أو ارتباط المادة بعنصر حيوى أو روحى له فى ذاته وجود دائم . فالذات Identity ، أو فى تطورها للأمام هى الشخصية Personality لا تعتمد بيقين على ذاتية جزيئات المادة التى تظهر هذا العنصر ، والتى لا يمكن إلا أن تعتبر فحسب من نتاج الكائن المهيمن Controlling Entity الذى يجمع هذه الجزيئات إلى حين ، ولذا كان هذا الكائن قادراً «فيما نعلم» على طردها ، وعلى تجديدها فى المجرى العادى للحياة ، بدون أن يؤثر ذلك فى دوام وجوده[1] .

خامساً : أن قيمة التجسد تتحصل فى الفرصة التى يقدمها فى تكوين الشخصية ، ونمو جانب من العقل تدريجياً بحيث يتم عزله وتنقيته من محيطه الفطرى الكونى Pristine Cosmic Surroundings ، وتمكينه من إنماء شخصية ستصبح مميزة لهذه الأعضاء الخاصة .

سادساً : أنه عندما تصبح الفردية أو الشخصية individuality or personality حقيقية فهناك كل سبب لافتراض أنها — ككل كائن حقيقى آخر — ينبغى أن تبقى ، وأن تحيا بعد انفصالها عن الأعضاء المادية التى ساعدت فى عزلها ، وجعلت من الممكن أن تصنع لنفسها خصائص فردية ، أو طباعاً مميزة .

وما إذا كانت الطباع الفردية التى تم تكوينها عن هذا الطريق تبقى

---

(١) يتحدث لودج عن تجدد الخلايا والأنسجة الحية خلال الحياة الأرضية ، فى كل كائن حى عن طريق الجسد الأثيرى .

كفرد يحمل معه الذاكرة والخبرة والعواطف ، التي تشكلت تحت فرص الارتباط بالجسد المادى ومزاياه أثناء الحياة الأرضية ، فهذا تساؤل ينبغى أن تكون الإجابة عليه عن طريق الملاحظة المباشرة والاختبار . وذلك يقودنى إلى اقتناعى الأخير وهو :

سابعاً : أن البينة التي أمكن الحصول عليها فعلا تكفى كيما تثبت أن طباع الفرد وذاكرته تبقى ، وأن الشخصيات التي غادرت هذه الحياة مستمرة بمعلوماتها وخبرتها التي حصلت عليها هنا ، وأنه تحت ظروف معينة عرفت جزئياً ، أمكن لأصدقائنا الموتى أن يظهروا لنا دوام حياتهم الحقيقية وشخصياتهم بعد الموت[1] .

ويعالج لودج بالتفصيل هذه النتيجة الأخيرة ، وهى أخطرها كلها ، مبيناً مدى صحتها من واقع تجارب عديدة يسردها عن اتصالاته بأرواح معينة ، من بينها روح عالم النفس فردريك ف . و . ه . مايرز ، ومعززاً إياها بالأسانيد التي يتعذر إهدارها إلا ممن أعد نفسه مقدماً ونهائياً للمكابرة عن غير علم ولا تجريب .

موقف وليام باريت

وهذا الذى ذكرناه عن لودج يكاد يصدق بحذافيره على موقف سير وليام باريت (١٨٤٥ — ١٩٢٦) الذى كان مثل لودج عالماً كبيراً فى الفيزياء ، وعضواً بالجمعية الملكية (المجمع العلمى البريطانى) وأستاذاً بجامعة دبلن Dublin . فإنه ظل يواصل بحوثه على منهاج علمى صرف لمدى عشرات من السنين قبل أن يصل إلى إقرار ثبوت دوام الحياة بعد موت الجسد المادى ، وقيام صلات بين أحياء العالمين المنظور وغير المنظور .

فى مؤلفه « على عتبة غير المنظور[2] » نجده يقرر « أن القارىء

(١) من المرجع السابق ص ١٣ — ١٥ .

(٢) On The Threshold of the Unseen (1917).

سيلاحظ أن النتائج التى وصلت إليها ليست ثمرة امتحان عاجل سطحى ، فما قد مضى على أكثر من أربعين عاماً ، وأنا أدرس بروح متحررة تماماً وبغير مصلحة خاصة ، الظواهر المسماة بالفوق العادية . ولما أصبح من الضرورى تأسيس جمعية تكفل دوام التحقيق وتقيم أسلوباً كاملا للتجريب أسست منذ سنة ١٨٨٢ «جمعية البحث الروحى» بمساعدة صديق أو صديقين. ونشرت الجمعية حتى الآن (فى سنة ١٩١٧) ستة وأربعين مجلداً من مضابطها وجريدتها[١] . كما دعوت لتأسيس شقيقتها الجمعية الأمريكية التى تأسست منذ سنة ١٨٨٩ بمعرفة بعض أصدقائى من بوسطون وهارفارد ، وقد ملأت أيضاً مضابطها وجريدتها مكتبة عظمى[٢] . وهكذا تتراكم مجموعة ضخمة من شهادات انتزعت بعناية سيصبح لها فى دراساتنا قيمة ضخمة كوثائق يرجع إليها .

وفيما يتعلق بالظواهر الفيزيقية للروحية الموصوفة فى الجزء الثانى ، فإنها مهما بدت غريبة ، صارخة احياناً ، غير مفهومة إلا باعتبارها ظواهر لذكاء أو لمقدرة مجهولين ، إلا أن الشهادات التى أشرت إليها لا تقبل الجدل فيما يبدو لى ، ومع ذلك فإن بعض قرائى ربما يترددون فى قبولها . وإذا كان الشك الأمين مرغوباً فيه بغير نزاع ، فإن النظر إلى المجربين العلميين المتازين الممتلئين حذراً باعتبارهم معتوهين أو مخرفين ، عمل — بكل بساطة — صبيانى ، وكذلك أيضاً النظر إلى رجال أذكياء وأمناء مثل الأسقف ستانتون موزس S. Moses[٣] .

ثم انظر باريت وهو يبنى على هذه البحوث نتائجها الفلسفية ، عندما

---

(١) راجع ما سبق عنها فى الجزء الأول ص ١٩٦ — ٢٠٧ .

(٢) راجع ما سبق عنها فى الجزء الأول ص ١٥٣ — ١٥٦ .

(٣) الوسيط الشهير الذى كان أستاذاً بجامعة لندن (راجع ما سبق عنه فى الجزء الأول ص ٢٦٣ — ٢٦٥) .

يقول « إن الأهمية الرئيسية للبحوث الروحية تتحصل فى تقويم العقلية الغربية لدى الأفراد المتوسطين ، من ناحية أنها مستقرة على أن الجانب الفيزيقى يمثل كل الطبيعة ، أو بالأقل يمثل من الكون جانبه الوحيد الذى يهمنا حقيقة . إن هذه النظرية الزائفة المميتة تجعل ضئيلة جميع وجهات النظر ، ومجدبة جميع مدارك الروح » ...

ثم يقول إن هناك عدداً متزايداً من الأشخاص أصبح يقدر — على حد تعبير الأستاذ هنرى سدجويك[1] H.Sidgwick — أن من المخجل أن نرى أشخاصاً لا يزالون يناقشون صحة الظواهر الرائعة للروحية ، وسيكون من المحال مع ذلك ألا نتهم بالمغالاة فى تقدير أهميتها العلمية لو أمكن لأى إنسان أن يعرض لحسب عشر الشهادات الجديرة بالثقة فيها » . .

ثم يضيف قائلا « ومع ذلك فإن تحولا يجرى الآن فى آراء النخبة بشأن هذا الموضوع . فإن عدداً من أصحاب أكثر النفوس ثقافة ، ومن الباحثين اليقظين قد اقتنعوا فى هذه السنوات الأخيرة بصحة الظواهر الروحية ، أو بالأقل بجدية الأسباب التى تحمل على دراستها ، وتأثروا تأثراً عميقاً بما يولده القبول العام لهذه الظواهر من اتساع فى الأفق ومن نشاط واسع فى التفكير .

كما يقول « وإنه هذا الاتساع فى أفق التفكير هو الذى سمح للرواد الشجعان للروحية أن يغامروا بسمعتهم ، وأن يتحدوا ما أثارته تحقيقاتهم من سخرية ومن لوم . فإنهم عندما حصلوا على ما بدا لأعينهم الدليل الكافى على موضوعية هذه الظواهر ، نشروا آراءهم بشجاعة نادرة . وفى الصف

---

(٢) أستاذ فلسفة الأخلاق Moral Philosophy بجامعة كامبريدج ، وكان حتى انتقاله فى سنة ١٩٠٠ رئيساً « لجمعية البحث الروحى » بلندن (راجع ما سبق عنه فى الجزء الأول ص ١٥٥) .

الأول منهم يبرز الرياضي العظيم الأستاذ دى مورجان De Morgan الذى كتب منذ سنة ١٨٦٣ يقول «إنى مقتنع تماماً بأنى رأيت وسمعت فى ظروف تجعل رفض التصديق مستحيلا أشياء موصوفة بالروحية لا يمكن لأى كائن عاقل أن يفسرها بالتدليس أو بالتعاصر الزمنى أو بالخطأ»[١]. وقد قدم شهادات مماثلة الدكتور ألفرد راسل والاس A.R.Wallace [٢] وعدد آخر من الشخصيات المبرزة. وفى النهاية إن الكافة يعرفون تجارب سير وليام كروكس المعروفة[٣].

ولم يقتنع هؤلاء الرجال المبرزون وحدهم بصحة الوقائع، بل إن جمهوراً من الرجال والنساء وصل إلى نفس الاقتناع فى العالم أجمع، وقد أشار إلى ذلك الدكتور والاس منذ زمن طويل فى موسوعة تشامبر Chamber's Encyclopaedia قائلا «لقد تقدمت الروحية إلى حد أنها وصلت — رغم التهكم والاستخفاف والاضطهاد — إلى إقناع أشخاص من جميع الطبقات الاجتماعية، وفى جميع أركان العالم المتحضر»[٤].

ثم يضيف باريت قائلا لقد تبينوا بأنفسهم وجود ظواهر مجهولة تماماً من العلم الحديث، ويفسرها بكل بساطة افتراض وجود عالم روحى تقطنه كائنات ذكية، قادرة فى لحظات معينة، وبوسائل معينة، على الاتصال بنا. ولم يتمكن أى شىء من زعزعة إيمان كهذا يرجع إلى الماضى العريق ... وقد نمت قوة هذا الاعتقاد بسبب تكدس الشهادات عن الوقائع التى تحدث من وقت لآخر هنا وهناك.

---

(١) راجع ما سبق عنه فى الجزء الأول ص ٢٠٨.

(٢) راجع ما سبق عنه فى الجزء الأول ص ٢١١.

(٣) راجع ما سبق عنه وعنها فى الجزء الأول ص ٢١٠، ص ٣١٣ — ٣٣١.

(٤) عن الترجمة الفرنسية وعنوانها Au Seuil De L'Invisible بمعرفة «المكتبة الدولية للعلم الروحى». الناشر: Payot طبعة ١٩٢٣ ص ٢٥، ٢٦، ٣٢.

لقد قال فيخت Fichte « إن كل ما هو عظيم وطيب فى وجودنا الحاضر يرجع — فحسب — إلى أن رجالا نبلاء حكماء قد تنازلوا عن متع الحياة فى سبيل التعلق بالآراء » . إن ما يؤكده رجل واحد هو عبارة عن الفكرة التى اعتنقها ، وهو أمر يسترعى الاهتمام ويستحق الإصغاء إليه . أما ما يؤكده عدد وافر من الرجال ، ويستمرون فى تأكيده دون أن ينال منهم أى اضطهاد أو معارضة ، فهذا هو الموضوع الذى يستحق تماماً التفات الباحث المخلص .

وما قد ينكره الناس هو من جانب آخر إما لا قيمة له ، وإما دليل على ندرة — أو على جدة — الأمر الذى ينكرونه ، مالم يكن الإنكار سبيلا لإثبات حقيقة أخرى ، كإنكار الحركة الأزلية للكون ، أو كإنكار التليفون الذى صدر من بعض العلماء أمامى فى سنة ١٨٧٧ ، ولم تكن له أدنى قيمة إزاء الشهادة الصادقة ممن شاهدوا التليفون وسمعوه »[١] .

* * *

وأخطر من كل ذلك هذه النتائج العلمية الضخمة التى أخذ باريت يقيمها الواحدة بعد الأخرى ، كيما يفسر بها من جهة هذه الظواهر التى حقق صحتها بنفسه ، وكيما يربط من جهة أخرى بينها وبين الحقائق الأخرى للحياة .

فنجده يقرر فى إحداها « أنه يمكننا القول مع أفلاطون بأن العالم المحسوس ليس سوى صورة لأفكار موجودة فى عالم يقع وراء الحس ، وأن المحسوسات ليست سوى وجود مستعار من حقائق أزلية ، أى من أفكار يحتويها غير المنظور . وذلك يشبه كثيراً ما كان يقول به سويدنبرج من أن أشياء عالمنا ليست سوى آثار ، أو مقابلات زائلة — أكثر منها

(١) المرجع السابق ص ٣٧ — ٣٩ .

حقيقية — لعالم روحى ندخله بعد الموت. وبالتالى فلسنا سوى أشباح متجسدة لكائناتنا الحقيقية، ومن صور مادية عابرة لشخصيتنا الحقيقية الباقية .

ولنعد لموضوعنا، فأية نظرية أخرى يمكن أن تقترح لتفسير الظواهر الفيزيقية التى تبدو صادرة عن مصادر وعى نشطة غير منظورة؟ إن النظرية الشائعة للروحيين هى أن هذه الظواهر تعزى إلى نشاط كائنات إنسانية تحررت من أجسادها، وتحاول أن تفهمنا بهذه الطريقة استمرار وجودها. ولكن إذا كانت هذه الظواهر (المادية) تبدو صادرة عن ذكاء غير منظور، فإنها لا تعطينا الدليل على دوام حياة الإنسان بعد الموت. وسنعالج فيما بعد أدلة هذا الدوام منتزعة من ظواهر روحية أخرى، وفى انتظار ذلك تبدو النظرية الروحية أكثر التفسيرات بساطة، برغم أن بعض الوقائع العجيبة التى شوهدت فى حضور الوسيط هوم D.D.Home تظل بمثابة ألغاز(١).

ومع ذلك فيمكن افتراض أن الحياة موجودة فى صورة ما فى الأثير المضىء (أو فى أى وسط غير منظور) وأن قانون التطور، وهو القانون المقدس للتقدم، يعمل عمله منذ قرون لا تحصى، بل ربما قبل نشوء أرض مسكونة. وإذا كانت مادتنا الخام يمكن أن تكون مركبة للحياة تستجيب لاهتزازات الروح الإلهية، فإن المادة الأثيرية، وهى أكثر منها رقة ومرونة يمكن أن تكون أكثر مناسبة لهذا الغرض، وأسهل استجابة للقدرة العظمى المختفية وراء ظواهر الحياة. وليس فى هذا الافتراض ما يجافى الصواب او ما يعارض علمنا الحالى».

ثم يتساءل سير باريت تأسيساً على ذلك «إذا كانت هذه الكائنات الذكية

---

(١) الحديث هنا يشير الى الظواهر المادية التى كانت تحدث فى حضور الوسيط هوم وغيره مثل تحريك الأجسام الصلبة، والارتفاع عن الأرض بغير وسيلة مادية، والإمساك بالنار المشتعلة وغير ذلك (راجع ما سبق عنه فى الجزء الأول ص ٣١٤، ٣١٥).

موجودة بيننا منذ قرون ، ألم يكن لها أي دور فى تاريخ أرضنا ؟ ». ثم يجيب « إننا نعلم كيف نجح الإنسان فى تغيير بعض معالم الطبيعة باستخدام ذكائه وإرادته. وإذا كان بمقدورنا أن ندخل تغييرات على النباتات والحيوانات عن طريق الانتخاب الصناعى ، فليس من عدم الصواب أن نفترض أن التأثير الروحى للعقول التى نجهلها أمكنه أن يؤثر فى التطور عبر العصور . وهكذا تبدو مشكلات عديدة لم يحلها فقه التطور قابلة لأن تنتقل من عالم الحواس والمادة الخام إلى العالم الغير المنظور الذى يحيط بنا ، أسوة بنا عند ما ننقل تدريجياً فى نطاق الفيزياء تفسيرنا الأخير للأشياء المحسوسة إلى الأثير . وسيظل المصدر الأعظم الأول دائماً فى غير متناول حواسنا ، ولكن العلم الذى يعنى بالمصادر الثانوية للأشياء يقرر أن العالم المنظور لا يبدو قادراً على أن يعطينا أى حل مرض لعدد من الأسئلة الغامضة .

ووجود بعد رابع ألا يفسر مصدر ظواهر الروحية ؟ فهذه نظرية رياضية تبين أن هذه الظواهر فى مقدور كائنات من البعد الرابع بشرط أن تصل إلى إحداث نتائج منظورة منا نحن كائنات البعد الثالث[1] . ولنبين مقدماً ونظرياً بعض هذه النتائج التى منها مثلا مرور المادة الصلبة فى المادة الصلبة[2]. ومثل عمل عقدة فى حبل بدون إمساك بأطرافه ، أو فى قرط أو فى طوق من جلد . فإن كائناً عاقلا يمكنه أن يحدث فى هذا الحبل حلقات تنتمى إلى البعد الرابع ، ويمكنه أن يصنع عقدة أو عدة عقد بدون أن يفك أطراف الحبل الموضوع عليها الأختام، أو بدون أن يقطع الحلقة الجلدية . فبالرغم من أن هذا العمل العجيب يبدو لنا مستحيلا فقد صدر تأكيد ، بأنه لحسن الحظ قد تم تنفيذه فى بضع دقائق ، وفى ضوء النهار فى شهر ديسمبر سنة ١٨٧٧ عن طريق وسيط معروف، وأمام عدد من العلماء الألمان ذوى الروح الناقدة

---

(١) راجع ما سبق فى هذا الشأن فى ص ١٣٤ ـ ١٤٠ عند الكلام فى أسلوب الحياة فى عالم الروح.

(٢) ومنها المجلوبات والمأخوذات الروحية ، وقد حققها علماء كبار وهيئات مدققة موثوق فى صحة تحقيقها .

وهم الأساتذة : زولنر Zöllner وويبر Weber وفشنر Fechner وشريبنر Schreibner[1] . ولم تكن هذه تجربة وحيدة ، بل تمت مثيلتها فى روسيا بنجاح أيضاً ، وشهد أكزاكوف Aksakoff[2] بأنه قد شاهد عقدة تتم فى طوق من جلد بنفس الكيفية . . . .

ثم يقول باريت « إننا نحفر الأساس لملحق جديد ورحب لمعبد العلم . فينبغى أن نتوقع إذاً أن نشاهد أجمة من «سقالات» تعلو فى صورة نظريات وافتراضات ، ولا يمكن إلا بهذه الطريقة أن ترتفع الأحجار من الأرض إلى القمة ، حتى يبنى المعبد ، وعندئذ ستنطق مع الوقت الوقائع بذاتها ، وستعطى التفسيرات المطلوبة ، أما الآن فينبغى أن نعمل وأن ننتظر »[3] (لاحظ أن هذا كله كتب قبل سنة ١٩١٧ ، فما بالك بالحال الآن فى سنة ١٩٦٦ ؟!) .

* * *

وفى موضع آخر من نفس الكتاب يتساءل باريت قائلا أيضاً « إن الحجاب الذى يفصلنا عن الموتى يصير تدريجياً أقل كثافة ، وإن كنا نتساءل لماذا يرتفع لحسب ركن أو آخر من الحجاب من آن لآخر بغير أن يعطينا الكشف الكامل للعالم الروحى . ولماذا ما يصل إلينا من هذا الكشف يبدو ناقصاً وغير مرض إلى هذا المدى ؟

فنحن بغير شك لا نرى أبداً ما وراء الحجاب بنفس الوضوح الذى كان سويدنبرج يؤكد أنه كان يحوزه . وربما كان من الحق أن نقرر أنه قد أقنعنا بالعدول عن متابعة خطواته ، وربما هناك أسباب طيبة كيما يظل

---

(١) يحيل المؤلف القارىء إلى كتاب La Physique Transcendentale للعالم الفلكى الألمانى المعروف زولنر ، وله ترجمة فرنسية بمعرفة Massey .

(٢) عالم لغوى ووزير روسى سابق .

(٣) عن « على عتبة غير المنظور » المرجع السابق ص ٩٨ — ١٠٢ .

اطلاعنا على هذا العالم مضطرباً، ولكننا كما أننا متأكدون من أن النهار سيعقب الليل فليثق كل إنسان بأنه بعد ظلمة الموت العابرة سيدخل فى حياة أبدية من الحرية والنور. ولو كانت هذه الحياة مطابقة للوصف الذى يعطيها إياه كثير من الروحيين، فإن عدداً قليلا منا سيتمنى أن يبقى فى عالمنا هذا.

وربما تعمد كثرة من النفوس المتعبة المعذبة إلى الإلتجاء إلى عقار قاتل كيما تدخل — بغير ألم — فى عالم ترجو أن تجد فيه نهاية لآلامها وللأبد، ولكن هذا أمل خائب لأن محن الحياة الأرضية لازمة لنا، وليس لإنسان أن يؤمل فى الوصول إلى حياة أسمى من حياته بغير المرور أولا بمدرسة الألم والكفاح».

* * *

ثم انظره وهو يقرر فى أحد فصول كتابه الأخيرة : «يوجد بغير ما ريب عالم خارج عن وعينا لسنا معزولين عنه، لا من ناحية الزمان ولا المكان، ولكن فحسب عن طريق حاجز من صنع حواسنا. وهذا الحاجز يمثل ما وصف بحق بأنه يمثل عتبة الإحساس، والقيد الذى يقيد مدى وعينا. وبقدر ما يحولنا التطور من كائنات دنيا إلى كائنات عليا فإن هذه العتبة تغير مكانها، ولكن بقدر نمو الوعى فينا. فأعضاء القوقعة تكون العتبة التى تحجزها عن الجزء الأكبر من عالمنا المحسوس، وكذلك أعضاء الإنسان الفيزيقية تكون عتبة تحجزه عن العالم السامى الذى هو جزء منه. وهذه العتبة ليست مع ذلك صامدة، فهى تغير موضعها فى النشوة الروحية، وفى الأحلام، وفى الغيبوبة المغناطيسية، وتتحرك الروح مؤقتاً فى عوالم لا تدركها الحواس. وكذلك تغير هذه العتبة موضعها فى الجلاء البصرى، وفى الحالات العميقة للمغناطيسية، وفى اليقظة النومية الحركية، فيعبر عن نفسه ذكاء أسمى، ذو نقاء ومقدرة متناسبين مع توقف وظائف حالتنا اليقظة العادية ووعيها، وبقدر ما قد يكون هذا التوقف تاماً أو جزئياً[1].

(١) راجع فى هذا الشأن الجزء الأول ص ٥١١ — ٥١٩.

وهذا الذكاء يملك قدرات وأحاسيس أكثر اتساعاً وعمقاً مما يملكه الوعى العادى . ولأن استخدام هذه الملكات يبدو معوقاً باعضائنا البشرية فيمكننا أن نستنتج من ذلك أنه عند التحرر من هذا القيد الترابى تدخل النفس فى حياتها الأرحب ، ومع ذلك فلا تلغى عتبة الإحساس بغتة عند انطفاء الحواس للأبد . فعندما تغادرنا هذه الكائنات العزيزة علينا يبدو من الجائز إذاً أنها فى أغلب الحالات تستيقظ فى الفجر الذى هو وراء كل فجر آخر،فيوقظ فيها تدريجياً الوعى الأرحب والأعمق الذى ينتظرنا جميعنا باليسر أو بالعسر . ويقول الشاعر شيللى Shelley فى هذا الشأن واصفاً انتقال أحد « الموتى » سلاماً سلاماً ، فهو لم يمت ولم ينم ، بل استيقظ من حلم الحياة »[٢].

عن اقتناع كومبتون

وما يصدق على الاقتناع العلمى المترابط المعزز بأسانيده التجريبية التى محصها سير لودج لمدى أكثر من خمسين عاماً،وسير باريت لمدى أكثر من أربعين عاماً ، وهما عضوان فى المجمع العلمى فى بلادهما وعلمان من أعلام الفيزياء فى القرن العشرين،يصدق أيضا على الاقتناع العلمى بوجود حياة تلى حياة الجسد المادى،وهو الذى نجده عند غيرهما من أقطاب علوم المادة ممن أشرنا إلى أقوالهم فى مناسباتها . فإن اقتناعهم بوجود عالم للروح كان اقتناعاً علمياً صرفاً مؤسساً على فهمهم لطبيعة المادة الصلبة وللحقائق الرياضية الحديثة . فلم يدفعهم إليه إلا شوقهم للحقيقة وحدها «لأن الشوق لها هو لب لباب الحياة ، ومحور الوجود الإنسانى منذ نجم من صلب الطبيعة — على حد تعبير العلامة إدنجتون Eddington — هذا الشوق الذى يجعل الإنسان مغايراً كل المغايرة لما حوله من الظواهر الطبيعية ، ويجعله قوة روحية » . وكل ذلك حتى

---

(٢) «على عتبة غير المنظور» (ترجمة فرنسية) ص ١٨٧ ، ٢١٠ ، ٢١١ .
وفى نفس هذا المعنى أيضا يؤثر عن الإمام على قوله « الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا » (عن المقاصد الحسنة للسخاوى) .

بدون بحث فى تحقيق الظواهر الوساطية، ولا أية متابعة معروفة لبعضهم فيها.

لذا نجد مثلا الأستاذ آرثر كومبتون Arthur Compton رئيس المجمع العلمى الأمريكى والحائز على جائزة نوبل فى الذرة يقرر بدوره : «لست فى معملى أعنى بإثبات حقيقة الحياة بعد الموت ، ولكنى أصادف كل يوم قوى عاقلة تجعلنى أحس إزاءها أحيانا أنه يجب أن أركع احتراماً لها . فلو أننى أوقدت شمعة ثم أطفأتها على الفور بنفخة من فمى فإنى لا أكون قد أبدت ضوءها .

أنك لن ترى هذا الضوء بعينك الفيزيقية ، ولكن لهب هذه الشمعة الضئيل يظل مجنحاً فى الفضاء لمدى سنين ضوئية لاعداد لها . فإذا كنت لا أستطيع أن أبيد ضوء شمعة، أوقدتها أنا بنفسى ثم أطفأتها، فكم يكون سخيفاً أن نظن أن شخصية الإنسان تنعدم وتبيد بسبب ذلك الموت الفيزيقى » .

ثم أنظر كومبتون وهو يكتب عن خلود الإنسان قائلا : « بالرغم من أهمية الإنسان من الناحية الفيزيقية فإنه كشخص ذكى يمثل أهمية غير عادية فى تخطيط الكون . فلو كان لنا أن نستخدم أفضل ما نملك من وسائل الحكم على الأمور فما هو أهم شىء فى الإنسان النبيل ؟ هل هو قوة جسده ، أو بريق وعيه ؟ ألا ينبغى أولا أن نعتبر جمال أخلاقه؟ إن جسد الإنسان يبلغ أوجه قبل منتصف العمر ، أما ذكاؤه فهو يبلغ أوجه بعد حوالى منتصف العمر ، ولكن بناء أخلاق الإنسان النبيل يحتاج إلى استنفاد حياته بأسرها .

قران الشباب ، وخضوعه للنظام ، والنضال بفشله ونجاحه ، وآلام النضج ومتعه ، ثم وحدة الشيخوخة وهدوؤها ... هذه هى الأشياء التى تصنع النار التى ينبغى أن يجتازها الإنسان حتى يحصل على الجوهر النقى لروحه ، فإذا تم ذلك على الوجه الأكمل فماذا ستصنع له الطبيعة ؟ هل ستعدمه ؟ فأى جهد ضائع لا ينقطع هذا ؟ ...

ولأتحدث الآن — لا كعالم — بل حديث إنسان لإنسان . فكيف يمكن لأب يحب أطفاله أن يختار لهم الموت ؟ طالما كان فى السماء إله للمحبة فلا بد أن توجد عند « إله الأطفال » حياة لا تنقطع لهم . وهذا ليس فحسب المنطق الفاتر للعلم، بل هو الإيمان الحار بأب رأى طفله بالفعل وهو على حافة الموت »[1] .

موقف ألفرد راسل والاس

ومثل ذلك يمكن أن يقال أيضاً عن موقف عالم كبير هو سير ألفرد راسل والاس A. R. Wallace الذى يعد فى البيولوجيا نداً لداروين ويعتبر التطور بمفهومه الحديث نظرية شائعة بينهما أعلناها معاً فى سنة ١٨٥٨، وهى مكملة لما قال به قبلهما عن التطور لامارك وسبنسر . فما كان يمكن أن يتأتى لوالاس أن يسلم بصحة الظواهر الوساطية كحقيقة علمية مقررة ، وبصحة خلود الإنسان ، ويؤلف كتابين معروفين فى هذه الموضوعات مالم يوفق أولا بين نظريته العلمية فى التطور وبين هذه الكشوف الروحية الجديدة، إذ أن علم العالم هو فى نفس الوقت عقيدته وهو نبراسه الوحيد فى الحياة.

بل إن من يتأمل قليلا فى حقيقة وجود جسد أثيرى للإنسان ، يتبين له أن ناموس التطور والارتقاء ، عن طريق الانتخاب الطبيعى ، يصبح غير مفهوم بغير وجود هذا الجسد الأثيرى المتطور الذى يحمل العقل . فالتطور يبدأ فى العقل أولا ، ثم يفرضه العقل على الجسد الأثيرى ، ثم يفرضه هذا الأخير على الجسد المادى على الأمد البعيد خلال مصاحبتهما الأرضية اللازمة بحكم الصلة المحتومة بين العقل والمادة ، وقد تبين أنه ليس هناك من كيان متصور لأحدهما بدون الآخر .

---

(١) عن « الكتاب الذهبى للخلود » (١٩٥٤) .
The Golden Book Of Immortality. Compiled by: Thomas Curtis Clark and Hazel Davis. Clark:
ص ٥٤

فالعقل لا يستغنى عن المادة بحكم حاجته لإظهار نفسه ، والمادة لا تستغنى عن العقل للمحافظة عليها فى أضعف الفروض ولخلقها فى أقواها . والعقل ينمو عن طريق صلته بالمادة ، لأنها تقاومه وتؤثر فيه فتؤلمه وتدعوه إلى العمل الدائب فى سبيل التغلب على عقباتها . ثم إنها تفرض عليه بقاء محتوماً فى عالم شقى — كأشد ما يكون الشقاء — محكوم بنواميس المادة، وهى شديدة الوطأة على الروح . بما يدفع العقل إلى النمو التدريجى البطىء عن طريق الألم الذى يفرضه عليه الالتصاق بالمادة الصلبة والخضوع لنواميس عالمها الأرضى .

كما ينمو العقل من التأمل فى حقائق هذا العالم المادى . ومن الخبرة التى يحصل عليها تدريجياً بسبب صلاته المحتومة بعقول الآخرين، والمحكومة أيضاً بمطالب الجسد المادى الملازم له إلى حين . وذلك قبل أن ينطلق إلى عالم من مادة رقيقة (أثيرية) تخضع لتأثيره المباشر ولا يخضع هو لها فلا يعود يتألم بها . ولا ينشىء من الصلات إلا ما يلتئم مع احتياجاته العقلية دون البدنيـــــة .

فكان مادة الجسم الحيوانى تتطور عن طريق صلتها بالعقل فى تطوره البطىء عندما يحدث تأثيره فيها تدريجياً على مر الحقب والأجيال ، لأن العقل هو الذى يوجه فى النهاية المادة الحيوانية التى تعطيه جسماً وشكلا خارجياً ، مهما بدا محكوماً بها بسبب شديد وطأتها عليه ، ولذا كانت عملية التطور بطيئة غاية البطء . ومن هنا جاء ناموس التطور — عن طريق الانتخاب الطبيعى — واضحاً مفهوماً عن طريق التسليم بالعقل وبالجسد الأثيرى وبالخلود ، غامضاً غير مفهوم عن غير هذا الطريق .

ولذا لم يقف فهم التطور لدى ألفرد راسل والاس عند حد التسليم بوجود عوامل روحانية وراء تطور الحياة على هذا الكوكب الضئيل ، بل راح يؤكد أيضاً اقتناعه الصريح بوجود الملائكة — هذا الاقتناع الذى كان يبدو أمام علماء القرن التاسع عشر فى أوروبا مبعثاً للسخرية — غير

عابىء بسخريتهم ، بل راح هذا العالم الفيلسوف الذى يوضع على قدم المساواة مع داروين فى إرساء أسس نظرية التطور بمفهومها الحديث ، يؤكد «ان للملائكة دورهم فى النشـــاط الكونى ، بل وفى تفسير سير عجلة الحياة فى العالم ... وأن مجموع العالم عبارة عن مظهر للقوة العظمى التى تبعث فى الكون الحياة ، وربما لا تبعثها رأسا ، بل عن طريق توسط سفراء لهذه القوة ، وهم الملائكة الذين يعمل كل منهم



ألفرد رسل والاس

بحسب درجة ذكائه وقدرته . . . فلا يمكن أن توجد هوة لا نهاية لها بين الإنسان وبين الروح العظمى للعالم ، إن افتراضاً كهذا يبدو غير راجح إلى أقصى الدرجات» .

* * *

وفى هذا الشأن يقول أيضاً الأستاذ روبرت بروم R. Broom عضو الجمعية الملكية (المجمع العلمى البريطانى) وهو من علماء البيولوجيا المعاصرين إن بحوثه الخاصة فى البيولوجيا خلال الخمسين السنة الأخيرة لم تقنعه فحسب أن الصور الحديثة للحياة نجمت عن التطور ، بل أيضاً أن التطور لم يأتِ عفواً ، لكنه تم بقيادة مصمم روحى أو مصممين عديدين ، وقد وصلت إلى ذلك بالبينـة التى أرضتنى . وإن داروين رغم المكانة الكبرى التى سيحتلها دائما فى تاريخ الحيوان والنبات ، إلا أن نظريته فى الانتخاب الطبيعى تبدو فى تقديرى أبعد ما تكون عن الإرضاء ، بل حتى ألفريد راسل والاس وهو الذى أعلنها مع داروين فى سنة ١٨٥٨ قد عدل عنها فيما بعد .

أما أن التطور قد حدث فعلا فذلك أمر مؤكد ، لكن لا توجد لدينا حتى الآن نظرية مرضية تماماً لتعليله . ونظرية لامارك Lamarck

التى تتضمن الاعتراف بعنصر روحى فى التطور أقرب إلى الصدق من نظرية داروين ، لكنها ليست مع ذلك مرضية تماماً على النحو الذى خلفها لنا فيه لامارك» . ثم يضيف بروم قائلا إن ألفرد راسل والاس انتهى فى أواخر أيامه إلى تعليل مذهبه فى التطور بإيمانه بعدة عوامل روحانية لا تسمو إلى القدرة الكاملة ولا إلى الحكمة الكاملة .

وأمران يبدو أنهما محققان : أحدهما التطور الذى افضى إلى خلق الإنسان من تدبير قدرة روحانية عظيمة . والأمر الآخر أن هذا التدبير تتولاه عوامل ثانوية تخطىء فى إنجازه ، ولكن الغاية المطلوبة تتحقق فى النهاية على الرغم من هذه الأخطاء . إن ملاءمة الحيوانات لبيئتها ترجع فيما يبدو إلى عنصر روحى غير واع فى الحيوانات . وإن عدداً من علماء الحيوان يعتقد بوجود قوة روحية تقود التطور نحو غاية محددة ، ومنهم روبرت تشامبرز Robert Chambers الذى يبدو أن عنده فكرة واضحة تماماً فيما يبدو أنه الحقيقة ، وكذلك برجسون الذى يبدو أنه قد تأثر ببينات كثيرة عن وجود قوة موجهة خلف التطور[1] .

ثم يضيف بروم «وكان راسل والاس فى شيخوخته يعتقد أن الكون المادى هو مظهر للكون الروحانى ، وأن فى الكون الروحانى أنماطاً من العوامل الفعالة من القوى العليا إلى الأرواح الكامنة فى الخلايا الحية . وربما تعذر إثبات هـــذه التقديرات بالبرهان القاطع ، ولكنها فيما نراه أصلح لتوضيح الوقائع من أى تقدير يأخذ به الماديون . وإن آراء تيندال Tyndall لا تستحق فى هذه الأيام أى اعتبار جدى .

كما أن نظريات داروين وهكسلى ، بل وحتى نظرية داروين المعدلة تبدو بسهولة غير كافية على الإطلاق . بل إن ميفارت Mivart منذ سنوات كثيرة ماضية لم يتردد فى أن يصف نظرية داروين بأنها فرض صبيانى ، وينبغى أن أدرج نفسى بين أولئك الذين ينظرون إلى نظرية داروين (عن مادية

(١) راجع ما سبق فى هذا الشأن فى ص ٥١٨ — ٥٢٢ .

التطور) بوصفها نظرية غير مرضية على الإطلاق فى أية صورة كانت » .

ثم يقول بروم : « ومتى سوغ الباحث لنفسه أن يقتنع بصدور التطور عن قوة أو قوى توجهه إلى خلق الإنسان — فمن النتائج التى تنساق إليه مع هذا الاقتناع طواعية أن ظهور كائنات كبيرة الدماغ تسير على قدمين لا يعقل أن يكون هو غاية القصد من تمهيد ملايين السنين ، وأحرى أن يكون القصد من هذا التدبير إنشاء كائنات روحية تبقى بعد موت الجسد . وبالتالى ينبغى أن ينظر إلى جميع الناس بوصفهم إخوة ...

وهناك نتيجة هامة تبدو مترتبة على دراسة التطور، وهى أن القوى التى طورت الإنسان يبدو منها أنها ذات خبرة ، وأنها قادت فيما مضى — وفيما يبدو كنتيجة محتومة — خطى التطور فى أكوان أخرى ، وأن هناك كائنات لا تخالف الإنسان ينبغى أن تسكن فيما يبدو آلافاً ، وربما ملايين من الأكوان الأخرى . إن العلم يقود إلى نتائج لا تخالف تلك التى تنجم عما وصل إليه بالإلهام والكشف المعلمون الدينيون الكبار ... » . هذه هى شهادة بروم عالم البيولوجيا المعروف نعرضها على القارىء بوصفها تمثل وجهة نظر عالم حديث فى البيولوجيا، كيما يتبين لأى مدى بلغ التطور فى فهم نظرية التطور، وما كان لنظرية التطور أن تصاب بدورها بالجمود والتوقف !!

المبحث الثالث

موقف بعض علماء النفس وما وراء النفس

ما ذكرناه فى المبحث السابق عن موقف بعض علماء المادة من ناحية اقتناعهم بالتطابق التام بين علومهم وبين كشوف علم الروح الحديث يصدق أيضا على موقف لفيف من علماء النفس وما وراء النفس والروح ممن قضوا

(١) راجع ص ٢٩ — ٣١ من مجموعة « الروح العصرى يتجه نحو فلسفة الإيمان » الصادرة فى سنة ١٩٥١ .

Modern Spirit Towards A Philosophy Of Faith.

شطراً كبيراً من حياتهم ، باحثين مدققين فى موضوع هذه الظواهر الوساطية بغير ارتباط سابق بأية وجهة نظر فى شأن مدى صحتها ومدى دلالتها . فبحوث الباراسيكولوجى — ومثلها تماماً بحوث ما وراء الروح — لها طابع مميز عن بحوث الروحية الصرف Spiritisme وهو أنها لا تتخذ لها نقطة بداءة أساسها التسليم بحياة الإنسان بعد الموت . بل إنها أقرب إلى أن تبدأ منكرة هذا التسليم وتنتهى بعدئذ حيثما تقودها نتائج بحوثها. فإذا كانت قد انتهت إلى التسليم بحياة الإنسان بعد الموت وبإسناد عدد من الظواهر الروحية المختلفة إلى أرواح من نسميهم بالموتى كان ذلك أقوى فى الدلالة على صحة هذا الموضوع من أى بحث آخر لا يتحفظ مثل هذا التحفظ الهام ، فيبدأ حيث كان ينبغى أن ينتهى .

وقد عبر عن هذا المعنى الدكتور جوستاف جيلى G. Geley[1] مدير المعهد الدولى لما وراء الروح، بباريس فى خطبة له فى مؤتمر دولى للبحوث الروحية عقد بمدينة كوبنهاجن فى سنة ١٩٢١[2] عندما قال «إن المبدأ الثالث للفلسفة وراء الروحية هو مبدأ تحفظ وحذر يجعلنا نحتاط من النظريات المدرسية ومن أنظمة العلوم الخفية Occultisme ومن الثيوصوفية ومن الاسبرتزم . فلا يوجد فى أساس علمنا نظريات مقررة أو مفروضة صحتها مقدماً . فإنه إذا كانت حياة الإنسان بعد فناء أعضائه المادية ومصيره هناك من مشكلات ما وراء الروحية، إلا أن هذه المشكلات الخطيرة لن تحل بحسب ما يبدو لنا إلا فى نهاية المطاف ...

إلى أن يقول « إن الإثبات المباشر لحياة الكائنات بعد الموت — إذا كان ممكناً — لن يكون هو أساس البنيـــان الوراء الروحى ، ولكن تتويجاً له » .

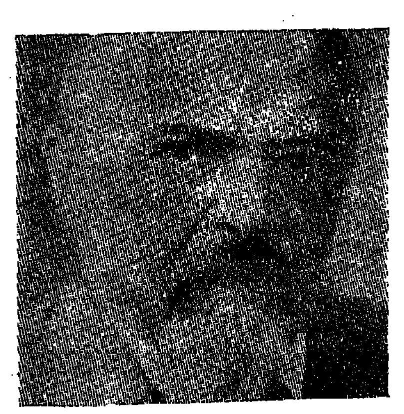
---

(١) راجع ما سبق عنه فى الجزء الأول ص ٢٧٩ — ٢٨٩.

(٢) Congrès de Recherches Psychiques

وما يصدق على مادة ماوراء الروح يصدق على مادة الباراسيكولوجى أيضاً لأن أساسها ليس هو محاولة الاتصال بأرواح الموتى، بل فقط دراسة الظواهر الوساطية غير المألوفة والخروج منها بدلالاتها المحتومة .... فما العمل إذا كان العدد الأكبر من علماء المادتين قد انتهى بعد سنين طويلة من البحث إلى تعليل عدد من هذه الظواهر بثبوت حياة الإنسان بعد الموت، وإسنادها صراحة إلى أرواح الموتى؟

ولأدع الحديث فى هــذا الشأن لهانز دريش H. Driesch (١٨٦٧ — ١٩٤١) أستاذ الفلسفة والسيكولوجيا بجامعات هيدلبرج وكولونيا وليبزج — وأحد علماء النفس المعدودين ورئيس « جمعية البحث الروحى » بلندن فى وقت ما — وهو يصرح بأن « بعض الظواهر ما وراء الروحية الاستثنائية يمكن تفسيره بسهولة — فى الوضع الراهن لمعارفنا — بتداخل روح إنسان يواصل حياته بعد الموت أكثر مما يمكن تفسيره بملكات غير عادية لبعض الأحياء »[1].



هانز دريش

وكل ذلك كتب وقيل منذ أكثر من أربعين عاماً، فما بالك بما يكتب اليوم ويقال على لسان غيرهم مثل الأستاذ ج. ب راين B.Rhine رئيس قسم الباراسيكولوجى بجامعة ديوك بأمريكا ومدير معاملها، وقد أخذ يحاضر

---

(١) راجع مؤلف « الحقيقة الروحية مصدر سعادة » La verité Spirite Source De Bonheur للأستاذ جوزيف ميرا Joseph Mira باريس ١٩٥٣ . ولهانز دريش مؤلف معروف عنوانه Para Psychology ظهرت طبعته الثالثة فى زيوريخ بسويسرا فى سنة ١٩٥٢ .

فى ثبوت استمرار الحياة بعد الموت والاتصال بأرواح الموتى فى أحسن معاهد أمريكا وانجلترا معاً ؟[١].

* * *

ومثلهم تشارلس بروض Charles Dunbar Broad (ولد فى سنة ١٨٨٧) — وهو أكبر فيلسوف بريطانى معاصر — وأستاذ فلسفة الأخلاق Moral Philosophy بجامعة كمبريدج Cambridge منذ سنة ١٩٣٣ حتى الآن — عند ما وضع كتابه عن «العقل ومكانه فى الطبيعة»، وفيه نادى بصحة الظواهر الوساطية وبدلالتها فى الإنباء عن الحياة بعد الموت، وسيطرة الأرواح على جسوم الوسطاء، مبيناً كيف أن العامل الروحى Psychic Factor للإنسان الميت يستحوذ مؤقتاً على جسد الوسيط فينبعث منه عقل كما كانت الحال من قبل، وهذا العقل ليس هو عقل الوسيط طالما كان هو العامل الروحى للإنسان الميت . وهذا العقل يظل فعالا طيلة مدة الجلسة ، أو إلى الوقت الذى يفيق فيه الوسيط من غيبوبته فتعود روحه الخاصة من جديد للسيطرة على جسده، وتواصل وجودها بعد انقطاعه[٢].

وقد خطب بروض فى «المعهد الملكى للفلسفة» بلندن فى شهر مايو من سنة ١٩٤٩ قائلا إن هناك بعض ظواهر روحية لا يمكن أن تفسرها الفلسفة، وضرب عدة أمثلة من بينها «أننا حين نفحص حالات التواصل خلال وسطاء الغيبوبة نجد أشياء كثيرة جداً غير عادية . ومن هذه الأشياء تلك الحالات التى تشير إلى أنه قد يكون المتحدث بلسان الوسيط الواقع فى الغيبوبة شخص ميت عاد بعد موته كيما يتحدث» .

---

(١) راجع ما سبق عنه فى الجزء الأول ص ١٧٥ إلى ١٨٢ ، ٤٦٧ — ٤٧٠ .

(٢) The Mind And Its Place In Nature. 1925

راجع بوجه خاص الفصل السادس ص ١٦٩ — ١٧١ والثانى عشر ص ٥٣٥ — ٥٥٠

وراجع أيضاً الدليل إلى الفكر الحديث Guide To Modern Thought للسترجود C. E. M. Joad طبعة ٢ ص ٢٢٢ — ٢٢٤.

ثم شبه بروض الوسطاء — إلى حد ما — بالحجر المغناطيسي ، فوجود مجال المغناطيسية الأرضية لم يدركه أحد حتى أثبت الحجر المغناطيسي وجوده ، والوسطاء كذلك قد يكونون مدركين لمجالات تحيط بنا ولكننا لا ندركها .



بروض

كما وجه الأنظار إلى النظرية القائلة بأن وظيفة المخ والمجموع العصبي تعمل على حمايتنا بإبعاد المعلومات غير اللازمة وترك ما يكون ذا فائدة ، ويرى أن توسيع هذه النظرية فى النواحي الروحية قد يفسح أمامنا مجالا كبيراً للبحث ...

ثم انظره وهو يقدم كتاباً حديثاً عنوانه « بجعة على بحر السواد »(١) تلقته — بالجلاء السمعي — وسيطة روحية معاصرة وهي السيدة برتا هاريس Bertha Harris ونشرته فى شهر يونية من سنة ١٩٦٥ قائلا « إن هذه المخطوطات خضعت للفحص بمعرفتي وبمعرفة أعضاء كبار من جمعية البحث الروحي(٢). ومنذ هذا الوقت قرأت الأدلة ووجدتها ذات قيمة عظمى ، وإنى مقتنع بأن هذه المخطوطات تمثل إضافة هامة جداً للكتلة الضخمة من المواد التى من هذا القبيل، والتى تشير من أول وهلة وبدرجة قوية إلى أن هناك كائنات إنسانية معينة عاشت بعد موت أجسادها الفيزيقية ، وأمكنها أن تتصل بأشخاص آخرين معينين ممن لا يزالون فى أجسادهم » .

ومثل هذه الشهادة الضخمة لا تعطى فى يسر ولا بسهولة، من فيلسوف معاصر

---

(١) Swan On A Black Sea.

(٢) راجع ما سبق عنها فى الجزء الأول ص ١٩٦ وما بعدها .

صاحب عدة مؤلفات عميقة فى العقل والفلسفة والأخلاق[١] ، بل سبقها فحص وتحقيق طويلين بمعرفته بالاشتراك — كما قال — مع أعضاء كبار من « جمعية البحث الروحى » بلندن التى انتخب رئيساً لها لمدة أربع سنوات من ١٩٣٢ إلى ١٩٣٦ ولا يزال عضواً فيها حتى الآن ، والتى تضم صفوة من علماء النفس والمادة من عدة دول ... فهل تعادل هذه الشهادة الخطيرة فى كل حرف منها — وأمثالها كثير الآن — ما نقرأه أحياناً من مرتجل القول من هذا الكاتب أو ذاك ؟...

* * *

ومثل ذلك يمكن أن يقال عن موقف الفسيولوجى المعروف شارل ريشيه Ch. Richet هذا العالم الذى وصفه الأستاذ رينيه سيدر René Sudre بأنه الرائد الفرنسى العظيم الذى رد إلى علم الغيب التجريبى اعتباره ، فقد أجرى تجاربه فى الظواهر الوساطية تحت وصف علم « ما وراء الروح » Métapsychique حتى لا يرتبط بالتسليم أيضاً بوجود عالم غير منظور ، وظل يواصل تجاربه هذه لعشرات من السنين — ثم اختتمها بمؤلف عنوانه «ثلاثون عاماً من البحث الروحى»[٢] — وذلك رغم تدفق الظواهر والبينات التى سجلها إلى أدق تفاصيلها فى مؤلفاته ، دون أن يقيد نفسه بتعليل صريح إلا فى ختام حياته ... لماذا ؟

لأنه أراد أولا أن يذلل العقبات النظرية التى أثارتها فى ذهنه معلوماته الواسعة فى الفسيولوجيا ، أى فى علم وظائف الأعضاء ، وهو وثيق صلة بالظواهر الوساطية ، خصوصاً منها ذلك النوع المسمى بالظواهر الفيزيقية ، مثل انبعاث مادة الاكتوبلازم فى صور كثيرة أثناء الغيبوبة الوساطية ، مع اتخاذها أشكالا مختلفة وإحداثها تحركات شتى ثم عودتها إلى جسم الوسيط أو الوسيطة بوسائل يكاد يجهلها حتى الآن العلم المادى .

---

(١) من مؤلفاته : Perception, Physics And Reality (1914).
Five Types Of Ethical Theory (1930).
Ethics And The History Of Philosophy (1952).

(٢) Tsente Anneés De Recherches Psychiques.

فلما ذلل ريشيه هذه العقبات ومعها عقبات أخرى مستمدة من علم النفس، وكان أيضاً من المبرزين فيه ، وجد أن التعليل الروحى هو التعليل الوحيد الذى يفسر هذه الظواهر مجتمعة على ما أعلنه وتقيد به أمام ضميره، وأمام العالم العلمى بعد بحوثه الشاقة الطويلة . وبعبارة أخرى أن ريشيه لم يقتنع روحياً إلا بعد أن اقتنع « فسيولوجياً وسيكولوجياً » أولا . ولو تعذر عنده الاقتناع الأول لتعذر بالتبعية الاقتناع الثانى ، لأن هؤلاء العلماء لا يعترفون بحقيقة أخرى صحيحة ـ من الناحية العقلية بالأقل ـ إلا تلك التى تجىء من ناحية الاقتناع العلمى الذى هو فى تقديرهم أقوى صور الاقتناع وأجدرها بالبحث عنه[١] .

فلم يكن اقتناع ريشيه إذاً سطحياً ولا متبسراً ، بل كان اقتناعاً هادئاً مترَوى فيه ، وقد تحمل بشجاعة العالم المدقق مسئوليته عندما قدم بتاريخ ١٣ فبراير سنة ١٩٢٢ مؤلفه «فيما ماوراء الروح[٢]» فى صورة تقرير إلى أكاديمية العلوم بباريس ، التى كان من أبرز أعضائها .

ويصدق هذا القول حتى على اقتناعه بصحة الظواهر الوساطية الموضوعية التى لاحظ أنها تتعرض أكثر من غيرها للهجوم ، وتقتضى عناء أكثر من غيرها فى تحقيقها والدفاع عنها لأنها نادرة جداً ، وفى الغالب غير مستقرة inconstants ، أى غير خاضعة فى حدوثها لإرادة إنسان ما ، وقد تتأثر برواسب فيزيولوجية أو خلقية عند الوسيط أو الوسيطة .

بل يذهب ريشيه متسائلا : «ألا توجد درجات فى اليقين؟ فمثلا إننى متأكد من أن الأيدروجين يمكن أن يتحد بالأوكسيجين ، كما أننى متأكد أنه لا يوجد تكاثر ذاتى Generation Spontanée[٣]. هذان يقينان ، ولكن أولهما أقوى

---

(١) راجع ما سبق عن ريشيه فى الجزء الأول ص ٣٤٠ — ٣٥٧ .

(٢) Traité De La Métapsychique.

(٣) أى عن غير طريق التوالد ، وبعبارة أخرى أن الكائنات لا يمكن أن توجد نفسها بنفسها .

من ثانيهما ، وبنفس الطريقة أنا متيقن من أن الظواهر الموضوعية ـالوراء الروحية صحيحة[١] ، ولكنى أكثر تيقناً من صحة الظواهر الشخصية الوراء الروحية[٢] » . ثم عاد فى مؤلفه «ثلاثون عاماً من البحث الروحى» لتسجيل ظواهر موضوعية تيقن منها بكل أساليب التحقيق الصارم .

* * *

وهكذا أصبحت مادتا الباراسيكولوجى وماوراء الروح هما الوسيلة العملية المعترف بها علمياً للبحث فى الروح، وفيما يتصل بخصائصها وملكاتها واستقلالها عن الجسد المادى ، و «احتمال» بقائها بعد موت هذا الجسد . فبحوثهما بدأت غير متقيدة بأى قيد ، لكنها انتهت ـ عند غالبية الباحثين الكبار ـ بأن أثبتت هذا البقاء . وفى ذلك وحده من الضمان العلمى وبواعث الاطمئنان ما فيه .

كما انتهت ـ عند إجماعهم ـ إلى نبذ المدارس السيكولوجية المادية التى مقتضاها إنكار كل قوة خارج المخ والحواس الفيزيقية نبذاً تاماً ، ومثلها بالتالى الإصرار على أن فناء المخ يؤدى بالتالى إلى فناء العقل . فإن من لم يقتنع حتى الآن اقتناعاً تاماً من علماء الباراسيكولوجى ببقاء الحياة بعد موت الجسد يقف بالأقل موقفاً محايداً تماماً ـ لا إثبات فيه ولا إنكار ـ من هذا الموضوع الخطير ، وهو موقف علمى لا تثريب فيه ، لأن من الأصول العلمية عدم سهولة الاقتناع .

لكنه على أية حال لا يمس فى شىء قيمة النتائج الإيجابية العديدة التى وصل إليها بحاث الروح ، بل إن هذا الموقف المحايد يعتبر مكملا لهذه

---

(١) ومنها تحريك الأجسام الصلبة بدون وسيلة مادية La Télékinesie وظواهر الاكتوبلازم والتجسدات .

(٢) ومنها التلباثى (أى قراءة الفكر) والسيكومترى Crypthestesie والإدراك عن غير طريق الحواس Perception extra sensorielle وهو الذى عالجه فى مؤلفه عن حاستنا السادسة Notre Sixième Sens.

البحوث الأخيرة، وخطوة للأمام لا بد منها فى طريق التسليم بها عند من يقارن بين هذا الموقف الحالى والموقف الذى كان يميز علم النفس فى القرن الماضى، عندما كانت مدارسه السائدة تقف موقفاً عدائياً صريحاً من علم الروح ومن نتائجه لإيجابية.

فعلم النفس الآن لا يقف هذا الموقف العدائى، بل يقف موقف التسليم الصريح، أو الحياد الصريح. وهذه ظاهرة من التحول الواضح ينبغى أن نسجلها هنا لمصلحة علم الروح، ومع مراعاة أن حصول الاتصال بالأرواح فى بيئات علمية تحت وصف الباراسيكولوجى أو ما وراء الروح لا ينفى إمكان حصوله فى غيرها، إذ أن دور البحوث العلمية فى هذا الشأن ليس هو إحداث هذه الظواهر الوساطية بأساليب مادية، أو بأجهزة خاصة، بل إن دوره هو مجرد إخضاع هذه الظواهر للتحقيق العلمى متى حدثت للتثبت منها، ولنفى شبهة التدليس فيها، ثم لما هو أخطر من ذلك كله وهو الخروج منها بدلالاتها العلمية المحتومة.

ومن ثم يظهر بجلاء صحة ما سبق أن أشرنا إليه من أن نتائج البحوث الروحية قد أصبحت حقائق علمية مترابطة فيما بينها، وفى نفس الوقت مرتبطة بحقائق الفلسفة، بل أيضا بحقائق العلوم الأخرى وثيق ارتباط. تستوى فى ذلك حقائق علمى النفس والأخلاق مع حقائق الفيزياء والرياضة. فالمنطق العلمى يأبى التفكك ومقدماته تدل حتماً على نتائجه، وفى ذلك تتمثل كل قوة العلم العصرى، وكل ثقة الناس فى علوم العلماء وكشوفهم، وكل النتائج الضخمة التى تكشفت عنها، وما تزال تتكشف كل يوم.

وهكذا يبين أيضاً بوضوح كيف أن اقتناع هؤلاء العلماء الكبار الذين جعلنا عرض موقفهم من العلم الروحى الحديث — ومدى اتصالهم به — هو جوهر الحقيقة التى يقوم عليها المؤلف الحالى لم يكن يمثل عقيدة لديهم موروثة، بل كان بحثاً علمياً صرفاً، ولم يكن أمراً هيناً ولا بنياناً سطحياً

مؤسساً على دراسة محض ظواهر وساطية مهما كان وضوحها وتدفقها .

بل كان اقتناعهم علمياً مترابطاً كأقوى ما يكون الاقتناع قوة ومبعثا للثقة فى مقدماته ونتائجه على السواء ، وبغير ما حاجة إلى الدخول فى تفاصيل هذا الاقتناع وجزئياته مهما اختلف الرأى فيها أو اتفق ، ما دمنا لا زلنا فى مرحلة التقديم لهذا البحث الناشىء ، وفى معرض إثبات أنه أصبح يمثل علماً حقيقياً له كل خصائص العلوم الأخرى التى اعتاد عليها عقل الإنسان ، بدلالة هذا الدور الضخم الذى قام به فيه بعض أساطين العلوم الأخرى متبعين فيه نفس الأسلوب العلمى الناقد الذى اتبعوه فى غيره ، والذى لا يمت بأية صلة إلى أسلوب الاعتقاد الصرف أو التقليد .

وبحوثهم نفسها تقطع بذلك . وقد أشرنا إلى ما ذكره برجنسون عدة مرات من أنه يستند إلى تجارب واقعية ، ومثله وليام جيمس ، وباقى العلماء والفلاسفة الروحيين المعاصرين . كما أكد أوليفر لودج — فى محاضرة له ترجع إلى سنة ١٩٣٤ — ذلك عندما قال « إننى لم أصل إلى معتقدى فى صحة هذا الأمر عن طريق التأثير الدينى ، وإنما بنيت اعتقادى فيه على نتائج التجارب العلمية التى قمت بها فى مجال العلم الواسع المدارك . هذا العلم الذى ينبغى عليه كما أعتقد أن يلتفت إلى هذه الظواهر ، فلا يقصر أمره على ظواهر المادة كما حمله على ذلك علماء القرن التاسع عشر ، بل ورجال العلم منذ نيوتن » .

ومغزى هذا القول يظهر أكثر وضوحاً إذا ما لاحظنا كيف أن تمحيص هذه الظواهر الوساطية، بكل عناية وأناة، لم يكن هو كل نشاط هؤلاء العلماء الكبار فيه ، بل كان أول نشاط لهم فحسب . ذلك أنهم أرادوا فى مبدأ الأمر أن يحصلوا على قدر من المعرفة الحسية التى من شأنها كما يقول الفيلسوف ويلهلم ليبنتز Lebnitz (١٦٤٦ — ١٧٢٦) أن تؤدى إلى اليقين أسوة بالمعرفة البرهانية والحدسية لكن بشرط الارتباط بين الظواهر ، ذلك الارتباط الذى يضفى على هذه المعرفة يقيناً مستمداً من يقين المعرفة العقلية .

ولما حصل هؤلاء العلماء على يقين المعرفة العقلية كان عليهم أن ينتقلوا إلى مرحلة أشد مشقة وخطورة ، وهى مرحلة الوصول إلى الارتباط بين الظواهر عن طريق تعليل يرضى منطق علومهم المادية إرضاء تاماً ، ويصمد لأسلوب النقد العلمى . وهذه المرحلة الثانية هى التى اقتضت منهم التأنى فى إعلان صحة الظواهر الروحية لمدى سنين طوال قبل أن يغامروا بإعلانها .

وهذه السنون امتدت عندهم إلى عشرات منها ، فوصلت عند بعضهم إلى ثلاثين أو أربعين أو خمسين عاماً قبل إعلان رأيهم حاسماً فى هذا الشأن ، كما وضح من نفس تصريحاتهم فى مؤلفاتهم التى أشرنا إليها آنفاً ، وذلك لعدة اعتبارات منها : أولا : لأنهم بدأوا منكرين هذه الظواهر كما قلنا ، وثانياً : لأنهم أدركوا تماماً مدى خطورة دلالتها بوصفها حقائق علمية ثابتة على دوام الحياة بعد موت الجسد المادى ، وثالثاً : لأنهم كانوا يعلمون أن هذا الإعلان معناه المحتوم أنهم سيربطون أسماءهم وتاريخهم بهذا الموضوع الروحى الخطير — كحقيقة وضعية مقررة — فى عصر مادى صرف ، وأنهم بذلك إنما يعلنون وثائق بالغة الأهمية عن أفول عصر وشروق آخر جديد على جمهور من العلماء وغير العلماء سيحاسبهم عسير حساب على أسانيد هذا الإعلان الخطير ونتائجه المحتومة .

وسيشعلها هذا الجمهور من العلماء وغيرهم ناراً حامية هيهات أن تنطفىء ، وقودها جميع الأساليب العلمية وغير العلمية وجميع الوسائل الخلقية وغير الخلقية ، كما كان الشأن دائماً فى كل كشف جديد مهما كانت ضآلة قدره . فما بالك بكشف يقلب رأساً على عقب أخطر نظريات الماضى ، ومعها آراء لجة لا تحصى تقوم عليها ، وذلك بعد أن تمكنت مع الوقت من عقول العلماء وأفئدتهم ، حتى أن زحزحتها أصبحت تتطلب جهوداً عسيرة قد تمتد إلى عشرات من السنين المقبلة ، كيما تستقر لهذا العصر الروحى دعائمه النهائية فى حقائق العلم الحديث وفى وجدان المجتمع .

الفصل الثانى

دور العلم الروحى الحديث
فى توضيح الاعتقاد

أشرنا فيما سبق إلى أن العلم الروحى الحديث قام فى توضيح الاعتقاد بدور لا يضارعه فيه أى علم آخر من علوم المادة ، وذلك أمر طبيعى لأن صلة كافة العقائد بالروح أوثق من صلتها بالمادة . وبقى الآن أن نبين كيف قام علم الروح بهذا الدور ، وفى أى نطاق وإلى أى مدى .

ويتعين ابتداء أن نبين أن ما يصدق على موقف عدد من رجال العلم المادى عندما أمكنهم أن يربطوا بين علومهم ونظرياتهم وبين حقائق الروحية الحديثة ، هو بعينه — من الناحية الفلسفية — موقف بعض كبار رجال العقيدة عندما أمكنهم — هم أيضاً — أن يربطوا بين فهمهم للعقيدة وبين هذه الحقائق . ويصدق ذلك مثلا على الشيخ طنطاوى جوهرى والعلامة محمد فريد وجدى وغيرهما فى بلادنا ، كما يصدق على الأسقفين ستانتون موزس وشارل تويديل وغيرهما فى الخارج ، ممن أقبلوا على بحث أمر هذه الحقائق الروحية الحديثة والدفاع عن نتائجها .

فلولا اقتناعهم التام بأن هذه الحقائق متفقة مع جوهر فهمهم للاعتقاد ، بل لولا يقينهم بأنها مكملة للاعتقاد ومفسرة له ، لما كان من الممكن أن يتحول أيهم إلى باحث فيها وأن ينصب نفسه مدافعاً عن نتائجها متحملا الكثير من العناء ، ومن تهجم الأدعياء الذين تعودوا أن يتهموا كل صاحب أفق واسع أو رأى متطور أول مايتهموه فى صحة عقيدته ، إن لم يكن فى صحيح إدراكه للأمور .

وذلك يصدق أيضاً على عدد من رجال العقيدة ممن أفتوا فتاوى صريحة

وواضحة إلى جانب صحة علم الروح الحديث واتفاقه مع العقيدة ، ومنهم بوجه خاص الشيوخ الأجلاء الأساتذة محمد حسنين مخلوف (مفتى الديار المصرية) ومحمود شلتوت (شيخ الجامع الأزهر) ومحمد بخيت (مفتى الديار المصرية) ومحمد أبو زهرة (أستاذ الشريعة ووكيل كلية الحقوق) .

بل فليتأمل القارىء فيما كتبه الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى وهو يقدم كتاب « حياة محمد » للمرحوم الدكتور محمد حسين هيكل قائلا فى تقديمه « وعلم استحضار الأرواح فسر للناس شيئاً كثيراً مما كانوا فيه يختلفون . وأعان على فهم تجرد الروح وإمكان انفصالها ، وفهم ما تستطيعه من السرعة فى طى الأبعاد ... » فهل تصدر جزافاً مثل هذه الشهادة الخطيرة فى مثل هذا المقام الخطير من عالم جليل وشيخ للأزهر ، مالم يكن قد اطلع فى هذا العلم الاطلاع الكافى الذى أقنعه بصحة بحوثه واتفاق نتائجها مع فهمه للعقيدة ، حتى وجد أن هذه البحوث على حد تعبيره « تفسر للناس شيئاً كثيراً مما كانوا فيه يختلفون » ؟ ...[1]

فكأن المعارض المتسرع لهذا العلم باسم الاعتقاد يتحدى الآن بحوث الباحثين من فلاسفة وعلماء كبار فى كل مكان ومعها — فضلا عن المنطق السليم — هذه الفتاوى الصريحة الحاسمة لعدد من أبرز رجال الدين ممن يملكون بغير ما ريب صفة الإفتاء الدينى الصحيح فيه ، منتحلا — فى نفس الوقت — سلطة هذا الإفتاء التى لا يملك منها شيئا البتة .

بل إنه يتحدى — بالإضافة إلى ما تقدم — آراء الفلاسفة والأئمة الكبار من أمثال الرازى وابن القيم الجوزية والغزالى والفارابى وابن سيناء وابن رشد وابن طفيل وابن باجة وقد تحدثوا جميعهم عن خلود الأرواح ،

---

(١) راجع ما سبق فى الجزء الأول ص ٢٩٩ — ٣٠٨ . وراجع فى هذا الشأن مؤلفين حديثين صادرين فى سنة ١٩٦٥ ، أحدهما للأستاذ عبد الرزاق نوفل عنوانه « الحياة الأخرى » والآخر للأستاذ مصطفى السكيك عنوانه « بين عالمين : عالم المادة وعالم الروح » وقد عرضا فيه عرضاً موفقاً عدة جوانب من علم الروح الحديث من وجهة النظر الدينية ...

كما تحدث عدد منهم عن الصلات القائمة بين أرواح الأموات وأرواح الأحياء وتلاقيها وتزاورها كحقيقة واقعة. أى أنهم بحثوا فى موضوع الروح بأساليب عصرهم ووصلوا فيه إلى نتائج معينة عن طريق التفاسير والفلسفة، فلم يقل واحد منهم إن بحث هذه الصلات أو تحقيقها حرام أو فيه شبهة تحريم[١]. وذلك مع أن هذا البحث والتحقيق هما أصل رسالة العلم الروحى الحديث وجوهره .

فالعلم الروحى الحديث له أصل هام هو بحث هذه الصلات وما يرتبط به بحثها، وما يشير إليه من دلالات، بأسلوب معملى وفلسفى فى آن واحد . فهو فى جوهره دراسة للروح بمعنى الجسد الأثيرى للإنسان فحسب ، لا بمعنى الشعلة القدسية التى هى مصدر الحياة والتى لم يزعم أى عالم أنه عرف حقيقة كنهها ، أو أنه أخضعها لسلطان العلم المادى ، على ما وضحناه بأسانيده فى عدة مناسبات[٢] .

ولم يتغير فى الأمر شىء الآن سوى أن العلماء العصريين يستخدمون فى تحقيق الظواهر الوساطية وسائل آلية حديثة لم تكن معروفة من قبل، مثل التحاليل الكيميائية ، وأجهزة التصوير العادية والتى تعمل بالأشعة فوق البنفسجية أو دون الحمراء ، وبعض أجهزة كهربية وعادية للضبط والقياس والكتابة المباشرة ، بالإضافة إلى اتباع الأساليب الإحصائية والرياضية الحديثة لمعرفة ما يصح أن يعزى إلى المصادفة ، وما قد يفلت من قوانينها . وهذه الوسائل الآلية فى البحث والتحقيق هى كل الأمر الجديد فى الموضوع، أما أسس البحث فهى نفسها باقية على حالها لم يتغير منها شىء البتة . . . فعلام كل هذا الصخب و العويل باسم الاعتقاد ؟ !

وما يصدق على المعترض المتسرع باسم الإسلام يصدق — إلى نفس المدى — على المعترض باسم المسيحية ، وقد جاءت أقوال رسلها وآبائها صريحة

---

(١) راجع ما سبق فى الجزء الاول ص ٧٨ — ٨٦ .

(٢) راجع ما سبق فى الجزء الأول ص ٩٥ ، ٩٦، ٣٠٤ .

وحاسمة أيضا فى هذه المعانى ، وفى الدعوة الحارة المستمرة إلى العناية بالمواهب الروحية وتنميتها على ما بيناه فى موضع سابق(١) .

ولا ريب أن رجال العقائد الذين بحثوا موضوعات العلم الروحى الحديث ، واقتنعوا بصحة نتائجها إنما أدركوا أيضا أن هذه الحقائق تقيم صلحاً حقيقياً بين العلم والاعتقاد ، كما تقيم الصلح المأمول بين كافة الأجناس والأديان(٢) ... وذلك هو بالذات ما تمقته الجهالة والجمود ، وما ينبغى أن يقاوماه بكل ما يملكان من أساليب العنف والعدوان .

كما أدركوا حتماً أنهم عندما يقبلون على ضمائرهم أن تدافع عن نتائج كشوف اطمئنوا إلى صحتها إنما يثبتون بالإضافة إلى ما تقدم — بطريقة عملية — انتفاء التعارض بين العلم والاعتقاد ، فيحفظون للعقل قيمته وللحرية الفكرية — التى منها يستمد الإنسان جل عناصر وجوده وارتقائه — كل جلالها ، ويقدمون للناس حقائق علمية ودينية ضرورية للإنسان إلى أقصى ما يمكن للإدراك المستنير أن يصل إليه . وهى حقائق أحسن فى وصفها الإمام الغزالى عندما لاحظ أنه بالرغم من وجود الروح فى البدن فإن عليها أن تبحث عن المعرفة المتصلة بالله وعالم الملكوت . فأصلها من هناك ، وإذا أرادت أن تحيا الحياة التى تليق بها ، فإنها لا تستطيع أن تستقر أو يهدأ لها قرار إلا إذا عرفت ذلك الكون التى تنتمى إليه فى جوهرها ... (٣)

ثم إنهم قبل كل اعتبار آخر يقيمون الإيمان المستنير عمده وأسبابه العلمية فى نفوس الناس وضمائرهم ، لأنها أكثر اتساقاً مع منطق العلوم المختلفة وكشوفها الرائعة التى مهدت السبيل أمام الإنسانية فى تطورها السريع للأمام ، فضلا عن التئامها مع روح العصر ... ومع ضرورة المعرفة بالله

(١) راجع ما سبق فى الجزء الأول ص ٦٥ — ٧٧ .

(٢) راجع ما سبق فى هذا الجزء ص ٣٩٥ — ٤٢٢ .

(٣) عن كيمياء السعادة وهى من مجموعة «الجواهر الغوالى للإمام الغزالى» القاهرة ١٩٣٤ ص ١٦ .

وبمحكم آثاره كما يكشف عنها العلم الحديث رويداً رويداً ، هذه المعرفة التى هى بذاتها عبادة حقيقية لله تعالى .

وفى هذا الشأن يقول الدكتور أحمد زكى « فرق هائل بين أن يعبد الجاهل وأن يعبد العالم ... الجاهل الذى يعبد الله ، وهو لايدرى شيئاً عن الله وعن آثاره وعن محكم آثاره كما يكشف عنها العلم كاد أن يعبد الله كما يعبد الصنم ، لأن اقتناعه بقدرة الله وبعظمة الله فى أسلوبه وفى منهجه وفى مقداره كمثل اقتناع عابد الوثن بوثنه . ينشأ عابد الوثن على ما نشأ أبواه . قيل له إنه قدير ، فآمن . وإنه يعطى الشر ويعطى الخير فآمن . وحفظاه ما يدفع به نقمته ويستدر نعمته فراح يتلو صباح مساء كالببغاء . . فهذه عبادة الجهال . قل فيها ما تقول واعتذر عن أهل الجهل بما تعتذر فلن يغير هذا من الواقع شيئاً .

وغير هذا عبادة العلماء . إن عبادة العلماء ليست عبادة لفظ فحسب وإنما هى عبادة فكر وعبادة تأمل . فهى عبادة فكر أولا ثم لفظ ثانياً ، واللفظ أفرغ ما يكون إذا لم يملأه معنى ... »

إلى أن يقول : « فذلك هو العلم الحديث ، علم هذا الكون بالذى فيه من مواد وقوى وظواهر جارية أو ساكنة لهذه المواد والقوى . وهو إلى اليوم أثبت قاعدة يستقر عليها اعتقاد وإيمان ، ما انفسحت تلك القاعدة للعقائد والإيمان ، وهى رقعة تتسع على مر الأيام ، فهى تنفسح غداً لما لم تكن تنفسح له اليوم . فهذا العلم هو سبيل المعرفة بالله . وهو السبيل الأول والأقوم وهو آخر سبيل يجوز أن ترتفع إليه ريبة . والباحث فى العلم إذا استهدف ببحثه الكشف ، ولو بعض الكشف ، فى بعض جوانب الله فهو أكبر عابد وأكرم قائم وراكع وساجد .

والقارىء للعلم يريد به استكناه حقيقة هذا القائم الأعظم على الكون ، والقائم فيه إنما يعبدالله على أسلوب هو فى صنوف العبادات فوق الأساليب ، لأن العقل فيه يتحرك نحو الله عن علم ويمتلىء به قلبه عن معرفة ، ويمتزج

به عقلا وقلباً ، وجامعهما النور ، والنور لا يكون منه إلا الصـــفاء ، كما أن الجهالة لا يكون منها إلا العكر ، ومع العكر الظلام »[1].

تبويب

ودور العلم الروحى الحديث فى توضـيح رقعة الاعتقاد وتوسيعها وتثبيتها بوجه عام ، دور خطير ، متعدد الزوايا ، يتطلب كثيراً من الأناة فى معالجته لفرط اتصاله بعد يدمن جوانب الاعتقاد العزيزة على نفس كل إنسان ، وذلك يقتضينا أن نتعرض هنا لبعض موضوعاته موزعة على مباحث أربعة على النحو الآتى : —

المبحث الأول : بين أسلوبى العلم والاعتقاد .
المبحث الثانى : بعض جوانب الاعتقاد فى ضوء العلم الروحى الحديث.
المبحث الثالث : تطور المعرفة يثبت جلال الاعتقاد ولا ينفيه .
المبحث الرابع : التوفيق ميسور بين الاعتقاد وتطور المعرفة .

المبحث الأول

بين أسلوبى العلم والاعتقاد

هناك فارق جوهرى ينبغى أن يلاحظ ابتداء بين أسلوب البحث العلمى وأسلوب البحث فى الاعتقاد ، ذلك أن أولهما ينقد،أما ثانيهما فهو يعتقد . فالأول لا يشعر بأن هناك أى قيد يقيده من ناحية آراء الأولين أو المحدثين مالم يصمد على النقد . أما الثانى فهو يشعر أن الإيمان نفسه يفرض عليه مدى معيناً من التقيد بهذه الآراء السابقة ، فهو لا يحيد عنها أصلا ، أو قد يحيد عنها ولكن فى نطاق معين وإلى حد محدود . ومن ثم إذا فقد العلم قدرته على الانتقاد فقد فى نفس الوقت علة وجوده ، وإذا فقدت العقيدة قدرتها على الاعتقاد فقدت هى الأخرى علة هذا الوجود .

ثم إن العقيدة غير مطالبة بالتعليل ، أما البحث العلمى فهو فى جوهره

---

(١) عن مؤلفه « مع الله فى السماء » ص ١٨ ، ٢٠٠ .

تعليل للأمور وتأصيل ، ولو كانت واضحة بسيطة لأول وهلة . وهذا التعليل بما يقتضيه من نقد ومن تحليل لكافة الآراء هو البوتقة التي تصهر شتى النظريات العلمية — وما أكثر تعارضها — على نار الحقيقة للتمييز بين الغث منها والثمين . فهي تكشف تدريجياً وفي مشقة بالغة عن حقائق الحياة كما يكشف « حق الدفاع » النقاب أمام القاضي عن الأخطاء والأباطيل التي لو تركت على حالها لوجهت حكمه أسوأ توجيه ، ولنأت به حتماً عما يتوخاه من يقين .

فالأمر الذي يميز العالم الحقيقي عن غيره هو هذه القدرة على النقد الذاتي المتحرر الموضوعي بغية الوصول إلى حقائق الحياة ، وبغير الارتباط مقدماً بوجهة نظر معينة فيها ، مالم تصمد لوسائل التمحيص التي وصل إليها العلم في آخر مراحله . وهذه القدرة أيضاً على أن يفرح — ولا يغضب — عندما يكتشف عيباً أو نقصاً حتى في نظرياته الخاصة ، وآرائه التي درج عليها والتي كان يؤمن بها إيماناً تاماً فيما مضى ، مهما كبده الوصول إليها من عناء ، وكبده التنازل عنها من شجاعة التسليم العلني بالتراجع للعجز وللقصور .

فالعالم الذي لا يؤمن بتطور مستمر في الحياة وعلومها ليس من العالم الحقيقي في شيء . ومثله العالم الذي لا يعرف كيف ينكر ذاته في سبيل تحقيق هذا التطور والمساهمة فيه غير مبتغ جزاء من أحد ولا شكوراً ، وسواء أنجح في ذلك أم فشل ، وكان نجاحه صغيراً أم كبيراً ...

ولما كان الأمر كذلك وضح لماذا كان من رسالة العلم أن يفسر الاعتقاد ولم يكن من رسالة الاعتقاد أن يفسر العلم ، ولماذا توقف العلم عن التقدم عندما خضع في وقت ما لوصاية الاعتقاد خضوعاً تاماً أو جزئياً ، وحصر نفسه في دائرة من تفكير محدود الأفق لا يجد نفسه مطالباً بأي تأصيل لما قد يعلنه من حلول للمشكلات المختلفة ومن فهم لسنن الطبيعة ، إلا بما قاله الأولون ، متقيداً بنفس ما تقيدوا به من قيود ومن حدود .

وذلك مع أن النقد المتحرر هو — كما قلنا — السبيل الوحيد للوصول إلى حقائق الحياة وهدم أباطيلها ، حتى تلك التى قد تبدو للعقل فى وقت ما معصومة أزلية . وهو حتى إذا بدا فى بادىء الأمر أمراً غير مقبول ولا معقول ، فإنه سيصبح مع الوقت معقولا ومقبولا . وذلك لأن النقد الخاطىء يذهب جفاء ، ولأنه مهما كان خاطئاً قد لا يخلو من جانب من الصحة يكون له أثره المحتوم فى تحرير العقل تدريجياً من آراء كثيرة قد يكون فيها من الخطأ مثلما فى النقد الخاطىء ذاته ، وفيها من ضرر أكثر مما قد يكون فى توجيه سهام نقد طائشة إليها .

فكم تعرض الاعتقاد — فى كل مكان — لصور شتى من النقد المتحرر الخاطىء والصائب معاً ، وقد خرج الاعتقاد فى النهاية سليماً فى جوهره ، لأنه دعامة الانفعال السامى فى الإنسان ، فلا يمكن أن ينتزع منه بالأقوال المليئة أو الجوفاء . بل لقد خرج الاعتقاد أقرب مما كان إلى لب الأمور ، وأوثق مما كان صلة بالله وبالمحبة وبإنكار الذات . وذلك بعد أن كاد يصبح محض تقليد ، ومحض لاهوت قادر على أن يفرق بين قلوب البشر على ضغينة ، أكثر مما يجمع بينها على صفاء .

فعن طريق النقد ، والنقد وحده - حتى ذلك الذى كان يبدو للبعض مغرضاً جائراً - عرف الاعتقاد كيف يشق طريقه إلى القلوب خالصاً نقياً من شوائب كثيرة ، وعرفت القلوب كيف تتحاول أن تعثر على الله بداخلها ، بل عرف الإنسان كيف يعثر على نفسه فى الله ، وكيف يشق طريقه فى حياة تستحق الحياة بكل ما فيها من متاعب ومن معاناة ...

والنقد هو سبيل المعرفة الصحيحة ، وهو الدفعة التى كانت وراء كل خطوة خطاها بنو الإنسان للأمام . بل هو وراء كل رسالة من رسالات السماء وصلت إلى بنى البشر كيما تثير - فى رقعة من رقع هذا الكون أو فى

أخرى ـ نزعة التقدم والارتقاء ، عن طريق النظر بعين النقد إلى أوضاع غير قويمة كانت قد استقرت فى أذهان بنيها على أنها معصومة أزلية !

ولذا قاوم بنو البشر هذه الرسالات بما وسعهم من وسائل ، وقاسى رسل السماء منهم ما قاسوه من صنوف الاضطهاد وألوان العذاب . ولو كانت رسالاتهم قد اتجهت إلى تملق انفعالاتهم عن طريق الدفاع عن آثامهم وآرائهم ، لما قاومها واحد منهم ، ولما خطا بنو الإنسان خطوة تذكر فى طريق تقدمهم وصلاح أمرهم .

فللنقد دوره إذاً فى ناموس الارتقاء ، ما دام له دوره حتى فى رسالات السماء وفى كل رسالة لأى تقدم علمى أو اجتماعى . وهو دور لا ينكره إلا منطق التوقف ، إذا صح أن للتوقف منطقاً ما إلا أن يكون هو بعينه منطق تملق «حاضر» الجماهير ، وماضيها إن أمكن ، ثم أقوى انفعالاتها قاطبة وهو التعلق «بالتقاليد» واستنكار كل جديد ! !

وهذا « التوقف » يرتدى غالباً رداء خـــلاباً من الفلسفة أو العلم أو الاعتقاد ، وأيا كان رداؤه فهو عقبة كؤود تعوق تقدم الحياة ، وذلك لأنه لا يملك وسيلة أخرى لتحقيق مآربه سوى الأغلال يحاول أن يقيد بها عقول المفكرين ، بل عقول البشر أجمعين لو أمكنه ذلك ، ومعها أرقى النزعات إطلاقاً ، وهى نزعة الارتقاء إذا حاولت أن تجد لها متنفساً هنا أو هناك فى رأى مجدد أو فى تفكير غير مقلد . وبقدر ما يكون التفكير جامداً «متوقفاً» بقدر ما يكون حرص أصحابه على إنكار التوقف عندهم واستنكاره ، والزعم بأنهم قد سبقوا عجلة الزمن فى انطلاقها ، وفى سرعة تطويرها للقيم والمفاهيم !...

وما أضخم الأغلال التى قد تجىء من ناحية التوقف ، وما أقوى سلطانها على الضمير وعلى الشعور ، خصوصاً عندما يكون التوقف نابعاً فى تقدير

أصحابه من هذه الغريزة التى بدأ العلم يكتشفها بعناء ، ويعطيها مكانها الجديرة به فى دوافع الإنسان الغلابة ، وهى الغريزة الدينية التى يمكن تعريفها بأنها غريزة الإحساس غير الواعى بعالم الغيب ، والشعور بالارتباط به على وجه من الوجوه .

ومتى صح أن ثمت عالماً مجهولا من حواسنا المادية ، وبالتالى من عقلنا الواعى ، وأن هذا العالم يؤثر — إلى مدى أو إلى آخر — فى مشاعرنا وفى أحداث حياتنا ، وأن بمقدورنا عن طريق الإلهام غير الواعى أن نسجل وجوده ، وأن نذعن أحياناً لبعض أوامره ونواهيه ، الصادرة عن بعض مصادر الوعى فيه ، فقد صح التسليم عندئذ بمدى عمق هذه الغريزة فى حياة الإنسان وعظيم دورها فى توجيه دفة حياته ، وبالتالى فى توفير أسباب السعادة له ، ولكن — فحسب — بمقدار قدرتها على تحريره من ترهات التوقف ، ومن أغلال الشهوات ، وهو ما يتوقف فى النهاية على موقفها من الروح وموقف الروح منها .

ومتى صح التسليم بذلك فقد صح أيضاً القول بأن من حق العقل الحكيم أن يصقل هذه الغريزة ، كما صقل غيرها من غرائز عبر تاريخه الطويل فسمت به وسما بها ، بعد صراع معها طويل رهيب ، وبأن من حق العقل الحكيم أن يوجهها وجهة تعقل الأمور إلى آخر مدى ، حتى تنمو بالعقل وينمو بها العقل ، وتزدهر بها فى النفس زهور المحبة والتسامح والتواضع ، وكل خلق كريم يخدم رسالة التطور والارتقاء ، بعد رسالة الجمود والانطواء .

وبالتالى فإن أية مبادىء قوية قد تجىء من هذا الجانب الغلاب فى دوافع الإنسان تكون أقوى دفعاً وأعمق أثراً من أية مبادىء قد يتلقاها الإنسان عن سائر مصادر التفكير فيه أو الشعور . فلا ينبغى إذاً التهوين من شأن المبادىء الروحية التى ينبغى أن توجه شعور الإنسان نحو المحبة أو الكراهية ، ونحو التعقل أو الجمود ، ونحو الضمير أو «الطقوس» ، ونحو عبادة المبادىء

أو عبادة الأشخاص ونحو السلام أو الحرب ، ونحو التواضع أو التعالى ، ونحو الخدمة أو التسلط ، ونحو إنكار الذات أو إنكار حقوق الآخرين .

وهذه المبادىء القويمة التى ينبغى أن تسيطر على اتجاهات الروح هى فى حقيقتها مبادىء الحياة كما ينبغى أن تكون لا كما هى كائنة بالفعل ، فى غرائز بنى البشر وشهواتهم وانفعالاتهم . فإذا كان فهم العقل سليماً لها ، وعرف كيف يرسم طريقه بينها ، لساعده ذلك أكبر مساعدة على تحقيق رسالة تطوره وارتقائه التدريجى ، فيحسن العقل الحكيم عندئذ السيطرة على تصرفاته وشهواته ، وهذه هى بعينها الجنة التى يبحث عنها ضمير الإنسان بغير جدوى ، وطالما بحث عنها الفلاسفة والمصلحون فى ضمير هذا الإنسان بغير جدوى أيضاً !

أما إذا أساء الإنسان فهم مبادىء الحياة هذه ، أو أساء تطبيقها ، فقد أعوزته هذه القوة الفعالة التى تمكن روحه من السيطرة على غرائزه وانفعالاته ، وتساعده كيما يشق طريقه فى صحراء الحياة مناضلا مخاوفها وأخطارها ، فيضيع جهده عبثاً ، ويوشك فى كل خطوة أن يسقط فريسة لاعتداده بذاته ، فإذا به يضرب بلا هدف مشروع ولا غاية صحيحة .

وخلال ذلك كله تبرز خطورة رسالة علم الروح ، الذى هو علم تعبيد سبل الوصول إلى حقائق الأمور بعد أوهامها ، ومحاولة استكشاف بعض مبادىء الحياة بعد عبادة الأشخاص التى هى مرآة لعبادة الذات ، وتبرز بالتالى خطورة الحقيقة القائلة بأن من رسالة العلم أن يفسر الاعتقاد .

وهذه الحقيقة لم تبرز أهميتها فى أى عصر قدر بروزها فى العصر العلمى . فعندما بدأت العلوم تفسر الاعتقاد بدأ الاعتقاد - فى جميع أنحاء المعمورة - يكتسب مع الوقت عمقاً ، وتأصيلا ، وأسانيد جديدة للإيمان بالله وبالحياة الأخرى ، وبمزايا الفضيلة فى كافة صورها — وتحت أى شعار جاءت — وبمساوىء الرذيلة فى كافة صورها — وتحت أى ستار استترت .

بل اكتسب الاعتقاد أسانيد جديدة لثقة الإنسان بنفسه — فى حاضره ومستقبله — فضلا عن ثقته بأخيه الإنسان وبقدسية الأواصر التى لا تنفصم بين البشر جميعاً من كافة الأديان والألوان ، وهى أسانيد علمية لم يكن أحد يتصور من قبل إمكان الوصول إليها . وهكذا أصبح أقوى المدافعين عن هذا الإيمان المستنير هم العلماء العلميون على النحو الذى ضربنا له عدة أمثلة فيما سبق[1] .

ومن هنا — أيضاً — نشأ الإحساس القوى — فى كل المجتمعات — بالحاجة إلى رجل الدين العصرى ذى الثقافة الكافية فى شتى مناحى المعرفة ، وبوجه خاص فى الفلسفة والفيزياء والروح والنفس والاجتماع وغيرها ، حتى يكتسب عن طريق ثقافته قدرة على التفكير الموضوعى المتحرر ، ويصبح أقدر بالتالى على أداء رسالته الاجتماعية الهامة بعيداً عن شوائب الغموض أو الجمود .

وذلك إلى المدى الذى يلائم هذا العصر الذى نعيش فيه ، وهو عصر طابعه التطور السريع ، والتفكير الناقد ، ورغبة تعقل كافة الأمور على النحو الذى لن يحققه أمر قدر التوفيق بين العلم والاعتقاد ، بما يرضى عنه المنطق العلمى الناقد . ولعله لهذا السبب قال فولتير Voltaire إن « رجل الدين الغبى الجاهل يثير عدم تقديرنا ، ورجل الدين الردىء الشرير يولد الجزع فى نفوسنا . أما ذلك الناضج المتسامح البعيد عن الخرافات فهو الجدير بحبنا واحترامنا » .

* * *

وهذا الذى نذكره فى شأن الصلة بين الاعتقاد والعلم فى كافة صوره إنما يصدق — من باب أولى — على علم الروح الحديث . فهذا العلم يلعب

---

(١) راجع ماسبق ص ٣٥٩ — ٣٧٥ وما بعدها .

فى توضيح أغلب جوانب الاعتقاد وتفسيرها دوراً لايضارعه فيه أى علم آخر . كما يلعب نفس الدور فى ربط الاعتقاد بحقائق العلوم الأخرى . وذلك لأنه يجعل من أمور كثيرة — كان ينظر إليها فيما مضى على أنها محض عقيدية ، أو محض لاهوتية — حقائق علمية ثابتة بتجارب حسية، ويتعذر فى نفس الوقت فصلها عن حقائق الفيزياء والفسيولوجيا والسيكولوجيا والبيولوجيا والفلك والرياضة ، على ما بيناه آنفاً(١).

فعلى من يريد أن يطرق هذا الباب الجديد للمعرفة أن يضع فى الاعتبار أنه يقف إزاء بنيان علمى محض يخضع فى وسائله ونتائجه معاً للأساليب العلمية المعروفة . فهو ليس قالباً جديداً للاهوت قديم ، ولا صياغة ذات مظهر علمى لتعلق غامض بالغيبيات ، كما قد يفهمه بعض الناس خطأ . وهو يتنافر تماماً مع سرعة التصديق أو سهولة الاقتناع بما قد يقال على ألسنة القائلين من سكان الأرض أو الأثير ، أياً كان شأنهم ، مالم يصمد أولا لأساليب النقد الصارم الذى لا يرحم ولا يمالىء ، والنقاش العلمى المتحرر من كل قيد ظاهر أو مستتر .

وعليه أيضاً أن يضع فى الاعتبار أن من رسالة العلم أن يفسر الاعتقاد، وليس من رسالة الاعتقاد أن يفسر العلم ، ولا أن يخضعه لأية وصاية كتلك التى كان بعض المعتقدين — وما يزال — يحاول أن يفرضها على شتى العلوم ، بما فى ذلك التشريع والفلك والفلسفة ....

وليتساءل كما تساءل لويل — العالم الفلكى — فى هذا الصدد وهل يتعرض أى شىء من صنع الله لخطر إذا قدم للفحص ؟ وهل نظام الكون هو الذى ارتعد أمام منظار جاليليو أم نظام الكهنوت ؟ وهل وقفت دورة الفلك لأن نيوتن وضع إصبعه الجريئة على نبضه ؟ ، فما لم يجب العالم على هذه الأسئلة سلباً وبغير ماتردد فقد خان رسالته العلمية وقبل أن يسلم حقله فريسة لطغيان

---

(١) راجع ما سبق ص ٥٠٩ — ٥١٣ .

التقليد وجبروته — فى أية عقيدة كان — فلا أفاد العقيدة ، ولا أفاد فى المعرفة شيئاً . وذلك ينتقل بنا إلى الكلام فى « بعض جوانب الاعتقاد فى ضوء العلم الروحى الحديث » .

المبحث الثانى

بعض جوانب الاعتقاد

فى ضوء العلم الروحى الحديث

من حق القارىء أن يتساءل قائلا : لكن ما هى الجوانب التى ألقى عليها علم الروح الحديث أضواء جديدة ؟ والجواب أن عدداً من أهمها قد مر بنا فى مناسبات مختلفة . وقد لمس القارىء بغير ما ريب مدى خطورتها واتساع نطاقها ، وكيف أن هذه الجوانب كانت غامضة فيما مضى ، لأن مسالك العلم كانت قليلة ووسائله قاصرة ، وجهوده فردية ، فشتان بينها وبين ما يملك العلم الحديث من وسائل عصرية ومن تعاون علمى منظم بين عدد كبير من العلماء والباحثين ، فى معاهد وهيئات تملك ما تحتاج إليه من معدات مطلوبة . وتملك قبل أى اعتبار آخر الأسلوب العلمى الناقد المثابر فى البحث والتجريب .

وكان نجاح العلم الروحى الحديث فى تبديد غموض هذه الجوانب فى شأن نواميس الخلود من أحسن العوامل التى بددت فى نفس الوقت شكوك الشاكين التى كادت أن تفتك بالقيم الخلقية والاجتماعية ، وأشبعت أيضاً حاجة الإنسان الطبيعية إلى المزيد من المعرفة فى بعض جوانب الاعتقاد كلما تقدمت به معارفه فى غيرها ، وهذا حق له مشروع ، فهل فى ذلك ما يستدعى النقد أو المقاومة ؟

وكيما ندرك قيمة هذا القول لنمر الآن مروراً سريعاً على بعض الجوانب

الاعتقادية الغامضة التى كشف النقاب عنها علم الروح الحديث، أو بالأقل عليها ألقى أضواء جديدة لم تكن معروفة من قبل .

أولاً : فى شأنه موقع عالم الروح

فمثلا أين يقع عالم الروح ؟ هل كان بمقدور أى بحث نظرى أن يعطينا جواباً شافياً عنه، مع أن هذا الجواب لاغنى عنه لمن يبحث عن إيمان علمى مترابط بدوام الحياة بعد الموت ؟ أما علم الروح الحديث فقد وضح ذلك توضيحاً مؤسساً على حقائق الفيزياء والرياضة الحديثين، بما أسكت كل مكابر باسم العلم المادى عندما كان علم المادة فى طفولة فهمه لها . وقد عالجنا تفصيلا موضوع موقع عالم الروح وظروف الحياة فيه فى باب على حدة، بما يبين تماماً أية خدمة جليلة أداها هذا العلم للاعتقاد[1] .

ثانياً : فى شأنه ميعاد قيامة الأموات

وحين اختلف البحاث النظريون فى شأن ميعاد قيامة الأموات وظروفها وطريقتها، إذ بالبحاث العمليين فى الروح يثبتون أن هذه القيامة تكون فى لحظة الوفاة ، بل وأثناء الاحتضار ، إذ هى ميلاد ثان هناك يتم بمجرد تمام انسلاخ الجسد الأثيرى — حاملا شعلة العقل — من الجسد المادى . فهو أشبه ما يكون بميلاد فراشة جميلة وظيفتها أن تحلق فى الفضاء بين الزهور عندما تنسلخ من جسم شرنقة قبيحة وظيفتها أن تزحف على التراب فى الجحور .

وقد يحتاج المولود الجديد هناك إلى فترة كافية من الوقت كيما يسترد وعيه وذاكرته ، خصوصاً إذا كان الميلاد الثانى عقب شيخوخة طويلة أو عقب داء مؤثر فى الذاكرة مثل بعض أدواء الدورة الدموية . فشباب العقل والروح يعود هناك إلى صاحبه تدريجياً بحسب الحالة والسن والظروف التى

(١) راجع ما سبق ص ٢٢ — ٦٤ .

حدثت فيها الوفاة . وقد عالج علم الروح موضوع «لحظة الانتقال» هذه إلى أدق تفاصيلها بأسلوب علمي مترابط ، حين نجد البحث النظرى يعطينا فى هذا الشأن إجابات متعارضة ، غير مترابطة ، هى أشبه ما تكون بالحلول الارتجالية التى يحاول أصحابها فرضها بغير مقدمات مقبولة . فأين هذا الأسلوب من ذلك فى إقناع إنسان القرن الذى نعيش فيه ، وإرضاء منطقه العلمى الناقد ، وهو حق له مشروع ؟ ..

ثالثاً : فى شأن الصلة بين روح المتوفى وجسده

وحين كانت صلة الروح بالجسد بعد عملية الاحتضار غامضة فيما قبل ، إذ بالعلم الروحى يبين بالأسانيد العلمية أن هذه الصلة معدومة عند الإنسان الذى يعرف كيف يقطع صلته بهذا الجسد نهائياً فور تخليه عنه ، وينظر إليه على أنه مجرد رداء بال اقترضه من الأرض إلى حين ، وأصبح الآن ملكا لأمه الأرض من جديد ، كيما يساهم من جديد فى بناء الحياة النباتية والحيوانية .

إن جسده الأثيرى هو مركبته الوحيدة إلى عالم الروح فى المنطقة التى يحددها له قانون التوافق الروحى طبقاً لاهتزازهذا الجسد، ولما ينبعث منه من ألوان تشبه ألوان الطيف الشمسى ، وهى التى تحدد بذاتها مدى رقى صاحبها العقلى والروحى وبالتالى مكانه هناك .

كما تبين أن بعض الذين ينتقلون إلى هناك معتقدين أن موضع الروح بعد الموت هو القبر قد يظلون بتأثير فكرتهم الخاطئة هذه ملازمين أجسادهم المادية إلى حين، لأن العقل وحده هو سبيل الانتقال هناك ، فيقاسون من هذه الملازمة أهوالا رهيبة بسبب رؤية أجسادهم أثناء تحللها . ولعله لتحاشى مثل هذا الخطر الحقيقى نشأت عادة حرق الجثث عند بعض الشعوب الآسيوية ، وعنها انتقلت الآن إلى بعض شعوب أوروبية .

كما ذكر بعض الأرواح بعد انتقاله أنه كان يشعر برغبة ملحة لمشاهدة

جثته أثناء تحللها ، وأن هذه الرغبة كثيراً ما آلمته إلى أن تمكن من التغلب عليها فى النهاية . فالإنسان المستنير هو ذلك الذى يعرف كيف يقطع صلته بجسده المادى فور تخليه عنه ، لأن هذه الصلة فى الواقع قد انقطعت نهائياً وإلى الأبد، ولأن الجسد الأثيرى صورة له طبق الأصل تغنى عنه، وهى أكثر اكتمالا وأقوى بنياناً وأبقى على الزمن .

رابعاً : فى شأن أسلوب الحياة هناك

وحين يسكت التفكير القديم عن إعطاء بيانات واضحة مترابطة عن طبيعة الحياة هناك ، إذ بهذا العلم الناشىء يقدم هذه البيانات إلى أبعد تفاصيلها وأدقها . فلا يوجد سؤال واحد يثيره ذهن الإنسان حول طبيعة هذه الحياة إلا ويجد المراجع الروحية حافلة بإجابات منطقية مترابطة عنه ، متفقة فى كلياتها مهما تنوعت المراجع وتباينت لغاتها . وقد عالجنا ذلك تفصيلا فى فصل على حدة(١).

خامساً : فى شأن الثواب والعقاب

وهل فى كتب البحث النظرى هذه البيانات المحددة الواضحة المترابطة التى تسود نواميس الثواب والعقاب؟ والتى تربط ربطاً محتوماً بين المقدمات ونتائجها بمقتضى قوانين طبيعية موضوعية عادلة إلى أقصى درجات العدالة؟ وهى قوانين تعرف كيف تعاقب بذاتها وتثيب بمقتضى رابطة السببية أو ارتباط العلة بالمعلول على نفس النحو المعروف فى علمى النفس والأخلاق ، بل على نفس النحو الذى تعرفه قوانين الفيزياء والكيمياء والطب والفلك والبيولوجيا ... والتى اتفقت عليها أيضاً البحوث العلمية فى بلاد مختلفة وبلغات شتى على النحو الذى عرضنا له تفصيلا فيما مضى (٢) .

---

(١) راجع ما سبق ص ٦٥ — ٢٣٢ .
(٢) راجع ما سبق ص ٢٣٣ — ٣٤٦ .

سادساً : فى شأنه الصلات بين عالمى الغيب والشهادة

وقد قام العلم الروحى الحديث أيضاً بدور هام فى شأن إثبات وجود صلات بين العالمين المنظور وغير المنظور ، أعظم مدى وأجل شأناً بكثير مما كان يتصور أى إنسان من قبل ، وفى شأن توضيح دورها فى النهوض بالإنسان ورفعة شأنه على مر العصور .

وتأثير العالم غير المنظور فى العالم المنظور يقع فى الجوهر من العقائد المختلفة ، وتقوم كلها على أساس من التسليم به حقيقة واقعة ، لأن رسالات السماء ليست أكثر من تعبير راق عن هذا التأثير عندما يجىء غزيراً متدفقاً ، وعلى دفعات ، فيحدث أروع الأثر وأبقاه فى أخلاق الشعوب واتجاهاتها النفسية والروحية ، وبالتالى فى حضاراتها ومصائرها . وهذا التأثير يعترف به تماماً علم الروح ويوضح دوره الهام — المفرط فى أهميته — حين لا يوضحه وقد لا يعترف به ، أى بحث آخر يجرى فى نطاق أى علم من علوم الحياة .

فعلم الروح أصبح يقوم على أساس من التسليم بوجود صلات طبيعية لا تتوقف ، وإن تفاوتت فى مداها ونوعها ، بين عالمى البقاء والفناء ، أو عالمى الغيب والشهادة ، أو دارى الحق والباطل . وهى صلات طبيعية لأنها لم تتوقف يوماً ، ولا يمكنها أن تتوقف ، بل هى لازمة للحياة المادية فى نشوئها واستمرارها وتقدمها . ولم يكن لعلم الروح سوى فضل اكتشافها ودراستها على نمط علمى منظم ، والخروج منها بدلالات بعيدة المدى . وتستوى فى ذلك الصلات الراقية مثل صلات الحراسة والإرشاد والإلهام والعلاج ، والصلات غير الراقية مثل صلات المس الروحى obsession والاستحواذ possession ، وما قد يتسبب عن هذه وتلك من أمراض عصبية وجسدية ، وذلك فضلا

عن صلات الإرشاد غير الراقى ، وما قد يتسبب عنها من مآس ودماء .

سابعاً : فى شأن طبيعة الزمان والمكان

وهل فى النظريات التقليدية شىء واضح عن طبيعة الزمان والمكان فى هذه المناطق ؟ إن العلم الروحى يجعل من هذا الموضوع الخطير باباً من أهم أبوابه ، ويقيم فيه فقهاً علمياً مؤسساً على أحدث النظريات الرياضية فى البعد الرابع وفى النسبية ، ويبين كيف أن هذا العالم الروحى « زمكانى » منذ أول طبقاته . فهو ذو أبعاد أربعة ، وهى الطول والعرض والارتفاع والزمان . وهو لذلك يختلف فى طبيعته تماماً عن عالمنا المادى ذى الأبعاد الثلاثة فقط ، وهى الطول والعرض والارتفاع .

ولما كان عالم الروح ذا أبعاد أربعة ، فإن قوى إدراك الأرواح قد تكون رباعية الأبعاد أيضاً . وقد سلم بإمكان ذلك العلامة أينشتين عندما قال «إذا كانت نظريتى فى النسبية عن الكون صحيحة فلا بد إذن من وجود قوى إدراك رباعية الأبعاد » أى لا تعترف بفواصل المكان أو الزمان . وقد تعرضنا لذلك فيما سبق[1] .

ثامناً : فى شأن النوم والأحلام

ومن الألغاز التى يساهم العلم الروحى الحديث فى حلها لغز النوم ، وقد حار الأقدمون فى تعليله وتعددت فيه النظريات وتضاربت . أما علم الروح فهو يقرر أن النوم عبارة عن مجرد ارتفاع فى اهتزاز الجسد الأثيرى كيما يستريح إلى حين من الاهتزاز المنخفض المغاير لطبيعته، والذى يفرضه عليه « التصاقه » بالجسد المادى فى ساعات اليقظة ، بما فى ذلك الارتباط المحتوم بين العقل والمخ فى هذه الساعات .

أما أثناء النوم فإنه بسبب اقتراب اهتزاز الجسد الأثيرى — إلى

(١) راجع ما سبق ص ١٣٤ — ١٤٠ .

حد ما — من اهتزاز عالم الروح فتترتب عدة نتائج منها: أن حكم حواس النائم على الزمان والمكان يصبح مغايراً لحكمها أثناء اليقظة . ومنها احتمال الاتصال ببعض أرواح المنتقلين . ومنها احتمال حصول أحلام صادقة عن أحداث مستقبلة مستقلة عن هواجس العقل الباطن، وهواتف الرغبات المكبوتة .

وذلك لأن معنى المستقبل على مستوى معين من مستويات الوجود يختلف حتماً عن معناه على مستوى آخر . ولذا وصل أينشتين أيضاً إلى أن أحداث الحياة تتحقق فى مستوى ما من الكون قبل أن تتحقق مادياً على المستوى الأرضى . بل لقد كان حاسماً فقرر أن هذه الأحداث موجودة فى مكان ما من الكون وأننا نمر بها فى الوقت المناسب ، ولذا شبه هذه الأحداث بمحطات القطار المعدة لاستقباله مقدماً قبل أن يغادر محطة القيام، وكل ذلك بغير أن ينفى حرية الإرادة عند الإنسان ، بل فى ضوء نظرية النسبية وحدها، وبعد الربط بينها وبين نظرية « البعد الرابع » .

تاسعاً : فى شأن التخيير والتسيير

وذلك كله ينتقل بنا إلى كلمة عابرة فى مشكلة قديمة واجهها علم الروح الحديث بأساليب أكثر عمقاً وترابطاً من أساليب الماضى ، وهى مشكلة تعيين مدى حرية الاختيار فى الإنسان . وما ذكرناه عن نظرية أينشتين فى شأن احتمال تحقق الأحداث مقدماً على مستوى معين من الوجود لا يتضمن نفياً محتوماً لإرادة الإنسان كما قد يتبادر إلى الذهن لأول وهلة . فحرية الاختيار فى الإنسان قد وجهت « ماضيه » وتوجه أيضاً « حاضره »، فهى ترسم بالتالى مقدماً خطوط قدره ومصيره التى لا نعلمها نحن ، ولكن يعلمها علام الغيوب . وذلك مع مراعاة أن ألفاظ الماضى والحاضر والمستقبل لا تحمل بذاتها أى معنى متميز فى ناموس الطبيعة الأزلى ، مهما كان معناها واضحاً فى إحساسنا النسبى بالزمان ، والمرتبط أيضاً بإحساسنا النسبى بالمكان .

أما ناموس الطبيعة العام فيحيا دواماً فى إحساس بالحاضر الأزلى أو ما هو فى حكم الحاضر بالنسبة لإحساسنا النسبى بالزمان . فإذا ما قيل إن خطوط « المستقبل » مرسومة فى كتاب الطبيعة الخالد ، وإذا ثبت ذلك بمعادلات رياضية صحيحة ، فلا يعنى ذلك أكثر من إثبات رابطة السببية ، أو ارتباط العلة بالمعلول بين الماضى والحاضر ، وبين الحاضر والمستقبل عن طريق معادلات الرياضة ، بعد أن وصلت الفلسفة إلى هذه الحقيقة ، عن طريق المنطق ، والحكمة عن طريق الإلهام ، وعرفها الإنسان من قديم مرتبطة بمصير روحه الخالدة تحت وصف قانون السببية ، أو الفعل ورد الفعل.

ولا يعنى ذلك أيضاً سوى إثبات أن الطبيعة تحيا دائماً فى « حاضرها الخالد» الذى يطوى بذاته صفحات ماضيها ومستقبلها ، وكأنها فى كتاب مطبوع مقدماً ، ومعد لأن يفهمه العقل تدريجياً كلمة فكلمة جيلا بعد جيل، فالطبيعة تحيا فى حاضرها الخالد هذا كما تحيا فى مكانها غير المحدود . وذلك كله يقتضى أيضاً استبعاد فلسفة القدرية المطلقة Fatalisme ، التى ليس لها الآن من سند علمى ولا رياضى ، لاستبقاء الاعتقاد بالمصير المرسوم لمستقبلنا المرهون بأعمال حاضرنا ونواياه Detérminisme ، والذى لا يعنى أكثر من أن مستقبلنا مصنوع بحاضرنا ، ومغروس بجذوره فيه كغرس النبات فى تربته التى يستمد منها أسباب النمو والازدهار ، أو أسباب الذبول والانهيار .

فحاضرنا قائم بذاته مرتبط بماضينا ، ولكنه فى ذاته قابل للتعديل والنمو والتطور ، بقدر ما نحسن استخدام حريتنا الراهنة فى الاختيار ، فى كل لحظة وفى أى مكان من الطبيعة وجدنا .

وفى هذا الصدد قد يعرف رجل القانون للواقعة القانونية سبباً مباشراً ،

وسبباً — أو أكثر — غير مباشر ، كما قــد يعرف لها سبباً ملائماً أو سبباً — أو أكثر — غير ملائم . فالحلول القانونية تقف حتماً فى إسناد النتائج إلى أسبابها عند حد معين ، لأنه بغير هذا الوقوف يفقد القانون سبب وجوده فى تيه من البحث عن الأسباب، التى يعد البحث فيها أقرب إلى الفلسفة منه إلى القانون . والذى يؤدى حتماً إلى توزيع المسئولية ، بل إلى القضاء عليها بنظريات من الإسناد قد يكون فيها من الفروض والتقديرات ما يعادل تلك التى يقوم عليها التشريـع الوضعى فى جملته ، وربما ما يفوقها .

أما التشريع الطبيعى فلا يعرف سبباً مباشراً ، وآخر غير مباشر ، ولا سبباً ملائماً وآخر غير ملائم ، بل جميع الأسباب مسئولة — فى الطبيعة — عن النتيجة . ولكل سبب منها ميزان دقيق ومدى معين محسوب فى سفر الحياة . فإذا ما أردنا تعديل نتائج الأحداث لمصلحتنا ، فعلينا أن نعدل أولاً مقدماتها فى تصرفاتنا الحاضرة ، فنعدل بذلك أسبابها فى عقولنا وضمائرنا . وذلك يتطلب منا ابتداء أن نحسن استخدام ضمائرنا فى الحكم على المقدمات وتقدير نتائجها المستقبلة . . فى غير أنانية ، وفى غير غلو ، بل فى تواضع وروية وإنكار لذواتنا التى غالباً ما تحجب عنا بغلوها حقائق الحياة، كيما تقيم محلها أكداساً من أوهام الغرور ، مضللة لتصرفاتنا الحاضرة ، ولضمائرنا فى تقديرها لنتائجها المستقبلة .

وهذا النظر لفهم السببية — قانون الطبيعة العادل — يفسح مجالا واسعاً لدور الإرادة فى تسيير دفة حياتنا ، ويسلم بقدر واسع من حرية الاختيار فى أمورنا، كأفراد لنا استقلالنا ، وكأجزاء فى مجموعة إنسانية — تحد من هذا الاستقلال إلى حد ما — وإن كانت تنمى فينا شعور التكافل الاجتماعى ، وفى نفس الوقت الإحساس بالاستقلال الكافى عن روح

الجماعة فى أوهامها وأخطائها المتراكمة بفعل غرائز القطيع[1] .

وإرادة الإنسان تعمل خلال القوانين الطبيعية ، وعن طريقها ، لأنها قانون من ضمن هذه القوانين ، يقع فى الأساس منها ، فلا ينبغى التهوين من شأنها ، ولا إلغاء دورها حتى عندما نقول إن الإرادة الإنسانية محكومة بالعقل ، وأن هذا العقل قاصر كأشد ما يكون القصور فى حكمه على كافة الأمور ، إلى حد أنه كثيراً ما يخلط بين الخير والشر ، وبين الصداقة والعداوة ، فيحب ما يضره ويكره ما ينفعه . فكل صواب فى تعرف إرادة العقل الأعظم يولد حتماً نتائجه القريبة والبعيدة ، الجسيمة والطفيفة ، وكذلك أيضاً كل خطأ له نتائجه المحتومة .

وكثيراً ما تبدو لعقولنا القاصرة أحداث الحياة قاسية ظالمة ، أو مفككة غير مترابطة ، أو مباغتة غير متوقعة ، لمجرد عجز عقولنا عن الإحاطة بكل نواميس الطبيعة ، وبكل أحداث الحياة فى ماضيها وحاضرها . ولكن الأمر الوحيد الذى لا تعجز عقولنا عن فهمه وعن تصور صحته هو وجود نواميس طبيعية تحكم هذا الكون من أكبر أحداثه إلى أتفهها : من ميلاد عبقرى إلى ميلاد فراشة ، ومن ازدهار حضارة إلى ازدهار زهرة ، ومن انتهاء دولة إلى موت نملة ، ومن انفجار بركان إلى اشتعال ثقاب ، ومن اصطدام كوكب بآخر إلى اصطدام كرة بقدم طفل صغير !

وذلك لأنه إذا كانت هذه النواميس الطبيعية تحكم الكليات الكبرى فهى تحكم الجزئيات الصغرى أيضاً ، وإذا اضطربت الجزئيات الصغرى كان ذلك علامة لا تنقض على الفوضى وعلى أن زمام الحياة قد أفلت ، وأدى إلى خلل الكليات الكبرى فالوجود كله وحدة متناسقة محكومة بالعقل الأعظم . وخلال هذا العقل الأعظم وبواسطته تعمل عقولنا الضئيلة فتوجه

(١) راجع ما سبق فى ص ٥٥٤ وما بعدها .

إرادتنا مختارة إلى الصواب مرة، وإلى الخطأ مرات ومرات . وكل خطأ سابق سيصلحه ألم لاحق ، وكل ألم لاحق نتيجة محتومة لخطأ سابق ، وهكذا فى حياة لا تقبل الفناء، ولكن تقبل التردد بين السعادة والشقاء، وبين البهجة والعناء ، طبقاً لارتباط النتائج بالمقدمات . وذلك كله ينفى إمكان القول بصحة القدرية المطلقة كحقيقة طبيعية ، أو بها كمذهب صالح لتفسير أحداث الحياة ، أو تبريرها من ناحيتى العدالة أو الأخلاق — فى «ماضيها» أو فى «حاضرها» على السواء .

ولا يبدو لنا مع ذلك أن ثمت تعارضاً محتوماً بين القدرية فى مفهومها الصحيح وحرية الاختيار ، فالإنسان فى حقيقة الأمر مسير مخير فى وقت واحد، وفى لحظة واحدة فهو مخير بقدر ما يملكه من إرادة حرة ، وهو مسير بقدر ما هو محكوم بهذا القانون الذى لا يمكن أن يفلت منه وهو قانون السببية، أو ارتباط النتائج ارتباطاً محتوماً بمقدماتها ، وبالتالى ارتباط الماضى بالحاضر والحاضر بالمستقبل.

فلا محل مطلقا للقول بالتعارض بين التسيير — فى معناه العلمى هذا — والتخيير، إلا إذا صح القول بالتعارض بين القطبين السالب والموجب، مع أن أحدهما يكمل الآخر ، وكلا منهما لازم للآخر ، واجتماعهما معا لازم لأى نشاط كهربى ، كما أن اجتماع التخيير والتسيير معاً لازم لأى نشاط إرادى فى هذا الوجود ، وأيا كان مصدر الإرادة بين القوى العاملة فى هذا الكون ، وسواء أكانت تنتمى إلى عالم الشهادة أم إلى عالم الغيب . وسواء أكانت تنتمى إلى مستوى الإنسان فيه أم إلى مستوى أسمى منه أم أدنى .

والفصل بين دور التسيير ودور التخيير فى هذا المستوى هو أمر من صنع مداركنا القاصرة فحسب ، تشعر به كما تشعر بانعزال الإحساس بالمكان عن الإحساس بالزمان ، مع أنهما متداخلان معا فى حقائق الطبيعة، ولا يمكن بحال الفصل بينهما، حسبما انتهت إليه حقائق الرياضة فى اهتدائها للبعد الرابع

الذى يمثل أسلوب الحياة فى عالم الأثير ، وهو رباعى الأبعاد كما سبق أن قلنا[1] . ومثل ذلك يمكن أن يقال عن إحساسنا المنعزل بالمادة عن الفراغ، مع أن المادة أصبحت تمثل الآن فراغاً أثيرياً ، والفراغ الأثيرى أصبح يمثل مادة حقيقية[2] . ومثله يمكن أن يقال عن إحساسنا المنعزل بالحركة عن السكون مع أنهما متداخلان معاً ، وما يبدو لنا صلباً ساكناً كالمادة الصلبة متحرك فى حقيقته ، فى صورة أمواج . فاجتماع الزمان بالمكان ، واجتماع السكون بالحركة ، لازم للحياة تماماً كاجتماع التسيير بالتخيير ، ولا محل للفصل بينهما ، ولا لأن نتصور أن بينهما تضارباً محتوماً ، فلا ينفى أيهما الآخر إذاً ، بل يكمله ويتداخل فيه .

أما القول بالقدرية المطلقة Fatalisme فإنه فضلا عن تعارضه مع وضوح دور الإرادة فى الكثير من تصرفات الإنسان وضوحاً لا يحتاج إلى عناء فى استظهاره وفى إثباته ، مهما تفاوت الرأى فى مداه ، فهو يبدو مذهباً غير عادل ولا خلق متعارضاً تماماً مع ما نلمسه من قيام الكون على نواميس عادلة خلقية . هذا وقد قال فى وصفه وليام جيمس بحق إنه « يربى فى العقل مزاجاً جبرياً ويجعل الكسالى أكثر خضوعاً وكسلا ، كما يجعل الأقوياء أكثر تهوراً وبطشاً » ! .

وينفيه أيضاً بطريقة علمية — معملية — ما ثبت من أن العقل يمكنه أن يؤثر فى المادة تأثيراً مباشراً ، فمقتضى ذلك بالضرورة أن العقل أسمى من المادة ، وبمقدوره أن يوجه أحداث المادة وما وراء المادة . خصوصاً متى تبين أن المخ نتاج للعقل ، وليس العقل نتاجاً للمخ ، على ما أشرنا إليه فى عدة مناسبات سابقة[3] . فتيارات العقل الإنسانى توجه إذاً توجيهاً

---

(١) راجع ما سبق فى ص ١٣٤ — ١٣٦ .

(٢) راجع ما سبق فى ص ٢٩ — ٣٦ .

(٣) راجع الجزء الأول ص ١٨٣ ، ١٨٤ ، ٣٥٢ — ٣٥٧ ، ٤٣٤ — ٤٤٠ .

تاماً عواطفنا وانفعالاتنا ، كما ترسم لنا خطوط أحداثنا .

ومشاعر العقل الكونى العام إذاً بمثابة قوانين أزلية ترسم خطوط الحياة. ومشاعرنا قوى دافعة لأحداث حياتنا السعيدة بقدر اتساقها مع هذه القوانين الأزلية ، ولأحداث حياتنا الشقية بقدر انتفاء الاتساق . ومن ثم كانت المشاعر والأفكار هى أثمن ما تعرفه الطبيعة من حقائق الوجود، مادامت هى القوى المحركة لأحداث الحياة خيرها وشرها معاً . وكان نقاء المشاعر والأفكار هو أثمن ما ينبغى أن يتطلع إليه أى تعليم خلقى يستحق هذا الاسم، وأسمى ما ينبغى أن تصبو إليه الروح فى كل زمان ومكان . فشعور السلام يولد سلاماً فى النفس وخارجها ، وشعور البغضاء يولد حرباً وشقاء للنفس وخارجها ، أية كانت البواعث والأسباب . وفى كل ذلك ما ينفى مذهب التسيير المطلق ويعزز حرية الاختيار فى نطاق التقيد بالاتساق مع قوانين الحياة الأزلية، التى تركت لنا حرية الزرع، وعليه يتوقف نوع الحصاد.

* * *

هذا وقد قال بعض مفكرى الروحية إن القوة التى تحدد مصائرنا هى قوة عقلنا الباطن غير الواعى. ومن هؤلاء موريس ماترلنك M.Maeterlinck الذى يقول «إنه ينبغى علينا أن نبحث فى حياتنا الباطنة ، الرحبة ، التى لا تنفد ، والتى لا يسبر غورها ، والمقدسة ، تفسير فرص السعادة والشقاء التى نمر بها »[1] .

ومنهم الدكتور اللندى Allendy الذى يقول عن المصير الذى يوجه حياتنا إن العامل الأهم كامن فى « روحيتنا » الباطنة ، فمنها تنبع أعمق توسلاتنا »[2] .

(١) فى مؤلفيه Le Temple Enseveli, L'Hôte Inconnu.

(٢) فى مؤلفه Le Problème De La Destinée, La Justice Interieure.

وعلى هذه الآراء يلاحظ الأستاذ موريس ماجر M.Magre أن العقل الباطن أوغير الواعى ليس سوى عنصر واحد من عناصر مصائرنا، فيه يتمركز قانون الكارما (أى ارتباط النتائج بالمقدمات فى حيوات الروح المتعاقبة)، فهو يمثل خلاصة أعمالنا المتراكمة التى أضحت بمثابة اتجاهات تعد نفسها كيما تصبح نتائج وأحداثاً[١] .

ثم يضيف قائلا إن مصير الإنسان لا يتوقف تماماً على عقله الباطن ، بل على الجزء الأسمى من وعيه ، هذا الجزء الذى سيصبح يوماً على صلة بالله، والذى يتمثل فى قدرته الفطرية على التمييز ، وعلى الحكم على الأمور ، وعلى توقعها ، وعلى اختيار سبيله . ولا ريب أن العقل الباطن عنصر من عناصر مصيره ، ولكن قيمة هذا المصير تتوقف على ملكة سحق العقل الباطن ، وتجاوزه ، والتصرف رغماً عنه وعن ميوله المظلمة[٢] ...

وما يصفه الناس بالحظ ، أو الشعور بأن قوانين الكون إنما تحبك وتنظم نفسها كيما تحابيك ، هو عبارة عن هبة مجنحة وتجاوب فى النغم مع هذه القوانين التى لا تحبك إلا لأنك تركتها تحملك . وهذه الهبة المجنحة ، وهذا المعنى من التناسق قد صار شيئاً واحداً مع وعينا الأسمى . وللحظ صلة معينة بالعبقرية الفنية ، بل هو شقيق لها ، لكنه بدلا من أن يتفرغ لمطاردة الجمال ، يرضيه أن يرشد الإنسان فى طريق الحياة ، ويغمره بضوء مباغت سرعان ما ينطفىء .

وهذا الضوء المباغت هو مصيرنا ، أو بالأدق هو القدر من مصيرنا الذى ينتمى إلينا خاصة ، والذى خلقناه بأنفسنا . فنحن مقيدون بجسد لأننا ننتمى إلى أسرة إنسانية . ونحن نخضع لتأثيرات كوكبية لأننا ننتمى إلى نظام

---

(١) فى مؤلفه Les Interventions Surnaturelles.

(٢) فهو ينظر إلى العقل الباطن من زاوية أنه مقر الغرائز السفلى ورواسب ماضينا السحيق وغاوله .

كونى ، وعلينا أن نتحمل تحركاته العاطفية . ونحن مكيفون بماضينا وبأنفسنا ، وبالنتيجة المتواضعة لجهودنا ، ومقودون بكل هذه القوى . نحن نشق سبيلنا أحياناً فى ومضة من برق ، أو من قرار ، أو من صلاة ، أو من فكرة هى نحن أنفسنا ، وكل ذلك عبارة عن نتيجة لارتباطات ترجع إلى الماضى السحيق . فهل نجد فى ذلك وعداً بحريتنا المستقبلة ؟ أو تحقيقاً مبدئياً لها ؟ وهل يمكن للإنسان أن يصف بالحرية نتاج أسباب متعددة كهذه ؟ وفى النهاية لا قيمة لذلك لأن خداع الحرية يساويها !

إن إنساناً ما قد عثر على الحظ — على غير توقع منه أو من غيره ، لأنه قد أطاع أمراً داخلياً أصدره إليه — على غير علم منه — وعيه الأسمى الذى صنع ما كان عليه أن يصنعه كيما يكيف الأحداث فى صالحه.

فالحظ من صنعه غالباً ، ولكن ليس دائماً ، لأن الإنسان ليس بمفرده . فحتى إن لم توجد هناك قوى تسهر عليه بعناية ، فمن الجائز مع ذلك أن يحظى بمساعدة قد يكون طلبها ، وقد يزجيها إليه صديق غير منظور يرى حيرته . وتكون المساعدة عندئذ فعالة بقدر ما يكون الصديق سامياً فى تدرج الكائنات. وأحسن الناس حظاً هو ذلك الذى يكون قدصنع فى ماضيه أكثر عدد من الصداقات مع أسمى الأرواح»[1].

* * *

وأياً كان مقدار الصواب فى هذا الرأى أو فى ذاك فهناك اتجاه واضح فى جميع المدارس الروحية نحو رفض فلسفة القدرية المطلقة التى تفترض رسم خطوط حياتنا مقدماً ونهائياً بغير حساب لدور الإرادة والضمير . وكلما رسخ فى الأذهان الاعتقاد بأزلية الحياة الإنسانية ، وبعدم انقطاعها، وبتعدد فرص الوجود هنا وهناك، كلما اتسع مجال القول بالتخيير وأصبح ذهن

(١) عن المرجع السابق ص ١٢٠ — ١٢٣ . وواضح أن المؤلف من أنصار نظرية العودة للتجسد لأرضى reincarnotion التى تكلمنا عنها فيما سبق فى ص ٢٤٠ — ٢٥٠.

المرء قادراً على قبول دور الإرادة والضمير واضحاً قوياً، وبالتالى على تفسير الكثير من صروف الحياة ومفارقات الدهر ، التى لا يمكن تفسيرها بغير هذا الإيمان العلمى بامتداد الحياة ، وبخضوعها لنواميس عادلة عطوفة تفسح المجال الأكبر لدور إرادة الإنسان وعقله الواعى وغير الواعى معاً فى رسم خطوط قدره ومصيره

فما لا يفسره ماضينا القريب قد يفسره ماضينا السحيق، وما لا يتحقق من نتائج — قد تبدو محتومة فى ناموس العدل والأخلاق — فى المستقبل القريب قد يتحقق فى المستقبل البعيد . وما قد تعجز عن تفسيره كلمات مبتورة قد لا تعجز عنه عدة مؤلفات إذا كانت تحيط بجوانب الموضوع كلها ، وهيهات لكتاب الطبيعة أن تسقط منه كلمة واحدة قد لا تتسع عقولنا لأكثر منها فى أى مستوى كنا من مستويات الوجود .

عاشراً : فى شأن مدى إمكان التنبؤ بالمستقبل

وموضوع التسيير والتخيير وثيق صلة بموضوع مدى إمكان تنبؤ عقل الإنسان بأحداث المستقبل المؤسسة على أحداث الماضى أو الحاضر . وهذا موضوع وثيق صلة بدوره بمعنى الزمان والمكان فى حواسنا من ناحية، وفى ناموس الحياة من ناحية أخرى .

هذا وقد تعرضنا لهذا الموضوع فيما سبق من زاوية مدى علم الأرواح بالمستقبل ونفينا عنها — بصفة عامة — علم الغيب الذى لا يعلمه إلا علام الغيوب ، ولكن قلنا مع ذلك إن الأحداث المستقبلة قد تلقى ظلالها الباهتة بصورة ما قبل وقوعها، وأن هذه الظلال قد يراها بعض الأرواح أو بالأدق قد يشعر بها بصورة تتفاوت فى وضوحها ، فيتوقع أموراً مستقبلة توقعاً قد يصح حيناً وقد يخطىء أحياناً . كما يحدث نفس الأمر على الكوكب الأرضى ولكن بأساليب مختلفة بطبيعة الحال. وكلما ازداد نضج الروح وحسن تقديرها

لأمور الحاضر ، ومشاعره وانفعالاته — بوصفها أسباباً — كلما ازداد نضجها وحسن توقعها لبعض أمور المستقبل بوصفها نتائج محتومة لأمور الحاضر (١).

وما يصدق فى ذلك على الأرواح فى عالم الروح يصدق على البشر فى عالم المادة ، فالقوانين المسيطرة على «التنبؤ بالمستقبل» واحدة هنا وهناك ، حتى مع التسليم بأن الشعور بالزمان وبالمكان يختلف هناك عنه هنا ، وبأن حساسية الأرواح وملكاتها الذهنية مرتفعة عما يقابلها — فى المتوسط العام — عند الأرضيين .

ذلك لأن إرادة الإنسان بالتالى ترسم له حدود حاضره ومستقبله معاً لأن نفس الأسباب تولد نفس النتائج . وبالتالى فنحن إذا ما أحطنا إحاطة تامة بكل عناصر الحاضر لأمكننا من الناحية النظرية وحدها أن نعرف ولو بعض معرفة عناصر المستقبل ، مادامت عدالة الله اقتضت أن يكون مستقبلنا مرتبطاً بحاضرنا برابطة لا تنفصم هى رابطة السببية . وبعبارة أخرى أرادت أن يكون مستقبلنا من صنع حاضرنا ، كما أن حاضرنا من صنع ماضينا .

لكن كيف تتأتى عملياً هذه الإحاطة التامة بعناصر الحاضر ؟ (٢) ... هذه هى فى حقيقتها كل مشكلة التنبؤ باحتمالات المستقبل فى اليقظة عن طريق العقل الواعى ، وفى النوم أو الغيبوبة الوساطية أو المغناطيسية عن طريق العقل الباطن، بعد إعطائه تعريفه الصحيح بوصفه عقل الإنسان الذى يعمل عن غير طريق المخ ، وبغير ارتباط محتوم به .

---

(١) راجع ما سبق فى هذا الجزء ص ١٤٠ — ١٤٢ .

(٢) يقول الفيلسوف ابن سيناء « لو أمكن إنسان من الناس أن يعرف الحوادث التى فى الأرض والسماء جميعاً وطبائعها ، لفهم كيفية ما يحدث فى المستقبل » .

فمن يطلع على البحوث الروحية يبدو له مفهوماً أمر الأحلام والرؤى الصادقة التي ورد ذكرها في الكتب المقدسة ، وكذلك أمر الأحلام الصادقة التي تحدث كثيراً لعدد من الناس، وتقف السيكولوجيا المادية إزاءها حائرة. فهي إما تنكرها رغم تواتر الروايات في شأنها ، وإما تسلم بها دون أن تعللها — سواء أكانت أحلاماً صريحة أم رمزية — وإما قد تعزوها إلى العقل الباطن دون أن تبين كيف يتأتى للعقل الباطن أن يرى المستقبل — في بعض الأحيان — مع أن من المسلم به بحسب هذه السيكولوجيا ذاتها أن كل ما ينزلق إلى العقل الباطن من مشاعر ومعلومات ينبغي أن ينزلق إليه عن طريق العقل الواعي ماراً به أولا ، وهو مالا يحدث في بعض الأحلام الصادقة .

فإذا أضيف إلى ما تقدم أن النوم قد يكون في بعض صوره غيبوبة وساطية ، أو طرحاً روحياً حقيقياً — بغير انفصام للحبل الأثيرى الذى يصل ما بين الجسدين الأثيرى والمادى — لتبين إلى أى مدى يفتح العلم الروحى الحديث في مجال النوم والأحلام والتنبؤات أبواباً جديدة للبحث والتحرى لا يدرك شيئاً منها المذهب المادى ، ولا يكفى فيها الوقوف عند ما ورد في بعض مراجع الأولين .

حادى عشر : فى شأن المعجزات والخوارق

كذلك نجح العلم الروحى الحديث في إثبات إمكان حدوث الكثير من « المعجزات » الموصوفة في الكتب المقدسة . فالعلم الروحى لا ينحو نحو العلم المادى من ناحية إنكار كل ظاهرة غير مألوفة يعجز الإدراك المادى عن تصورها أو عن تعليلها . بل إنه قد يسلم بصحة بعض الظواهر غير المألوفة أو غير العادية بشرط أن تصمد للاختبار الكافى، ولوسائل التحقيق الدقيقة فهو في حقيقته دراسة معملية للظواهر غير المألوفة أو غير العادية بوجه عام ، أساسها هو عدم إنكارها مقدماً لمجرد العجز عن تعليلها تعليلا مادياً .

وأساس هذه الدراسة هو التسليم بوجود قوى للإدراك رباعية الأبعاد كما قلنا، أى قد يمتد نطاقها إلى الطول والعرض والارتفاع والزمان في وقت واحد وتجمع بينها، فلا تعترف هذه القوى بالتالى بفواصل الزمان أو المكان فى عقل الإنسان وحواسه(١).

والكتب المقدسة تفيض بوصف ظواهر غير مألوفة وغير عادية. بل لا نغالى إذا قلنا إن شتى أنواع الظواهر الروحية موصوفة فيها مثل التجسد، والطرح بالروح وبالجسد، والجلوبات والمأخوذات، والشفاء المعجز، والتنبؤات الصحيحة، والرؤى الرمزية والحرفية، والجلاء البصرى والسمعى، والإلهام، وتأثير العقل المباشر فى المادة، والصوت المباشر، وتحرك الأجسام الصلبة بدون وسيلة مادية، وغيرها من الظواهر التى سجلها الباحثون الروحيون فى كل مكان، والتى أصبحت تجمعها الآن أصول مترابطة، وتربطها مقدمات ونتائج متشابهة. وقد عنى بإبراز هذه الحقيقة نخبة من العلماء والباحثين تحت لواء العلم والاعتقاد معاً، ممن وجدوا فى العلم الروحى الحديث وسيلة علمية لتوضيح الحقائق العقيدية، وتقريبها على أسس علمية عصرية يمكن أن تتقبلها عقول الكافة(٢).

ثاني عشر: فى شأن مشكلات فلسفية متنوعة

أخيراً — وليس آخراً — لاينبغى أن يفوتنا أن علم الروح الحديث، عندما يخدم قضية الإيمان بالله وبالخلود ويقيم لها عمداً علمية إنما يخدم فى نفس الوقت ولنفس الأسباب الاعتقاد الدينى. كما أنه عندما يلقى أضواء جديدة

---

(١) بل إنه فى التنويم المغناطيسى توجد درجة — أو أكثر — فيها لا يتحدد إدراك المنوم بالزمان ولا بالمكان ويفقد من قام بتنويمه سيطرته عليه تماماً، وهذه الدرجة تثبت عند غالبية علماء التنويم المغناطيسى أن للانسان وجوداً روحياً قائماً بذاته، أو بالأدق أنه عبارة عن روح ترتدى جسداً خارجياً. ولا يرفض هذا الرأى الآن سوى جانب ضئيل من العلماء لاتجاههم المادى المزمن.

(٢) راجع طائفة من أسماء من قاموا بهذه الرسالة فى الجزء الاول ص ٢٦٢ — ٢٦٨، ٢٩٩ — ٣٠٨ وهامش ص ٥٦٨ من الجزء الثانى.

على مشكلات فلسفية كثيرة مثل طبيعة الناموس الخلق،ومثل حقيقة الضمير، ومثل توضيح مغزى رسالة الألم والموت، إنما يخدم نفس هذا الهدف أيضاً. وكذلك عندما يعالج مشكلة التقريب بين المذاهب والعقائد، ودراسة مدى التسيير والتخيير، وغير ذلك من المشكلات المشتركة بين العقيدة والفلسفة، أو بالأدق ذات الزوايا العقيدية والأخرى الفلسفيـة ...

فإن علم الروح الحديث يلقى بغير ما ريب أضواء جديدة على هـذه الزوايا وتلك معاً على نطاق واسع،و إلى المدى الذى لا ينكره إلا من تعود الهرب من مواجهة الأمور خشية أن تدفعه المواجهة إلى شيء من الجهد فى تفهم أخطر حقائق الحياة، أو إلى قدر من التطور فى فهم بعض أصول الاعتقاد، وذلك ينتقل بنا إلى الكلام فى تبيان الرسالة الصحيحة لهذا التطور.

المبحث الثالث

تطور المعرفة يثبت جلال الاعتقاد ولا ينفيه

بينا فى المبحث السابق كيف كان هذا العلم الروحى الوليد مصدر أضواء جديدة على بعض جوانب الاعتقاد، وفى نفس الوقت كان بمثابة دعوة صريحة لإقامة فقه من الإيمان الموضوعى المترابط الذى ينبغى أن تندمج فيه حكمة الحكماء بعلم العلماء، فلا يعتبران بابين للمعرفة منفصلين، بل باباً واحداً، ما دام العلم والاعتقاد معاً هما عبارة عن البحث فى قوانين الله تعالى، وهو واحد لا يتعدد بتعدد نواحى البحث والاستقصاء فى سننه وأحكامه لتفهمها على أصولها الصحيحة، تستوى فى ذلك نواحى البحث فى المادة والطاقة،مع نواحى البحث فى النفس والخلق والروح.

كما بينا خلال البابين السابقين كيف نجح هـذا العلم الحديث فى ربط الاعتقاد الدينى برباط لا ينفصم بأوليات العلوم المسلم بها. تستوى فى ذلك أوليات الفيزياء مع الرياضة مع البيولوجيا مع السيكولوجيا مع غيرها ..

وذلك بعد أن كان التفكير الديني معدوداً فى القرنين الماضيين تفكيراً غير علمى فى أصوله وتفاصيله فى بعض البيئات العلمية بالأقل .

أما الآن فقد صمدت الأصول العقيدية — ولله الحمد — على النقد العلمى وتبين أن التفكير الديني يمكن أن يصبح فى جوهره تفكيراً علمياً إذا عرف كيف يتطور — ولو قليلا — مع تطور المعرفة اليقينية — خصوصاً منها المعرفة الروحية — ويتفهم البنيان السماوى فى العقائد على نحوه الصحيح . ثم — وهذا هو الأهم - إذا عرف كيف يميزه عن البنيان الإنسانى الذى كاد أن يبتلع كل ما عداه ويخفى كل رونقه وبهاه . فلا ضير إذاً فى تعقل العقيدة ولو أدى التعقل إلى مقدار من التطور فى فهمنا لها ، ما دام التطور فى المعرفة هو سبيل الارتقاء ، بل هو سبيل البقاء فى وجود يتنازع البقاء حتماً ، وهذه هى سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا .

عن تطور الاعتقاد

وفى هذا الشأن يلاحظ الفيلسوف وليام جيمس « بأن تاريخ الأديان خير شاهد على التطور ، فيحدثنا بأن كثيراً من الفروض الدينية التى لم تنجح فى التطبيق على الحياة العملية قد اندحر عندما واجه المعارف الكونية الرحيبة ، وصار بعد ذلك فى حين النسيان ، فى حين أن بعضاً آخر منها احتفظ بكيانه على طول الأيام ، ولم يزده مر الأيام إلا جدة وحيوية على الرغم من كل ما لاقى من محن وشدائد . ومهمة علم الأديان أن يبين لنا بإخلاص تلك الفروض التى عاشت وتحدت الشدائد ...

« ولا ضير على رجل العلم وعلى مهمته العلمية من الجدل الدينى فى عصره ، ما دام هناك شىء من الحرية الفكرية ومن العدل والإنصاف . . . لذلك وجب على رجل العلم أن يرحب بكل أنواع الجدل الدينى . ما دام أن بعض الفروض الدينية قد يكون حقاً ، واما إذا لم يعترف بهذا القدر فلا كلام معه لأنه يكون بعيداً عن الروح العلمية كذلك ... »

ثم يقول جيمس : « إن أهم الأشياء وأعلاها قيمة للإنسان وللأمم وللعصور هو مثلها العليا وعقائدها الدينية، ولو كان فيها مقدار كبير من الغلو والإفراط . لأن كل ما كان هنالك فيها من غلو ، نتيجة لفعل بعض الأفراد أو للتطور فى بعض العصور ، قد عوض عنه فى الجملة وعلى مر الأيام فأصبح فى النهاية فى صالح النوع الإنسانى . لذلك لا يكاد يوجد خلاف بين العلماء فى القول بأن الأديان لعبت دوراً مهماً فى النهوض بحياة الإنسانية جمعاء »[1] .

وبحسب مذهب جيمس البراجماتيكى — أى المستمد من التجريب الواقعى — تعد ثمرة العقيدة معيار صدقها ... « ونظرتنا إلى الدين ومسائله ينبغى ألا تختلف عن نظرتنا إلى العلوم ومسائلها فى شىء ، فكما أن العلوم تبدأ بالفروض التى ترجحها الميول النفسية ثم نختبرها عملياً ، فكذا ينبغى أن يكون الشأن بالنسبة للدين وسائر الاعتقاد، فيبدأ بالفروض ثم بالاختبار العملى لها ... »[2] .

كما يتحدث الفليسوف الإيطالى بنديتو كروش فى الفصل الأخير من كتابه عن « مسائل الحياة » قائلا عن العصر الذى نعيش فيه « إنه يتهم بهدم الديانات التى أصابت فيها الحياة الإنسانية منطقها وآداب سلوكها ومواطن استقرارها وآمالها . إلا أنها تهمة لا ثبات لها، لأن عصرنا بهذا الذى صنعه قد صنع شيئاً لا قبل له باجتنابه . إذ لم يكن هنالك بد من تساقط بعض الجوانب القيمة من البنية القديمة فى خلال تعرية الديانات من جلابيب الأساطير .

« وفى هذه الجوانب أفكار نفيسة وفضائل لا يسهل تقويمها مما كان متصلا بالقضايا الأسطورية . ولكن عصرنا قد بادر إلى استخلاص هذه الأفكار والفضائل ووضعها فى المكان اللائق بها ، بعد صقلها وتنظيفها وإثباتها فى أركان صرح جديد هو أرسخ وأنبل وأقوى من صرحها المهدوم »

(١، ٢) عن « العقل والدين » وهو السفر الثانى من « إرادة الاعتقاد » ترجمة الدكتور محمود حب الله ص ١٧٧ — ١٧٩ .

وإنه لفخر عظيم لجيلنا هذا أن يفلح فى تأسيس ديانة إنسانية وعقيدة مصفاة تبزغ من محض الفكر الصراح، ولكنه فكر تتجسم فيه الحياة أو يسخو بالجديد من الحياة»[1].

وفى نفس هذا الاتجاه يقول الحكيم الهندى يوجى راشارا كا أيضاً «إن من يدرس الديانات يدرك من غير شك أن فكرة الإنسان عن الله تنمو مع الزمن، فهى يزيد أفقها اتساعاً وتصبح أرق حاشية وأخطر قدراً وأكثر رحمة عاماً بعد عام حتى وقتنا هذا، اذ امتازت السنوات العشرون الأخيرة بتغير خطير فى هذه الناحية، فلم نعد نسمع بأن الله يحرق صغار الأطفال فى نار أبدية، وازداد ترديد ذكر محبة الله ورحمته بدل الحديث عن نقمته وكراهيته للبشر لأنهم يخطئون. وبدأ التعليم يتجه نحو حب الله بدل الخوف من بطشه.

وهذا التحول يسير حثيثاً نحو أمور خير مما عهدنا، ولكن يجب ألا ننسى أن كل طريقة من طرق العبادة، وكل نحلة، وكل مذهب أياً كان ما يبدو على تعاليمه من البدائية، لها مكانها فى التطور الدينى للبشرية، وأن كلا منها يناسب المؤمنين به، وعلى هذا فيجب أن يقابل بالاحترام.

وكلما تقدم إدراك المؤمنين وارتفع عن مستوى نوع معين من تعاليم دينهم أسقط أئمة ذلك الدين من تلك التعاليم مالم يعد يتناسب مع حال المؤمنين حتى تستقيم الأمور.

إن الأئمة عادة سباقون لماحون يرون مالا يمتد إليه بصر رعيتهم وتابعيهم، فهم أبعد منهم نظراً، ولكنهم ينتظرون الوقت المناسب لإدخال التعديل بالتدريج، وأن أشد الديانات محافظة واستمساكاً بقديم شرائعها لتبدو فى نظر السلف من أئمتها بدعاً لما أدخل عليها، بل جحوداً وكفراً. إن المذاهب والديانات تتطور فيسقط عنها من المعتقدات والتعاليم مارث وبلى، وظهرت للناس عيوبه، لتحل محلها أخرى يستسيغها الناس ويتقبلونها بقبول حسن.

---

(١) عن كتاب «الله» للأستاذ عباس محمود العقاد ص ٢٨٠

ومع ذلك تتمسك هذه المذاهب والديانات رغم ما يطرأ عليها من التغيير بأسمائها القديمة . مثلها كمثل قصة مدية الصبي التي تحطم نصلها مرة بعد مرة فركب لها في كل مرة نصلا جديداً، ثم تحطم مقبضها مرة بعد مرة فغير لها المقبض في كل مرة، ومع ذلك فإن صاحبها يعتبرها نفس مديته القديمة...»[1]

* * *

وعلم الروح الحديث ليس بعقيدة ولا بمذهب في عقيدة، بل إن رسالته الأساسية - شأن بقية العلوم والمعارف - هي توضيح العقائد الدينية ودفعها قدماً في طريق التطور، هذه العقائد التي هي بحسب تعبير وليام جيمس «أهم الأشياء وأعلاها قيمة للشعوب» بجانب مثلها العليا . كما هي أيضاً «استخلاص الأفكار النفيسة والفضائل ووضعها في المكان اللائق بها»، على حد تعبير بنديتو كروش .

وذلك يجري في نطاق الرغبة المشروعة عند الإنسان المستنير الملاءمة بين العلم والعقيدة أياً كان هذا العلم وهذه العقيدة. ومع مراعاة أن «المعضلات التي تتضمنها محاولة إيجاد ملاءمة بين الدين والعلم تتشابه كثيراً في الإسلام والمسيحية »، على ما لاحظه الدكتور ميلر باروز Miller Burrows الأستاذ بجامعة يبل، الذي استطرد قائلا «ومع أن الحواجز القومية قد تفصل بين بعض العلماء وبعضهم الآخر فالعلم نفسه لا يقبل تجزئة مثل هذه، إذ أن دنيا العلم واحدة، وإذا كانت دياناتنا مختلفة فالله واحد »[2].

فالله واحد - مطلق ومجرد - ونواميسه تعالى ثابتة - مطلقة أيضاً ومجردة - لا تتغير مهما تغير فهم الناس إياها، ومهما تشابهت أو تفاوتت في فهمها الفلسفات والآراء، حتى بين أولئك المعتنقين مذهباً واحداً من عقيدة واحدة،

---

(١) عن « فلسفة اليوجا » المرجع السابق ص ٢٤٠ — ٢٤٢ .

(٢) Some Suggestons Concerning The Relation Between Religion And Science In Islam.

أو بين أولئك المعتنقين مذاهب شتى من عقائد شتى ... أليس ذلك واضحاً بذاته الوضوح الذى يغنى عن كل برهان وبيان ؟ .

ودور علم الروح الحديث بالتالى هو أنه سبيل إلى فهم هذه النواميس المطلقة المجردة،وتنمية المعارف الإنسانية فى شأنها ، وبالتالى سبيل إلىتوكيد جلال العقائد وإبراز رونقها على مر العصور والأجيال،مهما لحق فهم بعض جوانبها من تطور . وشأن البحث فى الروح شأن أى بحث علمى آخر ، لأنه لا يمثل عقيدة جديدة ، ولا هو صياغة حديثة لفقه قديم على أى وجه من الوجوه .

المبحث الرابع

التوفيق ميسور بين الاعتقاد وبين تطور المعرفة

سبق أن قلنا إن التطور فى فهم العقيدة قد يجىء عن طريق البحث فى الروح كما قد يجىء عن طريق البحث فى أى جانب من العلوم والمعارف . تستوى فى ذلك علوم الحياة مع علوم المادة غير الحية وعلىنفس المستوى، واستناداً إلى نفس الأسلوب والأسباب ، لأن العقيدة تمثل جزءاً من ضمير الإنسان وإدراكه ، وهما إذا استضاءا بأسلوبالبحث العلمى فلا يمكن أن يقبلا الاستضاءة به فى جانب دون آخر ، أو فى رقعة من الضمير دون أخرى ، وهذه خصلة إنسانية حميدة لا حيلة لأحد فيها ، ولا وجه مصلحة فى مقاومتها .

وإذا كان هذا القول صحيحاً فى شأن علوم المادة ، فهو صحيح من باب أولى فى شأن الروح وهى علم العلوم . فلم تبدأ دراسة الروح على نهج علمى إلا عندما عرف العقل سبيله إلى دراسة الظواهر الوساطية ، التى اصطلح « العلماء » حتى منتصف القرن الماضى على إهمالها إهمالا تاماً ، أو على إنكارها بغير بحث ولا دراسة ، وهى نفس خطة بعض « العلماء » السطحيين

حتى الآن . أما قبل هذا التاريخ فلم يكن الكلام فى الروح أكثر من رجم بالغيب فى الكثير من جوانبه ، إن أصاب صاحبه مرة فقد أخطأ مرات ومرات .

فإذا أضيف إلى ذلك دور العقل الحتمى فى الخضوع للخيال الواسع ، خصوصاً فيما لا يمكن أن يخضع لحواسه العادية من أمور ، وما لا يمكن أن يخضع للتفكير غير العلمى من قوانين عميقة تحكم هذا الكون مفرطة فى عمقها وفى إطلاقها ، وإذا أضيف إليه أيضاً دور العقل الحتمى فى الخضوع لانفعالات الساعة ، ولروح الجماعة ، ولاعتبارات الزمان والمكان ، لوضح جلياً أن الحلول غير العلمية فى موضوع الروح لا تتضمن من صواب إلا بقدر ما فى أمثال هذه الحلول من صواب فى موضوعات الطب أو الكيمياء أو الفيزياء أو غيرها ، قبل أن تعرف طرائق الاختبار الناقدة ، ومعها أساليب التحليل العلمى المتأنى ، الذى مهد — وحده — السبيل لكل الكشوف الخطيرة التى ينعم بها الإنسان .

بل إن البحث فى الروح يتعثر بعوامل للعثار تتجاوز بكثير العوامل التى يتعرض لها البحث فى كافة علوم الحياة والمادة غير الحية ، فهو حتى إن جرى بطريقة موضوعية متحررة — وهو فى ذاته أمر من الصعوبة بمكان — فإنه للوصول إلى نتائج يصح وصفها بأنها جديرة بالاعتبار يتطلب فضلا عن التجرد التام ، والأفق الواسع ، والعاطفة النامية ، والخلق الناضج ، إلماماً كافياً صحيحاً بأهم مبادئ فروع كثيرة من علوم شتى .

ولهذه الاعتبارات مجتمعة جاء بحث موضوع الروح على أسلوب علمى متأخراً فى الترتيب الزمنى بالمقارنة مع سائر علوم الحضارة المعاصرة . أما فى الحضارات القديمة فيبدو أنها قد بدأت به ، وتكاد تكون قد انتهت به أيضاً ، مكتفية بما وصلت إليه فيه على نحو أو على آخر من معرفة محدودة

مرتبطة وثيق ارتباط بمعارف أصحابها المحدودة ، وبتطورهم فى العقل وفى الأخلاق .

وكل ذلك يوضح تماماً أية رسالة جليلة أداها — وسيؤديها حتماً للإنسانية جمعاء — البحث فى الروح على نهج موضوعى ناقد ، ولوضح تماماً أننا عندما ننكر دور هذه الرسالة إنما ننأى عن الحقائق الناصعة ، وندافع عن الأخطاء لمجرد أنها قد تتملق فينا الأنانية ، وهى أقوى الدوافع إلى العثار. بل إننا إذ نفعل ذلك إنما ننكر سلطان العقل فى التحقيق والاستنباط ، ضاربين على غير هدى ، فى دروب مقفرة ، لغير حكمة مشروعة ، فنفقد طريقنا إلى تيه لا مخرج منه ، حين يعدو غيرنا عدواً سريعاً نحو هدف واضح وغاية مشروعة .

كما ننكر فى نفس الوقت دور التطور ورسالته السامية ، متناسين أنه قانون إلهى ، بغيره تفقد الحياة حكمتها ومغزاها . ومتجاهلين أن كل حضارة توقفت عن التقدم كتب عليها أن تفسح المجال لغيرها من حضارات . وما الحضارات سوى نتاج عقولنا ، والتعبير الخارجى لعواطفنا ومشاعرنا . فإذا نما العقل نمت حضارته وكتب لها الازدهار والتفوق ، وإذا توقف العقل عن النمو توقفت الحضارة بدورها ثم تلاشت هباء منثوراً ، لأن عقارب الساعة لا ترجع للوراء فى أزلية الحياة ، كما أرادها لها من أبدعها ، وقدر لها أن تسير متطورة فى غير ما توقف ، ولا تراجع .

من صفحات الماضى

ودراسة أية حضارة مندثرة تنبىء عن صحة هذه الحقيقة الرهيبة ، وهى أن التوقف معناه الاندثار أية كانت دواعيه فى الأخلاق أو العقول . فقد تفانى الفراعنة مثلا فى عبادة «آلهتهم» واستغرقوا فيها استغراقاً

تاماً ، ولكنهم استغرقوا بنفس المقدار فى عبادة أنفسهم أيضاً !

وبسبب الاستغراق الأول وصلوا إلى حقائق هامة كثيرة عن الروح والثواب والعقاب ، حتى وإن كانت تكتنفها من كل جانب الخرافات والأساطير . كما وصلوا إلى مبادىء كثيرة صحيحة عن الخلق والفضيلة ، حتى وإن أعوزها بسبب الاستغراق الثانى كثير من الإخلاص فى التطبيق. وذلك حتى لقد اختفت فى حياتهم — أو كادت — كل الصور الواضحة للتضحية النبيلة أو إنكار الذات ، فاختفت معها فى حياتهم — أو كادت — جل مصادر السعادة الحقيقية للروح .

ووقفت معلوماتهم عن الخلود وعالم الخلود عند حد محدود ، فلم يعرفوا شيئاً يذكر عن حقائق العقل والمادة والأثير ، ولا عن معنى الحياة العقلية التى يوفرها تأثير العقل فى الأثير ، وبالتالى تأثيره المباشر فى كافة مظاهر الوجود التى من حوله ، حتى تلك التى قد تبدو للحواس مادية صلبة. ولم يعرفوا معنى الجسد الأثيرى ، وعدم حاجة الروح فى مستواها الجديد لجسدها الترابى ، وإن كانت كل الدلائل تشير إلى أن وسطاءهم كانوا يرون الأرواح متجسدة وغير متجسدة ، وكانوا ينصتون إليها عن طريق وساطة الاستشفاف السمعى ، وربما أيضاً عن طريق وساطة الصوت المباشر .

وقد تصور الفراعنة بسبب ضآلة معلوماتهم، فى العقل وفى المادة وفى الأثير، أن أجساد الأرواح هى نفس أجسادها المادية، ولهم فى ذلك بعض العذر ، لأنها — كما قلنا فى مناسبة سابقة — صورة طبق الأصل منها ، ومن هنا جاء اهتمامهم المفرط بتحنيط جثثهم حتى تعود إليها « الكا » أو الروح فتستخدمها من جديد على نحو غامض مجهول حتى منهم[1] ،

(١) حتى ليبدو اعتقاد الفراعنة فى هذا الشأن أشبه ما يكون بمن يعتقد حتى الآن بقيامة نفس الأجساد الترابية للموتى فى يوم ما .

ومن هنا اهتموا أيضاً بتشييد قبورهم بمنأى عن عوامل التحلل والفناء ، وبتزويدها بالأثاث الجنائزى الذى ستحتاج إليه الروح حتماً فى عالم الخلد بعد رحلتها إلى أبيدوس — حيث دفنت رأس أوزيريس Osiris ، وبعد اجتيازها بسلام فى المركب المقدسة لمناطق محفوفة بالأهوال، وذلك فى حراسة موكب من الأرواح الحارسة التى كانوا يعبرون عنها « بالآلهة » . وتنوعت من ثم آلهتهم ورسموها فى صور آدمية وحيوانية شتى ، للتعبير عن أسمائها الرمزية ، التى كان بعض الأرواح ينتحلها — فيما يبدو — حتى لا تكشف عن شخصيتها شأن بعض أرواح اليوم .

وبسبب الاستغراق فى العبادة قضى الفراعنة جل حياتهم فى إعداد مدافنهم ومعابدهم الجنائزية ، فلم يستعدوا للموت عن طريق البر والحنان، بقدر ما استعدوا له عن طريق إرهاق رعاياهم وأسراهم فى عمل شاق فى بناء المدافن والمعابد — لا رحمة فيه ولا سند له من منطق صحيح ، وإن كانت أسانيده كثيرة فى منطق الاعتقاد الخاطىء والمعرفة المشوهة المبتورة .

ونحن إذ نقرر ذلك لا ننفى عنهم مطلقاً فضل حضارتهم الباهرة — حتى فى شئون الاعتقاد بالإضافة إلى فنون العمارة والنحت والطب والحرب — ولكن كل شىء نسبى ، ويكفيهم فى هذا الشأن أن حضارتهم فى هذه الأمور قد بزت كل حضارة أخرى سابقة لها أو لاحقة عليها، إلى أن ظهرت حضارة الإغريق . ويكفيهم ما كانوا عليه من ارتقاء فى وقت كان جل العالم من حولهم يغط فى نوم عميق وجهالة مطلقة . ويكفيهم أن تفوقهم الضخم فى البناء والنحت، وذوقهم الفنى الرفيع فى الرسم والنقش، أمور لا تزال تخلب ألباب المتحضرين حتى الآن ، وكذلك إقبالهم الشديد على الحياة ، وعلى العبادة ، وتعلقهم المفرط بالخلود وبالعالم المجهول .

وقد يقال إن العاملين فى بناء المدافن والمعابد الفرعونية كانوا مقبلين على عملهم الشاق — فى أتعس الظروف — عن طيب خاطر لإحساسهم

بإرضاء آلهتهم عن هذا السبيل ، فلم يكن عملهم محض سخرة وإرغام كما تصور هيرودوت خطأ . وهذا القول فى الدفاع عنهم فيه جانب قوى من الصحة،ويشير إلى صحته ما بذله العاملون من قدرة فنية خارقة للعادة ، ولكنه إن دل على أمر فعلى مدى قوة هذه الغريزة الدينية،وكيف أنها عميقة فى الإنسان، قادرة على أن تجعله يصنع المعجزات وقت اللزوم ؛ وكيف أنها قادرة أيضاً على أن تصنع من المتعبد إما فرعوناً قاسياً لا يرحم ، وإما عبـــداً سعيداً بالعبودية والهوان،وذلك إلا إذا شاء له مستوى تطوره أن يرتفع بالتدين من مستوى الغريزة إلى مستوى العقل الناضج ، والعاطفة النامية فى الإنسان .

فلم يكن الفراعنة يعوزهم التدين إذاً ، بل لقد كان تدينهم عميقاً إلى آخر مدى ولكن التدين مع نقص المعرفة أو الفضيلة قد يكون شراً من كل صور الإلحاد ! وقد يصنع من الأنانية إلها أنانياً ، بل موكباً كاملا من آلهة تعوزها المعرفة والفضيلة ، كتلك الآلهة التى عرفها أيضاً الروم والرومان فى أزهى أيام حضاراتهم . ومثل ذلك يمكن أن يقال أيضاً عن التدين مع التوقف أو عنه مع الجمود ، فإنه يصنع أيضاً آلهة متوقفة جامدة ، لا تعى ولا تسمع حتى توسلات العابدين مهما توسلوا إليها فى حرارة وفى إيمان !! ألا ما أعظم العبر التى يمكن أن يعتبر بها العاقل لو نقب قليلا فى صفحات الماضى الحافلة بالعبر فى كل زمان ومكان ! ...

نحو حياة أفضل وأشمل

وهكذا جمدت فى النهاية عقائد الفراعنة وتوقفت ، فتوقفت معها وبها حضاراتهم الباهرة عن المسير ، فبدأ التدهور السريع الذى أطمع فيهم الغزاة والفاتحين ، لنفس الأسباب التى أطمعتهم من قبل فى غزو جيرانهم من النوبيين والحيثيين والأشوريين وغيرهم ، وهكذا قامت حضارة بعد حضارة ، واندثرت شتى الحضارات الواحدة بعد الأخرى .

وفى نهاية المطاف أصبح من رسالة الموكب الإنسانى أن يتطور بصورة

أوضح نحو تحقيق أوفى لمشاعر أكثر رقة نحو الضعيف والمحروم ، وأكثر تقديراً لمعانى العدالة والتضحية والتضامن الاجتماعى ، بعد الإفراط فى الشعور بالذات وبالآلهة ، والاستغراق فى عبادة هذه وتلك معاً . ونحو فهم أصح لصفات إله المحبة والرحمة بعد آلهة الحروب والذبائح .

وأصبح من رسالة الموكب الإنسانى أن يتطور بوجه يكاد أن يكتسح ما عداه نحو تمجيد «الفكرة الصائبة» بعد «العزيمة الماضية» ، وبذلك دخل الإنسان تدريجياً فى عصور الفلسفة ، والإلهام الراقى ، والكشوف العلمية الرائعة فى مجالات المادة وماوراء المادة، والروح وماوراء الروح ، فبدأ الإنسان يعرف نفسه ويعرف طريقه إلى معرفة نفسه فى عزم وفى ثبات، وإن كان فى تردد وفى اضطراب بين ما قد يبدو للعقل أنه حكم المنطق ، وما قد يبدو له أنه حكم الاعتقاد .

وهذه هى الاتجاهات التى تسير فيها حشود البشر تدريجياً ، وببطء شديد متحدية النكسة بعد الأخرى ، ولكن هدف التطور واضح، وطريقه خطته عناية عاقلة وسط الزوابع والأعاصير ، عناية عظمى تقف وراء هذا التطور باذلة ما وسعت نحو تحقيقه للوصول بالإنسان — فى حدود طاقته — إلى الغايه النبيلة المعد لها منذ الأزل ، عن طريق إرادة حكيمة من عند عزيز قدير .

وقوى التطور تتصارع مع قوى الجمود والتخلف صراعاً لا يتوقف على هذا المستوى ، وعلى غيره من عوالم المادة وما وراء المادة ، ومن بينها هذا الكوكب الذى اتخذه بنو البشر موطناً مؤقتاً لهم . وكأنه منقوش على لوحة القدر بحروف من نور ومن نار، هذا الشعار الحق الذى ينبغى أن يهيمن على موكب الإنسان باستمرار : وهو «نحو حياة أغزر وأعمق ، ونحو إدراك للحياة أرحب وأصدق» .

وهذا المسير المحتوم نحو حياة أغزر وأعمق قد يجىء من جانب العلم ،

كما قد يجيء بنفس المقدار من جانب الاعتقاد ، لو عرف البشر أن التوفيق بين جوهر هذا وذاك ليس مستحيلا ، كما يتصور خطأ المتطرفون من « العلميين » ومعهم المتطرفون من « المعتقدين » . ومع التطرف لا يصح رأى يستحق الذكر فى علم ولا فى اعتقاد ، لأن التطرف يؤدى حتماً إلى إهدار الجوهر لحساب المظهر ، والمعنى لحساب اللفظ ، والمعرفة لحساب الأشكال والحركات ، والتقدم لحساب الاعتداد بالرأى وبالذات! .

وهذا المسير المحتوم نحو حياة أغزر وأعمق يجيء أيضاً من جانب الإيمان المدروس بقيمة العلم والاعتقاد معاً فى توجيه الروح فى رحلتها الطويلة عبر الأبدية . وفى هذا الشأن يقول الأستاذ مصطفى الكيك « فليس من شك فى أن حياة الإنسان فى عالم المادة وحياته فى العالم الآخر حلقتان متصلتان فى سلسلة الأبد . ويشبه هذا الاتصال ارتباط الجنين فى بطن أمه بحياته الدنيوية التى ينتقل إليها بعد أن يكون أعد لها إعداداً كاملا . وكما يعد الجنين وهو فى بطن أمه إعداداً صالحاً لمواجهة الحياة على الأرض فإن الإنسان يعد فى عالم المادة بتحصيل العلم إعداداً صالحاً لمواجهة مشكلات حياته فى العالم الآخر . ومعنى ذلك أن مكانة الإنسان فى الحياة الثانية متوائمة مع مقدار ما يكسبه لنفسه من العلم وهو على الأرض .

« أما إذا انتقل جاهلا قليل الحظ من المعرفة فلم يعمل بكل جهده على تحقيق رسالة الحياة فإنه يكون فى العالم الآخر أشبه بالجنين المسخ الذى يولد مشوهاً ، أو بالجنين الذى لم يكتمل تكوينه ، وفى الحالتين ينكره أهله وينكره الناس ، ثم هو بعد ذلك ينكر نفسه » . ثم يستشهد المؤلف بالآية الكريمة « ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا »[1].

كيفية التوفيق

والتوفيق بين جوهر العلم والاعتقاد بوجه عام يمكن أن يتحقق بسهولة

(١) عن مؤلفه « بين عالمين : عالم المادة وعالم الروح » . ١٩٦٥ ص ١٢٨ .

لو فهم العقل الحديث معنى التشبيهات الجميلة فى النصوص، والاستعارات والكنايات والمجازات الرائعة الكثيرة التى حاول بعض « المعتقدين » أن يعطيها دلالات مادية ومفاهيم حرفية . وذلك فى حدود ما كان يمكن لعقله أن يدركه من حقائق هذا الكون الهائل ولضميره أن يعيه من أمور ضئيلة القدر محدودة المدى .

ولذا ورد فى الحديث الشريف « إنا معاشر الأنبياء أمرنا أن نخاطب الناس على قدر عقولهم » [1] ، فمن لا يفعل ذلك إنما يحرث فى الماء بل فى الهواء ! والرسالات لا تعبث ، ولا يعبث من بعدها فلاسفتها ومفسروها ، لأنهم لو خاطبوا الناس على « غير عقولهم » لا تهموا بالعبث، ولما نجحوا فى محاولة توجيه ضمائرهم إلى الإيمان ولا توجيه أخلاقهم إلى الفضيلة .

والإقرار بهذه الحقيقة الواضحة بذاتها أنسب بغير ما ريب لجلال الاعتقاد وأدعى للاجتهاد ، وبالتالى للتطور العلمى ، من القول بأن البنيان الإنسانى يعادل السماوى فى مستواه من ناحيتى القوة والعصمة ، هذا القول الذى هو سند الحرفيين — من كل عقيدة — وسنادهم سواء أقروا به ، أم لم يقروا ، وإن تركوا ضمائرهم تتصرف على مقتضاه ، وتوجههم على هواه فى كل اتجاه إلا اتجاه المنطق المتماسك ، والاعتقاد المؤمن بحرية البحث العلمى، التى ليس لها بدورها من سند ولا من سناد إلا حرية الفكرة والكلمة بغير ما قيد ولا تحفظ .

ثم أليست العصمة لله وحده ؟ .. فلماذا يدعونا التقليد لأن نضفى العصمة أحياناً على كل كلمة قيلت تحت راية الاعتقاد وباسم سلطانه العتيد على النفوس؟ ولأن ننحو نحو الجماهير الصاخبة عندما تستهويها العبارات البراقة التى تتملق مشاعرها وانفعالاتها ، أكثر مما يستهويها الإدراك الصحيح لحقائق الأمور، وعندما تنفر من التفكير الهادىء قدر نفورها من الاعتدال والتروى .

(١) عن « المقاصد الحسنة » للسخاوى ص ٩٣ .

وذلك يتعارض — بغير ماريب — مع جلال الاعتقاد ودوره المحتوم فى دفع عجلة التطور إلى الأمام ، وفى تلطيف الغرائز والانفعالات الصاخبة صيانة للإنسان فى قدره ومصيره ، لا دفعاً به إلى هاوية الحروب والأحقاد أو الجمود والاستبداد ، وكلاهما نتيجة محتومة لانفصال الاعتقاد عن العلم والعلم عن الاعتقاد .

والعقائد تكتسب جلالها أول ما تكتسبه من عقول المعتقدين ، وهذه من حق العلوم والمعارف الثابتة أن توجهها وتضىء جوانبها . كما ترتبط أيضاً بمقدار ما فى نفوسهم من فضيلة أو رذيلة . فالإنسان الغر « يعتقدها » غروراً حين يعتقدها الإنسان الطيب طيبة وسلاماً ، مع أنهما قد ينتميان إلى مذهب واحد من عقيدة واحدة ... فهل « نعتقدها » فى عصر المعرفة هذا علماً وعرفاناً أم توقفاً وجموداً ؟ ! . .

وإذا كانت مدارك الإنسان متطورة بتطور المعرفة ، وفضائله متطورة أيضاً بتطور القيم والأقيسة الاجتماعية ، وبنمو العلاقات بين الأفراد والشعوب ، فلا يمكن أن يجمد فهم الإنسان لكل جوانب العقيدة عند مستوى ثابت لا يتطور من الإدراك والفضيلة ، وإلا نأت هذه الجوانب عن إدراكه وعن فضائله معاً ، وهذا هو الإنكار لها بعينه .

أو بالأدق هذه هى مراوغة الإنسان المستنير لنفسه التى لا تمنحه نعمة الإيمان المستنير ، ولا نعمة إعمال العقل كما تعوده فى أخص شئونه وأنبل مشاعره ، فإذا هو فى النهاية موزع العقل والضمير تحت وطأة الوقوف عند فهم معين للأمور ، وعند آراء كثيرة قد يضفى عليها التوقف — وربما عن شعور غير واع — عصمة لا تختلف فى شىء يذكر عن العصمة التى يسلم بها العقل الحكيم لله ، ولله تعالى وحده .

بين الموت والتوقف !

وهذه العصمة التى يسلم بها العقل الحكيم لله تعالى وحده مستفادة من

أن حقائق الحياة الأزلية لا تقبل التبديل ولا التغيير ، وإنما هى عقولنا ، وإلهاماتنا ، وأخلاقنا ، ومشاعرنا التى تقبل التبديل والتغيير ، إذا أردنا الارتقاء وسعينا إليه وهى بذاتها تمثل مسالكنا الوحيدة إلى حقائق الحياة الأزلية ، ولذا تبدو لنا هذه متطورة ، وما التطور إلا فى تطور مسالكنا إليها . فإذا ارتقت هذه المسالك فقد ارتقت معها حقائق الحياة ، كيفما كانت الحياة وفى أى مستوى وجدت .

أما إذا تدهورت المسالك فى رقعة ما من الكون فقد تدهورت الحياة وسط موكب رائع من النشاط والحركة يحيط بها من كل جانب ، فإذا بهذه الرقعة تصبح عبئاً ثقيلا على موكب الحياة ، فإما عرفت كيف تتخلص من تدهورها وإما عرفت الحياة كيف تنحيها جانباً كيما يسير الموكب ظافراً فى طريقه ، إلى أن يقدر لهذه الرقعة نشاط بعد خمول ؛ ولشمس المعرفة فيها شروق بعد أفول .

ولا يكون النشاط بعد الخمول أمراً هيناً ولا عاجلا ، بل مصحوباً دائماً بالمآسى وبالأهوال ، التى تجىء من ناحية الحماقة لا من ناحية الحكمة ، ومن ناحية الشطط لا من ناحية الاعتدال ، ورغم ذلك تسير الحياة فى تقدمها على الدوام ، لأن إرادة الله أرادت أن يجىء تطور الحياة ظافراً فى النهاية ومن كل جانب ، حتى من جانب أخطاء الحماقة والاندفاع عندما ترتطم بإرادة التعقل والاعتدال ، أو من جانب الطموح الكاذب عندما يصطدم بحقائق الحياة . وهكذا يجىء الخير من الشر رغماً عنه ، ويتحقق — فى النهاية — النهوض والارتقاء ولو فى أعقاب دهر ملىء بالجموح والأخطاء .

وذلك لأن مسير القافلة — ولو مع الخطأ المتراكم — خير من الرقاد بلا خطأ ولا صواب ، وخير من الاثنين معاً المسير مع كثير من الحكمة وقليل من الحماقة ، هذه الحكمة التى هى أثمن ما ينبغى أن يصبو إليه الإنسان ، لأنها تمثل ذروة اجتماع العقل مع الإلهام ، ونمو الشعور مع الأخلاق ، وهى أمور كلها لا تنبع من التوقف بل من مواصلة الكد والعناء . ولكن بعد أن

يضع الإنسان قدمه فى طريق الاستقامة والنقاء ، وبعد أن يعرف كيف يفكر لغيره بعد طول تفكير لنفسه وفى نفسه ! ...

* * *

فالتوقف إذا هو الموت الوحيد للروح الخالدة بطبيعتها ، والتى لا تعرف موتاً غيره ، لأن الإنســـان خلق نامياً ساعياً بفطرته للتزود — إلى ما لا نهاية — بحقائق الحياة ، لا بأوهامها . وهذه الحقائق لن تصل إليه إلا إذا وصل هو إليها بفضل نموه فى الإدراك وفى العاطفة .

والروح هى الهيكل المقدس للعقل ، كما أن العقل هو المستودع الأمين للعاطفة . والعقل والعاطفة هما القطبان السالب والموجب لحياة الروح . لأنه عن طريق تعقل الأمور — فحسب — تزود الروح بما يلزمها من إلهام ومن عرفان ، وعن طريق العاطفة النقية تشع الروح مما تزودته ضوءاً يرسم اتجاه الطريق — الصحيح — لمن حولها من بنى الإنسان .

فكل حصار على نمو العقل والعاطفة إنما هو حرب باغية معلنة على الروح فى صلاتها بالعقل الأعظم ، وفى اتجاهها الطبيعى إليه ، وفى روابطها المشروعة بعقول الآخرين . وعن طريق هذه الصلة وتلك الروابط عندما تكون واسعة الأفق ، متخطية السدود ، متحررة من حواجز الضيق والتزمت ، تزدهر حياة الروح فى العقل النامى وفى العاطفة النقية . فإذا بها تفكر لغيرها بعد التفكير لنفسها ، وتتجه للمحبة بعد الاتجاه للسيطرة ، وإذا بها تحلق فى السماء بعد رقاد بغيض فى ظلمة ظلماء ...

وهكذا تنطلق الحياة من إسار قيرها الوحيد ، وهكذا يصبح للوجود هدف غير هدف إزكاء الغرور والأحقاد ، وغير عبادة الذات واللذات ، ومغزى أسمى بكثير من مغزاها الباهت المتداعى ، بل المحزن الأليم فى الرقاد والخمول .

وإذا تأملت فى معارف إنسان هذا الجيل - وما سبقه من أجيال - بما فيها الطب والفلك والأخلاق والاجتماع والنفس والتشريع - لوجدتها كلها وقد تعثرت فى مبدئها بأوهام «اعتقادية» ضخمة، ووقفت عند حواجز كادت أن تطفىء جذوتها للأبد حتى قبل أن تشتعل ، لولا لطف الله بالبشر .

فلما بلغت المعارف ذروتها فى الاشتعال اتضح أنها هى بنفسها المشاعل التى تضىء طريق الإيمان النقى المستنير للإنسان ، وليس فيها شىء البتة من النار التى كان يخشى «المتعبد» لهيبها ويتصور آراءه «المعصومة» لها وقوداً ، بسبب هواتف الضعف أو الخوف الغريزى فى النفس من كل أمر ليس فى الحسبان .

كما اتضح أنها مشاعل حقيقية للفضيلة وللمحبة وللتواضع ، وأنها تمثل - للروح المتطورة المتلهفة على التزود بالحقائق - الحياة بعد الموت لا الموت بعد الحياة . أو بالأدق تمثل حياة التحرر والانطلاق بعد موت العبودية والاختناق . ولا يجىء الانطلاق بغتة ، ولا يمكن أن يتحمل مسئوليته كل إنسان ، لأن مسئوليات الحرية عظمى تتطلب نضجاً فى العاطفة ، وشجاعة فى الرأى ، وتقديراً سليماً للأمور . وهى تفوق كثيراً مسئوليات العبودية التى لا تتطلب من صاحبها إلا الطاعة والإذعان ، ومعهما الرقاد والتوقف !

فهل هناك مبرر للتوقف ، ولأن نتصور وجود تعارض بين العلم والاعتقاد؟ نعم إن هذا التعارض سد وسياج منيع لا يمكن اجتيازه فى أذهان الحرفيين - من كل عقيدة - وضمائرهم . لكنه سراب لا وجود له - ليس عند الفلاسفة والعلماء وقادة الفكر فحسب ، بل أيضاً عند الإنسان المثقف العادى متى سمح لضياء المعرفة الصحيحة أن يضىء سبيل علمه وعقيدته معاً . فالعلم عند هؤلاء وهؤلاء هو خادم العقيدة الأمين، والمشعل الذى يضىء

سبيل المعتقدين ... فلمَ التردد أو الوجل، بعد إذ فتح على مصراعيه أوسع باب للرجاء والأمل ؟ ! ...

«حقائق الحياة» كما يراها فندلاى

ولعل خير ما نختتم به الفصل الحالى عن «الروح بين العلم والاعتقاد» هو هذا المقال الضافى عن «حقائق الحياة» الذى استعرض فيه الأستاذ جيمس آرثر فندلاى J. A. Findlay[1] — مدير «المعهد الدولى للبحث الروحى» حتى انتقاله فى سنة ١٩٦٤ — وجهة نظر العلم الروحى فى إقامة دعائم إيمان مشيد على العلم والتجريب ، بخلود الروح رغم فناء الجسد ، نقدمه للقارىء عن مجموعة «اتجاه الروح الحديثة نحو فلسفة للإيمان» التى اعتبرت فندلاى أحد أعلام هـــذا الاتجاه الحديث ، وفيه يقول فى سطور مليئة بالطمأنينة والعزاء ، مفعمة بأسباب السرور والرجاء ، وتستحق كثيراً من الأناة فى قراءتها والتأمل فيها ، ولـكن — مع ذلك — بغير ارتباط منا بكل ما فيها من اتجاهات .

« وسط بلبلة العقائد فى هذا العصر الذى يتسم بانحلال الإيمان ، علامَ نعتمد ؟ فـكثير مما تعلمناه على أنه حقائق مؤكدة نجده ، فى عصرنا هذا الذى اتسعت معارفه، خطأ يجب تنحيته جانباً. وماذا يتبقى لنا بعد ذلك؟ إن كل شىء له قيمة باق ، وأما الزبد فيذهب هباء، لذا ينبغى أن نلقيه بعيداً. وكل أمنيات الروح يمكن تحقيقها الآن لا بالإيمان والأمل ، بل بالمعرفة ...

إن أسلافنا ، لتقديرهم أن على هذه الأرض يتساوى سلطان الحياة والموت ، استنتجوا معتقداتهم من الظواهر الطبيعية حولهم ، فقالوا إنه مثلما تغرب الشمس لتشرق ثانية ، ومثلما يموت النبات لـكى يحيا ثانية ، هكذا الإنسانية يجب أن تتبع نفس هذا النهج الطبيعى ، ومن ثم فإن الموت ما هو إلا عتبة لحياة أخرى .

---

(١) راجع ما سبق عنه فى الجزء الأول ص ٢٤٧ ، ٢٤٨ .

وحول هذه العقيدة البديهية العامة بأن الموت ليس نهاية الحياة ، نشأت طقوس — بعضها بدائى وقاس — مالبثت أن أصبحت ديانة لممارسيها . وبملاحظة قوى الطبيعة ، قرر أسلافنا أن هناك قوة أو ذكاء فى الطبيعة ، أى خارج قواهم . وهكذا تطور ، بطريقة بسيطة ، الاعتقاد بأن ألواناً مستقلة مختلفة من الذكاء تسيطر على العالم .

وكانت آلهتهم بصورة رجالهم ، وقساة مثلهم ، ولكنهم أقوى منهم وأشجع . كذلك التصقت بهم صفات مستقاة من الظواهر الطبيعية . وبعد قليل عزيت إلى بعض الرجال البارزين ، بعد وفاتهم ، صفات من صفات الآلهة ، ونسجت حول حياتهم القصص والأساطير التى كانت تروى عن الآلهة[1] .

وهكذا نصل إلى عصرنا الحديث ، الذى لا تزال الأغلبية فيه تعتقد فى صدق هذه القصص التى تروى عن الرجال الآلهة . غير أن البعض قد وجد، بواسطة البحث ، أساس عقائد العالم ، وبذا تحقق من أن ما كان الكثيرون يؤمنون به كحقائق ما هو إلا أساطير قديمة نسجت لترضى العالم فى مرحلة الطفولة من نموه .

وأكثر الناس لايزالوان عبيداً لسيطرة العادة،متمسكين بحكمة الماضى. فالعادة تشبه السجون الموصدة بواسطة رجال الأزمنة الغابرة ، الذين أخذوا مفاتيح تلك السجون معهم إلى قبورهم . وهكذا يندثر الكثير من الآراء القديمة ، حين أن القليل فقط منها يرى النور . ومع ذلك فلازالت الجماهير تسجد أمام مذبح كل ما هو أثرى ، وتعبد ما تعتقد أنه المحصول المقدس لماهو قديم .

إن الرجل المثقف المفكر الذكى فى العصر الحاضر يفكر لنفسه،ويشفق على مايرتكبه الناس من أخطاء ومهازل،ويحاول أن ينير عقولهم وضمائرهم بالإشارة إلى المستقبل لا إلى الماضى. فالرجل المفكر — والمرأة المفكرة —

---

(١) يتحدث عن بعض الديانات البدائية المندثرة .

هما اللذان يساعدان العالم على حمل مشعل الحقيقة إلى الأمام ، وهكذا يقرب اليوم الذى يمتلىء به العالم بالنور .

ومتى اختفت كنوز الماضى التى تشبه الأساطير ، فماذا يتبقى لنا ؟ هل سنبقى بدون مشعل لأقدامنا ، وبدون نور لطريقنا ؟ بالتأكيد لا . أليس لدينا الآن المعرفة عوضاً عن الأمل الذى كان يحدو بجدودنا إلى نسج الأساطير والخرافات ، وإلى تنظيم الطقوس التى وصل إلينا — بعضها — فى رداء المعتقدات والمراسيم المقدسة ؟ . . .

ما هى إذاً الحقائق الثابتة لدينا ؟ ابتداء بخصوص الأسرار العظيمة المتعلقة بالحياة والموت ، قد احتلت المعرفة الآن مكان الإيمان والأمل . .

ففى بحر السنوات المائة الماضية تم كشف الستار عن أغمض سر كان يجعل الإنسان فى خوف وعبودية مستديمين ، لقد تكلم أبو الهول أخيراً .

فمن وراء البحر الشاسع الذى كان يبدو بلا نهاية ، قد وصلتنا — سابحة فوق الأمواج — الفروع والغصون التى تبرهن لنا على أنه توجد حياة فيما وراء الأفق ، وأن البحر الذى يبدو لنا قاسياً عنيفاً ما هو إلا قنطرة تصل بين حياة وحياة . فإلى حيث ذهب الموتى ، يمكن للعقل أن يذهب . ومن الجانب الآخر قد وصلتنا ، الرؤيا ، فلا داعى للشعور الآن بأن الحياة ماهى إلا وادضيق بين نهايتين غامضتين . ولا داعى لنا الآن لأن نتطلع عبثاً فوق مستوى نظرنا ، ولا لأن نصرخ بصوت عال ثم لا نسمع سوى صدى صراخنا . ولا داعى لأن نقول إنه لن تأتينا من شفاه الموتى الصامتة كلمة تهدىء مخاوفنا .

إننا نعرف الآن أن الحياة شىء أعظم مما كان يخطر ببال جدودنا وأفخم وأنبل من ذلك بكثير . فالحياة ، على مانعرف الآن ، مزية كبرى . والعقل الخلاق الذى أبدعها قد رتب أيضاً مستقبلنا بحكمة . وجدير بكل منا أن يحيا حياة لائقة بتفكير ذلك العقل وتنسيقه . وبما أنه لا يفقد شىء فى

الطبيعة ، فكما نفكر فى هذا العالم ، هكذا سنصير فى العالم التالى . وستبقى أفكارنا معنا حتى الأبد بمثابة قاض لنا . وبما أن أفكارنا هى أنفسنا ، فسندين أنفسنا بالعدل ، وسيكون المكان الذى نصل إليه هو ذلك المكان الذى أعددنا أنفسنا له ونحن على هذه الأرض .

وعندما ينتهى زمننا هنا ترجع الطبيعة الجسم البالى إلى الأرض ، وتحرر الكيان الروحى الذى كان مرتبطاً بحدودنا الجسمية إبان حياتنا الأرضية . ولا يمكننا نحن أن نسمع عبارات الترحيب التى تحيى الإنسان المحرر ، ولكننا نعرف أنها تقدم له . ولا يمكننا أن نتتبع أولئك الذين يغادروننا ، لكن يمكننا أن نتركهم فى عناية أولئك الذين يجتمعون ليرحبوا بهم ، فما يسبب الأسف هنا يكون سبباً للفرح والسعادة هناك .

ورسالتى إلى جميع الأحياء هى التالية : من ذلك العالم الذى سيصير وطننا يوماً ما ، يأتى رسل يحملون رسائل سارة إلى جميع الذين يعيشون فى الأرض ، وهم يقولون لنا إنه ليس علينا إلا أن نؤدى ما علينا على أحسن وجه ممكن ، ولن يطلب منا أكثر من ذلك . ويجب علينا ألا نضيع وقتنا فيما لا ضرورة له ، وأن نشغل أنفسنا فيما هو مفيد لنمو عقلنا وخلقنا ، ولجعلنا جديرين بتلك البلاد التى ستصير وطننا يوماً ما .

إننا لم نخلق لنعيش فقط على هذه الرقعة الضيقة من الحين التى تدعى « الأرض » بل إن هناك بلاداً عظيمة مجيدة فى انتظارنا بعد الموت . فالعقل لا حدود له وكل منا عقل ... لا أكثر .

وعندما تحل نهاية الحياة الأرضية ، يجب ألا نفكر أننا قد بلغنا الشفق أو أن السماء الذهبية تختفى نحو الغروب لآخر مرة فى حياتنا . يجب ألا نفكر أن الليل قد حل ، بل أن شروقاً أعظم فى انتظارنا وراء القبر ، فنواجه الموت كما نواجه النوم ، موقنين أن الصباح يتبع الليل ، وبهذه الكيفية ندخل الفجر الذى يدعى الموت .

إن أحداً لم ير التركيب الذى وراء تكوين الرجل والمرأة ، ووراء الزهرة والشجرة، وكل ما نراه هو الرداء الخارجى الذى ترتديه الحياة وتعمل فى إطاره إبان حياة جسمية قصيرة . أما الرجل الحقيق ، والمرأة الحقيقية ، فهما مخلوقان أبعد كثيراً مما يمكن الحواس الجسمية أن تقدره . فكلنا لنا جسم أبدى آخر يسيطر عليه العقل ولا يمكن لأحد أن يراه أو يلمسه ، إذ أننا لا نرى سوى التعبير المادى لذلك العقل .

إن الجسم المادى ليست له حواس ، وكل مشاعرنا تنبع من جسمنا الأثيرى[1]. فإن أحداً لم ير النواة التى تعطى الأرض الحياة ، غير أنه من ذلك الجسم المادى الذى تدفئه الأرض وترعاه الشمس والأمطار ، من تلك النطفة الصغيرة التى تشبه التراب ، تنمو زهرة البنفسج والوردة . ولم يكن منشأ الحياة هو البذرة المادية ، بل العقل الذى وراء الحياة المادية . وعندما نفهم أن العقل هو كل شىء ، وأن كل شىء هو العقل ، فعندئذ نبدأ أن نفهم ما هو الكون.

إننا نعرف أن الموت لا يرعبنا، لأنه ليس إلا الاسم الذى يسمى به ذلك الباب الذى ندخل منه لنصل إلى صورة أخرى لوجودنا إلى عالم آخر أحسن وأسعد وأيسر للعيش . والموت ليس سوى تعبير لتقديرنا للتموجات التى يتكون منها الوجود. وبما أن الحال هى كذلك ، فأننا ندرك أن الحياة على الأرض ، ببهائها وظلالها ، بنشوتها وألمها ، بجلالها ودموعها ، بأكاليلها وتيجانها ، بأشواكها وورودها ، بانتصاراتها وهزائمها ، ما هى إلا فترة استعداد ، أو مدرسة يجب أن يجتازها كل إنسان حتى يتعلم درس الحياة ، ذلك الدرس الذى لن ينتهى على الأرض بل يبقى للمرء أن يتعلمه حتى الأبد .

إننا نتعلم ببطء بأن نقدر ذلك المجرى العجيب للحياة ، بشلالاته وبركه،

(١) راجع ما سبق عنه فى الجزء الأول ص ٤٣٣ — ٤٣٧ .

الذى يصعد فى العالم الغير المنظور وينسكب فى الأرض ، ثم يرجع ثانية إلى العالم الأثيرى الذى نشأ منه. إنه ذلك الشعاع من الضوء الذى يجرى بين الظلمة والظلمة ، وينير الشريط الرقيق منها برداء من الخضرة لايخبو أبداً .

إن ما يبدو حلماً بين شاطىء الميلاد والموت هو حقيقة عظمى . ومع أننا نبدو وكأننا نقف على جانب من الوقت الزائل ونحب ونؤمل ثم نختفى ، غير أن من أعظم حقائق الحياة هى أن كل حياة فردية لن تموت، لأننا جميعاً جزء من العقل الروحى الذى لا يموت مطلقاً [1] .

* * *

فهل هناك توفيق بين العلم والاعتقاد أفضل من ذلك الذى جاء به علم الروح الحديث ؟ وهل من حق الإنسان أن يطمع فى أن يحصل من جهود العلماء وكفاحهم على رسالة ترضى عقله وضميره ، وتهدىء روعه وشعوره بل تقلبهما إلى سرور وحبور أكثر من رسالة الروح ، أى معرفته بنفسه، وهى أثمن مايصح أن يطمع الإنسان فى الوصول إليه إذا اقتنع تماماً بأنه فى النهاية « روح لا جسد » أو بالأدق روح باقية لأنها قبس من « العقل الذى لايموت » ، وجسد فان لأنه جاء من التراب وإليه يعود ؟ . . .

وهل هناك ضربات يمكن أن توجه إلى مدارس الشك والإنكار أقوى من ضربات الروحية الحديثة ، بعد أن قامت على أسس علمية ثابتة الأركان، عميقة الأثر فى تطوير القيم والمفاهيم ، وتوجيه العقول فى ثقة ويقين وجهة الإيمان بالله وبالفضيلة والخلود ؟ .. وإذا كان علم الروح قد وصل إلى كل ذلك فى حاضره فما الذى ينتظر منه فى مستقبله إذا ما عرف كيف يزيل العقبات الضخمة التى لا تزال فى طريقه ؟ وذلك ينتقل بنا إلى الكلام فى « علم الروح بين حاضره ومستقبله » .

---

(١) عن مجموعة
Modern Spirit Towards A Philosophy Of Faith 1951 P. 112—115,

باب ختامى

فى علم الروح

بين حاضره ومستقبله

أسانيد بعيدة المدى . هل توافرت لحقيقة أخرى مثلها ؟ معرفة نهارى . معرفة تمام . بعض الدوافع غير العلمية المعارضة . الاعتراض بشهادة الحواس . فى العقبات الحقيقية . المستقبل فى جانب علم الروح . وبعد ! ...

* * *

أسانيد بعيدة المدى

لقد استطالت صفحات هذا البحث فى العلم الروحى الحديث إلى مدى لم يكن ليخطر لى قط على بال عندما بدأته . ومع ذلك أشعر أنها ينبغى أن تتسع فى النهاية إلى كلمة حق ينبغى أن تقال عن هذا العلم بين حاضره ومستقبله، أو بالأدق عن العقبات التى قد تقف فى طريق مستقبله فى ضوء ما ظهر من عناصر الرأى فى حاضره .

ولست أخال ابتداء أن أى إنسان طالع هذه الصفحات فى الروح بروح محايدة — وفى ضوء ما تستحقه خطورة الموضوع من عناية ومن أناة — إلا وقد وجد فيها أكثر من سبب للاقتناع بجدية الموضوع، وبجدوى موالاة الاطلاع الجاد فيه . إن لم يكن قد وجد فيها أكثر من سبب للاقتناع بأن الروح قد دخلت بالفعل إلى نطاق الحقيقة العلمية ، بما فى ذلك هذه المزية العظمى التى تميزها عن الجسد الفانى ، وهى انتصارها المحتوم على رهبة الموت وسلطان الفناء .

ولا أحب أن يعتقد القارىء أن البيانات التى طالعها ، والبينات المتصلة بها، تمثل كل ما يملكه هذا العلم الناشىء أو أفضلها . فهى لاتعدو أن تكون عينات من بينات لعلى ما اخترتها إلا لوضوحها ولسهولة عرضها . أما من يريد المزيد فله أن يرجع إلى أى من المراجع الموثوق بقيمتها ، فسيجدها تفيض بالكثير المقنع لمن يريد أن يقتنع بطريقة علمية ، كأشد ما يكون الاقتناع الحكيم فى حذر وأناة .

أما من هيأ ذهنه — مقدماً — لعدم الاقتناع ، فلا حيلة لأحد فيه ، لأن صاحبنا من ذلك الطراز الذى ألف الاعتداد بالرأى القديم لايعدل عنه، ولو اجتمع له أضعاف القدر المطلوب للعدول . فهو صاحب فكرة ثابتة تعصى على التقويم dogmatiste incorrigible على حد وصف الأستاذ هانز دريش Hans Driech أحد علماء النفس المعدودين فى القرن الحالى وأستاذ الفلسفة بعدة جامعات ألمانية ، وقد خلعه بنفسه على هؤلاء المنكرين للظواهر الروحية — فى محاضرة له بجامعة لندن فى سنة ١٩٢٤ — بعد أن بلغت وثائقها ما بلغته من العدد والقوة ، وقد ساهم بنفسه فى تحقيق بعضها .

* * *

كما لا أحب أن يطالع أى إنسان هذا الجهد المتواضع إلا على أنه يمثل لحسب « مقدمة للنظرية العامة فى علم الروح الحديث » ، فذلك هو ما توخيته بالفعل منه لاعتقادى أن مثل هذه المقدمة هى التى تلزم الآن القارىء — بصفة عامة — كيما يشعر أن الروح — وهى موضوعه الخاص — قد دخلت نطاق الحقيقة العلمية، وأنها جديرة بالتالى بأن يعرف عنها شيئاً جديداً ومفيداً .

ولاعتقادى كذلك أن الدخول فى جزئيات هذا الموضوع والتغلغل فى أعماقه للموازنة بين بعض الآراء الخلافية فيه — والتى لايخلو منها أى علم آخر — لايمثل نفس الأهمية التى يمثلها الاقتناع — ابتداء — بأن الحياة بعد الموت أصبحت حقيقة علمية ، بعد أن كانت فى الماضى مجرد عقيدة دينية

وفلسفية ، وأن الصلات بين أحياء الأرض وأحياء الأثير أصبحت تبحث على أوسع نطاق بمعرفة جامعات عريقة وبيئات علمية جادة تماماً .

ولفرط حرصى فى هذه المقدمة لعلم الروح الحديث على الإحاطة بأهم الجوانب العامة فيه كنت سريع الانتقال من فصل إلى آخر ، مع أن كل فصل فيه كان يصلح — بغير ماريب — كيما يكون موضوعاً لمؤلف قائم بذاته — وربما من عدة مجلدات — فيما قد يبدو الآن مجرد جزئية صغيرة من جزئيات هذا العلم الوليد الذى تولته منذ نشأته أيد حكيمة كثيرة من كلا الجانبين المادى والروحى ، فجعلته يسبق الزمن فى نموه ، وكأنه على موعد محتوم مع قدر مرسوم يريد أن يجنب أبناء هذا العصر خطر المادية الملحدة التى تقف مكتوفة عاجزة عن أن ترسم للإنسان طريقاً أو هدفاً ، حين تعرف الروحية كيف تحدد له طريقه وأهدافه ، كما يريد أن يجنبه فى نفس الوقت خطر الجمود الضار ، عندما تعرف الروحية كيف تحرره من القيود والإسار ، كيما يتعرف طريقه بلا تخبط ولا عثار ...

هل توافرت لحقيقة أخرى مثل هذه الأسانيد ؟

وليثق القارىء أن صاحب هذه الصفحات ليس من صفاته سهولة التصديق ولا سرعة الاقتناع ، فلولا طبيعة الإنكار الغالبة فيه لما احتاج إلى بذل كل هذا العناء فى التنقيب فى الروحية فى حذر شديد . هذا وقد بدأ اطلاعه المثابر منذ أن كان قاضياً ، ولم يكن الموضوع — برمته — يمثل فى تقديره أكثر من مجرد دعوى مطروحة على محكمة العلم ، ومن حق المدعين فيها — وما أكثرهم وما أضخم مكانتهم الفلسفية والعلمية — أن تفحص أسانيدهم قبل إبداء الرأى فيها .

فلما كون — ببطء شديد — رأيه طبقاً لنظام «إقناعية الدليل» ، وكان اقتناعه لا يعوزه التثبيت واليقين من الاطلاع والتجريب معاً ، رأى أن من واجبه أن يسجل فى كتاب خلاصة ما راقه من أسانيد اطلاعه خلال حقبة من

الزمن قاربت — الآن — العشرين عاماً ، مصحوبة بما استرعى انتباهه من فلسفات الأقدمين والمحدثين من الروحيين ، بالإضافة إلى خواطره الخاصة فى بعض الجوانب العامة المحيطة بالبحوث الروحية . فلعل القارىء يستمد من هذا الاقتناع شعوراً بالسلام والاطمئنان ، كما استمد هو نفس الشعور بعد قلق طويل .

ولم تكن المشكلة الماثلة أمامه فى أى وقت مضى هى فى أن يقنع أى إنسان أو أن يحاول إقناعه، بل كانت مشكلته الحقيقية هى فى أن يقنع نفسه، وأن يصل إلى رأى مترابط يرضى المنطق الناقد لهذا الأمر الغريب ، بل « الخارق للعقل » كما يراه حتماً كل من لم تتح له فرصة اطلاع كاف ، ولا تجريب .

ومع مداومة التساؤل عن مدى صحة هذا الأمر « الخارق للعقل » كان لا يكف أيضاً عن التساؤل عن مدى صحة البنيان العلمى الكامن وراء هذه الظواهر الروحية ، وعن مدى ترابط البنيان الفلسفى المحيط بها ، ومدى اتفاقه مع جوهر الاعتقاد ، بل مع جوهر المبادىء اللازمة للنهوض بالإنسان، وهى كلها موضوعات مفرطة فى عمقها ودقتها، ولذا تخير مراجعه بعناية شديدة ، حتى لا يقع ضحية تغرير من أقوال سطحية مرتجلة ، أو من تجارب مبتسرة فى أى اتجاه كانت .

ومع ذلك فمن حق القارىء العزيز — بعد ما مر به من بينات كثيرة فى هذا المؤلف أو فى غيره — أن يختار لنفسه طريق الاقتناع ، أو عدم الاقتناع إذا شاء . وهو سيختار فى الواقع بين شهادة الحقائق العلمية التى قتلت بحثاً وتمحيصاً بمعرفة علماء كبار فى معاهد جادة تماماً وخارجها ، وبين شهادة حواسه الخاصة . وهو حر فى أن يغلب أياً من الشهادتين على الأخرى ، ولكن من حق الرأى السليم فى هذا الموضوع الخطير — المفرط فى خطورته وفى اتساع مداه — أن يطالبه بموالاة الاطلاع فى مراجعه العلمية المعتمدة،

وأيضاً بموالاة التجريب بأسلوب علمي ناقد، إذا ما توافرت له وسائله بعيداً عن « تجار » الوساطة الروحية وادعيائها .

وأيضاً من حق الرأى الصحيح فى مثل هذا الموضوع الخطير أن يخاطب فى الإنسان الفطرة السليمة قبل الذكاء المتوقد ، والأفق الواسع قبل الرأى المغرض المتحفز . فبغير الفطرة السليمة والأفق الواسع يكون الذكاء المتوقد ضربة موجهة إلى حقائق الحياة لا سبيلا صحيحاً للوصول إليها . ولذا كانت أغلب حقائق الحياة أقرب إلى النفوس المتواضعة — من البسطاء والعلماء معاً — منها إلى عقول بعض أولئك « العمالقة الكبار » أسرى حواسهم الخاصة — وضحايا تسرعهم فى الحكم على الأمور . وهم يحسبون أنهم سادة « الحقائق العلمية » ، مع أن الحقائق بعيدة عنهم بعد الأرض عن السماء !

هذا وقد عرضت فى صفحات المؤلف الحالى بجزئيه جانباً ضئيلا من أسانيد الحقيقة الخطيرة التى يقوم عليها علم الروح الحديث ، وبينت جانباً يسيراً من مراجعه المعتمدة ، ومن الأسماء المبرزة فيه ، ومن النتائج الواقعية والفلسفية التى وصل إليها . وكنت — كما وعدت — حريصاً على الرجوع فحسب إلى أعمال لفيف من أفضل فلاسفة وعلماء القرنين الماضى والحاضر الموزعين على أرقى البيئات والمعاهد والأكاديميات العلمية فى شتى بلاد العالم ، ممن واصلوا تجاريبهم لعشرات من السنين ، وكانت قدرتهم على النقد الموضوعى المحايد ، وعلى تأصيل الأمور وحسن تحليلها فوق كل شك أو شبهة فى أى ميدان طرقوه من ميادين الفلسفة أو العلم التجريبى ، ومستبعداً تماماً ما عداها حتى يشعر القارىء فعلا أننا إزاء حقائق خطيرة موضوعية لا تنال منها تلك الأقوال المرتجلة ، ولا اعتراضات لفيف من « الأدباء البلغاء » الذين لا يملكون سوى قدرة على القول المرسل المعاد ، دون أية قدرة صحيحة من علم أو من تجريب مثابر جاد .

وأى إنسان يرغب فى المزيد من المعرفة فيه فليرجع إلى بعض مراجعه

الموثوق فيها وفى أصحابها فإنه سيلحظ أنه يحيا مع عدد من أفضل أصحاب العقول النيرة الناقدة ، ويتبادل الرأى مع أئمة كبار للفلسفة وللمعرفة ، ارتبطوا مع ضمائرهم على أمر واحد وهو محاولة الوصول إلى الحقيقة العلمية ولا شىء غيرها ، لأنها فى تقديرهم أثمن من كل حقيقة أخرى . ومن ثم اتبعوا فى البحث عنها أشد الأساليب العلمية الناقدة دقة وصرامة .

كما سيلحظ أن فى بحوثهم من الضمان ما يبعث على الاطمئنان التام بأننا إزاء علم صحيح يستمد عناصر وجوده وازدهاره من نفس العناصر التى تستمد منها كافة العلوم الأخرى عناصر وجودها وازدهارها .

بل إن علم الروح الحديث يعرف – بالمقارنة مع العلوم الأخرى – مصادر إضافية لهذه العناصر :

– منها فطرة الإنسان التى فطره الله عليها ، والتى ألهمت عقله دواماً وفى كل مكان أن يعرف طريق الاعتقاد بدوام الحياة بعد الموت بصورة ما ، تستوى فى ذلك المجتمعات المتحضرة مع تلك التى عاشت – وما تزال – على الفطرة ، ومجتمعات الحضارات المندثرة مع الحضارة المعاصرة . ففطرة الإنسان حملته على أن يشعر فى كل زمان ومكان أنه أكثر من مجرد جسد مادى يحوله الموت إلى حفنة من تراب ، لا شعور فيها ولا إدراك .. . فأين ذهب إذا الشعور والإدراك ؟ ..

– ومنها الفلسفة العظمى التى وصل إليها العقل عن خلود الروح منذ أزهى عصوره اتصالا بالفلسفة وتعلقاً بها حتى الآن ، وبغير توقف ولا انقطاع (١) .

– ومنها رسالات الرسل والأنبياء الذين وجهوا عقائد البشر إلى الخير والنقاء على مر العصور وفى كل الأرجاء . وقد التقت عند جوهر الفضيلة ، كما التقت عند التسليم بأن الإنسان موهوب للبقاء لا للفناء فى ماضيه وحاضره ومستقبله على السواء (٢) .

(١ ، ٢) راجع ما سبق فى الجزء الأول من ٤٧ — ٨٩ .

— ومنها — كعلم حديث — هذا التطابق الواضح فى الأصول والكليات، وهذا التوافق الكافى فى النتائج والمقدمات، وذلك إلى المدى الذى كان من المحال أن يتحقق — ولو جزئياً — ما لم نكن إزاء علم صحيح له أسانيده الراسخة فى حقائق الطبيعة ونواميسها الثابتة التى لم يدرك العلم منها شيئاً يذكر بعد.

— ومنها هذا الترابط الواضح بين أصوله وكلياته وبين أصول العلوم الأخرى وكلياتها، من فيزياء وفلك وبيولوجيا وانثروبولوجيا وفسيولوجيا ونفس وغيرها.

— ومنها هذا التقدم السريع إلى الأمام، وهذه الأرض التى أخذ فى العصر الحاضر يغزوها بغير ما توقف فى مؤلفات عدد من أفضل العلماء، وفى أروقة المعاهد والجامعات، وفى المحافل والمؤتمرات، وفى الجلسات العلنية فى أكبر القاعات.

— ومنها هذا البنيان الفلسفى المترابط الذى شادته بحوث هذا العلم على أروع وجه وأقوى صورة. حتى ليمكن القول بأن الروح كانت عند الإغريق وليدة الفلسفة، أما الآن فهى عند المحدثين أم لفلسفة حديثة عن الخلود وما يرتبط به من أمور متماسكة قلما تجد لروعتها نظيراً بين فلسفات الأرضيين، على مالا حظه وشهد به عدد من أفضل الفلاسفة والمفكرين المعاصرين.

فهل اجتمعت لصحة أى علم آخر من علوم الحياة مثل هذه الأسانيد فى وضوحها وعمقها وتماسكها وتعددها؟ .. وما اسمه وأين يوجد؟...

* * *

لكن مع كل هذه الأسانيد — الواضحة العميقة المتماسكة المتعددة — فإن المعارضين لم يكفوا عن المعارضة مع ذلك ولن يكفوا إلى سنين كثيرة مقبلة فيما نتوقع، وذلك لأن حقائق الكشوف الروحية أكثر عمقاً — وارتفاعاً واتساعاً — من قدرة بعض العقول على الفهم والاستيعاب. هذا من جانب

أول ، ومن جانب ثانٍ لأنها تتطلب مثابرة واطلاعاً صحيحاً فى فروع كثيرة من العلوم ، وذلك يتطلب أيضاً جهداً يتجاوز قدرة البعض الآخر على البحث والتحصيل . ولذا كثر المقتنعون من الفلاسفة والعلماء الكبار ، وكثر أيضاً المعارضون من أنصاف المتعلمين والكتاب السطحيين الهاربين من البحث، لأنه يقتضيهم مشقة لا قبل لهم بها . ومن جانب ثالث لأنه ليس من طبيعة الإنسان أن يستسلم بسهولة لحكم البرهان الواضح ولا المنطق الحاسم ، وإلا لما كان هناك صراع خالد بين الحق والباطل وبين الخطأ والصواب، خصوصاً وأنه فى هذا الميدان بالذات قد تعددت الدوافع المحتملة للمكابرة وتضافرت عناصر البهتان .

ولست أقصد البتة أن كل معارض يصدق عليه شيء مما تقدم ، لأنى أعلم جيداً أن هناك من قد يعارض لدوافع لها تقديرها مهما كان الرأى فى قيمتها الإقناعية ، كما أن فى صفوف غير المقتنعين من يستحق التقدير التام مهما تفاوت الرأى فى هذا الموضوع بينه وبيننا . على أن هذا التقدير الشخصى لا ينفى حق النقاش النزيه لموضوع خطير غاية الخطورة ، هو ملك الآن للحقيقة العلمية وحدها ، وليس ملكا لأى إنسان .

فإذا كان الإنصاف يعفى بعض هؤلاء المعترضين من تبعة التحامل المغرض فإنه قد لا يعفيهم مع ذلك من تبعة الاعتداد بالرأى القديم لمجرد قدمه ، والتسرع فى الحكم على هذا الأمر الروحى الخطير ، لمجرد أنه جديد على علمهم ومعلوماتهم ، والناس أبداً أعداء ما جهلوا ، بل أعداء كل أمر جديد[1] .

ومنهم من قد يكون مثقفاً ، بل عالماً فى أى فرع من فروع العلوم، لكنه قد كون رأياً مبتسراً — فى موضوع يأبى تماماً لفرط دقته وخطورته الابتسار فى الرأى — ومع ذلك يريد أن يعطى رأيه قيمة مطلقة ونهائية .

---

(١) وقد أوردنا فى ص ٦ من الجزء الأول بعض أمثلة والعبية لمقاومة كل أمر جديد مأخوذة من دروس التاريخ الحافل بالعظات والعبر لمن يريد أن يعتبر .

وهذا يصدق بوجه خاص على معارضة بعض السادة من المحللين النفسيين من أبناء مدرسة فرويد التى لا تسلم — بعد — بحياة بعد الموت، ولا بوجود قوة أخرى خارج قوة المخ والحواس الفيزيقية للإنسان لمجرد عجزهم عن تصور إمكان ذلك.

ومثل هذه المعارضة لا تضير البحث فى الروح بعد المرحلة التى قطعها، والحقائق التى وصل إليها. فالاحتجاج بملكات العقل الباطن فى دحض قيمة الظواهر الروحية أو إضعاف دلالتها قد فقد قيمته نهائياً الآن بعد أن لاحظ أحسن فلاسفة النفس فى القرن العشرين أن غالبية ملكات العقل الباطن هذه تثبت استقلال الوعى عن الجسد المادى، وأن كل ما يثبت هذا الاستقلال يثبت — فى نفس الوقت ولنفس الأسباب — بقاء الوعى بعد تحلل الجسد المادى، ولا ينفى هذا البقاء.

وقد أشرنا إلى ما ذكره الفيلسوف هنرى برجسون فى هـــذا الشأن (١). كما أشرنا إلى آراء صريحة كثيرة لأفضل علماء النفس فى جانب علم الروح، ومنهم بوجه خاص: وليام جيمس (٢) ووليام مكدوجال (٣) وكارنجتون (٤) وراين (٥) فى أمريكا. ومنهم فردريك. و. ه. مايرز (٦) ووليام براون (٧) وفلوجل (٨) فى انجلـــترا، ويونج فى سويسرا (٩) وهانز دريش فى ألمانيا (١٠) ولومبروزو (١١) وبوزانو (١٢) فى إيطاليا..

فهل هناك من النفسيين من هم أنداد لهؤلاء فى القرن العشرين؟ وأين هم؟

---

(١) راجع ما سبق فى الجزء الأول ص ٢٠٠ — ٢٠٥ وفى هذا الجزء ص ٥٢٤ — ٥٢٧.
(٢) راجع ما سبق فى الجزء الأول ص ١٥٤ — ١٦٢.
(٣) راجع ما سبق فى الجزء الأول ص ١٧٤ — ١٧٥.
(٤) راجع ما سبق فى الجزء الأول ص ١٦٥ — ١٦٨.
(٥) راجع ما سبق فى الجزء الأول ص ١٧٥ — ١٨٢.
(٦) راجع ما سبق فى الجزء الأول ص ٢٢١ — ٢٢٢.
(٧) راجع ما سبق فى الجزء الأول ص ٢٠٦.
(٨) راجع ما سبق فى الجزء الأول ص ٢٠٧.
(٩) راجع ما سبق فى الجزء الأول ص ٢٩٤، ٤٤٩ — ٤٥٢.
(١٠) راجع ما سبق فى هذا الجزء ص ٦٢٤.
(١١) راجع ما سبق الجزء الأول ص ٢٩٤، ٢٩٥.
(١٢) راجع ما سبق فى الجزء الأول ص ٣٦٨ — ٣٧١.

وليس الأمر الهام أن هؤلاء قد أبدوا آراء صريحة واضحة فى جانب علم الروح ، بل الأخطر من ذلك هو دلالة هذه السيكولوجيا الحديثة التى تشيد الآن على نطاق واسع، والتى مقتضاها فى النهاية — مهما تفاوتت فى تفاصيلها — أن العقل الواعى يمثل إدراك الإنسان الذى يستخدمه خلال المخ والحواس المادية ، وأن العقل الباطن يمثل الإدراك الذى يقع عن غير طريق المخ والحواس المادية . وهذا العقل الباطن هو فى النهاية العقل الحقيقى للإنسان الذى يوجه تصرفاته ويتحكم فى ملكاته ، وقد يلازمه بالتالى فى رحلة الأبدية . وهذه هى النظرية الروحية بعينها(١).

لكن كل هذه البحوث العلمية الحادثة الموضوعية المحايدة لا توازى فى نظر بعض النفسيين المحافظين ما نادى به فرويد من أنه لا توجد وظائف أخرى خارج المخ، وما أسسه من نظريات لا محل فيها لإيمان بحياة بعد الموت !! هذا القول الذى قيل فى عدة مراجع إنه عدل عنه فى سنيه الأخيرة .

بل إن علماء الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا والفسيولوجيا الذين تعمقوا فى بحث الظواهر الوساطية لمدى سنوات امتدت عند بعضهم إلى عشرات قبل أن ينسبوها إلى مصدرها الروحى كانت نصب أعينهم نظريات علم النفس فى ملكات العقل الباطن ، وبخاصة فى التحليل النفسى والإيحاء والتلباثى وازدواج الشخصية والتنويم المغناطيسى والسيكومترى وغيرها ، لفرط اتصالها بموضوعات بحوثهم فى هذه الظواهر .

ومن يراجع ما كتبه أمثال سير وليام كروكس، أو سير أوليفر لودج، أو سير ألفرد راسل والاس ، أو سير وليام باريت ، أو الأستاذ شارل ريشيه ، أو غيرهم من أقطاب العلوم المادية الصرف — قبل أن يكونوا

---

(١) من أحدث المؤلفات فى هذا الاتجاه مؤلف للأستاذ ج . ج بنيت J. G. Bennett عنوانه « سيكولوجيا روحية » A Spiritual Psychology صادر فى سنة ١٩٦٤ .

من علماء الروح — ممن أشرنا إلى بعض بحوثهم وأعمالهم فى البابين الثالث والرابع من الجزء الأول ، وفى الباب الخامس من الجزء الثانى . يمكنه أن يتحقق من أن أيهم قد تزود — قبل الإقدام على بحوثه فى الظواهر الوساطية — بقدر من المعرفة فى السيكولوجيا يتجاوز بيقين القدر الذى يعرفه بعض هؤلاء السادة من المحللين النفسيين المعترضين بغير ما بحث ولا اطلاع .

معرفة تنهاوى

فعلم النفس بمفهومه المادى قد أصبح الآن أطلالا أو أن شئنا حطاماً إزاء البحوث الروحية الحديثة ، وما تكشفت عنه من بنيان مترابط من الحقائق الخطيرة ، وقد ظهر وما يزال يظهر لعدد من أفضل علماء النفس والفلاسفة علماً بدائياً قاصراً ، حتى أن منهم الآن من يأبى أن يعترف به كعلم له أصوله الصحيحة .

وفى صفحات هذا المؤلف أشرنا إلى أقوال صريحة للفيلسوف وليام جيمس عندما تنكر — بعد بحوثه الروحية — لمؤلفه القديم فى « مبادىء علم النفس » وقال فيه ما لم يقله الإمام مالك فى الخمر ، ومثل هذه الآراء الحاسمة الصريحة أصبح القارىء يقابلها الآن كثيراً عند عدد من أفضل الفلاسفة والعلماء النفسيين فى القرن الحالى . ومنهم عالم النفس والفيلسوف الألمانى المعاصر كارل ياسبر K.Jaspers الذى يقول « كان طبيعياً أن تسيطر على النفوس أساليب فرويد ومدرسته فى مجتمع مهزوز مكدود . من الممكن أن نلاحظ أن الناس فى عالمنا المقلوب هذا قد أحسوا حاجة شديدة إلى التحرر ، وجاء التحليل النفسانى فزودهم بذلك الوهم ، وكا مخادعاً خداع ذلك العالم ذاته . . . إننا هنا بصدد عملية جبارة من عمليات الاستهواء الذاتى الذى هو نتاج صادق لهذا العصر ... »[1] .

---

(١) عن « كارل ياسبرز : مستقبل الإنسانية » ترجمة وتقديم الدكتور عثمان أمين . القاهرة ١٩٦٢ ص ١٥ .

ثم استمع إلى تحية «حارة» إلى السيكولوجيا المادية صادرة عن الطبيب العالمي والعالم الفسيولوجي ألكسيس كاريل — وله أكثر من صلة بالبحوث الروحية — في مؤلفه «الإنسان ذلك المجهول» عندما يقول «إن باتولوجية العقل تعتمد على السيكولوجيا مثلما تعتمد باتولوجية الأعضاء على الفسيولوجيا .. ولكن الفسيولوجيا علم في حين أن السيكولوجيا ليست علماً ... إذ مازالت السيكولوجيا تنتظر «كلود برنار» أو «باستير» آخر ... لقد كانت السيكولوجيا موجودة في حالات الجراحة حينما كان الجراحون حلاقين، وفي الكيمياء قبل «لا فوازييه». ومع ذلك فقد يكون من الظلم أن نتهم النفسيين العصريين ووسائلهم بالنظر إلى الحالة البدائية الحاضرة لعلم النفس، إذ أن شدة تعقيد هذه المادة هي السبب الرئيسي في جهلهم ...»(١).

كما يقول العالم الشهير في مكان آخر «قد أحدث فرويد أضراراً أكثر من تلك التي أحدثها أكثر علماء الميكانيكا تطرفاً، فإن من الكوارث أن نختزل الإنسان إلى جانبه العقلي مثل اختزاله إلى آلياته الطبيعية الكيميائية»، ثم يستدرك مع ذلك قائلا «إن استبدال الروحي بالمادي لن يصحح الخطأ الذي ارتكبته النهضة. فاستبعاد المادة سوف يكون أكثر إضراراً بالإنسان من استبعاد العقل .. وإنما سيوجد الخلاص فقط في التنحي عن جميع المذاهب، وفي القبول التام لمعلومات الملاحظة وإدراك الحقيقة القائلة بأن الإنسان لا يقل ولا يزيد عن هذه المعلومات»(٢).

ومثل هذه المعاني نقابلها عند الدكتور محمد كامل حسين الجراح المعروف، ومدير جامعة عين شمس السابق، عندما يقول أيضاً: «كل هذه الاعتبارات تجعل الباحث يتردد كثيراً في تطبيق الطريقة التحليلية

---

(١) عن ترجمة الأستاذ عادل شفيق ص ١٢٥.

(٢) عن المرجع السابق ص ٢١٦

على الظواهر النفسية ، بل إن هذه الاعتبارات تجعل الإنسان يكاد يجزم أن تطبيق هذه الطريقة على النفس سيؤدى إلى قيام علم لا أساس له ، كما قام علم الكيمياء (قديماً) كنتيجة لتطبيق طريقة الاستنتاج على الظواهر الطبيعية » .

ثم يقول فى مكان آخر « هناك فرق كبير بين أن تصف الظاهرة وبين أن تتصورها. الأول حقيقة والثانى خيال. وقد تستعمل طريقة المشابهة لشرح بعض الظواهر القريبة فتشبه بأخرى معروفة لتقريبها إلى الأذهان، على أن يظل مفهوماً أن الوصف تشبيه ، وليس الأمر كذلك فى هذين العلمين الضالين (الكيمياء قديماً والتحليل النفسى حديثاً) . فهما علمان قائمان على تصور الوقائع لا على وصفها ، ويمكن أن توضع للواقع صور كثيرة ، ولكن الوصف الحقيق لا يكون إلا واحداً . . وفى كلا العلمين غموض قد لا يشعر به المختصون ، ولكنه على الفكر العادى غموض على كل حال ، والغموض صفة ملازمة لكل علم ضال . . والعلم لا يكون غامضاً إلا أن يكون به عيب من خطأ أو قصور . . . »

ثم يقول أيضاً « ولعلنا إذا وفقنا لمعرفة القيمة الحقيقية للتحليل النفسى نفتح الطريق للباحثين فى علم النفس أن لا يركنوا إليه ، بل عليهم أن يلتمسوا طريقة جديدة للبحث فى النفس وفهماً جديداً لظواهرها ، كما حدث فى علم الكيمياء ، حين لم يتبين الحق فى هذا العلم إلا يوم اكتشفت طريقة التجربة والمنطق التحليلى ، وعند ذلك تصبح العلوم النفسية علوماً حقيقية غير ضالة. ولا أظن أن التحليل النفسى سيستطيع أن يصل بنا يوماً إلى هذه الغاية»[1].

* * *

وعلم الروح الحديث يعتمد على منطق التجريب التحليلى هذا الذى قاد أوضح خطى التقدم العلمى فى العصر الحديث ، ووصل به إلى الكشوف

---

(١) عن مقال عنوانه « الكيمياء قديماً والتحليل النفسى حديثاً » منشور فى كتابه « متنوعات » طبعة ٢ ص ١٠١ — ١١٠ .

الرائعة التي ينعم بها الإنسان ، سواء فى الطب أم فى الكيمياء أم فى الفيزياء أم فى غيرها . وهذه ضمانة من أكبر ضمانات الثقة فى النتائج التى وصل إليها ..

وهو من هذه الناحية يقع على النقيض من علم النفس بمعناه التقليدى والمؤسس — حتى الآن — على نظريات افتراضية ،طالما ثبت فشلها الذريع عند ارتطامها بأرض الواقع ومواجهتها لحقائق النفس الإنسانية فى الحياة العملية وفى مصحات الأمراض العقلية ، بل وفى عيادات هؤلاء السادة من المحللين النفسيين المعترضين بغير مابحث ولا اطلاع . فعلام كل هذا التعلق بالنظريات البالية، خصوصاً بعد أن تساقطت أوراقها تدريجياً كما تتساقط أوراق الشجر فى الخريف ، وبدت الجذوع والأغصان ذابلة لا حياة فيها ولا رونق لها ؟ !

معرفة تمام

ومهما كان الإنسان فى حكمه على علم النفس بمفهومه التقليدى فإن هناك — على أية حال — علماً جديداً للنفس يشيد الآن على أنقاضه ، وفى ضوء الكشوف الروحية على اختلاف صورها، علماً تحدث عنه ر . ا . ه . ليفنسال فى سنة ١٩٢٩ قائلا « لمدى العشرين العام الماضية كرس علماء النفس وقتهم متأثرين بفرويد فى البحث عن العقل الباطن ، وإذا صح أن نظرية العقل الباطن تميط اللثام عن كثير من الأحاجى التى تفسر أعمال البشر ، فإنها لا تكشفها كلها ، فهى تفسر الشاذ منها لا الأعمال الخارقة للعادة .

وعلم النفس الحديث هذا وقف على منطقة جديدة فى الإنسان أطلق عليها وصف الفوق الواعى . وعلى نقيض العقل الباطن أو غير الواعى الذى يمثل التيارات المغمورة لطبيعتنا ، فإنه يكشف ضروب السمو التى يمكن لطبيعتنا بلوغها . والإنسان يتمثل فى شخصية ثلاثية لاثنائية فحسب،فكياننا الواعى وتحت الواعى يتوجهما وعى سام . . . »

ومنذ سنوات كتب العالم النفسي الروحي المعروف ف . و . ه . مايرز يقول أيضاً « إن في أعماق كياننا تختبىء كومة من النفايات مع كنز ثمين » وعلى نقيض علم النفس الذي يوجه اهتمامه إلى الإدراك تحت الواعي لطبيعة الإنسان ، فإن علم النفس الحديث للإدراك السامي يركز انتباهه في ذلك الكنز الذي هو المنطقة التي تلقي دون سواها ضوءاً على أعمال البطولة المجيدة غير الأنانية للبشر » ... وهذه المنطقة هي بعينها التي تلقي نفس الضوء على أعمال الملهمين والعباقرة والوسطاء الكبار ، وهي التي يعنى بها بوجه خاص علم الروح بوصفه أصلا لعلم النفس الحديث لا فرعاً منه ، رضي بذلك النفسيون المحافظون أم لم يرضوا . . .

وذلك مع العلم بأننا — في حدود ما نملك من اطلاع محدود — نسلم تماماً بوجود ظواهر نفسية صرف مثل قراءة الأفكار أي التلباثي Telepathie والإيحاء Suggestion والإيحاء الذاتي Auto Suggestion يمكن أن تختلط ببعض ظواهر الوساطة الروحية ، وبأن بعض صور الرؤية التي قد يراها الوسطاء الروحيون عبارة عن محض ظواهر نفسية . فلا ينبغي أن يفوتنا أن الوسيط يملك عقلا من نفس نوع العقول التي تملكها الأرواح غير المتجسدة ، ويملك بالتالي أن يؤثر بصورة ما في الوسط الذي يحيط به ، كما يملك أن يتأثر به على نحو أو على آخر ، ومن ذلك أن يتلقى تأثيرات معينة عن طريق التلباثي من عقول بعض الجلساء معه في الغرفة ، أو من بعض البعيدين عنه أيضاً .

ولكن هناك ظواهر روحية صرف لا يمكن تعليلها إلا ببقاء الوعي بعد الموت ، وبإمكان نشوء صلات بين وعي أحد المنتقلين ووعي الوسيط أو الوسيطة ، تماثل إلى حد كبير الصلات التي يمكن أن تنشأ بين عقلي شخصين أو أكثر لا يزالان على قيد الحياة الأرضية ، وقبل التحرر من ربقة الجسد المادي .

وذلك لأن كل ما يصح أن يصـــدر عن عقل الروح المتجسدة incarnated يصح أن يصدر مثله من عقل الروح بعد انفصالها عن الجسد discarnated . فكل هذه الخصائص النفسية من مميزات الروح لا الجسد ، لأن العقل بشطريه الواعي والباطن موطنه الروح، أما المخ فموطنه الجسد.

بل إن الروح بعد تخليها عن جسدها تكون أقدر غالباً على إحداث هذه التأثيرات « النفسية » منها قبل هذا التخلي وذلك :

أولا : لأنها تستخدم عقلها متحرراً من قيود الاعتقال فى الجسد المادى .

وثانيا : لأنها تستخدم عقلها بالكامل، أى بشطريه الواعى وغير الواعى مندمجين معاً أحدهما فى الآخر ، لأنه بالتحرر من الجسد المادى لم يعد هناك بعد شطر غير واعٍ من العقل .

وثالثاً : لأنها أسرع انتقالا بكثير بعد «الوفاة» مما كانت قبلها ، مما يسهل لها أن تنشيء صلات مباشرة مع عقل الوسيط كانت تعجز عن مثلها قبل « الوفاة » .

ورابعاً : لأنها بالنظر إلى إرتفاع اهتزازها تحصل على قدرة من التأثير فى الأثير الرقيق المحيط بها تفوق قدرتها السابقة قبل الوفاة . وكذلك الشأن فى تأثيرها فى أية طاقة قد تنبعث من الوسيط ، أو من أحد الجلساء، بما فى ذلك احتمال تأثيرها فى الاكتوبلازم ، إذا ما توافرت لها أية وساطة من هذا القبيل [١].

هذا من جانب ، ومن جانب ثانٍ فإن التمييز عادة يكون ميسوراً بين ما قد يرد إلى عقل الوسيط من عقل كائن لم يتخل بعد عن جسده المادى ، وما قد يرد إليه من عقل كائن تخلى بالفعل عن هذا الجسد . وسبل تحقيق شخصية الروح أصبحت الآن متنوعة، وقد عرضنا لبعضها فى مناسبته [٢].

(١) راجع ما سبق فى الجزء الأول ص ١١٩ — ١٢٢ ، ١٢٩ — ١٤٠ .

(٢) راجع ما سبق فى الجزء الأول ص ٣٩٥ — ٤٠٠ .

ومن جانب ثالث فإن ثمت ظواهر روحية خالصة لا تملك النظريات النفسية التقليدية أى تعليل لها ، خصوصاً تلك الظواهر الفيزيقية التى أمكن تسجيلها بأجهزة دقيقة أو بالكاميرا ، مثل تجسد الأرواح كلياً وجزئياً ، والصوت المباشر ، والكتابة التلقائية والمباشرة، وظهور صور وكتابات شتى على الألواح الحساسة ، وتحريك الأجسام الصلبة ، وعلاج بعض الأمراض العضوية التى لا تمت بصلة مباشرة إلى الحالة النفسية أو العقلية للمريض ...

ولقد وصل العلم الآن إلى إمكان التمييز بين الظواهر النفسية الصرف، وبين ظواهر الوساطة الروحية التى تثبت دوام الوعى بعد التخلى عن الجسد المادى ، بفضل بحوث دقيقة تكفل بها علماء كبار — نفسيون وغير نفسيين — ممن واجهوا بشجاعة مسئولية البحث العلمى المثابر، متحررين من قيود الماضى وافتراضات المدارس المادية فى علم النفس القديم .

ولحسن الحظ قد انتهى بفضلهم العصر الذى كانت تفسر فيه كل ظاهرة روحية بأنها من نتاج العقل الباطن للإنسان، وكانت الظواهر كلما قويت وكلما ظهرت دلالتها الصارخة كلما أضفى النفسيون المحافظون على العقل الباطن — تدريجياً ومع الوقت — اتساعاً رهيباً لا يمكن أن يعترف به أى بحث علمى محايد . واكتسب العقل الباطن قدرات فى الخلق والإبداع تفوق كل تصور ، فأصبحت ظواهر التجسد الناطقة الواضحة من نتاج العقل الباطن وقدرته الساحقة فى الخلق والإبداع . . . وكل ذلك للتوصل — عن طريق الافتعال المغرض — إلى نفى دلالة الظواهر الواضحة الصريحة، حتى التجسدات المادية فى الإنباء عن دوام الحياة بعد موت الجسد المادى .

* * *

وفى هذا الشأن يتحدث الأستاذ موريس ماجر Maurice Magre قائلا « يمكن القول بأن فرويد Freud خلط بين الماضى والمستقبل .

إن العقل الباطن (أو غير الواعى inconscient) عبارة عن كومة غير مرتبة متبقية من حيواتنا الماضية [١]، ترتفع منها أحياناً دفعات غامضة وقوى متضاربة إلى عقلنا الواعى ، إذ لا يمد العقل الواعى أضواءه إلا على مساحة صغيرة ، ولكن أمامه الأرض الواسعة التى للوعى الأسمى La Conscience Supérieure ، والتى عليه أن يغزوها ولو عن طريق مجهودات مؤلمة . وعن طريق هذا الوعى الأسمى قد تأتى أحياناً ومضة من الضوء ، أو شعلة ترسم الطريق يخلطونها عادة بما يشير به العقل الباطن، إذ أنه لا شىء يميز عندهم ماهو قادم من فوق مما هو قادم من تحت .

ولذا أسندوا جميع الظواهر التى تتجاوز نطاق القوانين الطبيعية — وبغير أية تفرقة بينها — إلى هذا الذى يسمى بالعقل الباطن، بغير أن يعرفوا ما هى حدوده بالضبط . فأسندوا إلى هذا العقل الباطن قوى أشد إعجازاً بكثير من كل ما يمكن تخيله فى نطاق المعجزات . فمثلا إذا ما أخذ وسيط فى غيبوبته فى التحدث أو فى الكتابة بلغة قديمة — ولو كانت هى اللغة السنسكريتية التى لا يعرفها — فذلك بفضل العقل الباطن !! وإذا ما عمد نفس هذا الوسيط الخاضع لاستحواذ كائن غير معروف أو قوة غير محددة إلى قراءة أفكار غيره ، أو إلى الرؤية عن بعد ، أو إلى رسم أحداث مضت ، أو إلى التنبؤ بأحداث مستقبله تنبؤاً صحيحاً ، فكل ذلك يعزى إلى العقل الباطن ! وهكذا — عن طريق تحكم لا يمكن تبريره — افترضوا أن قوى العقل الباطن لانهاية لها .

ومعنى ذلك استبدال صورة من الإعجاز بصورة أخرى تبدو أشد منها غرابة ، وأبعد منها عن التصور . ولكن يبدو خطأ فرويد صارخاً أكثر من ذلك فى شأن تفسير الأحلام [٢]، ...

---

(١) إذ أن المؤلف من أنصار نظرية تعدد الحيوات Re-incarnation

(٢) عن مؤلفه عن « التداخلات الفوق الطبيعية » ص ٥٩ ، ٦٠ .
Les Interventions Surnaturelles (1939).

ولقد أخطأ فرويد كثيراً عندما قال باستبعاد التمييز بين العقل الأسمى والعقل الأسفل ، لأنه باستبعاد هذا التمييز قد استبعد التفسير الوحيد المقبول لكل الظواهر التى عرض لها ، فإن هذا التمييز هو الذى يبرز ذاتية ما هو روحى psychique وما هو واعٍ . . . »

« إن هناك نوعاً من التعمية الفلسفية وقصوراً فى النظر عند القول بأن الإنسان مسير بعقله الباطن الأعمى . إن العقل الباطن يجىء من ناحية أعماق أبعد كثيراً من أعماق الطفولة . إنه عبارة عن كتلة غامضة من تجارب متراكمة من الحيوات السابقة ، ومن المستحيل ألا يكون فرويد قد رآها ، ولكن هل كان بمقدور عالم غربى أن يقول بذلك ؟ لقد كان فرويد مقيداً بالفكرة الأولية التى كونها عن النفس الإنسانية ، والتى لا تحتمل سوى حياة واحدة ، هى حياتها المنظورة .

وإنها لفكرة مماثلة لها ، هذه الفكرة التى تميل إلى إنكار كل حياة للنفس بعد موت الجسد ، والتى تحمل عدداً كبيراً من بحاث ما وراء الروح إلى أن يعزون إلى العقل الباطن كل ظاهرة من الظواهر الفوق الطبيعية .

إن العقل الباطن يصح تشبيهه بالجهل الذى كان يتحدث عنه بوذا ، والذى كان يعلم أنه العدو الأعظم للإنسان ، لأنه عبارة عن « فوضى لا شكل لها chaos informe » حيث تتصارع الشهوات الحيوانية والمخاوف القديمة من العصور المنقضية .

إن دعاة العقل الباطن أخطأوا ، أو بالأدق بالغوا ، لأنهم لم يحسبوا حساب وعينا الأسمى الذى يمثل ذواتنا الحقيقية ، التى صرنا إليها بعناء شديد من حياة إلى حياة ، وخرجنا بها من من الانعكاسات السفلى ، هذه الذات التى اعتقد العالم النفسى الممتاز يونج Jung أنه قد اكتشفها أخيراً وأطلق عليها وصف « الإنسان السماوى L'homme Celeste [1] » .

* * *

(١) عن المرجع السابق ص٦٣ ، ٦٤ . وراجع ما سبق عن بعض آراء يونج فى الجزء الأول ص٢٩٤ ، ٤٤٩ — ٤٥١ .

وليس المقام - مع ذلك - مقام دخول في نقاش مع أى إنسان . إنما بعد البيانات التى سردناها نظن أن من حقنا أن نتطلب فيمن يحاول الجدل ان يطلع أولا اطلاعاً كافياً فى هذا الموضوع المتشعب الأطراف ، وأن يواصل البحث والتجريب لسنين كثيرة ، فإن ذلك أفضل جداً للحقيقة العلمية التى ينبغى أن تكون وحدها رائد الجميع . أما الاعتداد بالرأى ، وأما التمسك بالقديم لمجرد قدمه فهو ليس من سمة العلم الصحيح فى شىء ، ولا هو السبيل الصحيح للوصول إلى أية حقيقة من حقائق هذا الكون غير المحدود ، والتى لا يعرف العلم منها حتى الآن إلا أقل من القليل .

بعض الدوافع غير العلمية للمعارضة

فإذا تركنا معارضة بعض المحللين النفسيين ، وجـــدنا دوافع كثيرة غير علمية للمعارضة . منها بوجه خاص الشك المطلق الذى ليس له ما يبرره فى نتائج جميع البحوث العلمية فى الروح مهما كانت أمينة ومحايدة ، ومهما أحيطت بجميع الضمانات المطلوبة للاطمئنان إليها . وهذه الطريقة الغريبة من الشك ، أو بالأدق من الإنكار المضطرد ليست من الأسلوب العلمى فى شىء أيضاً ، ولا تكفى لهدم نتائج جميع البحوث العلمية الدقيقة التى أحيطت بالضمانات الكافية ، والتى أسفرت عن كثير من النتائج الإيجابية الحاسمة التى صمدت على أعتى وسائل الاختبار والتجريب . بل إنها خطة من المكابرة تثير من الابتسام أكثر مما تثير من الأسى ، ومن الإشفاق على أصحابها أكثر مما تثير من الضيق أو الغضب .

ذلك لأن الموقف بين القائلين بالثبوت ، وبين أصحاب هذه الخطة من الإنكار مقدماً بغير ما تحفظ ، هو أشبه ما يكون بموقف صاحب دعوى إذا قدم إلى القاضى مائة دليل على صحة دعواه . فإذا فرضنا أن القاضى استبعد تسعة أعشار هذه الأدلة — للشك فيها أو لعدم صحتها — ألا يكفى العشر الباقى وحده — متى صمد لكل وسائل التحقيق والخبرة الفنية — للحكم

للمدعى بصحة دعواه ؟! بل لنفترض أن هناك دليلا واحداً فحسب صمد تماماً لأقسى وسائل التحقيق والخبرة ، وكان منصباً على أصل الحق المدعى به ألا يكفى للقول بثبوته من الناحية المنطقية حتى مع استبعاد كل الأدلة الأخرى ؟

وهنا فى مجال المحاجاة الروحية لسنا إزاء دليل واحد صمد على أعتى وسائل البحث والتمحيص ، ولا عشرة ولا مائة ولا ألف دليل . بل نحن إزاء أكداس من أدلة تم تمحيصها فى بيئات علمية ، وبوسائل علمية فى أنحاء شتى من العالم ، ولا يمكن لكثرة هذه الأدلة أن يمتد إليها حصر الآن. وهى مترابطة متساندة فيما بينها وفيما بين حقائق العلوم الأخرى ، أفلا يوجد فيها دليل واحد قادر على إقناع صاحبنا هذا المصر مقدماً على إنكاره بغير ما سند ولا سبب ؟ ... فما بالك إذا كانت أمامه الآن أعمال عشرات من الجامعات والمعاهد والهيئات المنتشرة فى كل مكان، والمطروحة على محكمة العلم بكل تفاصيلها وأسانيدها التى تحمل على الثقة فيها، والمستمدة من الطريقة التى جرت بها وقيمة الأشخاص الذين ثابروا عليها لعشرات من السنين ؟ . والمستمدة قبل كل اعتبار آخر من النتائج المترابطة التى انتهوا إليها فى أخطر حقيقة كونية وضع العلم المادى يده عليها حتى الآن .

وألا تساوى هذه البحوث مجتمعة معارضة من متسرع ربما تكون كل صلته بهذا الموضوع الخطير أنه قرأ فيه كتابين أو ثلاثة قد يعوزها النهج العلمى، وكثيراً ما يشوبها الخلط بين العلم والشعوذة ، أو قد تكون محض شعوذة — فما أكثر المشعوذين باسم الروح — فيتصور أن هذا هو علم الروح وأن هذه هى كل أسانيده ؟ وهكذا يكون صاحبنا رأياً لا يحيد عنه يتصور فيه كل العصمة ويبادر إلى الإمساك بالقلم للهجوم على الموضوع كله فى جملته وتفاصيله ، بغير هوادة ولا رحمة ! !

ويشبهه المعترض الذى حضر بعض جلسات فاشلة ، أو ذلك الذى كان

ضحية دجال باسم « تحضير الأرواح » نخرج باقتناع حاسم بأن الموضوع كله محض دجل . وقياساً على ذلك هل يجوز لمن كان ضحية طبيب فاشل أن يعلن أن الطب كله محض خرافة ودجل ؟ وهل يجوز أن نقرر أن الطب كله محض ادعاء لمجرد انتشار ادعياء الطب فى كل مكان ؟ ... وهل يكون ذلك من المنطق العلمى فى شىء أم يبعدنا حتماً عن ميدان الحقائق النافعة إلى ميدان المهاترات الضارة ؟ ..

ويؤسفنى أن ألاحظ أن عدداً ما من الذين تصدوا للاعتراض سلم خلال سطور ما يكتب من تحامل قاس بأن بواعث معارضته لاتخرج فى النهاية عن بعض هذه البواعث أو كلها . فهل يوصل مثل هذا النوع من الاعتراض إلى أية حقيقة علمية ؟

بل إن منهم من لا يزال يتصور أن الأمر كله عبارة عن محض مباراة كلامية ،وأن العبارات الرنانة — التى قد تتخللها أحياناً ألفاظ منتقاة معاقب عليها قانوناً ، وتنكرها تماماً أساليب النقاش العلمى — كفيلة بأن ترهب المفكرين والعلماء ، وبأن تقوض نهائياً بحوثاً تجرى — منذ نيف ومائة عام — على أشد المناهج العلمية صرامة بغية الوصول إلى الحقيقة وحدها ، وما أخطرها من حقيقة ! . .

إن كل هذا البنيان الشامخ من النتائج الإيجابية التى جمعها العلماء فى كد ونصب سيصبح هشيماً تذروه الرياح ، لأن صاحبنا الأديب نزل إلى الميدان منفعلا بقلمه البليغ فى الإنشاء . . أما أن يتهم نفسه بالتسرع فى تكوين الرأى،أو بالاندفاع فيما لا مجال فيه للاندفاع ، فكلا وألف كلا ،لأن الخطأ ليس من شيمة هؤلاء البلغاء الأذكياء ! لكنه من شيمة جميع الهيئات العلمية ، والجامعات العريقة ، ومن يعملون مثابرين فيها وفى خارجها من مفكرين وعلماء .

* * *

بقى من الدوافع غير العلمية للمعارضة عند بعض المعارضين اعتقاده الجازم أنه قد ملك الحقيقة المطلقة كاملة غير منقوصة ، وملك غيره البطلان ! فهو يتوقع من أى باحث أو كاتب أن يردد هذه الحقيقة كما يفهمها بنفس صيغها وحروفها ، وبلا زيادة ولا نقصان. ويريد بالتالى من فلسفة الروحية — أياً كان مصدرها — أن ترضى كبرياءه وأن تصور له ناموساً — متحيزاً وغبياً — قدر لشخصه المرموق التفوق والانتصار ، وقدر لغيره الضياع والاندحار !

فإذا بدا من هذه الفلسفة الروحية أى أفق واسع ، أو أية محبة غامرة للبشر أجمعين — وعلى قدم المساواة فيما بينهم — فهذه هى بعينها الطامة الكبرى . وهى بغير ما ريب فلسفة من وحى الجن أو الشياطين ! وبما أن هذه الفلسفة لن ترتفع — أبداً — إلى مستوى فهمه العظيم ، فهو لن ينزل — أبداً — إلى مستوى فهمها العقيم ، الذى يناقض ما رضع لبانه منذ الصغر من فهم — لحقائق الحياة — أليم . . فهو يملك بالتالى كل سبب يدعوه إلى رفض الموضوع فى جملته وتفاصيله .

وهذا الطراز من المعارضة كان — وما يزال — هو الطابع المميز لموقف بعض المعترضين باسم الاعتقاد — بوجه خاص — والمستترين بستاره فى كل مكان ، وذلك منذ بدأت البحوث الروحية فى سنة ١٨٤٦ حتى الآن . والفلسفة الروحية واضحة عرضنا لبعض أجزائها فى الأبواب الثلاثة الأخيرة من الجزء الثانى ، وهى لا تحتاج إلى من يدافع عنها ، أو إلى من يقارن بينها وبين غيرها من فلسفات .... لكن لنفرض جدلا أنها بعيدة عن الحق وعن الكمال ، هل يكفى ذلك من الناحية المنطقية الصرف لرفض الموضوع جملة وتفصيلا ؟

لو صح إمكان ذلك من الناحية المنطقية لصح إذاً لمن يقرأ فلسفة لا تعجبه آتية من بلاد الصين أن ينكر وجود هذه الفلسفة ، وينكر معها

وجود أية صلة ببلاد الصين ، بل أن ينكر وجود بلاد الصين ذاتها ويقول إنها محض خرافة . أو أن يتخذ منها موقف العداء المبين بلا هوادة ولا لين ، أو أن يصر على أن بلاد الصين هذه لا يقطنها سوى الجن أو الشياطين . . أليس ذلك من الناحية المنطقية هو بالضبط موقف هـــذا الصنف من المعارضين ؟ ! وهل يؤدى مثل هذا الأسلوب غير العلمى فى بحث الأمور إلى الوصول إلى أية حقيقة علمية ، ومتى وفى أى مكان نجح فى ذلك ؟ ! ..

* * *

ومن ضمن وسائل الاعتراض التى يتذرع بها هذا الصنف أيضا تصوير أخطار وهمية قد تحيط بالبحوث الروحية وباحثيها ووسطائها ، وذلك لتنفير الناس من البحث فيها أو الاطلاع عليها . ولندع مناقشة ذلك للروح الفرعونية القديمة نونا Nona على لسان الوسيطة روزمارى وهى تقول « كل فرع من فروع البحث له أخطاره . وإنما تأتى المآسى من الأعداء الجهلة الذين لا يقدرون قيمة المواهب الذهبية . كذلك كانت مأساة جان دارك والتى لم تتضح بعد لمعظم هؤلاء الذين يتشدقون ببطولتها الفريدة . وإذا كان للوساطة اليوم قيمتها فيجب أن نعين الشجعان من النساء والرجال الذين يتحملونها ويقاسون عناء حساسيتهم الزائدة فى عالم هو بالنسبة لهم منخفض الذبذبة .

لقد ذهبت الأيام التى كان الجهل يرفع فيها عقيرته ويوجه فيها التلميحات للشيطان .. إن هؤلاء الوسطاء هم ملح الأرض . . »[1] .

قطعت جهيزة قول كل خطيب ! . .

الاعتراض بشهادة الحواس

بقى من ضمن دوافع المعارضة غير العلمية عدم الثقة إلا بما قد تنبىء عنه

(١) من كتاب « مصر القديمة تتحدث » Ancient Egypt Speaks من تأليف الدكتور بن هوارد هيولم H.Hulme العالم فى التاريخ الفرعونى من أكسفورد وفردريك وود F.Wood .

الحواس المادية والتجارب الشخصية للإنسان . ويصعب أن نتصور وجود معارضة قائمة بذاتها لا تملك من دوافع الاعتراض إلا التذرع بشهادة الحواس وحدها فإن هذا النوع من المعارضة إنما مكمل ومتداخل مع الاعتراض بعدم صحة جميع البحوث التي جرت في هذا الشأن ، وكلا النوعين يستندان في حقيقة الأمر إلى الاعتقاد الجازم الذي يملأ عقول بعض الناس بأنه قد ملك الحقيقة المطلقة كاملة غير منقوصة ، وملك غيره البطلان ! فإن هذا الاعتقاد الجازم ولا شيء غيره هو الحافز الحقيقي الذي يستتر عادة بستار إنكار قيمة بحوث الآخرين ، وعدم التعويل إلا على شهادة الحواس المادية والتجارب الشخصية ، على حسبان أنه يرتدي بذلك مظهراً علمياً مقبولا ...

وهذا الاعتراض بشهادة الحواس لا قيمة له بداهة رغم أن الظواهر الروحية حسية في جوهرها ، لكنها لا تحدث عند الطلب وليس للعلم المادي عليها من سلطان ، وليس هناك من سبيل لأن تكون كذلك . فهذا الصنف من المعارضين يريد أن يأمر الظواهر الروحية فتأتمر فوراً وتحدث على أقوى صورة قرأ عنها أو سمع ، وإلا فهي غير صحيحة ، وكل من يتحدث عن صحتها ساذج مخدوع ..

وكأنه يريد بمنطقه هذا من قوانين الطبيعة أن تغير من طبيعتها ، وأن تعطل نفسها ، بل أن تلغي وجودها حتى يسلم هو بوجودها ! ! . . وهو غالباً يريد ظواهر مثيرة ، فلا تقنعه الظواهر الهادئة أو البحوث التي تجرى في صبر وأناة ، مهما أحيطت بالضمانات الكافية ، ومهما وضحت دلالتها ، لأنه يريد أولا وقبل كل شيء من عالم الأثير أن يكون طوع بنانه ، وإلا فلن يتنازل بفضل الاعتراف له بأي وجود ، ولن يمنحه هذه النعمة العظمى التي لن يستحقها منه . ولهذا الاعتراض قيمته لو أن الأسلوب التجريبي زعم أنه قد سيطر على الروح وعالم الروح وأخضعهما لسلطانه . لكن أحداً من العلماء لم يزعم ذلك ، بل إنهم كلهم يسلمون بأن الروح هي سيدة المادة وليست

المادة سيدة الروح ، وأن رسالة الروح هى « أن تعرِف لا أن تعرَف وأن تشعر لا أن يشعر بها » ، كما بينا ذلك فى عدة مناسبات[1].

ثم إن عدم خضوع الروح فى ظروفها العادية لحواسنا فى حالتها الطبيعية أمر لا ينفى بذاته صحة وجود الروح ، وصلاتها المحتملة بنا ، لأن حكم الحواس لا يصح أن يكون هو الفيصل بين الحق والباطل بعد ما ثبت من قصور هذا الحكم إلى أقصى مدى . أو لنقل مثلما قال المرحوم الأستاذ عباس العقاد بحق فى معرض الدفاع عن الإيمان بالله عن غير طريق الحواس — فهو من الناحية المنطقية ينطبق إلى نفس المدى على الإيمان بالروح وبعالم الروح — « إن العلم براء من هذا التعطيل الذى يشل العقول ويفقدها شجاعة الاعتقاد. فإذا جاز له أن ينكر فإنما يجوز ذلك بحجة واحدة وهى أنه يجهل وليس أنه يعلم . ومن الجهل لا من العلم أن نجعل الجهل مرجعاً للوجود من أعلاه إلى أدناه، فليقل « العالم » أنه يجهل لأن الأمر أكبر من أن يعرفه ويحيط بحدوده ، لكن الأمر الذى لا يعرفه ولا يحيط بحدوده موجود لا شك فيه .. »[2].

ومع ذلك فلسنا — فى نطاق علم الروح الحديث — إزاء محض اعتقاد أو إيمان، بل نحن إزاء ظواهر حسية خضعت لكل وسائل الاختبار المعملى كما قلنا ولا تزال تخضع له فى كل مكان . وكل ما يميزها عن ظواهر العلم المادى الصرف هو — فحسب — أنها ليست طوع إرادته ، لأن ظواهر الروحية خاضعة لنواميس لا سلطان لأحد عليها . لكن من الجائز أن تنجح متى توافرت لها ظروفها وبعد التقيد بقواعدها . وذلك لا ينفى مطلقاً إمكان صحتها وصحة دلالتها الخطيرة فى الإنباء عن دوام حياة الإنسان بعد موت الجسد، وعن الصلات المحتملة بين سكان الأثير وسكان الأرض ،بحسب أى مذهب فى الفلسفة اتخذه الإنسان سبيلا له إلى أية معرفة صحيحة حتى الآن .

---

(١) راجع ما سبق فى الجزء الأول ص ٩٤ — ٩٩ ، ٣٣٠ .

(٢) عن كتاب « الله » طبعة ٢ ص ٢٩١.

ويستوى فى ذلك مذهب ديكارت Descartes (١٥٩٦–١٦٥٠) فيلسوف الشك الفرنسى مع غيره . لأن ديكارت وإن كان يستبعد شهادة الحواس ويتذرع بالشك إلا أنه يصل عن طريق الشك إلى اليقين ، فمهما وصل بى الشك فليس بمقدورى أن أشك فى أننى أشك » . ولأنه يسلم بأن بمقدور الإنسان مع تزايد معرفته أن يصل بعقله إلى اليقين فى كل ما يستطيع الوصول إليه ، إذ أن العقل السليم هو أعدل الأشياء قسمة بين الناس . فالمعرفة الواضحة عنده هى المعرفة العقلية ، ما دام أن الله هو الذى يضمن كل معرفة وكل حقيقة وكل علم ، لأنه هو مبدأ المعرفة ومصدر اليقين » .

وأحب أن يقدر هؤلاء السادة من المعارضين المتسرعين أن جل بحاث العلم الروحى الحديث ورواده لم يبدأوا شاكين ، بل بدأوا منكرين تماماً ، فإذا كانوا قد انتهوا إلى اليقين بعد سنوات طوال من البحث المضنى فإن اليقين كان بعد استبعاد شهادة الحواس، وبعد أن كان سبيلهم إلى اليقين هو المعرفة العقلية ، خاضعة لكل وسائل التمحيص والنقد الصارم التى يعرفونها .

ولا يقل عن ذلك فى الوصول إلى نفس هذه النتيجة مذهب عمانوئيل كنط Emmanuel Kant (١٧٢٤ — ١٨٠٤) الفيلسوف الألمانى الذى يجعل العلم قادراً على الوصول إلى نتائج يقينية إذا ما درس عالم الظواهر الطبيعية . لأن العقل يزود صاحبه بالعناصر الأولية المطلوبة لتحقيق صحة الظواهر فى التجربة . وذلك إذا ما لوحظ ما سبق أن ذكرناه فى أكثر من مناسبة من أن محور العلم الروحى الحديث هو دراسة ظواهر معينة مهما كانت غير عادية أو غير مألوفة ، فإنها من ظواهر الطبيعة التى خضعت لوسائل التجربة والتحقيق . لذا يطلق على الروحية الحديثة وصف الروحية التجريبية لتمييزها عن الروحية الفلسفية أو الدينية .

وإذا ذهبنا مذهب أوجست كونت Auguste Comte (١٧٩٨—١٨٥٧) إمام الفلسفة الوضعية — والذى كان يمقت كل تأمل ميتافيزيقى —

لوجدنا أننا هنا إزاء ظواهر لا تمت بصلة إلى التأمل فيما وراء الطبيعة ، بل نحن إزاء بحوث معملية صرف من نوع تلك البحوث التي كان هذا الفيلسوف يطالب بتطبيق المنهاج العلمي عليها على أوسع صورة « حتى نصل إلى تنمية التراث العلمي ، وتنظيم أوضاع حياتنا على قواعد مدروسة » ...

فكيفما قلبنا النظر في موقف المعارضين باسم شهادة الحواس لوجدنا أن موقفهم لم يعد مفهوماً من الناحية المنطقية منذ نصف قرن بالأقل ، بعد أن صمدت هذه البحوث لمدة نصف قرن آخر على أدق وسائل البحث الوضعي ، والتمحيص الدقيق داخل بيئات علمية بدأت منكرة للموضوع تماماً .

في العقبات الحقيقية

لكن مهما كثر معارضو هذا العلم الحديث وتعددت بواعث معارضتهم — كما ترى — فإني وأيم الحق لا أخشى على مستقبله منهم ، لما بينت من أسباب عن بطلان معارضتهم ومخالفتها لكل منطق علمي وفلسفي . ولاعتقادي أن مرور الزمن يخدم كل حقيقة علمية مهما كابدت من معارضيها ، كما كان الشأن دائماً وعلى مر العصور . بل إن الخطر الحقيقي على مستقبله يكمن في جانب من « الروحيين » أنفسهم سواء أكانوا من الوسطاء أم من الباحثين السطحيين والكتاب .

وذلك لأن البحث في موضوع الأرواح يمكن — كأي بحث آخر — أن يجرى على كل مستوى . فهو يمكن أن يرتفع بفضل المنهاج العلمي الصحيح إلى مستوى من « علم أصيل قد لا يدانيه في عمقه وفي فائدته للإنسان أي علم آخر ظهر على سطح الأرض سواء في كشفه عن حقيقة الإنسان ، أم عن حقيقة الطبيعة وعن عوالم أخرى ليس علينا إلى الآن أقل إشارة من علم .. » على ما لاحظه عالم من أبرز العلماء في القرن الماضي ، وهو سير وليام كروكس . أما عند انتفاء المنهاج العلمي بسبب شدة الحماس أو سرعة التصديق فإن هذا البحث ينزل حتماً إلى مستوى من هذر يضر حتماً ولا ينفع أحداً .

فليحذر إذاً كل باحث جاد من سرعة التصديق ، أو من الانقياد وراء الأوهام والخرافات ، وليضع نصب عينيه أن فى ميدان البحث فى الروح بالذات خرافات كثيرة طالما أساءت إليه وألبست الحق بالباطل . وليعلم أن صلة المشعوذين بالروحيين كصلة أدعياء الطب بالأطباء . وليس هناك من فيصل بين الحق والباطل فى هذا الشأن إلا الأسلوب العلمى الناقد والبحث المثابر المحايد الذى ينبغى أن يضطلع به عدد كاف من العلماء والاخصائيين مجتمعين، لا يحدوهم هدف سوى رغبة الوصول إلى الحقيقة العلمية وحدها بصرف النظر عن أى اعتبار آخر . ومهما كبدتهم هذه الحقيقة من مشقة الاطلاع المتواصل ، وعناء التجريب الذى لا يتوقف لسنوات طوال .

* * *

وكذلك من الناحية الخلقية أيضاً ، فإن هذا البحث يمكن أن يرتفع إلى مستوى من الخدمة الراقية التى ترفع من قدر صاحبها ، ومثله الوساطة الراقية أياً كان نوعها . كما يمكن أن ينزل أيهما إلى مستوى من الدجل قد يخضع لقانون العقوبات ، شأنه فى ذلك شأن الطب أو السيكولوجيا أو القانون ، أو أى علم أو فن آخر عندما يستخدم فى استنزاف مال البسطاء ، أو فى الاتجار بأحزان الناس وآلامهم .

فعلى القارىء أن يحذر تماماً ممن قد يحاول إيهامه بأن له أى سلطان على الأرواح، أو أن الأرواح تقضى الحاجيات المادية التافهة ، إذ هى لا تعنى بها ولا تعرف كيف تقضيها ، لأنه يهمها أولا خلاص نفوسنا وتحريرنا من التعلق بالحاجيات العابرة التى لا تسمن ولا تغنى من جوع . فطريق الروح غير طريق الجسد ، وسبيل الحياة الباقية يقع على النقيض من سبيل الحياة الفانية . ثم إن قوانين الطبيعة نفسها تجعل نشاط الأرواح محكوماً بهذه القوانين الروحية إلى آخر مدى ، فلم أقرأ أن روحاً واحدة رغبت فى خدمة مصلحة مادية لأى إنسان مهما كان وثيق صلة بها ، أو تمكنت من ذلك .

وفى هذا الشأن يروى طبيب لبنانى عاش فى الولايات المتحدة الأمريكية أنه كان يعانى داء فى جسده عندما اتصل بروح والده عن طريق وسيط أمريكى يسأله المشورة فى صحة جسده ، وبعد أن قدم له والده عدة شواهد على صحة شخصيته بعث إليه برسالة مسهبة قال له فيها « وعلى كل كتبت لك بالإسهاب لأنى أهتم بخلود نفسك وخلاصها أكثر من اهتمامى بجسدك الذى سوف يزول فلا تبقى سوى نفسك الثمينة »[1] . خلاص نفسك الثمينة ! هذا هو نداء الأرواح الراقية إلى « كل نفس ذائقة الموت » . أما اهتمامات حياتنا ومطالبها الصغرى فقلما ترد على لسانها أو تثير لديها اهتماماً يذكر ، رغم الأهمية القصوى التى قد نعلقها عليها عن جهالة وضيق أفق ...

* * *

ومن الناحية الدينية يمكن أن يرتفع البحث فى الروح إلى مستوى عال من المحبة والسماحة والفهم الصحيح لحكمة تعدد الأديان — إذ لو شاء ربك لوحد الأديان — فيتقبلها قبولا حسناً ، كقبول حكمته تعالى فى تعدد الأجناس والأوطان والألوان والأكوان ، هذا التقبل الذى يكسب الإنسان خبرة متزايدة وأفقاً واسعاً تنمو بهما عاطفة المحبة مع التسامح وتعمق على الدوام ، بدلا من نمو الانطواء والغرور اللذين فطرت عليهما نفس الإنسان ، واللذين هما عدوها الأكبر فى كل مكان وزمان .

كما يمكن — من نفس هذه الناحية — أن ينزل البحث فى الروح إلى مستوى من الانطواء البغيض أو الانقياد الأعمى للغيبيات ، وهما خطر داهم يتهدد حتماً أسلوب التمحيص المنطقى الناقد ، ومعه مشعل العرفان الذى قاد خطوات الإنسان نحو كل معرفة صحيحة ، منـــذ عرف كيف يشق طريقه إلى المعرفة .

---

(١) عن « بهجة الأفراح فى مناجاة الأرواح » للدكتور إبراهيم عريبلى ص ١٢٦ .

فأولئك الفلاسفة والعلماء الكبار الذين قبلوا أن يلصقوا أسماءهم بالحركة الروحية قدروا حتماً أى مستوى رفيع يمكن أن يبلغه ما تعلق بها من أمور فى شأن الفلسفة أو الاعتقاد أو البحث العلمى أو الوساطة، وأى هدف نبيل يمكن أن يحققه للإنسانية أى مجهود عاقل قد يبذل فى هذا الميدان . أما لو كان موضوعها يمثل أى مستوى من الانقياد الأعمى ، أو من ضعف العقل أو الخلق ، لما وجدت هذه الحركة عاقلا واحداً يقبل أن يلصق اسمه بها ، أو أن يهبها لحظة واحدة من وقته ، لأن فلاسفة النفس والأخلاق ، وعلماء المادة والروح ، خير من يقدرون للعلم كرامته ، وللوقت قيمته ، وللخلق الراقى عظيم رسالته فى الحياة(١) .

* * *

كما أن هناك خطراً يتهدد الحركة الروحية فى جوانبها الراقية من بعض الأرواح غير الراقية ، لأن ملك الله الواسع ملىء بكل الأصناف منها « وجميعنا نعرف أن فى الكون قوى للشر وقوى للخير » يقول سير أوليفر لودج فى محاضرة له ترجع إلى سنة ١٩١٥ « ولسنا نحن الوسيلة الوحيدة التى يستعملها الله فى هذا الكون . بل له وسائل من مخلوقات غيرنا، وعلينا أن نعمل فى جانب قوى الخير ضد قوى الشر التى هى موجودة فعلا ، لأن المخلوقات أعطيت حرية الإرادة فاستطاعت أن تختار الخير والشر » .

وأقرب الأرواح إلى المستوى الأرضى وأسرعها — أحياناً — إلى تلبية طلب الحضور — عند توافر صورة الوساطة التى تناسبها — هى أبعدها عن الرقى وأقربها إلى الأنانية . فهى تزعم المعرفة بأشياء كثيرة تجهلها ، وتلق بنصائح مضللة فيما لا يعنيها . وبنبوءات كاذبة عن خطأ وعن عمد كيما تسخر

---

(١) من الأمور التى تسترعى الانتباه أن من بين أعلام الروحية الحديثة ثلاثة أساتذة ممن تعاقبوا على شغل كرسى فلسفة الأخلاق Moral Philosophy بجامعة كامبريدج، وهم سيدجويك (راجع ماسبق عنه فى الجزء الأول ص ١٠٥) ، وهودجسون (الجزء الاول ص ١٩٨) وبروض (راجع ماسبق عنه فى الجزء الثانى ص ٥٥٩ — ٥١١) .

من الموجودين فتسعد بذلك . وقد تدعى الحكمة ورغبة الخدمة كيما تتملق مشاعرهم وانفعالاتهم كما كانت تفعل تماما قبل انطلاقها من قيود الجسد . وكيما تبذر أيضاً بذور الفتنة والحقد والحسد لو أمكنها ذلك... فالموت لا يغير فجأة من شخصية الإنسان ولا يصقلها ، وعدد من ينطلقون يومياً من قيود الجسد فى أنحاء العالم الأرضى وحده يبلغ حوالى مائتى ألفا . فكم منهم انطلق صالحاً حقاً لحياة الروح وأهلا لها فى سموها ونقائها ؟ . وكم منهم اكتسب ثقافة حقيقية وخلقاً كريما قبل انتقاله أو بعده ؟ . .

ومن الأرواح من قد ينتحل أسماء رنانة حتى يثير الاهتمام فى نفوس الموجودين . ولذا كان تحقيق شخصية الروح مشكلة من الصعوبة بمكان كبير عند جميع الباحثين الجادين فى هذه الأمور ، وتتطلب فى مواجهتها كثيراً من الحذر والأناة . بل إن بعض الأسماء الرنانة على المستوى الأرضى — حتى عندما لا يحدث انتحال كاذب — قد لا يكون على المستوى المطلوب بحسب أقيسة عالم الروح . فليس الاعتبار هناك لمكانة الإنسان السابقة فى عالم المادة ، ولا لرأيه فى نفسه ، بل الاعتبار الوحيد هو لحقيقة موضعه من ناموس التطور الروحى ، أى العقلى والخلقى أولا وأخيراً .

والأرواح الراقية لا تتحدث كثيراً عن الخلق الكريم بقدر ما تتقيد به فى تصرفاتها وأقوالها . والإنسان الفاضل ليس هو الإنسان الكثير التحدث عن الخصال الكريمة أو عن نسبتها إلى نفسه أو إلى غيره ، بل هو من تنطق تصرفاته بها . .

وحتى أقوال الأرواح الراقية وآراؤها ينبغى أن تكون محلا للمناقشة وللتمحيص المنطقى لأنها ليست أكثر من وجهات نظر ، أو بالأكثر فلسفات قد تكون لها قيمتها الخاصة، لكنها تقبل كل ما يقبله غيرها من نقد ومن نقاش . وعلى ضوء هذه الفلسفات والمعلومات قد يصح للإنسان أن يعيد النظر فى بعض آرائه ومعلوماته الخاصة لما قد تتسم به فى الجملة من أفق أكثر اتساعاً ،

ومن نظرة إلى حقائق الحياة أكثر اطلاعاً ، لكن ليس من شأن ذلك البتة محاولة إضفاء أية عصمة عليها ، لأن العصمة لله تعالى وحده .

فالباحث فى الروح ينبغى إذاً أن يكون يقظاً أريباً يحسن التمييز بين التافه والثمين ، وبين الأقوال العلمية المترابطة ، أو الفلسفية الراقية ، وبين الكلام المفكك الذى قد يلتى على عواهنه ، متبعاً نفس المعايير التى يميز بها على هذا المستوى الأرضى بين ما هو راق وغير راق فى كافة تصرفات الأفراد ، وآرائهم وفلسفاتهم . لأن المصدر الروحى لا يضفى بذاته قيمة خاصة على أى رأى أو تصرف قد ينسب إلى روح من الأرواح إن صدقاً أو كذباً .

فإن لم يفعل ذلك وقبل أى رأى — مهما كان روحى المصدر — على أنه أمر ينبغى التسليم بصحته لمجرد أنه يتفق مع هواه ، أو مع كيفية فهمه للأمور ، جنى على أسلوب البحث العلمى وأساء إليه . أليس التسرع فى الحكم على الأمور أو الخطأ فى الاستنتاج يسىء إلى كل علم آخر ؟ فلماذا تكون الحال غير ذلك فى هذا العلم الناشىء الذى يتطلب كغيره أناة وأسلوباً حذراً ناقداً إلى آخر المدى ؟ بل إنه يتطلب أيضاً ما يتطلبه أى علم أو فن آخر من فطرة سليمة ، هذه الفطرة التى هى وحدها مفتاح كل حقيقة وصل إليها عقل الإنسان حتى الآن .

المستقبل فى جانب علم الروح

هذه هى العقبات الحقيقية التى قد تعوق تقدم البحث فى الروح — وهو ما يزال يحبو فى مهده — أما ماعداها فهى أمور سيتكفل الأسلوب العلمى وحده بتذليلها على مر الأيام ، خصوصاً بعد أن رست له أصول علمية ثابتة وقواعد معروفة . وبعد أن أفلت المذاهب المادية فى تعليل الحياة إلى غير رجعة بسبب تقدم العقل فى المعرفة اليقينية عن طريق تقدم الأساليب

الرياضية ، ولا عجب فقد كانت الرياضة منذ عهد الإغريق — وما تزال — هى المشعل المضىء للإنسان طريق كل معرفة علمية صحيحة .

هذا وقد تقدمت فعلا حركة البحث فى الروح تقدماً واضحاً ، وذلك إلى الحــد الذى وصفه الأستاذ محمد فريد وجدى وصف صدق عندما قال « إن حركة الاعتقاد بالروح فى هذا العصر تفوق كل حركة تقدمتها ، وإن البرهان المحسوس على وجود الروح وخلودها صار على طرف التمام لكل طالب ، فياليت رسل الظلمة يفتحون أعينهم لمشرق هذا النور المنبعث فى كل مكان فيقلعون عن تسميم النفوس بكتاباتهم الإلحادية والله من ورائهم محيط » (١) .

ولذا فلا نشك فى أن أى اعتراض على هذه البحوث مهما كانت أساليبه ودواعيه سيخدم جوانبها مستقبلا كما خدمها فى الماضى ، ما دامت تبلغ هذه الدرجة من الخطورة ، لأن كل جزئية صغرى فيها هى فى حقيقة الأمر كلية كبرى بحاجة إلى من يبحثها بحثاً متواصلا أميناً . بل إن الاعتراض غير العلمى — مهما ظهر مغرضاً سطحياً ، أو إنشائياً نظرياً ، أو متناقضاً مع نفسه غير منطقى — قد لا يخلو من فائدة فى النهاية .

فقد يدفع عجلة البحث فى هذا العلم عن غير قصد منه ، وقد يكون من عوامل المثابرة فيه والتأنى فى تقدير نتائجه وإعلانها ، كما هو الشأن فى شتى العلوم والمعارف . فلكل خصلة إنسانية — ولو بدت فى ظاهرها معوقة ضارة — حكمة فى ناموس الحياة ، لأنها جزء لا يتجزأ من وسائل هذا الناموس الحكيم بكل ما يملك من وسائل ، وما أكثرها .

فلولا اعتراضات بعض المعترضين لما وصل البحث فى الروح إلى ما وصل إليه ، ولما وجد فى كل مكان أسمى العقول النيرة التى دفعت عجلته

---

(١) عن « دائرة معارف القرن الرابع عشر إلى العشرين » طبعة ١٩١٣ مجلد ٤ ص ٤٠٠ ، وإذا كانت هذه الشهادة قيلت منذ سنة ١٩١٣ فماذا يمكن أن يقال الآن ؟

كل هذا الدفع الحثيث رغم الحرب الباغية الضروس التى أعلنتها عليه بلا رحمة مدارس المادية والجمود معاً ، فإذا به يخرج منها ظافراً ثم يتبوأ تدريجياً مكانه الحالى الذى يرشحه فى نظر كثير من أفضل علماء العصر لأن يصبح فى المستقبل القريب علماً للعلوم .

وليس ذلك بحكم حماس أى من العلماء بقدر ما هو بحكم خطورة موضوعاته وعمقها واتساع نطاقها . وبحكم هذه الحقيقة الكونية الكبرى وهى أن الروح هى أصل الحياة ، وأن الحياة هى أصل المادة ، ولذا فإن علم الروح ينبغى أن يعد أصلا لعلوم الحياة والمادة معاً بحسب وضعه الطبيعى ، الذى لايلقى اعتراضاً الآن إلا عند من لا يريد أن يحيا مع هذه الحقائق كما أزاح النقاب عنها كفاح العلماء ، بل يريد — عن وعى منه أو عن غير وعى — أن يغفلها أو أن يتغافل عنها .

وهو وضع لايمارى فيه إلا من قد يمارى أيضاً فى أخطر حقائق النفس أو الفيزياء أو الفلك أو البيولوجيا ، لأن حقائق الروح قد ثبتت بنفس الطريقة العلمية وعززتها مشاهدات يقينية لا تحصى . بحيث أن هذه العلوم مجتمعة أصبحت متساندة فى الإنباء عن حقيقة وجود الروح ، وعن الخلود ، وعن الصلة الوثيقة بين عالمى الروح والمادة . وهو بنيان منطقى ورياضى فى بعض جوانبه وحسى فى بعضها الآخر ، فلا يمكن أن يرفضه الآن إلا من تعود الهرب من قيمة الأسلوب العلمى فى الكشف عن حقائق هذا الكون التى لا يزال عقل الإنسان فى طفولته يحبو باحثاً عنها ، ولن تتكشف له إلا تدريجياً . وعن طريق الملاحظة الدقيقة والبحث الناقد المتحرر دون غيرهما.

وبعد ! ...

وذلك كله يحملنى على الاعتقاد بأن أية ريح للمعارضة ، مهما كانت قوتها ، وأياً كان مصدرها ، لاتضير الآن البحث فى الروح ، ولا تمس فى قليل ولا فى كثير شيئاً من أتفه الحقائق الخطيرة التى وصل إليها . أما الأمر

الذى يضير حتماً البحث فى الروح ، بل فى الواقع يضير تقدم الحياة ونمو المعرفة، فهو تجاهل هذه البحوث الخطيرة كلية ، فهذه هى الجريمة التى لا تغتفر إزاء المعرفة فى ذاتها ، كما هى جريمة إزاء كل إنسان من حقه أن يطمئن على مصيره المحتوم ، وأن يتعزى عن نكبات الدهر الخؤون وما أكثرها .

ولكن هذا الموقف السلبى ، لن يكون — فيما أقدر — موقف بلاد الشرق بوجه عام ، وبلاد العروبة العزيزة بوجه خاص ، لأن بلاد العروبة هى موطن الإيمان بالروح ، ومهبط رسالات السماء ، وليست روحانية الشرق الأصيلة بحاجة إلى كبير عناء كيما تشرق من جديد ساطعة مغدقة أسباب الحياة، كما كانت على مر العصور . فما كان الشرق يوماً داعياً للمادية، وما كان لمدارس الإلحاد فيه أى ملجأ ولا ملاذ . وإذا كان الغرب قد نفض عنه نهائياً نير هذه المدارس ، وأزاح سلطانها الهدام لكل فضيلة ولكل رجاء ، فإن للشرق يوماً آت وقريب تبزغ فيه شمس هذا العصر الروحى قوية نفاذة ، تضىء للعالمين طريق الاطمئنان واليقين .

ولو عقل الناس مبادىء هذه الروحية العلمية الحديثة ، لوجدوا أنها خير تقريب بين الشعوب ، وخير راية للسلام ، وأنه تحت لوائها يمكن أن تسير الإنسانية كأسرة واحدة متفاهمة فى السراء والضراء نحو هدف واحد سام رسمته لها سنة النشوء والارتقاء ، تغذيها مشاعر متبادلة للمحبة والإخاء بعد العداوة والبغضاء ... لقد تطورت عقلية الشعوب والأفراد ، وما كان يمكن للإنسان قبوله فى ماضيه السحيق رفضه منذ ماضيه القريب ، وما قبله فى ماضيه القريب هيهات أن يقبله الآن . وسيجىء له أحفاد ينكرون بشدة أنهم أحفاد إنسان هذا القرن الذى أعمل السيف فى رقبة أخيه الإنسان ذبحاً وتقتيلا فى حرب دامية بعد حرب بعد حرب ، وارتكب من الأوزار — وما يزال — ما يندى له جبين الأبالسة الكبار ! . . .

لقد قال نابليون « لقد اضطررت إلى غزو أوروبا بالسيف وسيغزوها

من يأتى بعدى بالروح ، فالروح دائماً أقوى من السيف » . . . نعم الروح أقوى من السيف ، لأن السيف أسلوب العنف لا الحجة ، وستار الضعف لا القوة . أما الروح فهى رسالة السماء إلى الأرض ، وتواضع الإيمان إلى غرور العدوان . وهى الرسالة التى يعرف الإنسان بها نفسه ، ويحدد بها مواقع قدميه ، فيتجنب الكثير من أسباب العثار التى طالما ضللت طريقه ، ولطخته بالآثام على مر القرون والأجيال ، بحثاً عن أمجاد مضللة ، أولها طمع وغرور وآخرها دماء وأوحال .

وغزو الروح — عندما يأزف وقته — معناه أنه قد آن لدولة الحب أن تغزو دولة الحرب ، ولبأس التواضع أن يسحق غرور التسلط . ولا تصدقن أبداً أن الحرب أقوى من الحب ، فالحرب موت ، والحب حياة ، وما كان للموت أن يكون أقوى من الحياة ، ولا لتسلط الغرور أن ينتصر على أنبل عاطفة وشعور ... ومن يعرف سبيل الروح يعرف سبيل الحب ، ويعرف بالتالى كيف يرى عيوبه الخاصة ، وكيف يحاول أن يصلح نفسه لا نفس غيره . ومن يحاول إصلاح نفسه هو البطل المغوار الذى لا تعرف قيم الروح بطلا غيره ، وهو رسول السلام بين نفسه وبين هذه القيم التى لا تفرط فى شىء إطلاقاً ، لأنها هى بذاتها قيم الحياة الحرة المتطورة نحو الكمال .

وهذه هى بذاتها رسالة الروح التى تغزو الآن العالم تدريجياً بعظمة وبمهابة لم يعرف نابليون نفسه منهما شيئاً ، لأنه ليس أكثر من أسطورة دامية من أساطير الحرب لا الحب . ومع هذا الغزو الروحى ستتراجع تدريجياً قوى التسلط مهما ظهرت براقة لصغار الأحلام ، كما يشرق من وراء الغمام الكثيف فجر سلام طويل للأنام .

وهذه الاعتبارات مجتمعة تحملنى على ألا أدع القلم إلا بعد التعبير عن بالغ أسفى لما يلقاه العلم الروحى الحديث من إهمال فى بلادنا ، إلى حد أنه لا يوجد لدينا حتى الآن أى معهد كيما يساهم فيه بجهد ما إلى جانب الجهود

السخية التى تبذل فى الخارج من جامعات عريقة ومعاهد شتى ، مع أن نتائجه دخلت بالفعل إلى نطاق الحقيقة العلمية التى تحف بها الخطورة من كل جوانبها .

فهل فقدت المعرفة بالروح قيمتها فى بلاد يعتبرها العالم أجمع أماً لحضارة الروح والمادة معاً ؟ ... قد يقول البعض إن المعرفة بالمادة أصبحت فى هذا العصر هى كل شىء فى نهضات الشعوب وبناء الحضارات .. ! إلا أن هذا وهم خاطىء وخطير ، لأن حقائق التاريخ تحدثنا أن تلازم المعرفتين أمر لازم لكل نهضة حقيقية ، ولكل حضارة إنسانية بقدر ضرورة تلازم الروح والجسد معاً للوجود على هذا المستوى من الوجود ، بل على كل مستوى له .

ولعل إيمانى بهذه الحقيقة الكبرى هو الأمر الهام الذى دفعنى لأن أحاول أن أشق طريقى إلى ميدان من حق القارىء العزيز أن يرانى غريباً فيه . فلولا إيمانى التام بأنى إنما اخترت بذلك معالجة موضوع على صرف لا يقل خطراً عن كل موضوعات القانون مجتمعة ، وهو فى نفس الوقت وثيق صلة بنهضة بلادنا وبرفعة شأنها فى العالمين ، لما وجدت القدرة ولا الشجاعة على تحمل عناء القيام ببحث شامل فيه مقدراً — منذ بداءته — مشقته ، متحملا — بسعادة بالغة — مسئوليته ، ويالهما من مشقة ومن مسئولية ! ...

ولم يكن لى من قوة محركة إلا الإحساس بهذا الشعور ومعه — أيضاً — الإحساس بحاجة القارىء الطبيعية إلى بعض المعرفة اليقينية عن قدره ومصيره ، وإلى بعض الاطمئنان إليهما ، وإلى بعض العزاء عن فراق أحبابه وذويه . . . وكل ذلك حق له مشروع وفائدة له عظمى . . . فهل كان من كرامة المعرفة التخلى عن تحمل هذه المشقة وتلك المسئولية ، مهما كان الدافع إليهما قوياً ؟ ... أم أن المعرفة أمانة فى العنق ينبغى أن تؤدى إلى من يطلبها مذ كان أداء الأمانة — فى كل قانون — حقاً مقضياً ؟ ! ...

الإنسان روح لا جسد

بحث في العلم الروحي الحديث

طبعة ثانية

فهرس

الجزء الثاني

الباب الثانى

الموضوع | صفحة

الموضـــوع	صفحة

الباب الرابع

بعض المشـكلات الفلسفية

الموضوع | صفحة

الموضـوع | صفحة

الباب الخامس

في الروح بين العلم والاعتقاد

باب ختامى

فهرس أبجدى للجزئين معاً

— ا —

الجزء الأول

— ث —

— م —

— ر —

الجزء الأول

الجزء الثاني

— ز —

الجزء الأول

الجزء الثاني

— س —

الجزء الأول

— ش —

— ص —

الجزء الثانى : صور

— ض —

الجزء الثانى

— ط —

الجزء الأول

الجزء الثانى

— ظ —

الجزء الأول

— ع —

الجزء الأول

— م —

الجزء الأول

الجزء الثانى

— ن —

الجزء الأول

الجزء الثانى

— هـ —

الجزء الأول

— و —

— ى —

تصويب الأخطاء المطبعية

رقم الصفحة	رقم السطر	خطأ	صواب
١٦٨	١٤	أنه قد	قد
٢٣٨	١٤	خطر	أخطر
٢٦٠	٧	التلخص	التخلص
٣٠٢	١	هل بهم	هل ترى بهم
٣٣٩	٩	لأنه	لأنك
٤٣٩	٧	المستوى	إلى المستوى
٥١١	١٥	النفس	علم النفس
٥٢٥	رقم الصفحة	٤٢٥	٥٢٥
٥٢٧	٣	من أن	بل إن
٥٥٤	٢٢	أبد	أبعد

للمؤلف

١ — «جرائم الاعتداء على الأشخاص والأموال فى القانون المصرى» . ظهرت طبعته الأولى فى سنة ١٩٥٣ والثانية فى سنة ١٩٥٥ والثالثة فى سنة ١٩٥٨ والرابعة فى سنة ١٩٦٠ والخامسة فى سنة ١٩٦٥ .

٢ — «جرائم التزييف والتزوير فى القانون المصرى» . ظهرت طبعته الأولى فى سنة ١٩٥٣ والثانية فى سنة ١٩٥٤ .

٣ — «مبادىء الإجراءات الجنائية فى القانون المصرى» . ظهرت طبعته الأولى فى سنة ١٩٥٤ والثانية فى سنة ١٩٥٦ والثالثة فى سنة ١٩٥٩ والرابعة فى سنة ١٩٦٢ والخامسة فى سنة ١٩٦٤ والسادسة فى سنة ١٩٦٦ .

٤ — «ضوابط تسبيب الأحكام الجنائية فى قضاء النقض المصرى» . ظهر فى سنة ١٩٥٦ .

٥ — «السببية فى القانون الجنائى» : دراسة تحليلية مقارنة . ظهرت طبعته الأولى فى سنة ١٩٥٩ والثانية فى سنة ١٩٦٦ .

٦ — «شرح قانون العقوبات التكميلى» : فى جرائم المخدرات . الأسلحة والذخائر . التشرد . الاشتباه . التدليس والغش . تهريب النقد . ظهرت طبعته الأولى فى سنة ١٩٦١ والثانية فى سنة ١٩٦٥ والثالثة فى سنة ١٩٦٦ .

٧ — «مبادىء القسم العام من التشريع العقابى المصرى» . ظهرت طبعته الأولى فى سنة ١٩٦٢ والثانية فى سنة ١٩٦٤ والثالثة فى سنة ١٩٦٥ / ١٩٦٦ .

٨ — «المشكلات العملية الهامة فى الإجراءات الجنائية» . فى جزئين ظهر فى سنة ١٩٦٣ .

٩ — «الإنسان روح لا جسد» . ظهرت طبعته الأولى فى سنة ١٩٦٤ والثانية فى جزئين فى سنة ١٩٦٦ .

ثمن النسخة من الجزئين

ــــــص

٢٢٠